تفسير الباليساني
المعروف
في حسن البيان
تأليف
المرحوم العلامة الشيخ محمد ابن الشيخ
طه الباليساني (رحمة الله عليه)
١٣٣٧هـ/١٩١٨م - ١٤١٥هـ/١٩٩٥م
الطبعة الأولى
١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م
دار إحياء التراث العربي

حسن البيان في تفسير القرآن

تأليف

المرحوم العلامة الشيخ محمد بن الشيخ طه الباليساني
(رحمة الله عليه)

المجلد الثاني

(هذا التفسير)

قام بجمعه وإدخاله الحاسوب على حسابه الخاص والإشراف عليه
والتصحيح الأولي الأستاذ المساعد الدكتور حسين الباليساني

وقام بالمراجعة والتصحيح النهائي وبعض الأحاديث وبعض التعليقات في
الهامش الأستاذ الدكتور أحمد الباليساني، وكلاهما نجلا الشيخ المفسر.
نسأل الله لهما العفو والعافية والأجر والثواب.

دار إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان
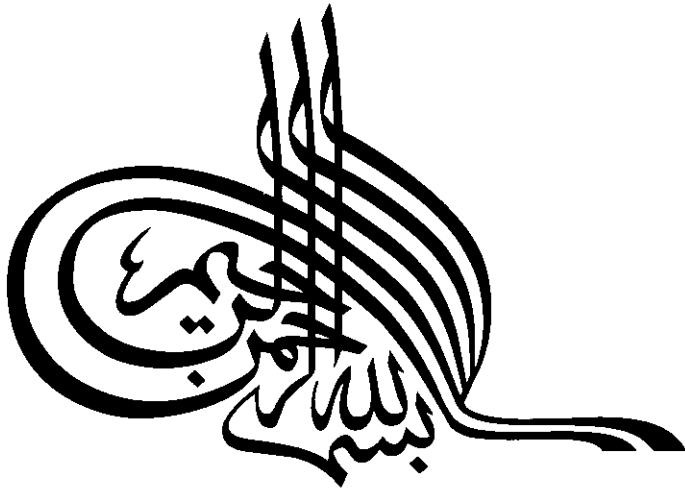
سورة النّساء

مدنيّة، نزلت بعد الممتحنة، سمّيت (سورة النّساء)، حيث ورد فيها كثير من الأحكام الّتي تخصّ النّساء، وهي مائة وستّ وسبعون آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾

(**يا أيّها النّاس أتقوا ربّكم الّذي خلقكم**) خاطب الله تعالى النّاس جميعاً؛ لأنّ الأمر بالتّقوى يعمّ الجميع. فالكافر يؤمر بالتّقوى عن الكفر والإشراك والإلحاد، والمؤمن يؤمر بالتّقوى عن المعاصي والفجور، وصدّرت السّورة بالأمر بالتقوى لأنّ فيها أحكاماً كثيرة تأمر بالتّقوى والتّجنّب عن مخالفة تلك الأحكام وعدم تطبيقها وقال: (**ربّكم الّذي خلقكم**) ولم يقل إتّقوا الله؛ للإستدلال على وجوب طاعته وتقواه، فكأنّه يقول: كيف لا تطيعونه ولا تتّقونه وهو ربّكم الّذي ربّاكم وأنتم تراب، ثمّ ربّاكم وأنتم في النّبات، ثمّ وأنتم في الغذاء، ثمّ رباكم وأنتم نطفة، ثمّ ربّاكم في بطون أمهاتكم، ثمّ يربّيكم إلى الموت، وكيف لا تتّقونه؟ وهو الذي (**خلقكم**) أوجدكم (**من نفس واحدة**) وهو آدم، ثمّ بيّن تعالى كيفيّة خلق النّاس من آدم وحده، فقال تعالى: (**وخلق منها**) أي خلق تلك النّفس الواحدة وهي آدم أولاً (**وخلق منها**) أي من نفس آدم (**زوجها**) وهي حواء فإنّها خلقت من ضلع أعوج من أضلاع آدم (على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام) أو يقال: خلق منها أي من جنس زوجها من التّراب أيضاً (**وبثّ**) أي نشر (**منهما**) من آدم وحوّاء

وذريّتهما بسبب التّزاوج **(رجالاً كثيراً ونساءً)** كثيرات ليتزاوجوا ويتناسلوا؛ فيعمّروا هذه الأرض، ويؤدّوا فيها خلافة الله تعالى فيها **(واتّقوا الله الّذي)** أعيد هذا الأمر لأمرين: **الأول**: ليفيد أنّ تقوى الله تعالى وإطاعته كما وجب لربوبيّته وخلقه لكم فيجب لألوهيّته أيضاً.

الثّاني: إنّ بعض الأحكام الّتي تذكر في السّورة تتعلق بما بين العبد وبين الله تعالى فالمعنى: (إتّقوا الله) فيما يجب عليكم تجاهه، من عبادته وحده وعدم الإشراك به، وغير ذلك من أحكام تتعلّق بالعبد مع الله جل وعلا (الّذي تساءلون به) أي يسأل بعضكم بعضاً بحقه أو بعظمته فيقول: بالله أو بحقّه أو بعظمته أفعل كذا مثلاً، وفي هذا إشارة إلى وجوب إطاعته فكأنّه تعالى يقول: فما دمتم تتساءلون به فأطيعوه ولا تعصوه، فإنّه من الحماقة التّساؤل به وعصيانه في أمره والتّقصير في طاعته.وقرىء **(تسّاءلون به)** بتشديد السّين أصله تتساءلون، قلبت التّاء سيناً، فأدغم فيه كما هي حسب القاعدة الصّرفية **(والأرحام)** أي واتّقوا الأرحام فيما بينكم فلا تقطعوها، ذكر الله تعالى ذلك لأنّ كثيراً من أحكام هذه السّورة تتعلق بأهل القرابة، أي فلا تقطعوا الأرحام بعدم تطبيق هذه الأحكام الّتي تتعلق بذوي القرابات والأرحام. ثمّ بعدما أمر الله تعالى بالتّقوى في الأحكام الّتي تتعلّق بالله وبالقرابة، أتى بالوعد والوعيد فقال: **(إنّ الله كان عليكم رقيباً)** فيراقبكم على أعمالكم وسلوككم وإطاعتكم لأحكامه وأوامره، ولا يخفى عليه شيء من ذلك، فيثيب من اتبع أحكامه ونفذ أوامره ثواباً جزيلاً، ويعاقب من خالف عقاباً وبيلاً، والله على كلّ شيء قدير. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر الأحكام الّتي تتعلق بذوي القرابات والأرحام، وقدّمها إشارة إلى أنّ حقوق العباد أهمّ من حقوق الله تعالى لأمرين: **الأول**: أنّ حقوق العباد فيها حقّ الله تعالى أيضاً.

الثّاني: أنّ حقوق الله تعالى تغفر بالتّوبة فقط. ولكنّ حقوق العباد لا تغفر إلّا بأدائها أو مسامحة ذي الحقّ منها بعد التّوبة، وقدم حقوق الأيتام لأهمّيّتها لأنّهم لضعفهم أحقّ برعايتهم ورعاية حقوقهم، فقال جلّ وعلا:

﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾

(وآتوا اليتامى) جمع يتيم، وهو الولد الّذي مات أبوه ذكراً كان أو أنثى، فيسمّى

يتيماً إلى أن يبلغ، فإذا بلغ زال عنه إسم اليتيم، فالمعنى: أَعطوا أيّها الأولياء والأوصياء اليتامى بعد بلوغهم، أو أعطوا الّذين كانوا يتامى من قبل **(أموالهم)** كلّها، ولا تنقصوا منها شيئاً، وفسّر كذلك لأنّ الولد في حال اليتم والصّغر لا يسلّم إليه الأموال **(ولا تتبدّلوا)** أي ولا تعطوهم **(الخبيث)** أي الرّديء من مالكم **(بـ)** بدل **(الطّيب)** أي الجيّد من مالهم، حيث كان الأوصياء يأخذون الجيّد من مالهم، ويضعون مكانه الرّديء، فنهوا عن ذلك **(ولا تأكلوا أموالهم)** أي ولا تصرفوا أموالهم بالأكل أو غيره **(إلى)** أي مع **(أموالكم)** وذكر الأكل لأنّه الشائع في التّصرفات[1] (إنّه) أي إنّ أكل أموالهم **(كان)** عند الله تعالى **(حوباً كبيراً)** ذنباً كبيراً ولا يزال كذلك.

وقيل في معنى الآية: ورّثوا اليتامى لأنّهم كانوا لا يورّثونهم، بل كبيرهم يأخذ كلّ المال، وقيل معناها: ارزقوهم واكسوهم من مالهم، والمعنيان ضعيفان، لأنّ هذين الحكمين يأتيان فيكون تكراراً، واليتيم من فقد أباه من الصّغار، سمّي يتيماً لأنّ اليتيم جاء بمعنى الهمّ والضّعف والإنفراد، فاليتيم مهموم وضعيف ومنفرد عن الوالد، يقال درّة يتيمة أي منفردة لا نظير لها، ومن فقد أمّه يسمّى لطيماً؛ لأنّه يلطم من قبل زوجة أبيه ومن فقدهما يسمى عجيماً نسبة إلى عَجَم وهو النواة شبّه بها لحرمانه عمن يأويه ويحويه كالنواة. ثمّ إنّ الظّلم يكون من القوّي للضّعيف فقط؛ فلا ظالم إلّا بالقوّة، ولا مظلوم إلّا من الضّعف، واليتيم والمرأة ضعيفان ومعرّضان للظّلم لضعفهما، هذا وإن الظّلم من اليتيم يأتي من شهوة المال، ومن المرأة من شهوة الجنس، وإنّ شهوة الجنس أقوى بكثير من شهوة المال، فلذا قال جلّ وعلا:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾﴾

(وإنّ خفتم إلا تقسطوا) أي لا تعدلوا **(في اليتامى)** لغلبة شهوة المال عليكم فلا تستطيعون العدل بين النّساء بالأولى لأنّ شهوة الجنس أقوى من شهوة المال، فإذا كان الأمر كذلك فلا تنكحوا نساءً كثيراتٍ كما هي العادة، حيث كان يتزوّج الرّجل ما شاء

(١) ولأن الأكل أخذ للمال، وكل أخذ لمال الغير بغير حق سمّي أكلا عرفا، يقال فلان أكل مالي إذا أخذها بغير حق، فهو مجاز عرفي.

من النّساء بدون تحديد، فاتركوا هذه العادة واقتصدوا **(فانكحوا ما طاب)** ما حل **(لكم من النّساء)**، وسيأتي بيان ما يحلّ وما يحرم من النّساء فانكحوهن **(مثنى)** إثنتين **(وثلاثا)** ثلاثاً **(ورباع)** أربعاً ولا تزيدوا على الأربع من النّساء، وأباح الله تعالى أربعاً بشرط العدل بينهنّ في القسم والإنفاق، وإلّا فلا، كما قال جل وعلا: **(فإن خفتم)** عند التّعدد من **(ألّا تعدلوا)** بينهن **(فواحدة)** فانكحوا واحدة فقط **(أو ما ملكت أيمانكم)** إيّاها وهنّ الجواري. وفي هذه الفقرة تفسيران كما ذكر السّمرقندى (رحمه الله):

الأوّل: قالوا تقديرها وإن خفتم أن لا تعدلوا بين النّساء فانكحوا واحدةً فقط، أو إذا ما إكتفيتم بواحدة، فاتّخذوا ما ملكت أيمانكم وهنّ الجواري، وقالوا: لأنّ الحرّة الواحدة لا تحتاج إلى القسم، وإنّ الإماء لا قسمة لهنّ.

الثاني: قالوا وإن خفتم أن لا تعدلوا في الواحدة فلا تنكحوها بل فاتّخذوا ما ملكت أيمانكم بالملك أو بالنّكاح لأنّ كلفة الجواري أقل ومؤنتهن أخف من الحرائر.

وعندي: إنّ التّفسير الأوّل ليس بسديد؛ لأنّه عند ضمّ الجارية إلى الحرّة سواء كان بنكاح عند من يجوّز نكاح الأمة على الحرّة أو شراءٍ، يبقى خوف عدم العدل لأنّه لا نسلّم أنّ الإماء لا قسمة لهنّ وقد قال الرّسول (ﷺ) (إخوانكم خولكم أطعموهم ممّا تطعمون، واكسوهم مما تكسون، ولا تكلّفوهم فوق مايطيقون، فإنّ كلّفتموهم فأعينوهم)[١].

فيفهم من هذا الحديث: أنّ الجواري يجب مراعاتهن كالحرائر في الكسوة والأكل والقَسْم أيضاً سيّما إذا كنّ منكوحات، ولو فرضنا أنّه لا قَسْم لهنّ فربّما يميل الرّجل عن الحرّة إلى المملوكة ويترك الحرّة أو يباشر غيرها أكثر منها، لجمالها أو لذكائها أو لدلالها أو لما تهوى إليه النّفس. وقول أحد العلماء أنّ الحرّة لا تغار من الجارية مردود، لأنّ عائشة وصفيّة (رضي الله عنهما) زوجي الرّسول (ﷺ) غارتا من ماريّة وهي جارية الرّسول (ﷺ)، وسارة زوجة إبراهيم (عليه السلام) غارت من هاجر، فالغيرة في المرأة غريزة تتهيّج عند الميل إلى غيرها من كانت وكيف كانت. فالقول الثاني أصلح ويكون

---

(١) لفظ البخاري ومسلم: (إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن أخوه تحت يده فليطعمه مما ياكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم مال يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم)./ صحيح البخاري ١/ ٢٠ الحديث رقم ٣٠، صحيح مسلم ٣/ ١٢٨٣ الحديث رقم ١٦٦١.

المعنى: وإن خفتم عدم القيام بحقوق الواحدة الحرّة أيضاً فاتّخذوا ما ملكت أيمانكم نكاحاً أو شراءً، هذا وإنّ نكاح الأمة وحدها أو على الحرة يأتي الكلام فيه إن شاء الله تعالى عند تفسير الآية (٢٤) من هذه السّورة.

وهنا ترد أسئلة نذكرها: السؤال الأول: لماذا قال تعالى: ﴿وإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة﴾؟ فنزل من الأربع إلى الواحدة فوراً ولم ينزل بالتّدريج بأن يقول فثلاثاً أو أثنتين أو واحدة؟ **الجواب:** عن هذا السؤال بوجهين:

الأول: أنّ معنى الآية: وإن خفتم أن لا تعدلوا فاقتصدوا في العدد؛ فانكحوا الأقل ثمّ الأقل إلى أن تصير واحدة.

الثاني: إنّ من لم يستطع العدل بين الأربع، لا يستطيع العدل في التعدد مطلقاً، فإنّه حينما صار عند المرء طبيعة الجور فلا فرق بين الأربع والأقل منها، ولذا إقتصر على واحدة.

السّؤال الثاني: ما هي الحكمة في جواز تعدّد النّساء؟ ولماذا لم يقتصر الحكم على جواز الواحدة فقط ؟**الجواب:** إنّ الإسلام لم يبح التّعدد إلّا بشروط فرضها على من يريد التّعدد، فمن لم يوجد فيه هذه الشّروط، فالتّعدّد حرام عليه وإن صح النّكاح. ومن وجدت فيه الشّروط أجاز الإسلام له التّعدّد لأمور كثيرة. فقبل ما نذكر هذه الأمور نذكر الشروط لجواز التّعدّد وهي: **الشّرط الأوّل:** أن يكون الرّجل ذا سعة من المال يستطيع بها تأمين النّفقة والرّاحة لمن يتزوجها، وأمّا من لا يجد ذلك فلا يجوز له التّزوج بواحدة فضلاً، عن مازاد عليها بدليل ما يلي:

١- قال تعالى: بعد ما ذكر من يحرم نكاحها من النّساء ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ سورة النّساء الآية/ ٢٤. فجعل الله تعالى وجود المال والسّعة كشرط لنكاح واحدة، فكيف بمن يريد الزّيادة عليها!.

٢ ـ قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ سورة النساء الآية/ ٢٥. (ومن لم يستطع منكم طولاً) أي لم يجد (طولاً) أي مالاً وسعةً (أن ينكح) لأن ينكح (المحصنات) أي الحرائر المؤمنات (فمن ما ملكت أيمانكم) أي فليترك الحرائر وليتزوج الجواري لأنّهن أخف مؤنة وأقلّ كلفة.

٣ ـ قال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي ما يقتضيه النّكاح من

الصّداق والإنفاق، وليتركوا النّكاح ﴿حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ سورة النور الآية/ ٣٣ ـ فيتضّح من هذه الآيات كلّها، أنّ وجود المال شرط لجواز الإقدام على نكاح الواحدة، فلما زاد على الواحدة يكون شرطاً بالطّريق الأولى، ويؤكد ذلك ما في البخاري عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قلت: يارسول الله إنّي رجل شابّ أخاف على نفسي العنت، ولا أجد ما أتزوج به النّساء، فسكت عني، ثمّ قلت ذلك فقال النّبي (ﷺ): (يا أبا هريرة جفّ القلم بما أنت لاق فاختص على ذلك أو ذر)[1] فلم يجوّز له الزّواج وهو لا يجد المؤنة والمال.

الشّرط الثّاني: أن يجد الرّجل الإستطاعة الجنسيّة، فمن ليس عنده ما يسكّن به غريزة المرأة، لا يجوز له التّزوج بواحدة فكيف بما زاد عليها!، فإنّ الرّسول (ﷺ) قال: (يا معشر الشّباب من استطاع منكم الباءة فليتزوّج) أي من استطاع الجماع وله القدرة الجنسّية فليتزوج (فإنّه أغضّ للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع) أي الزّواج (فعليه بالصّوم فإنّه له وجاء). ذكر الحديث البخاري[2] وشرحه كما قلت فيفيد الحديث أنّ النّكاح مربوط ومشروط بوجود الباءة والمقدرة الجنسيّة وهذا في نكاح الواحدة فيكون في التّعدّد أولى.

الشّرط الثّالث: أن يكون النّكاح برضا من المرأة وإختيارها بدون ضغط وجبر وإكراه من الأولياء أو غيرهم، فإذا رضيت المرأة بزواجها من رجل له زوجة أو زوجات غيرها فلا ملامة هناك، وإن لم ترض فلا يصحّ نكاحها ولو من رجل أعزب جميل لا زوجة عنده، فإنّ رضاء المرأة في الزّواج شرط صحّتها إذا كانت ثيباً إتفاقاً، وإذا كانت بكراً فكذلك إلّا أن تكون هناك مصلحة كبيرة واضحة ومنفعة كبيرة لها ويختارها الولّي العدل الّذي لا يريد إلّا مصلحة البنت من هذا الزواج كتزويج أبي بكر (رضي الله عنه) بنته

---

(١) صحيح البخاري ٥/ ١٩٥٣ الحديث رقم ٤٧٨٨. ولعلّ هذا خاص بحال أبي هريرة أو وقته الّذي ربّما لم يتوفّر فيه المال لإعانته من قبل النبي أو لعلّة أخرى، وإلا فإنه معارض لما ورد في البخاري وغيره من قوله: (من ترك كلا فإلينا وعلينا)، إذ يجب على دولة الإسلام وفق قواعده الإقتصادية أن يعين من لا يجد المال للزّواج بالمال من بيت المال لأنّه من ضمن صنف الفقراء الّذين يجب تصرف لهم الزكاة، ومن المعروف أنّه قد زوّج النبيّ رجلا بما معه من القرآن فكيف عصى عليه هذا الأمر ولم يعالجه؟ مسألة تحتاج إلى مراجعة...!

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٦٧٣ الحديث رقم ١٨٠٦.

عائشة (رضي الله عنها) من الرّسول وهي صغيرة، فلا إجبار للولّي إلّا في حالات خاصّة يكون فيها غبطة ومنفعة كبيرة للبنت. ومع ذلك إختلف النّاس في جواز الإجبار ومن أجازه إشترط فيه شروطاً نادرة الوجود.وعندما إجتمعت تلك الشّروط الثّلاثة المجوّزة للتعدّد يباح التّعدّد لأمور ومصالح إجتماعية وفردية، فالمصالح الإجتماعية منها: **الأمر الأوّل**: إنّ النّكاح لم يشرع لقضاء الشّهوة وإستجابة داعي الغريزة، بل إنّ ذلك وسيلة إلى الحكمة المقصودة من الزّواج، وهي التّناسل وتكثير أفراد الإنسان ليقوموا بتعمير الأرض وإظهار ما يدلّ على قدرة الله تعالى وعلمه، وليؤدّوا بذلك خلافة الله تعالى في الأرض، ولا شكّ أنّ تكثير النّسل والأفراد بالتّعدّد يكون أزيد وأوفر، وهناك آيات وأحاديث تدلّ على أنّ الحكمة من الزّواج هو ما ذكرنا.

١ ـ قال تعالى: في أوّل هذه السّورة: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ الآية (١). فتفيد الآية أنّ الحكمة من خلق الزوج لآدم هي إكثار النّسل وإيجاد رجال كثيرين ونساء كثيرات منهما.

٢ ـ قال تعالى: ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ سورة البقرة الآية/ ١٨٧، أي ليكن قصدكم من المباشرة أن يرزقكم الله تعالى ما كتب لكم من الذّرية والنّسل والأولاد لا إستجابة داعي الشّهوة فقط كالبهائم.

٣ ـ قال تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ سورة البقرة الآية/ ٢٢٣ ـ أي من ذكر الله تعالى ونية الذّرية والولد الصّالح.

فالآيات من مثل هذه كثيرة وفي هذا القدر كفاية.

وقال الرّسول (ﷺ): (تزوجّوا الودود الولود فإنّي مكاثر بكم الأنبياء يوم القيامة)[١] ذكر الحديث الشوكاني عن أنس. وذكر عن معقل بن يسار قال: جاء رجل إلى النّبيّ (ﷺ) فقال: إنّي أحببت امرأة ذات حسب وجمال، وإنّها لا تلد أفاتزّوجها؟ قال (ﷺ): لا. ثمّ أتاه الثّانية فنهاه، ثمّ أتاه الثّالثة فقال(ﷺ): تزوّجوا الودود الولود فإنّي مكاثر بكم)[٢] إلى غير ذلك. مما يفيد أنّ الغاية من الزّواج يجب أن يكون التّناسل والأيلاد، وفي هذا القدر كفاية.

---

(١) مسند الإمام أحمد ٣/ ١٥٨ الحديث رقم ١٢٦٣٤. سنن البيهقي ٧/ ٨١ الحديث رقم ١٣٢٥٤.

(٢) المستدرك على الصحيحين ٢/ ١٧٦ الحديث رقم ٢٦٨٥.

الأمر الثّاني: إيواء وإعفاف النّساء اللّواتى حرّمن من الزّواج، فإنّ الإحصائيات أثبتت أنّ عدد النّساء دائماً يكون أكثر من الرّجال سيما إذا أصيبت الأمّة بالحرب والقتال، فلو لم يشرع التّعدّد لخلت نساء كثيرات من الأزواج، فلربما تُلجؤهن الغريزة والجنس أو الفقر إلى إقتراف العمل المحرّم؛ وبذلك ينتشر الفساد بين النّاس، ويكثر اللّقطاء، وقد أصيبت بذلك الأمم الّتي تحرّم التّعدّد في الزّواج.

ألأمر الثّالث: أنّ كثيرا من الرّجال تكثر عنده المقدرة الجنسيّة فلا يكتفي بامرأة واحدة، فلو لم يكن التّعدّد مباحاً فلربما ألجأته الغريزة إلى إشباعها بالطّرق الدّنيئة، وبذلك أيضاً ينتشر الفساد والفحش بين النّاس[١]، ولهذه الأسباب نفسها حرّم على المرأة أن تتزوّج برجلين فأكثر معاً، لأنّ ذلك يؤدّي إلى قلة التّناسل وضياع النّسب وهدم الأسر وضياع النّساء الأخريات وحرمانها من الزّواج.

وأمّا المصالح الفرديّة فكثيرة نذكر بعضاً منها إن شاء الله تعالى في ما يلي:

المصلحة الأولى: إنّ المرأة قد تكون عاقراً وعقيماً لا تلد والرّجل يحبّ الإنجاب والإيلاد، فلمصلحة بقاء نسله أجيز له التزوج بأخرى؛ لعلها أن تلد له مع إشتراط العدالة بينها وبين السّابقة[٢].

المصلحة الثّانية: رجل له زوجة وله منها أولاد إلّا أنّها بلغت حداً لا تلد بعد ذلك، والرّجل له الإستطاعة الماليّة والجنسّية، ويرغب في زيادة النّسل والأولاد، فأجيز له التّزوج بأخرى لتلك المصلحة، وبشرط العدل والإنصاف بينهما.

المصلحة الثّالثة: رجل ذو شرف ومنزلة ومن أهل الضيافة والإطعام، وإن إمرأة واحدة لا تسطيع القيام بتكاليف البيت وأمور الإطعام فأجيز له بشرط العدل التّزوج بأخرى لهذه المصلحة والحاجة إليها.

---

(١) معظم كتاب المسلمين يجعلون هذا الأمر آحد العلل، وليس هذا مناسبا أو مقنعا لانّ للمعترض أن يقول فإذا كان الأمر معكوسا وهو أن تكون المرأة شبِقة لا يكفيها رجل واحد فما العمل لمنع انحرافها...؟ بل الأمر أن الله تعالى هو الحاكم وحِكَمُ الله تعالى من الأحكام مخفية إذا لم يبينها فلا يمكن معرفتها، فمن آمن بالله تعالى، عليه أن يؤمن بحاكمّيته فيذعن لمثل هذه الأحكام وإن لم توافق عقله، وإلّا يجب أن نعود معه إلى تصحيح إيمانه ليس إلّا، لأنّ تعالى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون...

(٢) ربما يكون العكس أي أن يكون الرجل عقيما لا يولد له أولاد فعند ذلك للمرأة حق الخلع لدى القضاء إن أرادت وإن صبرت تكون مأجورة.

المصلحة الرّابعة: رجل شابّ وبقى عنده قوّة الغريزة؛ إلّا أنّ أمرأته لا ترغب في الجنس لشيبها أو جبلتها أو لمرض بها، فلا تُشبع زوجها، فلو لم يتزّوج الرّجل أخرى خاف على نفسه الوقوع في الحرام، فأجيز له التّعدّد بشرط العدل صوناً له من أن يقع في الإثم والأوزار.

المصلحة الخامسة: إمرأة بقيت دون زواج وهي محتاجة إلى الإعفاف والإيواء حيث لا تجد من يعيلها وينفق عليها، فندب لمن يستطيع القيام بأمرها أن يتزوّجها ويكون له بذلك الأجر والثّواب. وهناك مبررات أخرى للتّعدد اكتفينا بهذا القدر لأنّ فيه كفاية.

هذا وإن المضار الّتي تنشأ من تعدّد الأزواج كنشوب العداء بين الضّرة وضرّتها وبين أولادهما ليست ناشئة من التّعدّد، بل هي ناشئة من عدم العدل، وإلّا فلو أقيم العدل بين الضّرات وأولادها فلا تنشأ كلّ نفرة وخصام، والعدل شرط في جواز التّعدّد كما عرفت من قوله تعالى: ﴿وإن خفتم ألّا تعدلوا فواحدة﴾ هذا وإنّ حكمة زيادة الرّسول من الأزواج على ما حددته الآية الكريمة، سنذكرها إن شاء الله تعالى في سورة الأحزاب.

السّؤال الثّالث: بعد ما أبيح التّعدّد فلماذا اقتصر على الأربع لا على الأكثر أو الأقل منها؟ **الجواب**: قد علمت أنّ التّعدّد أبيح لمصالح إجتماعيّة أو فرديّة، إلّا أنّه روعي فيه جانب المرأة فحدّد بما لا تضيق المرأة به، وقد علم بالتّجربة أنّ المرأة تضيق بالبعد عن الزّوج أكثر من أربع ليال. فحدّد التّعدّد كذا، ليكون لكلّ زوجة ليلة من أربع ليال لئلّا يزداد مدة الفراق عن ثلاث. والله تعالى أعلم. ومن هنا نعود إلى تفسير الآية فنقول: ثمّ علّل الله تعالى الإقتصار على الواحدة أو الجارية فقال جلا وعلا: **(ذلك)** أي أن الإقتصار على ما ذكر **(أدنى)** أي أقرب من **(ألّا تعولوا)** أي لا تعدلوا بين النّساء ولا تظلموا، وقيل في معنى (ألّا تعولوا): أي أن لا تكثر أولادكم وعيالكم، وردّه ابن كثير فقال: وفي هذا التّفسير نظر، فإنّه كما يخشى كثرة العيال من تعداد النّساء، كذلك يخشى من تعداد الجواري أيضاً، فالصّحيح القول الأوّل، وهو قول الجمهور. **وأقول**: إنّ كثرة العيال محبوب في الشّرع فلا يدعو القرآن الكريم إلى خلافها.

ثمّ لمّا حذر الله تعالى من ظلم النّساء من حيث القسم والنّفقة حذّر من ظلمهن في المال فقال جلّ وعلا:

﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴿٤﴾﴾

(وآتوا النّساء صدقاتهنّ) جمع صدقة بمعنى الصّداق وهو المهر سمّي صداقاً أو صدقة لأنّه علامة صدق الرّغبة في المرأة، فالمعنى اعطوا **(النّساء صدقاتهن)** مهورهن كلّها بدون أن تنقصوا منهن شيئاً **(نحلة)** أي أعطوهن عن طيب نفس وبدون مطالبة منهنّ ويقال: **(نحلة)** أي فريضة فرضت عليكم **(فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً)** في الكلام تقديم وتأخير، فالتّقدير: فإن طبن نفساً عن شيء منه لكم، ونفساً تمييز محوّل عن فاعل طاب في طبن، فالمعنى: فإن طابت أنفسهنّ بالتّنازل **(عن شيء منه)** أي من الصّداق المفهوم من صدقاتهن **(لكم فكلوه)** ذلك المتنازل عنه **(هنيئاً)** لا إثم فيه **(مريئاً)** لا داء فيه، وروى عن عليّ إبن أبي طالب (كرم الله وجهه) أنّه قال: (إذا اشتكى أحدكم شيئاً فليسأل إمرأته درهماً من صداقها ثمّ ليشتر به عسلاً فليشربه بماء السّماء، فيجمع الله تعالى له الهنيء والمريء والماء المبارك فيضيب بإذن الله تعالى)[1]. ثمّ بعد أن أمر الله تعالى تسليم أموال اليتامى إليهم بعد البلوغ ومهور النّساء إليهنّ أراد أن يبيّن أنّه إنّما يسلم المال إلى الرّاشدين منهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٥﴾﴾

(ولا تؤتوا) أي ولا تعطوا ولا تسلّموا **(السّفهاء أموالكم)** والسّفهاء جمع سفيه، والسّفيه ضدّ الرّشد، فيكون بمعنى القلّة في العقل وخفّة الإدراك لتدابير الأمور، وهم الّذين لا يعرفون مصلحة دينهم أو دنياهم، ومنهم المبذّرون والصّغار من الذّكور والإناث، والّذي بلغ غير راشد فلا تسلّموهم **(أموالكم)** أي أموالهم وإنّما أضيف إلى (كم) إشارة إلى أنّ المال هو ملك المجتمع إلّا أنّ صاحبه أولى به؛ فيصرفه لنفسه بقدر حاجته، والزّائد هو للمجتمع إذا إحتاج إليه، أو لأنّ يسار الأفراد يسار المجتمع وفقرهم فقر الجميع **(الّتي)** بيان لفضيلة المال بأنّه **(جعل الله)** المال **(قياماً)** سبب بقاء ووجود

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ٥/٥٩ الحديث رقم ٢٣٦٨٧. شرح سنن ابن ماجة للسيوطي ذكره في شرحه لحديث (عليكم بالشفاءين العسل والقرآن) ١/٢٤٦ الحديث رقم ٣٤٥٢.

(لكم) أي للمجتمع، فإنّ المال سبب لرقيّ الأمم وعزّتها وسيادتها وسعادتها بين الأمم؛ فلا تتحرّر أمّة إلّا بوفرة إقتصادها وصناعاتها وتحرّرها من إستغلال الغير إقتصادياً، والفقر والحاجة سبب الذّل وإستيلاء الغير، ولذا قال الرّسول (ﷺ): (كاد الفقر أن يكون كفراً...)(١)، وقال الشّاعر:

لقد طفت في شرق البلاد وغربها وجرّبت كلّ النّاس في العسر واليسر

فلم أر بعد الإيمان خيراً من الغنى ولم أر بعد الكفر شرّاً من الفقر

فلا تسلّموا السّفهاء أموالهم، بل أنتم تصرّفوا فيها بالتّنمية والإستثمار **(وارزقوهم فيها)** من تلك الأموال **(واكسوهم)** منها، والمراد سدّ حوائجهم والإنفاق عليهم قدر ما يحتاجون **(وقولوا لهم)** إن أرادوا أموالهم وطلبوا تسليمها إليهم **(قولاً معروفاً)** جميلاً، بأن تقولوا نحن ننمّيها لكم ونستثمرها أحسن منكم، والخطاب للأولياء أو المجتمع؛ فيعود صيانة أموالهم إلى الدّولة، فتحفظها وتنمّيها وتسلّمهم قدر حاجاتهم، كما هي الحال الآن، فإنّ مديرية أموال القاصرين تقوم بذلك. ثمّ أمر الله تعالى أنْ لا يسلّم إلى اليتامى أموالهم بعد بلوغهم حتّى يتبيّن رشدهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾

(وابتلوا اليتامى) قبل البلوغ شيئاً فشيئاً وبالتّدريج، بأن تشغلوهم في بعض المعاملات والأمور **(حتّى إذا بلغوا النّكاح)** أي المقدرة على النّكاح وهو الإحتلام **(فإن آنستم)** أبصرتم وعلمتم **(منهم رشداً)** صلاحاً في الدّين وتنمية الأموال والتّصرف فيها **(فادفعوا)** بعد العلم برشدهم **(أموالهم)** كلّها ولا تنقصوا منها شيئاً **(ولا تأكلوها)** أي أموالهم **(إسرافاً)** أي بدون عوض وبدون مقابل **(وبداراً)** وإستعجالا في أكلها مخافة **(أن يكبروا)** فيستلموها **(ومن كان غنياً)** من الأولياء أو الأوصياء فليستعفف فلا يأكل من أموالهم شيئاً **(ومن كان فقيراً فليأكل)** منها مقابل قيامه بإصلاحها وإستثمارها

(١) وتكملته (وكاد الحسد أن يغلب لقدر)/ مسند الشهاب ١/ ٣٤٢ الحديث رقم ٥٨٦. شعب الإيمان للبيهقي ٥/ ٢٦٧ الحديث رقم ٦٦١٢.

(بالمعروف) بحسب العرف وحسبما يأخذ النّاس مقابل العمل الّذي يقوم به في تنمية الأموال **(فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهِدوا عليهم)** أي على تسليم المال إليهم أناساً عدولاً مخافة أن ينكروا تسليمها أو تسليم بعض منها، وهذا بالنّسبة لأحكام الدّنيا وبالنّسبة للآخرة قال: **(وكفى بالله)** أي كفى الله **(حسيباً)** عليكم إن كنتم خنتم أو لا، فيجازيكم على الأمانة أجركم وثوابكم وعلى الخيانة عذابكم وعقابكم.وهنا مسائل نذكرها إن شاء الله تعالى:

المسألة الأولى: إبتلاء اليتامى يكون حسب أموالهم، فإن كان من أهل البيع والشراء يختبر بنفقته على أهله وتصرفه في أموال داره، فالحاصل إذا أدرك حسن تدبير اليتيم وتصرفه في الأمور، وغلب على الظّن رشده، دفع إليه ماله وإلّا ففيه أقوال تأتي.

المسألة الثانية: إنّ تصرفات الصّبي المميّز بإذن الولي صحيحة عند أبي حنيفة ﷺ، وعند الشّافعي غير صحيحة، وحجّة أبي حنيفة هذه الآية، لأنّ الإبتلاء يكون قبل البلوغ، والإبتلاء لا يكون إلّا بالإذن لهم في التّصرفات، فيجب أن تكون تلك التّصرفات صحيحة. وأجاب الشّافعي بأنّ الإبتلاء يكون بإختيار عقله وإستكشاف حاله من معرفته للمصالح والمقاييس.

المسألة الثّالثة: يثبت البلوغ بأثنين يشترك فيهما النّساء والرّجال هما:

الأوّل: السّن وهو بلوغ خمس عشرة سنة للغلام والجارية عند الشّافعي، وعلى ذلك أكثر أهل العلم؛ لقول إبن عمر ﷺ: عرضت على رسول الله (ﷺ) عام أحد وأنا إبن أربع عشرة سنة فردّني، ثمّ عرضت عليه يوم الخندق وأنا إبن خمس عشرة سنة فأجازني[1]. وعند أبي حنيفة يشترط في الجارية إكمال سبع عشرة سنة، وفي الغلام إكمال ثماني عشرة سنة.

الثّاني: إنزال المنّي سواء بالجماع أو بالإحتلام، فإذا أنزل الغلام أو الجارية حكم بالبلوغ فيهما، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ سورة النور الآية/ ٥٩.

المسألة الرّابعة: نبت الشعر الخشن حول الفرج، يدل على البلوغ في أولاد الكافرين، لما قال عطيّة القرظي: كنت من بني قريظة فكانوا يقتلون من نبت شعره، ومن لم ينبت لم يقتل، وأنا كنت ممن لم ينبت، ولكنّ ذلك لا يكون علامة للبلوغ في أولاد

---

(١) كنز العمال ١٣ / ٢٠٥ الحديث رقم ٣٧٢٥٠.

المسلمين عند قول، وعند الآخر يكون علامة لهم أيضاً وهذا هو الأصحّ.

المسألة الخامسة: تختصّ النّساء بأمرين من علامات البلوغ وهما: الحيض أو الحبل، فإذا حاضت بعد إكمال تسع سنين من العمر حكم ببلوغها، وإن ولدت حكم ببلوغها قبل الوضع بستة أشهر، أقل مدة الحمل، لأنّ الحبل لا يكون إلّا من الإنزال.

المسألة السّادسة: الرّشد هو أن يكون الشّخص مصلحاً في دينه بأن يجتنب الفواحش والمعاصي الّتي تسقط بها العدالة، وأن يكون مصلحاً في ماله بأن لا ينفق ماله فيما ليس له محمدة دنيويّة ولا ثواب أخروي، فإذا بلغ الصّبي مصلحاً لماله ودينه زال عنه الحجر، وإن بلغ مفسداً لأحدهما لا ينفك عنه الحجر، ولا تصحّ تصرّفاته أبداً، هذا عند الشّافعي، وقال أبو حنيفة: إذا بلغ مصلحاً لماله زال عنه الحجر وإن كان مفسداً لدينه، وإن كان مفسداً لماله لا يدفع إليه ماله حتى يبلغ خمساً وعشرين سنة إلّا أن تصرّفاته تنفّذ قبل ذلك. وبرأيي الآية مع الشّافعي لأنّ الفاسق لا يكون راشداً وإن بلغ ما بلغ من العمر، والآية تفيد دفع المال بالرّشد كما لا يخفى، ومالك وغيره من جمهور الفقهاء مع الشّافعي (رحمهم الله تعالى).

المسألة السّابعة: إذا بلغ رشيداً يسلّم إليه ماله، ثم إذا أصبح سفيهاً له حالتان: فإن كان سفهه في المال حجر عليه، وإن كان في الدّين فعند الشّافعي قولان: **الأول**: نعم لوجود السفه. **الثّاني**: لا؛ لأنّ حكم الدّوام أقوى[1]. وعند أبي حنيفة لا يحجر عليه بحال ومالك مع الشّافعي (رحمهم الله تعالى).

المسألة الثّامنة: لا ينفّذ تصرّفات السّفيه قبل الحجر عليه وبعده عند إبن القاسم من المالكية، وعند مالك والشّافعي وأبي يوسف تنفّذ تصرفاته قبل وضع الحاكم الحجر عليه وأما بعده فلا، وقال بعض: إن كان السّفه ظاهراً فأفعاله مردودة قبل الحجر أيضاً، وإن كان خفيّاً فلا تردّ، ولكلّ حجّة هو موليها، فحجّة إبن القاسم ما رواه البخاري من حديث جابر: (أنّ رجلاً أعتق عبداً ليس له مال غيره فردّه النّبيّ (ﷺ))[2] ولم يكن حجر عليه قبل. وحجة غيره أنّه لو ردّت تصرّفاته بنفس السّفه لما احتاج إلى وضع الحجر عليه.

---

(١) يقصد دوام أصل الرشد استصحابا لما سبق، ووفق قاعدة يبقى ماكان على ماكان حتى يأتي مايغيره.

(٢) صحيح البخاري ٢/٨٥١ الحديث رقم ٢٢٨٤.

المسألة التّاسعة: الإشهاد على دفع المال إلى اليتيم بعد الرّشد سنّة عند بعض العلماء، وعند بعض هو واجب وهو ظاهر مقتضى الآية والله تعالى أعلم[(١)].

ثمّ بعد أن أمر الله تعالى بدفع أموال اليتامى إليهم بعد الرّشد، وأنّ أموال اليتامى تحصل من الإرث، أراد تعالى أن يذكر أحكام الميراث، ليعلم كيف تدفع الأموال إلى اليتامى وأي مقدار لهذا وأي مقدار لذاك، وكان النّاس لا يعطون شيئاً من الميراث للإناث والأطفال فقال جلّ وعلا:

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾

روي أنّ أوس بن ثابت مات وترك إمرأته (أم كحّة) وثلاث بنات، فأخذ إبنا عمه المال كلّه، حيث كانوا لا يورّثون الإناث والأطفال، ويقولون: لا يرث إلّا من طاعن بالرّماح وحاز الغنيمة، فجاءت أمّ كحة رسول الله (ﷺ) فشكت، فقال (ﷺ): إرجعي لأنظر ماذا يحدث الله؟ فنزلت الآية، فبعث إلى سويد وعرفجة إبني عمّ أوس فقال (ﷺ) لهما: لا تغدقا شيئاً من مال أوس، فإنّ الله تعالى جعل لهنّ نصيباً ولم يبين حتّى نزلت: (يوصيكم ... إلخ) فأعطى أمّ كحة الثّمن والبنات الثّلثين والباقي لإبني العمّ[(٢)] (للرّجال) أي للذّكور (**نصيب**) أي حصة (**مما ترك الوالدان والأقربون**) من الأموال (**وللنّساء**) أي للإناث نصيب ما ترك الوالدان والأقربون أيضاً، فلا تحرم الإناث من الإرث (**مما قل منه**) من المال الّذي تركه الميت (**أو كثر**) فالقليل والكثير يقسم بين النساء والرجال (**نصيب**) أي فرض تعالى لكلّ (**نصيباً مفروضاً**) معيناً من عنده وحسب

---

(١) للفقهاء في الإشهاد على تسليم مال الصّغير إذا بلغ رأيان: الأوّل: وجوب الإشهاد، وهو الصّحيح عند الشافعيّة، وبه قال مالك، وابن القاسم، عملا بظاهر الأمر في قوله تعالى ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾، ولا يصدّق الدّافع في دعوى ردّ مال الصّغير حتّى يُشهد. الثّاني: استحباب الإشهاد، وهو قول الحنفيّة، والحنابلة، للاحتياط لكل واحد من اليتيم ووليّ ماله، وهو قول ضعيف للشّافعيّة، فأمّا اليتيم، فلأنّه إذا قامتْ عليه البيّنة كان أبعد من أن يدّعي ما ليس له، وأمّا الوصيّ فلأنّه يبطل دعوى اليتيم بأنّه لم يدفعه إليه. ويصدق في دعوى الرّدّ عند أبي حنيفة وأصحابه وعند الشّافعيّة في مقابل الصّحيح. أنظر / التاج والإكليل ٦/ ٤٠٥، روضة الطالبين ٤/ ١٩١، المغني لابن قدامة ٤/ ٣٢٠.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ٨/ ٢٨٤.

أمره تعالى. ثمّ لما ذكر الله تعالى أنّ المال يقسّم بين الورثة كما أمر قال جلّ وعلا:

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾

(وإذا حضر القسمة) أي تقسيم مال الميت **(أولوا)** أصحاب **(القربى)** القرابة من الميت، والمراد بهم الّذين لا يرثونه **(واليتامى)**[1] الفقراء **(والمساكين)** يعمّ المسكين والفقير **(فارزقوهم)** أي أعطوهم شيئاً منه **(منه)** أي مما ترك الوالدان والأقربون. **(وقولوا لهم قولاً معروفا)** أي لا تعيبوهم على الحضور، بل باركوا فيهم ورحّبوا بهم. واختلف العلماء في حكم هذه الآية الكريمة فقال البعض: إنّها منسوخة بآيات المواريث والوصيّة، وقال الآخرون: ليست منسوخة، وهذا أصحّ، وعلى القول بعدم النّسخ قال البعض: الأمر للوجوب، وقال الآخرون: للنّدب، وعلى القول بالوجوب أو النّدب هل يشمل حال الكبار والصّغار أو يخص الأمر بالكبار فقط؟ فقال قوم: بالتّعميم وإنّ وليّ الصّغار يعطى لهم من مالهم ما رأى، وخصّ بعضهم الأمر بالكبار. هذا وروى قتادة عن يحيى بن يعمر أنّه قال: ثلاث آيات محكمات تركهنّ النّاس. هذه الآية، وآية الإستئذان وآية: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ سورة الحُجرات الآية/ ١٣ ـ.

وأقول: وفي هذا الزّمان فأي آية لم يتركوها النّاس. ثمّ أراد الله تعالى أن يهيّج عاطفة النّاس نحو إمتثال الأمر بتقسيم المال بين الصّغار والكبار، وإيتاء من حضر من اليتامى والمساكين شيئاً منه وبصيانة أموال اليتامى فقال جلّ وعلا:

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾

---

(١) لعلهم أيضا هم اليتامى الذين لا يرثون كالأولاد الذين مات أبوهم قبل جدهم فحين يموت جدهم يحجبهم أعمامهم فلا يرثون، لذلك لجأ القانون إلى توريثهم وفق الوصية الواجبة المفهومة من قوله تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ** (١٨٠)﴾، وهو خطأ لأن الوصية قربة تتم بإرادة الموصي لا غيره، لذلك لو عملوا بالآية (وإذا حضر القسمة...الخ) لكان أحسن.

(**وليخش**) أي وليتّق مخالفة هذه الأوامر جميع النّاس (**الّذين**) ذكر هذا الموصول مع صلته للحثّ على إطاعة تلك الأوامر، وللإستدلال على حقّية الإمتثال، فكأنّه يقول تعالى: فاتّقوا أيّها النّاس من مخالفة هذه الأحكام من حفظ مال اليتامى وإعطاء إرثهم لهم، وإيتاء غير الورثة حينما حضروا تقسيم المال شيئاً منه لأنكم كلّكم من (**الّذين**) لو ماتوا أو (**تركوا ذرية ضعافاً خافوا عليهم**) من الفقر والحرمان فكرهوا لهم ذلك، فإذا كان النّاس كلّهم كذلك (**فليتّقوا الله**) في ذرية غيرهم أيضاً فلا يحرموهم (**وليقولوا لهم**) لذرية غيرهم اليتامى والمساكين (**قولاً سديداً**) فالمعنى: أن يواسوهم بالمال والمقال وإعطائهم حقّهم كما يحبّون أن يفعل ذلك مع ذريتهم، وهذه إشارة إلى الحكم بقياس النّفس والعمل بقول الرّسول(ﷺ): (لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه)[1] ألّلهم اجعلنا كذلك آمين. ثمّ حذّر الله تعالى النّاس من أكل أموال اليتامى وحقوقهم تحذيراً شديداً فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ﴿١٠﴾﴾

(**إنّ الّذين يأكلون**) أي يستهلكون (**أموال اليتامى ظلماً**) أي بدون حقّ ومقابل، والمراد كلّ الإستهلاكات إلّا أنّه ذكر الأكل لأنّ أكثر الإستهلاكات هي بالأكل عادة (**إنّما يأكلون**) يدخلون (**في بطونهم ناراً**) أي ما يكون سبباً للعذاب بالنّار لأنّهم (**وسيصلون**) بسبب ذلك (**سعيراً**) ناراً تتسعّر وتتلّهب. ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن كيفية تقسيم التركة بين الرّجال والنّساء وذوي القربى كلّهم، وأخّر البيان هذا التّأخير لأنّ عادة حرمان النّساء والصّغار من الإرث كانت مترسّخة في عقول النّاس، فكان بحاجة إلى تقديم هذه التوصيات والتّحذيرات لإزالة ما ترسّخ من تلك العادة السّيئة في نفوسهم فقال جلّ وعلا:

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ

(١) صحيح البخاري ١/ ١٤ الحديث ١٣.

وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًاۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾

(**يوصيكم الله في**) إرث (**أولادكم**) وإعطاء حقّهم أن تعطوا (**للذّكر مثل حظّ الأنثيين**) ذكر هذه الأحكام بلفظ الوصية ولم يذكرها بلفظ الأمر، بأن يقول أعطوا مثلاً لأنّ الأمر يحتمل الإيجاب والنّدب والإباحة، فيكون فيه تردد وإحتمال عدم الوجوب، فذكر الله تعالى بلفظ الوصيّة، لأنّ الوصيّة واجب التّنفيذ قطعاً، ولذلك أيضاً لم يذكر الله تعالى الأحكام المهمّة بصيغة الأمر، بل يذكر الكتابة؛ فقال تعالى بصدد الصّلاة: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ سورة النساء الآية/ ١٠٣، وقال في الصّوم: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا كتب عليكم الصّيام كما كتب على الّذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ سورة البقرة الآية/ ١٨٣، وقال في القصاص: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ.... إلخ الآية﴾ سورة البقرة الآية/ ١٧٦، وقال تعالى في القتال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ سورة البقرة الآية/ ٢١٦ ـ وقال تعالى في الوصية: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ سورة البقرة الآية/ ١٨٠. وهذه الوصيّة كانت واجبة، فعند بعض نسخت بالإرث، وعند بعض لم تنسخ، والوصيّة واجبة للوالدين والأقربين الّذين لا يرثون لسبب، أو يذكر الله تعالى الحكم بلفظ آخر غير الوصيّة والكتابة، كما قال تعالى في الحجّ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ سورة آل عمران الآية/ ٩٧. فعلمت أنّ كلّ حكم مهمّ لم يوجب بالأمر بل بلفظ آخر كما رأيت والله أعلم. ثمّ اعلم أنّه إذا توفي الشّخص سواءً كان رجلاً أو إمرأةً وترك أولاداً فله أربع صور:

الأولى: أن يترك أولاداً ذكوراً فقط فلهم كل المال، ويقسّمونه بالتّساوي، فلو كان الأولاد عشرة أبناء، فالمسألة من عشرة أسهم لكلّ إبن سهم بدون خلاف، وإن كان واحداً فله كلّ المال.

الثّانية: أن يترك بنين وبنات فهذه ما ذكره تعالى بقوله: ﴿**للذّكر مثل حظّ الأنثيين**) فلو ترك إبنين وبنتين مثلاً، فالمسألة من ستّة أسهم لكلّ إبن سهمان، ولكلّ بنت سهم واحد فصار المجموع ستّة وهكذا فقس.

الثّالثة: أن يترك بنات فقط وتكون البنات فوق إثنتين كثلاث أو أكثر فيعطي للبنات ثلثا المال يقسّم بينهنّ بالسّوية، فمثلاً لو ترك أربع بنات، يقسّم المال إثنى عشر سهماً، للبنات ثمانية أسهم، لكلّ منهنّ سهمان، والباقي يعطي للعصبات من أبناء الإبن وإن نزلوا أو الاخوة أو الأعمام أو أبنائهم، فإن لم يكن لهم عصبة، فهو لبيت المال إن انتظم أمره وكان الإمام عادلاً، وإلّا فيردّ على أصحاب الفروض البنات. وعند أبي حنيفة يقدّم الردّ على بيت المال فيقول: إن لم يكن به عصبة فالردّ. هذا وإنّ حكم البنتين كحكم ما فوقهما بالإجماع، فتأخذان الثّلثين والباقي للعصبة، فإن لم يجدوا فلبيت المال، أو يردّ عليهما كما ذكرنا سابقاً. وهذه الصّورة ذكرها تعالى بقوله: ﴿**فإن كنّ نساءً فوق اثنتين**) أي أو إثنتين فقط (**فلهنّ ثلثا ما ترك**).

الرّابعة: أن يترك بنتاً واحدةً، وهذه ذكرها تعالى بقوله: ﴿**وإن كانت واحدةً فلها النّصف**) والباقي للعصبة، فإن لم يجدوا فلبيت المال، فإن لم ينتظم فيرد على البنت كما في الصّورة السّابقة، والخلاف الموجود فيها موجود هنا أيضاً من تقديم الرّد على بيت المال أو بالعكس. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حقّ الفروع أراد أن يذكر حقّ الأصول فقال جلّ وعلا: (**ولأبويه لكلّ واحد منهما السّدس ممّا ترك إن كان له ولد**) ولأبويه أي للأب والأمّ لكلّ منهما سدس ممّا ترك الميت إن كان له ولد، أي للميت الولد سواء أكان الولد ذكراً أَو أنثى فللأبوين مع أولاد الميت ثماني صور:

الصّورة الأولى: أن يترك الميت الأب والأم والولد الذكر واحداً أو أكثر مع الزوجة، إن كان الميت ذكراً ففي هذه الصورة يكون للأب السدس وللأم السدس وللزوجة الثمن والباقي للولد أو للأولاد، يقسّم بينهم بالتّساوي، فالمسألة من أربع وعشرين للأب أربعة أسهم وللأم أربعة وللزّوجة ثلاثة، فالمجموع أحد عشر سهماً، والباقي وهو ثلاثة عشر سهماً، للولد أو للأولاد يقسّم بينهم بالتّساوي إذا كانوا ذكوراً فقط.

الصّورة الثّانية: أن يترك أباً وأماً وزوجاً، حيث كان الميت أنثى وولداً ذكراً أو أولاداً ذكوراً، فتكون للأب السّدس وللأمّ السّدس وللزّوج الرّبع والباقي للولد أو للأولاد، فالمسألة من إثني عشر سهماً، للأب إثنان وللأم إثنان وللزّوج ثلاثة، فالمجموع سبعة أسهم، والباقي وهو خمسة أسهم للولد الذكر أو للأولاد، يقسّم بينهم بالتّساوي.

الصّورة الثّالثة: أن يترك الأب والأمّ والولد الذّكر فقط، واحداً أو أكثر، ففي هذه الصّورة أيضاً: للأب السّدس وللأم السّدس، والباقي للولد أو للأولاد، فالمسألة من ستّة، للأب سهم واحد وللأم سهم والباقي وهو أربعة أسهم للولد الذّكر إن كان واحداً، أو للأولاد يقسّم بينهم بالتّساوي.

الصّورة الرّابعة: أن يترك الأب والأم والأولاد الذّكور والإناث، ففي هذه الصّورة: للأب السّدس وللأمّ السّدس، والباقي يقسّم بين الأولاد للذّكر مثل حظّ الأنثيين، فالمسألة من ستّة أيضاً: للأب سهم وللأم سهم والباقي أربعة أسهم للأولاد، للذّكر مثل حظّ الأنثيين.

الصّورة الخامسة: أن يترك أباً وأماً وولداً أنثى واحدة فقط، ففي هذه الصّورة للأب السّدس وللأم السّدس وللبنت النّصف، فالمسألة من ستّة: للأب سهم وللأمّ سهم وللبنت ثلاثة أسهم، والباقي سهم واحد، يردّ عليهم كلّ على حسب حصّته، وذلك بأن يجمع الحصص، فكلّ يأخذ مثل نسبة حصّته إلى المجموع، فنقول: للأب سهم وللأمّ سهم وللبنت ثلاثة أسهم، فالمجموع خمسة أسهم، فالأب يأخذ خمس الباقي والأم خمسه وللبنت ثلاثة أخماسه، فنضرب خمسة في أصل المسألة فتصير المسألة ثلاثين، للأب السدس خمسة وللأم خمسة أيضاً، وللبنت خمسة عشر، فيبقى خمسة، للأب واحد فتصير حصته ستة من ثلاثين، وللأم واحد أيضا فتصبح حصّتها ستّة من ثلاثين أيضاً، وللبنت ثلاثة فتصبح حصّتها ثماني عشرة من ثلاثين، وبالإختصار تصير المسألة خمسة: للأب واحد للأم واحد وللبنت ثلاثة.

الصّورة السّادسة: أن يترك أباً و أماً وبنات إثنتين فما فوق، ففي هذه الصّورة أيضاً للأب السّدس وللأم السّدس وللبنتين أو أكثر الثلثان، فالمسألة من ستّة: للأب سهم، وللأم سهم، وللبنات أربعة أسهم، فإن كنّ إثنتين تمت المسألة، وإلّا فتصحّح بضرب عدد البنات في أصل المسألة ثم تقسّم، فمثلا لو كنّ خمس بنات تضرب خمسة في ستّة، فتصبح ثلاثين: للأب خمسة أسهم، وللأم خمسة، فتبقى عشرون سهماً، لكلّ بنت أربعة وهكذا فقس.

الصّورة السّابعة: أن يكون الميت ذكراً ويترك أباً وأماً وزوجة وبنتاً واحدة، ففي هذه الصّورة: للأب السّدس أيضاً وللأم السّدس وللزّوجة الثّمن وللبنت النّصف؛ فالمسألة من أربعة وعشرين سهماً: للأمّ أربعة، وللأب أربعة، وللزّوجة ثلاثة، وللبنت إثنا عشر سهماً،

فالمجموع ثلاثة وعشرون، يبقى سهم فيرد على الأبوين والبنت لأنّ الزوج والزوجة لا يرد عليهما، لأنّ الرّد إنّما يكون لأهل القرابة بالنّسب لا بالمصاهرة، فتجمع حصّة الأب والأمّ والبنت فيصبح المجموع عشرين، فنسبة حصة كل من الأب والأمّ إلى عشرين الخمس، فيأخذ كل واحد خمسة أسهم الباقي، ونسبة حصة البنت إلى عشرين ثلاثة أخماس، فتأخذ ثلاثة أخماس الباقي، فتضرب الخمسة في أصل المسألة فتصبح مائة وعشرين، للأب عشرون، وللأم عشرون، وللبنت ستّون، وللزّوجة خمسة عشر، فالمجموع مائة وخمسة عشر، يبقى خمسة أسهم: للأب واحد وللأم واحد وللبنت ثلاثة، فتصبح حصّة الأب واحدة وعشرون، وللأمّ واحدة وعشرون، وللزّوجة خمس عشرة، وللبنت ثلاث وستون، والمجموع مائة وعشرون تمام المسألة، وتختصر المسألة إلى أربعين، فيأخذ الأب سبعة أسهم، والأم سبعة، والبنت واحداً وعشرين، والزوجة خمسة.

الصّورة الثّامنة: أن يكون الميت أنثى وتترك أباً وأماً وزوجاً وبنتين أو اكثر، فللأب السّدس وللأم السّدس وللزّوج الرّبع وللبنتين الثّلثان، فالمسألة من إثني عشر: للأب سهمان، وللأم سهمان، وللزّوج ثلاثة أسهم، وللبنتين ثمانية أسهم، فالمجموع خمسة عشر، فتصحّح المسألة من إثني عشر إلى خمسة عشر، بمعنى: أنّ المال يقسّم إلى خمسة عشر قسماً، فيأخذ الأب سهمين من خمسة عشر بدلاً من إثني عشر، والأمّ تأخذ سهمين من خمسة عشر، والزّوج ثلاثة منه، والبنت ثمانية منه، فيصبح المجموع خمسة عشر، وتسمّى هذه العمليّة عولاً، وهو زيادة في عدد المسألة ونقص في كميّة الحصص، لأنّ إثنين من خمسة عشر أقل من أثنين من إثني عشر وهكذا البواقي.

تنبيه: نذكر فيه قاعدة لإختصار المسائل، ننظر إلى حصص الوارثين، فإن كانت متّفقة في كسر، تردّ المسألة إلى ذلك الكسر إن وجد لها، وتردّ الحصص إليه أيضاً، ففي المثال السّابق كانت المسألة مائة وعشرين، فكانت حصة الأب واحداً وعشرين ولها الثلث الصحيح سبعة، والأمّ واحداً وعشرين لها الثلث سبعة أيضاً، وللزّوجة خمسة عشر لها الثلث خمسة، وللبنت ثلاثة وستون، ثلثه واحد وعشرون، وللمسألة الثّلث الصّحيح أربعون، فاختصرنا المسألة إلى أربعين، للأب سبعة من أربعين، وللأمّ سبعة وللزّوجة خمسة، وللبنت واحد وعشرون، فسبعة مع سبعة أربع عشرة، مع خمسة للزّوجة تصبح تسع عشرة، أضيف إليها واحد وعشرون حصة البنت فأصبحت أربعين. وإن اشتركت الحصص والمسألة في كسرين أو أكثر فنختصر المسألة إلى أدقّ الكسرين أو الكسور، فمثلاً لو اشتركت في الثلث والنّصف تعاد إلى الثلث، أو في الرّبع والخمس والثّلث

تعاد إلى الخمس وهكذا. فاحفظ هذه القاعدة فإنّها مفيدة جدّاً. وأمّا الأبوان إن لم يكن لولدهما الميت ولد، فقد ذكر الله تعالى حكمها فقال جلّ وعلا: **(فإن لم يكن له)** إي للميت ولد وورثه أبواه فلأمّه الثّلث أي والباقي يكون للأب على قاعدة فللذّكر مثل حظّ الأنثيين. فللأبوين إن مات لهما ولد خمس حالات:

الأولى: أن يترك الميت أبوين فقط، فهذا ما ذكره الله تعالى، فللأمّ الثّلث والباقي للأب، فالمسألة من ثلاثة: للأم سهم واحد وللأب سهمان.

الثانيّة: أن يكون الميت ذكراً ويترك الأبوين والزّوجة، ففي هذه الحالة المسألة من أربعة، للزّوجة الرّبع حيث ليس للميت فرع وارث، فيبقى ثلاثة أسهم، للأب سهمان وللأم سهم واحد، محافظة على قاعدة فللذكر مثل حظ الأنثيين.

الثّالثة: أن يكون الميت أنثى، وتترك أباً وأماً وزوجاً، فتأخذ الأمّ أيضاً ثلثاً والباقي بعد إخراج حصة الزّوج، فنقول للزّوج النّصف ولا يوجد ذو فرض أخر. فالمسألة من إثنين للزّوج واحد، فيبقى واحد منكسر على الأبوين، للأمّ ثلثه وللأب ثلثان، فتضرب ثلاثة في أصل المسألة، تصبح ستّة، فتصح المسألة منه، للزّوج ثلاثة وللأب إثنان وللأمّ واحد، ليكون للذّكر مثل حظّ الأنثيين.وتسمّى هاتان المسألتان بالغراوين، وهذا أصحّ من قول بعض أنّ الأمّ تأخذ ثلث المال كلّه لا الثّلث من الباقي.

الرّابعة: أن يكون للميت أخ واحد مع الأبوين وحدهما، سواء كان هناك زوج للميت إن كان أنثى، أو زوجة إن كان ذكراً، فالأخ ساقط بالأب، ولا تؤثّر في المسائل الثّلاثة الّتي ذكرت.

الخامسة: أن يكون له عدد من الأخوة سواء أكانوا من أب وأم أو من أب أو من أم مختلطاً، كأخوين أو أكثر أو أخ مع أخت أو أكثر، أو أختين أو أكثر، فتعدد الأخوة، تحجب الأمّ عن الثّلث وتردّها إلى السّدس، ويكون ما نقص الأخوة من الأمّ للأب لأنّهم محجوبون بالأب، فكأن الأب يقول للأم أنا أحجبهم لي لا لك، فمن هنا تتفرّع ثلاثة مسائل:

المسألة الأولى: مات عن أب وأم وعدد من الأخوة، فللأمّ السّدس والباقي للأب، فالمسألة من ستّة للأمّ سهم واحد والباقي للأب.

المسألة الثّانية: مات رجل وترك زوجة وأماً وأباً وعدداً من الأخوة، فللأم السّدس وللزّوجة الرّبع والباقي للأب، فالمسألة من إثني عشر: للأمّ إثنان، وللزّوجة ثلاثة، وسبعة

للأب، وهي المسألة الأولى من الغرّاوين، فكانت الأمّ تأخذ الرّبع فيها، ولكن هنا تأخذ السّدس بسبب الأخوة.

المسألة الثّالثة: أن يكون الميت أنثى، وتترك أباً وأماً وزوجاً وعدداً من الأخوة، فللأمّ السّدس وللزّوج النّصف، فالمسألة من ستّة: للأمّ سهم واحد، وللزّوج ثلاثة أسهم، وللأب سهمان، والأخوة محجوبون بالأب إلّا أنّهم يحجبون الأمّ من الثّلث لمصلحة الأب، وهذا مفاد قوله تعالى: (**فإن كان**) مع الأبوين (**إخوة**) للميت (**فلأمّه السّدس**) فقط. وهذه الحقوق كلّها تعطى كما ذكرنا لأهلها (**من بعد وصية**) أي من بعد إخراج (**وصيّة يوصى بها**) من قبل الميت في حال حياته (**أو دين**) يكون على الميت، فالمعنى: أنّ التركة لا تقسّم إلا بعد أداء الدّيون منها وإخراج ما وصى به الميت منها، فالدّين مقدم على الكلّ، وإنّما قدّمت الوصيّة في الذّكر هنا لكونها أشقّ على الورثة، لكونها بلا عوض، وإلّا فالدّين أهم ومقدّم على الوصيّة والورثة.

ثمّ حثّ الله تعالى على المحافظة على هذه الحقوق واعطاء كلّ ذي حقّ حقّه، وعدم إيثار جانب على آخر فقال: (**آباؤكم وأبناؤكم**) هؤلاء كلهم (**لا تدرون**) لا تعلمون (**أيّهم أقرب لكم نفعاً**) فتؤثّروا هذا على ذاك، أو تحرّموا ذلك لهذا لأجل منفعة، بل الله تعالى يعلم ذلك، فوضع لكل حقّه حسب حكمته وعلمه، فلا تتركوا ما وضعه الله تعالى لما تقترحون أنتم، فإنّ ذلك خلاف الأدب مع الله تعالى، يقال: إنّ الحاج حماغا من أشراف كويسنجق في كردستان العراق قيل له: أوصِ لأولادك، فقال: ماذا أوصي؟ فقد أوصى الله تعالى لهم وبيّن حق الكلّ أفأوصي على وصية الله تعالى، كلّا فهذا ليس من الأدب مع الله تعالى. (**فريضة**) أي إنّ هذه الحقوق فرضت (**فريضة من الله**) تعالى (**إنّ الله كان عليماً حكيماً**) فبعلمه وحكمته فرض تلك الفرائض فتبديلها وتغييرها خلاف العلم والحكمة فيكون جهلاً وحماقة وسوء أدب مع الله تعالى.

تنبيه: تنفّذ الوصيّة بعد أداء الدّيون، فإن كانت الوصيّة بلغت أكثر من ثلث الباقي لا تنفّذ الزائد على الثّلث لأنّ الوصية لا يجوز بأكثر من الثلث، ثم بعد أداء الدّيون وتنفيذ الوصيّة تقسّم التّركة بين الورثة ويقدم على كلّ ذلك مصاريف الكفن والدفن والغسل. فإذا استغرقت الدّيون التركة بعد التّجهيز فلا يبقى وصيّة ولا إرث، وإن زادت الدّيون على التّركة تنقسم بين أصحابها بنسبة ديونهم، فمثلاً لو كانت التّركة مائة وخمسين ديناراً، ولواحد عليه مائة دينار ولآخر مائتان؛ فلصاحب المائة خمسون

ولصاحب المائتين مائة وهكذا فقس، واعلم أنّ المرهون في مقابلة دين وكذا المشترى الّذي لم يدفع ثمنه لا يحسبان من التّركة عند نقصها من الدّيون، لأنّ المرهون يأخذه المرتهن مقابل حقه، والمشترى يستردّه البائع الّذي لم يستلم ثمنه، وذلك لتعلّق حقّهما بعين المرهون والمشترى لا بذمّة الميت والله تعالى أعلم.

* * *

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حقوق الأولاد والوالدين أراد أن يذكر حصّة الزّوجين والحواشي فقال جلّ وعلا:

﴿۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

(**ولكم**) أيّها الرّجال (**نصف ما ترك أزواجكم**) زوجاتكم إن لم يكن لهنّ ولد من ذكر أو أنثى، فإن كان لهنّ (**ولد**) واحداً أو أكثر من ذكر أو أنثى أو منهما معاً (**فلكم الربع مما تركن**) من المال، ومن ضمن مالهنّ الصّداق الّذي لم يستلمنه، وبقي في ذمة الزّوج وكلّ ذلك (**من بعد**) إخراج (**وصيّة يوصين بها أو دين**). ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حقّ الرّجال من مال زوجاتهم، أراد أن يذكر حق الزّوجات من مال أزواجهنّ فقال جل وعلا: (**ولهنّ الرّبع ممّا تركتم**) من الأموال إن لم يكن لكم ولد لا ذكر ولا أنثى (**فإن كان لكم ولد**) واحداً أو أكثر ذكراً أو أنثى أو مختلطاً (**فلهنّ الثّمن مما تركتم**) وذلك أيضا (**من بعد**) إخراج (**وصيةٍ توصون بها أو دين**) فللأزواج من الإرث

من زوجاتهن ستّ حالات: **الأولى**: أن تترك المرأة زوجاً وأماً وأباً وأخوة وقد سبق شرح هذه المسألة وحلّها.

الثانية: أن تترك زوجاً وأباً وأماً فقط وقد سبق شرح هذه المسألة وحلّها أيضاً.

الثالثة: أن تترك زوجاً وأباً وأماً وولداً ذكراً واحداً أو أكثر، ففي هذه الحالة للأب السّدس وللأم السّدس وللزّوج الرّبع والباقي للولد، فالمسألة من إثني عشر سهماً: للأب سهمان، وللأمّ سهمان، وللزّوج ثلاثة أسهم، ويبقى خمسة أسهم للولد الذّكر، إن كان واحداً يأخذه كلّه وإن كانوا أكثر يقسّمونه بالتّساوي.

الرّابعة: أن تترك زوجاً وأباً وأماً وولداً ذكراً وأنثى؛ ففي هذه الحالة أيضا للأب السّدس وللأمّ السّدس وللزّوج الرّبع والباقي للأولاد، للذّكر مثل حظّ الأنثيين، فالمسألة من إثني عشر، للأب سهمان، وللأم سهمان، وللزّوج ثلاثة، والخمسة الباقية للأولاد، للذّكر مثل حظّ الأنثيين.

الخامسة: أن تترك أباً وأمّاً وزوجاً وبنتاً واحدة، وفي هذه الحالة للأب السّدس وللأمّ السّدس وللزّوج الرّبع وللبنت النصف، فالمسألة من إثني عشر سهماً، للأب سهمان وللأمّ سهمان وللزّوج ثلاثة أسهم وللبنت ستّة أسهم، فيصير المجموع ثلاثة عشر، فتعالت المسألة من إثني عشر سهماً إلى ثلاثة عشر، للأب سهمان من ثلاثة عشر وللأمّ سهمان منه وللزّوج ثلاثة وللبنت ستّة منه.

السّادسة: أن تترك زوجاً وأماً وأباً وبنتين فأكثر، ففي هذه الحالة أيضاً للأب سدس، وللأمّ سدس، وللزّوج ربع، وللبنات الثّلثان، فالمسألة من إثني عشر: للأب سهمان وللأم سهمان وللزّوج ثلاثة وللبنات ثمانية أسهم؛ فيصير المجموع خمسة عشر، فتعالت المسألة إلى خمسة عشر، للأب سهمان من خمسة عشر، وللأمّ سهمان وللزّوج ثلاثة وللبنات ثمانية، فالمجموع خمسة عشر، ومسائل إرث الزّوجة من الزّوج نفس المسائل إلّا أنّه يبدّل حصتهما بالثّمن عند وجود الولد وبالرّبع عند فقده. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر حقوق الأخوة والأخوات وهؤلاء أقسام:

الأوّل: الأخ أو الأخت من الأمّ فقط، وهذان ذكرهما الله تعالى بقوله (**وإن كان رجل يورث كلالةً**) أي لا ولد له ولا والد (**أو إمرأة**) تورث كلالة أيضاً (**وله**) أي للمذكور من الرّجل والمرأة (**أخ**) من أمّ فقط (**أو أخت**) من أمّ فقط، فلكلّ واحد منهما

السّدس. **(وإن كانوا أكثر من ذلك)** بأن يكونوا أخوين فأكثر أو أختين فأكثر أو أخاً وأختاً أو أخوة وأخوات **(فهم)** كلّهم شركاء في الثّلث، يقسّم بينهم بالسّوية بدون فرق بين الذّكور والإناث، فتأخذ الأنثى هنا مثل الذّكر وذلك **(من بعد)** إخراج **(وصية يوصى بها)** من قبل الميت **(أو دين)** على الميت **(غير مضارّ)** قيل: صفة لوصيّة، أي وصيّة غير ضارّة بالورثة، بأن تكون زائدة على الثّلث، فإن كانت زائدة تطرح الزّائد على الثّلث وينفّذ الثّلث. وقيل: صفة لدين، أي دين غير مضارّ، وهو أن يقرّ الميت لواحد بمبلغ ليأخذه إضراراً بالورثة.

وعندي: أنّه متنازع فيه بين الإثنين، أي وصيّة غير مضارّ، ودين غير مضارّ، فكلاهما لا ينفّذان، وإنّ هذا القيد معتبر في كلّ الحالات، إلّا أنّه ذكر هنا فقط، لأنّه هنا مظنّة لذلك الإضرار، حيث لا يوجد للميت من يشفق عليهما من الولد والوالد، ولا يجب أن ينتفع أولاد الامّ كثيراً، فيوصي ما شاء أو يعترف بدين لمن شاء، فإذا علم هذا القصد السيّء فلا ينفذ في كلّ الحالات وكلّ المسائل، تلك الوصيّة وذلك الدّين **(وصيّة)** أي توصون بهذه الأحكام **(وصيّة من الله)** تعالى فنفذّوها **(والله عليم)** بإمتثالكم لأمره وعدم إمتثالكم، فيجازيكم على الإمتثال بالثّواب وعلى عدم الإمتثال بالعقاب **(حليم)** ولذلك لا يعجّل بالعقوبة لمن عصى.

تنبيه: الوصيّة بالزائد على الثّلث تنفّذ عند إجازة الورثة إن كانوا غير قاصرين، وإلّا بأن كانوا قاصرين أو لم يجيزوا، فيلغى الزائد على الثّلث إتفاقاً، وأمّا الثّلث فينفّذ وإن قصد الإضرار، عند الجمهور، وعند البعض لا ينفّذ إذا قصد بها الإضرار.

خاتمة في توريث ولد الأم:

ولد الأم إذا كان معه أب أو جد أو فرع وارث كالإبن وإن نزل والبنت وبنت الإبن وإن نزل الإبن فلا يرث شيئاً، ومع غير هؤلاء يرث وله صورتان: **الصّورة الأولى:** أن يكون واحداً فله السّدس. **الصّورة الثّانية:** أن يكون متعدّداً كإثنين أو أكثر مهما كثروا فهم شركاء في الثّلث، ولا فرق بين الذّكور والإناث، فالذّكر والأنثى متساويان ولا يطبّق هنا (للذّكر مثل حظّ الأنثيين) ولكلّ صورة من الصّورتين أمثلة كثيرة، فالأمثلة لولد الأمّ إذا كان واحداً كما يلي: ١- الميت ذكر وترك ولداً للأم وزوجة وأماً وإخوةً لأبوين ذكوراً وإناثاً واخوة للأب ذكوراً وإناثاً، ففي هذه الحالة أولاد الأب محجوبون بالأشقّاء بل بشقيق واحد، فللزّوجة الرّبع وللأمّ السّدس ولولد الأمّ السّدس والباقي للأخوة لأبوين على أساس (للذّكر مثل حظ الأنثيين). فالمسألة من إثني عشر سهماً للزّوجة

ثلاثة أسهم، وللأمّ إثنان، ولولد الأم إثنان، يبقى خمسة أسهم، للأخوة لأبوين للذّكر مثل حظّ الأنثيين إن كانوا ذكوراً وإناثاً.

٢ ـ ترك ولداً للأمّ وزوجة وأماً وولداً لأبوين ذكوراً فقط، فالمسألة كالّتي قبلها إلّا أنّ الباقي للأشقّاء يقسّمونه بينهم بالتّساوي. فإن كان واحداً فله الباقي كلّه.

٣ ـ ترك ولداً لأم وزوجةٍ وأما وأختاً شقيقة وأولاداً لأب ذكوراً، فالمسألة من إثني عشر، للزّوجة ثلاثة أسهم، وللأم سهمان، ولولد الأم سهمان،وللأخت الشّقيقة ستّة أسهم، فتعالت المسألة إلى ثلاثة عشر، ويسقط أولاد الأب بإستغراق ذوي الفروض التّركة، وكذلك لو كان أولاد الأب إناثاً وذكوراً يسقطون بالإستغراق لأنّهم عصبة، وإن كنّ إناثاً فقط، فرض لهنّ السّدس تكملة الثّلثين، فتعالت المسألة إلى خمسة عشر، سهمان لبنات الأب يقسّمن بينهن إن كثرن، وإن كانت واحدة فقط فلها.

٤ ـ ترك ولداً لأم وأماً وزوجة وأختاً شقيقةً وولداً لأب أنثى فقط فللأمّ السّدس وللزّوجة الرّبع ولولد الأمّ السّدس وللشّقيقة النّصف وللأخت للأب السّدس، فالمسألة من إثني عشر، ثلاثة للزّوجة، وإثنان للأم، وإثنان لولد الأم، وإثنان للأخت لأب، وستّة للشّقيقة، فالمسألة تعالت من إثني عشر إلى خمسة عشر.

٥ ـ ترك ولداً لأم وأماً وزوجة وأختين شقيقتين وبنت أب واحدة أو أكثر فللأمّ السّدس وللزّوجة الرّبع ولولد الأمّ السّدس وللشّقيقتين الثّلثان، وتسقط بنات الأب حيث لا تأخذ الأخوات أكثر من الثلثين، فالمسألة من إثني عشر للأم سهمان ولولد الأم سهمان وللزّوجة ثلاثة وللشّقيقتين ثمانية فتعالت المسألة إلى خمسة عشر.هذا كلّه إذا كان الميت ذكراً، وأمّا إذا كان أنثى، فالأمثلة تكون كما يلي:

١- تركت أولاداً لأمّ، وزوجاً وأمّاً وأخوة لأبوين ذكوراً وإناثاً، وأخوة لأب ذكوراً وإناثاً، فأولاد الأب محجوبون بالأشقّاء بل لشقيق واحد، فلأولاد الأمّ الثّلث وللأمّ السّدس وللزّوج النّصف، فالمسألة من ستّة أسهم، لأولاد الأمّ سهمان، وللأمّ سهم واحد، وللزّوج ثلاثة أسهم، وأولاد الأبوين ساقطون بإستغراق ذوي الفروض التركة، وهنا قال أولاد الأبوين لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه): فرضنا أنّ أبانا كان حماراً أو حجراً أو ألق في اليّم ألسنا مع أولاد الأم من أم واحدة؟ فأشركهم عمر مع أولاد الأمّ ولذلك تسمى هذه المسألة حمارية وحجرية ويميّة ومشتركة والتّشريك مذهب سيدنا عمر وعثمان (رضي الله عنهما)، ورواية عن إبن مسعود ومذهب زيد وإبن عباس وسعيد بن المسيّب وشريح القاضي ومسروق وطاوس ومحمد بن سيرين وابراهيم النّخعي وعمر بن

عبدالعزيز ومالك والشّافعي (ﷺ). وقال علي (ﷺ): إنّهم لا يشركون بل يسقطون لأنّهم عصبة، وهذا قول أبي بن كعب وأبى موسى الأشعري ورواية عن إبن عبّاس ومذهب الشّعبي وابن أبي ليلى وأبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد بن الحسن والحسن بن زياد وزفر بن الهزيل والإمام أحمد ويحيى بن آدم ونعيم بن حماد وأبي ثور وداود الظّاهري، واختاره القاضي أبو الحسين بن اللّبان، هذا وكذلك الحكم لو كان أولاد الأب ذكوراً فقط، وأما إذا كانوا إناثاً فيأتي في المسألة الآتية:

٢- تركت أولاد أم وزوجاً وأماً وشقيقة فللزّوج النّصف وللأمّ السّدس ولأولاد الأم الثّلث وللشّقيقة النّصف فالمسألة من ستّة لأولاد الأم سهمان وللزّوج ثلاثة وللأمّ سهمان وللشّقيقة ثلاثة فتعالت المسألة إلى عشرة، فلو كانت شقيقتان لأخذتا الثّلثين أي أربعة اسهم من المسألة فتعالت إلى أحد عشر سهماً ولو كانت شقيقة وأخت لأب أو أكثر فكذلك تعالت المسألة إلى أحد عشر للشّقيقة ثلاثة النصف وواحد وهو تكملة الثلثين لبنات الأب واحدة أو أكثر وفي حالة الشقيقتين تسقط بنات الأب وفي كلّ حال لاحق للذّكور من أولاد الأب في هذه المسألة لأنّهم عصبة يسقطون بالإستغراق.

٣ ـ تركت أولاد أمّ وزوجاً وأمّاً وأختاً لأب، فلأولاد الأمّ الثّلث وللأمّ السّدس وللزّوج النّصف وللأخت النّصف، فالمسألة من ستّة، لأولاد الأمّ سهمان، وللزّوج ثلاثة، وللأمّ سهمان، وللأخت ثلاثة، فتعالت المسألة إلى عشرة، فلو كان مع الأخت أخ سقطت هي والأخ، لأنّها تصير بالأخ عصبة، والعصبة يسقطون بالإستغراق، ولو كانت أختان لأب فرض لهما الثلثان، فتعول المسألة إلى أحد عشر، ولو كان معهما أخ سقطتا معه، ولذلك يقال لهذا الأخ الأخ المشؤوم.

هذا واعلم انّ لأولاد الأمّ خواصّ هي:

الأولى: أنّهم يرثون مع الأمّ مع أنّ القاعدة أنّ من أدلى إلى الميت بشخص لا يرث حين الاجتماع معه، فأب الأب لا يرث مع الأب وإبن الأبن لا يرث مع الأبن مثلاً، إلّا أنّ إبن الأمّ مثلاً يرث مع الأمّ.

الثّانية: أنّ الأنثى تأخذ مثل الذّكر هنا، ولا يطبّق فيهم للذّكر مثل حظ الأنثيين.

الثّالثة: أنّهم مهما كثروا لا يأخذون أكثر من الثّلث.

الرّابعة: أنّهم لا يرثون مع الأب أو الجدّ أو الفرع الوارث والله تعالى أعلم.

ثم أنّه توجد هنا أمثلة أخرى بسيطة لولد الأم منفرداً ومتعدّداً.

الأولى: ترك ولداً لأمّ مع زوجة فقط، لولد الأمّ السّدس وللزّوجة الرّبع فالمسألة

من إثني عشر، للزّوجة ثلاثة، ولولد الأمّ سهم واحد والباقي يردّ على ولد الأمّ إن لم يكن هناك عصبة، وإلّا فهو للعصبة، وإن كان ولد الأمّ متعدّداً فالمسألة من إثني عشر أيضاً، للزّوجة الرّبع، والثّلث لأولاد الأمّ، والباقي للعصبة إن وجدوا، وإلا فيردّ على أولاد الأمّ إذا لم ينظّم بيت المال لأنّ الرّد على الزّوجين لم يشرّع.

الثّانية: ترك ولداً لأمّ وأمّاً فللأمّ الثّلث ولولدها السّدس، فالمسألة من ستّة: للأمّ ولولدها السّدس والباقي للعصبة، وإلّا فيردّ على الأمّ وولدها حسب نسب حصتهما، فإن تعدّد ولد الأمّ هنا فالمسألة أيضاً من ستّة، للأمّ السّدس ولأولاد الأمّ الثّلث والباقي للعصبة، وإن لم توجد فيرد على الأمّ وأولادها.

الثّالثة: ترك ولد أمّ وزوجة وأختاً شقيقة. فللزّوجة الرّبع ولولد الأمّ السّدس وللأخت النّصف: فالمسألة من إثني عشر: للزّوجة ثلاثة، لولد الأم إثنان، للأخت ستّة، والباقي سهم واحد يردّ على الأخت وولد الأمّ، وإن تعدّد هنا ولد الأمّ فلهم أربعة أسهم فتعالت المسألة إلى خمسة عشر.

الرّابعة: ترك ولد أم وزوجة وأختين شقيقتين أو إحداهما شقيقة والأخرى لأب فالمسألة بحالها: فللزوجة الرّبع ولولد الأمّ السّدس وللأختين الثّلثان، فتأخذ الزّوجة ثلاثة، وولد الأمّ أثنين، والأختان ثمانية، لكلّ منهما أربعة، إذا كانتا شقيقتين، وإلّا فللشّقيقة ستّة (النّصف) وإثنان للأخت لأب تكملة الثّلثين، وإن تعدّد ولد الأم هنا فلهم أربعة أسهم، فتعالت المسألة إلى خمسة عشر ايضاً. وإن كان الميت أنثى في هذه المسائل فالزّوج يأخذ النّصف، ولا تتغيّر حصص البقيّة. والفطن لا يخفى عليه حلّ مسائل الزّوج في هذه الأمثلة فلا حاجة للتّطويل.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى هذه الأحكام والحقوق وعد بالثّواب لمن طبّق تلك الأحكام وأنذر المهملين لها بالنّار بالعقاب الشّديد فقال جلّ وعلا:

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾

(**تلك**) الأحكام الّتي ذكرت (**حدود الله**) أي أحكام الله، والحدود جمع حدّ، سمّي

الحكم حداً لأنّ الحدّ ما لا يتجاوز عنه، وكذلك الحكم لا يتجاوز عنه، بل ينفّذ **(ومن يطع الله)** بأن نفّذ أحكامه، وحيث إنّ حكم الله تعالى لا يعرف إلّا من قبل رسوله (ﷺ) قال: **(ورسوله)** وإلّا فالإطاعة يجب أن يكون لله وحده، إلّا أنّ الرّسول مبلغ؛ فلذا كانت إطاعته إطاعة الله حيث لا ينطق الرّسول (ﷺ) عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى. **(يدخله)** الله تعالى بسبب إطاعته **(جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها)** خالدين حال من الهاء في يدخله، وجمع لأنّ الهاء راجع إلى من، وهو للعموم، فيجوز إفراد الضّمير إليه باعتبار اللّفظ وجمعه بإعتبار معناه، **(وذلك)** أي إدخالهم الجنّات وخلودهم فيها **(الفوز العظيم)** والفوز نيل المقاصد والخيرات، **(ومن يعصِ الله)** بالتّجاوز عن أحكامه وعدم تطبيقها، وحيث إنّ معصية الله لا يعلم إلّا بمعصية الرّسول (ﷺ)؛ لأنّه المبلّغ لأحكامه قال: **(ورسوله)** أي ومن يعصِ رسوله فمعصية الله هي معصية الرّسول، ومعصية الرّسول هي معصية الله تعالى **(يدخله)** الله تعالى بسبب عصيانه وعدم تنفيذ أحكامه **(ناراً خالدا فيها)** خالداً حال من الهاء في يدخله، وجمع هناك وأفرد هنا للإشارة إلى أنّ أهل الجنّة فيها يجتمعون، فيجمع المرء مع الأهل والأولاد والأحباب، وفي ذلك لذّة عظيمة، ولكنّ أهل النّار محرومون من هذه اللّذة **(ولهم عذاب مهين)** يهينهم لأنّهم كانوا يعتزون في الدّنيا[1]، ولذلك كانوا يعصون الله تعالى.

خاتمة: لقد أستفيد من هذه المسائل قواعد:

الأولى: أنّه إذا استغرقت حصص ذوي الفروض المسألة ولم يبق شيء؛ فليس للعصبة حينئذٍ شيءٌ بل يسقطون بالإستغراق.

الثّانية: أنّ هذا الفرض لا يسقط بالإستغراق، بل تعالت له المسألة بقدر حصته إذا لم تفي المسألة بها.

الثّالثة: العصبة أولاد الأبوين ذكوراً وإناثاً إذا اجتمعوا، وأولاد الابن ذكوراً وإناثاً إذا اجتمعوا، ولم يكن هناك ولد ذكر للأبوين.

الرّابعة: الأخت من ذوي الفرض إن لم يكن معها أخوها، وإلا فتصير عصبة إذا اجتمعت مع أخيها، وكذلك مع بنت الأبن فيسقط أولاد الأب بها، وإذا اجتمعت الشّقيقة حينما لا يوجد شقيق مع بنت مع الأخت لأب: فللأخت لأب السّدس،

(١) أي يعتزون بالكفر كما يعتز اللادينيون بمظاهر كفرهم الغربي ويعدّونها شيئا حسنا وتطورا وتقّدما...

وللشّقيقة النّصف، وإن تعدّدت الشّقيقات سقطت الأخت لأب إلّا إذا كان معها الأخ، فيعصبها أخوها؛ فيكون الزائد على الثّلثين حصّة الشّقيقات عائداً إليهما للذّكر مثل حظّ الأنثيين.

الخامسة: أنّ الإناث في الدّرجة الأولى يصبحن عصبة مع وجود من يساويهن كالأخت مع الأخ، ولكن في الدّرجة الثّانية أو فوقها لا يعصبن، فبنات العمّ لسن من العصبات وإن كان معهن إخوانهنّ، وكذلك العمّات فهنّ من ذوي الأرحام. وأمّا بنات الإبن فهن ذوات الفروض وحدهن، وإن نزلن ويعصبهن إخوانهن ومن تحتهن كبنت الإبن مع إبن الإبن أي إبن عمها. ولكنّ الأخت لا يعصبها إلّا أخوها أو بنت الإبن وإن نزلت والله تعالى أعلم.

* * *

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى ما للرّجال والنّساء من حقوق، أراد أن يذكر ما على النّساء من عقوبات فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾

(واللّاتي) أي والنّساء **(اللّاتي يأتين الفاحشة)** أي يفعلن الزّنا **(من نسائكم)** المؤمنات **(فاستشهدوا)** أي اطلبوا للشّهادة **(عليهنّ أربعة)** من الشّهداء **(منكم)** من المؤمنين، فالكافر لا تقبل شهادته على المؤمنين والمؤمنات **(فإن شهدوا)** الأربعة **(فامسكوهن)** فاحجزوهن واحبسوهن **(في البيوت)** البيوت المعدة للسّجن من قبل الدّولة، أو بيوت أخرى لا يستطعن فيها الإتّصال بالرّجال، ولا اتّصال الرّجال بهنّ، وأبقوهن في تلك البيوت **(حتّى يتوفّاهنّ)** أي يأخذهنّ **(الموت)** أي ملك الموت فيُمتن، وهذا حكمهنّ **(أو)** أي إلى أن يجعل الله لهن سبيلاً،حكماً آخر غير هذا الحكم **(واللّذان)** أي والرّجل والمرأة اللّذان **(يأتيانها)** أي يفعلان الفاحشة **(منكم فآذوهما)** حسبما ترون من الإيذاء الّذي يرتدعون به **(فإن تابا)** وتركا هذا العمل **(وأصلحا)** لله

ولإتباع أمره (**فأعرضوا عنهما إنّ الله كان تواباً**) يقبل التّوبة عن عباده فاقبلوا أنتم توبتهما أيضا (**رحيماً**) ولرحمته تعالى يقبل التّوبة لا لأمر آخر، فإنّه غنيّ عن العالمين، وحيث يوجد هنا شبه تكرار قالوا لرفع التكرار إنّ المراد بقوله: (**واللاّتي**) إلخ عقاب الثّيب. وبقوله: (**واللّذان**) البكران، ثمّ نسخ حكم الإثنين بالجلد مأئة للبكر ذكراً أو أنثى والرّجم للثّيب ذكراً أو أنثى،وهذا هو السّبيل الّذي ذكره تعالى في قوله (أو يجعل الله لهنّ سبيلا). وقال بعض: المراد بالآية الأولى أهل الزّنا، وبقوله: (**واللّذان**) أهل اللّواطة من الرّجال يلوط رجل برجل بقرينة (واللّذان)، وقال بعضهم: إنّ الحكم أوّل الأسلام على الزّانية كان الحبس ثمّ خفّف الحكم بقوله: (**واللّذان ... إلخ**) فجعل إيذاءً، ثم نسخ بالجلد للبكر والرّجم للثّيب.

ويردّ على هذه الأجوبة كلّها أنّ حكم الرّجال لم يذكر في قوله: (**واللاّتي ... إلخ**) وقال أبو مسلم الأصفهاني: إنّه لا نسخ ولا تكرار، فإنّ المراد بقوله: (**واللاتي... إلخ**) النّساء السّاحقات وبقوله: (**واللّذان ...إلخ**) اللّوطيان، وحدّ الزّنا مذكور لبكرين في سورة النّور بقوله: (**الزّانية والزّاني فاجلدوا كلّ واحد منهما**) وبفعل الرّسول (ﷺ) من رجم الثّيبين، وهذا هو الأصحّ.

تنبيه: الثّيّب من ذاق طعم الجماع في نكاح صحيح ولو مرّة واحدة سواء كان رجلاً أو إمرأة، يقال رجل ثيّب وامرأة ثيّب بدون تاء.

* * *

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّه يقبل التّوبة عن عباده لرحمته، أراد أن يذكر للتّوبة وقتا، وأنّه لا يقبل التّوبة بعد هذا الوقت، لئلّا يغترّ النّاس فيقولوا نعمل ما نشاء ثمّ نتوب، فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾

(**إنّما**) قبول (**التّوبة**) حتم (**على الله**) تعالى حيث وعد به، وكلّ ما وعد به فقد حتّمه هو على نفسه، فقبول التّوبة حتم (**للّذين يعملون السّوء**) أي المعصية ويعم الكفر والذّنوب (**بجهالة**) ليس معنى الجهالة الجهل بالمعصية بل معناها الجهل بكنه عقوبته، وقد أجمع الصّحابة على أنّ كلّ معصية جهالةُ، سواءً كان عمداً أو جهلاً،لأنّ فيها إختيار الحياة الفانية على الباقية، وقد قال يوسف (عليه السلام) فيما يخبر تعالى عنه: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ سورة يوسف الآية/ ٣٢، أي من العاصين (**ثمّ يتوبون من قريب**) أي قبل معاينة أمارات الموت وتحققه، فالتّوبة عند معاينة الموت وتحقّقه لا تقبل، وأمّا قبلها فتقبل، قال الرّسول (ﷺ): (إنّ الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر)[١] (**فأولئك**) الّذين يتوبون قبل تحقّق الموت (**يتوب الله عليهم وكان الله عليماً**) أي يقبل توبتهم لعلمه بصدقها إن كانت توبةً صادقة (**حكيماً**) ولحكمته (**وليست التوبة**) مقبولة (**للّذين يعملون السّيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت**) وتحققه وغرغر (**قال إنّي تبت الآن**)، فهذه الآية كالحديث، يدلّ على أنّ التّوبة قبل حضور الموت مقبولة (**ولا**) تقبل التّوبة من (**الّذين يموتون**) على الكفر (**وهم كفّار**) حال الموت (**أولئك**) الّذين لا يتوبون إلّا عند حضور الموت، والكافرون الّذين أدركهم الموت وهم كفّار (**اعتدنا**) هيأنا (**لهم عذاباً أليماً**) مؤلماً جدّاً، حفظنا الله منه. فالتّوبة عند معاينة الموت غير مقبولة، والموت لا يدرى متى وقته، فكلّ وقت هو وقته فلذلك يجب المبادرة بالتوبة، مخافة أن يدركك الموت، عن قريب وقبل أن تتوب، ألّلهم تب علينا آمين.وقال تعالى جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾

لقد كانت المرأة قبل الاسلام مهضومة حقّها ويعتدي النّاس عليها في نفسها وفي مالها، فانقذها الإسلام من هذه الهوّة وقرّر لها حقوقها، ونهى عن الإعتداء عليها، وذلك

(١) المستدرك على الصحيحين ٤/ ٢٨٦ الحديث رقم ٧٦٥٩. وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

من وجوه: **الأوّل**: كان الرّجل إذا مات في الجاهليّة يأتي إبنه أو أحد أقاربه فيلقي ثوبه على إمرأته فيكون كملك له، إن شاء تزوّجها رضيت أو أبت وبدون صداق، وإن شاء زوّجها من غيره وأخذ صداقها. فكانت المرأة كالمتاع يرثها أهل زوجها كما يرثون المتاع. فأبطل الله تعالى عادتهم هذه فقال: (**يا أيّها الّذين آمنوا لا يحلّ لكم أن ترثوا النّساء كرهاً**) كما ترثون المتاع وقوله: (**كرهاً**) لأنّه إذا أخذها بإختيارها ورضائها فلا بأس بذلك إن حلّت له بنكاح صحيح وصداق مرض. وقيل: الآية وردت في الأنصار كانوا إذا مات الرّجل منهم فأحقّ النّاس بإمرأته وليّها، فيمسكها ولا يدعها أن تتزوّج حتّى تموت ليرثها مالها.

وأقول: إنّ الآية نهى عن الأمرين: الأمر المذكور في القول الأول، والأمر المذكور في القول الثّاني، لأنّه يقال: ورث المال أي أخذه من مورثه، ويقال: ورث أباه أي أخذ ماله، فمعنى الآية: (**لا يحل لكم أن ترثوا**) ذات النّساء كرهاً وأن ترثوا مالهن كرهاً، فأنقذ الله تعالى المرأة بهذه الآية من هاتين النّقمتين وأعطاها حريتها في نفسها وفي مالها. (**ولا تعضلوهن**) قيل: الخطاب للأزواج، فكان الرجل يكره إمرأته فلا يحسن معاشرتها ويضرّها، ولا يطلقها لتفتدي المرأة نفسها بما آتاها من صداقها أو بمال آخر له، وقيل: الخطاب للأولياء كانوا يمتنعون عن نكاح مولّياتهم وتزويجهنّ ممّن شئن لتموت عندهم، فيأخذون مالها بالإرث فنهوا عن ذلك.

وأقول: الآية نهي لطرفين، فلا يجوز للوليّ أن يمنع موليّته من الزواج لتموت عنده فيأخذ آرثها، ولا لزوج أن يسيء معاشرة زوجته لتفتدي نفسها بمالها، بل يجب على الزّوج إمّا حسن معاشرتها أو طلاقها بدون عوض، وعلى الأولياء تزويجهنّ ممّن يرغبن فيهم، فلا تعضلوا أيّها المسلمون النّساء (**لِتَذْهَبُوا ببعض ما آتيتموهن**) من صداق كالزّوج يسيء معاشرة الزّوجة ولا يطلقها حتى تفتدي نفسها بصداقها أو مالها، وكالوليّ يمنع موليّته من الزّواج لتموت عنده فيرثها. ويأخذ ما آتاها من إرث والدها مثلاً، والآية تشمل أناساً يمنعون نساءهم من الزّواج حتّى تتنازل عن حصتها من الإرث، فحرّمت الآية هذه الإعتداءات كلها.

(**إلّا أن يأتين**) ويفعلن (**بفاحشةٍ**) قيل في معنى الفاحشة أقوال، والحقّ أن المراد أنّه لا يحل أخذ مال المرأة كرهاً إلّا إذا كان السّبب في سوء العشرة من جانبهن، فإذا كان الأمر كذلك فللزوج أن لا يطلقها إلّا مقابل مال من صداقها أو مال آخر من أموالها (**وعاشروهنّ بالمعروف**) أي معاشرة حسنة (**فإن كرهتموهن**) فلا تسيئوا إليهن بل إصبروا

حيث **(فعسى أن تكرهوا شيئاً)** وتصبروا عليه ولا تعرضوا أنفسكم على ظلم **(و)** بسبب ذلك **(يجعل الله فيه خيراً كثيراً)** لكم فإنّ العاقبة مجهولة، ولا تدري من الّذي ينفعك ومن الّذي ترى الخير منه، فربّما يأتيك الخير مما تكره فتندم. وهذا الخطاب يشمل النّساء أيضاً، فعليهن الصّبر على أزواجهن وإن كنّ يكرهنهم. يروى أنّ رجلاً كان قبيح المنظر مشوّه الخلقة جداً، وكان له إمرأة جميلة للغاية، فقيل لها: كيف ترضين بهذا الزوج؟ فقالت: لعل زوجي عمل عملاً صالحاً فوهبني الله تعالى إياه جزاءً على عمله، أو عملت أنا عملاً غير صالح فوهبه الله تعالى إياي عقاباً على عملي ولله في أمره أسرار.

ثمّ بعد أن أمر الله تعالى بالمعاشرة بالمعروف مع الزوجة الّتي تكرهها، أراد أن يبيّن أنّه إذا بلغت الكراهة حداً لا يطيقه المرء، فله طلاقها بشرط أن لا يأخذ من مالها مقابل الطّلاق شيئاً من الصّداق أو غيره،وعدم اتّخاذ الميل لذلك، بأن يسيء إليها إلى أن تفتدي نفسها بمالها من الصّداق أو غيرها فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾

(وَإِنْ أَرَدْتُمْ إِسْتِبْدَالَ زَوْجٍ) من النّساء فتنكحوها **(مكان زوج)** من زوجاتكم فتطلقوها لتتزوّجوا غيرها **(و)** قد كنتم **(آتيتم إحداهن)** وهي الّتي تريدون طلاقها **(قنطاراً)** مالاً كثيراً صداقاً لها أو إرثاً أو هبةً أو بأيّ نوع من التّمليك **(فلا تأخذوا منه)** أي فلا تستردّوا من المال الّذي أعطيتموهنّ **(شيئاً)** ولو قليلاً **(أتاخذونه بهتاناً)** ظلماً **(وإثماً)** وذنباً **(مبيناً)** واضحاً.

فالمعنى: أنّ أخذ أيّ شيء من ذلك هو ظلم وإثم إلّا أن يكون السّبب من قِبَلهن كأن تكون هي الّتي تريد الطّلاق ظلماً وبدون حق يسيغ لها هذا الطلب، فحينئذ يجوز طلب المال منها مقابل طلاقها، وإن كان السّبب من الزّوج فلا يجوز ذلك، بل إنّه لمنكر جداً، ولذلك إستفهم الله تعالى استفهام تعجب، فقال جلّ وعلا:

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾

(وكيف) الإستفهام للتّعجّب والإنكار، فالمعنى: أنّه من المنكر جداً، ويليق بأن

يتعجّب منه لنكارته أنّكم **(تأخذونه)** أي ما أتيتم زوجاتكم أو تستردّونه منهنّ **(وقد أفضى)** فسّره بعض أهل العلم بأنّ معناه خلا **(بعضكم)** وهو الأزواج **(إلى بعض)** وهن النّساء خلوة صحيحة، فيستقرّ المهر كلّه بالخلوة، وهذا مذهب أبي حنيفة. وقال بعضهم: معناه الجماع، فلا يستقرّ المهر كلّه إلّا بالجماع، وهذا مذهب الشّافعي **(وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً)** والميثاق هو: إما الإمساك بمعروف أو التّسريح بإحسان، أي بدون إضرار بهنّ ولا طلب مال منهن. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حقوق الرّجال على النّساء وحقوق النّساء عليهم، أراد تعالى أن يذكر ما يحلّ من النّساء نكاحه، وما لا يحلّ فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾

كان النّاس قبل الإسلام ينكحون أزواج آبائهم، أي غير أمّهاتهم، فحرّم الله تعالى ذلك فقال: **(ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم)** فسّره بعض العلماء فقال: معنى ما نكح آباؤكم ما وطؤوه بالملك أو بالنّكاح أو بالزّنا، فتحرم منكوحة الأب وإن علا بزنا أو بغيره وبأي وجه كان الوطء على الإبن وإن نزل، وهذا مذهب كثير من المفسّرين، وذهب اليه أبو حنيفة (رحمه الله)، وقال بعض: المراد بـ **(ما نكح)** أي ما عقد عليه آباؤكم عقداً صحيحاً فلا تحرم المرأة إلّا بنكاح الأب لها وإن علا نكاحاً صحيحاً. أو وطئها بملك أو بشبهة أو في نكاح فاسد **(إلّا ما قد سلف)** أي من كان فعل ذلك في الجاهليّة ثمّ أسلم فهو معفو عنه إن لم تبق المرأة تحته، وإلّا فعليه مفارقتها فوراً، وقال تعالى ذلك تسلية لمن سبق أن فعل ذلك، وبشارة بأنّه لا يعذب بما فعل في الجاهليّة **(إنّه)** أي إنّ نكاح منكوحة الأب **(كان فاحشةً)** أي خصلةً قبيحةً **(ومقتاً)** سبباً لغضب الله تعالى **(وساء)** ذلك العمل **(سبيلاً)** طريقاً أي عادة وعرفاً، فهو عرف سيئ جدّاً؛ فهو محرّم شرعاً وعقلاً وعرفاً. ثمّ قال تعالى جلّ وعلا:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم

بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾

(**حرّمت عليكم**) نكاح (**أمّهاتكم**) والأمّهات يشملها قوله: (**ما نكح آباؤكم**) فلم يحتج إلى ذكرها بعد، إلّا أنّه ذكرها تعالى لأنّ منكوحة الأب شاعت حسب العرف في زوجات الأب غير الأمّهات، والأمّهات جمع أمّ وهي من ولدتك كالأمّ، أو ولدت من ولدتك من طرف الأمّ وهي الجدّة من طرف الأمّ وإن علت إلى حواء، أو ولدت من ولدك من طرف الأب وهي الجدّة من طرف الأب وإن علت إلى حواء. فالأمّ والجدّات من أي جهة كنّ محرّمات على المرء (**وبناتكم**) جمع بنت وهي من ولدتها كبنت الصّلب أو بنت الإبن وإن نزلت إلى آخر الدّنيا، وبنت البنت وإن نزلت كذلك (**وأخواتكم**) جمع أخت، وتشمل الأخت الشّقيقة أي الأخت لأبوين أو لأب فقط أو لأم وحدهما (**وعمّاتكم**) جمع عمة وهي أخت من ولدك، فتشمل أخت الأب والجدّ وإن علا، سواء كانت شقيقة لأحدهما أو أختاً لأب فقط أو لأمّ وحدها (**وخالاتكم**) جمع خالة وهي أخت الأمّ أو أخت الجدّة وإن علت، سواء كانت شقيقة لهما أو لأب فقط أو لأم وحدها (**وبنات الأخ**) جمع بنت، فبنت الأخ الشّقيق أو الأخ للأب أو للأمّ حرام وإن نزلت، كبنت إبن إبن الأخ مثلاً (**وبنات الأخت**) الشّقيقة أو لأب او لأمّ وإن نزلت كما مرّ، فهذه هي النّساء المحرّمات بسبب النّسب.

ثمّ أراد تعالى أن يذكر المحرّمات بسبب الرّضاع؛ فقال عزّ وجلّ: (**وأمّهاتكم اللّاتي أرضعنكم**) فتشمل المرضعة بالفعل وأمّها وإن علت، وأمّ أبيها وإن علت (**وأخَواتكم من الرضاعة**) وهي الّتي ارتضعت من أمّك أو ارتضعتَ أنت من أمّها أو ارتضعتَ أنتَ وهي من إمرأة غير أمّك وغير أمّها. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى المحرّمات من الرّضاع أراد أن يبيّن المحرّمات بالمصاهرة؛ فقال جلّ وعلا: (**وأمّهات نسائكم**) فأمّهات النّساء سواء كنّ أمّهات أو جدّات لهنّ من طرف أب أو أمّ وإن علت تحرم بمجرد العقد على **بناتهنّ** سواء دخل بهنّ أو لا (**وربائبكم**) جمع ربيبة وهي بنت الزّوجة وبنت ابنها أو بنتها وإن سفلت (**اللّاتي**) أي الرّبائب (**اللّاتي في حجوركم**) وهذا القيد جيئ به لموافقة الغالب لأنّه غالباً تكون بنت الزوجة في حجور الزّوج وتحت رعايتها، فالرّبيبة وإن لم تكن في

حجور زوج أمّها حرام أيضاً، فمن تزوج إمرأةً لها بنت كبيرة تصير تلك البنت ربيبة ومحرّما لزوج أمّها، ويحرم عليه نكاحها إن خلت عن النّكاح، هذا وإنّما تحرم الرّبيبة إذا كانت (**من نسائكم اللاّتي دخلتم بهنّ**) أي جامعتموهن (**فإن لم تكونوا دخلتم بهنّ فلا جناح عليكم**) في أن تنكحوهن، فالرّبيبة لا تحرم بمجرّد العقد على أمّها بخلاف منكوحة الأب ومنكوحة الإبن فإنّهما تحرمان بمجرد النّكاح، كما قال تعالى: (**وحلائل أبنائكم**) فحليلة الأبناء تحرم بمجرد النّكاح إذا كان الأبناء من الأبناء (**الّذين من أصلابكم**) كالإبن وإبن الإبن وإبن البنت وإن نزلوا، وأمّا من كان إبناً بالتّبني فلا تحرم حليلته على من تبنّاه فإنّ الرّسول (ﷺ) تزوج زينب وكانت زوجة لزيد الّذي تبنّاه الرّسول (ﷺ) (**و**) حرم عليكم (**أن تجمعوا**) في التّمتّع (**بين الأختين**) بنكاح أو ملك أو أحداهما بنكاح، والأخرى بملك على خلاف يأتي. ثم إنّ بعض المسلمين قد سبق أن جمعوا بين الأختين قبل فقال تعالى: (**إلّا ماقد سلف**) من جمعكم بين الأختين قبل ورود النّهى فهو مغفور له، ويجب أن يفرّق بينهما بطلاق واحدة منهما (**إنّ الله كان غفوراً**) يغفر لمن عمل عملاً محرّماً قبل ورود النّهى عنه (**رحيماً**) ولرحمته يغفر لعباده لا لأمر آخر. **وههنا مسائل: المسألة الأولى**: إنّ أسباب التّحريم ثلاثة:

الأول: النّسب. **الثّاني**: المصاهرة. **الثّالث**: الرّضاع.

ولا سبب آخر يوجد لتحريم نكاح المرأة للرّجل سوى الشّرك والإلحاد، وهما عرضيّان لا ذاتيّان، ولذا لم يعدّهما العلماء.

المسألة الثّانية: المحرّمات بالنّسب سبع: **الأولى**: الأمّهات وهي من ولدتك أو ولدت من ولدك فتشمل الجدّات من طرف الأب وإن علون ومن طرف الأم وإن إرتقين إلى حواء. **الثّانية**: البنات والبنت هي من ولدتها أو ولدت من ولدها فتشمل بنات الإبن وبنات البنت وإن نزلت إلى يوم القيامة. **الثّالثة**: الأخوات وهن من شاركتك في الولادة، فتشمل الأخت لأبوين أو لأب فقط أو لأمّ وحدها. **الرّابعة**: العمّات والعمّة هي من شاركت واحداً من أصولك الذّكر في الولادة، فتشمل أخت الأب والجدّ وإن علا إلى آدم وسواء، كانت أختاً لأبوين أو لأب فقط أو لأمّ وحدها، وسواء الجدّ كان جداً من طرف الأب أو من طرف الأمّ. **الخامسة**: الخالات والخالة هي من شاركت إحدى أصولك الأنثى في الولادة فتشمل أخت الأم وأخت الجدّتين لأب ولأمّ وإن علت، وسواء كانت أختاً لأبوين أو لأب أو لأمّ فقط. **السّادسة**: بنات الأخ، وبنت الأخ: هي من ولدت من الأخ لأبوين أو لأب أو لأمّ، وسواء كانت من الأخ مباشرة أو من إبنه أو

بنته وإن نزلت إلى آخر الدّنيا. **السّابعة:** بنات الأخت وبنت الأخت: هي من ولدت من الأخت مباشرة أو من إبنها أو بنتها وإن نزلت، وسواءً كانت الأخت لأبوين أو لأب أو لأمّ فقط.

وهذه المحرمات بالنّسب محرّمات بالإجماع، ولا خلاف فيهن بتاتاً حيث نصت الآية عليهنّ.

المسألة الثّالثة: المحرمات بالمصاهرة خمس: **الأولى:** ما نكحها الأب وتشمل ما نكحها الجدّ من طرف الأب وإن علا والجدّ من طرف الأمّ وإن إرتقى إلى آدم، فتحرم منكوحة الآباء والأجداد بنفس العقد الصّحيح عليها بدون خلاف سواء وطئها أم لا.

الثّانية: حليلة الإبن وتشمل حليلة إبن الإبن وإبن البنت وإن نزل فتحرم هذه أيضاً بمجرد عقد النكاح الصحيح عليها وطئها أم لا ولا خلاف في ذلك أيضاً. **الثّالثة:** بنت الزوجة فتشمل بنتها وبنت إبنها وإن نزل وبنت بنتها وإن نزلت ولا تحرم هذه بنفس العقد، بل إنّما تحرم بعد الدّخول بالزّوجة قال تعالى: (وأمّهاتُ نِسائكم ورَبائبكم اللّاتي في حجوركم من نسائكم اللّاتي دخلتم بهنّ، فان لم تكونوا دخلتم بهنّ فلا جناح عليكم) أي في نكاح بناتهنّ بعد فراقهن. وهذا إجماع لا خلاف فيه لورود النّص بذلك، أمّا قوله تعالى: (**في حجوركم**) فهذا القيد جيئ به لموافقة الواقع لأنّ الغالب في الرّبائب أنّهن يكنّ في حجور أزواج أمهاتهن ولم يؤت به للشّرط؛ فتحرم بنت الزّوجة بعد الدّخول بأمّها سواء كانت في حجر زوج أمّها أو لا، وهذا مذهب الجمهور ومذهب داود الظّاهري، إلّا أنّها لا تحرم مالم تكن في حجر زوج أمّها، وروي ذلك عن بعض الصحابة (ﷺ)، وقال إبن المقدر: وقد أجمع العلماء على خلاف هذا الرأي.

مثال للتوضيح: لو زنى رجل بإمرأة هل يحرم عليه بنتها؟ فعند الجمهور لا تحرم وعند الأحناف تحرم.

مثال آخر: هل تحرم الرّبيبة بالخلوة بأمّها أو لمسها بشهوة أو قبلتها؟ فعند الجمهور لا تحرم إلا بالدّخول. وعند الأحناف تحرم لأنّ هذه الأشياء تنوب مناب الدّخول بها، وهذا الخلاف موجود في كلّ ما شرط الدّخول فيهما.

الرّابعة: أمّ الزّوجة وهي من ولدتها أو ولدت من ولدها فتشمل الأمّ والجدّات لها من طرف الأب أو الأمّ وإن علون، وهذه تحرم بمجرّد العقد على بنتها عند الجمهور. وعند بعض: لا تحرم إلّا بعد الدّخول ببنتها، وروي ذلك عن عليّ وإبن عبّاس (ﷺ) بطرق ضعيفة، ولذا قال بعض العلماء: إنّ الإجماع على خلاف ذلك وشددّوا في إنكاره،

والحكمة في تحريم أمّ الزّوجة بنفس العقد، بخلاف بنت الزّوجة فإنّها لا تحرم إلّا بعد الدّخول بأمّها هي: أنّ المرء إذا تزوج البنت يحتاج إلى مخالطة أمّها ومراجعتها في أمور التّجهيز والزّفاف وغير ذلك، بخلاف من تزوّج الأمّ فإنّه لا يحتاج إلى مراجعة البنت والله تعالى أعلم.

الخامسة: من المحرّمات بالمصاهرة الجمع بين الأختين في الوطء بنكاح، وهذا لا خلاف فيه، وأمّا بملك اليمين ففيه خلاف، وإذا كانت إحداهما بنكاح والأخرى بملك فمنعه مالك وأبو حنيفة وأجازه الشّافعي (ﷺ)، وكذلك يحرم الجمع بين المرأة وعمّتها وبينها وبين خالتها، بل بين كل إمرأتين، لو فرض إحداهما ذكراً لا يجوز التزاوج بينهما لنسب أو رضاع لا لمصاهرة، قال إبن قدامة في المغني: وليس في ذلك خلاف، إلّا أنّ الشّيعة والخوارج لم يحرّموا ذلك الجمع إلّا بين الأختين. ولا عبرة بخلافهم لقول الرّسول (ﷺ): (لا تُنكح المرأة على عمّتها ولا العمّة على إبنة أخيها ولا المرأة على خالتها ولا الخالة على إبنة أختها)[١]. وفي رواية متفق عليها: (لايجمع بين المرأة وعمّتها ولا بين المرأة وخالتها)[٢] ومن أفتى بغير ذلك فقد خالف رسول الله (ﷺ).

❊ ❊ ❊

تنبيه: إنّ هذا التّحريم مؤقت، فإذا فارق الرّجل إمرأته يجوز له التّزوج بأختها أو عمّتها أو خالتها، فإذا كان الفراق ببينونة فيجوز ذلك، وإن لم تنقض عدّة المرأة عند الجمهور، وعند الأحناف لا يجوز إلّا بعد انقضاء العدّة، وإذا كان الفراق من ذات الرّجعة فلا يجوز ذلك إلّا بعد إنقضاء العدّة إتفاقاً.

خاتمة: هل يثبت النّسب بالزّنا أم لا ؟

الجواب: فعند الحنفية: نعم، فتحرم بنت من زُني بها وأمّها وعمّاتها وخالاتها ... إلخ، وعند الجمهور: لا حرمة لماء الزّنا فلا يثبت النّسب له، فيجوز للرّجل أن يتزّوج بنته من الزّنا وأمّ المزنيّة بها وبناتها ... إلخ.

❊ ❊ ❊

المسألة الرّابعة: في المحرّمات بالرّضاع سبع، وهنّ المحرّمات بالنّسب المذكورة في

(١) صحيح ابن حبان ٩/ ٤٢٧ الحديث رقم ٤١١٧.

(٢) صحيح البخاري ٥/ ١٩٦٥ الحديث رقم٤٨٢٠.

الآية، وهنّ الأمّهات وإن علون، والبنات وإن سفلن، والأخوات والعمّات وإن علون، والخالات وإن علون، وبنات الأخ وإن سفلن، وبنات الأخت وإن نزلن، فإن الآية نصت على الأمهات والأخوات وألحقت الباقيات بهن بقوله (ﷺ): (يحرم من الرضاع ما يحرم من النّسب)[١]. وفي رواية مسلم: (الرّضاع يحرّم ما يحرّم الولادة)[٢]، وقال (ﷺ): في درة بنت أبي سلمة من أمّ سلمة زوج الرّسول (لو أنّها لم تكن ربيبتي في حجري ما حلت لي، أنّها إبنة أخي في الرّضاعة، أرضعتني وأباها ثويبة)[٣]، فالمحرّمات المذكورة في النّسب محرّمة بالرّضاعة. قال إبن قدامة: ولا نعلم في هذا خلافاً.

وهنا مسائل أيضاً: **المسألة الأولى**: الأمّ الرّضاعيّة هي الّتي أرضعتك، والبنت من الرّضاع هي الّتي ارتضعت هي أو أمّها أو جدّتها من زوجتك، والعمّة هي الّتي ارتضعت من أمّ أبيك وإن علا، أو ارتضع أبوك من أمّها وإن علا، أو ارتضعت هي وأبوك وإن علا، من إمرأة أخرى أي إمرأة كانت، سواء ارتضعا منها في زمان واحد أو في زمانين، كأن يكون أبوك أكبر منها، فارتضع منها ثمّ ولدت هي فارتضعت منها بعد أيضاً. والخالة في الرّضاعة هي الّتي ارتضعت من أمّ أمّك وإن علت، أو ارتضعت أمّك من أمّها أو أمّ أمّها وإن علت، أو ارتضعت أمّك من أمّها أو أمّ أمّها وإن علت، أو ارتضعت هي وأمّك من إمرأة أخرى أيّ إمرأة، سواء كانت في زمان واحد أو في زمانين، كأن تكون إحداهما أكبر من الأخرى، والأخت من الرّضاع كل بنت ولدت من الّتي أرضعتك، وبنت الأخ هي بنت من ولدته المرضعة، وإن نزلت كبنت إبن الأخ أو بنت الأخ إلى يوم القيامة، وبنت الأخت هي: بنت إمرأة ولدت من مرضعتك، وكذلك بنت رجل أرضعته مرضعتك، فهي بنت أخيك وإن نزلت، وبنت إمرأة أرضعتها مرضعتك فهي بنت أختك وإن نزلت وعلى هذا فقس. **المسألة الثّانية**: إذا أرضعتك إمرأة فيصير زوجها أباً لك؛ فتحرم عليك بناته من غير المرضعة[٤]، وتكون بنات أبنائه من غير المرضعة بنات أخوة، وأخواته عمات لك، وهذا عند أبي حنيفة ومالك والشّافعي

---

(١) صحيح البخاري ٢/ ٩٣٥ الحديث رقم ٢٥٠٢.

(٢) السنن الصغرى للبيهقي ٦/ ٤٩٥ الحديث رقم ٢٨٦٤.

(٣) صحيح مسلم ٢/ ١٠٧٢ الحديث رقم ١٤٤٩.

(٤) أي من امرأته الثانية، ويسمى هذا التحريم بسبب لبن الفحل لأن الرجل الذي تولد من مائه اللبنان واحد / انظر المغني لابن قدامة ٧/ ٨٦.

وأحمد والأوزاعي والثّورى (ﷺ) وعند طائفة لا يؤثّر هذا فإن الرجل ليس له علاقة باللبن وإنما اللبن للمرأة فقط فلا تحرم هؤلاء على الرّضيع، وبهذا قالت السّيدة عائشة وإبن الزّبير وإبن عمر(ﷺ). **المسألة الثّالثة: في المقدار الّذي يحرّم من اللّبن**: قال طائفة: الرّضاع يحرّم مطلقاً قليله وكثيره ولا حد له، وهذا مذهب مالك وأبي حنيفة، وروي ذلك عن عليّ وإبن مسعود وإبن عمر وإبن عبّاس (ﷺ). وقال قوم: لا يحرّم القليل وله حدّ لا يحرّم مالم يصل إلى ذلك الحدّ، وإختلف هولاء في هذا الحدّ فقال بعضهم: لا يحرّم مالم يبلغ خمس رضعات، وهذا مذهب الشّافعي (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) وقال بعضهم: عشر رضعات، وقال قوم: ثلاث رضعات. والرّضعة هي وجبة من الرّضاع يشبع بها الرّضيع، وعلامتها أنّه يلفظ الثّدي ولا يمصّه بل يتركه. **المسألة الرابعة**: الرّضاع إنّما يؤثر ويحرّم إذا كان عمر الرّضيع دون حولين، وأمّا من جاوز الحولين فارتضع بعد الحولين من إمرأة فلا يؤثّر ولا يحرّم ذلك الرّضاع، وهذا مذهب كافة الفقهاء، ومذهب داود وأهل الظاهر، إلّا أنّ رضاع الكبير يحرّم أيضاً، وهذا مذهب سيّدتنا عائشة (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا). **المسألة الخامسة**: إذا فُطم الغلام قبل حولين واستغنى بالغذاء ثمّ ارتضع قبل إنتهاء الحولين فيحرّم عند أبي حنيفة والشّافعي (ﷺ) وعند مالك (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) لا يحرّم ذلك. **المسألة السّادسة**: إذا حلب اللّبن من الثّدي في قدح وأشرب منه الولد فالأصحّ: أنّه يحرّم، وعند بعض: لا يحرّم، وكذلك إذا اختلط اللّبن بالماء وغيره فأطعم الولد فيحرّم أيضاً وعند بعض: لا يحرّم لمختلط. **المسألة السّابعة**: عند الشّافعي (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) لا يثبت الرّضاع إلّا بشهادة أربع نسوةٍ أو رجل وإمرأتين، وقال مالك (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ): تكفي شهادة إمرأتين بشرط فشوّ قولهما بذلك، وعند البعض: لا يشترط الفشوّ أيضاً، وعند أبي حنيفة (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ): تكفي شهادة إمرأة واحدة مطلقاً، ومنهم من إشترط الفشوّ في ذلك أيضا والله تعالى أعلم. قال الله جل وعلا:

﴿ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾

(والمحصنات) أي وحرّمت عليكم المحصنات وهنّ ذوات الأزواج من أحصنه إذا

منعه، سمّيت المتزوّجة محصنة لأنّ زوجها منع بضعها بالزّواج من تمتّع غيره به، فالمتزوّجة من الغير لا يجوز خطبتها ولا نكاحها ولا جماعها **(إلّا ما)** أي إلّا ذات زوج **(ملكت)** أي ملكته **(أيمانكم)** وهنّ النّساء اللّاتي تمّ سبيهُن في القتال، وبقي أزواجهّن في دار الحرب، فإنّه يجوز لمن ملكهنّ بالقسمة أو بالشراء أن يجامعهنّ بعد الإستبراء، فإنّ السّبي يكون فسخاً لنكاحهنّ من أزواجهنّ **(كتاب الله)** أي كتب الله تعالى هذه الأحكام كتاباً وفرضها **(عليكم)** أيّها المسلمون **(وأحلّ لكم)** نكاح **(ما)** المرأة الّتي تكون **(وراء)** غير **(ذلكم)** المذكورات من المحرّمات بالنّسب أو الرّضاع أو المصاهرة، وأحلّ لكم هذه لأجل **(أن تبتغوا)** التّمتّع بالنّساء بالنّكاح **(بأموالكم)** وتكونوا في التّمتّع بالنّساء **(محصنين)** متعفّفين **(غير مسافحين)** أي غير زانين، سمى الزّنا سفاحاً لأنّ سفح بمعنى: صبّ وأراق، فالزّاني يصبّ النطفة ويريقها، أي يضعها حيث لا يستفيد منها التناسل، وحاصل المعنى: أنّ الله تعالى أحلّ لكم نكاح غير المذكورات، لتتمتّعوا بالحلال دون الحرام، حيث لولا ذلك لما ملك الإنسان نفسه، فكان يقضي شهوته كيفما كان، وقوله تعالى: **(ما وراء ذلكم)** قال في الخازن: هذا عام مخصوص فإنّه لا يحل كلّ ما وراء هذه المذكورات، فإنّ هناك ما لا يحلّ، وهي ما وراء المذكورات، وهي كالمطلّقة ثلاثاً لا تحلّ إلّا بعد التحليل، والجمع بين المرأة وعمّتها وخالتها والمعتدّة حتّى تنقضي عدّتها، والأمة على الحرّة والأمة للقادر على نكاح الحرّة ونكاح الخامسة والمرأة الّتي حرّمت بالملاعنة.

* * *

وأقول: لا وجه للتّخصيص فإنّ قوله: (وأحلّ لكم ما وراء ذلكم) معناه أنّ من لم يكن في هذه الدّرجات من الرّضاع أو النّسب أو المصاهرة حلال لكم، ولا يحرم بالنّسب والرّضاع كبنت العمّ من النّسب أو الرّضاع، أو بنت الخال لأنّها ليست في هذه الدّرجة أو بالمصاهرة كبنت عمّ المرأة، هذا والعمّة والخالة مستفادة من الآية لأنّ قوله: ﴿وأمهاتكم اللّاتي أرضعنكم وإخوانكم من الرضاعة﴾ سورة النساء الآية/ ٢٣، يراد به كلّ ما حرم بالنّسب، فإنّ ذكر الأمّهات يراد بها الأصول والفروع، والأخوات يراد بها الحواشي الّتي حرّمت بالنّسب وإلّا فيلزم أنّه ترك ذكر البنات من الرّضاعة، وما عدّه الخازن ليست ولا واحدة منها محرّمة للنّسب أو الرّضاع أو المصاهرة، بل محرّمة لأمور أخرى فلا تشملهنّ الآية، فلا داعي للتّخصيص وقوله: (بأموالكم) يفيد أنّ الصّداق أمر حتميّ وأنّه إن سمّي أو لم يسمّ فتستحقّها المرأة، فإنّها تستحقّ المسمّى إن سمّي وإلّا فمهر المثل.

(فما) أي فالمرأة الّتي (استمتعتم به منهنّ) وتذكير الضمير حملاً على لفظ ما فإنّه مذكّر[١] (فآتوهن) أي أعطوهنّ (أجورهنّ) أي مهورهنّ وصداقهنّ كلّه، ولا تنقصوا منه شيئاً، يسمّى المهر أجراً لأنّه بدل الإنتفاع بالبضع، كما يسمّى بدل الإنتفاع بالدّار أجراً أو أجرة[٢] .وههنا إشكال: والإشكال هو أن مفهوم المخالفة من الآية أنّه إذا لم يستمتع الرّجل بالمرأة كأن طلّقها قبل الإستمتاع لا يؤتيها الأجر أي المهر، وهو ليس كذلك لأنّه يجب عليه في هذه الحالة نصف المهر.ويمكن أن يجاب بأنّ المعنى فآتوهن أجورهن كلّها فيفيد المخالفة، أنّه عند عدم الإستمتاع لا يؤتى الأجور كلها بل نصفها، وذلك إذا طلّقها قبل الإستمتاع، إلّا أنّه يشكل بموت أحد الزوجين قبل الإستمتاع، فإنّها تستحقّ المهر كلّه فلا مناص من الإشكال، إلّا بأنّ نقول بالمذهب الّذي لا يأخذ بالمفهوم المخالف وإلّا يجعله حجةً، أو نقول: إنّ هذه الجملة واردة في نكاح المتعة فإنّه بعد الإستمتاع بها يجب ما سمي وقبل الإستمتاع فلا شيء لها، وقد ذهب بعض المفسّرين إلى: أنّ الفقرة واردة في المتعة، وقد تمسّك من يجوّز المتعة بهذه الفقرة من الآية. وردّ المنكرون بأنّ هذه الفقرة مرتبطة بالمنكوحات لا المتمتعات بهنّ، وعندي: أنّه لو أريد بهذه الفقرة المتعة لا يضرّ شيئاً وسلمت الآية مما ذكرنا من مفهومها المخالف، وإنّ المنكرين لمتعة لا ينكرون ثبوتها بل ينكرون دوامها، فإن الأمّة أجمعت على أنّ المتعة كانت مباحة إلّا أنّها أجمعت بعد ذلك على نسخها إلّا الشّيعة[٣] فإنّهم لم يوافقوا على النّسخ ويعتمدون على دوامها وانّها مباحة عندهم إلى يوم القيامة، وقد روي ذلك عن جماعة من الأصحاب(ﷺ) والمناقشة على جواز المتعة وعدم جوازها طويلة إلّا أنّها لا تجدي شيئاً؛ لأنّ المتعة كانت ثابتة إجماعاً، ونسخها مختلف فيه بين أهل السّنة وبين

---

(١) أي فمن تمتعتم بهن من المنكوحات.

(٢) هذا قول كثير من العلماء، ولكنه فيه نظر، لأنّ الأجرة تكون مقابل المنعة المستفادة من المأجور، كما يجب أن يكون مقدار الإنتفاع بدله معلوماً، لكن المنافع بين الزوجين مشتركة بين الجانبين من جانب، ومن جانب آخر لا يمكن تحديدها والعلم بها ولا تعيينها على وجه الدقّة، كما لا يليق هذا بمقام إنسانية المرأة، لذلك أرى المهر شئ رمزي أو ثواب معبر عن تقدير لجانب المرأة كالهدية، فهو رمز للتضحية بالمال لأجلها و بيان الإستعداد للإنفاق عليها وهي تصبح زوجته وأم أولاده...

(٣) يقصد الشيعة الإمامية فقط لأن الشيعة الزيدية يحرّمونها كأهل السنة.

الشّيعة ولا يفهم هذا الخلاف[1]. فإنّ الأحاديث الّتي يرويها أهل السّنة في نسخها لا

---

(١) **أحببت أن أعرض تفصيل مسألة المتعة كما جاء في كتابي (فقه الإمام علي) أظنّها تغني في فهم حقيقة المسألة :**

روي عن علي ﷺ في نكاح المتعة روايتان:

الرواية الأولى: نكاح المتعة ممنوع وغير جائز عند علي ﷺ، نقل ذلك عنه جمهور الفقهاء والمحدثين، وهي الرواية المعتمدة عند جماهير علماء المسلمين عدا الإمامية.

وقد روي عن علي في ذلك عدة روايات:

فعن محمد بن علي أن عليا قال لابن عباس: إنك امرؤ تائه، إن النبيﷺ وسلم نهى عن نكاح المتعة وعن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر. وإنما قال له ذلك حين سمع ابن عباس يرخص فيها. وعن إياس بن عامر عن عليﷺ قال: نهى رسول الله ﷺ عن المتعة، قال: إنما كانت لمن لم يجد، فلما أنزل النكاح والطلاق والعدة والميراث بين الزوج والمرأة نسخت. وأخرج عبد الرزاق عن علي انه قال: نسخ رمضان كل صوم ونسخ المتعةَ الطلاق والعدة والميراث. وذلك يدل على أنها كانت قبل نزول أحكام الأسرة ثم نسخت بنزولها.

وروي ذلك عن عمر وابنه عبد الله وابن مسعود وابن الزبير رضي الله عنهم. وبه قال إسحاق وأبو ثور وأبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والظاهرية والزيدية. واحتج عليﷺ بما رواه عن النبيﷺ كما سبق.

ويدل له أيضا: ما في الصحاح عن عليﷺ: أن النبيﷺ وسلم نهى عن المتعة وعن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر.

ويدل على النسخ والتحريم البات ما رواه مسلم عن سبرة الجهني أن أباه حدثه أنه كان مع رسول الله ﷺ فقال: يا أيها الناس إني قد كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء، وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة.

الرواية الثانية: أنه كان يراها جائزة لكنه توقف عن القول بها لأجل عمر؛ فاختلفت الرواية عنه. وهذا اعتمادا على ما روي عن ابن جريج قال: أخبرني من أصدق أن عليا قال بالكوفة: لولا ما سبق من رأي عمر بن الخطاب؛ لأمرت بالمتعة ثم ما زنى إلا شقي.

ويقول بجواز المتعة الإمامية، ونقل عن بعضهم كراهيتها.

وذكر ابن حزم بعد أن قال بنسخ المتعة من الله تعالى على لسان نبيهﷺ فقال: وثبت على تحليلها بعد رسول الله ﷺ جماعة من السلف ﷺ، منهم من الصحابة أسماء بنت أبي بكر الصديق وجابر بن عبد الله وابن مسعود وابن عباس ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن حريث وأبو سعيد الخدري وسلمة ومعبد أبناء أمية بن خلف، ورواه جابر بن عبد الله عن جميع الصحابة مدة رسول الله ﷺ ومدة أبي بكر وعمر إلى قرب آخر خلافة عمر واختلف في إباحتها عن ابن الزبير. ومن التابعين طاووس وعطاء وسعيد بن جبير وقال: واختلف فيها عن علي وعمر وابن عباس وابن الزبير. ونقل الشوكاني القول بإباحتها عن الباقر=

يثق الشّيعة بها أو يؤوّلونها، والّتي هم يرونها لا يثق بها أهل السّنة أو يؤوّلونها،

= والصادق، ونقل ابن قدامة ذلك عن ابن جريج.

ولكن في النقل عن كل أولئك ممن نقل عنهم نظر كما سيظهر فيما يأتي:

١- أما النقل عن أسماء فلعله ما روي عن سعيد بن جبير قال: سمعت عبد الله بن الزبير يخطب وهو يعرّض بابن عباس ويعيب عليه قوله في المتعة فقال ابن عباس يسأل أمه إن كان صادقا، فسألها فقالت: صدق ابن عباس قد كان ذلك. وهو لا يدل على قول أسماء بالمتعة، وإنما هو إخبار منها فقط بأن المتعة كانت في بداية الأمر، لأن الظاهر أن ابن الزبير لم يكن يعلم بحدوث المتعة أصلا لكونه صغيرا زمن النبي ﷺ إذ أنه ولد سنة اثنتين من الهجرة، وقول أسماء أنه قد كان لا نزاع فيه وإنما النزاع في نسخها.

٢- وأما جابر بن عبد الله فإن كل ما ثبت عنه في الإخبار عن وجود المتعة زمن النبيﷺ لا نكران فيه إلا ما رواه مسلم عنه قوله: كنا نستمتع بالقبضة من التمر والدقيق الأيام على عهد رسول الله ﷺ وأبى بكر حتى نهى عنه عمر في شأن عمرو بن حريث. وقوله أيضا في المتعتين: فعلناهما مع رسول ﷺ وسلم ثم نهانا عنهما عمر فلم نعد لهما. وذلك لا يدل على قوله بجواز المتعة لأمرين:

الأول: أنه لا يدل على قوله بالمتعة بل إن قوله: فلم نعد لهما، يدل على تأييده النسخ، إذ لولا ذلك لما امتنع عنهما.

الثاني: أنه يدل على فعل نفسه ومبلغ علمه، فلعله لم يطلع على الناسخ حتى أعلن عنه عمرﷺ، لذلك امتنع عنها حين علم بالنسخ وأما ابن مسعود فإن ما ثبت عنه أنه قال: كنا نغزو مع رسول ﷺ وليس لنا شيء فقلنا: ألا نستخصي فنهانا عن ذلك، ثم رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب، ثم قرأ علينا: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ**)

لا يدل على قوله بالمتعة لأمور:

الأول: أنه يدل على الإخبار عن ترخيص النبيﷺ في المتعة أول الأمر ولا يدل على استمرار الجواز إلى ما بعده. **الثاني:** ذكر ابن حجر العسقلاني أن هذه وردت في رواية ابن عيينة عن إسماعيل بزيادة: (ثم جاء تحريمها بعد)، مما يدل على قوله بالنسخ. **الثالث:** ويؤيد ما سبق ما رواه البيهقي عنه أنه قال: المتعة منسوخة نسخها الطلاق والصداق والعدة والميراث.

٤- أما ابن عباس فلم يكن يجيز المتعة على الإطلاق وإنما رخص فيها للضرورة كالترخيص بأكل الميتة للمضطر، فلما أنكر عليه علي وأدرك أن الناس أساؤوا استعمالها رجع عن الترخيص فيه، وإلا فإن المروي عن ابن عباس هو التحريم. فقد روى الترمذي عن ابن عباس قال: إنما كانت المتعة في أول الإسلام، كان الرجل يقدم البلدة ليس له بها معرفة فيتزوج المرأة بقدر ما يرى أنه يقيم، فتحفظ له متاعه وتصلح له شيئه حتى إذا نزلت الآية: (**إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ**)، قال ابن عباس: فكل فرج سواهما فهو حرام.

٥- وأما المنقول عن أبي سعيد الخدري فهو رواية لابن جريج عن عطاء قال: أخبرني من شئت=

فالخلاف باق لا يزول كسائر المسائل الخلافية حتّى من أهل السّنة فيما بينهم والشّيعة

= عن أبي سعيد الخدري قال: لقد كان أحدنا يستمتع بملء القدح سويقا. فهي لا تدل على أنها كانت بعد النسخ، مع أن الرواية ضعيفة لأن الراوي عن أبي سعيد مجهول لم يسم.
٦- أما سلمة ومعبد فإن قصتهما واحدة، واختلفت الرواية في أيهما الذي استمتع بامرأة فحملت منه، فأخبر عمر بذلك، فخرج يجر رداءه فزعاً وقال: هذه المتعة لو كنت تقدمت فيه لرجمته. وذلك كان قبل ظهور النسخ لها ولا يدل على فعلهما لها بعد ذلك.
٧- وأما عمرو بن حريث فإن له قصة مشابهة لقصة سلمة ومعبد مر ذكرها في الفقرة الثانية من هذا الاستعراض وهي أيضا لا تدل على استمرار عمله بها بعد إعلان النسخ زمن عمر. فإن قصة هؤلاء الثلاثة هي التي نبهت سيدنا عمر ﷺ إلى أن بعض الناس لا يزالون يعملون بالمتعة جهلا منهم بالناسخ وتحريم الشارع لها، فأعلن نسخها وتحريمها على الناس فامتنع الناس عنها وحصل الإجماع بعد ذلك على حرمتها.
٨- أما معاوية فقد ذكر الحافظ ابن حجر رواية فيها أن معاوية استمتع بامرأة بالطائف، وذكر عن طريق عبد الرزاق عن جابر أن ذلك كان قديما، ثم قال: إن معاوية كان متبعا لقول عمر فلا يشك أنه عمل بقوله بعد النهي.
٩- وأما قوله باختلاف النقل عن عمر فلا يؤخذ به لأنه معتمد على رواية ضعيفة أخرجها عبد الرزاق عن محمد بن الأسود بن خلف عمن سمع عمرا أنه إنما أنكرها إذا لم يشهد عليها عدلا وأباحها بشهادة عدلين فلا حجة فيها على ثبوتها عن عمر، مع أن المستفاض عن عمر أنه منعها.
١٠- أما النقل عن علي وابن عباس فقد مر ذكرهما.
١١- وأما ابن الزبير فالثابت عنه التشديد في منعها. فعن عروة أن عبد الله بن الزبير قام بمكة فقال: إن أناسا أعمى الله قلوبهم كما أعمى أبصارهم يفتون بالمتعة يعرض برجل فناداه، فقال: إنك لجلف جاف فلعمري لقد كانت المتعة تفعل على عهد إمام المتقين يريد رسول الله ﷺ، فقال له ابن الزبير: فجرب بنفسك والله لئن فعلتها لأرجمنك بأحجارك.
١١- وأما ابن جريج وعطاء وجعفر بن محمد فقد ذكر الحافظ بن حجر أن ابن عوانة نقل في صحيحه عن ابن جريج أنه رجع عنها بعد أن روى بالبصرة في إباحتها ثمانية عشر حديثا، ونقل الباجي عن ابن حبيب رجوع عطاء عن ذلك، وروى البيهقي عن جعفر بن محمد أنه سئل عن المتعة فقال: هي الزنا بعينه. وبعد هذا كله يظهر لنا أنه لم يثبت على القول بجواز المتعة إلا الإمامية وروي عن بعضهم القول بكراهتها.
وذلك على الرغم من أن رواية نهي النبي ﷺ في خيبر قد وردت عن طريقهم أيضا: ففي وسائل الشيعة: عن علي عليه السلام قال: حرّم رسول الله ﷺ يوم خيبر لحوم الحمر الأهليّة ونكاح المتعة. ثم علق الحر العاملي على هذا الحديث فقال: أقول حمله الشيخ وغيره على التقية يعني في الرواية، لأن إباحة المتعة من ضروريات مذهب الإمامية.
ولكنّ في ذلك نظرا، لأنه إن سلّم بالتّقية في بعض الضّرورات السّياسية خوفا من الحاكم فهل يجوز ذلك=

فيما بينهم، فالأحسن أن يقول كل جانب للآخر نحن بما عندنا وأنت بما عندك راضٍ والرأي هذا مختلف، وإنّ من أهل السّنة من لا يجوّز نسخ القرآن بالسّنة فيقول: إنّ هذه الفقرة منسوخة بقوله تعالى: ﴿والّذين هم لفروجهم حافظون الّا على ازواجهم أو ماملكت أيمانهم فانّهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾ سورة (المؤمنون) الآية/ ٢٩ ـ ٣١، وسورة (المعارج)الآية/ ٥، ٧ ـ فالمتعة داخلة في إبتغاء وراء ذلك لأنّ المتمتّعه بها ليست زوجة ولا مملوكة، ولهم أن يقولوا: إنها زوجة إلّا أنّها مؤقتة.

والّذي أراه: أنّ هذه الفقرة تعود على المنكوحات وإنّ المتعة لم تثبت بالكتاب بل بالسّنة أباحها الرّسول (ﷺ) موافقة لما جرى به العادة، فإنّ الرّسول (ﷺ) لم يكن يبطل عرفاً أو عادةً ثابتةً إلّا بعد أن يوحى إليه أن يبطل. ثمّ بعد ذلك حُرّم عند من أثبت التّحريم وبقيت عند من لم يثبت عنده التّحريم، فلا نسخ للسّنة بالسّنة ولا للكتاب بالكتاب ولا للكتاب بالسّنة، بل إذا ثبت تحريمها فهو تحريم عرف جاهلي ولا يسمّى ذلك نسخاً.

* * *

(فريضة) حال من قوله أجورّهن أي حال كون تلك الأجور فريضةً فرضت من قبل الله تعالى لا يجوز إهمالها وعدم أدائها **(ولا جناح عليكم)** أي لا إثم عليكم **(فيما)** أي في المقدار الّذي **(تراضيتم)** أنتم وزوجاتكم **(به)** من المال **(من بعد الفريضة)** أي من بعد تقدير الأجور وتسمية المهور، وذلك بأنّ تعفو المرأة عن كل صداقها أو بعضها أو يعطيها الرّجل أزيد مما قدر **(إنّ الله كان عليماً)** بالنّاس وحوائجهم وطبايعهم وما يصلح لهم أو يضرّهم ووفق ذلك العلم وضع لهم الأحكام **(حكيماً)** لا يخلو أحكامه عن

= في الكذب على رسول الله ﷺ وعلي عليه السلام هو أحد رواة الحديث المتواتر عن النبيﷺ: (من كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده في النار) وهو متفق على روايته عن طريق عليّ بين محدثي الفريقين. ثم ما الذي حمله على التّقية حين أصبح هو عليه السلام خليفة للمسلمين. ثم إن قوله: (إن إباحة المتعة من ضروريات مذهب الإمامية) يدل على مجرد التمسك بالمذهب واتخاذه شعارا للتمييز لا بالدليل العلمي في ذلك. وقد مضى القول بعدم ثبوت نقل جواز المتعة عن علي عليه السلام في بداية المسألة؛ لذلك فإن المتعة منسوخة عند علي عليه السلام قولا واحدا "والله اعلم".

الحكم والمصالح للنّاس، وتفيد الآية بأنّ مخالفة أحكام الله جهل وسفاهة وخلاف مقتضى الحكمة ومصالح الأمّة والنّاس أجمعين. ثمّ أراد الله تعالى أن يرشد الّذين لا يستطيعون نكاح المحصنات إلى البدائل فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

(ومن لم يستطع منكم طولاً) أي مالاً يصرفه في **(أن ينكح المحصنات)** أي الحرائر **(المؤمنات)** فالمحصنة تقال بمعنى الحرّة وبمعنى العفيفة وبمعنى المتزوّجة، وكذلك المحصن يقال للحرّ، والعفيف والمتزوّج (فـ) ليتزوّج **(مما ملكت)** ما ملكتها **(أيمانكم)** أي من جواري المسلمين؛ فإنّه لا يجوز للمرء أن ينكح جاريته؛ للمنافاة بين الملك والنّكاح، بل يتمتع بها بالملك، وإذا أراد زواجها والتّمتّع بها بنكاح يعتقها ثمّ ينكحها **(من فتياتكم المؤمنات)** بيان لما ملكت أيمانكم وهنّ الجواري، فالجارية في الإسلام تسمى فتاة والعبد يسمّى فتى، قال النّبيّ (ﷺ): (لا تقولوا عبدي وجاريتي، بل قولوا فتاي وفتاتي)[1] وهذا من إحترام الإسلام للأرقاء، والآية دليل على عدم جواز نكاح الفتيات الكتابيّات، وعند الحنفيّة يجوز نكاحهنّ، وإنّما التّقييد في الآية للإستحباب. وهنا كأنّ قائلاً يقول: كيف نعلم أنّ الفتاة مؤمنة، والإيمان في القلب لا يطلع عليه أحد؟ فقال تعالى: **(والله أعلم بأيمانكم)** فاكتفوا بالظّاهر فإنّ الحكم على الظّاهر، والله يتولى السّرائر، وحيث إنّ بعض النّاس كان يستنكف من نكاح الفتيات، قال تعالى: **(بعضكم من بعض)** أي إنّ بعضكم وهم الأحرار من جنس البعض وهن

---

(١) صحيح البخاري ٢/ ٩٠١ الحديث رقم ٢٤١٤ بلفظ: (ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي وليقل فتاي وفتاتي وغلامي)

الفتيات، فلا يتكبّر بعضكم على بعض، ولا يستنكف منه بل **(فانكحوهن بإذن أهلهنّ)** وهم مواليهنّ **(وأتوهن)** أي آتوا أصحابهن **(أجورهنّ)** مهورهن **(بالمعروف)** بدون تأخير وإضرار، وانكحوا من تلك الفتيات **(محصنات)** عفيفات **(غير مسافحات)** غير زانيات وهنّ اللّاتي إشتهرن بالزّنا **(ولا متّخذات أخدان)** جمع خدن، وهي صديقة يزني بها وحده وسرّاً **(فإن أتين)** أي الفتيات **(بفاحشة)** بالزّنا **(فعليهن نصف ما على المحصنات)** الحرائر **(من العذاب)** من الحدّ وهو جلدها خمسين جلدة **(ذلك)** أي زواج الأمة لا يجوز إلّا **(لمن خشي العنت)** أي خاف الوقوع في الزّنا، فنكاحهنّ مشروط بشرطين: عدم إستطاعة زواج الحرّة مالاً، وخوف الزّنا **(وأن تصبروا)** عن الزّنا وعن نكاحهنّ **(خير لكم)** لأنّ أولادكم يصيرون أرقاء **(والله غفور)** إن لم تصبروا ونكحتموهن **(رحيم)** يغفر لرحمه لا لأمر آخر. وهناك مسائل في نكاح الإماء تركتها لعدم وجودهنّ في هذا الزّمان. قال تعالى:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾

(يريد الله) تعالى من ذكر هذه الأحكام **(ليبيّن لكم)** الحقّ من الباطل والخير من الشر **(ويهديكم سنن)** مناهج وشرائع **(من قبلكم)** من الأنبياء والمرسلين، والّتي غيّرت على مرور الزمن، فيُغيّركم إليها، وهنا يدل على أنّ المحرّم في الإسلام كان محرّماً في الأديان السابقة؛ لأنّ الاسلام هو دين الأنبياء كلّهم **(ويتوب عليكم)** بالعودة إلى الدّين الحقّ والمنهج الصّحيح **(والله عليم)** بما هو الحقّ من الأحكام والأصلح لكم **(حكيم)** في أحكامه، ووفق هذه الحكمة والعلم شرع لكم هذه الأحكام، فالعدول عنها سفه وجهالة لا تليق بالإنسان كما هو الإنسان. قال الله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾

(والله يريد أن يتوب عليكم) برجوعكم إلى مكارم الأخلاق وصالح الأعمال وصواب الأحكام **(والّذين يتّبعون الشّهوات)** وينحرفون بذلك عن أحكام الله الصّالحة **(يريدون أن تميلوا)** عن الحقّ وأحكام الله **(ميلاً عظيماً)** فلا تتّبعوهم، واتّبعوا الله في

أحكامه ومنهجه وشريعته، فإنّ منهج الله هو الحقّ اللائق بالإنسان، والحقّ أحقّ بأن يتّبع.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾

(**يريد الله**) تعالى برخصته في نكاح الفتيات وأمور أخرى (**أن يخفّف عنكم**) فإنّ الإنسان لا يتحمل المشاقّ والصّبر عن الشّهوات لأنّه (**خلق الإنسان ضعيفاً**) أمام داعية الشّهوة؛ فلذلك نظّم لكم طريق ومنهج قضائها والغلبة عليها بهذه الأحكام، وبهذا المنهج الصحيح. إعلم أنّ المحرّم من حيث تعلّقه ثلاثة أنواع: لأنّه إمّا أن يكون مما يتعلّق بالعرض وأمور الجنس، أو يتعلّق بالمال، أو يتعلّق بالنّفس، وعبّر عن هذا رسول الله ﷺ في خطبة حجّة الوداع فقال: (إنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا...)[١] وإنّ الله تعالى لما ذكر النّوع الأول وهي المحرّمات من النّساء أراد أن يذكر الآخرين فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

(**يا أيّها الّذين آمنوا**) بالله واليوم الآخر وبالإسلام واعتنقه ديناً (**لاتأكلوا أموالكم**) أي لا يأكل بعضكم أموال بعضكم (**بالباطل**) بدون طريق شرعي يبيحها لكم (**الّا**) أي لكن وقت (**أن تكون**) الأموال (**تجارة**) بيعاً وشراءً ومقابل عوض، وصدرت تلك التّجارة والبيع والشّراء عن (**تراض منكم**) فكلوا تلك الأموال الّتي أخذتموها بالتّجارة، والمراد بالأكل الأخذ مطلقاً، فأخذ مال الغير حرام إلّا عن تراضٍ بين الآخذ والمأخوذ منه، وعبّر عنه بالأكل، لأنّه جرى العرف باطلاق الأكل على أخذ الأموال، لأنّ الغالب أنّ المال يؤخذ للأكل، وبهذه الآية حرّم كل ما أخذ بدون رضا، كالغصب والسّرقة والغشّ والخيانة والتّطفل والرّشوة، وغير ذلك...

---

(١) صحيح البخاري ٢/٦١٩ الحديث رقم ١٦٥٢.

وههنا مسائل: المسألة الأولى: قوله عن تراضٍ يفيد أنّ البيع أو الشّراء بالإكراه لا يصحّ ولا يجوز، كأن أكره شخص على بيع ماله أو أكره آخر على شرائه أو أكره البائع فقط أو المشتري فقط عند الجمهور، وعند أبي حنيفة يصحّ ويقف على إجازة البائع عند الإختيار، هذا ولكنّ مال المحجور عليه بالدّين يباع كرهاً، وكذا يجوز الأخذ من الدار أو العقار بعوض للمصلحة العامّة ولو كرهاً كتوسيع شارع أو جامع.

المسألة الثانية: التّراضي يتم بتمام الإيجاب والقبول عند أبي حنيفة ومالك، فلا خيار في المجلس عندهما لأحد من الطرفين، بخلاف الشّافعي وأحمد فإنّ التّراضي لا يتمّ عندهما إلّا بالتفرّق في مجلس العقد، فأثبتا خيار المجلس للبائع والمشتري، وقولهما أصحّ لورود أحاديث صحيحة تنصّ على ثبوت الخيار في المجلس للطّرفين(١).

المسألة الثّالثة: إنّ الألفاظ حينما ترد في الكتاب أو السّنة فالمراد بها مدلولها الشّرعي الصّحيح المستوفي للشّروط والأركان والخالي عن الموانع، فكلّ بيع وشراء لا يكون جائزاً في الشّرع لا تشمله الآية فيحرم كبيع الخمر والخنزير والآلات المحرّمة والمعاملات مع المحجور عليهم لسفه أو جنون أو صبا أو غلبة دين، أو التّعامل بالرّبا وكلّ معاملة نهى الشّارع عنها.

المسألة الرّابعة: إنّ مال الغير يحلّ بالتّصدق و الهبة والهديّة والنّذر والوقف، فكيف حصرت الآية الإباحة في التّجارة فقط؟ **قلنا:** إنّ التّجارة هو أخذ مال الغير مقابل عوض، والعوض يعمّ العوض المادّي والمعنوي، وفي هذه الأمور كلّها عوض معنوي؛ فإنّ عوض الصدّقة والوقف والنّذر هو ثواب الله يوم القيامة، وعوض الهبة والهديّة لله الثّواب أيضاً، وعوضهما لغير ذلك كسب حبّ الآخذ، قال الرّسول (ﷺ): (تهادوا تحابوا)(٢)، وقد أطلق القرآن الكريم التّجارة على ما فيه العوض المعنوي فقط، فقال تعالى: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا هل أدلّكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ سورة الصف الآية/ ١٠ ـ ١١. أو نقول جرّد لفظ التّجارة الّتي هي إنتقال المال من المأخوذ منه إلى الآخذ مقابل عوض عن تراض، فجرّد عن بعض معناها وأريد بها

---

(١) منها قوله ﷺ: (البيعان بالخيار مالم يتفرقا)/ صحيح البخاري ٢/ ٧٣٢ الحديث رقم ١٩٧٣.

(٢) سنن البيهقي الكبرى ١/ ٣٨٦ الحديث رقم ١٤٥٣.

الإنتقال عن تراض فقط سواء بعوض أو لا، وبهذين التّوجيهين تشمل الآية كلّ هذه الأمور فصحّ الحصر، **أو نقول:** إنّ مفهوم الآية وهو تحريم ما عدا التّجارة، ثمّ خصص بالأدلّة المثبتة والمجوّزة للأكل بالهديّة أو الهبة أو النّذر أو الوقف أو الصّدقة أو غير ذلك مما أحلّ الله به المال، كالغنيمة أو الإرث أو الضّيافة ... إلخ، والله تعالى أعلم.

* * *

وبعد أن ذكر الله تعالى حرمة الأموال أراد أن يذكر حرمة الأنفس فقال جلّ وعلا: **(ولا تقتلوا أنفسكم)** أي ولا يقتل بعضكم بعضاً، فشمل قتل المرء نفسه وغيره، وكلاهما كبيرة، ذكر في الخازن عن البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (ﷺ): (من تردّى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنّم يتردّى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن تحسى سمّاً فقتل نفسه فسّمه في يده يتحسّاه في نار جهنّم خالداً مخلّداً فيها أبداً، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوّجأ بها في بطنه في نار جهنّم خالداً مخلداً فيها أبداً)[١] هذا والحكمة في حرمة قتل المرء نفسه أنّ الانسان ليس ملك نفسه، بل هو ملك المجتمع، فبقتله نفسه تعدى على المجتمع، مثل ما يتعدى على المجتمع بقتل غيره[٢] **(ومن يفعل ذلك)** أي القتل **(عدواناً)** أي عمداً لا خطأً **(وظلماً)** بدون حق كقتله لقصاص أو لدفع صائل أو لزنا محصن أو لأي سبب هدر به الشّرع دمه **(فسوف نصليه)** يدخله أي القاتل بغير حقّ **(ناراً)** والتّنكير للتّهويل، أي ناراً شديدةً **(وكان ذلك)** أي إدخاله النّار **(على الله)** تعالى **(يسيراً)** سهلاً لا صعوبة فيه، هذا وإنّما أخّر تعالى تحريم القتل عن تحريم النّساء والأموال وإن كان هو أكبر الكبائر بعد الكفر والشّرك، لأنّ القتل إنّما ينشأ على المال أو العرض. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى المحرّمات من الأموال والنّساء والأنفس من أول السّورة إلى هنا، تبيّن أنّ أكل أموال اليتيم كبيرة، وأنّ منع حقوق الوارثين كبيرة، وأنّ نكاح المحارم كبيرة، وأنّ التّعرض للمحصنات والتّمتع بهنّ كبيرة، حتّى قال بعض العلماء: إنّ الكبائر هي ما ذكر ونهي عنها من أوّل سورة

---

(١) صحيح البخاري ٥/٢١٧٩ الحديث رقم ٥٤٤٢، صحيح مسلم ١/١٠٣ الحديث رقم ١٠٩.

(٢) أو أنّ الحياة والموت من الحكم التّكويني لله تعالى ومن خلقه وإنعامه، لا يملك أحد سلبها إلّا بإذنه أو بحكمه، فكلّ قتل للنّفس بدون حقّ هو تجاوز على حقّ الله تعالى في الحاكمية التّكوينية، وجحود لنعمته، فيستحقّ به العذاب.

النّساء إلى قوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ ولا شكّ أنّ لهذه الكبائر مقدّمات تجّر إليها، فمثلا النّظر يجرّ إلى الزّنا والشّتم إلى القتل، وهكذا فكل كبيرة لها مقدّمات وهذه المقدّمات صغائر الذّنوب، وقلّما يستطيع الإنسان أن يخلو عن الصّغائر، ولذلك رحم الله تعالى عباده فقال جلّ وعلا:

﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

(إن تجتنبوا) أي تتركوا **(كبائر ما تنهون عنه نكفر)** أي نستر **(عنكم)** بالعفو **(سيئاتكم)** أي صغائر الذّنوب فإنّ السّيئات بمعنى الذّنوب، فإذا ذكرت وحدها تعمّ الكبائر والصّغائر، قال تعالى: ﴿فأصابهم سيّئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن﴾ سورة النحل الآية/ ٣٤، فالمراد في الآية بالسّيئات الكبائر، لأنّها واردة في حقّ الكّفار، وإذا ذكرت مع الكبائر فالمراد بها الصّغائر كما هنا، فصغائر الذّنوب معفوّة بالإجتناب عن الكبائر، والصّغائر هي ما عدا الكبائر؛ فإذا علمت الكبائر فما عداها صغائر، وقد اختلف أقوال العلماء في حدّ الكبائر.

* * *

وعندي: إنّ أحسن تفسير هو ما قال السّدى: وهو أنّ الكبائر ما نهى الله تعالى عنهما من الذّنوب، والسّيئات مقدّماتها مثل النّظرة والقبلة واللّمسة وأشباه ذلك، إلّا أنّه من الجدير بالمقام أنّ نذكر هنا بعض الأحاديث الّتي تعيّن بعض الكبائر فنقول:

(١) ـ روي عن أبي بكر(رضي الله عنه) قال كنّا عند رسول الله (ﷺ) فقال: (ألا أنبّئكم بأكبر الكبائر (ثلاثاً)؟ قلنا: بلى يا رسول الله؟ قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين، ألا وشهادة الزّور وقول الزّور، وكان متّكئاً فجلس، فما زال يكرّرها حتى قلنا ليته سكت)، قال في الخازن أخرجاه المسلم والبخاري في الصحيحين[١].

(٢) ـ عن أنس بن مالك قال ذكر لنا رسول الله (ﷺ) الكبائر فقال: (الشرك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس، وقال: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قول الزور، أو قال وشهادة

(١) صحيح البخاري ٢/ ٣٣٩ الحديث رقم ٢٥١١، صحيح مسلم ١/ ٩١ الحديث رقم ٨٧.

الزور) قال في الخازن متفق عليه بين مسلم والبخاري[١].

(٣) ـ عن أبي هريرة أنّ رسول الله (ﷺ) قال: (إجتنبوا السّبع الموبقات، قيل: يارسول الله وماهنّ؟ قال: الشّرك بالله، والسّحر، وقتل النّفس الّتي حرّم الله إلّا بالحقّ، وأكل مال اليتيم، والزّنا، والتّولي يوم الزّحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات) متّفق عليه[٢] كما قال الخازن.

(٤) ـ عن ابن مسعود قال سألت رسول الله (ﷺ): (أي الذّنب أعظم عند الله؟ قال: أنْ تجعل لله ندّاً وهو خلقك، قلت: إنّ ذلك لعظيم، ثمّ أيّ؟ قال: (أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك) قلت: ثمّ أيّ؟ قال: (أن تزاني حليلة جارك) متّفق عليه[٣] كما في الخازن.

(٥) ـ عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنّ النّبيّ (ﷺ) قال: (الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النّفس، واليمين الغموس)[٤]، وفي رواية أنّ أعرابيّاً جاء إلى النّبيّ (ﷺ) فقال: يارسول الله ما الكبائر؟ قال: (الإشراك بالله قال: ثمّ ماذا؟ قال اليمين الغموس، قلت: وما اليمين الغموس؟ قال: الّذي يقتطع مال امرئ مسلم بيمين هو فيها كاذب. متفق عليه[٥] كما قال الخازن.

(٦) عن عبدالله بن عمرو أيضاً أنّ رسول الله (ﷺ) قال: (من أكبر الكبائر شتم الرّجل والدّيه، قال: وهل يشتم الرّجل والديه؟ قال: نعم، يسبّ الرّجل أبا الرّجل أو أمّه فيسبّ أباه وأمه) وفي رواية من (أكبر الكبائر أن يلعن الرّجل والديه) وذكر الحديث متّفق[٦] عليه كما في الخازن.

(٧) قال عبدالله بن مسعود: أكبر الكبائر الإشراك بالله، والأمن من مكر الله،

---

(١) صحيح البخاري ٢/ ٩٣٩ الحديث رقم ٢٥١٠، صحيح مسلم ١/ ٩٢ الحديث رقم ٨٨.
(٢) صحيح البخاري ٣/ ١٠١٧ الحديث رقم ٢٦١٥، صحيح مسلم ١/ ٩٢ الحديث رقم ٨٩.
(٣) صحيح البخاري ٤/ ١٦٢٦ الحديث رقم ٤٢٠٧، صحيح مسلم ١/ ٩٠ الحديث رقم ٨٣.
(٤) صحيح البخاري ٦/ ٢٤٥٧ الحديث رقم ٦٢٩٨.
(٥) صحيح البخاري ٦/ ٢٥٣٥ الحديث رقم ٦٥٢٢، لم أجده في مسلم يذكر فيه اليمين الغموس.
(٦) صحيح البخاري ٥/ ٢٢٢٨ الحديث رقم ٥٦٢٨، صحيح مسلم ١/ ٩٢ الحديث رقم ٩٠. واللفظ لمسلم.

والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله[١].

(٨) عن سعيد بن جبير: أنّ رجلا سأل ابن عبّاس عن الكبائر أسبع ؟ قال: هي إلى السّبعمائة أقرب، وفي رواية إلى السّبعين أقرب، إلّا أنّه لا كبيرة مع الإستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار[٢]. وقال: (كلّ شئ عصى الله به كبيرة، فمن عمل شيئاً منهما فليستغفر الله)[٣] وهذا بعيد لأنّ الذّنوب كلّها[٤] لا تبلغ سبعين.

(٩) والأحسن من كلّ التّعاريف للكبيرة ما قال علي بن أبي طالب: كلّ ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب فهي كبيرة، وقال سفيان الثّوري: الكبائر ما كان فيه المظالم أي حقوق النّاس، والصغائر كلّ ذنب بينك وبين الله[٥] وهو الخالي عن حقوق النّاس، فالمنصوص عليه من الكبائر في هذه الأحاديث هي أربع عشرة كبيرة:

١ ـ الإشراك بالله، ويدخل فيه الكفر به، والإلحاد فهو أعظم. ٢. عقوق الوالدين أو أحدهما. ٣ ـ شهادة الزّور. ٤قتل النفس بغير حق. ٥ ـ السّحر. ٦ ـ أكل مال اليتيم. ٧ ـ الزّنا. ٨ ـ التّولي يوم الزّحف. ٩ ـ قذف المحصنات. ١٠ ـ قتل الولد خشية الإنفاق. ١١ ـ اليمين الغموس. ١٢ ـ لعن الرّجل والديه. ١٣ ـ الأمن من مكر الله تعالى أي عذابه. ١٤ ـ القنوط من رحمة الله أي عفوه. ولا يخفى أنّ السّرقة وأكل أموال النّاس بالباطل والرّبا من الكبائر، ويوجد معاصي أخرى لم تذكر في هذه الأحاديث وهي من الكبائر، فالإعتماد على تعريف عليّ (ﷺ) أولى وأحفظ. وقال

---

(١) مصنف عبد الرزاق ١٠ /٤٥٩، رقم ١٩٧٠١.

(٢) تخريج الأحاديث والآثار ١/٣٠٨ رقم ٣١٨.

(٣) المغني عن حمل الأسفار ٢/ ٩٩١ رقم ٣٦٠٤.

(٤) يقصد أنواعها أو الكبائر وإلا فالصغائر أكثر من ذلك بدليل ما ورد في صحيح البخاري ٥/ ٢٣٥٣ الحديث رقم ٦٠٤٢ أن النبي (ﷺ) قال: (من قال سبحان الله وبحمده مئة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر) والزبد كثير لا ينحصر بالسبعين، فضلا عن ذلك فإن شعب الإيمان أكثر من سبعين كما ورد في صحيح مسلم ١/ ٦٣ الحديث رقم ٣٥ أن النبي (ﷺ) قال: (الإيمان بضع وسبعون شعبة)، وأضداد شعب الإيمان معاصي وهي أكثر من سبعين. كما أن أضداد الطاعات الواجبة معاصي وهي كثيرة فحاصلها مع المعاصي الأخرى أكثر من سبعين. لكنه كما ذكر الشيخ الوالد رحمه الله تعالى أن القول بوصول الكبائر إلى سبعين أو سبعمائة فيها نوع من التجوز ـ والله. أعلم...

(٥) يقصد به ما عدا الشرك بدليل ما بعده.

بعض النّاس: كلّ ذنب كبيرة بالنّسبة إلى من عصيته، وهذا يعارض بأن يقال كلّ ذنب صغيرة بالنّسبة إلى رحمة من عصيته. ثم إنّ هذا القول خلاف الآية حيث قسّمت الذّنوب إلى كبائر وصغائر.

* * *

(وندخلكم) أي إن تجتنبوا الكبائر نكفّر عنكم الصغائر وندخلكم **(مدخلاً كريماً)** وهي الجنّة، أسكننا الله تعالى فيها برحمته إنّه أرحم الرّاحمين.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾

لا شكّ أنّ المعاصي كبائرها وصغائرها إنّما تنشأ من النّظر والتّفكير فيما تفضّل الله تعالى به على الغير من مال أو عرض أو جاه، فيورث ذلك الطّمع فيه والمحاولة للإستيلاء عليه، أو التّمتّع به، ولذلك نهى الله تعالى عن التّفكر والنّظر إلى نعم الغير في آيات كثيرة منها ﴿وَلا تَمُدّنَّ عَيْنَيْك إلى ما متّعْنا بِهِ أزواجاً مِنْهُم زَهْرَةَ الحَياةُ الدُّنْيا﴾ سورة طه الآية/ ١٣١. وهنا حينما ذكر الكبائر ونهى عنها نهى عن التّفكر والنّظر وتمنّي ما أنعم الله تعالى به على الغير من النّاس، لأنّ ذلك هو سبب كلّ كبيرة بل كلّ ذنب كبيرة وصغيرة فقال: **(ولا تتمنّوا)** أي ولا تنظروا وتتفكّروا أو تتمنّوا (ما **فضل الله به بعضكم على بعض)** من النّساء والأموال والجاه والرّتب والمناصب، فإنّ ذلك يؤدّي إلى الطّمع فيها، والمحاولة للوصول إليها والتّسلّط عليها والتّمتّع بها، فيوقعكم ذلك في إرتكاب الكبائر من الذّنوب والموبقات من المعاصي، بل اعملوا لتحصيل الرّزق ومتاع الدّنيا الحلال، فإنّ الله تعالى جعل الدّنيا دار أسباب؛ فكلّ من عمل وتتبّع الأسباب والكسب، يؤتيه الله تعالى ما أراد من نعم الدّنيا كما قال: **(للرّجال نصيب ممّا كسبوا)** مقدّر من عند الله تعالى يناله بالكسب والجدّ في العمل **(وللنّساء نصيب مما اكتسبن)** مقدّر لهنّ يصلن إليه بالكسب والعمل، وذكر الرّجال والنساء لأن للرجال أعمالاً خاصة وللنّساء أعمالاً خاصّة بهنّ، فكلّ طائفة تنال حظّها مما كتب له بالعمل وحسب ما أراد الله تعالى له، أو لأنّ هذا التّمني في

النّساء أكثر، حيث يروى أنّ أمّ سلمة زوجة الرّسول (ﷺ) قالت: يا رسول الله لا نقاتل فنستشهد ولا نقطع الميراث[١]، وقال الإمام أحمد حدثنا سفيان عن أبي نجيح عن مجاهد قال: قالت أمّ سلمة: يارسول الله يغزو الرّجال ولا نغزو ولنا نصف الميراث، فنزلت الآية[٢]، إلّا أنّ مفهوم الآية عامّ كما ذكرنا، فإنّ مورد النّزول لا يخصّص كما قرّر ذلك في الأصول[٣] فاتركوا التّمنّي والطّمع في ما أنعم الله تعالى به على النّاس **(واسألوا الله)** تعالى **(من فضله)** بالأسباب المعنوية وهي الدّعوات والطّاعات والتّضرع إليه، وبالأسباب الماديّة من وسائل الكسب، ولتحصيل المعيشة والأرزاق والنّعم **(إنّ الله كان بكلّ شيء عليماً)** من الأسباب والطّرق المؤديّة إلى الرّزق ويرزق من اتبعها إلّا نادراً، وذلك لحكم هو عليم بها وأنتم لا تعلمون. بعد أن ذكر الله تعالى السّبب المشروع للوصول إلى الرّزق ومتاع الدّنيا، وهو الكسب الحلال، فبالكسب الحلال يصل الرّجل والمرأة إلى ما كتب له من الرّزق، بيّن الله تعالى سبباً آخر يصل به الإنسان إلى المتاع والرّزق وهو الإرث، وأفاد تعالى بذلك أن يحصر كلٌّ أمَله في الوصول إلى الرّزق من هذين السبيلين، ولا يتجاوز إلى أسباب أخرى يقتطع بها مال النّاس وأنّ لا يمدّ عينيه إليها ولا يتمنّاها أو يطمع فيها، فقال جلّ وعلا:

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾

(ولكلٍّ) أي وكما جعلنا سبب تحصيل متاع الدّنيا الكسب الحلال للرّجل والمرأة فقد جعلنا لهما سبباً آخر وهو أنّ **(لكلّ)** من الرجل والمرأة **(جعلنا موالي)** ورثة يرثون **(ممّا)** أي من المال الّذي **(ترك الوالدان والأقربون)** كلّ حسب ما قرّر له في الشّريعة ومما ترك **(الّذين عقدت أيمانكم)** وهم العبيد الّذين أعتقهم سيّدهم وصاروا أحراراً وأصحاب مال، فيرثهم سيّدهم المعتق أو عصبته عند عدم وجود العصبة لهم، كما هو المقرّر شرعاً وبالشّروط المقرّرة وفي الحالات المعينة **(فآتوهم نصيبهم)** كلّاً حسب ما

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ٢٣/ ٢٨٠ الحديث رقم ٦٠٩.

(٢) مسند الإمام أحمد ٦/ ٣٢٢ الحديث رقم ٢٦٧٧٩.

(٣) إذ قالوا: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب./ أنظر المستصفى للإمام الغزالي ١/ ٢٣٦.

عيّن الله تعالى له (**إنّ الله كان على كلّ شيء شهيداً**) فيثيب من يؤتي كل ذي حقّ حقّه وينتقم من الّذين يمنعون حقوق الورثة من التّركة حسب ما يعلم ويشدّه هو. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى الحقوق الماليّة للرّجال والنّساء أراد أن يبيّن الواجبات الإجتماعية بينهما؛ فقال جلّ وعلا:

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾

(**الرّجال قوّامون**) جمع قوّام، وهو صيغة مبالغة للقائم، والقائم هو من يقوم بالأمور، فالمعنى الرّجال قائمون بأمور النّساء، وهم أولياء أمورهنّ. وقد جعل الله تعالى القيمومة على النّساء للرّجال (**بما**) أي بسبب مزايا وخصائص وصفات (**فضّل الله به**) بهذه المزايا (**بعضكم**) وهم الرّجال الّذين يوجد فيهم هذه الصّفات (**على بعضٍ**) وهنّ النّساء، فإنّهن لا توجد فيهنّ هذه الصّفات الّتي هي من مقوّمات القيمومة، وذلك كالقوّة وحصافة الرّأي وزيادة في العقل والعزم والصّبر والثّبات (**وبما**) أي وجعل القيمومة للرّجال بسبب (**ما**) الّذي (**أنفقوا**) على النّساء (**من أموالهم**) كالصّداق والنّفقات (**فالصّالحات**) من النّساء (**قانتات**) مطيعات لأزواجهن راضيات بقيمومتهم لهنّ (**حافظات للغيب**) وهو عرضهن (**بما**) أي بقدر (**ما حفظ**) أي وفقهن (**الله**) على حفظه حيث لا يستطيع أحد أن يحفظ عرضه إلّا بتوفيق الله تعالى، وإنّما على الرّجل والمرأة السّعي للحفظ والتّوفيق من الله تعالى (**واللّاتي تخافون نشوزهنّ**) أي خروجهن عن الطّاعة وهنّ غير الصّالحات (**فعظوهنّ**) أي أرشدوهن إلى الطّاعة بالحكمة والموعظة الحسنة، فإن لم يطعن فاتركوهنّ (**واهجروهن**) واعتزلوهن (**في المضاجع**) أي الفراش فلا تناموا معهنّ، فإن لم يصلحن بذلك فبدلّوا التأديب بما قال تعالى: (**واضربوهنّ**) ضرباً غير مبرح (**فإن أطعنكم**) بأيّ مرتبةٍ من مراتب التّأديب (**فلا تبغوا**) فلا تطلبوا (**عليهنّ سبيلاً**) آخر من سبل ومراتب التّأديب (**إنّ الله كان عليّاً كبيراً**) فخافوا علوّه وكبرياءه وانتقامه إذا تجاوزتم الحدّ الّذي حدّده لكم من تأديب النّساء. ثم قال جلّ وعلا:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾

(**وإن خفتم**) أيّها القائمون بتولية أمور المجتمع من الحكّام أو الهيئة الإصلاحيّة (**شقاق**) نزاع (**بينهما**) بين الزّوجين نزاعا شديداً لا يمكن حسن المعاشرة بينهما (**فابعثوا حكماً من أهله**) من أقارب الزوج (**وحكماً من أهلها**) من أقارب الزّوجة للإصلاح بينهما، وللإطّلاع على حقيقة ما بينهما من سبب النّزاع، فبعد إرسال الحكمين (**إن يريدا**) الزّوج والزّوجة أو الحكمان (**إصلاحاً يوفّق الله بينهما**) أي الزّوجين ويعيدهما إلى حسن المعاشرة (**إنّ الله كان عليماً**) بما في قلبهما وإرادتهما الإصلاح أو لا (**خبيراً**) بذلك. وإنّما شرع إرسال الحكمين لفصل النّزاع وحلّ المشكلة إن أراد الله تعالى.

وهنا مسائل:

المسألة الأولى: إنّ الأمر ببعث الحكمين للقضاة أو لمن بيده السّلطة بحيث يستطيع تنفيذ ما رأى الحكمان.

المسألة الثانية: كون أحد الحكمين من أهله والآخر من أهلها من باب **الأفضلية**[(١)] وإلّا فيجوز أن يكون الحكمان من أجانبهما.

المسألة الثالثة: إنّ الحكمين هما وكيلان عن الزّوجين فلا يملكان التّفريق إلّا بإذنهما، وهذا مذهب عطاء والحسن البصري ورواية عن أحمد وأحد القولين للشّافعي، وحكى ذلك أيضاً عن أبي حنيفة. وعند مالك هما حاكمان ولهما أن يفعلا ما ينسبانه من جمعهما أو تفريقهما بعوض، إن كان السّبب من المرأة، وبدونه إن كان من الزّوج بلا رضاهما وتوكيلهما، وروي ذلك عن عليّ وابن عباس وأبي سلمة والشّعبي والنّخعي وسعيد بن جبير والأوزاعي وإسحاق وإبن المنذر(ﷺ).

* * *

(١) والأفضلية تأتي من جوانب عدة: ١. إن القريب أحرص على تحقيق مصالح قريبه فيسعى وفق ما يحقق مصلحته.٢. القريب أدرى بمقاصد ومرام قريبه فيفهمها ويتفهمها للوصول إلى الإصلاح. ٣. الحكمية تقتضي الإطلاع على الأسرار الزوجية لحل النزاع، وإن القريب يحفظ أسرار قريبه ولا يفضحه بعكس الغريب الذي قد لا يستطيع حفظ السر فيكشفه فيؤدي إلى الفضيحة.

وقال جلّ وعلا:

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (٣٦)﴾

(واعبدوا الله) وحده، والعبادة جاءت في القرآن الكريم بمعنى الإطاعة قال تعالى: ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشّيطان إنّه لكم عدو مبين. وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم﴾ سورة يس الآيتان/ ٦٠،٦١. فمعنى العبادة في سورة (يَس) هي الإطاعة إذ ليس هناك أحد يسجد للشّيطان أو يلجأ إليه في دفع الملمات ورفعها وجلب المصالح وإيجادها، بل إنّما يعبده بنو آدم بأنّه يطيعه فيما يأمره وينهاه خلاف أمر الله تعالى، ويطيعه في إرتكاب المناهي وترك الواجبات، وجاءت بمعنى السّجود لشيء والإستعانة به واللّجوء إليه بالطلب منه، لرفع المكروه أو جلبِ المحبوب، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ سورة مريم الآيتان ٤١،٤٢. فالعبادة في هذه الآية بمعنى السّجود للأصنام وطلب الحوائج منها، ودفع المكاره ورفعها، والتّقرب إليها بالذّبائح، والإعتقاد بأنّ لها قدرة على جلب المصالح ودفع الملمّات ورفعها، فإنّ الأصنام ليس لها أوامر وتشريعات حتى يطيع أبو إبراهيم أوامرها ونواهيها، فالنّهي هنا في قوله تعالى: **(واعبدوا الله)** وارد على العبادة مطلقاً، من إطاعة غير الله تعالى بالمعنيين، كما في الأوامر والنّواهي، إلّا فيما كان داخلاً في حدود شريعة الله، كإطاعة الوالدين مثلاً فيما أحلّ الله تعالى الإطاعة فيه، فكلّ إطاعة لغير الله لم يأمر به الله أو كان فيما حرّم الله تعالى، يكون عبادة لغير الله تعالى، وفي إعتقاد القدرة على جلب المصالح أو دفع المكاره بالسّلطة الغيبية وخارج الأسباب الماديّة من غير الله تعالى أو السّجود له أو التّقرب إليه بالذّبائح والقرابين والنّذور، كلّ ذلك عبادة لغير الله تعالى وإشراك به، وفي طريق الأسباب الماديّة لا يكون شركاً إن اعتقد أنّ الأسباب وسائل عاديّة جعلها الله تعالى وسائل، وجعل من عادته أن يخلق المسبّب عند وجودها، وإلّا بأن اعتقد أنّ الأسباب هي الموجدة والمؤثّرة أو هي تجبر الله تعالى على الخلق

والإيجاد للمسبّب؛ فهو شرك أيضاً **(ولا تشركوا به)** بالله **(شيئاً)** لا صنماً ولا وثناً ولا شخصاً حيّاً أو ميّتاً من العظماء الرّوحيين أو عظماء الدّنيا، فالتّقرب إلى كل من هؤلاء بالعبادات أو الذّبائح أو النّذور لهم، أو الإعتقاد في أنّ لهم حقّ التّشريع أو لهم قدرة التّكوين لشيء فهو شرك بالله تعالى **(وبالوالدين إحساناً)** قوله إحساناً منصوب بفعل مقدّر تقديره وأحسنوا بالوالدين إحساناً (و) أحسنوا **(بذى القربى)** أي أصحاب القرابات من النّسب أو من ذوي الأرحام كلّ حسب درجته **(واليتامى)** جمع يتيم وهو من مات أبوه وهو دون البلوغ **(والمساكين)** جمع مسكين وهو إذا ذكر وحده يشمل الفقير والمسكين والمراد به هنا المحتاج **(والجار ذي القربى)** أي القريب منك نسباً أو رحماً **(والجار الجنب)** أي الأجنبي منك وهو من لا يصل إليك بقرابة **(والصاحب)** أي والمصاحب لك الكائن **(بالجنب)** أي بجنبك في السّفر أو في السّوق **(وابن السبيل)** وهو المسافر، والإحسان إليه يكون بضيافته وإرشاده إلى ما يريد من المنازل والدّور والدّوائر، وإعطائه المال إذا نفذت نقوده **(وما ملكت أيمانكم)** إيّاهم وهم العبيد، ويمكن أن تلحق بهم الموظّفين الّذين يعملون تحت أمرتك، والجنود الّذين عندك، إذا كنت ضابطا مثلاً، والعمّال الّذين يعملون في معملك أو متجرك أو مزرعتك إلى غير ذلك ممن أنت مسلّط عليهم مالاً أو قدرةً أو وظيفةً **(إنّ الله لا يحبّ)** كلّ **(من كان مختالاً)** متكبّراً يؤذي من تحت تسلطه **(فخوراً)** يتعالى عليهم، ويشمل كلّ من يبخل بحقّ الوالدين وذوي القربى واليتامى والمساكين، وكلّ من كان تحت أمره في العمل والوظائف، وهذا عام لكلّ من يتعالى على النّاس بالعلم أو المال أو القوّة أو المنصب أو النّسب أو غير ذلك مما يتفاخر به النّاس على غيرهم جهلا. وهنا نذكر بعض الأحاديث المتعلقة بهذه الآية الكريمة ليستفيد منها الناس ويعتبروا بها فنقول: **في حقّ الوالدين:**

١- ذكر الخازن عن البخاري ومسلم (ﷺ) عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله (ﷺ) فقال: يارسول الله من أحقّ النّاس بحسن صحابتي؟ قال: أمّك، قال: ثمّ من؟ قال: أمّك، قال: ثمّ من؟ قال: أمّك، قال: ثمّ من؟ قال: أبوك[١]. وفي رواية: (قال: أمّك ثمّ أمّك ثمّ أمّك ثمّ أبوك ثمّ أدناك أدناك)[٢].

٢ ـ في الخازن عن مسلم (ﷺ) عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أيضاً قال: سمعت رسول

(١) صحيح البخاري ٥/ ٢٢٢٧ الحديث رقم ٥٦٢٦، صحيح مسلم ٤/ ١٩٧٤ الحديث رقم ٢٥٤٨.

(٢) صحيح مسلم ٤/ ١٩٧٤ الحديث رقم ٢٥٤٨.

الله (ﷺ) يقول: (رغم أنفه رغم أنفه رغم أنفه، قيل: من يارسول الله؟ قال: من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما ثمّ لم يدخل الجنّة)[١] أي ببرّه لهما. وكفى في الحثّ على البرّ بالوالدين أنّ الله تعالى قرن الإحسان إليهما وبرّهما بعبادته وتوحيده، فعلم بذلك أنّه من أكبر الواجبات بعد الإيمان بالله تعالى وتوحيده، والإحسان إلى الوالدين هو أن تقوم بخدمتهما، ولا ترفع صوتك عليهما، وتسعى في تحصيل مرادهما، والإنفاق عليهما بقدر الوسع والسّعة وإطاعتهما إلّا فيما حرّم الله تعالى، فإنّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق جلّ وعلا.

(ب) **في حق ذي القربى**: ١- في الخازن عن البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: (من سرّه أن يبسط له في رزقه ويُنسَأَ له في أجله فليصل رحمه)[٢] أي فليحسن إلى ذوي القربى، فالإحسان إليهم سبب لسعة الرّزق وطول العمر حسبما أفاد هذا الحديث الشريف.

(ج) **في حقّ اليتامى**: ١- في الخازن عن البخاري ومسلم عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله (ﷺ): (أنا وكافل اليتيم في الجنّة هكذا)[٣] وأشار بالسّبابة والوسطى وفرّج بينهما شيئاً، أي أنا وهو مصاحبان في الجنّة كمصاحبة السبّابة للوسطى من الأصابع.

(د) **في حقّ المساكين**: ١- في الخازن عن البخاري ومسلم عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النّبيّ (ﷺ) قال: (السّاعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، وأحسبه كالقائم الّذي لا يفتر وكالصّائم الّذي لا يفطر)[٤]

(هـ) **في حقّ الجار**: ١- في الخازن عن البخاري ومسلم عن ابن عمر(رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله (ﷺ): (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتّى ظننت أنّه سيورّثه)[٥].

٢- في الخازن عن البخاري عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: قلت: يارسول الله إنّ لي جارين فإلى أيّهما أهدي؟ قال: إلى أقربهما منك باباً)[٦] وهذا إذا لم يمكن الهديّة إلى الكلّ.

---

(١) صحيح مسلم ٤/١٩٧٨ الحديث رقم ٢٥٥١.

(٢) صحيح البخاري ٢/٧٢٨ الحديث رقم ١٩٦١، صحيح مسلم ٤/١٩٨٢ الحديث رقم ٢٥٥٧.

(٣) صحيح البخاري ٥/٢٠٣٢ الحديث رقم ٤٩٩٨، صحيح مسلم ٤/٢٢٨٧ الحديث رقم ٢٩٨٣.

(٤) صحيح البخاري ٥/٢٠٤٧ الحديث رقم ٥٠٣٨، صحيح مسلم ٤/٢٢٨٦ الحديث رقم ٢٩٨٢.

(٥) صحيح البخاري ٥/٢٢٣٩، صحيح مسلم ٤/٢٠٢٥ الحديث رقم٢٦٢٥.

(٦) صحيح البخاري ٢/٧٨٨ الحدبث رقم ٢١٤٠.

٣ ـ في الخازن عن مسلم عن أبي ذر (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): (إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك)[١] وفي رواية عنه: (أوصاني خليلي (ﷺ) قال: (إذا طبخت مرقا فأكثر ماءه ثم انظر إلى أهل بيت من جيرانك فأصبهم منها بمعروف)[٢].

٤ ـ في الخازن عن البخاري ومسلم عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنّ النّبيّ (ﷺ) قال: (والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: من يا رسول الله؟ قال: الّذي لا يأمن جاره بوائقة)[٣] ولمسلم (رحمه الله) (لا يدخل الجّنة من لا يأمن جاره بوائقه)[٤] والبوائق الشّرور.

٥ ـ في الخازن عن البخاري عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أيضاً أنّ رسول الله (ﷺ) قال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو ليصمت)[٥].

فهذه إرشادات الإسلام، وهكذا الحياة الإجتماعية في الإسلام، فهل تشقى أمّة عملت بهذه الوصايا؟ كلّا ثم كلّا، فشقاء الأمّة كلّها من إنحرافها عن تعاليم دينها ووصايا رسولها، وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، والمراد بالجار العموم مسلماً كان أو كافراً، والجوار هو مقدار أربعين داراً من كل جوانب دارك[٦]، والله تعالى أعلم.

* * *

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٠٢٥ الحديث رقم ٢٦٢٥.
(٢) صحيح مسلم ٤/ ٢٠٢٥ الحديث رقم٢٦٢٥.
(٣) صحيح البخاري ٥/ ٢٢٤٠ الحديث رقم ٥٦٧٠.
(٤) صحيح مسلم ١/ ٦٨ الحديث رقم ٤٦.
(٥) صحيح البخاري ٥/ ٢٢٤٠ الحديث رقم ٥٦٧٢، صحيح مسلم ١/ ٦٨ الحديث رقم ٤٧.
(٦) اعتمادا على ما روي **أنه** ﴿أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي نَزَلْت فِي مَحَلِّ بَنِي فُلَانٍ، وَإِنَّ أَشَدَّهُمْ لِي أَذًى أَقْرَبُهُمْ إلَيّ دَارًا فَبَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَأْتُونَ الْمَسْجِدَ فَيَصِيحُونَ عَلَى أَنَّ أَرْبَعِينَ دَارًا جَارٌ، وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ خَافَ جَارُهُ بَوَائِقَهُ﴾ / المعجم الكبير للطبراني ١٣/ ٤١٧ الحديث رقم ١٥٤٩٣، السنن الكبرى للبيهقي ٦/ ٢٧٦ الحديث رقم ١٢٣٩٢. وضعف ابن حجر سنده، أنظر فتح الباري ١٧/ ١٦٤ الحديث رقم ٥٥٦١.

ثمّ بعد أن أمر الله تعالى بالإحسان إلى من ذكر في الآية أراد أن ينذر الّذين يخالفون هذه الأوامر بوعيد شديد فقال جلّ وعلا:

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٣٧﴾﴾

(**الّذين يبخلون**) بأموالهم ولا يؤدّون منها حقوق الله وحقوق النّاس ولا يواسون بها المحتاجين والمعوزّين (**ويأمرون النّاس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله**) من العلم أو المال أو الجاه، وخبر الّذين محذوف، تقديره فهم الكافرون لنعمة الله تعالى عليهم بقرينة قوله: (**وأعتدنا**) أي وهيّأنا (**للكافرين**) بنعم الله وهم الّذين لا ينفقونها فيما أمر الله تعالى بالإنفاق فيها، بل يمسكونها أو ينفقونها فيما حرّم الله تعالى أو يمنعون حقوق المستحقّين منها، هيّأنا لهؤلاء (**عذاباً مهيناً**) يذلّهم بعدما كانوا يعتزّون ويفتخرون بأموالهم أو علومهم أو قوّتهم أو جاههم، ثمّ إنّ هناك أسخياء للدّنيا لا لله والآخرة كالّذين يملأون الموائد للأغنياء وأهل الدّنيا، فذكّرهم الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ﴿٣٨﴾﴾

(**والّذين ينفقون أموالهم**) في غير ما يرضي الله تعالى بل ينفقونها (**رئاء النّاس**) للإفتخار بذلك، ومهانة للنّاس، وليقولوا هم أسخياء، أو لإكتساب بعض النّاس والإستفادة منهم في الدّنيا (**ولا يؤمنون بالله**) فيصرفوا المال لوجهه (**ولا**) يؤمنون (**باليوم الآخر**) فيصرفوا لحصول الأجر هناك، وجواب الّذين أيضاً محذوف تقديره: فهؤلاء قرينهم الشّيطان وذلك بقرينة قوله: (**ومن يكن الشّيطان له قريناً فساء**) أي قبح الشّيطان (**قريناً**) للإنسان لأنّه لا يأمره الّا بالشّر وبما يغويه ويضرّه:

﴿وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾

(**وماذا**) أي وما الّذي يكون (**عليهم**) من الضّرر والخسارة (**لو آمنوا بالله واليوم الآخر**) والإستفهام للإنكار، وإنكار المثبت نفي، فالمعنى: ليس عليهم أيّ ضرر في

الإيمان بالله واليوم الآخر، بل لهم في ذلك نفع عظيم وسعادة الدّارين لو آمنوا بالله واليوم الآخر (**وأنفقوا**) في سبيل الخير وما أمر الله تعالى به (**ممّا رزقهم الله**) تعالى من العلم والمال والقوّة والجاه (**وكان الله بهم عليماً**) فيثيبهم لو آمنوا وأنفقوا في سبيل الخير، وينتقم منهم إن كانوا عكس ذلك.

تنبيه: يُروى أن هذه الآيات نزلت في حقّ أهل الكتاب اليهود وفي حقّ المنافقين، إلّا أنّه في المقرر في علم الأصول أن سبب النزول لا يخصّص فلذلك يجب أن يفسّر عاماً في المؤمن والكافر فيكون معنى قوله: وماذا عليهم لو آمنوا؟ بالنّسبة للكافر واضحاً، وأمّا بالنّسبة للمؤمن كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الّذينَ آمَنوا وَالّذينَ هادوا وَالنَّصارى وَالصّابِئينَ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ ...إلخ﴾ سورة البقرة الآية/ ٦٢. فإنّ معناه بالنّسبة للّذين آمنوا أي ثبتوا على إيمانهم أو عملوا بمقتضاه والله تعالى أعلم.

ويدلّ على ما قلنا من أنّه يعمّ المؤمنين أيضاً فإنّ الكافر لا إحسان ولا ثواب له يوم القيامة قوله جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

(**إنّ الله لا يظلم**) أي لا ينقص من أعمال العبد مثقال ذرة بل يأتي بها كلها يوم القيامة للثواب عليها أو العقاب عليها ولا يحمل أحداً مالم يعمله من شر (**وإن تك**) أي وإن تكن مثقال ذرة من عمل العبد خصلة (**حسنةً**) بالنصب خبر تكن وحذف نون تكن للتحقيق (**يضاعفها**) يزدها الله تعالى لصاحبها أضعافاً كثيرة، الواحد بعشرة أمثالها إلى سبعمائة أو إلى أكثر، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم. فإلى عشرة لا شك فيها وما زاد فإلى مشيئة الله تعالى. وقُرئ (**حسنةٌ**) بالرفع على تقدير (**وإن تك**) أي وإن توجد للعبد (**حسنة**) يضاعفها .. إلخ، والمآل واحد (**ويؤت**) أي يعطي الله تعالى (**من لدنه**) أي من عنده لصاحب الحسنة (**أجراً**) ثواباً (**عظيماً**) فما أعظم ما وصفه الله تعالى بأنه عظيم. اللهم ارزقناه يا أرحم الراحمين. آمين. هذا ما للمؤمن من ثواب أعماله وأما للكافر فقد ذكر الخازن عن مسلم عن أنس بن مالك في قوله تعالى: (إن الله لا يظلم مثقال ذرة) الآية قال: قال رسول الله (ﷺ): (إن الله لا يظلم مؤمناً حسنةً، يعطى بها في الدنيا ويجزي بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا

حتّى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزي بها)[١] فتبين أنّ الكافر لا ثواب له في الآخرة وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ سورة الكهف الآيتان/ ١٠٥، ١٠٦. والآيات في هذا المعنى كثيرة تنصّ على حرمان الكافر يوم القيامة من الثّواب.

ثمّ أراد تعالى أن يذكر هول يوم القيامة وشدّته فقال ليرتدع هؤلاء الفخورون والمختالون البخلاء فقال جلّ وعلا:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١)﴾

(فكيف) الإستفهام للتّهويل والتّشديد فالمعنى: أنّه من الحقيق أن يتعجّب من حال النّاس **(إذا جئنا من كلّ أمّة بشهيدٍ)** التّنوين عوض عن المضاف إليه أي جئنا بشهيدهم ليشهد لهم أو عليهم والشّهيد لكلّ أمّة هو رسولهم **(وجئنا بك)** أيّها النّبيّ على **(هؤلاء)** أي أمّتك وهو من بعث إليهم وهم النّاس جميعاً من مجيئه إلى يوم القيامة **(شهيداً)** لتشهد لهم أو عليهم من الإيمان أو الكفر والصّلاح أو الفسق، قال الخازن عن البخاري ومسلم عن إبن مسعود (رضي الله عنه) قال: قال لي رسول الله (ﷺ): (إقرأ عليّ القرآن، فقلت: يارسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: إنّي أحبّ أن أسمعه من غيري، قال: فقرأت عليه سورة النّساء حتّى جئت إلى: (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيدٍ وجئنا بك على هؤلاء شهيداً). قال (ﷺ): حسبك الآن، فالتفتُّ إليه فإذا عيناه تذرفان)[٢] فما أخجل في هذا اليوم وما أفظع لمن كان مختالاً فخوراً بخيلاً مخلاّ كأنّما لنعمة الله عليه مرائياً بأعماله غير طامع في ثواب الله يوم القيامة، فما أخجل هؤلاء إذ يوقفون بين يدي الواحد القهّار والرّسول يدلي بشهادته عليهم فحالهم عجيب جدّاً وندامتهم فظيعة إلى غير حد. ألّلهم قنا من هذا الموقف المخزي فإنّك أرحم الرّاحمين.

تنبيه: إنّ الإعلام بكون الرّسول (ﷺ) شهيداً على هذه الأمّة ورد في عدّة آيات في

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢١٦٢ الحديث رقم ٢٨٠٨.

(٢) صحيح البخاري ٤/ ١٩٢٥ الحديث رقم ٤٧٦٣، صحيح مسلم ١/ ٥٥١ الحديث رقم ٨٠٠. واللفظ للبخاري.

القرآن الكريم وهي: ١- قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ سورة البقرة الآية/ ١٤٣. ٢- قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ سورة النحل الآية/ ٨٩. ٣- قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ سورة الفتح الآية/ ٨. ٤- قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ سورة المزمل الآية/ ١٥. ٥- قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ سورة الأحزاب الآية/ ٤٥. ٦- هذه الآية الّتي نحن نتكلم فيها ونفسّرها فالرّسول (ﷺ) شاهد على أمتّه، ولكن هل هو شاهد على أمتّه في حياته فقط أو بعد وفاته أيضاً؟ وهل هو شاهد على أعمالها أو على تبليغه إيّاهم؟ وللوصول إلى معرفة ذلك نورد أقوال المفسّرين الموجودة عندنا في هذا الموضوع بقدر ما وصلنا إليه.آ. قال المفسّرون في آية البقرة كما يلي:

١- قال القرطبي(رحمه الله): (ويكون الرّسول عليكم شهيداً) قيل: معناه بأعمالكم يوم القيامة، وقيل: عليكم بمعنى لكم أي شهيداً لكم بالإيمان، وقيل: أي يشهد لكم بالتّبليغ لكم أي أنّه بلغكم ما أمره الله تعالى بتبليغه.

فظهر أنّ المفسّرين إختلفوا في تشخيص هذه الشّهادة، ولم يرجّح القرطبيّ واحداً من هذه الأقوال هنا إلّا أن يقال أنّه رجح القول الأوّل بتقديمه في الذّكر وهو محتمل.

٢ ـ ذكر إبن كثير (رحمه الله) في تفسيره حديثاً فقال: وقال الإمام أحمد حدثّنا وكيع عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): (يدعى نوح يوم القيامة فيقال له: هل بلّغت؟ فيقول: نعم، فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمّد وأمّته. قال(رحمه الله) فذلك قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمّةً وسطاً﴾ قال: الوسط العدل فتدعون فتشهدون له أي لنوح (على نبينا وعليه الصّلاة والسّلام) بالبلاغ (ثمّ أشهد عليكم). قال إبن كثير ورواه أي الحديث البخاري والتّرمذي والنّسائي وإبن ماجه(رحمهم الله)[1] . فقوله (ﷺ): (ثمّ

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٣/ ٣٢ الحديث رقم ١١٣٠١. صحيح البخاري ٤/ ١٦٣٢ الحديث رقم ٤٢١٧، سنن الترمذي ٥/ ٢٠٧ الحديث رقم ٢٩٦١، سنن النسائي ٦/ ٢٩٢ الحديث رقم ١١٠٠٧، سنن ابن ماجة ٢/ ١٤٣٢ الحديث رقم الحديث رقم ٤٢٨٤.

أشهد عليكم) يفيد أنّه شاهد على أمّته جميعاً الّذين كانوا في حياته وبعد مماته إلى آخر الدّنيا ونهايتها، وكذلك قوله تعالى: ﴿ويكون الرّسول عليكم شهيداً﴾ عام في جميع الأمّة إلّا أنّه لم يبيّن الرّسول ولم يقل أشهد عليكم على التّبليغ أو الأعمال أو غير ذلك، ولكن إذا لم يوجد مخصّص للشّهادة فتحمل على العموم، فيكون المعنى أشهد على تبليغكم وأعمالكم وإيمانكم؛ لأنّ العام يطلق على العموم إذا لم يرد تخصيصه، وقد قرّر في علم البلاغة: أنّ المفعول إذا حذف ولم يذكر يكون عامّاً، فيكون المشهود به عامّاً بهذه القاعدة أيضاً.

٣ ـ قال الجلال السّيوطي (رحمة الله تعالى عليه): ﴿ويكون الرّسول عليكم شهيداً﴾ أنّه بلّغكم فخصّ شهادة الرّسول (ﷺ) بالتّبليغ فقط إلّا أنّه علّق عليه الجمل في حاشيته فقال: هو أحد القولين، ثمّ ذكر القول الثّاني فقال: والثّاني أنّ المراد به أي بقوله عليكم شهيداً أنّ الرّسول يزكّيكم في شهادتكم على الأمم. فزاد الجمل على ما في القرطبيّ معنى آخر في شهادة الرّسول وهو تزكية أمّته في الشّهادة على الأمم.

٤ ـ ذهب الخازن (رحمه الله) مذهب السّيوطيّ (رحمه الله) حيث فسر شهيداً بقوله: مزكّياً، وذكر الحديث الّذي ذكره ابن كثير عن البخاري ولم يذكر فيه (ثمّ أشهد عليكم)، وقال النّسفي مثل ما قال السّيوطي والخازن ففسّر: (شهيداً) بتزكية الرّسول أمّته في شهادتكم على الأمم. وفي الآيات الأخرى في النّحل والأحزاب والمزّمل وغير ذلك لا يذكرون شيئاً نتمسّك به، ويميلون إلى أنّ شهادته على الأنبياء بأنّهم بلغوا أو على أمّتهم في حياته، أو بأنّه يزكّيهم أكثر من ميلهم إلى أنّه يشهد على أعمال أمّته على العموم. فلم يبق إلّا أن نذكر أقوالهم في الآية الّتي نحن بصدد تفسيرها، **فنقول:** لقد أيّد إبن كثير القول بأنّ الرّسول (ﷺ) شاهد على أمّته الموجودة في حياته فقط، بدليل ما ذكر عبدالله بن مسعود (رضي الله عنه): أنّ النّبيّ (ﷺ) حتماً قرأ عليه هذه الآية قال: ﴿وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم فلمّا توفّيتني كنتَ أنتَ الرّقيبَ علَيهم﴾ ولكنّ القرطبيّ قال: ذكر إبن المبارك أخبرنا رجل من الأنصار عن المنهال ابن عمرو حدثّه أنّه سمع سعيداً بن المسّيب يقول: (ليس من يوم إلّا تعرض على النّبيّ (ﷺ) أمته غدوةً وعشّيةً فيعرفهم بسيماهم وأعمالهم؛ فبذلك يشهد عليهم بقول الله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كلّ أمّة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾. فيؤيد القرطبيّ أنّ الرّسول (ﷺ) شاهد على أعمال أمّته يوم القيامة، ويعلم أعمالهم بالعرض عليه. إلّا أنّ ابن كثير اعترض على ما رواه القرطبي بأنّ ما رواه عن ابن المبارك أثر وفيه إنقطاع، فإنّ فيه رجلاً مبهماً لم

يسم، وهو من كلام سعيد بن المسيّب ولم يرفعه، ثمّ قال ابن كثير: وقد قبل هذه الرّواية القرطبيّ وأخذ ما فيها، فقال بعد إيراده لها: قد تقدّم أنّ الأعمال تعرض على الله تعالى كلّ يوم إثنين وخميس، وعلى الأنبياء والآباء والأمّهات يوم الجمعة، ولا يعارض ذلك ما قاله سعيد بن المسيّب فإنّه يحتمل أنّ نبيّنا قد خصّ بأن يعرض عليه أعمال أمّته كلّ يوم، ويوم الجمعة مع الأنبياء على (نبيّنا وعليهم الصّلاة والسّلام)، فالقرطبي مؤكّد لأن يكون الرّسول شاهداً على أعمال الأمّة وعالم بها بالعرض عليه.
وأقول: ولا ينافي ذلك قول النّبيّ ﷺ بعد أن قرأ عليه هذه الآية: ﴿وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم﴾ سورة المائدة الآية/ ١١٧ ـ لأنّه كان في حياته شهيداً عليهم بسبب علمه بهم بذاته، ولكنّه بعد الممات يكون شهيداً عليهم بعلمه بهم بواسطة رقابة الملائكة وعرضهم الأعمال عليه.

أو **نقول**: إنّ الرّسول (ﷺ) لم يعلم في ذلك الوقت أنّ أعمال الأمّة تعرض عليه بعد وفاته فيشهد عليهم حسب العرض. وأمّا قوله (ﷺ): (يرد على الحوض أناس فتطردهم الملائكة فأقول: أمّتي أمّتي، فتقول الملائكة: لا تدري ماذا أحدثوا بعدك)[1] فيمكن أن يكون قولهم لا تدري لتعظيم ما أحدثوا لا للإخبار بعدم علمه بما أحدثوا، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ سورة الانفطار الآية/ ١٧.

وعندي: إنّ القول بأنّ الرّسول (ﷺ) شهيد على الأمّة وأعمالها يوم القيامة كلّهم أولى؛ لأنّ الرّسول (ﷺ) لم يبعث إلى جيل دون جيل آخر، فيشهد على ذلك دون ذاك، بل كلّ رسول بعث إلى كلّ الأجيال إلى أن ينتهي وقت رسالته بمجيء رسول آخر، ونبيّنا (ﷺ) بعث إلى كلّ الأجيال إلى يوم القيامة. فتكون شهادته على جميع الأجيال العائدة إليه، وكون المراد بالشّهادة الشّهادة على تبليغه لهم فقط بعيد، حيث لا دليل على ذلك التّخصيص؛ فإن قيل: الدّليل هو أنّ الرّسول بعد ما توفي لا يبقى له علاقة بالنّاس فلا يعلم أعمالهم، وحديث عرض الأعمال ضعّفه إبن كثير، **فنقول**: فكيف يشهد على من بعده بأنّهم بلغوا من قبل العلماء النّائبين عنه، فإن قيل: يعرض ذلك عليه، **فنقول**: حينما إعترفت بالعرض فليعرض الأعمال أيضاً، فإن قيل: أنّه لا يشهد على

---

(١) لفظ البخاري (ليردن علي ناس من أصحابي الحوض حتى عرفتهم اختلجوا دوني فأقول أصيحابي فيقول لا تدري ما أحدثوا بعدك) وورد بألفاظ أخرى مختلفة. / صحيح البخاري ٥/ ٢٤٠٦ الحديث رقم ٦٢١١.

من بعده من الأمّة لا بالتّبليغ ولا بالأعمال، وإنّما يشهد عليهم علماء وقتهم الّذين بلّغوهم، **فنقول**: إنّ الآية تنصّ على أنّ كلّ نبيّ يشهد على أمته والأمّة عامّة لكلّ الأجيال، فتخصيصها بجيل دون جيل بدون دليل تخصيص بلا مخصّص، وهو ممنوع هنا، وإنّ بكاء الرّسول بعدما وصل ابن مسعود(ﷺ) إلى قوله تعالى: ﴿وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ كان شفقةً على أمّته وحزنًا عليهم فإنّه بالمؤمنين رؤوف رحيم. فصلاته تعالى وسلامه عليه وعلى آله إلى يوم الدّين وحشرنا الله تعالى تحت رايته آمين.

❊ ❊ ❊

هذا ويؤيّد ما قلنا من نعم الشّهادة قوله جلّ وعلا:

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾

لأنّها سيقت بلفظ العموم والشّمول لجميع الكفرة والعصاة في كلّ جيل إلى يوم القيامة، والعصيان يكون في الأعمال (**يومئذٍ**) أي يوم أن يشهد الرّسل على أممهم (**يودّ**) يحبّ (**الّذين كفروا**) فلم يؤمنوا برسول وقتهم (**وعصوا**) أي والّذين (**عصوا الرّسول**) في أعمالهم وأفعالهم وأخلاقهم ومعاملاتهم وأحكامهم، يحبّون هؤلاء كلّهم من شدّة ذلك اليوم، ومن خجالتهم وندامتهم وخوفهم من جهنّم ويتمنّون (**لو تسوّى بهم الأرض**) أي فيموتوا ويدفنوا في الأرض وتسوّى بهم (**ولا يكتمون الله حديثا**) بل يعترفون بكل أعمالهم. فإن قيل إنّ هذه الآية تنافي قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ سورة الأنعام الاية/ ٢٢ ـ ٢٣. حيث كتموا شركهم وما اعترفوا، لأنّ يوم القيامة مواطن، ففي هذا الموطن يكتمون أعمالهم، ولكن حينما شهد الرّسل عليهم وشهدت أعضاؤهم لا يستطيعون أن يكتموا شيئاً، بل يعترفون كما قال تعالى: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ سورة الملك الآية/ ١١. والله تعالى أعلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ

﴿صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾

مناسبة هذه الآية لما قبلها، أنّه لما ذكر الله تعالى موقف يوم القيامة وشهادة الرّسول (ﷺ) على الأمّة، وتمنّى الكافرون والعصاة أن يموتوا فتسوّى بهم الأرض كما تسوّى بالأموات، إستعدّ المؤمنون أكثر وأكثر لإمتثال الأوامر وإجتناب المناهي وتنفيذ أحكام الله تعالى، فقال لهم جلّ وعلا: (**يا أيّها الّذين آمنوا لا تقربوا الصّلاة وأنتم سكارى**) وذكروا في سبب نزول هذه الآية أنّ عبدالرّحمن بن عوف(رضي الله عنه) صنع طعاماً وشراباً ودعا نفراً من الصّحابة (رضي الله عنهم) وكانت الخمر لم تحرم في ذلك الوقت، فأكلوا وشربوا الخمر، فحضرت الصّلاة فقدّموا واحداً منهم ليصلّي بهم فقرأ (قل يا أيّها الكافرون أعبد ما تعبدون وأنتم عابدون ما أعبد) خطأً، فنزل قوله تعالى (**يا أيّها الّذين آمنوا لا تقربوا الصّلاة وأنتم سكارى**) والنّهي في الحقيقة يتوجّه إلى السّكر وقت قرب الصلاة، فيكون التّقدير ولا تسكروا وقت قرب الصّلاة وإنّما غيّرت العبارة ليترتب عليه قوله تعالى: (**حتّى تعلموا ما تقولون**) في الصّلاة وما تقرؤونه (**ولا جنباً**) عطف على مقدّر، تقديره ولا موضع الصّلاة جنباً، فتفيد الآية أنّ الصّلاة وقت السّكر حرام وباطلة، وأنّ القرب من موضع الصّلاة وهو المسجد حرام لكلّ مسلم مجنب (**إلّا عابري سبيل**) بحيث يكون الطّريق إلى الماء يمرّ بالمسجد، فيجوز للجنب المرور بالمسجد للوصول إلى الماء ليغتسل لا المكث فيه، أو يكون بجنب المسجد بيت بابه في المسجد، فإذا أجنب من فيه يجوز له المرور بالمسجد (**حتّى تغتسلوا**) من الجنابة، فالمعنى: لا تقربوا موضع الصّلاة حتّى تغتسلوا، وهذا المعنى لا غبار فيه، وقيل: عطف على الصّلاة والتّقدير: ولا تقربوا الصّلاة جنباً إلّا عابري سبيل حتّى تغتسلوا، وهذا المعنى يفيد أنّ للعابر في السّبيل وهو المسافر يجوز له الصّلاة بدون غسل، فيحتاج إلى أن يفيد فيقال: إلّا عابري سبيل أي مسافر لا يجد ماء فيجوز له الصّلاة جنباً بالتّيمم فيقع التكرار؛ لأنّ حكم المسافر الجنب الّذي لا يجد ماءً يأتي في الآية نفسها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى الحذف فيه أكثر من المعنى الأوّل، إذ المحذوف هنا لا يجد ماءً، فتجوز له الصّلاة بالتيمّم. وفي المعنى الأوّل المحذوف (**ولا موضع الصّلاة**) فقط، وإنّ هذه العبارة أقلّ ممّا مرّ كما لا يخفى، والمعنى الأوّل للشّافعي وأحمد، والثّاني لأبي حنيفة (رضي الله عنه).

وهنا مسائل:

المسألة الأولى: الجنب إسم ناب مناب المصدر، فيستوي فيه المذكر والمؤنث،

يقال: رجل جُنب وإمرأة جُنب ولا جمع له، وقيل: يجمع على أجناب وجنبون، والجنب: هو من أصابته الجنابة، والجنابة: النّجاسة المعنويّة المسبّبة عن الإقتران أو الجماع ولو بدون إنزال.

المسألة الثّانية: الجمهور على أنّ الجنابة تحصل من إنزال، سواء أكان بمباشرة النّساء أو غيرهنّ، أو بإحتلام في نوم أو بأي سبب كان الإنزال، وكذلك تحصل الجنابة بالتقاء الختانين، أي محمل ختان المرأة والرّجل، وذلك يحصل بإيلاج الحشفة وغيبوبتها في الفرج، وروي عن بعض الصّحابة: أنّ الإيلاج لا يوجب الغسل لحديث الرّسول (ﷺ): (إنّما الماء من الماء) أخرجه مسلم[1]، وفي البخاري عن أبي بن كعب أنّه قال: يارسول الله (ﷺ) إذا جامع الرّجل المرأة فلم ينزل؟ فقال(ﷺ): (يغسل ما مسّ المرأة منه ثمّ يتوضأ ويصلّي)[2]، هذا وقال القرطبيّ : قد كان في ذلك خلاف بين الصّحابة ثمّ رجعوا إلى رواية عائشة (رضي الله عنها) عن النّبيّ (ﷺ) قال: (إذا جلس بين شعبها الأربع ومسّ الختان الختان وجب الغسل) أخرجه مسلم[3]. وفي الصّحيحين من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النّبيّ (ﷺ) قال: (إذا جلس بين شعبها الأربع ثمّ جهدها فقد وجب الغسل)[4] وزاد مسلم (وإن لم ينزل)، ونقل القرطبيّ عن إبن القصّار: أنّ التّابعين ومن بعدهم أجمعوا بعد هذا الخلاف على الأخذ بحديث (إذا التقى الختانان)، وإذا صحّ الإجماع بعد الخلاف سقط الخلاف، ونقل عن القاضي عياض أنّه قال: لا نعلم أحداً قال بغير هذا القول بعد خلاف الصحابة، إلّا ما حكي عن الأعمش وداود الأصبهاني، ورأي إبن حزم هو: أنّ الغسل يجب بالإيلاج وإن لم ينزل، ثمّ قال: وممّن رأى أن الإيلاج بدون إنزال لا يوجب الغسل من الصّحابة: عثمان بن عفان وعليّ بن أبي طالب والزّبير بن العوّام وطلحة بن عبيدالله وسعد بن أبي وقّاص وإبن سعود ورافع بن خديج وأبو سعيد الخدري وأبيّ بن كعب وأبو أيّوب الأنصاري وإبن عبّاس والنّعمان بن بشير وزيد بن ثابت وجمهور الأنصار (رضي الله عنهم)، ومن التّابعين عطاء بن رباح وأبو سلمة بن عبد الرّحمن بن عوف وهشام بن عروة والأعمش وبعض أهل الظّاهر (رحمهم الله). وروي وجوب

---

(١) صحيح مسلم ١/ ٢٦٩ الحديث رقم ٣٤٣.

(٢) صحيح البخاري ١/ ١١١ الحديث رقم ٢٨٨.

(٣) صحيح مسلم ١/ ٢٧١ الحديث رقم ٣٤٩.

(٤) صحيح البخاري ١/ ١١٠ الحديث رقم ٢٨٧.صحيح مسلم ١/ ٢٧١ الحديث رقم ٣٤٨.

الغسل بالإيلاج بدون إنزال عن عائشة وأبي بكر الصّديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفّان وعليّ وإبن مسعود وإبن عبّاس وإبن عمر والمهاجرين (ﷺ)، وبه قال أبو حنيفة ومالك والشّافعي، **أقول**: وأحمد أيضاً. والحاصل أنّه يوجد شبه إجماع على أنّ (إنّما الماء من الماء منسوخ) والله تعالى أعلم.

المسألة الثّالثة: في العبور في المسجد للجنب، فأباحه مالك والشّافعي بدون تيمم، وذلك قول الحسن البصري. وأباحه قوم بشرط التّيمم، ومنعه أبو حنيفة بتيمّم وبدونه. وإختلف العلماء من المكث في المسجد للجنب أيضاً، فمنعه أكثر أهل العلم وجوّزه أحمد و المزني من الشّافعية بشرط الوضوء.

المسألة الرّابعة: يحرم على الجنب قراءة القرآن عند الشّافعي وأحمد قليله وكثيره ولو لبعض آية، ويجوز عند داود أن يقرأ القرآن كلّه، وروي ذلك عن إبن عباس وإبن المسيّب، واختار ذلك ابن المنذر من الشّافعية (ﷺ) ، وعند مالك يجوز له أن يقرأ الآيات اليسيرة، وقال أبو حنيفة: يقرأ بعض الآية ولا يجوز أن يقرأ آية كاملة هذا. ثمّ بعد أن نهى الله تعالى عن الصّلاة للجنب حتّى يغتسل، فكأنّ قائلاً يقول: فإذا لم نجد ماءً نغتسل به فماذا نفعل؟ فقال تعالى: **(وإن كنتم مرضى)** مرضاً يضرّه إستعمال الماء **(أو على سفر)** أي في سفر لم تجدوا ماءً **(أو جاء أحد منكم من الغائط)** الغائط المكان المنخفض الّذي يكون جانباه مرتفعاً قليلاً، وحيث إنّ الإنسان يقضي حاجته على مثل تلك الأمكنة. فجعل ذلك اللّفظ كناية عن قضاء الحاجة **(أو لامستم النّساء فلم تجدوا ماءً فتيمّموا)** أي فاقصدوا **(صعيداً)** تراباً **(طيّباً)** أي طاهراً، واضربوا بأيديكم عليه **(فامسحوا)** بأيديكم المغبرة **(بوجوهكم وأيديكم إنّ الله كان عفواً)** فرخّص لكم التيمّم عند فقد الماء أو المشقّة في إستعماله بدل الغسل والوضوء **(غفوراً)** يغفر من تقصير العباد إذا شاء ولمن شاء.

وهنا مسائل:

المسألة الأولى: أباح الله تعالى بهذه الآية لمن أجنب ولم يجد ماءً يغتسل به أو وجده ولم يستطع أن يستعمله لمرض أو لبرد أو لحرارة الماء، فأباح الله تعالى له أن يتيمّم ويصلّي به، فالتيمّم يكون عوضاً عن الغسل، وكذلك إذا انتقض وضوؤه بالغائط أو البول أو لمس النّساء ولم يجد ماءً يتوضّأ به، أو وجده ولم يستطع إستعماله، فإنّه يتيمّم ويصلّي بالتيمّم بدل الوضوء.

المسألة الثّانية: ذكر الله تعالى في هذه الآية سببين لنقض الوضوء: **أحدهما**: الغائط:

وهو كناية عن ما يخرج من الدّبر أو القبل، كالخروج والبول والرّيح، وهذا متّفق عليه. **ثانيهما:** لمس النّساء، واختلفوا في معنى اللّمس فعند الشّافعي (ﷺ) أنّه ملاقاة بشرة الرّجل للمرأة، ويسمّى جسّا، فالجسّ من المرأة للرّجل وبالعكس سبب لنقض وضوء كليهما اللّامس والملموس قصداً أو لا وبأي وجه كان، وعند مالك وأحمد (ﷺ) إن كان الجسّ بشهوة ينقض وإلّا فلا ينقض، وقال أبو حنيفة (ﷺ): لا ينقض لمس المرأة الوضوء إلّا إذا صار منه إنتشار للذّكر. وقال قوم لا ينقض الوضوء بالجسّ مطلقاً، وأوّلوا معنى اللّمس في الآية: بأنّه هو الجماع لا الجسّ. وكلّ صاحب مذهب يقوّي قوله بأحاديث من الرّسول (ﷺ) كما قال البويصيريّ: وكلّهم من رسول الله ملتمس غرفا من البحر أو رشفاً من الدّيم فرضي الله تعالى عنهم أجمعين.

المسألة الثّالثة: في لمس المحارم: عند الشّافعي (ﷺ) روي عنه قولان:

الأوّل: إنّ لمسهنّ لا ينقض. **الثّاني:** ينقض. ومدار القولين يرجع إلى أنّ اللّمس ينقض لمظنة الشّهوة أو لا، فإن كان لمظنّة الشّهوة فلا ينقض، وإن كان لمجرد الأنوثة ينقض، وكذلك روي ﷺ عنه قولان في الملموس:

أحدهما: أنّه ينقض اللمس وضوء اللّامس والملموس.

الثّاني: أنّه لا ينقض وضوء الملموس.

المسألة الرّابعة: الخارج من السّبيلين ينقض الوضوء سواءً كان بولاً أو غائطاً أو ريحاً بدون خلاف، وأمّا ما خرج من البدن غير السّبيلين كالدّم والقيء فعند مالك والشّافعي لا ينتقض الوضوء بشيء من ذلك وإن كثر، وعند الأحناف وأحمد ينقض إن كان كثيراً، والكثرة في القيء بأن يملأ الفم وفي الدّم بأن يسيل.

المسألة الخامسة: زادوا من أسباب الوضوء زوال العقل بجنون أو إغماء أو نوم، وفي النّوم أقوال: فذهب قوم إلى أنّ النّوم لا ينقض الوضوء بكلّ حال، وهو قول أبي هريرة وعائشة، وبه قال الحسن وإسحاق والمزني (ﷺ)، وذهب قوم إلى أنّ النّوم ينقض الوضوء إلّا إذا كان قاعداً ممكّناً مقعده إلى الأرض أو إلى ما يمنع خروج الرّيح[1]، وعند أبي حنيفة وأصحابه لا ينقض النّوم إذا كان الشخص قائماً أو قاعداً أو ساجداً، أمّا إذا كان مضطجعاً نقض.

---

(١) فلا ينقض.

المسألة السّادسة: إذا خرج من القبل والدّبر شيء غريب كالدّود من الدّبر والمذيّ من القبل، فالدّود ينقض عند الشّافعي وأحمد، وقال قتادة ومالك: لا ينقض، وأمّا المذيّ والوديّ فينقض بهما الوضوء عند الشّافعية ، وعند مالك: أنّ النّادر لا ينقض والمذيّ إن كان بشهوة فينقض، وقال داود: لا ينقض المذيّ مطلقاً. وأمّا النّادر كالدّود فلا ينقض، وأمّا دم الإستحاضة فينقض عند عامّة العلماء إلّا ربيعة ، والدّم الّذي يخرج من الدّبر فلا ينقض عند مالك وينقض عند غيره.

المسألة السّابعة: من لم يجد ماءً ولا تراباً ففيه عند الشّافعية أربعة أقوال:

الأوّل: يجب عليه أن يصلّي حسب حاله، ثمّ يعيدها إذا وجد ماءً أو تراباً في موضع يسقط به الفرض بالتّيمّم.

الثّاني: لا تجب عليه الصّلاة بل تستحب ويجب القضاء صلّى أو لم يصلّ.

الثّالث: يحرم عليه الصّلاة ويجب القضاء.

الرّابع: تجب الصّلاة ولا يجب القضاء ولا الإعادة.

وعن أبي يوسف من الحنفيّة والأوزاعي وسفيان الثّوري: إنّه لا يصلّي، بل يصبر حتّى يجد ماءً أو تراباً، وفي رواية عن أبي يوسف : أنّه لا يصلّي ولا يعيد، وحكى ذلك عن داود أيضاً، وعن مالك : أنّه يصلّي ويعيد، وفي رواية عنه: يصلّي ولا يعيد، وفي رواية: لا يصلّي، وفي الإعادة خلاف، وعند أحمد: يصلّي، وفي الإعادة عنه روايتان: أحداهما يعيد والأخرى لا يعيد، وقال المزني : كلّ صلاة وجبت حسب حال المصلّي لا يجب عليه الإعادة لأنّ الله تعالى لا يفرض على عبده شيئاً واحداً مرّتين.

المسألة الثّامنة: في من مسّ فرجه أو فرج غيره من ذكر أو أنثى فعند الشّافعي وأحمد ينقض الوضوء إذا كان بباطن الكف، سواءً مسّ ذكره أو ذكر غيره صغيراً أو كبيراً، أو فرج أنثى كبيرة أو صغيرة. وكذلك المرأة إذا مسّت فرجها أو فرج غيرها صغيرة أو كبيرة أو مسّت ذكر صغير أو كبير إنتقض وضوؤها، كلّ ذلك إذا كان بباطن الكفّ. وكذا عند مالك وفي رواية عن أحمد : أنّه ينقض بباطن الكف و ظاهره، وعند الحنفيّة : لا ينقض مطلقاً، ووافقهم إبن منذر من الشّافعيّة.

المسألة التّاسعة: إذا مسّ دبره ينقض عند الصّحيح في مذهب الشّافعي وفي رواية عن أحمد. وقال مالك وأبو حنيفة وأحمد في رواية عنه: لا ينقض، وإذا مسّت المرأة فرجها إنتقض وضوؤها عند الشّوافع ، وعند باقي الأئمة لا ينتقض.

مسائل التيمّم: المسألة الأولى: كيفيّة التيمّم أن تضرب بيديك التّراب أو الرّمل الّذي به غبار وأي شيء به غبار، ثمّ تمسح بيديك الوجه واليدين، وهذا في بدل الغسل والوضوء لا يزيد على ذلك شيئاً. **المسألة الثّانية**: يجب في التيمّم ضربتان: ضربة تضرب بكفّيك على التّراب مثلاً فتمسح به وجهك، وضربة أخرى لليدين فتضرب كفيك على ما فيه غبار فتمسح باليسري اليد اليمنى وباليمنى اليسرى، ولا يجزئ أقلّ من ضربتين، وهذا مذهب الشّافعي ومالك وأبي حنيفة، وقال مالك وأحمد يجزئ ضربة واحدة للوجهين والكفّين، فإن زاد على ضربة فجائز، وعند القاضي من الحنابلة الضّربتان كمال والواحدة جواز.

المسألة الثّالثة: لا يجوز التّيمّم إلّا بتراب طاهر له غبار يعلق باليد، أو ما كان عليه غبار كذلك، وهذا ما ذهب إليه الشّافعي وأحمد ، وقال أبو حنيفة ومالك: يجوز التيمّم بكلّ ما هو من جنس الأرض كالنّورة والزّرنيخ والحجارة والصّخرة الّتي لا تراب عليها، وإستثنى مالك اللّبد والثّوب الّذي به غبار.

المسألة الرّابعة: إذا أجنب أو أحدث فتيمّم ثمّ وجد ماءً يعيد الغسل أو الوضوء لأنّ التّيمّم لا يرفع الحدث، وإنّما يستباح به الصّلاة، أو ما يشترط فيه الطّهارة كما قال مالك والشّافعي وأحمد. وعند أبي حنيفة: لا يعيد الغسل ولا الوضوء لأنّ التّيمم يرفع به الحدث كالوضوء والغسل.

المسألة الخامسة: اتّفقوا على أنّ التّيمم لا يصحّ إلّا مع النّيّة وينوي به إباحة ما يشترط فيه الطّهارة كالصّلاة والطّواف أو القراءة مثلاً ولا ينوي به رفع الحدث لأنّه لا يرفع به الحدث عند الجمهور وعند أبي حنيفة يرفع به الحدث كما مر، وحكي عن الحسن بن صالح والأوزاعي صحّته بدون النّية أيضاً.

المسألة السّادسة: إذا نوى التيمّم للفرض فيجوز أن يصلّى به الفرض والنّفل، سواءً قبل الفرض أو بعده، وما شاء من عدد النّوافل، ولكن لا يجوز أن يأتي به بفرضين سواءً متّفقين كصلاتين أو مختلفين كصلاة وطواف فرض، هذا عند الجمهور، وقال مالك ورواية عن أحمد: أنّه لا يصلّى به قبل الفرض غير الرّاتبة، وقال أبو حنيفة: يجوز أن يصلّى به فرائض أيضاً.

المسألة السّابعة: إذا تيمّم للنّفل يجوز أن يفعل به ما شاء من النّوافل متفقات

ومختلفات، ولا يجوز أن يؤدّي به الفرض، هذا إذا نوى النّفل من الصّلاة، وأمّا إذا نوى النّفل غير الصّلاة كقراءة القرآن ومسّه والطّواف المندوب، فما نوى به الأفضل يجوز به غيره، وما نوى به الأدنى لا يجوز به الأعلى.

المسألة الثّامنة: لا يجوز التّيمّم لأي عبادةً فرضاً أو نفلاً، قبل دخول الوقت عند الجمهور ، وعند أبي حنيفة: يجوز قبل الوقت لأنّه كالوضوء.

المسألة التّاسعة: إذا نوى التّيمّم للجنابة ولم ينو الحدث سقط به الحدث أيضاً وبالعكس، لأنّ طهارتهما واحدة، فسقط إحداهما بالأخرى وإن لم ينوها، وهذا عند أبي حنيفة ومالك، وعند الشّافعي وأحمد: لا تسقط إلّا أن ينويها معها لأنّ الأعمال بالنّيات فما لم ينو لم يدخل.

المسألة العاشرة: إذا كان بأحد أعضاء التّيمّم جرح أو بأكثر يغسل الصّحيح ويتيمّم للجريح تيمماً واحداً إذا كان الجريح عضواً واحداً، وتيمّمين أو ثلاثاً إذا كان الجريح أكثر كما إذا كان برأسه جرح وبيده جرح وبرجله جرح، واليدان عضو واحد والرّجلان عضو واحد أيضاً هذا عند الشّافعي. وعند الأحناف لا يجمع الماء والتّراب بل إن كان أكثر الأعضاء جرحى يتيمم ولا يغسل ويمسح على الجبيرة، وإن كان أكثر أعضائه صحيحة يغسل ولا يتيمم.

المسألة الحادية عشرة: صاحب الجبيرة يمسح عليها، فإن كان وضعها على طهر فذاك وإلّا يعيد كلّ صلاة صلاها بالمسح عليها، هذا عند الشّافعية، وعند الأحناف وبعض من الشّافعية لا يعيد الصّلاة، سواء وضعها على طهر أو حدث، لأنّ الله تعالى لا يكلّف العبد بفعل شيء مرّتين، وهذا هو الأصلح والله تعالى أعلم.

المسألة الثّانية عشرة: إذا علم المرء أنّه لو جامع لا يجد ماءً يغتسل به أو لا يستطيع أن يستعمل الماء، يجوز له أن يجامع ويتيمّم، ولا مانع من ذلك والله تعالى أعلم.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى في هذه السّورة أحكاماً كثيرة و كان أهل الكتاب ينكرون هذه الأحكام وإن كانت موافقة لما في كتبهم التّوراة والإنجيل ويعادونها، أراد تعالى أن يبيّن خبث نيّاتهم و قبح أعمالهم، فقال جلّ وعلا:

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟

﴿ٱلسَّبِيلَ ۝٤٤ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ۝٤٥﴾

(ألم تر) أي ألم تعلم أيّها النّبيّ أو أيّها المخاطب من كلّ مسلم، والإستفهام للتعجب من حال أهل الكتاب، فالمعنى: تعجّب حينما تنظر **(إلى الّذين أوتوا نصيباً)** أي حظّاً **(من الكتاب)** وهو التّوراة وقدراً من العلم بها **(يشترون)** أي يتّخذون **(الضّلالة)** بدل الهدى، فيضلّون فينكرون ما بلّغناك من الأحكام وإن كانت موافقة لما في التّوراة ولا يكتفون بذلك بل **(ويريدون)** أي ويحاولون بشتّى الوسائل **(أن تضلّوا)** أنتم أيّها المؤمنون **(السّبيل)** الحقّ والشّريعة المستقيمة، فاحذروا منهم فإنّهم أعداؤكم وقد أخبركم الله تعالى بذلك **(والله أعلم بأعدائكم)** منكم ولا تخافوهم وتوكّلوا على الله تعالى **(وكفى بالله)** أي وكفى الله **(وليّاً)** لكم ويتولّى أمركم **(وكفى بالله)** أي كفى الله لكم **(نصيراً)** فينصركم عليهم إن إجتمعتم على دينكم وجاهدتم في سبيله.

تنبيه: الباء في هذه المواضع مثل (وكفى بالله وليّاً)، (وكفى بالله نصيراً)، (وكفى بالله وكيلاً)، (وكفى بالله شهيداً)، يقال إنّها زائدة، إلّا أنّ القول بوجود زيادة شيء في القرآن يقدح في بلاغته فهو باطل، فالحقّ أنّ الباء جاء في مثل هذه المواضع لأنّ المراد بكفى اكتفوا بالله وليّاً ونصيراً و قِسْ على ذلك أمثالها، واحفظ هذا التّنبيه وفسّر به ما وجدت من هذه الأمثلة في القرآن والله تعالى أعلم.

* * *

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر كيفيّة ضلال أهل الكتاب ومحاولتهم لإضلال النّاس فقال جلّ وعلا:

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٤٦﴾

(من الّذين) أي يوجد بعض **(من الّذين هادوا)** أي انتسبوا إلى دين اليهوديّة **(يحرّفون الكلم عن مواضعه)** أي يغيّرون كلمات التّوراة و يزيّلونها عن مواضعها، ويضعون مكانها كلمات أخرى، ومن ذلك أنّهم كانوا يحذفون صفات الرّسول (ﷺ)

ويضعون مكانها صفات لا تنطبق عليه، ويحذفون بعض الأحكام الّتي نزل القرآن بها ويضعون مكانها أحكام أخرى، وكانوا أيضاً يغيّرون الكلمات عن معانيها فيؤولونها إلى معان أخرى لا توافق القرآن، وكانوا أيضاً يستعملون هذا التّأويل في المكالمة معك ويريدون بما يقولون معنى غير ما يراد من ظاهر الألفاظ **(ويقولون)** لك **(سمعنا)** قولك يقولون هذا بأفواههم وفي باطن قلوبهم يقولون **(وعصينا)** فأرادوا بقولهم سمعنا مجرد سماع لا سماع قبول وإستجابة كما هو الشّائع والظّاهر من لفظ **(سمعنا)** ويقولون **(واسمع)** قولنا **(غير مسمع)** حال من فاعل إسمع وهو أنت أي اسمع حال كونك **(غير مسمع)** وهذه كلمة كانت تقال للمخاطب إحتراماً فمعناه **(اسمع غير مسمع)** أي لا أسمعك الله مكروهاً أو لا نسمعك مكروهاً، فأرادوا به معنى آخر وهو أنّك يا محمّد غير مسمع أي غير مجاب الدّعوة فلا نجيب ما تدعونا إليه أو أرادوا **(اسمع غير مسمع)** أي جعلك الله أصمّ لا تسمع شيئاً **(وراعنا)** معناه راقبنا وانتظرنا لنكلمك، إلّا أنّهم أرادوا شتمه، فإنّ هذه الكلمة كانت في اللّغة العبرانية شتماً ومسبّةً مشتقّةً من الرّعونة، وكانوا يقولون إنّا نريد شتمه ولا يدري، ولو كان نبيّاً لعلمه فأظهره الله تعالى نبيّه وأخبره بنواياهم ومراداتهم في كلامهم معه فكان معجزة، وهكذا كان اليهود حينما يخاطبون الرّسول (ﷺ) يقولون مثل هذه الكلمات ويلوون أي يميلون ويعوّجون فيها **(ليّاً)** ميلاً وتعويجاً **(بألسِنتهم)** بكلامهم، حيث يقصدون به غير ظاهره **(وطعناً)** ويطعنون بذلك طعناً **(في الدّين)** أي في حامله وهو الرّسول (ﷺ) فالطّعن في الرّسول طعن في الدّين لأنّه يؤخذ منه، ودلّت الآية على أنّ الطّعن في العلماء هو طعن في الإسلام لأنّه يؤخذ منهم، ولذلك نرى الفئات الضّالة المضّلة حينما لا يستطيعون الطّعن في الدّين خوفاً من المسلمين، أصبحوا يطعنون في العلماء لأنّ الدّين يؤخذ منهم، ويريدون بذلك إبعاد النّاس عن العلماء ليبتعدوا عن الدّين ليقدروا بعد ذلك على إضلالهم بكلّ يسر وسهولة. **(ولو أنّهم قالوا سمعنا واطعنا)** بلسانهم وقلوبهم بدل قولهم وعصينا **(واسمع)** ولم يتبعوه بقولهم: **(غير مسمع وانظرنا)** بدل وراعنا **(لكان)** ذلك الأسلوب **(خيراً لهم)** عند الله حيث كانوا يثابون على ذلك ويصانون من العذاب، وعند المؤمنين حيث يأمنون منهم فلا يبتلون بالقتال والهزيمة والأحلام **(وأقوم)** أي وأعدل وأحسن لأنّه هو الحقّ الّذي يجب أن يقولوا ويذعنوا به **(ولكن)** مخففة من الثّقيلة وإسمها ضمير شأن مقدر تقديره ولكنه أي ولكنّ الشأن والحال أنّه **(لعنهم الله)** أي طردهم من الرّحمة فلم يفتح لهم طريق الهداية وذلك **(بـ)** سبب **(كفرهم)** أي إصرارهم على الكفر والتمرّد على

الحقّ والرّسول والإسلام، وأنّ الله لا يهدي جبراً من أصرّ على الكفر ولم يرد إلّا التّمرد والضّلال ولذلك **(فلا يؤمنون)** بالإسلام **(إلّا قليلاً)** منهم وهم الّذين يحبّون الحقّ ويسمعون القول فيتّبعون أحسنه، وذلك كأمثال عبد الله بن سلام ومن حذا حذوه فآمنوا وأسلموا. **سؤال:** قوله تعالى: (لكان خيراً لهم) كلمة (خيراً) أصله أخير بفتح الهمزة وسكون الخاء وفتح الياء على صيغة أفعل، نقلت حركة الياء إلى الخاء فصار أخير، فاستغنى عن الهمزة لأنّها جاءت لتعذر الإبتداء بالسّاكن ولم يبق ذلك التّعذر حينما فتحت الخاء فصار خيراً فهو أفعل التّفضيل من الخير، وإنّ أفعل التّفضيل يدلّ على وجود أصل الفعل في المفضّل عليه إلّا أنّه في المفضّل أكثر وأزيد، فهنا يفيد أنّ أقوالهم الّتي قالوها ليّاً وطعناً في الدّين كان فيه خيرا إلّا أنّهم لو قالوا سمعنا وأطعنا وانظرنا كان أكثر خيرية منها، وذلك باطل لأنّه لم يكن في أقوالهم شيء من الخيريّة، وكذلك القول في قوله تعالى: (وأقوم) حيث لم يكن في أقوالهم شيء من العدل والسّداد أيضاً؟ **الجواب:** عن هذا السؤال بوجوه:

الأوّل: إنّ هذه القاعدة لأفعل التّفضيل ليست مطّردة فإنّه يقال: هو أفقه من الحمار وليس للحمار فقه، ويقال: هو أنطق من الجدار وليس للجدار نطق.

الثّاني: نقول إنّ (خيراً) في الآية وكذلك أقوم من الصفات المشّبهة وليس بأفعل التّفضيل لأنّ أفعل التّفضيل لا يصاغ من الأفعال الثّابتة والخيريّة والقوامة من الصّفات الثّابتة فلا يصاغ منها أفعل التّفضيل.

الثّالث: يقال إنّ كلامهم كان فيه شيء من الخيريّة من حيث الأسلوب والأداء، فإنّ السب والشتيمة بالألفاظ التي تكون ظاهرة في غيرهما أحسن من حيث الأدب والاحترام من الألفاظ الصريحة فيها والله تعالى أعلم.

* * *

ثمّ بعد أن فضح الله تعالى اليهود وأظهر نيّاتهم الخبيثة ومراداتهم الوقحة من كلامهم ومخاطبتهم للرّسول (ﷺ)، وجّه إليهم إنذاراً شديداً، فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾

(يا أيّها الّذين أوتوا الكتاب) المراد بهم اليهود النّصارى **(آمنوا بما نزّلنا)** على محمّد (ﷺ) وهو القرآن والإيمان به، بأنّه من عند الله تعالى، يستلزم الإيمان برسالة الرّسول (ﷺ) والإيمان بسنّته **(مصدّقاً)** حال من الضّمير المحذوف في نزّلنا والتّقدير نزّلناه أي القرآن (مصدّقاً لما معكم) من التّوراة والإنجيل وتصديق القرآن للتّوراة والإنجيل بوجوه:

الأوّل: إنّ التّوراة والإنجيل بشّرا بمجيء محمّد رسولاً وذكرا أوصافه وعلاماته وإنّ القرآن ينزل عليه، فنزول القرآن يصدّق هذه البشارة الموجودة في التّوراة والإنجيل.

الثّاني: إنّ القرآن يصدّق ويوافق التّوراة والإنجيل غير المحرّفين في العقائد وتوحيد الله تعالى.

الثالث: إنّ القرآن يصدّقها ويوافقها في أمّهات الأحكام، والأحكام المهمّة الّتي تتّفق فيها كلّ الأديان.

(من قبل) أي آمنوا **(من قبل أن نطمس وجوهاً)** أي من قبل أن نغضب عليكم فنعذّبكم بأحد أمرين: **الأوّل: (أن نطمس وجوهاً)** التّنوين عوض عن المضاف إليه، أي أن نطمس وجوه من لا يؤمن **(فنردّها على أدبارها)** والمعنى أن نزيل عيونها وبعد ذلك نقلبه إلى الوراء، فيصير الإقبال إدباراً أو الإدبار إقبالاً، أو معناه أن نمحو صورها فلا يبقى فيه عيون ولا أنوف ولا أفواه فنجعلها على صورة أدبارها، والمعنى الثّاني أصحّ.

الثّاني: هو ما ذكره تعالى فقال: **(أو نلعنهم)** أي نمسخ تلك الوجوه قردة وخنازير **(كما لعنّا)** أي مسخنا **(أصحاب السّبت)** وقد مرّت قصّتهم في سورة البقرة، وقيل: معناه أو نطردهم من الرّحمة كما طردنا أصحاب السّبت **(وكان أمر الله)** أي أمره بعذابهم بأحد الأمرين **(مفعولاً)** واقعاً لا راد له.

سؤال: إنّ الله تعالى أنذر الّذين لا يؤمنون من أهل الكتاب بأحد الأمرين: الطّمس أو اللّعن، وإنّ كثيراً منهم لم يؤمنوا فلم يصبهم لا الطّمس ولا اللّعن بمعنى المسخ، فكيف يكون معنى الآية؟ **الجواب**: بثلاثة وجوه: **الأوّل**: إنّ العذاب كان دائراً بين أمرين الطّمس واللّعن، وإنّ اللّعن بمعنى الطّرد من الرّحمة وهو موجود؛ إذ هم محرومون من رحمة الله تعالى قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ سورة البينة الآية/٦.

الثّاني: إنّ اللّعن بمعنى المسخ بقرينة قوله (كما لعنّا أصحاب السّبت) وكان لعنهم بالمسخ وأنّهم يمسخون يوم القيامة قردة وخنازير.

الثّالث: إنّ الإنذار كان مشروطاً بأن لا يؤمن منهم أحد، فحينما آمن عبد الله بن سلام وجماعته وغيرهم، انقضى شرط الإنذار فأنت فى الأنذار. والله تعالى أعلم.

* * *

ثمّ بعد أن أنذرهم الله تعالى هذا الإنذار الشّديد وعدهم بالمغفرة لسائر الذّنوب إن آمنوا وتابوا من الكفر والإشراك، فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾

(إنّ الله لا يغفر أن يشرك به) بدون التّوبة والخروج عنه، وأمّا إذا تابَ المشرك وخرج عن الشّرك فشركه السّابق مغفور بدليل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠)﴾ سورة الفرقان الآية ٦٨ ـ ٧٠. وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ سورة طه الآية/ ٨٢، إلى غير ذلك من الآيات الّتي تدلّ على أنّ الشّرك مغفور عنه بالتّوبة والإقلاع عنه، فالله تعالى يغفر عن الشّرك بالتّوبة.

(ويغفر ما دون ذلك) أي غير الشّرك من الذّنوب كبائرها وصغائرها بدون توبة **(لمن يشاء)** وإنّما قلنا هنا بدون توبة لأنّه لو كان غير الشّرك مشروطاً بالتّوبة لما بقى الفرق بينه وبين غيره من المعاصى وهو باطل. والحاصل أنّ المعاصي ثلاثة أقسام: الكبائر وقد مرّ تعريفها، والصّغائر، وأكبر الكبائر وهو الشّرك، فالشّرك لا يغفر عنه إلّا بالتّوبة والصّغائر يكفّر عنها بالاجتناب عن الكبائر كما ذكر سابقاً، والكبائر غير الشّرك بدون توبة موكولة إلى مشيئة الله تعالى، فإن شاء غفر وإن شاء عذّب، وبالتّوبة مغفورة لأنّها أصغر من الشّرك، فإذا غفر الشّرك بالتّوبة فتغفر هي بالطريق الأولى. وهذا مذهب أهل السّنة والجماعة ثبّتنا الله تعالى عليه. ونذكر لك أدناه ما ذهب إليه الطّوائف الأخرى إن شاء الله تعالى:

١- **المرجئة:** إنّ المعاصي كلّها غير الشّرك مغفورة بدون توبة، والمؤمن لا يعذّب أبداً، فإنّ المعاصي لا تضرّ مع الإيمان كما أنّ الأعمال الصّالحة لا تنفع مع الكفر.

٢ ـ **الخوارج:** إنّ أصحاب الكبائر لا يغفر لهم وإنّهم مخلّدون في النّار لأنّ الكبيرة كفر ومرتكبها كافر ولا غفران للكافر .

٣ ـ **المعتزلة:** إنّ الكبائر لا يجوز العفو عنها بدون توبة لأنّ العفو عن الكبائر قبح، ولا يفعل الله تعالى القبيح؛ فيعذّبون عليها بقدر مايستحقون، ثمّ ينجون من العذاب. هذا وإنّ ظاهر الآيات مع أهل السّنة والجماعة.

أسئلة:

السّؤال الأوّل: إنّ الملحد لا يشرك بالله لأنّه لا يؤمن به فيشرك به غيره، فهل تفيد الآية أنّه يغفر له؟

الجواب: إنّ الملحد مشرك لأنّ المراد من الإشراك أن تجعل وتعتقد بإله غير الله، سواء اعتقدت بالله أم لا، والمراد بالإله المكوّن والموجد للأمور، وإنّ الملحد يؤمن بالمادة والطّبيعة، ويعتقد أنّها هي الّتي تعمل فتوجد الأشياء بالتّطور والتّحول، وبذلك إتّخذ غير الله تعالى إلهاً، وجعل له شريكاً لأنّ الله موجود اعتقد هو به أو لا، وقد اعتقد إلهاً آخر فجعل مع الله إلهاً وأشرك به في الواقع والعبرة بالواقع.

السّؤال الثّاني: إنّ اليهود والنّصارى لا يشركون بالله غيره، فهل تفيد الآية أنّه يفغر لهم ؟.

الجواب: ليس كما نقول فإنّهم يشركون بالله تعالى، فإنّ اليهود جعلوا عزيراً إبن الله تعالى، والنّصارى منهم من يجعل المسيح ومريم إلهين، ومنهم من يجعل المسيح إلهاً، ومنهم من يجعله إبن الله تعالى، ذلك يوجب الشّرك بالله تعالى؛ لأنّ إبن الإله إله.

السؤال الثّالث: إنّ من اليهود والنّصارى من بقوا على الإيمان بالله وحده ولم يشركوا، واعتقدوا في عزير وعيسى ومريم أنّهم عباد الله تعالى، إختار الأوّلين نبيّين ومريم وليّةً من أوليائه كما هو الواقع والصّحيح عند المسلمين، فهل تفيد الآية أنّهم يغفر لهم ؟.

الجواب: نعم إنّ الآية تفيد أنّ غير الشّرك يغفر من الذّنوب، فتفيد أنّ الموّحد الّذي لم يدخل الإسلام ولم يؤمن به وبرسوله قابل للمغفرة وموكول أمره إلى مشيئة

الله تعالى، إلّا أنّ هناك آيات تخصّص عموم هذه الآية فيخرج من لم يؤمن بالرّسول (ﷺ) ولم يعتنق الإسلام عن أن يغفر الله لهم، وإن كان موحّداً وإليك هذه الآيات:
١- قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ سورة آل عمران الآية/ ١٩.

٢ - قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) ـ سورة آل عمران الآية/ ٨٥ ـ .

٣ ـ قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ سورة الأعراف الآية/ ١٥٦ ـ ١٥٧.

٤- قال تعالى: ﴿لَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ سورة محمد الآية/ ١-٢. فهذه الآيات وأمثالها صريحة الدّلالة على أنّ من لم يؤمن بمحمّد (ﷺ) ولم يعتنق دينه فهو خاسر وغير مرحوم ولا يغفر لهم، هذا، وسيأتي ذكر هذه المسألة في سورة الحاقّة مفصّلة إن شاء الله تعالى.

السّؤال الرّابع: قال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ سورة الزمر الآية/ ٥٣. فتفيد هذه الآية أنّ كلّ الذّنوب حتّى الشّرك قابل للمغفرة ويغفر الله تعالى عنها بدون التّقييد بمن شاء.

الجواب: إنّ هذه الآية يخصّصها قوله تعالى: (إنّ الله لا يغفر أن يشرك به) ويقيدها قوله: (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) بمن يشاء أو تقيّد الآية بالتّوبة بقرينة الآيات الّتى اشترطت فيها التّوبة. فإنّ القرآن يخصّص بعضه بعضاً ويقيّد بعضه بعضاً آخر، والله تعالى أعلم.

تنبيهات: الأوّل: إنّ ما قلنا في حقّ المشركين والملحدين وأهل الكتاب هو كلّه في حقّ من بلغته الدّعوة الإسلامية الصّحيحة، وأمّا من لم تبلغه الدّعوة أو بلغته

مشوّهة وغير صحيحة فليسوا مسؤولين؛ حيث قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ سورة الإسراء الآية/ ١٥ ، بل الأمّة الإسلامية مسؤولة عن تركها نشر دعوة الإسلام الصّحيحة وبعث العلماء للوعظ والإرشاد.

الثّاني: إنّ الخوارج هم طائفة كانوا مع سيّدنا عليّ(رضي الله عنه) في الحرب ضدّ معاوية، فخرجوا على عليّ(رضي الله عنه) فسمّوا الخوارج، فهم أصبحوا ضدّ عليّ ومعاوية (رضي الله عنه) معاً. والمرجئة هم جماعة يعتقدون بأنّ المعاصي لا تضرّ مع الإيمان وأنّ كلّها مغفورة بدون التّقييد بشيء، وأوّلوا قوله: (لمن يشاء) بأنّ المراد لمن يشاء له الإيمان، سمّوا مرجئة من نرجئ أي نحيل أو نؤجّل، وذلك لأنّهم أوّل ما ظهروا كانوا جماعة محايدة لم يشتركوا في القتال لا مع عليّ(رضي الله عنه) ولا مع معاوية (رضي الله عنه)، فكان النّاس يسألونهم عن عليّ(رضي الله عنه) وعن معاوية (رضي الله عنه) أيّهما حقّ فيقولون نرجئ أمرهما أي نحيل أمرهما إلى الله تعالى، ثمّ كانوا يسألونهم عن القتل الّذي كان يدار بين الطّرفين هل هو ذنب أم لا ؟ فيقولون: نرجئ أمرهم إلى الله تعالى، ثمّ تطوّروا فقالوا: في كلّ ذنب أنّه لا يضرّ مع الإيمان، فسموا مرجئة أمّا لقولهم: نرجئ أمرهم إلى الله تعالى، أو لأنّهم يرجئون أي يؤخّرون ويبعدون الذّنوب عن العقوبة والعذاب أو لكلا المعنيين.والمعتزلة جماعة ينتسبون إلى واصل بن عطاء؛ سمّوا معتزلة لأنّ واصلاً خالف أستاذه الشّيخ حسن البصري، فقرّر أنّ مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر، فقال الحسن (رضي الله عنه) إعتزل عنّا فسموا المعتزلة.

والمعتزلة فرقتان:

الأولى: القدرية وهم الّذين يقولون أنّ أعمال العبد مخلوقة للعبد لا دخل لله تعالى فيها إلّا أنّ القدرة الّتي يخلق العبد بها الأعمال هي من خلق الله تعالى.

الثّانية: الجبريّة وهم الّذين يقولون أنّ أعمال العبد مخلوقة لله لا دخل للعبد فيها، فالعبد كالقلم بين يدي الكاتب يعمل ما يجبره الله تعالى عليه، ومدار الثّواب والعقاب هو الإتّصاف لا العمل. وهذه الطّوائف كلّهم طوائف إسلاميّة إختلفوا في بعض الأمور الإعتقاديّة كإختلاف المجتهدين في الأمور العمليّة، ولكلّ من الطّوائف أدلتها من الكتاب والسّنة والعقل، فالمصيب له أجران، والمخطئ له أجر واحد، كسائر المجتهدين (رضي الله تعالى عنهم جميعاً) وقد ذكرتهم في سورة المدثّر بأوضح من هنا.

الثّالث: الشّرك قسمان: شرك في التّكوين وشرك في التّشريع، فمن اعتقد أنّ غير

الله تعالى يستطيع أن يخلق شيئاً أو يكوّنه، وإنه ينفع أو يضرّ فقد إتخذ غير الله تعالى مكونًا وموجداً، وأشرك به لأنّه لا مكوّن ولا موجد إلّا الله تعالى. وهذا مفهوم من قول سيّدنا يعقوب (على نبينا وعليه الصلاة والسلام) فإنّه بعد ما قال لبنيه: (وَقَالَ يَابَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ) قال لهم: (وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ سورة يوسف الآية/ ٦٧. أي ليس الخلق والإيجاد والحفظ والقضاء إلّا لله.

وكذلك من إعتقد أنّ لغير الله حقاً في التّشريع والتكليف فقدّ أشرك لأنّه لا مشرع إلّا الله تعالى. وهذا مفهوم من قول سيّدنا يوسف (على نبينا وعليه الصلاة والسلام) حيث قال لصاحبيه في السجن: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي ليس التّشريع إلّا لله بقرينة قوله: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فإلى غير ذلك من الآيات الّتي تخصّ الحكم والتّكليف بالله تعالى، فالشّرك بقسميه عظيم لا يغفر، ولذلك قال تعالى: (**وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى**) أي إختلق (**إِثْمًا عَظِيمًا**) أي ذنباً عظيماً لا يغفر إن مات عليه ولم يتب. أللهم قنا من الشّرك ومن كل ذنب عظيم، واغفر لنا وارحمنا إنّك أرحم الرّاحمين آمين.

* * *

ثمّ بعد أن أنذر الله تعالى أهل الكتاب قالوا نحن لسنا مشركين بل نحن خواصّ الله فلا يعذّبنا وقالوا ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ سورة البقرة الآية/ ٨٠ ـ وقالوا: (نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ) وقالوا: (وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ سورة البقرة الآية/ ١١١. وقال بعضهم: إنّ آباءنا كانوا أنبياء فيشفعون لنا. وروي عن إبن عبّاس: أنّ قوماً من اليهود أتوا بأطفالهم إلى النّبيّ (ﷺ) وقالوا: يا محمّد هل على هؤلاء ذنب؟ فقال: لا، فقالوا: والله ما نحن إلّا كهولاء ما عملناه باللّيل كفّر عنّا بالنّهار وما عملناه بالنّهار كفّر عنا باللّيل فأنزل الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾

(ألم تر) الإستفهام للتّعجّب، وتعدّى (تر) بإلى لأنّه تضمّن معنى تنظر، فالمعنى: ألم تنظر (**إلى الّذين يزكّون أنفسهم**) لتتعجب من حالهم، فإنّ حالهم مما يتعجّب منه

حيث إنّهم **(يزكّون)** أي يصفون أنفسهم بالتّزكية والطّهارة والتّقوى، وليست التّزكية عائدة إليهم **(بل الله يزّكي من يشاء)** أي يعتبر ويقبل من يشاء زكيّاً ومتّقياً حسب أعماله، فمن كانت أعماله حسب ما أمره به يعده تعالى من الأزكياء والمتّقين ومن لا فلا **(ولا يظلمون)** أي لا ينقص الله من أعمال المتقين **(فتيلاً)** ما كان بقدر الفتيل وهو القشرة الّتي تكون على نواة التّمر، فهذه الآية تنهى عن أن يمدح الإنسان نفسه أو أن يمدح غيره، وقد وردت الأحاديث أيضاً بالنّهى عن ذلك. أمّا في مدح المرء نفسه فنقل القرطبيّ في صحيح مسلم عن محمّد بن عمرو وبن عطاء قال: سمّيت إبنتي (بَرّة) فقالت لي زينب بنت أبي مسلمة: إنّ رسول الله نهى عن هذا الإسم وسمّيت برّة. فقال رسول الله (ﷺ): (لا تزكّوا أنفسكم، الله أعلم بأهل البرّ منكم، فقالوا: بم نسمّيها؟ فقال: سمّوها زينب)[1]

وأمّا في مدح المرء غيره: فقال القرطبي: ففي البخاري من حديث أبي بكرة أنّ رجلاً ذكر عند النّبيّ (ﷺ): فأثنى عليه رجل فقال النّبيّ (ﷺ): (ويحك قطعت عنق صاحبك، يقوله مراراً. إنّ أحدكم إن كان مادحاً لا محالة فليقل أحسبه كذا وكذا، إن كان يرى أنّه كذلك، والله حسيبه ولا يزكّي على الله أحداً)[2] ومن هذا علم أنه دلّ الكتاب والسّنة على المنع من مدح المرء نفسه أو غيره، هذا وحيث ثبت أنّ الرّسول (ﷺ) كان يستمع إلى الشعراء يمدحونه في المسجد، وكان النّبيّ (ﷺ) يمدح غيره ومدح هو الأنصار فقال: (إنّكم لتقلّون عند الطّمع وتكثرون عند الفزع)[3] وقد كان يسمع أصحابه حينما يمدحون أنفسهم عند المبارزة فلا ينهاهم، وكان يقول في حقّ نفسه: أنا كذا أنا كذا ولا فخر[4]، فحيث ثبتت هذه الأمور كلّها حمل العلماء الآية وأحاديث النّهي على المدح والوصف بما ليس موجوداً في الممدوح، أو إذا كان يورث ذلك الكبر والخيلاء للممدوح، ويدل على ذلك قوله (ﷺ): (لا تطروني كما أطرت

---

(١) صحيح مسلم ٣/١٦٨٧ الحديث رقم ٢١٤٢.

(٢) صحيح البخاري ٥/٢٣٥٣ الحديث رقم ٥٧١٤.

(٣) كشف المشكل لابن الجوزي ٣/٣٤٣.

(٤) من مثل قوله ﷺ أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم ومن سواه إلا تحت لوائي وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر... / سنن الترمذي ٥/٣٠٨ الحديث رقم ٣١٤٨، وقال هذا حديث حسن صحيح.

النّصارى بن مريم، فإنّما أنا عبده،، فقولوا: عبد الله ورسوله)[١] أي لا تصفوني بما ليس موجوداً فيّ كما وصفت النّصارى عيسى بما ليس فيه كالألوهية أو البنوّة لله تعالى، فيفيد أنّه يجوز الوصف بما هو موجود كعبد الله ورسول الله، ولا مدح أكثر من هذا، ويدلّ على ذلك أيضاً قوله تعالى: **(انظر)** أي انظر إليهم أي إلى أهل الكتاب **(كيف يفترون)** يختلقون **(على الله الكذب)** يصفون به أنفسهم فيقولون نحن أحباء الله أو أبناؤه أو أن آباءنا أنبياء يشفعون لنا **(وكفى به)** أي واكتف **(به)** بهذا الافتراء ومدحهم بما هو كذب وليس فيهم، اكتف به **(إثماً)** ذنبا **(مبيناً)** واضحاً. فظهر أنّ أهل الكتاب عوتبوا لأنّهم وصفوا أنفسهم بما ليس فيهم، وبما هو باطل، فتبيّن أنّ الوصف بما هو موجود في الموصوف جائز إلّا إذا أورث ذلك كبراً وخيلاء ورياء في الموصوف ولذلك قال الرسول(ﷺ): (ويحك قطعت عنق صاحبك) اي بعثت فيه الكبر والخيلاء هذا ما استفدنا من هذا المقام والله تعالى اعلم. ثمّ بعد أن ذكر تعالى أنّ أهل الكتاب يفترون على الله الكذب أراد أن يذكر افتراء آخر اختلقوه وهو أشدّ من افترائهم التي سبقت فقال جل وعلا:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾

ذكر ابن هشام في السّيرة وأصحاب التّفاسير: إنّ جماعة من اليهود قدموا على قريش في مكة فدعوهم إلى حرب رسول الله (ﷺ) وقالوا لقريش: إنّا سنكون معكم عليه حتّى نستأصله، فقالت لهم قريش: يا معشر اليهود إنّكم أهل الكتاب الأوّل والعلم بما أصبحنا فيه نحن ومحمد أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحقّ منه، فلمّا قالوا ذلك لقريش سرّهم ونشطوا فاجتمعوا لحرب الرّسول (ﷺ) واستعدوا له، واتفق معهم غطفان فاجتمع الأحزاب لحرب رسول الله (ﷺ) ونشأت غزوة الخندق وفي هؤلاء اليهود نزل قوله تعالى: **(ألم تر)** أي ألم تنظر **(إلى الّذين أوتوا نصيباً من الكتاب)** وهم اليهود **(يؤمنون بالجبت)** أي بالباطل **(والطّاغوت)** صيغة مبالغة

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٢٧١ الحديث رقم ٣٢٦١.

من طغى بمعنى تجاوز الحدّ، فيقال لكلّ من دعا إلى باطل وهم رؤساء المبادئ والعقائد الفاسدة ودعاتها فاليهود لهم خصلتان:

أولاهما: أنّهم كانوا يؤمنون بدينهم الباطل المحرّف وبطواغيتهم، وهم رؤساؤهم الّذين كانوا يدعونهم إلى هذا الباطل.

الثّانية: إنّهم يؤيدون كلّ باطل لمصلحتهم ولمعاداة الإسلام ودين الله الحقّ، كما ذكر تعالى خصلتهم هذه بقوله جلّ وعلا: (**ويقولون للّذين كفروا**) وهم المشركون (**هؤلاء**) أي المشركون (**أهدى**) إلى الحقّ (**من الّذين آمنوا**) بمحمّد (**سبيلًا**) فهم كانوا يعرفون أنّ دين المشركين باطل، إلّا أنّهم أيّدوهم تملّقا وكذباً لمصلحتهم ولمعاداة الإسلام، ولا يزالون كذلك إلى اليوم، فكل الدّسائس الّتي حيكت ضدّ الإسلام والمسلمين كان من ورائها اليهود بل ومؤسّسها اليهود وإنّ التّاريخ يشهد بذلك (**أُولئك**) الّذين يؤيدون الباطل ضدّ الإسلام هم (**الّذين لعنهم الله**) طردهم من رحمته يوم القيامة (**ومن يلعن الله**) إيّاه (**فلن تجد**) أيّها المخاطب (**له نصيراً**) ينصره وينقذه من عذاب الله تعالى. ثمّ استفهم الله تعالى عن سبب عدم إيمانهم بالرّسول فقال جلّ وعلا:

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾

(**أم لهم**) أم بمعنى الهمزة جيئ بها للإستفهام فالمعنى ألهم (**نصيب**) أي شركة (**في الملك**) أي في ملك الله وتصرّفاته، فيريدون أن تكون إيتاء النّعم والنّبوة والرّسالة لمن يشاؤون لا لغيرهم (**فإذاً**) أي كان لهم نصيب في الملك (**لا يؤتون النّاس**) غيرهم (**نقيراً**) لبخلهم وطمعهم، والنّقير: هو النقطة الّتي تكون على ظهر النّواة كناية عن الشّيء القليل، أي لا يعطون النّاس شيئاً ولو كان قليلاً بقدر النّقير، والإستفهام للإنكار، أي كلّا ليس لهم أي نصيب في التّقدير والتّصرف والملك. ثمّ بيّن الله تعالى سبب عدم إيمانهم فقال جلّ وعلا:

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾

(**أم**) أي بل فالمعنى ليس سبب عدم إيمانهم أنّ لهم نصيباً في الملك فإنّ هذا ليس لهم بل السّبب هو أنّهم (**يحسدون النّاس**) المراد به الرّسول (ﷺ) لأنّه لعظيم

منزلته كأنّه كلّ النّاس، أو المراد بالنّاس الرّسول والمؤمنون به فيحسدونهم **(على ما آتاهم الله من فضله)** وهو هذا الدّين القويم والمنهج المستقيم، وهذه الغلبة والسّيادة الّتي حازوها ليس لهم الحقّ في هذا الحدّ حيث **(فقد آتينا آل إبراهيم)** وهم بنو إسرائيل آتيناهم **(الكتاب)** وهو التّوراة **(والحكمة)** وهي الشّريعة **(وآتيناهم ملكاً عظيماً)** مثل ملك داود وسليمان وغيرهم من أنبياء بني إسرائيل وملوكهم، فآتيناهم هذه النّعم ولكنّ اليهود ضيّعوها ولم يشكروها، حيث حرّفوا دينهم وغيّروا منهج أنبيائهم، وأتّبعوا الأهواء ووضعوا شرائع حسب هواهم؛ فلذلك سلبنا منهم النّبوة والسّيادة وأعطيناهما لغيرهم، فلا يلومّن إلّا أنفسهم، وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، إلّا أنّ كلّهم لم يتّصفوا بهذا الحسد كما قال جلّ وعلا:

﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾

فمنهم **(من آمن)** حيث من لم يحسد هذا الحسد كعبد الله بن سلام وجماعته آمنوا **(به)** أي بالرّسول واتّبعوه واعتنقوا الإسلام **(ومنهم من صدّ)** منع النّاس **(عنه)** عن الإيمان لأنّه حسد؛ فأدّاه الحسد إلى الكفر بالرّسول مع العلم برسالته **(وكفى)** واكتفى **(بجهنّم سعيراً)** مسعرة لهؤلاء الحاسدين الّذين يبعدون النّاس وأنفسهم عن الخضوع للحقّ والإيمان بالرّسول (ﷺ) والدّخول في الإسلام، دين الله الحقّ والمنهج المستقيم. ثمّ بعد ما أنذر الله تعالى الّذين يصدّون النّاس عن الإيمان بالرّسول بجهنّم أكّد هذا الإنذار فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾

(إنّ الّذين كفروا بآياتنا) المراد بها آيات التّوراة الّتي كانت تأمرهم بالإيمان برسول الله(ﷺ) ولأنّ فيها أحكاماً توافق القرآن فغيّروها ولم يمتثلوها، أو المراد بها أحكام القرآن، أو المراد كلتاهما، لأنّ اليهود أعرضوا عن الإثنتين ولم يعملوا بهما، والوعيد يشمل أيضاً المسلمين الّذين أعرضوا عن أحكام القرآن ولم يعملوا بهما، ووضعوا مكانها أحكاماً أخرى أرضية ووضعية، فكلّ من أعرض عن آيات الله **(سوف نصليهم)** ندخلهم **(ناراً)** التّنوين للتّعظيم، أي ناراً عظيمة، وهنا يختلج بقلب بعض النّاس أنّه بعدما دخل

النّار يحترق فيموت ويستريح، فرفع الله تعالى هذا الوهم فقال: (**كلّما نضجت**) إحترقت (**جلودهم بدّلناهم**) أي جدّدنا لهم (**جلوداً**) أي جلودهم (**غيرها**) أي غير الجلود الأولى؛ لأنّها كانت محروقة وهي لم تحترق بعد، وإلّا فالجلود نفس الجلود، وذلك التّجديد (**ليذوقوا العذاب**) دائماً ولا ينجوا منه بالموت والإحتراق (**إنّ الله كان**) ولا يزال (**عزيزاً**) ذو عزة وقدرة، فبعزته وقدرته يجدّد هذه الجلود، ولا يصعب عليه ذلك (حكيماً) ذو حكمة بالغة، ولحكمته هذه يعذّبهم هذا العذاب المؤلم والدّائم. أللّهم فقنا من هذا العذاب. ثمّ إنّه من عادة الله تعالى في القرآن أنّه يذكر حال المؤمنين بعد حال الكافرين أو بالعكس، والوعد بعد الوعيد أو بالعكس؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ٥٧﴾

(**والّذين آمنوا**) بمحمّد (ﷺ) واعتنقوا الإسلام ديناً (**وعملوا**) الأعمال (**الصّالحات**) وهي كلّ ما أوجب أو ندب أو أبيح في الإسلام من أعمال وأخلاق وأحكام وأعراف وعادات (**سندخلهم**) بعد موتهم (**جنّات**) بساتين (**تجري من تحتها**) من تحت أشجارها (**الأنهار**) يسقيها (**خالدين فيها أبداً**) إلى ما لا ينتهي، لا يَخرجون ولا يُخرجون (**لهم فيها أزواجٌ**) زوجات (**مطهّرةٌ**) من الحيض والنّفاس والأقذار (**وندخلهم ظلاً ظليلاً**) أي ظلاً يظلّهم ظلاّ مريحاً، حيث يوجد للكافرين ظلّ محرق لا ظليل ولا يغني من اللّهب. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى كفر أهل الكتاب وعدم إيمانهم، وقد أخذ منهم العهد في التّوراة أن يؤمنوا بالرّسول حينما بعث وأرسل، فكفرهم به كان خيانة وضياع أمانة وظلماً، فناسب أن يأمر الله تعالى بأداء الأمانات وعدم الخيانة فيها، وبالعدل وعدم الجور، فقال جلّ وعلا:

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨﴾

في سبب نزول هذه الآية روايات مختلفة، إلّا أنّ كلّها متّفقة على أنّ عثمان بن طلحة الحجّي من بني عبد الدّار كان سادن الكعبة وبيده مفتاحها، فلمّا دخل رسول الله ﷺ مكّة عام الفتح أخذ المفتاح من عثمان وفتح البيت ودخل فيه وصلى فيه

ركعتين، فأراد بعض النّاس أن لا يردّ المفتاح إلى عثمان فنزلت الآية، فطلب الرّسول عثمان وسلّم إليه المفتاح، فأصبحت السّدانة له ولعقبه إلى يوم القيامة، هذا ولكن الآية عامّة فشمل قوله تعالى: (**إنّ الله يأمركم أن تُؤدّوا الأمانات إلى أهلها**) كلّ الأمانات الماديّة والمعنوية والماليّة وغيرها والدّينية والدّنيويّة؛ وذلك لأنّ مورد النّزول لا يخصّص ما نزل، ولذكر الأمانات بلفظ الجمع ودخول لام الإستغراق عليها ولو كان المقصود أمانة عثمان لقيل: (**أن تردّوا الأمانة**) لا الأمانات، قال إبن مسعود (رضي الله عنه): الأمانة لازمة في كلّ شيء. حتّى في الوضوء والغسل من الجنابة والصّلاة والزّكاة والصّوم وسائر أنواع العبادات، وفي ما أنعم الله تعالى به عليك من سائر الأعضاء، فأمانة اللّسان حفظه من الكذب والغيبة والنّميمة وقول الزّور وكلّ قول محرّم في الشّرع، وأمانة العين غضّها من كلّ ما يحرم النّظر إليه، وأمانة السّمع حفظه عن سماع المحرّمات، فرعاية كلّ عضو بحفظه عن إستعماله في الحرام وفي أمانات العباد، فيجب أداء حقوقهم وردّ ودائعهم إليهم وعدم الخيانة معهم، في كلّ ما يجب القيام به تجاههم، فالحاصل يدخل في الأمانات كلّ التّكاليف الشّرعية، وفي ضمنها العدل في الحكم إلّا أنّ الله تعالى صرّح به لشدّة الإهتمام به، فقال جلّ وعلا: (**وإذا**) أي وأمركم الله تعالى (**إذا حكمتم بين النّاس أن تحكموا بالعدل**) والعدل في الحكم لا يكون إلّا إذا كان وفق ما قدره الشّرع ووضعه من الأحكام، فالحاكم في الإسلام هو الله تعالى، وإنّما الحكّام منفّذون، فإذا نفّذوا كما حكم الله فقد عدلوا، وإلّا فقد ظلموا، قال تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظّالمون﴾ سورة المائدة الآية / ٤٥. فالعدل في الحكم من أفضل الأعمال والجور فيها من أعظم الذّنوب، وليس الحكم خاصّاً بالولاة، إذ كلّ إنسان له ولاية على شيء، فإن لم يكن تحت أمره أحد ولا شيء فهو حاكم نفسه، فكلّ إنسان مأمور بالعدل فيما يتولاه، قال (ﷺ): (كلّكم راع وكلّ راع مسؤول عن رعيته) فالعدل بين الأزواج، والعدل بين الأولاد، والعدل بين الأخوة، والعدل في الوزن والكيل والأسعار، والعدل في العمل وأداء الوظيفة والواجب، والعدل في المهن والحرف والصّنائع والتّجارات، والعدل في الحيوان والدّواب، إلى غير ذلك في كلّ ما وكّل إليك القيام به، فقس على ما ذكرنا غير المذكور (**إنّ الله نعِمّا**) أصله نعم[1]، أي نعم الشّيء الّذي (**يعظكم به**) من أداء الأمانات والقيام بالعدل (**إنّ الله كان**) ولا يزال (**سميعاً**)

(١) أصله نعم ما فأدغم فاصبح نِعِمّا أي نعم الشيء.

بأقوالكم فيعلم ما فيه الخيانة والظلم فيعاقبكم عليه، ويعلم ما فيه الأمانة والعدل فيثيبكم عليه **(بصيراً)** بأعمالكم؛ فيثيب على ما فيه الأمانة والعدل، ويعاقب على ما فيه الخيانة والظّلم، ولا يخفى عليه شيء وهو السّميع العليم. ثمّ بعد أن أمر الله تعالى برعاية الأمانات والعدل في الحكم، أراد أن يبيّن طريقة أداء الأمانات والقيام بالعدل، وكيف يكون ذلك فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٥٩﴾

(يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا الله) فامتثلوا أوامره واجتنبوا مناهيه، وبذلك يتمّ أداء الأمانات ورعايتها والقيام بالعدل، وهنا كأنّه يقال كيف يمكن أن نتصل بالله تعالى فنعلم ما يأمرنا به فنمتثل وما ينهانا عنه فنجتنب، فقال تعالى: **(وأطيعوا الرّسول)** فإطاعة الرّسول هي إطاعة الله تعالى لأنّه هو المبلّغ عن الله تعالى وهو ﴿لا ينطق عن الهوى إن هو إلّا وحيٌ يوحى﴾ سورة النجم الآية/ ٣،٤. فيقال فكيف نطيع الرّسول وهو ليس بيننا؟ فقال تعالى: **(وأولي الأمر)** وهم العلماء بكتاب الله وسنّة رسوله[1] **(منكم)** أي من المسلمين، وبذلك تستطيعون إطاعة الرّسول، فإطاعة العلماء إطاعة الرّسول وإطاعة الرّسول إطاعة الله تعالى **(فإن تنازعتم في)** في حكم **(شيء)** هل هو حرام أم لا؟ واجب أو مندوب، مكروه أو مباح صحيح أو فاسد؟ **(فردّوه إلى)** كتاب **(الله)** وهو

(١) لعل المقصود بهم هم ولاة الأمور الذين يحكمون بالإسلام إذ أن طاعتهم طاعة لله ورسوله لأنهم يطبقون أوامرهما المتمثلة بالكتاب والسنة وإلا فإن لم يحكموا بهما فلا طاعة لهم بل طاعتهم معصية. ودليل المقصود بهم ولاة الأمور هو ما بعده (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول) فلم يذكر أولي الأمر هنا، فالمقصود به التنازع في شيء من أمور الحكم مع الحكام وهو يحصل بين الحكام والمحكومين، لأنّه في العلم يحصل الإختلاف في الرأي والإجتهاد لا التنازع، وهو أي الإختلاف بمعنى عدم موافقة الرأي يحصل بين العلماء ولو لم ير بعضهم بعضا، والكلام موجه إلى عامة الناس في موقفهم تجاه أولي الأمر لا إلى أولي الأمر فيما بينهم حتى يردّوه إلى الله ورسوله. والتنازع هو الخصومة في حقّ مجابهة أو مواجهة، وهو ضدّ الطاعة، ويحصل ذلك بين الحكّام والمحكومين . والله أعلم .

القرآن **(و)** إلى سنّة **(الرّسول)**، فما اطّلعتم على حكمه في الكتاب أو السّنة فاعملوا به على وفقه، وحيث وجّه هذا الخطاب إلى المؤمنين فمعنى قوله تعالى: **(إن كنتم مؤمنين)** أي إن صدقتم أنّكم مؤمنون **(بالله واليوم الآخر)** فافعلوا ذلك، فتفيد الآية أنّ من لم يرجع إلى كتاب الله وسنة رسوله من المؤمنين في الأحكام فهو كاذب في إيمانه، وتفيد الآية أيضاً أنّ طاعة ولاة الأمور مشروطة بموافقة أمرهم لشريعة الله تعالى وإلّا فلا. قال الرّسول (ﷺ): (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)[1] **(ذلك)** أي الرّجوع إلى كتاب الله وسنّة رسوله في الحكم والحكم على وفقها **(خير)** بالنّسبة للدّنيا وللآخرة، لأنّ تطبيق شريعة الله توجب السّعادة في الدّارين، قال تعالى: ﴿فمن اتّبع هداي فلا يضلّ ولا يشقى﴾ سورة طه الآية/ ١٢٢، **(و)** إنّ الرّجوع إلى الكتاب والسّنة والعمل بهما **(أحسن تأويلاً)** أي عاقبةً، فالرّجوع إلى حكم الله ورسوله خير للدّنيا وللآخرة، وعلامة على صدق إيمان المؤمن وثمرة إيمانه، وبدون هذا لا عبرة بإيمان من يدعيه وينتسب إليه، وصدق الله العظيم. أللّهم اجعلنا من المؤمنين الصّادقين.

تنبيه: الرّجوع إلى كتاب الله تعالى وسنّة رسوله في الأمور يكون بأنّه إذا عرض لك أمر تُفتّش عنه في كتاب الله تعالى، فإن وجدت حكمه فيه فذاك، وإلّا تفتش عنه في سنّة الرّسول (ﷺ) فإن وجدت حكمه فيها فذاك أيضاً، وإلّا فيحمل على ما ثبت حكمه في أحدهما مما يشبهه في علة الحكم، فتحكم بحكم المشابه عليه، وبذلك يكون الإتّباع والرّجوع إلى الكتاب والسّنة، وهكذا كان يفعل الخلفاء الرّاشدون والصّحابة والتّابعون والأئمة المجتهدون (رضي الله تعالى عنّا وعنهم أجمعين)، وهكذا يجب أن نكون لنكون من المؤمنين الصّادقين.

* * *

هذا ثمّ أراد الله تعالى أن يشدّد النّكير على من يعرض عن شريعة الإسلام ونظامه ومنهجه، ويريد أن يعمل بنظام غير نظام الإسلام ومنهج غير منهجه، فقال جلّ وعلا:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ١٣/ ٦٠ الحديث رقم ١٤٧٩٥. وورد بلفظ آخر فيما ورد عن ابن عمر قال: قال رسول الله: السّمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحبّ وكره ما لم يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع عليه ولا طاعة./ سنن الترمذي ٤/ ٢٠٩ الحديث رقم ١٧٠٧ وقال حديث حسن صحيح.

قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾

(ألم تر) أي ألم تنظر، والإستفهام للتعجب، فالمعنى تتعجّب حينما تنظر **(إلى الّذين يزعمون)** أي يكذبون في **(أنّهم آمنوا بما أنزل إليك)** أيّها النبيّ **(وما أنزل من قبلك)** من الشّرائع والّتي تنصّ كلّها على أنّ الإسلام والّذي أنزل على محمّد هو الحقّ والإنحراف عنه باطل وضلال، وهؤلاء يدعون أنّهم آمنوا بما أنزل إليك وبما أنزل من قبلك، وحالهم مع ذلك أنّهم **(يريدون أن يتحاكموا)** في رفع خصوماتهم وحلّ منازعاتهم **(إلى الطاغوت)** وهو كلّ نظام غير نظام الإسلام ومنهج غير منهجه، وكلّ داع إلى ذلك المنهج وذلك النّظام **(وقد أمروا)** من عند الله تعالى **(أن يكفروا به)** أي بالنّظام المخالف للإسلام ويبتعد عنه ولا يعملوا به، وبإرادتهم التّحاكم إلى خلاف الإسلام يتّبعون الشّيطان **(ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً)** عن الحقّ فيزيّن لهم مناهج وأنظمة غير نظام الإسلام ومنهجه، ليعملوا به وينحرفوا عن الإسلام دين الله الحقّ الخالد والمستقيم. هذا والأمر بالكفر بغير الإسلام والإبتعاد عنه وعدم التّحاكم إليه ورد في آيات كثيرة مثل:

١ - قال تعالى: على وجه الإنكار والنّهي: **(أفغير دين الله)** أي شريعته ومنهجه (يبغون وله أسلم من في السّموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون﴾ سورة آل عمران الآية/ ٨٣ - أي فبعاقبتهم على ذلك .

٢ - ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا﴾ أي شريعةً ونظاماً للعمل به ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي يوم القيامة ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ)﴾ نفس السورة الاية/ ٨٥.

٣- (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ سورة المائدة الآية/ ٤٤.

٤- (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ سورة المائدة الآية/ ٤٥.

٥- (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ سورة المائدة الاية/ ٤٧.

والآيات في الأمر بإتّباع شريعة الإسلام والنّهي عن الإنحراف عنه صراحةً ومفهوماً وكنايةً وتعريضاً كثيرة جدّاً، وفي هذا القدر كفاية. فالتّحاكم إلى غير نظام الإسلام منهي عنه وهو ينقسم إلى أقسام:

الأوّل: أن يكون الإنحراف عن شريعة الإسلام بعقيدة أنّ غيرها أحسن منها أو أعدل أو أصوب، فهذا كفر ولا خلاف في ذلك.

الثّاني: أن يكون الإنحراف لشهوةٍ أو طمعٍ أو غير ذلك من المصالح الدّنيوية مع

الإعتقاد بأنّ ذلك معصية وذنب، فذلك فسق عند أهل السّنة وكفر عند الخوارج.

الثّالث: أن يكون الإنحراف لإكراه من قبل سلطة لا يمكن التّخلص منها فهو لا معصية فيه، فإنّ الرّسول (ﷺ) قال: (رفع عن أمّتي الخطأ والنّسيان وما استكرهوا عليه)[1]. **تنبيه**: إنّ النّهي والتّحريم والتّهديد على الإنحراف والتّحاكم إلى غير منهج الله تعالى لا يتوجّه إلى القضاة فحسب، بل كلّ إنسان قاض وحاكم، فيتوجه إليه هذا التّهديد، فالمرء حاكم على نفسه، فإذا تخلّق بغير أخلاق الإسلام أو عمل عملاً يخالف الإسلام أو تعوّد عادة غير إسلامية، فقد تحاكم إلى الطّاغوت، والمرء حاكم في أهله وأولاده فإذا وجّههم توجيهاً غير إسلامي، أو ربّاهم تربية غير إسلامية، فقد حكم فيهم بغير الإسلام، والتّاجر حاكم في تجارته، فإذا اتّجر على غير أسلوب الإسلام فقد تحاكم إلى الطّاغوت، وهكذا العامل والمحترف والصّانع والمدرّس والقاضي والآمر والمدراء والمسؤولون كلّهم. فكلّكم راع وكلّ راع مسؤول عن رعيّته أن يتعامل معهم ويرعاهم حسب الإسلام، وإلّا فقد تحاكم إلى الطّاغوت وصدق عليه هذه الآيات والإنذارات. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر طبيعة الّذين يتحاكمون إلى غير منهج الإسلام وينحرفون عن تعاليمه، ووصف تعالى هؤلاء بالنّفاق فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾

(و) إنّه من صفة هؤلاء المنحرفين عن شريعة الله أنّه **(إذا قيل لهم)** من قبل ناصح أو واعظ أو مسلم **(تعالوا إلى ما أنزل الله)** تعالى فحكّموه بينكم وطبّقوه **(وإلى**

---

(١) كنز العمال ٤/٩٨ الحديث رقم ١٠٣٠٧ بهذا اللفظ، و سنن الدارقطني ٤/ ١٧٠ الحديث رقم ٣٣، والمعجم الكبير للطبراني ٣/ ٩ الحديث رقم ١١١١٠ بلفظ:(إن الله تجاوز عن أمّتي الخطأ والنّسيان وما استكرهوا عليه).

الرّسول) ومن ينوبه من العلماء ليعلمّوكم ما أنزل الله تعالى من الأحكام **(رأيت)** أي رأيتهم، فالموقع موقع الضّمير إلاّ أنّه قال **(المنافقين)** بدل **(هم)** ليعلم أنّ المتحاكم إلى غير شريعة الله تعالى منافق، ولذلك تراهم **(يصدّون)** يعرضون عنك أيّها القائل والمسلم الدّاعي إلى حكم الله تعالى **(صدوداً)** إعراضاً متأكّداً، فأنذرهم الله تعالى على هذا الصّدود فقال: **(فكيف)** أي فكيف يكون حالهم **(إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت)** أيديهم إيّاه وعملته من الانحراف عن شريعة الله تعالى والتّحاكم إلى غيرها، والإستفهام للتّعجب، فمعناه يكون حالهم مما يتعجّب عنه عند المصيبة، والمصائب كثيرة في الدّنيا تصيب المنحرفين إلاّ أنّهم لا يشعرون لماذا أصابتهم، وفي الآخرة يشعرون حين ذلك إلاّ أنّه لا يفيدهم الشّعور هناك قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ سورة الفجر الآية/ ٢٣. أي لا تفيدهم الذّكرى يومئذ شيئاً، وهذا الكلام الإنذاري وقع معترضاً بين الجمل الّتي تصف حال المنحرفين، ثمّ رجع الكلام إلى ذكر حالهم فقال: **(ثمّ)** أي أنّهم بعدما ينحرفون **(جاؤوك)** أيّها النّبيّ أو أيّها المسلم فيعتذرون من إنحرافهم ويقولون **(يحلفون بالله إن أردنا)** أي ما أردنا بهذا الإنحراف **(إلّا إحساناً وتوفيقاً)** بين النّاس وإصلاحاً لهم، كما يقول بعض مثقّفي هذا العصر، نريد أن نوفّق بين الإسلام والمدنيّة المتطوّرة والدّول المتعاملة معنا، فقل لهم: سبحان الله أيترك الخالق لمراعاة المخلوق إنّ هذا إلاّ ضلال بين، ومع ذلك فقد أخبر الله تعالى عنهم أنّهم يكذبون في معذرتهم هذه فقال: **(أولئك الّذين يعلم الله ما في قلوبهم)** من أنّهم ليسوا مؤمنين بل هم منافقون **(فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم)** متعلق بما بعده وهو **(قولاً بليغاً)** أي قولاً يبلغ عمق أنفسهم فيؤثّر فيها بالتّرغيب والتّرهيب مما يفعلون. ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن أنّه ما هي فائدة الرسالة والرّسل والشّرائع إذا لم يطبّقها النّاس؟ فقال جلّ ذكره وعلا:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾﴾

(وما أرسلنا من رسول إلّا ليطاع) أمره ويطبّق شريعته، وإلّا فما هي حكمة الرّسالة وفائدتها، ويكون إطاعة الرّسول **(بإذن الله)** تعالى أي بأمره، ثمّ بعد هذا التّقريع الشّديد

والتّهديد المهيب فتح الله تعالى باب رحمته لكل منحرف فقال جلّ وعلا: **(ولو أنّهم إذ ظلموا أنفسهم)** بانحرافهم عن الدّين **(جاءوك)** أيّها النّبيّ وأيّها القائم بتنفيذ أحكام الله تعالى والداعي إليه **(فاستغفروا الله)** وتابوا من إنحرافهم **(واستغفر لهم الرّسول لوجدوا الله توّاباً)** قابلاً لتوبتهم **(رحيماً)** بهم فيقبل توبتهم لرحمته هذه لا لحاجته إليهم ولا إلى توبتهم.

سؤال: إنّ قوله تعالى: ثمّ جاؤوك فاستغفروا الله...إلخ، ليفيد بظاهرة وجود واسطة بين الله تعالى وبين العبد في المغفرة، وإنّه يشترط في التّوبة أن يستغفر لك الرّسول أو من ينوب منابه من رجال الدّين، وهذه فكرة مسيحيّة وترجع إلى قاعدة الغفران وإعطاء صك الغفران، وهذا ليس في الإسلام فكيف حقيقة معنى هذه الآية؟.

الجواب: إنّ الذّنوب أنواع: منها ما هو معصية بينك وبين الله تعالى وليس فيه حق من حقوق العباد، فهذا النّوع لا يحتاج العبد في التّوبة عنه إلّا أن يتوب عنه، فيما بينه وبين الله تعالى، وذلك بالإقلاع عنه والنّدامة عليه والعزم على عدم العودة إليه. ومنها ما هو ذنب ومعصية يدخل فيها حقّ النّاس كأن سرقت مالاً أو غصبته أو خنت فيه أو أخذته بالغش أو غير ذلك مما يهضم أو يؤكل به أموال النّاس بالباطل، وهذا النوع لا يصحّ التّوبة عنه إلّا بالرّجوع إلى صاحب المال وترضيته بأداء حقّه إليه أو سماحه لك وعفوه عن ذلك. ومنها ما هو ذنب يتعلق به حقّ الشّرع وذلك كالذنب المبحوث عنه في هذه الآيات، وهي التّحاكم إلى غير شرع الله تعالى والرّسول، فهذا النّوع لا يصح التّوبة عنه إلّا بالرّجوع إلى حامل الشّرع وهو الرّسول أو من ينوب منابه فتتحاكم عنده، وأمّا إستغفار حامل الشّريعة حين الرّجوع إلى حكمه حسب الشّرع فليس فيه أي نصيب للواسطة بين العبد وبين الله تعالى، وإنّما هو مجرد دعاء من حامل الشّرع، وطلب الدّعاء من الصّالحين مشروع في الإسلام فقد طلب الرّسول (ﷺ) من سيّدنا عمر(رضي الله عنه) وهو أنزل درجة منه أن يدعو له حينما ودّعه للعمرة فقال له: يا أخيّ لا تنسانا[1]. نعم إتخذ بعض النّاس هذه الطّريقة ويروّجونها بأنّ من شرط التّوبة أن تذهب إلى شيخ فتتوب على يده وتصير من محسوبيه، ويروّج هذه الطّريقة بعض أهل التّصوف، ولكنّ هذه الطّريقة دخيلة في الإسلام وليس منه في شيء، فالمحسوبية في الإسلام ليس إلّا

(١) عن عمر رضي الله عنه قال: إستأذنت النبي ﷺ في العمرة فأذن لي وقال: لا تنسَنا يا أخي من دعائك./ سنن أبي داود ٢/ ٨٠ الحديث رقم ١٤٩٨.

للشّرع، وإنّما الحاجة إلى الشّيخ بالنسبة للعاصي أن يعلّمه أداب دينه ويبصّره بالإسلام ولا محسوبية في ذلك. لأنّ كلّ عالم يلقاه فهو شيخه ومرشده، ولو تعلّم الشّخص دينه من عالم واحد أو من علماء كثيرين فلا بأس بذلك، وليس هناك تبعية ولا إحتكار وإنّما التّبعيّة للدّين، فخذ الحكمة من أيّ وعاء خرج، وهو نصيحة كلّ المرشدين والعلماء الصّالحين ولم يجبر أحدٌ أحداً عن الإلتزام به[1] فقط أو اتباعه وحده وإنّما أمروا باتّباع الشّرع والحقّ والدّين. ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن أنّ الإسلام ليس هو أن تقول أشهد أن لا إله إلّا الله فقط، بل الإسلام هو الإنقياد لحكم الله تعالى في كلّ الأمور فقال جلّ وعلا:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾

(فلا) أي ليس الأمر كما يزعم النّاس من أنّ الإيمان هو أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر فقط، ولا الإسلام هو أن تشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمداً رسول الله وتقيم الصّلاة وتؤتي الزّكاة وتصوم رمضان وتحجّ البيت إن استطعت إليه سبيلاً فحسب، فليس الإيمان والإسلام ما ذكر فحسب بل **(وربّك)** قسمي **(لا يؤمنون)** إيماناً صحيحاً ومُنجياً، ولا يكونون مسلمين صادقين **(حتّى يحكّموك)** أيّها النبيّ **(في)** كل **(ما شجر)** وقع **(بينهم)** من المخاصمات والمنازعات والمشاكل **(ثمّ لا يجدوا في أنفسهم حرجاً)** ضيقاً واعتراضاً **(مما قضيت ويسلموا)** وينقادوا لحكمك (تسليماً) إنقياداً بالجسم والقلب واللّسان.

تنبيه: قوله (يحكّموك) أي يحكّموا شريعتك، فإنّ التّحكيم للشّريعة لا للأشخاص، وإنّما قال (يحكّموك) خطاباً للرّسول لأنّه هو المبلّغ لحكم الله والمنفّذ له ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ سورة النجم الآية/ ٣-٤.

ففي حياة الرّسول يكون التّحاكم إليه وبعد وفاته يكون التّحاكم إلى حملة شريعته، فإنّه لم يجعل التّحاكم إلى الرّسول (ﷺ) لأنّه محمّد بن عبدالله، أو لأنّه من بني هاشم أو من قريش، بل لأنه حامل لشريعة الله وتمثل فيه حكم الله تعالى، فللرّسول إعتبارات:

---

(١) أي بشخصه.

الأول: أنّه محمّد بن عبدالله ولد من آمنة، وهو من بني هاشم من قريش فهو بهذا الإعتبار توفّي وانتقل من بيننا.

الثّاني: إنّه مبلّغ رسالة الله وحامل شريعته، وتمثّل فيه حكمه، وبهذا الإعتبار هو حي بيننا في شريعته من الكتّاب والسّنة، فتحكيم النّبيّ تحكيم لشرعه، وهو باق إلى يوم القيامة، قال(ﷺ): (تركت فيكم شيئين لن تضّلوا بعدهما كتاب الله وسنتي)[1] فلا يعتبر أحد مؤمناً إيماناً صحيحاً ومنجياً وصادقاً حتّى يحكّم شريعة الله المبلّغ إلينا من قبل الرّسول في جميع نواحي حياته الفردية والإجتماعية والإدارية والإقتصادية وغير ذلك ممّا يعود إلى حياة الفرد والأمّة والمجتمع، وينقاد لذلك الشّرع إنقياداً تاماً ومن كلّ الوجوه.

* * *

تنبيه ثانٍ: إنّ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلى الّذينَ يَزْعُمونَ أَنَهُمْ آمَنوا بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ ..إلخ﴾ وقوله تعالى: ﴿فلا وربّك ..إلخ﴾ نزلت الأولى في منافق وقع بينه وبين يهوديّ نزاع، فطلب اليهوديّ أن يتحاكما إلى الرّسول (ﷺ)، إلّا أنّ المنافق أراد أن يتحاكما إلى كعب بن الأشرف الحبر اليهوديّ. ونزلت الثّانية في صحابيّين وقع بينهما نزاع فتحاكما إلى الرّسول(ﷺ)، فحكم بينهما فلم يرض من حُكم عليه. وقد يقال: فكيف عمّمت المفهوم والمقتضى لكلّ النّاس وإلى يوم القيامة؟ لأنّا نقول:

أوّلاً: إنّه من القاعدة المقرّرة أنّ سبب النّزول لا يخصّص العام، فيبقى العام على عمومه ويعمل به عاماً في جميع الأشخاص والأزمات

ثانياً: إنّ اللّفظ عام والصّيغة عامّة ولا مخصّص هنا، فيعمّ في كلّ من يتحاكم إلى غير شريعة الرّسول وإلى يوم القيامة.

ثالثاً: إنّ الآية الأولى نزلت في حقّ المنافق لأنّه انحرف عن شرع الله تعالى وتحاكم إلى غير ذلك لا لشخصه وذاته واعتبار آخر، والثّانية نزلت في الصّحابي لأنّه لم يرض بحكم الرّسول ، وفي كلّ وقت وزمان يوجد منحرفون عن دين الله تعالى والرّاغبون إلى غير شرعه، والدّاعون إلى أنظمة أخرى، ويوجد من لا يرضى بحكم الله ورسوله، فتعمّم الآيتان إلى كلّ منحرف عن دين الله وداع إلى نظام غير نظام الله

---

(١) المستدرك على الصحيحين ١/ ١٧٢ الحديث رقم ٣١٩.

تعالى، وكلّ من لم يقتنع بحكم الله إلى يوم القيامة، وإلى أن يقضي الله تعالى على الحياة في هذه الدّنيا المملوءة بالمنحرفين، ويدلّ على ما قلنا أنّ الرّسول (ﷺ) قال: (والّذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتّى يكون هواه تابعاً لما جئت به)[١] وصدق رسول الله (ﷺ) وكذب المتعقلون، فلا إيمان صحيحاً ومُنجيا لأحد إلّا اذا كان يرجع صاحبه الى الله تعالى والرّسول في كلّ شؤونه وأمور حياته، ويكون راضيا بذلك الحكم غير معترض ولا كاره له، ولا يحيد عن شريعة الله تعالى شريعة الاسلام إلى شريعة ومنهج آخر مهما كلّفه الأمر، وبذلك يكون المرء مع الأنبياء والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين كما يأتي وعد الله تعالى بذلك هذا.

* * *

ثمّ بعد أن أمر الله تعالى بالتّحاكم إلى شريعة الاسلام الّذي أنزل على الرّسول(ﷺ) وشدّد النّكير على المنحرفين عنها، وجعلهم منافقين، أشار تعالى إلى أنّ هذه الشّريعة والّتي كلّفنا العمل بها والرجوع إليها شريعة سهلة لا صعوبة في تطبيقها، ولم يكلّف الله تعالى فيها ما يشقّ ويصعب على النّاس، فلم لا يطبّقونها ويحيدون عنها، فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّأٓتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾

(ولو أنّا كتبنا عليهم) المعنى: إنّا ما كتبنا عليهم في شريعة الإسلام، ما يشقّ عليهم ويصعب العمل به، بل كلّفناهم بما هو يسر وسهل على كلّ أحد **(ولو أنّا كتبنا عليهم)** ما يشقّ عليهم ويصعب الإتيان به والإمتثال كمثل **(أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا** من **دياركم ما فعلوه)** أي ما فعل ذلك الأمر الشّاق **(إلّا قليل منهم)** كخيرة أصحاب رسول الله(ﷺ) **(ولو أنّهم فعلوا)** نفّذوا **(ما يوعظون به)** من اتّباع الرّسول(ﷺ) والعمل بشريعته **(لكان خيراً لهم)** بالنّسبة للدّنيا والآخرة **(وأشّد تثبيتاً)**

(١) الأربعين النووية ١/ ٥١ الحديث رقم ٩.

وترسيخاً لكيانهم وقوّة مجتمعهم، فإنّ قوام الأمّة باتّباعها لأمر الله، وهلاكها في إنحرافها عن شريعة الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ سورة الاسراء الآية/١٦. أي أهلكناهم هلاكاً فظيعاً **(وإذاً)** أي وإذا اتبعوا رسول الله وحكموا بشريعته **(لآتيناهم من لدنا)** من عندنا **(أجراً)** أي ثواباً **(عظيماً)** جدّاً، وهذا بيان الخيريّة بالنّسبة للآخرة، كما أنّ قوله: وأشدّ تثبيتاً كان بياناً لخيريّته في الدّنيا **(ولهديناهم صراطاً مستقيماً)** في كلّ شؤونهم بالنّسبة للدّنيا والآخرة بحيث لا يضّلون ولا يخسرون. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر منزلة الّذين يتّبعون الرّسول ويحكمون بشريعته؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾

(ومن يطع الله ورسوله) فاتبع الأوامر واجتنب المناهي وطبّق الشّريعة **(فأولئك)** المتّبعون لشريعة الله تعالى يكونون يوم القيامة **(مع الّذين أنعم الله عليهم)** بالتّكريم وحسن المنزلة وذلك **(من النّبيين والشّهداء والصّالحين)** والصّالحون هم أهل الصواب من العقيدة والعمل **(وحسن أولئك رفيقاً)** وجليساً في الجنّة **(ذلك الفضل)** والثّواب والتكريم **(من الله)** أي من عنده **(وكفى)** واكتف **(بالله عليماً)** بأحوال النّاس فينزلهم يوم القيامة حسب أحوالهم وأعمالهم في السّر والعلانية. ثمّ بعد أن أمر الله تعالى المؤمنين بإطاعة الرّسول وتنفيذ أوامره كلّها وحثّهم على ذلك بالوعد والوعيد، أمرهم بإطاعته في الجهاد ضدّ العدوّ الكافر وقتال من يريد القضاء عليهم أو على دينهم فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾

(يا أيّها الّذين آمنوا خذوا حذركم) أي أعدّوا وهيئوا ما تحترزون به من عدوّكم فإنّهم يتربّصون بكم الدّوائر، ويريدون أن يبطشوا بكم ولا تأمنوا مكرهم **(فانفروا)** أي فاخرجوا لقتالهم **(ثبات)** جمع ثُبة وهي الجماعة، أي أخرجوا جماعات وسرايا **(أو انفروا)** أخرجوا **(جميعاً)** أي الجيش كلّه، ثمّ لام تعالى الجماعة المتكاسلة عن القتال فقال جلّ وعلا: **(وإنّ منكم لمن)** لجماعة تتأخّر وتتكاسل عن النّفر إلى القتال فلا يخرج، ثمّ في نهاية المعركة **(فإن أصابتكم مصيبة)** من هزيمة وإستشهاد **(قال قد أنعم الله عليّ اذ لم أكن معهم شهيداً)** حاضراً فيصيبني ما أصابهم، فيرى كلّ النّعمة في سلامة الحياة في الدّنيا ولا يرى ما للشّهداء من النّعمة العظمى في الآخرة، والّتي هي أولى وأحسن من جميع الدّنيا وما فيها **(ولئن أصابكم فضل من الله)** من النّصر والغنيمة **(ليقولن)** ليتمنّينّ حاله كأنّه رجل غريب وبعيد عنكم كلّ البعد **(كأن لم تكن بينكم وبينه مودة)** أية صلة فيقول: **(يا ليتني كنت معهم)** في هذه المعركة **(فأفوز)** بالغنيمة **(فوزاً عظيماً)** جداً، فهذا حال المنافقين والمتكاسلين والجبناء، ليس عندهم قيمة إلّا لمنافع الدّنيا المادية، وأمّا العزّة والشّرف وثواب الآخرة فليس لها في ميزانهم من شيء أبداً. ثمّ أشار الله تعالى إلى أنّه يجب أن لا يؤثر تكاسل المنافقين وتقاعدهم عن الجهاد في عزيمة المؤمنين المصدقين. فإنّ الجهاد ليس من وظيفة من لا يؤمن بالآخرة ولا يضحّون في سبيلها، بل هو من واجب الّذين يؤمنون بها ويشترونها بكل غال ورخيص فقال جلّ وعلا:

﴿۞ فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾

(فليقاتل في سبيل) نصرة دين **(الله)** تعالى ونشره **(الّذين يشرون)** يبيعون **(الحياة الدّنيا)** **(با)** الحياة **(لآخرة)** ثمّ حثّهم على القتال ووعدهم بالأجر والثّواب الّذي لا يدرك كنهه فقال جلّ وعلا: **(ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل)** فيستشهد **(أو يغلب)** على الأعداء **(فسوف نؤتيه)** نعطيه **(أجراً عظيماً)** جداً لا يدرك كنهه لعظمته **(ومالكم)** أي

وأي عذر لكم وكيف (**لا تقاتلون في سبيل الله**) وفي سبيل إنقاذ (**المستضعفين من الرّجال والنّساء والولدان**) من المؤمنين من إضطهاد الكافرين (**الّذين**) يدعون ويتضرّعون إلى الله (**يقولون ربّنا أخرجنا من هذه القرية**) وهي مكة المكرّمة (**الظّالم أهلها**) وهم المشركون الّذين كانوا يضطهدون المؤمنين الباقين هناك ويؤذونهم (**واجعل لنا من لدنك وليّاً**) يتولى أمرنا وينقذنا (**واجعل لنا من لدنك**) من عندك (**نصيراً**) ينصرنا على أعدائنا الكافرين. ثمّ أراد الله تعالى أن يشجّع المؤمنين على القتال بأن وعدهم أن يقويّهم وينصرهم فقال جلّ وعلا:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾

(**والَّذِينَ آمنُوا يُقَاتِلُونَ في سَبِيلِ اللَّهِ**) فالله وليّهم وينصرهم (**والَّذِينَ كفَرُوا يُقَاتِلُون في سَبيلِ الطّاغوت**) الدّعاة إلى الباطل فهم أولياء الشّيطان (**فَقَاتِلُوا أولِيَآءَ الشّيْطَانِ**) أيّها المؤمنون ولا تخافوا حيث (**إنّ كَيْد**) سعي (**الشَّيْطَان**) وجنده (**كَانَ ضَعِيفاً**) مقابل قدرة الله تعالى وسعي المؤمنين حقّاً وصدقاً.

ثمّ إنّ بعض المنافقين في المدينة كانوا يريدون أن يقاتلوا المشركين، فكانوا يحاولون إنشاء القتال، وحيث لم يؤمر الرّسولﷺ بالقتال بعد، بل كان يؤمر بالسّلم والصّبر فكان ﷺ يقول لهؤلاء المتحمّسين للقتال: كفّوا أيديكم عن المشركين حيث لم نؤمر بالقتال، وبعد ما نزل الأمر بالقتال، كره هؤلاء القتال؛ فعاتبهم الله تعالى على ذلك، فقال جلّ وعلا:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾

(ألم تر) أي ألم تنظر **(إلى الّذين)** كانوا متحمّسين للقتال ويحاولون إنشاء القتال مع المشركين، إلّا أنّه **(قيل لهم)** من قبل الرّسول **(كفّوا أيديكم)** عن القتال ولا تنشئوه، حيث لم نؤمر بالقتال إلى الآن، بل إنّما أمرنا بالصّلاة والزّكاة فقط، فامتثلوا ما أمرتم به **(وأقيموا الصّلاة وآتوا الزّكاة فلّما كتب عليهم القتال إذا فريق)** جماعة **(منهم)** يخشون النّاس أي المشركين **(كخشية)** أنفسهم من **(الله أو)** أي بل يخشون من النّاس **(أشدّ خشية)** من الله تعالى **(وقالوا ربّنا لم كَتبت)** لم فرضت **(علينا القتال)** في هذه الأيام **(لولّا أخّرتنا)** في أيجاب القتال **(إلى أجل)** وقت آخر **(قريب قل)** أيّها النّبيّ لهم **(متاع الدّنيا)** الّذي تخافون فواته بسبب القتال **(قليل)** جداً بالنّسبة لحياة الآخرة الّتي تحصلونها من ثواب القتال **(و)** الحياة **(الآخرة خير)** من الحياة الدّنيا، كما أنها أكثر منها، وإنما تحصل الحياة الآخرة **(لمن اتّقى)** اجتنب مخالفة الأمر وأطاع في أداء الواجب من القتال وغيره **(ولا تظلمون)** في الآخرة **(فتيلاً)** بقدر فتيل من حسناتكم، بل تثابون على كلّ الأعمال كبيرها وصغيرها، ولو كان بقدر الفتيل. ثمّ حيث إنّ كراهة النّاس للقتال كان خوفاً من الموت في القتال، أشار الله تعالى إلى أنّ الموت ليس بالقتال بل إنّه لا يأتي إلّا بالأجل الّذي حدّده الله تعالى لكلّ حيّ، فإن لم يأت ذلك الأجل فلا تموتون ولو دخلتم في ألف معركة وألف قتال، وإذا جاء الأجل فإنّكم تموتون، سواء كنتم في القتال أو لا، فقال جلّ وعلا: **(أين ما تكونوا يدرككم الموت)** إذا جاء أجلكم ولو كنتم في **(بروج)** أي في قصور **(مشيّدة)** محكمة، وإذا لم يأت الأجل فلا يدرككم الموت ولو كنتم في القتال، فإذن لم تخافون القتال؟ فلا تخافوه فإنّ الموت ليس بالقتال **(وإن تصبهم)** أي وإن تصب هؤلاء المنافقين **(حسنة)** خير في الدّنيا **(يقولون هذه من عند الله)** أكرمنا بها إذ نحن أهلها **(وإن تصبهم سيّئة)** ضرر في الدّنيا **(يقولون)** لك أيّها النّبيّ **(هذه)** المصيبة **(من عندك)** أي من شآمة أتتنا من عندك **(قل كّلّ)** من الخير والشّر والنّفع والضّرر **(من عند الله)** تعالى خلقاً وإيجاداً **وتكويناً**، فإنّ الشّؤم لا يوجد شيئاً **(فما)** أي فأي سبب **(لهؤلاء القوم)** في أنّهم **(لا يكادون)** لا يحاولون **(يفقهون حديثاً)** من أحاديث الإعتقاد، فيعتقدون في غير الله تعالى الإيجاد والخلق لا الشّؤم والطّيرة والنّجوم والسّحر والجنّ وغير ذلك مما كانوا يرون الأمور منها حدوثاً وإيجاداً دون الله تعالى. ثمّ أراد تعالى أن يعلّمهم العقيدة الصّحيحة في حدوث الحسنات والسّيئات للنّاس فقال جلّ وعلا:

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾

ظاهر هذه الآية تناقض ما قبلها فإنّه قيل هناك **(قل كلّ من عند الله)** وهنا قال: **(وما أصابك من سيّئة فمن نفسك)** ولكن لا تناقض في الحقيقة، فإنّ الآية الأولى كانت رداً على عقيدة هؤلاء المنافقين، فإنّهم كانوا شؤومين، أي يعتقدون أنّ خالق الخير هو الله تعالى وخالق الشّر هو غير الله تعالى من الشآمة أو الطّيرة أو النّجم أو السّحر أو غير ذلك، ممّا كانوا يعتقدون فيها أنّها مؤثّرة بالذّات؛ ولذا قال الرّسولﷺ: (لا طيرة ولا هامة ولا عدوى في الإسلام)[1] فردّ الله تعالى عليهم هناك بأنّ الحسنة والسّيئة كلّها من خلق الله تعالى ولا خالق لشيء سواه. وهنا الآية بيان للعقيدة الإسلامية، وهي أنّ **(ما أصابك من حسنة)** أي نعمة كالصّحة والرّخاء وغير ذلك فمن الله تعالى خلقاً وتسبّباً **(وما أصابك من سيّئة)** كالمرض والجوع مثلاً هو من الله تعالى أيضا خلقاً، ولكن هي من نفسك تسبباً بمعنى: أنّ كلّ ضرر يصيب الإنسان فبسبب عمل شيء فعله يصيبه كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير﴾ سورة الشورى الآية/ ٣٠.

(وأرسلناك للنّاس) يا أيّها النّبيّ **(رسولاً)** والرّسول لا يكون شؤماً بل هو سبب خير ونعمة فكيف يتشاءمون منك **(وكفى)** أي واكتف **(بالله شهيدا)** على رسالتك وفتح أبواب الخير برسالتك للنّاس. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى صفات المنافقين، هاج قلب الرّسول والمؤمنين ضدّ المنافقين، وكاد أن يقاتلوهم فيبيدوهم، فهدّأ الله تعالى من أعصابهم فقال جلّ وعلا:

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾

(من يطع الرّسول فقد أطاع الله) تعالى وإنّ الله تعالى يثيبه **(ومن تولّى)** وأعرض عن الإطاعة **(فما أرسلناك عليهم حفيظاً)** متسلّطاً لتنتقم منهم، فظهر أنّ الرّسول كما كان ممنوعاً في قتل المشركين في مكّة ومأموراً بالصّبر والموادعة كان مأموراً أيضاً بالصّبر

---

(١) في البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي:لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر. / صحيح البخاري ٥/ ٢١٧١ الحديث رقم ٥٤٢٥.

عن المنافقين في المدينة ولم يسمح له بقتلهم، فالآية محكمة خلاف ما يقول بعض المفسّرين من أنّها منسوخة بآية القتال، لأنّ هذه الآية وردت في حق المنافقين لا الكافرين عامّة لتكون منسوخة، ولم يسمع أحد من أحد أنّ الرّسول قتل منافقاً واحداً في المدينة والله تعالى أعلم. ويدلّ على أنّ الرّسول ممنوع من قتل المنافقين كما قلنا، بدليل ما قاله جلّ وعلا:

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾

(ويقولون) لك أيّها النّبيّ حينما حضروا عندك يقولون: **(طاعة)** أي أمرنا طاعة لك فنطيعك في كلّ أمر **(فإذا برزوا)** أي خرجوا **(من عندك بيّت)** أي دبرّ وعمل **(طائفة منهم غير الّذي تقول)** تلك الطّائفة عندك، وهو المخالفة والعصيان لأمرك وتنظيم الدسّائس ضدّك **(والله يكتب)** كلّ **(ما يبيّتون)** للإنتقام منهم حسب ما كتب **(فأعرض)** أنت عنهم ولا تحاول البطش بهم أو الإنتقام منهم، فهذا صريح في أنّ الرّسول (ﷺ) كان لم يؤذن له في قتال المنافقين **(وتوكّل على الله)** في المعونة والنّصر على الأعداء **(وكفى)** واكتف **(بالله وكيلاً)** ولا تهتمّ بعدم مطاوعة المنافقين لك وعدم إشتراكهم في القتال ضدّ أعدائك.

تنبيه: في هذه الآيات الّتي تتعلق بالمنافقين معجزات لأنّ كلّها إخبار عما في قلوبهم ونيّاتهم، وما يقولونه ويفعلونه سرّاً، وهذا إخبار بالغيب[1] فهو معجزة.

* * *

ثمّ إنّ بعض المنافقين وغيرهم كانوا لم يقتنعوا قلباً بأنّ الرّسول حقّ وأنّه أرسل من الله تعالى؛ ولذلك كان المنافق ينافق والكافر يظهر كفره؛ فأراد تعالى أن يستدّل على أنّ القرآن من الله تعالى نزل على الرّسول (ﷺ) ومن نزل عليه الوحي فهو رسول؛ فقال جلّ وعلا:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾

---

(١) لا يعلمها إلا الله فلما أخبر بذلك عن طريق القرآن الموحى به إلى محمد ﷺ دل على أن محمدا ﷺ نبي وأن القرآن من عند الله تعالى ومن ثم فإن الإسلام حق يجب التدين والعمل به.

(أفلا يتدبّرون) يتأمّلون ويقرأون **(القرآن)** بتفكّر ونظر دقيق ليعلموا أنّه من الله تعالى **(و)** يعلموا بأنّه **(لو كان)** القرآن **(من عند غير الله)** كمحمّد نفسه أو أحد غيره **(لوجدوا فيه إختلافاً كثيراً)** فيكون بعض آياته مخالفاً للبعض في المعنى والمدلول والحكم، وهذا يدلّ على أنّه لا نسخ في القرآن أو في الإخبار عن المغيبات، فكلّ ما أخبر به قد تحقّق، أو في البلاغة فكل آياته بليغة بلاغة إلي حدّ الإعجاز، قال النّسفي (رحمه الله): وفي هذه الآية ردّ على من يقول: إنّ معاني القرآن لا يفهمها إلّا الرّسول أو الإمام المعصوم، لأنّ الآية تأمر كلّ النّاس بالتأمّل في معاني القرآن ليفهموها ويؤمنوا بها، وإذا لم يفهم كيف يؤمر النّاس بتدبّره، وهذه الآية سارية المفعول إلى يوم القيامة، فعلى كلّ جيل يجب أن يتفكر في القرآن ليفهم معانيه ويصل إلى العقيدة الحقّة بنفسه دون تقليد وتبعية، وكم من مستشرق وفيلسوف وعالم من الأجانب إهتدوا وأسلموا حينما اطلعوا على القرآن وأدركوا حقيقته، فالقرآن هو الهداية وبه الإهتداء فهو الحقّ بأن يتّبع في كل أمر.

ثم أراد الله تعالى أن ينبه المسلمين على خطة عسكرية مهمة جداً وهي كتمان السر في الأمور الحربية والقتال ونتائجه ويقال دائماً: (أيها العسكري بكتمان السر تنال الظفر) وقد اتخذ الناس هذه الخطة من القرآن، فما أعظم هذا القرآن، فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٣﴾﴾

(و) لأنّ بعض المسلمين أو المنافقين **(إذا جاءهم)** وصلهم **(أمر)** خبر **(من الأمن)** من نصرة وغلبة سراياهم أو عدم تحرّك العدوّ إلى جهة ما **(أو الخوف)** كهزيمة السّرايا أو تحرك العدوّ وتحرشّاته في مكان ما أو إلى جهة ما **(أذاعوا به)** أي أفشوا ذلك الخبر بين النّاس، فكان يؤثّر ذلك في قلوب المسلمين وخاصّة في صفوف الجيش فنهوا عن ذلك، وأمروا بما يخبروا بذلك الرّسول أو أمراء الجيش فقط، ليتّخذوا التّدابير اللّازمة للموقف الّذي سمعوا به فقال: **(ولو ردّوه إلى الرّسول)** وأخبروه فقط أو ردّوه **(إلى أولي الأمر منهم)** من المسلمين وهم قوّاد الجيش **(لعلمه)** أي لعلم تدابير نتيجة ذلك الخبر **(الّذي يستنبطونه)** أي يستخرجون التّدابير من الحوادث **(منهم)** أي من قادة المسلمين، فهم الّذين يستخرجون التّدابير بذكائهم ومعرفتهم بأسلوب القتال وكيفية ونتائج الأمن والخوف **(ولولا**

فضل الله عليكم) بتنبيهكم على هذا الخطأ وهو إفشاء الأمور **(لأتبعتم الشّيطان)** بأحداث البلبلة بين المسلمين بإفشاء الأخبار **(إلّا قليلاً)** منكم، وهم الّذين كانوا يكتمون الأخبار ولا يفشون الأسرار العسكريّة والحربيّة بين النّاس والله تعالى أعلم.

ثمّ أراد الله تعالى أن ينبّه على خطّة حربيّة أخرى، وهي أنّ القائد لا يأخذ أحداً إلى القتال جبراً، بل إنّما يأخذ معه من يريد القتال عن إيمان وعقيدة وطواعيّة نفسه، فإنّ هذا المقاتل هو الّذي ينفع ويقاتلّ، وأمّا من أخذ إلى القتال كرهاً فضرره على الجيش يكون أكثر من النّفع فقال جلّ وعلا:

﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴿٨٤﴾﴾

(فقاتل) أيّها النّبي بنفسك **(في سبيل الله)** ولا تجبر أحداً على القتال حيث **(لا تكلّف إلّا نفسك)** للقتال ولا تكليف أن تجبر أحداً، فليس في الإسلام تجنيد إجباريّ، بل تطوّع وإيمان وعقيدة وفريضة يعصي تاركها، فعليك أن تدعوهم فادع **(وحرّض المؤمنين)** على القتال بالوعظ والترغيب والموعظة الحسنة، فمن قاتل فمرحباً به ومن لا فلا جبر **(عسى الله أن يكفّ)** أي يمنع ويقطع بأس شدّة وقوّة الّذين **(كفروا)** ولو كان جيشك قليلاً وذلك بإدخال الرّعب في قلوبهم **(والله أشدّ بأساً)** قوّة من كلّ النّاس **(وأشد تنكيلاً)** تعذيباً للكافرين. فقال الرّسول (ﷺ): والّذي نفسي بيده لأخرجنّ ولو وحدي[1]، فخرج بسبعين راكباً إلى بدر الصغرى، فكفّ الله بأس الكفّار وألقى في قلوبهم الرّعب ومنع أبو سفيان من الخروج. ثمّ بعد أن حرّض الرّسول (ﷺ) المؤمنين على القتال أصبح المؤمنون يحرّض بعضهم بعضاً، وفي جانب آخر كان المنافقون يبطّئون النّاس ويمنعونهم ويحرّضونهم على عدم الإشراك في القتال فقال جلّ وعلا:

﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا ﴿٨٥﴾﴾

(من يشفع شفاعةً حسنةً) وهم الّذين كانوا يدعون النّاس ويرغّبونهم في القتال

---

(١) تفسير البغوي ١/ ٣٧٤.

(يكن له نصيب من) ثواب **(ها)** أي ثواب الشّفاعة **(ومن يشفع شفاعةً سيّئةً)** وهم الّذين يحرضّون النّاس على عدم الإشتراك في القتال **(يكن له كفل)** نصيب **(من)** عذاب **(ها)** أي عذاب تلك الشّفاعة السّيئة **(وكان الله على كل شيء)** من الشّفاعة الحسنة والسّيئة **(مقيتاً)** مطلقاً عالما به ومقتدراً على ما يستحق صاحبها من الثّواب أو العقاب، فالآية وردت لهذا الموضوع، فعمّت في كلّ شفاعة ودعوة إلى العمل الحسن، لعموم اللّفظ ولأنّ سبب الورود لا يخصّص الوارد بما ورد فيه. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى القتال مع الكافرين وأسبابه ذكر السّلم وما يدعو إليه ويفشوه فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾

(وإذا حيّيتم) من قبل أي واحد من المقاتلين معكم وغيرهم **(بتحيةٍ فحيّوا)** الّذين يحيّونكم **(بـ)** تحيّة هي **(أحسن منها)** من تحيّتهم لكم **(أو ردوا)** مثل **(ها)** أي مثل تحيّتهم بدون نقص، والتحيّة أصلها تحيِيه بياءين على وزن تفعلة، أدغم ياء في الأخرى فصارت حيّ، أصله حيِيي بثلاث ياءات، حذفت واحدة ثمّ أدغم ياء في الأخرى فصار حيّ، والتحيّة مأخوذة من قول العرب: حيّاك الله، أي جعلك الله حيّاً، وكانت هذه كلمة التّحابب والتّعارف، فلمّا جاء الإسلام وضع موضعها السّلام وهو: السّلام عليكم، وهذه أحسن من الأولى، لأنّ معنى السّلام عليكم جعلكم الله تعالى سالمين من الآفات والبلايا جميعها، فيدخل فيها الدّعاء بالحياة أيضاً، ولكنّ الأولى دعاء بالحياة فقط، وإن كانت ملتبسة بالآلام والأمراض، ولا خير في حياة تكدّرها الآلام والأمراض، فالتحيّة والسّلام كلمة تشير إلى نزع العداء والقتال وإنشاء التّحابب والتّعارف فالمعنى: **(وإذا حيّيتم)** من قبل المقاتلين وأرادوا نزع القتال وإنشاء السّلم والتّحابب فاقبلوا، وحاببوهم بأحسن مما يتحاببون به **(أو ردّوها)** أو فتحاببوا معهم بقدر ما يتحاببون، وهذا واجب والأوّل أفضل **(إنّ الله كان على كلّ شيء)** من التّحابب بالمثل أو بأحسن منه **(حسيباً)** عالما؛ فيجزي صاحبه بما يستحقّه. فالآية واردة في سلام المقاتلين وتحيّتهم وإرادتهم رفع العداء والقتال. ثمّ عمّم الأمر في تحيّة المعادي والصّديق وغيرها، لأنّ اللّفظ عامّ، والمورد لا يخصص، ويتعلّق بالسّلام، وجوابه مسائل نذكرها إن شاء الله تعالى.

المسألة الأولى: المشهور أنّ السّلام سنّة، وهو فرض كفاية، بمعنى أنّه لو قدِم جماعة فسّلم واحد منهم يكفي عن الآخرين، ولو سّلم كلّهم كان أفضل، وقال البعض

أنّ السّلام واجب لقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ سورة النورالآية/ ٢٧. وأمّا جواب السّلام فواجب بالإجماع، وهو على الكفاية أيضاً.

المسألة الثّانية: صيغة السّلام هي: سلام عليكم، أو السّلام عليكم، وجوابه: وعليكم السّلام، والجمع إذا كان على واحد لأنّه سلام عليه وعلى من معه من الملائكة، وكذا في الرّد.

المسألة الثّالثة: إذا قال: السّلام عليكم، فالردّ بمثلها أن تقول: وعليكم السّلام، والردّ بأحسن منها أن تقول: وعليكم السّلام ورحمة الله، وإذا هو قال: السّلام عليكم ورحمة الله، تقول: وعليكم السّلام ورحمة الله وبركاته، وإذا قال: السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فتحيّيه بمثل ما قال لأنّ ذلك نهاية السّلام.

المسألة الرّابعة: يشترط في السّلام وردّه الجهرية، ليسمع المسلّم عليه ولا تكفى الإشارة بالإصبع عند الشّافعي، وعند مالكﷺ: تكفي إذا كان بعيداً، وأمّا الإشارة بالإصبع فقط بدون السّلام فمكروه. **المسألة الخامسة:** السّلام على النّساء الشّابات غير جائز لخوف الفتنة، وعلى العجائز جائز وحسن، وعند بعض يمنع السّلام عليهنّ مطلقاً، **وأقول:** المدار هو خوف الفتنة فإذا خيف الفتنة حرم مطلقاً، وإذا لم يخف الفتنة جاز مطلقاً.

المسألة السّادسة: قال القرطبي يجوز السّلام علي الكافر، قيل لإبن عيينة ﷺ: هل يجوز السّلام على الكافر؟ قال: نعم، قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ سورة الممتحنة الآية/ ٨ ـ.

ثمّ ذكر القرطبيّ حديثين: في أحدهما المنع وفي الآخر الجواز، ووفّق بينهما بأنّ المنع هو ما إذا كان لغير سبب أو حاجة، والجواز إذا كان لحاجة كمعاملة أو صحبة أو جوار، وسئل الأوزاعي عن مسلم مر بكافر فسلّم عليه؟ فقال: إن سلّمت فقد سلّم الصّالحون قبلك، وإن تركت فقد ترك الصّالحون قبلك. فعلم أنّ كلا الأمرين جائز، والأولى هو التّسليم لإظهار سماحة الإسلام وتكريمه لليسر والله تعالى أعلم.

المسألة السّابعة: في الخازن عن البخاري ومسلم عن أبي هريرة أنّ رسولﷺ قال: (يسلّم الرّاكب على الماشي والماشي على القاعد والقليل على الكثير)[١]. وفي رواية

(١) صحيح البخاري ٥/ ٢٣٠١ الحديث رقم ٥٨٧٨. صحيح مسلم٤/ ١٧٠٣ الحديث رقم ٢١٦٠.

للبخاري عن أبي هريرة عن النبيّ قال (ﷺ): (يسلّم الصّغير على الكبير والمار على القاعد والقليل على الكثير، وإذا تلاقى رجلان فالمبتدئ بالسّلام هو الأفضل)[١].

المسألة الثّامنة: يكره السّلام على من هو على البول أو الغائط أو الأكل، فلو سلّم عليه لا يجب عليه الرّد، وكذلك يكره على النّائم والنّاعس والمصلّي والمؤذّن والتّالى للقرآن، وفي حالة الخطبة وكلّ من هو مشتغل بما هو عبادة، ويكره أيضاً السّلام على المبتدع والفاسق المعلن والظّلمة.

خاتمة: في بيان فضيلة ا لسلام: في الخازن عن البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمر وبن عامر(ﷺ) : أنّ رجلا سأل رسول الله (ﷺ): (أيّ الاسلام خير؟ قال (ﷺ): تطعم الطّعام وتقرأ السّلام على من عرفت ومن لم تعرف)[٢].

ذكر الخازن عن مسلم عن أبي هريرة (ﷺ) قال: قال رسول الله (ﷺ): (لا تدخلون الجنّة حتّى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتّى تحابّوا، أو لا أدّلكم على شيء إذا فعلتموه تحابيتم: أفشوا السّلام بينكم)[٣].

٣ ـ عن عبدالله بن سلام (ﷺ) قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: (أيّها النّاس أفشوا السّلام، وأطعموا الطّعام، وصلوا الأرحام، وصلّوا والنّاس نيام، تدخلوا الجنّة بسلام)، قال الخازن: أخرجه الترمذي وقال حديث صحيح[٤].

هذا، وبعد أن أنذر الله تعالى المنافقين وغيرهم، وزعم البعض منهم أنّ لهم آلهة تشفع لهم، وتنفعهم أو تنصرهم وتنقذهم من عذاب الله تعالى، فقال جلّ وعلا:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾﴾

(الله) مبتدأ خبره **(لا إله إلا هو)** أي لا إله ينقذكم من عذابه إلّا هو، وأنّه والله **(ليجمعنّكم إلى)** بمعنى في **(يوم القيامة لا ريب فيه)** أي لا شكّ في مجيئه، والقيامة مصدر قام أضيف إليه: يوم، لأنّ في ذلك اليوم يقوم النّاس من قبورهم ويساقون إلى

---

(١) صحيح البخاري ٥/ ٢٣٠٢ الحديث رقم ٥٨٨٠.

(٢) صحيح البخاري ١/ ١٣ الحديث رقم ١٢، صحيح مسلم ١/ ٦٥ الحديث رقم ٣٩.

(٣) صحيح مسلم ١/ ٧٤ الحديث رقم ٥٤.

(٤) سنن الترمذي ٤/ ٢٨٧ الحديث رقم ١٨٥٥.

عرصة الحشر والحساب، قال تعالى: ﴿يوم يقوم النّاس لربّ العالمين﴾ سورة المطففين الآية/٦. **(ومن أصدق من الله حديثاً)** الإستفهام للإنكار أي لا أصدق منه كلاماً، وقد قال: يجمعهم ويحاسبهم فهو حقّ لا ريب فيه. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حكم المنافقين الّذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر بأنّهم يتركون ولا يقتلون، أراد أن يبيّن حكم المنافقين الّذين أظهروا الكفر ورجعوا عن الإيمان الظّاهري علناً، والتحقوا بالكافرين من مشركي مكّة أو غيرهم، فقال جلّ وعلا:

﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾

(فما لكم) فأيّ سبب لكم **(في المنافقين)** الّذين أظهروا الكفر أصبحتم **(فئتين)** فئة تقول: نقتلهم، وفئة تقول: لا يقتلون **(و)** الحال أنّ **(الله أركسهم)** أي حكم بكفرهم وردّهم إلى الكفر **(بما كسبوا)** من رجوعهم إلى الكّفار وإعلانهم الكفر **(أتريدون)** أيّها الّذين يقولون بعدم قتلهم محتجّين بأنّهم آمنوا **(أن تهدوا)** أن تحكموا بهداية **(من أضلّ الله)** إيّاه وحكم بضلاله **(ومن يضلل الله)** أي حكم بضلال **(فلن تجد له سبيلاً)** لإلحاقه بالمسلمين والحكم عليه بالإسلام **(ودّوا)** أي أحبّ هؤلاء المنافقون **(لو تكفرون)** كلّكم **(كما كفروا)** وارتّدوا **(فتكونون)** فتصبحون **(سواء)** مستوين في الكفر معهم **(فلا تتّخذوا منهم أولياء)** أصدقاء ولا تصادقوهم **(حتّى يهاجروا)** من دار الكفر **(في سبيل)** اتّباع دين **(الله)** تعالى ويرجعوا إلى الإيمان **(فإن تولّوا)** ولم يرجعوا **(فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتّخذوا منهم وليّاً)** صديقاً **(ولا نصيراً)** معاوناً لكم يعاونكم في أيّ عمل كان، ثمّ استثنى الله تعالى بعضاً من هؤلاء فقال: **(الا الّذين)** إلّا المنافقين الّذين ارتدّوا

وهم **(يصلون)** يلتحقون **(بقوم بينكم وبينهم ميثاق)** معاهدة على السّلم وعدم القتال فهؤلاء لا يتعرض لهم **(أو)** أي أو إلتحقوا بقوم **(جاؤوكم)** وحالهم أنّه **(حصرت صدورهم)** أي ضاقت صدورهم عن **(أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم)** لنصرتكم؛ فامتنعوا عن أن يكونوا عليكم أو لكم، فاذا إلتحق المنافقون بهولاء لا يتعرض لهم أيضاً، ولكن لا يغترّ المؤمنون قال تعالى: **(ولو شاء الله لسلّطهم)** أي سلّط هذا القوم **(عليكم فلقاتلوكم)** إلّا أنّ الله لم يرد ذلك فامتنعوا عن قتالكم **(فإن إعتزلوكم)** ولم يحاربكم هذا القوم **(فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السّلم)** العهد بالسّلام وعدم القتال **(فما جعل)** أي فما أجاز **(الله)** تعالى **(لكم عليهم)** أي على المنافقين الملتحقين بهم **(سبيلاً)** أي طريقاً لقتلهم، بل اتركوهم ولا تتعرّضوا لهم، وإلى هذا الحدّ يدعو الإسلام إلى السّلم، فالإسلام دين السّلم إلّا أن يضطرّ إلى الحرب والقتال؛ فحينئذٍ لا يقبل الجبن والخذلان، ولا يقبل الضّيم والعدوان، فإنّه أيضاً دين العزّة والشّرف والإباء.

ثمّ إنّ أناساً كانوا لا ثبات لهم على حال، فيؤمنون ويرتدّون ثمّ يؤمنون ويرتدّون وهكذا فذكر تعالى حكمهم فقال جلّ وعلا:

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾

(ستجدون) أناساً **(آخرين يريدون أن يأمنوكم)** بالإيمان الكاذب **(ويأمنوا قومهم)** بالكفر الصّادق، وهؤلاء قوم كانوا من غطفان أو من مكّة، إذا أتوا إلى المدينة أسلموا وإذا رجعوا إلى قومهم رجعوا إلى الكفر، كما قال تعالى فيهم: **(كلّما ردّوا)** أي دعاهم قومهم **(إلى الفتنة)** وهي الكفر وقتال المسلمين **(أركسوا)** أوقعوا فيها بشدّة **(فـ)** هؤلاء **(إن لم يعتزلوكم)** بقتال **(ويلقوا إليكم السّلم)** بصلح صادق ومعاهدة وثيقة **(ويكفّوا أيديهم)** عنكم بعد ذلك السّلم **(فخذوهم)** بالأمر **(واقتلوهم حيث ثقفتموهم)** وجدتموهم في الحرب أو في الأسفار أو في أي مكان كان **(وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً)** حجةً لقتلهم وبرهاناً **(مبيناً)** واضحاً يعترف به كلّ أحد.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى قتل الكافرين والمنافقين أراد أن يذكر قتل المؤمن للمؤمن فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾

(وما كان) أي وما يليق وما ينبغي **(لمؤمن)** ولا مؤمنة **(أن يقتل مؤمناً)** ولا مؤمنة فإنّ ذلك معصيّة كبيرة **(إلّا)** إذا وقع القتل **(خطأ)** من القاتل **(فـ)** عند القتل الخطأ يجب عليه أمران:

الأوّل: **(تحرير رقبة)** تحرير رقيق أي عبد **(مؤمنة)** أي رقبة مؤمنة لا كافرة **(و)** الأمر الثّاني: **(ديّة مسلّمة إلى أهله)** يقسّمونها بينهم كالتّركة، فحكمها حكم التّركة في كلّ شيء **(إلّا أن يصّدّقوا)** أي إلّا أن يعفو أهل القتيل عن الديّة فتسقط الديّة بالعفو **(فإن كان)** المقتول **(من قوم عدو لكم)** فلم تستطيعوا تسليم الديّة إليهم **(وهو)** أي المقتول **(مؤمن)** فلا دية على القاتل بل **(فتحرير رقبة مؤمنة)** عليه فقط **(وإن كان من قوم)** كفار **(بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلي أهله وتحرير رقبة مؤمنة)** أيضاً **(فمن لم يجد)** الرّقيق ليعتقه لعدم وجود الأرقّاء كزماننا هذا أو لفقره **(فـ)** يجب على القاتل **(صيام شهرين)** كاملين من الأشهر القمرية **(متتابعين)** بدون فطر في أي يوم من أيام الشّهرين، فإن أفطر بلا عذر إستأنف وبطل ما قبله، وكلّ ذلك يفعله القاتل **(توبة)** لأجل توبة مقبولة (من **الله وكان الله عليماً حكيماً)** ووفق علمه وحكمته فرض هذه الأمور.

وهنا مسـائل:

المسألة الأولى: القتل ثلاثة أقسام: العمد وشبه العمد والخطأ، والخطأ قسمان:

الأوّل: أن يرمي إلى طير أو مشرك فيصيب مؤمناً.

الثّاني: أن يرمي إلى مشرك ظناً[1] ثمّ تبيّن أنّه مؤمن.

---

(١) أي إلى مؤمن ظنا منه أنه مشرك.

المسألة الثّانية: القتل العمد المحض: هو أن يقصد القتل بما يقتل به غالباً سواء كان محدداً يمزّق الجسم أو مثقلاً لا يمزق بل يرضّه أو يكسره، أو أن يلقه في النّار فيحترق أو في الماء فيغرق، فجزاء هذا النّوع القصاص عند وجود التكافؤ[1]، أو ديّة ماليّة مغلّظة في مال القاتل. وهذا ما ذهب إليه الشّافعي والحنبليّة والمالكيّة والإماميّة والظّاهرية وصاحبا أبي حنيفة (ﷺ)، وأمّا أبو حنيفة فلم يجعل العمد[2] إلّا قتلاً بمحدّد يمزّق الجسم، كالآلات الّتي حدّدت للقتال أو غيرها من كلّ محدّد يمزّق، وإن كان حجراً حدّد أو خشبا محدّداً. وأمّا شبه العمد فهو عند أبي حنيفة (ﷺ) ما لم يكن بمحدّد، وعند غيره من المذكورين فهو: أن يقصد ضرب إنسان بما لا يقتل بمثله، كعصا خفيفة أو حجر صغير أو لطمة فمات المضروب، ولا يجب في هذا النّوع القصاص بل تجب دية مغلظة على العاقلة، أي على أقارب القاتل أي عصباته، ومؤجّلة إلى ثلاث سنين، كلّ سنة يعطي الثّلث، وأمّا الخطأ بقسميه ففيه ديّة مخففة على العاقلة، ومؤجّلة إلى ثلاث سنين كلّ سّنة يعطي ثلثها.

المسألة الثّالثة: ذهب أكثر الفقهاء إلى أنّ ديّة المرأة نصف دية الرّجل قياساً على ميراثها وشهادتها، ولقضاء عليّ وعمر وأبي مسعود(ﷺ) بذلك، وقال الأصمّ وإبن عطيّة أنّ ديّتها مثل ديّة الرّجل لقوله تعالى: (ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة وديّة مسلّمة إلى أهله) والإجماع منعقد على أنّ المراد بقوله: مؤمناً، الرّجل والمرأة أي الذّكر والأنثى.

وأقول: ويؤيّد هذا القول المساواة في القصاص وفي صوم الكّفارة وفي تحرير الرّقبة.

المسألة الرّابعة: ديّة أهل الذّمة والمعاهد ثلث دية المسلم إن كان كتابيّاً، وإن كان مجوسيّاً فخمس الثّلث، وهذا مذهب الشّافعي، وهو قول سعيد بن المسّيب، وعند الحنفيّة : ديّة الذّميّ والمعاهد مطلقاً مثل ديّة المسلم، وروى ذلك عن إبن مسعود وسفيان الثّوري (ﷺ) وعند مالك وأحمد: ديّته مطلقاً نصف ديّة المسلم، وهو قول عمر ابن العزيز.

المسألة الخامسة: الديّة المغلّظة مئة إبل أو ألف دينار إو أثناعشر ألف درهم[3]،

---

(١) أي بين القاتل والمقتول.

(٢) أي موجبا للقصاص.

وهذا عند مالك والشّافعي وأحمد، وعند الحنفيّة: مئة إبل أو ألف دينار أو عشرة آلاف درهم.

المسألة السّادسة: الديّة المخففة عند مالك والشّافعي: عشرون بنت مخاض وعشرون بنت لبون وعشرون إبن لبون وعشرون حقّة وعشرون جذعة، وهذا قول عمر بن عبدالعزيز وسليمان بن يسار والزّهري وربيعة (ﷺ) وعند أحمد والأحناف يبدلّون أبناء اللّبون ببنات المخاض، فتصير أربعين بنت مخاض، وأما التّقسيم في الإبل المغلّظة فعند الشّافعي: ثلاثون حقّة وثلاثون جذعة وأربعون خلفة، وعند الأحناف ومالك وأحمد (ﷺ): خمس وعشرون بنت مخاض. وخمس وعشرون بنت لبون، وخمس وعشرون حقّة، وخمس وعشرون جذعة، وسبب الإختلاف أعمال الصّحابة وإختلاف الرّوايات.

المسألة السّابعة: الكفّارة هي عتق رقبة فإن لم يجد، كما في زماننا، فصيام شهرين متتابعين، فإن أفطر يوماً بدون عذر بطل ما صام ويجب عليه أن يستأنف، ولكن هل تجب الكفّارة في العمد كما في الخطأ؟ فعند مالك والأحناف والحنابلة لا تجب، وعند الشّافعي ورواية عند أحمد تجب، وأمّا شبه العمد فيجب فيه الكفارة عند الحنفيّة والحنابلة والشّافعيّة، وعند مالك: لا يوجد شبه العمد بل القتل إمّا عمد أو خطأ، فإن الآية لم تذكر إلّا هذين. وأثبت غيره شبه العمد بالحديث[1]، إلّا أنّ خبر الآحاد لا يعارض به الآية.

* * *

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾

(ومن يقتل مؤمناً) أو مؤمنةً **(متعمداً)** وبدون حق **(فجزاؤه)** يوم القيامة **(جهنم خالداً**

---

(١) الدينار من الذهب والدرهم من الفضة...

(٢) وهو ما روي عن النبي قال: (أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: ألا أن قتيل الخطأ قتيل السوط والعصا فيه مائة من الإبل مغلظة أربعون منها في بطونها أولادها) وفي لفظ (ألا وإن قتيل الخطأ شبه العمد قتيل السوط والعصا منها أربعون يعني في بطونها أولادها) سنن النسائي الكبرى ٤/ ٢٣٢ الحديث رقم ٦٩٩٨، سنن ابن ماجة ٢/ ٨٧٨ الحديث رقم ٢٦٢٨.

فيها) والمراد بالخلود المكث الطّويل[1] لأنّه ثبت بالآيات الأخرى والأحاديث الصّحيحة أنّ المؤمن لا يخلد في النّار **(وغضب الله عليه)** أي ينتقم منه **(ولعنه)** طرده من رحمته **(وأعدّ)** وقدّر **(له عذابا أليماً)** مؤلماً جدّاً في جهنّم، أو المراد هنا من يقتل مؤمناً واستحلّ قتله فهو كافر مخلّد؛ لأنّ إستحلال ما حرّم الله كفر، أو المراد قتله لأنّه مؤمن أي أنّه يعادي الإيمان، فهو كافر أيضاً مخلّد، أو المراد أنّ هذا جزاؤه إن لم يتب أو لم يرحم الله به. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى عقوبة من يقتل مؤمناً، أراد أن ينبّه المجاهدين على أنّ يتبيّنوا في وقت القتال، ويتثبّتوا حذراً من أن يقتلوا واحداً وهو مؤمن، فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٩٤﴾﴾

ذكر المفسّرون: أنّ مرداس بن نهيك أسلم ولم يسلم من قومه إلّا هو، فغزتهم سريّة لرسول الله (ﷺ) فهربوا، وبقي مرداس لثقته بإسلامه، فلمّا رأى الخيل ألجأ غنمه إلى منعرج من الجبل وصعد، فلمّا تلاحقوا وكبّروا كبّر مرداس ونزل، وقال لا إله إلا الله محمّد رسول الله، السّلام عليكم، فقتله أسامة بن زيد واستاق غنمه، فأخبر رسول

---

(١) ترتيب الغضب واللعنة على الخلود في جهنم ينافي تفسير الخلود بالمكث الطويل، ومن المقرر في الأصول أن الحكم المبني على اسم مشتق من صفة تكون تلك الصفة علة لذلك الحكم، فهنا الخلود في جهنم مقابل قتل المؤمن لعلة كونه مؤمنا، فيكون المقصود بالآية أن من قتل مؤمنا لإيمانه أي بسبب كونه مؤمنا يكون خالدا في النّار، لأنّه لا يقتل أحد مؤمنا لإيمانه إلّا إذا كان القاتل كافرا، وعند ذلك يستحقّ الخلود في النّار، كما هو حال الّذين باعوا أنفسهم للأجنبي الكافر فيقتلون دعاة الإسلام بسبب كونهم مؤمنين يدعون إلى الإسلام، وكذلك المنحرفين الّذين يقتلون المسلمين على الهويّة الإسلامية المتبعة للكتاب والسّنة. يؤيّد هذا أنّ سبب نزول الآية هو أن مقيسا الكناني قتل رجلا من بني فهر كان رسول رسول الله ﷺ قد بعثه للصلح بينهم، وارتدّ مقيس عن الإسلام ولحق بمكة. فلو لم يكن قد ارتدّ في نفسه قبلا، لما أقدم على قتل المؤمن غدرا./ انظر الدر المنثور ٢/ ٦٢٣.

الله (ﷺ) فحزن حزناً شديداً وقال: قتلتموه إرادة ما معه، ثمّ قرأ الآية على أسامة، فقال أسامة: إنّما قالها خوفاً، قال: (أفلا شققت صدره حتّى تعلم أقالها خوفاً أو أيماناً، فأمر الرّسول أسامة أن يعتق رقبة واستغفر له)[1]. والآية هي: **(ياأيّها الّذين آمنوا إذا ضربتم)** إي إذا سافرتم **(في الأرض)** للجهاد **(فتبيّنوا)** من أمر النّاس لكي تعلموا المؤمن من الكفار مخافة أن تقتلوا أحداً وهو مؤمن **(ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السّلام لست مؤمناً)** فتقتلوه حيث **(تبتغون عرض الحياة الدّنيا)** بأن تأخذوا ما مع المقتول غنيمة **(فعند الله مغانم كثيرة)** يغنيكم بها فلا تقتلوا النّاس لأجل المال والغنيمة **(كذلك)** أي مثل هؤلاء **(كنتم)** مشركين كافرين **(فمنّ)** أي أنعم **(الله عليكم)** بالإيمان والإسلام فلم تقتلونهم وقد منّ الله عليهم مثل ما من عليكم **(فتبيّنوا)** أعيد الأمر لعظمة الموقف **(إنّ الله كان)** ولا يزال **(بما تعملون خبيراً)** فيحاسبكم على مخالفاتكم وينتقم منكم على إساءتكم. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر فضل المجاهدين فقال جلّ وعلا:

﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةًۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةًۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾

(لا يستوي القاعدون) عن الجهاد **(من المؤمنين غير أولي الضّرر)** كالأعمى والمريض والأعرج والمجنون والشّيخ الهرم فلا يستوى القاعدون بدون عذر هم **(والمجاهدون في سبيل)** نشر وإعلاء دين **(الله بأموالهم وأنفسهم)** حيث **(فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين)** بدون عذر **(درجة)** أي منزلة عند الله تعالى، فدرجتهم أعلى وأفضل منهم **(وكلّاً)** من المؤمنين القاعدين والمجاهدين **(وعد الله)** إياهم **(الحسنى)** أي الدّرجة الحسنى وهي الجنّة إلّا أنّه زاد **(وفضّل المجاهدين على القاعدين أجراً)** ثواباً **(عظيماً)** جداً، ثمّ بيّن الله تعالى هذا الأجر الزّائد على القاعدين فقال جلّ وعلا: **(درجات)** وذلك الفضل كان **(درجات)** كثيرة **(منه)** من عند الله تعالى **(ومغفرة)** عن جميع ذنوبهم **(ورحمة)** ونعمة خاصة بهم **(وكان الله)** ولا يزال

(١) غوامض الأسماء المبهمة ٢/ ٧٤١.

(غفوراً) لمن أخلص له **(رحيماً)** ولرحمه يغفر لا لأمر آخر لأنّه غنيّ عن العالمين والعالمين جميعاً. ثمّ بعد أن عاتب الله تعالى القاعدين عن الجهاد بدون عذر من سكان المدينة، أراد أن يعاقب القاعدين عن الهجرة من المؤمنين السّاكنين في مكة بدون عذر أيضاً، فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾

(إنّ الّذين توفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم) بالبقاء في دار الكفر وتحت الحكم الجاهلي **(قالوا)** أي الملائكة لهم توبيخاً وتقريعاً **(فيم)** في أيّ شيء كنتم **(قالوا)** هم للملائكة **(كنّا مستضعفين في الأرض)** فلم نستطع شيئاً **(قالوا)** أي الملائكة لهم **(ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها)** إلى دار الإسلام وحكم الله تعالى، والإستفهام للإنكار وإنكار النّفي إثبات، فمعناه: كنتم مقتدرين على الهجرة فلمّاذا لم تهاجروا ورضيتم بالحكم الجاهلي **(فأولئك)** الّذين يجدون مقدرة للهجرة من دار الكفر وحكمه، إلى دار الإسلام وحكمه، بحيث يكون في بلد حكم إسلامي يحميه ويحويه ويأويه ويستطيع الهجرة إليه فلم يهاجر **(فأولئك مأواهم جهنم وساءت)** أي فبقيت جهنّم **(مصيراً)** مرجعاً للإنسان **(إلّا المستضعفين من الرّجال)** وهم الأعمى والزمنى والإعرج والشّيخ الهرم **(والنّساء)** مطلقاً **(والولدان)** جميعاً حيث إنّ هؤلاء المذكورين **(لا يستطيعون حيلةً)** للحركة لعجزهم وضعفهم **(ولا يهتدون)** ولا يعلمون **(سبيلاً)** إلى دار الإسلام فليس هؤلاء عليهم ذنب بل **(فأولئك)** المعذورون **(عسى الله)** وعسى في كلام الله تعالى للتّحقيق فمعناه قدّر الله **(أن يعفو عنهم)** لعذرهم **(وكان الله عفواً غفوراً)** لعباده، فتفيد الآية أنّ الهجرة ثابتة إلى يوم القيامة، ففي كلّ بلد حينما أصبح الحكم غير إسلامي ووجد في مكان حكم إسلامي يحوي ويحمي المسلمين ويأويهم يجب على المسلم أن يهاجر من بلده الجاهلي إلى البلد الإسلامي، وذلك كمسلمي فلسطين لا يجوز لهم البقاء تحت حكم إسرائيل إلّا المعذورين منهم وهكذا فقس، وحديث (لا هجرة بعد الفتح) معناها لا هجرة من مكّة إلى المدينة بعد الفتح، لأنّ مكّة بعد الفتح أصبحت بلداً إسلامياً مثل المدينة.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبشّر المهاجرين بخير الدّنيا والآخرة فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾

(ومن يهاجر في سبيل) التّمسك بدين الله تعالى والعمل به **(يجد في الأرض مراغماً كثيراً)** طريقاً سهلاً يرغم به أنوف أعدائه بالخروج من بينهم **(و)** يجد **(سعة)** في الرّزق وفي الصّدر والقلب، وفي التّمسك بدينه **(ومن يخرج من بيته مهاجراً)** يريد الهجرة **(إلى)** حكم الله تعالى **(و)** حكم رسوله **(ثمّ يدركه الموت)** قبل وصوله أو بعده لأنّه لا دليل على التّخصيص بقبل الوصول، كما في بعض التّفاسير **(فقد وقع)** أي ثبت **(أجره)** وثوابه **(على الله)** أي فرض الله على نفسه أن يثيبه **(وكان الله)** تعالى ولا يزال **(غفوراً)** لمن أطاعه **(رحيماً)** بمن امتثل أمره. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى الجهاد والسّفر له والهجرة والسّفر لها، أراد تعالى أن يذكر كيفيّة صلاة المسافر فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾

(وإذا ضربتم) أي وإذا سافرتم **(في الأرض)** لحرب أو لتجارة أو لأي عمل آخر **(فليس عليكم جناح)** أي إثم في **(أن تقصروا من)** عدد ركعات **(الصّلاة)** بأن تصلوا الظّهر ركعتين والعصر ركعتين والعشاء ركعتين، ولكنّ المغرب والصّبح لا قصر فيها **(إن خفتم أن يفتنكم)** أي يغتالكم ويهجم عليكم **(الّذين كفروا، إنّ الكافرين كانوا لكم عدوّا مبيناً)** فينتهزون كل فرصة للهجوم عليكم ولاغتيالكم.

وهنا نذكر مسائل في قصر الصّلاة في السّفر إن شاء الله تعالى.

المسألة الأولى: ذهب داود الظّاهرى بأنّ قصر الصّلاة لا يجوز إلّا عند الخوف من العدوّ لقوله تعالى: (إن خفتم أن يفتنكم الّذين كفروا)، وأجاز الجمهور القصر وإن لم يوجد خوف؛ لماروى عن يعلى بن أميّة قال: قلت لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال تعالى: (فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصّلاة إن خفتم أن يفتنكم الّذين كفروا) والآن قد

أمن النّاس فكيف نقصر؟ فقال عمر(ﷺ): عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله (ﷺ) فقال: (صدقة تصدّق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته)[١]، قال الخازن: أخرج الحديث مسلم. ووردت أحاديث كثيرة جداً فعليه يجوز القصر بدون خوف، فقوله تعالى: (إن خفتم) جرى على الغالب لأنّ أكثر أسفار الرّسول (ﷺ) والأصحاب كان فيها الخوف من الكفّار، فيكون القيد لموافقة الواقع لا للإحتراز، وإعطاء المفهوم المخالف، وذلك كما في قوله تعالى: (وربائبكم اللّاتي في حجوركم) فإن (في حجوركم) ليس للإحتراز.

المسألة الثّانية: ذهب الشّافعي ومالك وأحمد: إلى أنّ جواز القصر إنّما يكون في سفر مباح، وأمّا المسافر سفر المعصية فلا يجوز له القصر. وقال أبو حنيفة: يجوز وإن كان السّفر معصية، وعن إبن مسعود (ﷺ): لا قصر إلّا لسفر الطّاعة كالحجّ أو العمرة أو الجهاد أو طلب العلم.

المسألة الثّالثة: إختلف العلماء في أنّه هل يجوز الإتمام للصّلاة في السّفر فالقصر رخصة، أو لا يجوز الإتمام لأنّ القصر واجب، فعند مالك وأبي حنيفة: القصر واجب، وهو قول عمر وعلي وإبن عمر وجابر وإبن عبّاس من الصّحابة (ﷺ) وبه قال الحسن وعمر بن عبد العزيز وقتاده من التّابعيين، وعند الشّافعي وأحمد: إنّ القصر رخصة، فيجوز الإتمام ولكنّ القصر أفضل، وهو رواية عن مالك أيضاً.

المسألة الرّابعة: ذهب داود إلى أنّه يجوز القصر في السّفر مطلقاً، أي الطّويل والقصير، ويروى ذلك عن أنس (ﷺ)، وقال عمرو بن دينار: قال لي جابر بن زيد: أقصر بعرفة، وعلى هذا أهل الظّاهر. وعند الجمهور: أنّه لا يجوز القصر إلّا في السّفر الطّويل دون القصير، واختلفوا في تحديد مسافة الطّويل، فقال الأوزاعي: الطّويل مسافة يوم، ولا يجوز في سفر أقلّ من ذلك، وعند مالك والشّافعي وأحمد: يجب أن يكون مسيرة ستّة عشر فرسخاً وهو مسافة يومين، وعند الأحناف: لا قصر في أقل من مسافة ثلاثة أيام، وخرج عليّ (ﷺ) من الكوفة إلى النّخيلة فقصّر وقال: أردت أن أعلّمكم السّنة.

المسألة الخامسة: إذا بلغ المسافة حدّها يجوز القصر فيها، وإن قطعها الإنسان في ساعة بأن ركب سفينة أو سيّارة أو طائرة.

---

(١) صحيح مسلم ٤٧٨/١ الحديث رقم٦٨٦.

المسألة السّادسّة: لا يكون المرء مسافراً حتّى يخرج من بيوت القرية، فخارج البيوت مبدأ السّفر ذهاباً ومنتهاه إياباً، فلا يجوز القصر داخل البيوت، وقال القرطبي روي عن الحارث بن أبي ربيعة (رضي الله عنه): أنّه أراد سفراً فصلى بهم ركعتين في بيته وفيهم الأسود بن زيد وجماعة من أصحاب ابن مسعود (رضي الله عنه)[١] : ويجوز ذلك، قال عطاء بن أبي رباح وسليمان بن موسى بذلك.

المسألة السّابعة: قال مالك والشّافعي : إذا نوى المسافر إقامة أربعة أيام في مكان أتمّ، ولا يجوز له القصر، وبه قال اللّيث وسعد والطّبري وأبو ثور وعند الحنيّفة : إذا نوى خمسة عشر يوماً أتمّ، وإذا نوى أقلّ قصّر، وهو قول إبن عمر وإبن عبّاس (رضي الله عنهم) وعند بعض: يقصر المسافر حتّى يرجع إلى وطنه أو يتوطّن وإن أقام سنتين، وروي أنّ أنساً (رضي الله عنه) أقام سنتين بنيسابور يقصر، وقال أبو مجلذ (رضي الله عنه): قلت لإبن عمر (رضي الله عنه) آتي إلى المدينة فأبقى بها سبعة أشهر أو ثمانية طالباً حاجة، فقال: صلّ ركعتين، وقال أبو إسحاق (رضي الله عنه): أقمنا بسبستان سنتين نصلي ركعتين ومعنا جماعة من أصحاب إبن مسعود (رضي الله عنه)، وأقام إبن عمر بأذربيجان وقال: منعنا الثّلج من دخول البلد وكنّا نصلي ركعتين، وحمل الجمهور هذه الرّوايات كلّها على أنّه لم تكن نيّة الإقامة لهؤلاء وإنّما كانوا يقولون: نرحل اليوم أو غداً أو حينما قضينا حاجتنا، ولمثل هذا يجوز القصر إلى سنتين إلّا عند البعض فعندهم إلى ثمانية عشر يوماً.

المسألة الثامنة: فعند من يقول بوجوب القصر إذا أتم المسافر إذا قعد للتشّهد الأوّل تمّ فرضه وما زاد يكون له نفلاً إلّا أنّه أساء إن زاد عمداً وإلّا فلا، وإن لم يقصد القعدة الأولى بطلت صلاته.

المسألة التّاسعة: يجوز إقتداء المتمّ بالقاصر وبعد ما سلّم القاصر يقوم ويتمّ صلاته، ولا يجوز إقتداء القاصر بالمتمّ، ويجوز إقتداء المسافر بالمقيم إلّا أنّه يتمّ صلاته كالإمام والله تعالى أعلم.

* * *

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى كيفيّة صلاة المسافر بدون خوف، أراد أن يذكر كيفيّة الصّلاة وقت الخوف، فقال جلّ وعلا:

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١/ ٥٢٩، ولكن ذكر هذا الأثر ضمن التطوع بركعتين قبل الشروع بالسفر لا أنه كان قصرا لصلاة مكتوبة لأن الوقت كان ضحى.

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾

(وإذا كنت) أيّها النّبيّ **(فيهم)** أي في الجيش **(فأقمت بهم الصّلاة)** بجماعة **(فلتقم طائفة منهم)** لتصلّي **(معك وليأخذوا)** ويحملوا **(أسلحتهم معهم)** في الصّلاة **(فإذا سجدوا)** فإذا صلوا **(فليكونوا)** حراساً **(من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصّلوا)** مع هذه الطّائفة **(معك)** بل كانوا حراساً **(فليصلّوا)** هؤلاء **(معك وليأخذوا)** وليحملوا **(حذرهم)** إلى ما يحذروا به وهي الدّروع **(وأسلحتم)** معها وإنّما فرضنا هذه التّحفظات وأبحنا حمل السّلاح في الصّلاة لأنّه **(ودّ الّذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون)** فيهجمون **(عليكم ميلةً واحدةً)** هجوماً واحداً، فيأخذوا أسلحتكم وأمتعتكم ويفعلون بكم ما يريدون من القتل والنّهب، هذا وإنّ التّحفظ بحمل السّلاح وعدم وضعه واجب، في كلّ وقت إلّا لعذر، ولذا قال تعالى **(ولا جناح)** أي ولا ذنب **(عليكم إن كان بكم أذى)** مشقةً في حمل السّلاح كأن تنشأ المشقّة **(من مطر أو مرض)** فلا جناح في **(أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم)** عند وضع السّلاح، والحذر هنا معناه التّنبه لحركات العدوّ والتّجسّس فيها، ولا تخافوا منهم حيث **(إنّ الله أعدّ)** هيّأ **(للكافرين عذاباً مهيناً)** في الدّنيا بنصركم عليهم، وفي الآخرة بجهنّم وبئس المصير، وهذا وعد للمؤمنين بالنّصر عند العزيمة والصّبر والثّبات والحذر والتّيقظ.

وهنا مسألتان:

المسألة الأولى: ذهب أبو يوسف والحسن بن زياد إلى أنّ صلاة الخوف كانت مختصّة بالرّسول (ﷺ) بدليل قوله تعالى: (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصّلاة)، وردّ قولهما بأنّ الخطاب الّذي يوجّه إلى الرّسول في الأحكام يراد به هو وأمّته إلّا أن يكون هنا مخصّص ولا مخصّص هنا، وبأنّ الصّحابة والخلفاء الرّاشدين كانوا يصلّون صلاة

الخوف بدون إنكار فصار إجماعاً، وذهب المزني إلى أنّها كانت ثابتة، فنسخت وردّ قوله بفعل الصّحابة لها(١).

المسألة الثّانية: في كيفيّة أداء صلاة الخوف وهي صور: **الأوّل**: أنّه يجعل الإمام الجيش طائفتين: طائفة تحرس، وتأتي طائفة ويصلّي بهم الإمام ركعة، فإذا قام الإمام للرّكعة الثّانية تقعد تلك الطّائفة وتتشهّد وتسلّم من ركعة واحدة، فإذا سلّموا والإمام واقف، ينتظر الطّائفة الأخرى، ذهبت الطّائفة الأولى للحراسة وتأتي الطّائفة الثّانية فتصلّي مع الإمام ركعةً ويسلمون مع سلام الإمام، وعلى هذا القول صلاة الخوف للإمام ركعتان وللمأمومين ركعةٌ واحدة، وهذا مروي عن ابن عبّاس وجابر بن عبدالله ومجاهد (ﷺ).

الثّاني: يصلّي الإمام بالطّائفة الأولى ركعتين ويسلّم هو والمأمومون، وتأتي الطّائفة الحارسة فيصلّى بهم صلاة أخرى ركعتين ويسلّم معهم، وعلى هذا يصلّى الإمام مرّتين، وهذا قول الحسن البصري ﷺ.

الثّالث: يصلّي الإمام بالطّائفة الأولى ركعةً، فإذا قاموا للرّكعة الثّانية يبقى الإمام قائماً إلى أن تتمّ هذه الطّائفة صلاتهم ركعتين ويسلّمون، فتأتي الثّانية فيقتدون بالإمام فيصلّي الإمام بهم هذه الركعة، وتقوم الطّائفة ويتمّون ركعتهم الثّانية وينتظرهم الإمام إلى أن يسلّم معهم، وهذا قول سهل بن أبي حثمة ومذهب الشّافعي.

الرّابع: يصلّى الإمام بطائفة الركعة، فبعد تمام الرّكعة تذهب الطّائفة إلى الحراسة،

---

(١) إن صلاة الخوف بهذه الصورة كانت للتحفظ من هجوم العدو عليهم بالأسلحة التي كانت عبارة عن السيوف التي ماكان يمكن استعمالها إلّا مجابهة ومبارزة مع النّبال ألّتي كان لها مدى قصيرا لا يتجاوزها عند رميها، أمّا في هذا الزمان فإنّ صلاة الخوف لايمكن القيام بها بهذه الصّورة مع وجود الأسلحة الحديثة الّتي يمكن رمي المصلين بها من بعد آلاف الكيلومترات وحتّى عند انعدام الرّؤية، فضلا عن أسلحة الدمار الشّامل الّتي لا تفرّق بين المصلّي وغيره، ولا بين القائم والقاعد ولا بين المنتبه والغافل، و ربّما حتّى بين القريب والبعيد، لذلك صدرت كتب جديدة في الصّور الّتي يمكن القيام بالصّلاة بها حالة الحرب في الوقت الحاضر، فيمكن القول بأنّ آيات صلاة الخوف عامّة في أنّها أعطتنا قاعدة لتغيير صورة صلاة الخوف جماعة وفق المتغيرات حسب كل زمان وإن لم تكن متطابقة. وبدليل اختلاف العلماء في صور صلاة الخوف المستنبط من أية صلاة الخوف وعدم تطابقها. ما يدل على أنّ في الأمر سعة.

وتأتي الطّائفة الثّانية فتصلّي مع الإمام في ركعته الثّانية ركعتهم الأولى فتذهب إلى العدوّ، وتأتي الأولى فتتم صلاته فتذهب إلى العدوّ، وتأتي الثّانية فتتمّ صلاته، وهذا قول عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) وإليه ذهب أبو حنيفة. وإذا كان العدوّ في جانب القبلة فللصلاة صورة أخرى أخذ بها الشّافعي، ولكنّها لصعوبتها وتشوشّها تركت ذكرها، قال الإمام الرازي: والخلاف لإختلاف الرّوايات فلعلّ الرّسول (ﷺ) صلّى بكلّ نوع، فرأى كل راو ما رأى وغفل مالم يره والله تعالى أعلم. وهذه الصور كلها فيما إذا لم يقع الهجوم والتلاحم، وأمّا إذا اشتدّ الحرب والتحم القتال صلّوا رجالاً وركباناً، ويومئون بالرّكوع والسجود وكيف ما أمكن، هذا ومن هنا يعلم شدّة إهتمام الإسلام بالصّلاة وعدم جواز تركها في كلّ حال من الأحوال، ولذلك قال(ﷺ): (بين الرّجل وبين الشّرك و الكفر ترك الصلاة)[1]، وقال (العهد الّذي بيننا وبينهم الصّلاة فمن تركها فقد كفر)[2] فما أعظم هذه الصّلاة وموقعها من الإسلام.

ثمّ إنّ الصّلاة هي ذكر خاص لله وواجب في أوقات مخصوصة وبهيئات مخصوصة، ولكنّ ذكر الله تعالى العام الّذي هو عبارة عن ذكره باللّسان والشّعور برقابته والإرتداع عن مخالفته واجب في كلّ وقت، ولذا قال جلّ وعلا:

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾

(فإذا قضيتم) أي أدّيتم الصّلاة في الخوف كما تيسّرت لكم **(فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم)** بالقلب وباللّسان مع الشّعور برقابة الله تعالى والإرتداع بذلك عن المخالفات والإقدام على الأوامر **(فإذا اطمأننتم)** بزوال الخوف **(فأقيموا الصّلاة)** كما هي، ولا يمكن ترك الصّلاة بحال حيث **(إنّ الصّلاة كانت على المؤمنين كتاباً)** فريضة **(موقوتاً)** مربوطة بأوقاتها، فيجب أن تؤدى في أوقاتها حسبما أمكن، ولا يكلّف الله نفساً إلّا وسعها. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى بعض الأحكام الّتي تتعلّق بالجهاد، أعاد الأمر بالجهاد وحض المؤمنين عليه فقال جلّ وعلا:

---

(١) صحيح مسلم ١/ ٨٨ الحديث رقم ٨٢.

(٢) سنن الترمذي ٥/ ١٣ الحديث رقم ٢٦٢١.

﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٠٤﴾

(ولا تهنوا) ولا تكاسلوا **(في ابتغاء)** في مطاردة **(القوم)** الّذين يقاتلونكم فإنّ حالكم أحسن من حالهم حيث **(إن تكونوا تألمون)** بما أصابكم من الجروح وإستشهاد البعض منكم **(فإنّهم)** فإنّ أعداءكم **(يألمون)** من الجرح والقتل كما تألمون **(وترجون)** أنتم **(من الله)** تعالى من الثّواب في الآخرة والنّصر في الدّنيا **(مالا يرجون)** هؤلاء ذلك، فيجب لذلك أن تكون عزيمتكم أقوى ومعنوياتكم أعلى. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى تلك الأحكام الّتي سبقت، نبّه تعالى على أنّ تلك الأحكام كلّها من الله تعالى، وأنّه لا يجوز العدول عنها لمحاباة أو لأيّ سبب آخر، فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٦ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ١٠٧ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ١٠٨ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ١٠٩ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١١٠﴾

وقد ذكر المفسّرون عن إبن عبّاس (رضي الله عنه) أنّ سبب نزول هذه الآيات هو أنّ رجلاً من الأنصار يقال له طعمة بن أبيرق من بني ظفر بن الحدث سرق درعاً من جار له يقال له قتادة بن النّمعان، وكان الدّرع في جراب فيه دقيق، فأصبح الدّقيق ينتشر من خرق في الجراب حتّى انتهى إلى دار طعمة، ثمّ أخذها فذهب بها إلى دار يهودي فخبّأها عند ذلك اليهوديّ، واسمه زيد بن السّمين، فالتمس الدّرع عند طعمة فحلف بالله ما أخذها وما له بها من علم، فقال أصحاب: لقد رأينا أثر الدّقيق حتّى دخل داره،

فلما حلف تركوه، واتبعوا أثر الدّقيق إلى دار اليهوديّ، فأخذوه منه فقال اليهوديّ: دفعها إلى طعمة بن أبيرق، وشهد له جماعة من اليهود، فجاء بنو أظفر قوم طعمة إلى الرّسول الله (ﷺ) ويسألوه أن يجادل عن طعمة فهمّ الرّسول (ﷺ) بذلك فنزل تعالى: **(إنا أنزلنا إليك الكتاب)** وهو القرآن لتحكم بين النّاس بما أراك الله أي بما علمك الله تعالى وحسبما أمرك به **(ولا تكن للخائنين خصيماً)** أي مدافعاً عنهم، والخطاب في هذه الآيات وإن كان موجهاً إلى الرّسول (ﷺ) إلّا أنّه قصد به بنو ظفر لا الرّسول (ﷺ)؛ لأنّ الرّسول لم يحكم بعد على اليهوديّ ولم يعاقبه وما دافع عن طعمة، ولو دافع عنه كان الدّفاع حقاً، وحسب ما أمر الله به وحسب العدل، لأنّ الأثر إنتهى إلى دار اليهوديّ، وحلف طعمة أنّه لا علم له بالموضوع فبرئ، حسب الظّاهر ولم يكن هناك شهود عدل،لأنّ اليهود الّذين شهدوا لليهوديّ بأنّ طعمة دفعه إليه لم يكن لتقبل شهادتهم، وذلك لوجود العداء السّافر بين اليهود والأنصار سابقاً، كما يشهد به التّاريخ ولاحقاً، لأنّ الأنصار أسلموا واليهود عادوا الإسلام ورسوله وأتباعه، ولو حكم أي حاكم في مثل هذه القضيّة لقضى بمثل ما همّ به الرّسول (ﷺ) حيث ظهر المسروق في دار اليهوديّ، ولكنّ الله عصمه لوقوع الرّسول في الخطأ حسب الواقع لا حسب الشّرع، فنزلت الآية وخوطب فيها الرّسول ليكون دستوراً للعدل، والمراد بالعتاب في الخطاب بنو ظفر لأنّهم كانوا يعرفون خيانة طعمة وهم خاصموا ودافعوا عنه لا الرّسول(ﷺ) وأرادوا أن يحكم الرّسول بتبرئة طعمة وقطع يد اليهوديّ، ويدلّ على ذلك بوضوح قوله تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلّوك﴾ سورة النساء الآية/ ١١٣، فالآية جرت مثل قوله تعالى: ﴿لئن أشركت ليحبطنّ عملك ولتكوننّ من الخاسرين﴾ سورة الزمر الآية/ ٦٥، وغير ذلك من الآيات التي خوطب فيها الرسول وأريد بها الأمة والقضاة، فعلى ما قررنا يكون المراد بقوله تعالى: **(واستغفر الله)** أي استغفر الله لبني ظفر حيث دافعوا عن الخائن، وفي نفس الوقت أرادوا أن يخدعوك فيحملوك على معاقبة البريء **(إنّ الله كان غفوراً)** لمن تاب واستغفرت لهم **(رحيماً)** ولرحمته فتح باب التّوبة والإستغفار لعباده **(ولا تجادل)** أيّها المخاطب وكلّ سامع ومسلم **(عن الذين يختانون أنفسهم)** أي يظلمون أنفسهم كطعمة وأمثاله، مثل ما فعل قوم طعمة لطعمة **(إنّ الله لا يحبّ من كان خواناً)** صيغة مبالغة لخائن **(أثيماً)** عاصياً، قيل بصيغة المبالغة: وإن كان الله لا يحبّ الخائن، وإن لم يبالغ إذ المراد بذلك هو الخائن المصرّ على الخيانة، وأما التّائب عنها فيحبه ويغفر له، وطعمة كان خائناً ولم

يتب ومات على الخيانة والكفر، وهذا من معجزات القرآن، حيث أخبر بما تحقق في المستقبل، ويدلّ بوضوح أنّ العتاب لم يتوجّه إلى الرّسول (ﷺ) وأنّه ما دافع عن الخائن ولا حكم له، وإنّما المدافع عنه والحاكمون بتبرئته خلاف كتاب الله تعالى وحكمه هم بنو ظفر، يدلّ على ذلك قوله جلّ وعلا: **(يستخفون)** أي يتستّرون **(من النّاس)** ويخفون خيانتهم منهم **(ولا يستخفون)** أي ولا يستترون **(من الله)** خيانتهم بأن لا يفعلوها **(وهو معهم)** يعلم كل ما يفعلون وقد علم بهم **(إذ)** وقتما كانوا **(يبيّتون)** يدبّرون بينهم **(ما لا يرضى)** الله به**(من القول)** وهو أن يقولوا إنّما سرقه زيد بن السمين اليهوديّ، ويحلفوا على ذلك، وليقنعوا الرّسول (ﷺ) بذلك فيحكم على اليهوديّ ويبرئ طعمة **(وكان الله بما يعملون)** من هذه المؤامرة لتبرئة المجرم وإدانة البريء **(محيطاً)** فأخبرك به أيّها النّبيّ لكيلا يوقعوك في الخطأ. ثمّ شدّد الله تعالى العتاب على بني ظفر فقال جلّ وعلا **(ها أنتم هؤلاء)** المعرفون والّذين تجادلون عن الخائنين **(جادلتم عنهم في الحياة الدّنيا)** ونفعه جدالكم لو لم يفضح الله تعالى كذبكم **(فمن يجادل عنه)** وينقذه **(يوم القيامة)** من عذاب الله تعالى **(أم)** بل **(من يكون عليه وكيلاً)** يكل إليه أمره ليحميه ويدافع عنه عند الله تعالى، والإستفهام للإنكار أي لا أحد يستطيع أن يجادل عنه أو يحميه.

ثمّ بعد أن عاتبهم الله تعالى أراد أن يرغبهم في التّوبة من مثل هذه القبائح فقال جلّ وعلا: **(ومن يعمل سوءًا)** وهو الذّنب المتعلق به حقّ النّاس أو يظلم نفسه بذنوب فيها حقّ الله تعالى وحده **(ثمّ يستغفر الله)** بالتّوبة والإنابة اليه **(يجد الله)** تعالى **(غفوراً)** يغفر له **(رحيماً)** يرحم به. ثمّ بين الله تعالى أنّ الذّنب لا يضرّ إلّا مرتكبه فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾

(ومن يكسب إثماً) أي ذنباً **(فإنّما يكسبه على نفسه)** ويضرّها فقط، وكان الله تعالى ولا يزال **(عليماً)** بذنب من أذنب لا يخفى عليه شيء فيعاقب عليه **(حكيماً)** ذو حكمة ولحكمة يعاقب المذنبين، ثمّ شدّد العتاب على طعمة وأمثاله فقال: **(ومن يكسب إثماً)** كطعمة حيث سرق الدّرع **(ثمّ يرم)** يتّهم **(به بريئاً)** كزيد بن السمين اليهوديّ **(فقد احتمل)** إرتكب **(بهتاناً وإثماً)** ذنباً **(مبيناً)** واضحاً **(ولولا فضل الله عليك)** أيّها النّبيّ **(ورحمته لهمت طائفة منهم)** من بني ظفر **(أن يضلّوك)** أي يحملوك على الخطأ في الحكم، بخلاف الواقع لا الشّرع، والخطأ حسب الواقع ليس ذنباً لأنّ الرّسول(ﷺ) يقول: (إنّما أنا بشر، وإنّكم تختصمون إليّ، ولعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجّته من بعض، فأقضي له على نحو مما أسمع، فمن قطعت له من حقّ أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنّما أقطع له به قطعة من نار)[1] رواه مسلم والبخاري كما في التّاج. وإنّما يكون الذّنب على من ادعى باطلاً وأثبته بالحجج الباطلة، وأقنع بها الحاكم **(وما يضلّون)** أي وما يعملون عملا يكون سبباً للخطأ إلّا ويضرّون **(أنفسهم وما يضرّونك من شيء)** لأنّك إن خطّؤوك بشهاداتهم الكاذبة والحجج الباطلة فذلك الخطأ لا يكون لك إثماً؛ لأنّك حكمت بظاهر الحال، ولست مكلفاً بالحكم بحقيقة الحال، إنّما تحكم بالظاهر والله يتولى السرائر **(وأنزل الله عليك الكتاب)** وهو القرآن **(والحكمة)** وهي السّنة **(وعلّمك ما لم تكن تعلم)** من العقائد والأحكام **(وكان فضل الله عليك عظيماً)** حيث لم تكلّف إلّا بالحكم بظاهر الحال، ومع ذلك ينبّهك الله تعالى على حقيقة الحال، مثل ما نبهه في هذه الواقعة وفي وقائع أخرى كثيرة **(لا خير في كثير من نجواهم)** أي فيما يتكلّمون سرّاً ويتّفقون عليه كمثل بنى ظفر، إتّفقوا سراً أن يبرئوا طعمة ويتّهموا زيداً اليهوديّ **(إلّا من أمر)** بكلامه في النّجوى **(بصدقةٍ أو)** أداء **(معروف أو إصلاح بين النّاس)** فالنّجوى

---

(١) صحيح البخاري ٢/ ٩٥٢ الحديث رقم ٢٥٣٤، صحيح مسلم ٣/ ١٣٣٧ الحديث رقم ١٧١٣، واللفظ لمسلم.

لهذه الأمور خير، حتّى وإنّ الكذب لها خير كما بيّن في موضعه **(ومن يفعل ذلك)** أي الأمر بصدقة أو معروف إو إصلاح بين النّاس وقصد بذلك **(ابتغاء)** قصد **(مرضات الله)** مصدر ميمي بمعنى الرّضا **(فسوف نؤتيه)** يوم القيامة وفي الدّنيا **(أجراً)** ثواباً **(عظيماً)** لا يعرف مقدار عظمته إلا الله تعالى.

تنبيـهات:

التّنبيه الأوّل: تبيّن من سبب نزول هذه الآيات ومن القصّة أنّ الرّسول (ﷺ) لم يجادل عن الخائن ولم يحكم بالباطل، وإنّما حكّم الّذين جادلوا عنه وحكموا له، وأرادوا أن ينفّذ الرّسول كما حكموا وكانوا بنو ظفر، ولو حكم الرّسول لم يكن حكماً بالباطل؛ لأنّ شهادة شهود اليهوديّ لم تقبل، وحلف طعمة بعدم علمه بالجريمة، واستخرج المسروق من بيت اليهوديّ، والأثر وصل إلى داره فكان حكماً بالحقّ حسب الشرع، وإنّما كان حكماً خلاف الواقع، ولم يكلف الرّسول ولا غيره بالحكم وفق الواقع، وإنّما كان أمر بني ظفر خلاف الشّرع لأنّهم كانوا يعرفون أنّ طعمة هو السّارق، فالعتابات والأمر بالإستغفار والتّوبة في الآيات كلّها تتوجّه إليهم لا إلى الرّسول (ﷺ).
التّنبيه الثّاني: تبيّن من هذه الحادثة ومن حوادث أخرى أنّ الرّسول (ﷺ) وإن لم يكن مكلفاً بالحكم حسب الواقع، إلّا أنّه كان ينبّه على الواقع، إذا أشرف على الحكم بخلافه، لكي لا يخطأ في حكمه، لا بالنّسبة إلى الظاهر ولا بالنسبة إلى الباطن تشريعاً له، وليأخذ أجرين لا أجراً واحداً، لأنّ الحاكم إذا حكم فأصاب الواقع يكون له أجران، وإن أصاب الشّرع لا الواقع فله أجر واحد.

التّنبيه الثّالث: يظهر من هذه الحادثة وهذه الآيات عدالة القرآن، حيث عوقب هؤلاء الجماعة المسلمة الكثيرة أفرادها، وفضحوا لئلّا يلحق الظّلم رجلاً يهوديّاً عدوّاً للإسلام والمسلمين ورسولهم، وهذه أيضاً من عظمة القرآن ومعجزاته الواضحة، فما أعظم هذا الرّسول وما أعظم هذا القرآن، فهو إذن من الله تعالى، وأنّ محمّداً رسوله، وإلّا فمن أين علم كذب طعمة وقومه وصدق اليهودي إن لم يخبره الوحي من الله تعالى.

التّنبيه الرّابع: إنّ مورد التّزول كما ذكرنا مراراً لا يخصص الآية بما ورد فيه، فالأمر بالحكم بالحقّ والنّهي عن الدّفاع عن الخائن، والأمر بالإستغفار عند صدور شيء من ذلك والتوبة عنه، والوعيد الشّديد الآتي على مخالفة الرّسول عامّ في كلّ شخص وفي كلّ زمان، إلى أن يأتي يوم القيامة هذا.

* * *

ثمّ إنّ طعمة لم يطع الرّسول (ﷺ)، بل هرب منه إلى مكّة ومات بها مشركاً؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾

(**ومن يشاقق**) أي يخالف (**الرّسول من بعد ما تبيّن له الهدى**) من أنّه الرّسول وآمن به (**ويتّبع**) سبيلاً ومنهجاً آخر (**غير سبيل**) منهج وشريعة (**المؤمنين نولّه**) نتركه (**و**) مع (**ما تولى**) ما اختاره، ونبقيه في الضّلال في الدّنيا ولا نهديه جبراً[١] فنتركه في الدّنيا (**ونصليه**) وندخله يوم القيامة (**جهنّم وساءت**) وقبحت جهنّم (**مصيراً**) مرجعاً.

* * *

ثمّ كأنّه قيل هنا: ياربّ لَم لَمْ تغفر له وأنت أرحم الرّاحمين؟ فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦﴾

(**إنّ الله**) تعالى قرّر أنّه (**لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما**) كلّ ذنب (**دون**) غير (**ذلك**) غير الشّرك، وعلّل عدم المغفرة والعفو عن الشّرك فقال: (**ومن يشرك بالله**) غيره في عبادته وطاعته وعقيدة التّكوين فيه (**فقد ضلّ**) إبتعد عن الحقّ (**ضلالاً**) إبتعاداً (**بعيداً**) جداً ولذلك لا يغفر الله تعالى له.

ثمّ بيّن الله تعالى كيفية شركهم فقال جلّ وعلا:

﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ١١٧ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ١١٨ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ

(١) أي نترك له الإختيار.

ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ﴿١٢١﴾﴾

(إن يدعون) أي إن يعبدون لأنّ العبادة والدّعاء متلازمان؛ لأنّ من عبد شيئاً دعاه والتجأ إليه في الملمّات، ومن دعا شيئاً والتجأ اليه عبده، ولذلك يستعمل أحدهما مكان الآخر، فالمشركون **(إن)** أي ما **(يدعون)** يعبدون **(إلّا إناثا)** وهي الأصنام، وذلك لأنّ المشركين كانوا يعبدون الملائكة، ويعتقدون أنّها بنات الله تعالى، ثمّ اتّخدوا تماثيل لها[١] فعبدوها، ولذلك لم يسمّوا التّماثيل إلّا بأسماء الإناث، كاللّات والعزّى والمناة **(وإنْ)** وما **(يدعون)** يعبدون أي يطيعون بعبادتهم لهذه الأصنام **(إلّا شيطاناً مريداً)** خارجاً عن الإطاعة لله تعالى، فإنّ الشّيطان هو الّذي يريد منهم هذه العبادة ولهذه الآلهة، فعبادتهم للآلهة عبادة أي إطاعة للشّيطان في نفس الوقت أيضاً **(لعنه الله)** أي طرد الله الشّيطان من رحمته، فمن كان مطروداً من عند الله تعالى يجب أن يطرده كلّ النّاس فكيف يطيعونه، وعاند الشّيطان به **(وقال)** لله بعد أن طرده **(لأتّخذن من عبادك نصيباً)** قسماً **(مفروضاً)** مقدّراً ومحدوداً، فأجعلهم يطيعونني **(ولأضّلنهم)** ولأزيّلنّهم عن دينك وعبادتك **(ولأمنّينّهم)** ولأجعلنّهم يتمنّون الخير في الدّنيا والنّجاة في الآخرة من غيرك، فيطلبون منهم منافع الدّنيا ودفع الضّرر ورفعه فيها، ويرجون النّجاة من عذاب الآخرة منهم **(ولآمرنهم)** بأمور باطلة ما أمرت أنت بها **(فليبتّكن)** فليثقبن **(آذان الأنعام)** أي نوع من الأنعام وهو الإبل، فكانوا إذا ولدت النّاقة خمسة أبطن وكان الخامس ذكراً حرّموا على أنفسهم الإنتفاع بها، وشقّوا أذنها علامة على حرمتها، ولا يردّونها عن ماء ولا كلأ، وكانت هذه عبادة في الجاهليّة **(ولآمرنّهم فليغيّرن)** بأمري **(خلق الله)** بالخصاء والوشم، أو أي تغيير لم يرد به الشّرع وأمر من الله تعالى ورسوله، وهكذا يجعل الشّيطان نفسه وليّاً لأمرهم ويتولّاهم **(ومن يتّخذ الشّيطان وليّاً)** فيطيعه في شؤونه **(من دون الله)** تعالى وخالف أمر الله ورسوله **(فقد خسر خسراناً مبيناً)** واضحاً لا يعوّض **(يعدهم)** الشّيطان وعوداً: كشفاعة الشّفعاء وإنجاء الشّركاء لهم **(ويمنّيهم)** أي ويجعلهم

---

(١) أي على صورة الإناث.

يتمنّون ويعتقدون حصول هذه المواعيد وهو كاذب، حيث **(وما يعدهم الشّيطان إلّا غروراً)** إلّا ما يغترّون به ويخدعهم به، ولا أصل لما يعد به أبداً **(أولئك)** الّذين يفترون وينخدعون بمواعيد الشّيطان الّتي لا أساس لها في القرآن، ولا في السّنة **(مأواهم)** مصيرهم **(جهنّم ولايجدون عنها)** عن جهنّم ودخولها **(محيصاً)** مفراً لا من الشّفعاء ولا من الشّيطان ولا من وكلائه الّذين يخدعون النّاس بأكاذيب فيضلّونهم عن كتاب الله وسنّة رسوله (ﷺ)، فكل عمل اتّخذه النّاس عبادة وقربة ولم يرد فيه كتاب ولا سنّة فهو من أوامر الشّيطان، وكلّ أمنيّة لم يرد بها الكتاب والسّنة فهو من أمنيّات الشّياطين أي شياطين الإنس وهم الدعاة إلى البدع والأهواء، وشياطين الجنّ الّذين يقودون هؤلاء الدّعاة إلى دعوة لم يرد بها من الله تعالى شيء ولا من سنّة الرّسول ولا عمل الأصحاب خيار الأمة قال (ﷺ): (كلّ محدثة بدعة وكلّ بدعة ضلالة وكلّ ضلالة في النار)[1]. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أهل الباطل وإتباع الشّيطان ومصيرهم أراد أن يذكر أهل الصّلاح وإتباع الشّرع ومنزلتهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢﴾

(والّذين آمنوا) بالإسلام ورسوله واعتنقوا الإسلام ديناً **(وعملوا الصّالحات)** وهي الأعمال الّتي اعتبرها الإسلام صالحة **(سندخلهم)** يوم القيامة وبعد الممات **(جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها)** أبداً لا يَخرجون ولا يُخرجون منها **(وعد الله)** أي وعدهم الله وعده هذا **(حقّاً)** أي ويحقّق وعده ويتبيّن **(حقاً)** ثبوتاً لا شكّ فيه وينالونه. **(ومن أصدق من الله قيلاً)** قولاً، والإستفهام للإنكار أي لا يوجد أصدق من الله تعالى قولاً ووعداً، ونرجو أن ينالنا هذا الوعد بلطفه العميم وبرحمته إنّه أرحم الرّاحمين.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى بعض الأحكام الّتي تتعلّق بالدّنيا، أراد أن يذكر بعض الأحكام المتعلقة بالآخرة فقال جلّ وعلا:

---

(١) سنن النسائي ١/ ٥٥٠ الحديث رقم ١٧٨٦.

﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴿١٢٤﴾ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴿١٢٥﴾﴾

(ليس بأمانيّكم) الأماني جمع أمنيه أصلها أمنوية كأضحوكة وألعوبة وأفعولة، اجتمع فيها الواو والياء والسّابق منهما ساكن، قلبت الواو ياءً، كما هي القاعدة الصّرفية وكسرت النّون، لأنّ الياء يقتضي كسر ما قبلها فصارت أمنيّة، والأمنيّة ما يتمنّى ويتصوّره الإنسان من شيء ويعتمد عليه، فكان أهل الكتاب اليهود والنّصاري يتصوّرون أنّهم أبناء الله وأحباؤه فيقولون: ﴿لن يدخل الجنّة إلّا من كان هوداً أو نصارى﴾ سورة البقرة الآية/ ١١١.

واعتقد بعض المسلمين أنّ الإيمان يكفى للنّجاة؛ فلا يعذّب المسلم، وإن فعل ما فعل ويغفر الله بدون التّقييد **(لمن يشاء)** فقال تعالى **(ليس)** أي ليس الأمر والشّأن مربوطاً **(بأمانيّكم)** أيّها المسلمون، أنّ المسلم لا يعذّب **(ولا أمانيّ أهل الكتاب)** اليهود والنّصارى وهو أنّهم أبناء الله وأحبّاؤه فلا يعذّبون، بل الأمر مربوط بما قدره الله تعالى وهو أنّه **(من يعمل سوءً يجز به)** كائناً من كان إلّا أن يغفر الله تعالى له وحسب مشيئته **(ولا يجد)** المسيء **(له من دون الله وليّاً)** يتولّى أمره يوم القيامة **(ولا نصيراً)** ينصره وينقذه من عذاب الله تعالى كما يعتقد بعض النّاس أنّه ينجو بنسبه أو بآلهته الباطلة **(ومن يعمل)** أيّ عمل كان **(من)** الأعمال **(الصّالحات)** الّتي جعلها الله تعالى صالحة حسب ما شرّع للنّاس سواء كان العامل **(من ذكر)** من الرّجال **(أو)** يكون من أنثى من النّساء لا يفرّق بينهما في الجزاء عند الله تعالى سواء أكان ثواباً او عقاباً، هذا وحيث إنّ أي عمل لا يقبل ولا يثاب عليه إلّا إذا كان العامل مؤمناً، قال تعالى: **(وهو)** أي العامل **(مؤمن)** إيماناً صحيحاً بأن يؤمن بالله تعالى ولا يشرك به، لا في التّكوين ولا في التّشريع ولا في العبادة، وينزهه عن المولد وكل ما هو نقص، ويصفه بكل ما هو من صفة الكمال، ويؤمن بجميع الإنبياء والرّسل **(فأولئك)** الّذين يؤمنون هذا الإيمان **(يدخلون الجنّة ولا يظلمون)** أي ولا ينقص من أعمالهم **(نقيراً)** **ما** هو بقدر النّقير، بل

يحسب له ويثاب عليه، ثمّ بيّن تعالى فضل المسلم فقال: **(ومن أحسن ديناً)** تمييز محوّل عن الفاعل، فالتّقدير ومن أحسن دينه[١] (من) دين **(من أسلم)** أنقاد وسلم **(وجهه لله)** فتوجّه إليه بالإيمان به **(وهو محسن)** أي مؤمن **(واتبع ملة)** عقيدة **(إبراهيم حنيفاً)** مائلاً من الباطل إلى الحق في عقيدته وتوحيد الله تعالى، والإستفهام للإنكار أي لا يوجد أحسن من هذا حيث **(واتّخذ الله إبراهيم خليلاً)** له لتوحيده وانقياده لله تعالى، فمن كان على عقيدته وتوحيده فهو خليل الله ولا يوجد أحسن منه، اللّهم اجعلنا منهم آمين. ثمّ بيّن الله تعالى أنّ عقيدة التّوحيد وهي عقيدة إبراهيم (على نبينا وعليه الصلاة والسلام) وعقيدة المسلمين هو الحقّ؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ١٣٦﴾

(ولله) كلّ **(ما في السّماوات وما في الأرض)** جميعه **(وكان الله بكلّ شيء محيطاً)** علماً وقدرةً وخلقاً وإيجاداً، فمن كان هذه صفته وهذه قدرته وعلمه فلا يليق أن يعبد غيره، ويجب أن يطاع أمره ويطبّق شرعه ولا يشرك به شيء، لا في الخلق ولا في الإيجاد، ولا في الحكم ولا في التّشريع ولا في طلب الحوائج ورفع الملمّات ورفعها منه. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر حكماً آخر للنّاس حيث سئل الرّسولﷺ، فقال جلّ وعلا:

﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ١٢٧ وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا

(١) أو دينا منصوب على التمييز من أحسن منقول من المبتدأ والتقدير: ومن دينه أحسن من دين من أسلم...الخ.

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾

كان قبل أن يأتي الإسلام توجد عادتان سيّئتان في المجتمع:

الأولى: إنّه كان عندما تكون يتيمة في حجر رجل وتحت رعايته، فإذا كانت ذات جمال رغب في نكاحها، ونكحها بصداق أقل من صداق أمثالها، وإذا كانت غير جميلة تركها.

الثّانية: إنّه كانت اليتيمة في رعاية الرّجل وحجره ولها شراكة في المال، فإذا كانت جميلة تزوّجها وإلّا منعها من الزّواج بأحد مخافة أن تأخذ حقّها إلى أن تموت فيرثها ذلك المال. فاستفتى النّاس الرسول (ﷺ) عن ذلك فنزلت الآية فقال تعالى: **(ويستفتونك)** أيها النبي **(في)** حكم يتامى **(النّساء)** وعمل النّاس معهن حسب تلك العادات السّيئة **(قل)** أيّها النّبي **(الله يفتيكم)** ويبيّن لكم حكمهن **(و)** يفتيكم **(ما يتلى في الكتاب)** أي في القرآن ممّا سبق من الآيات الّتي بينت هذه الفتوى مثل قوله تعالى: **(وآتوا النّساء صدقاتهنّ نحلة)** وقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ سورة البقرة الآية/ ١٩.

وغير ذلك من الآيات الّتي تبيّن أحكام النّساء وحقوقهنّ في هذه السّورة وفي غيرها. والله يفتيكم، والآيات الّتي تتلى عليكم يفتيكم **(في يتامى النّساء اللاتى لا تؤتونهنّ ما كتب)** تمام ما فرض **(لهنّ من الصّداق وترغبون)** في أن تنكحوهنّ فتنكحوهن بصداق غير واف، هذا بالنّسبة للعادة الأولى.

وبالنّسبة للعادة الثّانية معناها: **(لا تؤتونهنّ ما كتب لهنّ)** من الميراث **(وترغبون)** عن أن تنكحوهنّ لعدم جمالهنّ وتمنعونهنّ من الزّواج بالغير، وحاصل المعنى أنّ فتوى الله تعالى في ذلك نفس الفتوى الّتي ذكرت في الآيات الّتي تتلى، والّتي سبقت، وإنّه لا تبديل لهذه الأحكام ولن تبدّل، وإنّ ما تعملون من هذه العادات ظلم وجريمة وعدول عن أمر الله تعالى، فتبيّن أنّ النّاس كانوا يعلمون هذه الأحكام وعرفوها فيما يتلى عليهم من القرآن، إلّا أنّهم كانوا يُعيدون الأسئلة عنها طمعاً في أن يبدلّها الله تعالى ويغيّر، إلّا أنّ الله تعالى أصرّ على حكمه ولم يرد التّغيير والتّبديل له.

(والمستضعفين) أي ويستفتونك عن المستضعفين **(من الولدان)** فكانوا أيضاً يمنعون إرثهم، ولا يعطونهم شيئاً، وإنّما يورثون الكبار فقط، فالمعنى يفتيكم الله فيهم مثل ما تلا عليكم في الآيات السّابقة في الإرث **(و)** يأمركم **(أن تقوموا بالقسط)** بالعدل والحقّ في حق النّساء والولدان وأن تقفوا عند حدّ الله تعالي، فإنّه لا يبدّل حكمه ولا يغيّر **(وما تفعلوا من خير)** من تطبيق هذه الأحكام **(فإنّ الله كان به)** بتطبيقكم لها **(خبيراً)** فيثيكم على ذلك ثواباً جزيلاً، كما ويعاقبكم على عدم التّطبيق عقابا أليماً. **(وإن امراةٌ خافت)** أي رأت **(من بعلها نشوزاً)** جوراً أو جفاءً **(أو إعراضاً)** منه عنها، وخافت بمعنى ظنت و **(إن)** للشّك في وجود الشّرط، فالمعنى وإن وقع على سبيل الشّك وقوع النّشوز المظنون، فالصّلح خير، ولا يخفى أنّ الصّلح لا يكون إلّا بعد وقوع النّشوز، إلّا أنّه عبّر هذا التّعبير، إشارة إلى أنّه يجب أن يكون وقوع النّشوز من المؤمن مظنوناً ومشكوكاً فيه، وأن يكون وقوع ذلك المظنون أيضاً متردّداً فيه، لأنّ الإيمان يجب أن يثمر العدل الّذي يكون الجور مظنوناً ومشكوكاً، وفي غاية النّدرة في الوقوع **(فلا جناح)** فلا إثم **(عليها)** على الزّوج والمرأة **(أن يصلحا بينهما صلحا)** يجمع بينهما. والمعنى: إنّ الإثم يرتفع بالصّلح لأنّ الصّلح ليس بإثم، فإنّ هذا الأمر معلوم لا يحتاج إلى الخبر عنه، والصّلح يكون بأن يعطي الزوج شيئاً لإمرأته، أو تتنازل الزوجة عن بعض صداقها أو بعض قسمها أو غير ذلك **(والصّلح)** في كلّ نزاع وخصام **(خير)** أمر حسن جداً **(وأحضرت)** أي جبلت **(الأنفس الشّح)** أي على الشّح، فهي مجبولة عليه، ولا يمكن لأيّ إنسان أن لا يشحّ إلّا أنّه يمكن له أن يخالف داعية الشّح بأن يحسن، ولذلك قال تعالى: **(وإن تحسنوا وتتقوا)** ما تريده النّفس من الشّح **(فإنّ الله كان)** ولا يزال **(بما تعملون)** من الخير **(عليماً)** فيثيبكم عليه **(ولن تستطيعوا)** أيّها الرّجال **(أن تعدلوا)** تمام العدل **(بين النّساء)** فتؤدّون حقوقهنّ كاملة **(ولو حرصتم)** على ذلك العدل **(فلا تميلوا)** فلا تعرضوا **(عنهن كل الميل)** كل الإعراض **(فتذروهنّ)** فتتركوهنّ **(كالمعلقة)** بأن لا تطلّقوها لتتزوّج غيركم فتستريح، ولا تعاشروهنّ معاشرة شرعيّة **(وإن تصلحوا)** ما بينكم وبين النّساء بالعدل **(وتتّقوا)** ظلمهنّ وجفاءهنّ **(فإنّ الله كان غفوراً)** لما مضى منكم **(رحيماً)** بكم جميعا، وان لا تصلحوا وتتّقوا فإنّه لا يغفر لكم، ويعذّبكم عذاباً لا رحمة فيه **(وإن يتفرّقا)** بالطّلاق أو الخلع حيث إستصعب الصّلح بينهما **(يغن الله كلاً)** عن الآخر **(من سعته) من** غناه **(وكان الله واسعاً)** غنيّاً **(حكيماً)** يغن كلّ شخص حسب ما تقتضيه حكمته. ثمّ بيّن الله تعالى سعة ملكه وغناه فقال جلّ وعلا:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾

(وَلِلهِ ما في السَّماواتِ وَما في الأرْضِ) كلّها مُلكاً ومِلكاً، فمن كان هذا ملكه فغناه فوق ما يتصوّر، ثمّ أشار تعالى إلى أنّ الأوامر والنّواهي لم توجّه إلينا فقط، بل إنّ الله تعالى أمر كلّ الأمم بالتّقوى، وأعلن غناه عنهم وعن تقواهم كما أعلن ذلك لنا فقال: **(ولقد)** أي والله لقد **(وصّينا)** أمرنا الأمم **(الّذين أوتوا الكتاب من قبلكم)** كلّهم **(وإيّاكم)** فليس هذه التّكاليف والأحكام موجّهة إليكم خاصة، بل أمرنا كلّ الأمم **(أن اتّقوا الله)** بإطاعة أوامره وإجتناب مناهيه، وعدم الإشراك والكفر به **(وإن تكفروا)** فالله مسلّط عليكم ومسيطر، فلا تنجون من عذابه **(فإنّ لله ما في السّماوات)** كلّها **(وما في الأرض)** جميعه، فمن كان هكذا قدرته وسيطرته فلا يعجزه أحد عن أن ينتقم ممن عصاه **(وكان الله غنياً)** عنكم وعن طاعتكم **(حميداً)** كلّ صفاته كاملة وحسنة؛ فعقابه عدل وعفوه فضل.

هذا، وحيث إنّ كثيراً من النّاس يقع في الإنحراف عن منهج الله تعالى خوفاً من النّاس أو طمعاً فيهم، أعاد الله تعالى الإشارة إلى غناه وقدرته، وإنّه هو الّذي يجب أن يطاع ويخاف منه، ويسلّم إليه زمام الأمور وعواقبها كلّها، فقال جلّ وعلا: **(ولله ما في السّماوات وما في الأرض كفى)** واكتف **(بالله وكيلاً)** لك، فكِلْ إليه أمورك وأطعه ولا تعصه، فهو يتولّى أمرك ويعصمك من النّاس بقدرته إن لم تعصه، ويغنك عنهم بفضله وكرمه وهو أرحم الرّاحمين. ثمّ بعد ما وعد الله المطيعين له بأنّه وكيلهم، ويتولّى أمرهم، أنذر بالعذاب غير المطيعين فقال: **(إن يشأ)** الله ينتقم منكم بالهلاك والدّمار **(يذهبكم أيّها النّاس)** بإهلاكه لكم، كما فعل ذلك بالأمم الماضية ويأت باقوام **(آخرين)** مكانهم **(وكان الله على ذلك قديراً)** لا يعجزه أحد عن تنفيذ إرادته، إلّا أنّ الله تعالى

رفع عن هذه الأمّة الإهلاك والدّمار، بل جعل لكلٍ جزاءاً حسب عمله كما قال تعالى: **(من كان يريد ثواب الدّنيا)** فقط وسعى لها سعيها نؤته منها، أي ومن كان يريد ثواب الآخرة نؤته منها ومن يريد كليهما نؤته منهما **(فعند الله ثواب الدّنيا والآخرة)** فيؤتي كلّا حسب سعيه وعمله وبقدر ما شاء وأراد **(وكان الله سميعاً)** بخفايا الأقوال وجهرها **(بصيراً)** بالأعمال من السرّ والعلانية، ويجازى كلاًّ على حسبها إن خيراً فخيراً وإن شرّاً فشرّاً،إلّا أن يعفو ويغفر وهو الغفور الرّحيم. ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن ما يصل النّاس به إلى ثواب الدّنيا والآخرة، وإلى السّعادة في الدّارين، فقال جلّ وعلا:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾

(يا أيّها الّذين آمنوا كونوا قوّامين) جمع قوّام، صيغة مبالغة للقائم، أي كونوا قائمين بشدّة وعاملين بجدّ **(بالقسط)** بالعدل إن كنتم حكّاماً، وإذا كنتم شهداء فكونوا **(شهداء لله)** أي لوجه الله ورضائه، وذلك بأن تشهدوا بالحقّ **(ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين)** ولو كانت الشّهادة تضرّكم أو الوالدين والأقربين، فأدّوها كما هي، ولا تكتموها ولا تغيّروها **(إن يكن)** الّذي تشهد أو تحكم عليه **(غنيّاً)** تريد إرضاءه بكتم الشّهادة أو الحكم عليه أو الشّهادة أو الحكم له زوراً **(أو فقيراً)** تريد الترحّم عليه بالشّهادة أو الحكم له زوراً، أو كتم الشّهادة أو الحكم عليه، فلا حقّ لكم في ذلك، حيث **(فالله أولى)** أشفق بهما منكم، فإذا هو لم يراعهما، بل كتب وفرض أن يشهد ويحكم على الطّرفين بالحقّ كما هو، فلم تراع أنت خلاف رعاية الله تعالى؟ أليس ذلك تمرّداً على الله وذنباً كبيراً بلى، ثمّ بلى **(فلا تتّبعوا)** في الحكم والشّهادة **(الهوى)** أي هواكم حذراً من **(أن تعدلوا)** عن الحقّ فيهما **(وإن تلووا)** بواوين من لوى أي عوج، فمعناه: وإن تحرفّوا وتعوّجوا لسانكم في الحكم، أو الشّهادة عن الحقّ **(أو تعرضوا)** عن الحكم والشّهادة بالحقّ **(فإنّ الله كان بما تعملون)** من هذا الإنحراف والإعراض **(عليماً)** فيعاقبكم عليه عقاباً صارماً، وإن قرئ بواو واحدة فهو من ولي، فمعناه: وإن تقوموا بولاية الحكم والشّهادة بالحقّ **(أو تعرضوا فإنّ الله كان بما تعملون)** من الولاية بالحقّ والإعراض عن الحقّ **(عليماً)** يجازيكم عليه كما تستحقّون.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ﴿١٣٧﴾﴾

(يا أيّها الّذين آمنوا آمنوا) أي إثبتوا على الإيمان ودوموا عليه، واعملوا على مقتضى الإيمان **(بالله ورسوله)** محمّد (ﷺ) **(والكتاب الّذي نزّل)** الله **(على رسوله)** محمّد (ﷺ) **(والكتاب)** جنس، فيشمل كلّ كتاب **(الّذي أنزل)** الله على الأنبياء **(من قبل)** من قبل نزول القرآن على محمّد (ﷺ) فآمنوا هذا الإيمان حيث **(ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ)** عن السبيل المستقيم **(ضلالاً بعيداً)** جدّاً.

ثمّ بعد أن ذكر تعالى أنّ الكفر ضلال بعيد، أراد أن يبين جزاء الكفر؛ فقال جلّ وعلا: **(إنّ الّذين آمنوا)** ودخلوا في الإسلام **(ثمّ كفروا)** وخرجوا من الإسلام **(ثمّ آمنوا)** مرة أخرى **(ثمّ كفروا)** بعد ذلك **(ثمّ ازدادوا كفراً)** أي إستمرّوا على الكفر حتّى ماتوا **(لم يكن الله ليغفر لهم)** أي لم يجعل الله من حكمته أن يغفر لهم في الآخرة **(ولا يهديهم)** ولا ليوصلهم في الدّنيا جبراً **(سبيلاً)** أي إلى سبيل الحقّ والهداية، بل يتركهم على إختيارهم الكفر ليستحقوا العذاب الأليم. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حال الكافرين كفراً صريحاً، أراد أن يذكر حال المنافقين فقال جلّ وعلا:

﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ﴿١٣٩﴾ وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾

(بشر) أيّها النّبيّ وأيّها المسلم **(المنافقين بأنّ لَهُمْ عذاباً أليماً)** أي مؤلماً وموجعاً، وعبّر تعالى عن الإخبار بالعذاب بالبشارة إستهزاء وتهكّماً بهم، والمنافق هو الّذي يظهر

الإسلام ويبطن الكفر، ولذلك لا يعرفون، فذكر تعالى من أوصافهم ليعرفوا فقال جل وعلا: (**الّذين يتّخذونَ الكافرين أوْلياء**) أصدقاء (**مِنْ دون المؤمنين**) غير المؤمنين، والآية ناهية عن مصادقة الكافرين مطلقاً، سواء أكانت مع مصادقة المؤمنين أو بدونها، والمراد بالكافرين هنا، الكافرون الّذين يعادون الإسلام والمسلمين ويتربصون بهم الدوائر، ويغتنمون الفرصة للنّيل منهم، ولكنّ الكافرين المسالمين يجوز مصادقتهم مصادقة دنيويّة لا دينيّة، لقوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ سورة الممتحنة الآية/ ٨. وكان هؤلاء المنافقون يصادقون الكافرين حماية على أنفسهم ونصرة لها ويقولون: لا يتمّ أمر محمّد، فرد الله تعالى عليهم فقال جلّ وعلا: (**أيَبْتَغونَ**) أيرجون (**العزّةَ**) النّصر والمنعة (**عِنْدَهُمْ**) عند الكافرين فلذلك يصادقونهم والإستفهام للإنكار، فالمعنى: مستنكر هذا الأمل منهم والرّجاء حيث (**فإنّ العزّةَ للهِ جَميعاً**) فكيف يبتغون العزّة من الكافرين، فليطلبوا العزّة من الله تعالى وحده.

ثمّ ذكر تعالى للمنافقين خصلة قبيحة أخرى تدل على نفاقهم بوضوح، فقال جلّ وعلا: (**وقَدْ نَزّلَ عَلَيْكُمْ**) أيّها المسلمون (**في الكِتاب**) وهو القرآن (**أنْ**) أي أنّه (**إذا سَمعْتُمُ آياتِ اللّه يُكفرُ بها**) عند قوم (**ويُسْتَهزأ بِها**) عندهم (**فَلا تَقْعدوا مَعَهُمْ**) في المجالس واتركوهم (**حَتّى يَخوُضوا في حديثٍ**) في كلام (**غيره**) غير الكلام الّذي يدور حول الإستهزاء بآيات الله تعالى (**إنّكم إذاً**) التنوين عوض المضاف إليه فالتقدير أنكم إذا شاركتموهم في الكلام أو لم تخرجوا من مجلسهم إنكاراً لما فعلوا، فأنتم (**مِثلُهُم**) في الكفر والإثم (**إنّ اللهَ جامعُ المنافقين**) أمثالكم (**والكافرينَ في جَهَنَّم جَميعاً**) مجتمعين، حيث اجتمعوا في مجالس الإستهزاء بآيات الله تعالى، والأمر الّذي نزل في الكتاب بعدم مشاركة الّذين يستهزئون بآيات الله تعالى هو قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ سورة الأنعام الآية/ ٦٨.

والمراد بآيات الله تعالى آيات القرآن الكريم وأحكام الله الموجودة في الكتاب والسّنة ومعجزاته، والآية هذه سارية المفعول في كلّ وقت، ففي زماننا هذا يستهزئ كثير من النّاس بأحكام الله تعالى كالحجاب وتحريم الرّبا وعدم خلوة الرّجال بالنّساء وعدم الإختلاط بدون حشمة، وحرمة المصافحة معهن، وغير ذلك من أحكام تخالف تقاليد الأجانب الّتي دخلت في بلادنا، والّتي تروّج باسم الحضارة والتّمدن، فهؤلاء كفرة

والمسلم الجالس معهم والّذي لا ينكر عليهم منافق، وحفظنا الله من الخصلتين آمين. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر صفات أخرى للمنافقين ليُعرفوا فقال جلّ وعلا:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾

(**الَّذينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ**) ينتظرون أن تدور بكم الدوائر فتهلكوا، ثمّ بعد أن دارت بكم مصيبة القتال (**فَإِنْ كَانَ**) أي حصل (**لَكُمْ فَتْحٌ**) لبلدة ونصر (**مِنَ اللَّهِ**) على الأعداء وغنائم (**قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ**) ويطلبون الغنيمة منكم (**وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ**) من الغلبة (**قَالُوا**) لهم (**أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ**) أي ألم نسيطر عليكم فلم نقاتلكم (**وَنمنعكُمْ مِنَ الْمُؤْمنينَ**) بأن ثبّطناهم، ويقال: إنّ المعنى: ألم نستول عليكم بإرشادكم إلى عدم الإيمان، وأنّ أمر محمّد سيضعف، ونمنعكم من الدخول في دين (**الْمُؤْمِنينَ**)، فالآن قد غلبتم عليهم فأتونا نصيباً من الغنيمة (**فاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ**) أيّها المؤمنون وبين المنافقين (**يَوْمُ القيامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ**) في ذلك اليوم (**لِلْكَافِرِينَ عَلىَ الْمُؤْمِنينَ سبيلاً**) أي حجةً (**إنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ**) أي يخادعون المؤمنين، وعبّر عنه كذلك إشارة إلى أنّ إرادة أية إساءة إلى المؤمنين هي إساءة إلى الله تعالى (**وَهُوَ خَادِعُهُمْ**) أي الله يعاقبهم على خداعهم هذا تجاه المؤمنين (**وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاة قَامُوا كُسَالَى**) لأنّهم لا يؤمنون بها (**يُراءُونَ النّاسَ**) فهم يصلون خداعاً وتستّراً من المؤمنين (**وَلا يَذْكُرُونَ اللَّه**) في الصّلاة (**إلّا قَليلاً**) وبقدر ما يخدعون به المؤمنين (**مُذَبْذَبينَ**) أي متردّدين (**بَيْنَ ذَلِكَ**) أي بين الكفر والإيمان (**لا إِلَى هُؤلاءِ**) الكفرة يميلون كليّاً فيكفروا سراً وعلانية (**وَلا إِلى هؤلاءِ**) المؤمنين يميلون فيؤمنوا بصدق وإخلاص في السّر والعلانية، فهذا هو الضّلال (**وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهَ**) إياه لخبث طويّته وسوء نيّته وعدم إرادته الإيمان الصّادق (**فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبيلاً**) إلى الهداية والوصول إلى الحقّ والصّراط المستقيم. ثمّ بعد أن ذمّ الله تعالى

النّفاق والمنافقين، أعاد على المؤمنين النّهى عن مصادقة الكفار، حيث إنّها من النّفاق فقال جلّ وعلا:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾

(**يَا ايُّهَا الّذينَ آمَنوا لا تَتّخِذوا الكَافِرينَ أولَياءَ**) أصدقاء (**مِنْ دون المؤمِنينَ**) فإنّ ذلك هو النّفاق (**أتُريدونَ**) بولايتكم وصداقتكم للكافرين (**أنْ تَجْعَلوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً**) حجّة وسببا للعذاب (**مُبيناً**) واضحاً تلكم الحجة في حقيّة عذاب الله لكم وإستحقاقكم للعذاب، والإستفهام للإنكار أي لا تسلكوا سبيلاً يكون سبباً لعذابكم عند الله تعالى، ثمّ بيّن تعالى العذاب الّذي يستحقّه المنافق الّذي يصادق الكافرين فقال جلّ وعلا: (**انَّ المنَافِقينَ**) أي والمنافقات (**في الدَّرْكِ الأسْفَلِ**) الدّرك إلى السّفل كالدّرج إلى العلوّ، فالمنافق في أسفل الدّركات (**مِنَ النَّارِ**) في جهنّم (**ولَنْ تـجدَ لَهُمْ نَصِيراً**) ينقذهم من هذا العذاب (**إلّا الَّذِينَ تَابُوا**) ورجعوا عن النّفاق وتركوه (**وَأَصْلَحوا**) نيّاتهم وأعمالهم (**واعْتَصَمُوا**) وتمسّكوا (**باللّهِ**) أي بدينه (**وأخْلَصوا**) وهذبوا (**دِينَهُمْ**) من النّفاق والرّياء (**فأُولٰئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ**) يوم القيامة في الفضل والثّواب. ثمّ بيّن الله تعالى ما للمؤمنين فقال: (**وَسَوْفَ يُؤتِ اللهُ ٱلْمُؤمِنينَ أجْراً عَظِيمَاً**) أجراً لا يدرك مداه إلّا الله ربّ العالمين. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى عذاب الكافرين والمنافقين، أراد أن يبيّن أنّ الله تعالى لا يعذّب النّاس للتّشفي أو لجلب نفع إلى ذاته أو رفع ضرر عنه، بل إنّه أمركم بأشياء تجلب إليكم الخير ونهاكم عن أشياء تضرّكم، فلذلك يعذّبكم على ترك الخير والتّمسك بالشّر فقال جل وعلا:

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾

(**ما يَفْعَلْ اللهُ بعذابكم**) الإستفهام للإنكار أي لا يفعل الله بعذابكم جلب خير له ولا دفع شرّ عنه، ولا تشفّياً لنفسه، فإنّه غنيّ عن كلّ شيء، بل إنّما فرض عليكم

العذاب ليسوقكم به إلى ما ينفعكم ويمنعكم مما يضرّكم، ولذلك لا يعذّبكم **(إِنْ شَكَرْتُمْ)** نعمه فاستعملتموها في السّبل المشروعة **(وَآمَنْتُمْ)** بالمنعم بها[١] فأطعتموه في جلب الخير لكم ودفع الشّر عنكم بإمتثال الأوامر وإجتناب المناهي **(وكَانَ اللَّهُ)** ولا يزال **(شَاكِرَاً)** يجزي من شكره **(عَلِيمَاً)** بمن **شكر** فيثيبه ومن كفر فيعاقبه. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى قبح النّفاق وشناعته، والنّفاق إسرار للقول بالسّوء وهو الكفر، أراد تعالى أن يذكر أنّه تعالى كما يكره الإسرار للقول بالسّوء، يكره الجهر به أيضاً فقال جلّ وعلا:

﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ ﴾

(لا يُحِبُّ اللّهَ الجَهْرَ بالسّوء) والإعلان بالسّوء **(مِنَ القَوْلِ)** جمع، فيشمل جميع الأقوال السيئة[٢] مثل الكفر وما دونه. فالله يكره تلك الأقوال أن يجهر بها، كما يكره أن يسرّ بها **(إلَّا مَنْ ظَلِمَ)** فلا يكره تعالى جهره بالقول بالسّوء من شكايته من ظلم من ظلمه، فذلك يحبّه الله تعالى ليرتدع الظّالم عن ظلمه وفي قراءة **(مَنْ ظَلَمَ)** بفتح الظّاء، فيكون المعنى أنّه يجوز الإعلان والإخبار بظلم من ظلم جهراً؛ ليرتدع الظّالم عن ظلمه، والمراد بالظّلم كلّ ما كان فسقاً، فيجوز ذكره وذكر فاعله والتّشهير به ليرتدع، قال الشّاعر:

القدح ليس بغيبة في ستّةٍ ... متعرّف متظلّم ومحذّر
ولمظهر فسقاً ومستفت ومن ... طلب الإعانة في إزالة منكر

---

(١) وهو الله تعالى.

(٢) الجهر بالسوء يشمل كل ما يطعن في أخلاق شخص أو مجتمع، كما يشمل ما يسبب تدمير الأخلاق العامّة للمجتمع كالمفسد والفواحش الّتي تعرض على القنوات الفضائية وغيرها من وسائل الإعلام. منعها الإسلام ومنع الجهر بها؛ لأنّ السّوء والفحشاء كالأمراض المعدية، ذكرها وإبرازها يؤدي إلى انتشارها فيعدي المجتمع كله، لذلك وصى الله تعالى بكتمان الإفك في سورة النّور:(وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦)) ومن هذا المنطلق حرم الغيبة والنّميمة وحرّم أن يتحدث بأسرار ما بين الزّوجين كما حرّم وصف المرأة المراة للآخرين كأنّهم ينظرون إليها، وطلب لإثبات الزّنا ما يصعب وجدانه وهو أربعة شهداء؛ ليس إلّا للتّستر على هذا الأمر وعدم إظهاره. واعتبر الحديث في مثل هذه السّيئات نشرا للفاحشة، ورتّب عليها عذابا، فقال تعالى في السّورة نفسها: **(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩))**، . من هنا نرى مدى خباثة الّذين يخالفون ويتقصّدون نشر السّوء والرّذيلة بغية تدمير المجتمعات عقيدة وخلقا وكيانا.

فالمظهر لفسقه يجوز الجهر والإعلان بفسقه ليرتدع أو ليمنعه الحاكم أو المجتمع أو ليتحرز النّاس عنه. **(وَكانَ اللّهُ سَميعاً)** بأقوالكم سرّها وجهرها **(عليماً)** بأعمالكم ظاهرها وباطنها، فيجازيكم عليها. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى الجزاء على الأقوال والأعمال السّيئة، أراد أن يذكر الثّواب على الأقوال والأعمال الحسنة، فقال جلّ وعلا:

﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾

(إنْ تُبْدُوا) أي إن تُظهروا فتعملوا عملاً **(خَيْرَاً)** في العلن **(أوْ تُخْفُوهُ)** فتعملوه سرّاً **(أوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ)** أحد عمله تجاهكم **(فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ)** في الأزل ولا يزال **(عَفُوًّاً)** عمّن عفا ومثيباً من عمل خيراً سرّاً أو علناً **(قَديرَاً)** على ذلك لا يعجزه شيء عن إرادته. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى مساوئ المنافقين أراد أن يذكر مساوئ الكافرين من أهل الكتاب وغيرهم فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾

(إنَّ الّذينَ يَكْفُرُونَ باللَّهِ وَرُسُلِهِ) ثمّ بيّن تعالى كيفيّة الكفر بالله ورسله، فقال: **(ويُريدُونَ أنْ يُفَرّقُوا بَيْنَ اللَّهِ ورسلِهِ)** بأن يؤمنوا بالله ولا يؤمنوا برسله، فتفيد الآية بأنّ الكفر بالرّسل كفر بالله تعالى، أي لا يقبل منه هذا بدون ذلك، وهذا مثل منكري النّبوة والرّسالة من الله تعالى إلى العباد **(ويَقُولونَ نُؤمِن بِبَعْضٍ مِن الرُسل وَنَكفُرَ بِبَعْضٍ)** منهم، وذلك مثل اليهود ويؤمنون ببعض الرّسل ويكفرون ببعض، حيث كفروا بعيسى ومحمّد (ﷺ) ومثل النّصارى كفروا بمحمّد (ﷺ)، وهذا يفيد أنّ الكفر برسول واحد هو كفر بجميع الرّسل وبالله تعالى، أي لا يقبل منه ذلك الإيمان لأنّه ليس بصحيح؛ إذ من شرط الإيمان بالله الإيمان بالرّسل، ومن شرط الإيمان بالرّسل الإيمان بكلّهم **(ويُريدُونَ أنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ)** بين الإيمان بالكلّ والكفر بالكلّ **(سَبيلاً)** وسطاً، وهو الإيمان

بالبعض والكفر بالبعض، فذلك السّبيل لا يقبل منهم، لأنّ شرط الإيمان هو الإيمان بكلّ الرّسل دون تفريق، ولذا قال تعالى: (**أولئِكَ هُمُ الكافِرونَ حَقّاً**) أي بدون شّك، وهذه الآية قاصمة لظهر من يبثّون عقيدة باطلة، وهو أنّ اليهود والنّصارى ليسوا كافرين، ما داموا يؤمنون بالله تعالى، وهؤلاء شياطين الماسونيّة والتّبشير، فهم كافرون لأنّهم يكذّبون هذه الآية فيكفرون، فهم واليهود والنّصاري هم الكافرون حقاً بدون شكّ وريب (**وأعْتَدْنَا**) وهيّأنا (**لِلكَافِرينَ**) هؤلاء وغيرهم وبأي وجه كان الكفر (**عَذاباً مُهيناً**) يوم القيامة (**الّذينَ آمنوا**) إيماناً صحيحاً (**ولَم يُفَرِّقوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ**) أي من الرّسل في الإيمان به بل آمنوا بكلّهم (**أولئِكَ سَوْفَ يُؤتيهِمْ**) أي الله وفي قراءة (**أُجُورَهُمْ**) أي ثواب أعمالهم (**وكَانَ اللّهُ غَفُوراً**) يغفر ذنوبهم (**رَحيمَاً**) بهم في مغفرته لهم، ويتمسّك المرجئة بهذه الآية في أنّ ذنوب المؤمن مغفورة، ولا يضرّ ذنب مع الإيمان، ويردّ عليهم بأنّ كلّ مغفرة وردت في القرآن الكريم مقيّدة بمن شاء بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ سورة النّساء الآية/ ٤٨. إذ المطلق يحمل على المقيّد تقرّر ذلك في علم الأصول. ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن تعنّت أهل الكتاب وتمرّدهم على الحقّ فقال جلّ وعلا:

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾

(**يَسْأَلُكَ أَهْلُ الكِتَابِ**) إذا ذكر أهل الكتاب فالمراد بهم اليهود والنصارى، إلّا أن تكون قرينة تخصّ باليهود، كما في هنا فالمراد (**يَسْأَلُكَ**) اليهود تعنّتاً (**أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ**) على كلّ واحد من رؤسائهم (**كِتاباً مِنَ السَّمَاءِ**) إليهم شخصيّاً ويأمرهم بالإيمان بك أيّها النّبيّ فحينئذٍ يؤمنون، فلا تحزن من تعنّتهم هذا، ولا تتعجّب، لأنّ هذا ديدنهم وجبلّتهم (**فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ**) الّذي طلبوا منك (**فَقَالُوا**) لموسى (**أرِنَا اللّهَ**) تعالى

(جَهْرَةً) فننظر إليه وإلّا فلا نؤمن بك **(فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ)** فأماتتهم **(بِظُلْمِهِمْ)** أي بسبب تجاوزهم الحدّ من التّعنّت والتّمرد والتّشدد على رسول الله(ﷺ) **(ثُمَّ اتَّخَذُوا العِجْلَ)** إلهاً لهم؛ فعبدوه دون الله تعالى حينما غاب عنهم موسى، وذهب إلى الطّور لمناجاة ربّه، وفعلوا كلّ هذه الجرائم **(مِنْ بِعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ)** الدّلائل الواضحة والمعجزات الباهرة على رسالة موسى (على نبينا وعليه الصلاة والسلام) **(فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ)** كلّه وأحييناهم بعد موتهم بالصّاعقة **(وَآتَيْنَا موسَى سُلْطَانَاً)** قوّة وسيطرة وغلبة عليهم وإستيلاءً **(مبِينَاً)** واضحاً لم يستطيعوا بعد ذلك معاندة موسى والتّمرد عليه، وفي ذلك بشارة بأنّ الله سيقوّي الرّسول ويعطيه الغلبة عليهم، فلا يستطيعون الخلاف والشّقاق، وقد فعل ذلك **(وَرَفَعْنَا فَوقَهُمُ الطُّورَ)** إسم جبل **(بِميثَاقِهِمْ)** الباء للعليّة أي لأخذ الميثاق منهم، فيخافوا من وقوع الجبل عليهم فيعطوا الميثاق ولا ينقضوه فنقضوه **(وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا ٱلْبَابَ)** أي باب بلدة ايلياء حينما فتحها الله تعالى عليكم **(سُجَّدَاً)** متواضعين، فخالفوا ذلك أيضاً فدخلوا متكبرين **(وَقُلْنَا لَهُمْ لا تَعْدُوا)** أي لا تتجاوزوا حكم الله بالصّيد للأسماك في يوم السَّبْتِ، فخالفوا وصادوا الأسماك فيه **(وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقَاً غَلِيظَاً)** بإمتثال الأوامر، فنقضوا الميثاق وخالفوا كلّ الإوامر، وهكذا ديدن اليهود وهذه طويتهم وخبثهم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر عاقبة مخالفاتهم هذه فقال جلّ وعلا:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾

(فَبما نَقْضِهِمْ) الباء للسّببية و**(ما)** قال المفسّرون إنّها زائدة، فالمعنى فبسبب نقضهم غضبنا عليهم ولعنّاهم، والقرينة على الحذف هي أنّ هذه الصّفات تستوجب الغضب واللّعن.

وعندي: إنّ القول بزيادة شيء في القرآن الكريم يقدح في بلاغته وهو باطل

فالأحسن أن نقول: **(ما)** بمعنى شيء عبر عنه بما يفيد الإبهام لأنّ في الإبهام التّعظيم فالتّقدير: فبسبب شيء عظيم لعناهم. ثمّ بين ذلك بأن أتى بعده بما هو بيان له فالمعنى: وبسبب شيء عظيم مثل **(نَقْضِهِمْ ميثاقَهُمْ)** الّذي أخذ منهم **(وكُفْرِهِمْ بآياتِ الله)** أي معجزات الله تعالى الّتي أوتيت موسى وعيسى ومحمّد (ﷺ)، أو المعنى: وكفرهم بأحكام الله أي عدم العمل بها، أو المراد كلاهما حيث لا منافاة، وإنّ كلا الأمرين وجد فيهما **(وقتلهم الأنبياء)** فعلاً كزكريا ويحيى، وقصداً لعيسى ومحمّد (عليهم الصلاة والسلام) **(بغير حقّ)** سوى أن دعوهم إلى الحقّ ونهوهم عن الباطل وقولهم: **(قلوبنا غلف)** فعلنا بهم ما فعلنا من اللّعن والغضب. ثمّ أتى الله تعالى بجملة معترضة بين ذكر صفاتهم للرّد على قولهم: **(قلوبنا غلف)** جمع غلاف أي قلوبنا مليئة بالعلم، فلا حاجة بنا إلى إرشادك فقال تعالى: **(بل)** أي كذّبوا في إدعائهم أنّ قلوبهم مملوءة بالعلم، ولذلك لا يدخل فيه ما يرشدهم الرّسول، بل السّبب في أنّهم لا يؤثر فيهم دعوة الرّسول أنّه **(طبع الله)** أي ختم الله **(على قلوبهم)** بسبب تعنّتهم وتمرّدهم وخبثهم **(فلا يؤمنون)** بسبب ذلك الختم **(إلّا قليلاً)** منهم كعبدالله بن سلام ومن معه **(وبكفرهم)** بعيسى (عليه السلام) **(وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً)** بنسبة الزّنا إليها وقولهم إن عيسى (عليه السلام) ولد من الزّنا **(وقولهم)** كذباً وافتراءً: **(إنّا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم)** سمّي مسيحاً؛ لأنّه كان يمسح المرضى بيده فيطيبون، فهو إذاً فعيل بمعنى الفاعل، أو لأنّه مسحه جبريل بالبركة، فهو فعيل بمعنى مفعول، أي ممسوح، فيقولون نحن قتلنا المسيح **(رسول الله)** عند النّصارى والمسلمين **(وما قتلوه وما صلبوه ولكن)** قالوا ذلك حيث **(شبّه لهم)** شخص آخر بعيسى فقتلوه، لأنّهم ظنّوا أنّه عيسى، وقد ذهبوا ليقتلوا عيسى (عليه السلام) وإنّ قصة قتلهم للشّبه تأتي إن شاء الله تعالى **(وإنّ الّذين اختلفوا فيه)** أي في قتل عيسى من اليهود حيث قالوا الوجه وجه عيسى والبدن ليس ببدنه، فتردّدوا فيه وإنّهم **(لفي شك منه)** من قتلهم له **(ما لهم به)** بالقتل **(من علم)** قطعي **(إلّا اتّباع الظّن)** وهو مشابهة المقتول لعيسى **(وما قتلوه)** حينما قتلوه **(يقيناً)** متيقّنين أنّه عيسى، بل قتلوا شبيهه ظنّاً منهم أنّه هو.

وقصّة قتل شبيه عيسى(عليه السلام) اختلفت الرّوايات فيها، أصوبها ما ذكره عبد الوهاب النّجار في كتابه قصص الأنبياء وإليك نصها: إنّ سيّدنا المسيح(عليه السلام) قد أحرج الكهنة والقدّيسين بتعليمه وتجريحه إيّاهم في طريقتهم وفضح ريائهم وخبثهم، فأخرجهم ذلك إلى الكيد له وتدبير قتله، فلمّا أجمعوا على هذا الأمر شكوا أمره إلى الوالي وزيّنوا شكواهم بأنّ عيسى (على نبّينا وعليه الصّلاة والسّلام) يقول: إنّه ملك اليهود وإنّهم لا

يقرّون بملك سوى قيصر، فأرسل الوالي جنداً للقبض على المسيح، فلمّا أتوا ولم يبق إلّا القبض عليه، خشي المسيح أن ينالوه بالأذى، فأنقذه الله تعالى من شرّهم، وذلك بأن ألقى شبهه على شخص آخر عُلم فيما بعد أنّه تلميذه المنافق الخائن. وفي الأناجيل أنّه يهوذا الأسخريوطي، فأصبح كلّ من يراه، لا يشكّ في أنّه يسوع (ﷺ)، فأخذ يهوذا وصلب وقتل، ونجا المسيح من شرّهم، وشاع في النّاس أنّه قتل المسيح، وإنّما قتل شبهه يهوذا، وهذا ما قاله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ وأمّا عيسى فأين ذهب وماذا صار عليه، فقال تعالى مخبراً عن ذلك: **(بل)** أي لم يقتلوه **(بل رفعه الله)** تعالى **(إليه وكان الله عزيزاً)** غالباً على أمره لا يعجزه عن أن يرفع عيسى إليه ويلقي شبهه على عدوّه فيقتل مكانه **(حكيماً)** ذو حكمة عظيمة في تقديراته وقضائه، وهل رفع عيسى حياً أو ميتاً؟ وبروحه وجسده أو بروحه فقط؟ وهل يرجع قبل يوم القيامة ويقتل الدّجال أم لا؟ في كلّ ذلك خلاف ذكرته في سورة آل عمران عند قوله تعالى. ﴿يَاعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ وذلك ليس على الله بعزيز، فأمر عيسى كلّه معجزة ولادةً وموتاً وحياةً وبعثاً، فسلام عليه يوم ولد ويوم مات أو يموت ويوم يبعث حياً.

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾

(وإن) أي وليس أحد **(من أهل الكتاب)** وهم اليهود الكافرون بعيسى **(إلّا ليؤمننّ به)** أي بعيسى أنّه رسول من الله تعالى **(قبل موته)** قبل أن يموت ذلك الشّخص؛ فإنّه قبل الموت يكتشف للإنسان الحقّ فيعانيه، فيؤمن بالحقّ إلّا أنّه لا ينفعه، ذلك الإيمان لأنّه إيمان حال اليأس **(ويوم القيامة يكون)** عيسى(ﷺ) **(عليهم)** على أهل الكتاب وكفرهم به **(شهيداً)** يشهد عليهم عند الله، وقد استدل بعض النّاس بهذه الآية، على نزول عيسى من آخر الزّمان، وأنّه حينئذ يؤمن أهل الكتاب كلّهم، وهذا الإستدلال بعيد لأنّ الآية عامّة في حق أهل الكتاب كلّهم في زمانه وبعد غيبته إلى يوم القيامة، وعلى تفسيرهم هذا لا تشتمل إلّا الموجودين في آخر الزّمان والله تعالى أعلم.

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا

لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾

(فبظلم) أي فبسبب ظلم كثير صدر **(من الّذين هادوا)** وهم اليهود **(حرّمنا عليهم)** عقاباً على ظلمهم **(طيّبات أحلّت لهم)** قبل ظلمهم، وتلك الطيبات ذكرها الله تعالى: ﴿وعلى الّذين هادوا حرّمنا كلّ ذي ظفر، ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شُحُومَهُمَا إلّا ما حملت ظهورهما أو الحوايا، أو ما إختلط بعظم، ذلك جزيناهم ببغيهم وإنّا لصادقون﴾ سورة الأنعام الآية/١٤٦. **(وبصدّهم)** وبمنعهم **(عن)** الدّخول في **(سبيل الله)** أي دينه وهو الإسلام **(كثيراً)** من النّاس أي وبصدهم هذا: حرّمنا .... إلخ، **(وأخذهم)** أي بأخذهم **(الرّبا وقد نهوا عنه)** في التّوراة **(وأكلهم)** أي بأكلهم **(أموال النّاس بالباطل)**، فالحاصل أنّ اليهود عملوا أعمالاً أربعة: الظّلم وصدّ النّاس عن الإيمان وأكل الرّبا وأكل أموال النّاس بالباطل. فبسبب هذه الأمور الأربعة عاقبهم الله تعالى في الّدنيا بأن حرّم عليهم هذه الطّيّبات، ويعاقبهم في الآخرة بالعذاب الأليم، كما قال تعالى: **(وأعتدنا للكافرين)** أي واعتدنا لهم أي اليهود بسبب هذه الأعمال **(عذاباً أليماً)** إلّا أنّه وضع لفظ الكافرين موضع الضّمير وهو **(هم)** يفيد أنّهم كفروا بهذه الأعمال، وذلك لأنّ صدّ النّاس عن الإيمان كفر والظّلم وأكل الرّبا وأموال النّاس بالباطل كفر أيضاً، عند من يقول: إنّ مرتكب الكبائر كافر، وكفر أيضاً عند أهل السّنة والجماعة إذا كان على سبيل الإستحلال، واليهود قد استحلّوا هذه الأعمال، فلذلك كفروا بالإتفاق. ثمّ بعد أن أنذر الله هؤلاء المتّصفين بهذه الصّفات من اليهود بالكفر والعذاب الأليم، بشّر الّذين آمنوا منهم بالثّواب الجزيل والأجر العظيم، فقال جلّ وعلا: **(لكن)** مخففة من الثّقيلة فإسمها ضمير شأن مقدّر تقديره لكن، هو أي الشّأن **(الرّاسخون في العلم منهم)** من اليهود وكعبد الله بن سلام ومن آمن مثله **(والمؤمنون)** إيمانا صادقاً بالتّوراة **(يؤمنون بما أنزل إليك)** وما يصدّون النّاس عنه **(و)** يؤمنون **(بما أنزل من قبلك)** وهو التّوراة ثمّ حيث إنّ الإيمان صفة قلبية لا تعرف إلّا بما تورثه من الأعمال والصّفات الدّالة عليها، قال تعالى: **(والمقيمين)** الواو للعطف والعطف للبيان، فالمعنى وأعني بالمؤمنين **(المقيمين الصّلاة)** أي المؤدّين للصّلاة والآمرين بها ذويهم وأهلهم ومن هو تحت ولايتهم **(و)** هم

(المؤتون الزّكاة) قرن الله تعالى بينهما بهذا الأسلوب لأنّ الصّلاة علامة على الإيمان والزّكاة علامة على الصّدق في الصّلاة، فمنْ ترك الصلاة مجهول الإيمان، والمصلي الّذي لا يؤدي الزّكاة مردودة صلاته، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ سورة الماعون الآيات/ ٤ ـ ٧. **(والمؤمنون)** أي وهم المؤمنون بالله واليوم الآخر، وأشار تعالى بهذا إلى أنّه كما لا عبرة بالإيمان بدون الأعمال فكذلك لا عبرة للأعمال بدون الإيمان بالله واليوم الآخر، واقتصر تعالى في ذكر الأعمال على الصلاة والزكاة مع أنّ أعمال الإسلام كثيرة جداً؛ لأنّ الصّلاة رمز للأعمال البدنية كلّها، والزّكاة رمز للأعمال المالية جميعها، فالمعنى: وقاموا بالأعمال البدنيّة والماليّة فأدوها كاملة صحيحة، كما واقتصر في الإيمان على الإيمان بالله واليوم الآخر فقط، وإن كان ما يجب الإيمان به أكثر من ذلك لأنّ الإيمان بهما يستلزم الإيمان بسائر ما يجب الإيمان به، والقرآن يحبّ الإيجاز لأنّ الإيجاز من البلاغة بمكان والله أعلم **(أولئك)** أي هؤلاء المؤمنون والمصلّون والمزكّون **(سنؤتيهم)** يوم القيامة **(أجراً عظيماً)** جداً لا يعرف مقدار عظمته إلّا الله تعالى.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعنّت اليهود وتمرّدهم على الرّسول وطلبهم منه خوارق كونيّة حسب ما يشتهون، أراد تعالى أن يذكر أنّ النّبوّة والرّسالة ليست أمراً جديداً بل هو أمر متعارف بين بني الإنسان، وقد جاءهم رسل كثيرون، فلماذا يتعجّبون من رسالتك ونبوّتك، وإنّ لكلّ رسول معجزات تخصّه وحسبما يختارها الله تعالى له، لا حسبما يطلبها النّاس، فلماذا يريدون منك خوارق كما يخترعونها، إنْ هذا إلّا تعنّت وشقاق وضلال، فقال جلّ وعلا:

﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾

(إنّا أوحينا إليك) يا محمّد **(كما أوحينا إلى نوح والنّبيّين من بعده)** وهم كثيرون

(المؤتون الزّكاة) قرن الله تعالى بينهما بهذا الأسلوب لأنّ الصّلاة علامة على الإيمان والزّكاة علامة على الصّدق في الصّلاة، فمنْ ترك الصلاة مجهول الإيمان، والمصلي الّذي لا يؤدي الزّكاة مردودة صلاته، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ سورة الماعون الآيات/ ٤ ـ ٧. **(والمؤمنون)** أي وهم المؤمنون بالله واليوم الآخر، وأشار تعالى بهذا إلى أنّه كما لا عبرة بالإيمان بدون الأعمال فكذلك لا عبرة للأعمال بدون الإيمان بالله واليوم الآخر، واقتصر تعالى في ذكر الأعمال على الصلاة والزكاة مع أنّ أعمال الإسلام كثيرة جداً؛ لأنّ الصّلاة رمز للأعمال البدنية كلّها، والزّكاة رمز للأعمال المالية جميعها، فالمعنى: وقاموا بالأعمال البدنيّة والماليّة فأدوها كاملة صحيحة، كما واقتصر في الإيمان على الإيمان بالله واليوم الآخر فقط، وإن كان ما يجب الإيمان به أكثر من ذلك لأنّ الإيمان بهما يستلزم الإيمان بسائر ما يجب الإيمان به، والقرآن يحبّ الإيجاز لأنّ الإيجاز من البلاغة بمكان والله أعلم **(أولئك)** أي هؤلاء المؤمنون والمصلّون والمزكّون **(سنؤتيهم)** يوم القيامة **(أجراً عظيماً)** جداً لا يعرف مقدار عظمته إلّا الله تعالى.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعنّت اليهود وتمرّدهم على الرّسول وطلبهم منه خوارق كونيّة حسب ما يشتهون، أراد تعالى أن يذكر أنّ النّبوّة والرّسالة ليست أمراً جديداً بل هو أمر متعارف بين بني الإنسان، وقد جاءهم رسل كثيرون، فلماذا يتعجّبون من رسالتك ونبوّتك، وإنّ لكلّ رسول معجزات تخصّه وحسبما يختارها الله تعالى له، لا حسبما يطلبها النّاس، فلماذا يريدون منك خوارق كما يخترعونها، إنْ هذا إلّا تعنّت وشقاق وضلال، فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾

(إنّا أوحينا إليك) يا محمّد **(كما أوحينا إلى نوح والنّبيّين من بعده)** وهم كثيرون

(وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط) وهم حفدة يعقوب من أنبياء بني إسرائيل **(وعيسى وأيّوب ويونس وهارون)** وهؤلاء ومن بعدهم وإن كانوا من بني إسرائيل إلّا أنّهم ذُكروا بإسمهم الخاصّ لإشتهارهم ولزيادة صلتهم باليهود، فقال **(وسليمان)** فهؤلاء أوصى إليهم بإتّفاق جميع الملل، فالوحي أمر ثابت ومعروف، فلماذا يتعجّبون وينكرون أن يوحى إليك **(وآتينا داود زبوراً)** وهذا أيضاً متّفق عليه، فنزول الكتب على الأنبياء أيضاً أمر ثابت ومعروف، فلماذا ينكرون ويتعجّبون حينما ينزل عليك القرآن **(ورسلاً)** أي وأرسلنا رسلاً كثيرين **(قد قصصناهم)** وذكرنا أحوالهم وتلوناهم **(عليك)** في القرآن والسّنة ممن ذكروا في القرآن أو في الأحاديث الصّحيحة **(من قبل)** أي من قبل نزول هذه الآية **(ورسلاً)** كثيرين **(لم نقصصهم عليك)** إلى الآن، فالرّسالة للرّسل أمر ثابت ومعروف يقرّ به جميع الملل، فلماذا يتعجّبون من رسالتك وينكرونها.

(وكلّم الله موسى) بدون واسطة جبريل والملك **(تكليماً)** وهذا أعجب من الوحي، فلماذا يتعجّبون أن يوحى إليك وينكرونه، وهؤلاء كلّهم أرسلناهم **(رسلاً مبشّرين ومنذرين)** فقط، وكلّفناهم التّبشير والإنذار لاغيرهما، وما كلفناهم أن يأتوا بالنّاس إلى الإيمان بقوّة الخوارق الكونيّة وما أعطيناهم المعجزات حسب ما يقترح النّاس بل حسب إختيارنا. وهذا معروف لديهم. فلماذا يطلبون منك أن تأتي لهم بالخوارق حسبما يريدون؟ أليس هذا تعنّتاً وتجهلاً عن خصائص الرّسل و الأنبياء وضلالاً سافراً وشقاقاً؟ ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن حكمة إرسال الرسل مبشرين بالجنّة لمن إستقام على الحقّ وعمل به، ومنذرين بالنّار لمن غمط الحقّ وبطر وخرج عن نظام الله تعالى ومنهجه، فقال جلّ وعلا: **(لئلّا)** أي أرسلنا الرّسل ليبشّروا وينذروا **(لئلّا)** لكي لا يكون **(للنّاس على الله حجّة)** إذا عذّبهم يوم القيامة على المعاصي والذّنوب، بأن يقولوا لم نعرف أنّ هذه معاص وهذه ذنوب، وأنّ الله يكرهها أو يعذب مرتكبها، وإلّا فما كنّا لنعملها، فلماذا تعذّبوننا؟ وهذا المعنى صرّح تعالى به في قوله تعالى: ﴿ولو أنّا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربّنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى﴾ سورة طه الآية/ ١٣٤. فارسل تعالى الرّسل لكي لا تبقى هذه الحجّة، وهذه المعذرة للنّاس في إرتكاب المعاصي **(بعد الرّسل)** لأنّهم بيّنوا لهم كلّ شيء من حكمه في الدّنيا وجزائه في الآخرة إن خيراً فخير وإن شرّاً فشر؛ فلا حجّة ولا معذرة بعد للعصاة والكافرين عند الله تعالى بعد هذا البلاغ والإنذار والتّبشير **(وكان الله عزيزاً)** غالباً على أمره، لا يعجزه شيءٌ عن شيء، فيقدر أن يهب للرّسل الخوارق حسبما يريد النّاس إلّا أنّه كان

(حكيماً) ذا حكمة بالغة، ولحكمته هذه خصص كلّ نبيّ ورسول بمعجزات حسب إرادته لا حسب إرادة النّاس، ولله في خلقه شؤون. ثمّ أراد الله تعالى أن يسلّي الرّسول بذكره أنّ عدم إيمان النّاس به لا يضرّه ولا يضرّ رسالته ما دام هو يؤديها حقّ الأداء، فلو كفر به كلّ النّاس لا يضرّ رسالته شيئاً؛ لأنّه رسول آمن به النّاس أو كفروا فقال جلّ وعلا:

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾

(لكن الله) أي أنّ هؤلاء كفروا بما أنزل إليك، ولم يؤمنوا ولم يشهدوا بنبوّتك، ولم يعترفوا بها **(لكن الله يشهد بما أنزل إليك)** أنّه حقّ وأنّك رسول فلا تحزن على كفرهم، فإنّ ذلك لا يضرّ رسالتك شيئاً، حيث إنّما أنزل إليك **(أنزله)** تعالى **(بعلمه)** بالإنزال؛ فأتى به جبريل إليك بأمره وبعلمه، لا بأمره ومن عنده **(والملائكة يشهدون)** بذلك **(وكفى)** أي واكتف **(بالله)** تعالى **(شهيداً)** فلا تحتاج إلى شهيد آخر غيره. ثمّ أراد الله تعالى أن يعيد ويؤكّد الملامة والوعيد الشّديد على الّذين يكفرون بالرّسولﷺ فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾

(إنّ الّذين كفروا) بمحمّد (ﷺ) من اليهود وغيرهم **(وصدّوا)** ومنعوا أنفسهم وغيرهم من النّاس **(عن)** الدّخول في **(سبيل الله)** وهو الإسلام **(قد ضلّوا)** إنحرفوا عن الحقّ والصّراط المستقيم **(ضلالاً)** إنحرافاً بعيداً عن الصّراط المستقيم **(إنّ الّذين كفروا وظلموا)** بصدّ النّاس عن الحقّ ومنعهم عن اتباعه **(لم يكن الله)** أي لم يجعل الله من صفته **(ليغفر لهم)** عن هذه الجريمة الكبيرة **(ولا ليهديهم طريقاً)** أي ولا ليأتي بهم إلى طريق **(إلّا طريق جهنّم)** لأنّه غضب عليهم فلا يوفّقهم للخير **(خالدين فيها)** في جهنّم **(أبداً وكان ذلك)** أي إيصالهم إلى جهنّم وتخليدهم فيها **(على الله يسيراً)** لا صعوبة فيه أبداً. ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن أنّ الإيمان إنّما هو في صالحهم، ولذلك يأمرهم به

ويدعوهم الرّسول إليه، وأنّ الله تعالى ورسوله مستغنيان عن إيمانهم، كما ولا يضرّهما كفرهم، وإنّما يضرّ أنفسهم فقط؛ فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧٠﴾﴾

(يا أيُّها النّاسُ) من أهل الكتاب وغيرهم **(قد جاءكم الرّسول)** محمّد (ﷺ) **(بالحقّ)** بالدّين الحقّ **(من ربّكم)** وهو الله تعالى، ذكر بلفظ الرّب لأنّ الدّين تربية، وللإشارة بأنّ تربية الله تعالى هي الحقّ بأن يتربّى بها النّاس لا غيرها **(فآمنوا)** وإن تؤمنوا يكن الإيمان **(خيراً)** نفْعاً وصلاحاً **(لكم)** فنفعه يعود إليكم لا إلى الله ولا إلى رسوله، فإنّهما غنيّان عن إيمانكم **(وإن تكفروا)** ولم تؤمنوا فالله غنيّ عنكم **(فإنّ لله ما في السّماوات والأرض)** ومن كان هذا ملكه فهو أغنى الأغنياء عن إيمانكم **(وكان الله عليماً)** بإيمانكم وكفركم؛ فيعاقبكم على الكفر ويثيبكم على الإيمان **(حكيماً)** ذا حكمة ولحكمته يعذّب أهل الكفر ويثيب أهل الإيمان.

ثمّ بعد أن وعظ الله تعالى اليهود ووعد وأوعدهم وبشّر وأنذرهم وجه خطابه إلى النصارى: فوعظهم ووعد وأوعد وبشّر وأنذرهم أيضاً فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾﴾

(يا أهل الكتاب) قد ذكرنا أنّ أهل الكتاب يعمّ اليهود والنّصارى، وقد تكون قرينة تخصّصه باليهود، كما في الآيات السّابقة؛ لأنّ الصّفات الّتي ذكرت هناك كانت لليهود، وقد تكون قرينة تخصّصه بالنّصارى، كما هنا لأنّ الصّفات الّتي ستذكر هي للنّصارى، وحين عدم وجود القرينة فالمراد به الطّائفتان جميعا، فالمعنى هنا يا أيّها النّصارى **(لا تغلوا)** لا تفرطوا **(في دينكم)** في عقيدتكم بالمسيح بأن تجعلوا له ما ليس له، وأن تصفوه بصفات تخصّ الله تعالى **(ولا تقولوا على الله إلّا الحقّ)** بأنّه منزّه عن الشّريك والولد والصّاحبة **(إنّما المسيح)** وهو **(عيسى ابن مريم رسول الله)** وعبده وليس بإله ولا إبن إله **(وكلمته)** أي ومخلوقه **(ألقاها)** أي أدخلها **(إلى)** أي في مريم وخرج منها **(وروح)** خلق **(منه)** أي من عند الله تعالى حيث لم يكن له أب **(فآمنوا بالله)** إيماناً صحيحا بأن تنزّهوه عن الشّريك والولد، فإنّ الإيمان الفاسد وهو المقرون بنسبة ما لا يليق بالله إليه لا يقبل، وآمنوا **(برسله)** إيماناً صحيحاً بأنّهم عباد الله تعالى، إختارهم لرسالته ليس لهم صفة الرّبوبية ولا القرابة من الله تعالى، وإلّا فالإيمان القاصد بالرّسل بالإفراط فيهم بجعلهم شركاء لله أو أبناءه أو تنسبوا إليهم ما هو من خصائص الله تعالى، فلا يقبل ذلك الإيمان أيضاً **(ولا تقولوا)** إنّ الآلهة **(ثلاثة)** الله ومريم والمسيح **(إنتهوا)** عن هذا الإفتراء والكذب والشّرك يكن الإنتهاء **(خيراً لكم)** لأنّه لا يصلح إيمانكم إلّا بهذا الإنتهاء **(إنّما الله إله واحد)** لا شريك له **(سبحانه)** أي تنزّه الله عن **(أن يكون له ولد)** كما تدّعون بأن عيسى ابن الله.

ثمّ ذكر تعالى الدّليل على نفي الشريك والولد عن الله تعالى فقال جلّ وعلا: **(له ما في السّماوات وما في الأرض)** مُلكاً ومِلكاً ومن كان هذا ملكه ومملكته فلا يحتاج إلى شريك ولا إلى ولد؛ لأنّ الولد والشّريك إنّما يتّخذه العاجز والمحتاج **(وكفى)** أي واكتف **(بالله وكيلاً)** في كل أمر ولا تكل أمرك إلى غيره مهما كانت رتبته، فإنّ ذلك شرك بالله تعالى **(لن يستنكف)** والإستنكاف من الشّيء هو عدّه عاراً وعيباً ونقصاً فلن يرى **(المسيح)** نقصاً وعيباً وعاراً في **(أن يكون عبداً لله)** تعالى بل يعدّ ذلك كمالاً وفخراً وإعتزازاً **(ولا الملائكة المقرّبون)** يرون عاراً في أن يكونوا عبيداً لله تعالى، بل يرون ذلك كلّه كمالاً وكلّ الكمال، وقد إستدل بعض النّاس بهذه الآية على أنّ الملائكة أفضل من البشر، وذلك لأنّه التّرقي هنا من الأدنى إلى الأعلى، وهذا الاستدلال فاسد، وذلك لأنّ التّرقي من الأدنى إلى الأعلى هنا ليس في الأفضلية، بل في التجدّد، فإنّ النّصارى إنّما ادّعوا أنّ المسيح إله أو إبن إله، لأنّه كان مجرّداً عن الأب، فقال تعالى لا

يخرج عيسى بتجرّده عن الأب عن أن يكون عبداً لله تعالى ولا الملائكة المقربون الّذين تجردّوا عن الأب والأمّ معاً، فهم أشدّ تجرّداً من عيسى **(ومن يستنكف عن عبادته)** أي عبادة الله تعالى **(ويستكبر)** عن ذلك **(فسيحشرهم الله جميعاً)** يوم القيامة للحساب وبعد الحساب **(فأما الذين آمنوا)** إيمانا صحيحاً لا شرك فيه **(وعملوا)** الأعمال **(الصّالحات)** الّتي اعتبرها الشّرع صالحة **(فيوفيهم)** الله تعالى **(أجورهم)** أجور أعمالهم وثوابها **(ويزيدهم)** أي ويعطيهم أزيد مما يستحقون ظاهراً، وكلّ ذلك **(من فضله)** وإلّا، فلا يستحقون شيئاً حقيقةً، لا الأجر ولا الزّيادة؛ لأنّ كلّ أعمالهم لا تساوي نعم الدّنيا جله، لأنّ أعمالهم مخلوقة لله تعالى فهي ملكه لا ملكهم، فأين لهم مايستحقّون به الأجر والثّواب **(وأما الّذين استنكفوا واستكبروا)** عن عبادته وتطبيق شرعه ونظامه على نفسه وعلى من تحت رعايته **(فيعذّبهم)** الله تعالى **(عذاباً أليماً)** موجعاً جداً **(ولا يجدون لهم من دون الله وليّاً)** يتولّى أمرهم **(ولا نصيراً)** ينصرهم فينقذهم من العذاب، كما كانوا يدّعون أنّ هذا وذاك يشفعون لهم ويدخلونهم الجنّة وينقذونهم من عذاب الله تعالى.

ثمّ بعد أن دحض الله تعالى حجج اليهود والنّصارى، وأبطل عقائدهم وأفكارهم، ناداهم إلى الخضوع للحقّ والإيمان به، ووعدهم على ذلك بالإنعام والتّكريم فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾﴾

(يا أيّها النّاس) من اليهود والنّصارى وغيرهم **(قد جاءكم برهان من ربكم)** حجّة واضحة تقضي على أباطيلكم وتدحض أفكاركم، وتثبت حقيّة الإسلام، وهو معجزات الرّسول وكتابه الّذي قال تعالى فيه: **(وأنزلنا إليكم)** لاتباعه والعمل به **(نوراً مبيناً)** واضحاً لإخفاء في حقيقته وهو القرآن **(فأما الذين آمنوا بالله)** كما يقول القرآن الكريم **(واعتصموا)** أي وتمسّكوا **(به)** أي بدينه **(فسيدخلهم في رحمة)** في جنّة **(منه)** أي من عنده **(ويهديهم إليه)** إلى لقائه **(صراطاً مستقيماً)** لا يضلّ من سلكه ولا يشقى من إتبعه، وتفيد الآية بمفهومها المخالف أنّ من لم يؤمن بالله إيماناً صحيحاً ولم يعمل بشريعته

فلا يدخله في رحمته ولا يهديه إلى لقائه، فجمعت الآية بين الوعد والوعيد معاً، فما أبلغ هذا القرآن الكريم وأفْصِحْ به.

اعلم أنّه فتح الله تعالى السّورة بالأحكام ثمّ ناقش أهل الكتاب ثمّ ختمها بالأحكام، ليكون الآخر مشابهاً للأوّل ويسمّى ذلك عوداً على بدء، وهذا من الصّناعة البديعيّة والّتي تورِث الكلام رونقاً وحسناً وجمالاً فقال جلّ وعلا:

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾

(يستفتونك) أي يطلبون منك أيّها النّبيّ بيان الحكم الشّرعيّ في الكلالة، وهي أن يموت الشّخص، ليس له والد ولا ولد، فقال تعالى: **(قل الله يفتيكم في الكلالة)** الّتي سألتم عنها والفتوى هي **(إن امرؤٌ)** ذكراً أو أنثى **(هلك مات)** ليس له ولد أي ولا والد لأنّ الأخوة والأخوات محجوبون بالأب **(وله أخت)** لأبوين أو لأب فقط لأن أولاد الأم لهم السّدس فقط إن كان واحداً أو الثّلث إن كانوا أكثر **(فلها)** أي فللأخت لأبوين أو لأب نصف ما ترك الميت من المال **(وهو)** أي الأخ **(يرثها)** المال كلّه إن ماتت وتركت أخاً لأبوين أو لأب **(إن لم يكن لها ولد)** أي ولا والد لأنّه يحجب الأخوة والأخوات **(فإن كانتا)** الأخوات للميت الّذي ليس له والد ولا ولد **(إثنتين)** أو أكثر **(فلهما)** أو لهنّ **(الثّلثان ممّا ترك)** الميت **(وإن كانوا)** أي الورثة **(أخوة)** متعدّدة **(رجالاً ونساءً)** فكلّ المال لهم يقسّمونه بينهم **(فللذّكر مثل حظّ الأنثتين يبين الله لكم)** هذه الأمور حفظاً لكم من **(أن تضلّوا)** عن الحقّ **(والله بكل شيء)** من الحقوق وغيره **(عليم)** فيبيّن لكم حسب هذا العلم الثّابت والقديم، فتفيد أنّ العدول عن بيانه في أي شيء وعن حكمه جهالة وضلالة، والإتّباع له هداية وكمال وسبب لحسن الخاتمة والمآل.

اللّهم حسّن خاتمتنا وتوفّنا مسلمين، آمين، وصلّى الله تعالى على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وأمّته أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين.

بسم الله الرّحمن الرّحيم
الجزء السّادس

سورة المائدة

(مدنيّة، وآياتها مائة وعشرون، نزلت بعد سورة الفتح، وسمّيت بسورة المائدة لما فيها من قصّة نزول المائدة الّتي طلب الحواريّون نزولها والّتي نزلت فعلاً وجاء تفصيل القصّة في الآيات (١١٢ ـ ١١٥) من هذه السّورة).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾

إعلم أنّ الإيمان بالله هو الإعتقاد بأنه لا مكوّن إلّا الله ولا مشرّع إلّا الله، وأنّه لا حقّ في التّشريع إلّا للّه تعالى، فيتضمّن ذلك الإيمان الإلتزام بأوامر الله تعالى ونواهيه وأحكامه وتشريعاته كلّها، وسمّى أحكامه تعالى عقوداً؛ لأنّها تربط العبد بربه، والعقد هو ربط شيء بشيء؛ فقال تعالى: **(ياآيّها الّذين آمنوا)** والتزموا بأحكام الله تعالى وتحليل ما أحلّه وتحريم ما حرّمه **(أوفوا بالعقود)** أي نفّذوا ما التزمتم به من تحريم ما حرّم وتحليل ما أحلّ في هذه السّورة الشّريفة، فقال جلّ وعلا: **(أحلت لكم)** الإنتفاعات من **(بهيمة الأنعام)** بأكل لحومها وشرب ألبانها، والإنتفاع بجلودها وبأصوافها وأوبارها وأشعارها **(إلّا ما يتلى عليكم)** من الأنعام الّتي حرّمها الله تعالى في قوله: **(حرّمت**

عليكم الميتة) الّذي يأتي في هذه السّورة، والأنعام جمع نعم، وهو الإبل والبقر والمعز والضأن، والجمع باعتبار الأفراد أو الأنواع، وحيث إنّ النّعم يشمل النّعم الأهلي والوحشي كالبقر الوحشي أو المعز الوحشي وغيرهما، والوحش يصاد والصّيد حرام وقت الإحرام بالحجّ والعمرة فقال تعالى: **(غير محلّي الصّيد)** غير حالّ أي أحلّت لكم حال كونكم غير محلّي الصّيد للأنعام **(وأنتم حرم)** والحرُم جمع حرام بمعنى محرم، أي وأنتم محرمون بالحجّ والعمره؛ فمن كان محرماً يحرم عليه الصّيد، وكأنّ قائلاً يقول: لماذا حرّم الصيد وقت الإحرام؟ أو لماذا أحلّت الأنعام من البهائم دون غيرها؟ كالبغل والحمير وما لا يحصى من ذوات الأربع، وكلّها تسمى بهيمة لبهمها أي عدم نطقها؛ فقال تعالى: **(إنّ الله يحكم ما يريد)** فالتّحريم والتّحليل هو حسب إرادته لا حسب إرادتكم وتفكيركم، وهذا ردّ على المتعقّلين الّذين يحكّمون العقل فيحرّمون ويحلّلون بعلل عقلية وأفكار يعملون بها، فالأحكام مربوطة بإرادة الله تعالى وقضائه فحسب، والإعتراض عليه لأنّه متصرّف في ملكه؛ وليست مربوطة بعقولكم وهواكم أيّها المتعقّلون.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾

(يا ايُّها اَلّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللَّهِ) إختلفت الأقوال في معنى: (شعائر اللّه) والأصحّ أنّ الشّعائر جمع شعيرة، أو شعار وكلاهما بمعنى العلامة، فشعائر الله معناها علائم طاعة الله تعالى والإيمان، فكلّ أمر ديني من فعل الواجبات أو ترك المحرّمات علامة طاعة الله تعالى والإيمان به، فأمور الأسلام كلّها شعائر الله وإن إشتهرت الشعائر في واجبات الحجّ ومناسكه، ولكنّ الأخذ بالعموم أولى إذا لم يكن مانع، ولا مانع هنا، فالمعنى لا تحلّوا شعائر الله بترك واجب أو فعل محرّم، ثمّ خصص تعالى بعض الشّعائر والأحكام بالذّكر لمكان حساسيتها في ذلك الوقت، فقال: **(ولا الشّهر الحَرام)**

بالقتال فيه إلّا دفاعاً، والشّهر الحرام جنس يشمل الأشهر الحرم كلّها، وهي (رجب، وذو القعدة، وذوالحجّة، ومحرّم) **(وَلا الهَديَ)** أي ولا تُحلّوا الهدي بأن تنهبوه من العدوّ أو تذبحوه قبل بلوغه محلّه، والهديُ، هو ما يهدى إلى البيت ليذبح هناك تطوعاً أو جزاءً، لترك واجب من واجبات الحجّ أو إرتكاب محرّم من محرّماته **(وَلا القلائد)** أي ولا تحلّوا القلائد، وهي جمع قلادة، وهي ما تربط بعنق الهدي علامة على أنّه من هدايا البيت، فالمعنى: لا تحلّوا الهدي سواء كان غير معلّم بالقلائد أو معلّماً بها، وذكرها بعد الهدي لأنّ التّعرض لها أشنع، لأنّ الهدي الّذي لم يُعلم بما بما يعلم به أنّه هدي لا يعلم أنّه هدي، ولكنّ المعلم معروف جداً، ونقول على سبيل المثال: إنّ إهانة الضّابط في زيه الرّسمي أشدّ عقوبة من إهانته في لباس غير رسميّ، فكذا الهدي **(وَلَا)** تحلّوا التّعرّض لناس **(آمّينَ)** قاصدين **(البيت الحرام)** كافرين أو غيرهم **(يبتغون فضلاً)** رزقاً **(من اللّه)** تعالى بالكسب **(ورَضوانَاً)** وهذا بالنّسبة للمؤمن ظاهر، لأنّ من المسلمين من يرجو بالحجّ المنفعة الدّنيويّة والحجّ الّذي يكون سبباً لرضاء الله تعالى، وبالنّسبة للكافر هو أنّ الكافرين في ذلك الوقت كانوا أيضاً يرجون الثّواب على عقيدتهم وإن كانت باطلة، وفي هذا دليل على أنّه لا حرج في أن يحجّ المرء للزيارة والتّجارة معاً **(وإذا حللتم)** أي خرجتم من الإحرام بالحجّ أو العمرة بأداء مناسكهما **(فاصطادوا)** لأنّ علة تحريم الصّيد وهو الإحرام قد زال؛ فرجع الإصطياد إلى حكمه السّابق وهو الحلّ **(ولا يجرمنّكم)** أي ولا يحملنّكم على الجرم والذّنب **(شنآن)** عداوة **(قوم)** بسبب **(أن)** هم **(صدّوكم عن المسجد الحرام)** عام الحديبيّة **(أن تعتدوا)** عليهم في الحرم أو في الأشهر الحرم **(وتعاونوا)** فيما بينكم **(على البرّ)** وهو كلّ ما كان خيراً سواء كان واجباً أو مندوباً **(والتّقوى)** وهو الإجتناب عن ترك واجب أو فعل محرّم **(ولا تعاونوا على الإثم)** وهو الذّنب المتعلّق به حقّ الله تعالى فقط **(والعدوان)** و هو الذّنب الّذي يتعلق به حقّ العباد **(واتقوا الله)** بامتثال هذه الأوامر **(إنّ اللّه شديد العقاب)** لمن لم يتّق وإنتهك حرمات الله تعالى وأخلّ بشعائره بأن ترك واجباً أو فعل محرّماً.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ

وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣﴾﴾

(حرّمت عليكم الميتة) وهي الحيوان الّذي يموت بدون ذبح **(والدّم)** أي المسفوح هو الدّم السّائل، وذلك لقوله تعالى: ﴿قل لا أجد في ما أوحي إليّ محرّماً على طاعم يطعمه إلّا أن يكون ميتةً أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير﴾ سورة الانعام/ الآية/ ١٤٥ ـ وذلك لإخراج الدّم غير المسفوح وهو الكبد والطّحال؛ فإنّ رسول الله (ﷺ) قال: (أُحلّ لنا ميتتان السّمك والجراد ودمان الكبد والطّحال)[١]، وقد كان الجاهلون يجعلون الدّم في المصارين و يشوونها فيأكلونها، فحرّم الله تعالى ذلك، وقد ذكرنا الأقوال الّتي جرت في السّمك والجراد والكبد والطّحال عند قوله تعالى ﴿إنّما حرّم عليكم الميتة والدّم ولحم الخنزير﴾ سورة البقرة الآية / ١٧٣. **(وما أُهلّ)** أي وما رفع الصّوت **(لغير الله به)** به أي ذكر على ذبحه إسم غير الله تعالى، بأن قال الذّابح باسم اللات أو العزّى، أو باسم فلان أذبح **(والمنخنقة)** هي الّتي ماتت بالإختناق كأن وقعت في شبكه أو غيرهم **(والموقوذة)** هي الّتي ضربت بمثقل كخشب أو حجر فماتت من أثر الضّرب **(والمتردّية)** وهي الّتي تسقط من عال فتموت **(النّطيحة)** أي المنطوحة وهي الّتي ضربتها شاة أخرى فماتت بذلك، والنّطح الضّرب بالرّأس على الرّأس، والمراد بها كلّ ما ضربه حيوان برجله أو برأسه فمات بذلك الضّرب لأنّه في حكم الميتة **(وما)** أي وكل حيوان **(أكل السّبع)** منه شيئاً فمات في أثر ذلك الأكل دون ذبح **(إلّا ما ذكيتم)** أي إلّا ما ذبحتم من هذه المذكورات. فالموقوذة إذا أدركتها وبقى فيها حياة فذبحتها فإنّها تحلّ، وكذا بالنّسبة للنّطيحة وما أكله السّبع إذا أدركتا وفيها حياة باقية فذبحتا حلّتا، وكذا المنخنقة إذا أدركت وبها حياة فذبحت حلّت.

تنبيه: في درجة الحياة الباقية في المذكورات الّتي وجدتها فيها وذبحتها تحلّ قولان: **القول الأوّل**: قال أكثر أهل العلم بأنْ توجد له عين تطرف أو ذنَب يتحرك

---

(١) نص الحديث: عن ابن عمر رضي الله عنهما :أن رسول الله ﷺ قال: أحلت لكم ميتتان ودمان، فأما الميتتان فاحوت والجراد وأما الدمان فالكبد والطحال./ ابن ماجة ٢/ ١١٠٢ الحديث رقم ٣٣١٤. وفي رواية البيهقي بلفظ (أحلت لنا...)/ سنن البيهقي ١٠/ ٧ الحديث رقم ١٩٤٨١.

فذبحته فهي تحلّ مهما كانت حالته في الخطورة والهلاك، قال ابن عباس (رضي الله عنه): إذا طرفت بعينها أو ركضت برجلها أو تحركت فاذبحها فإنّها حلال، أي وإن تيقّن أنّها تموت ولا تحيا.

القول الثّاني: ذهب بعض أهل العلم إلى أنّ السّبع إذا جرح فأخرج الحشوة، أو قطع الجوف قطعاً تيأّس معه الحياة فلا تحلّ بالذّبح لأنّه صار في حكم الميتة، وهذا مذهب مالك (رضي الله عنه).

والقول الأول: هو مذهب الجمهور. وظاهر الآية مع الجمهور لأنّها عام في كلّ حال فلا ينظر إلى أنّها تعيش أو لا، وربما ينظر إلى أنّها هل بقي فيها حياة أو لا.

(وما ذبح على النّصب) أي وحرّم أكل ما ذبح على النّصب، وهي كانت أحجاراً منصوبة حول البيت، كان الجاهليون يذبحون عليها تعظيماً لها وتقرباً إليها وتبرّكاً بها، فكلّ ما ذبح على شيء من نصب أو شخص أو قبر أو صنم تعظيماً أو تقرّباً أو تبركاً بذلك الشّيء فهو حرام كالميتة ولحم الخنزير **(وأن تستقسموا بالأزلام)** الأزلام كانت أقداحاً يستخيرون بها في الإقدام على عمل والإمتناع منه، كتب على بعضها أفعل وعلى بعضها لا تفعل وعلى بعضها لم يكتب عليها شيء، فإذا خرج إفعل فعلوا، أولا تفعل تركوا، وإذا خرج المهمل أعادوا الإستخارة، وكانوا يقسمون بها بعض اللّحوم أو الأموال، فمن خرج له قدح يعطى بقدر ما خصّص لهذا القدح وهكذا، فحرّم الله ذلك فالمعنى: وحرّم عليكم أن تأكلوا مما قسّم بالأزلام، فيدخل في ذلك في زماننا اليانصيبات وما شابها من الجوائز فإنّ ذلك يعدّ من القمار المحرّم الخبيث **(ذلكم)** المذكورات في هذه الآية أكلها **(فسق)** خروج عن أمر الله تعالى.

ثمّ بعد أن حرّم الله تعالى هذه الأمور الجاهليّة، تميّز وانفصلَ بها المسلمون عن الكافرين إنفصالاً وسيعاً، فلذلك قال تعالى: **(أليوم)** أي بعد تحريم هذه الأشياء **(يَئِسَ الَّذِينَ كفَرُوا مِن دِينِكُمْ)** أن يميل أو يتّفق مع دينهم وعاداتهم وتقاليدهم، وإنّ هذا الإنفصال العقائدي سيؤدي إلى العداوة حتماً، لأنّ الرّابطة بين النّاس هي العقيدة، فإذا تضادّت العقيدتان تضادّ حاملهما بالضّرورة، ولذا قال تعالى: **(فَلا تَخشَوهم)** الكفار فتتّبعوا أحكامهم وتميلوا إلى عاداتهم **(واخشون)** فاتّبعوا أحكامي وحرّموا ما حرّمت وحلّلوا ما حلّلت **(اليوم أكملتُ لكم دينكم)** أي بيّنت لكم أحكام دينكم كلّها **(وَأتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نعمْتي)** بوضع هذا المنهج الصّالح المستقيم لكم **(وَرَضيتُ لكُمْ الإسلاَمَ ديناً)** لا

غيره من الأديان والأنظمة والمناهج والدّساتير، فكلّ ما يخالف الإسلام فهو غير مرضي عند الله تعالى بل هو مبغوض ومرفوض والعمل به جهالةٌ وضلالةٌ وعداءٌ سافر مع الله تعالى **(فمن اضطرَ)** إلى أكل هذه المحرّمات **(في مخمصة)** لوجود مجاعةٍ عامةٍ أو خاصّةٍ بشرط **(غير متجانف لإثم)** وهو أن يأكل فوق الشّبع عند فقهاء العراق أو أن يكون عاصياً في حصول الإضطرار، وهذا هو قول فقهاء الحجاز، وقد تقدّم هذا بتفصيل مفيد في سورة البقرة أيضاً، فإذا حصل الإضطرار جاز الأكل بهذا الشرّط وإنّ الله تعالى لا يعاقبه **(فإنّ الله غفورٌ)** يغفر لمن اضطر **(رَحيم)** لا يكلّف عبده ما ليس في وسعه. قال ابن حَزم رحمه الله: وكلّ ما تردّى أو أصابه سبع أو نطحه ناطح، أو انخنق فانتشر دماغه، أو انقرض مصرانه أو تقطّع نخاعه، أو انتشرت حشوته فأدرك وفيه شيء من الحياة فذبح أو نحر حلّ أكله، إنّما حرّم الله تعالى ما مات من كلّ ذلك. فعلى هذا ما يضرب بالصعقة الكهربائيّة أو بشيء آخر، ثمّ يساق إلى آلة الذّبح فيذبح حلال إن بقي فيه من الحياة شيء ما وقت الذّبح.

خاتمة: في بيان الذّبح الشّرعي وما يشترط فيه، والكلام في ذلك يدور حول أمور أربعة: (١) كيفيّة الذّبح. (٢) شروط الذّابح. (٣) آلة الذّبح. (٤) والتّسمية.

فنتكلّم عن هذه الأمور الأربعة حسب الترتيب إن شاء الله تعالى في فروع أربعة:

الفرع الأوّل: في كيفية الذّبح على المذاهب:

أولاً: عند الشّافعيّة:

١- يجب في الذّبح قطع الحلقوم والمريء فقط، وأما قطع الودجين فسنّة وليس واجب، وقال أبو سعيد الأصطخري (ﷺ): يكفي قطع أحد العضوين الحلقوم فقط أو المريء فقط لأنّ ذلك يقضي على الحياة، قال النّووي(ﷺ): قال الأصحاب في ما قاله الأصطخري، وهذا خلاف نصّ الشّافعي، فمعناه أن الأصطخري خرج في هذا عن المذهب الشّافعي.

٢ ـ يجب قطع الحلقوم والمريء تماماً، فلو بقي شئ من أحدهما أو منهما ومات الحيوان فهي ميتةٌ، وحكى الماوردي وجهاً أنّه إن كان الباقي شيئاً يسيراً لا يضرّ، واختار ذلك الرّوياني في الحلية، قال في المجموع: وهو المذهب الأوّل.

٣ ـ لو ذبح القفا حتى وصل إلى الحلقوم والمريء ينظر فإن كان فيه حياة عند قطعهما حلّ، وإن وصل إلى حركة المذبوح فلا يحلّ، قال إمام الحرمين: لو كان عند

إبتداء قطع المريء فيه حياة مستقرّة ولكن عند قطع الحلقوم وصل إلى حركة المذبوح فهو حلال؛ لأنّ أقصى ما وقع التّعبد به أن يكون فيه حياة مستقرّة عند الإبتداء بقطع المذبح. **ثانياً: عند الأحناف**: يشترط قطع الأكثر من الودجين والحلقوم والمريء، فلو قطع الودجين مع المريء فقط أو مع الحلقوم فقط أو ودجاً واحداً مع المريء والحلقوم حلّ بلا خلاف عندهم، وهل يجب قطع العضو تمامه أو الأكثر فيه خلاف.

ثالثاً: عند الحنابلة: يكفي قطع الحلقوم والمريء فقط كالشّافعي، وفي رواية أخرى عن أحمد: أنّه يجب قطع الودجين أيضاً، وهذا مذهب مالك. ولا خلاف في أنّ قطع الأعضاء الأربعة كلّها أفضل.

رابعاً: عند إبن حزم: إنّ قطع هذه الأعضاء الأربعة أفضل وأكمل في الذّبح، وإن قطع بعضها ولو عضواً واحداً فأسرع الموت كما يسرع قطع جميعها يحلّ، فإن لم يسرع الموت فليُعِد القطع ولا يضره ذلك شيئاً سواء كان من أعلى الحلق أو أسفله، ورميت العقدة إلى الأعلى أي الرأس، أو إلى الأسفل أي البدن، وسواء قطع كلّ ذلك من القفا أو أبين الرأس أو لم يبن، كلّ ذلك حلال لقوله تعالى: (إلّا ما ذكّيتم) والذّكاة الشّق، وقد أمر النّبيّ (ﷺ) بالذّبح والنّحر فيما تمكنّ منه فوجب أن لا يتعدّى حده (ﷺ) وأمر (ﷺ) بالإراحة. فصحّ كلّ ذبح وكل شقّ، قال به أحد العلماء فهو ذكاة يخرج به أي يخرج من التّحريم إلى التّحليل، وهذا أوسع المذاهب في الذّبح، فلله در إبن حزَم فإنّ الرّسول (ﷺ) قال: (يسّروا ولا تعسّروا)[1] وإنّ هذا كلّه فيما قدر على ذبحه.

وما لا يقدر عليه كإبل ندّت فيرمى إليه بما يجرحه فأينما أصابه فجرحه ومات حَلَ بدون خلاف، وكذا ما وقع في بئر مثلاً.

الفرع الثّاني: في شروط الذّابح:

أولاً: عند الشّافعيّة: يحلّ ذبح صبيّ ولو غير مميّز، ومجنون وسكران في الأظهر، ويكره ذبح الأعمى ويحلّ ذبح المرأة، لا فرق في هؤلاء أن يكونوا مسلمين أو أهل كتاب. قال في المجموع: ذبيحة أهل الكتاب حلال سواء ذكروا إسم الله عليه أم لا لظاهر الآية، هذا مذهبنا ومذهب الجمهور، وحكاه ابن المنذر عن عليّ والنّخعي وحماد

---

(١) صحيح البخاري ٣٨/١ الحديث رقم ٦٩. وتكملته (وبشروا ولا تنفروا). رواه عن أنس عن النبي ﷺ.

بن سليمان وأبي حنيفة وأحمد وإسحاق و غيرهم (ﷺ)، فإن ذبحوا على إسم صنم أو غيره لم يحلّ، قال إبن المنذر وقال عطاء (ﷺ): إذا ذبح النّصراني علي إسم عيسى فكل، فإنّ الله تعالى قد علم أنّهم يقولون ذلك حينما أحلّ ذبائحهم، يستثنى من أهل الكتاب نصارى بني تغلب وتنوخ وبهراء؛ فلا تحلّ ذبيحتهم كما قال في المجموع.

أما ذبائح الصّابئة والسّامرة فقال الشّافعي وجمهور أصحابه ﷺ: إن وافقت الصّابئة النّصارى والسّامرة اليهود في أصول العقيدة حلّت ذبائحهم ومناكحهم وإلّا فلا، قال إبن المنذر وأباح عمر ﷺ ذبائح السّامرة، وقال إسحاق وإبن راهويه: لا بأس بذبائح الصابئين لأنّهم أهل كتاب، وقال إبن عباس ومجاهد وأبو يوسف لا يحلّ، وقال إبن المنذر: أمّا السّامرة فحكمهم ما ذكره الشّافعي: وأما الصّابئة فلا تحلّ ذبائحهم لأنّ الله تعالى عطفهم على اليهود والنّصارى بالواو أي فهم غيرهم. حلّ ذبيحة أهل الكتاب ونكاح نسائهم عند الشّافعية مشروط بشروط هو أنّه إن كان إسرائيليّاً أن لا يعلم دخوله في هذا الدّين بعد التّبديل أو فسخه، وفي غيرهم أن يعلم عدم دخولهم فيه بعد ذلك.

ثانياً: عند الحنفيّة: يحلّ ذبح رجل وإمراة وصبي وأفلق وأخرس، ولا يحلّ ذبح وثنيّ ومجوسيّ ومرتدّ، أمّا الكتابي ذميّاً كان أو حربيّاً أو غير ذلك فتحلّ ذبيحتة مطلقاً، إلّا إذا سمع منه ذكر المسيح عليه. كما و تحلّ ذبيحة الصّابئة والسّامرة ولم يشترط الأحناف ما اشترطه الشّوافع في الإسرائيلي وغيره، وهل يشترط عندهم أن لا يعتقد النّصرانيّ أنّ المسيح إله فيه خلاف، والمختار عدم الإشتراط، قال إبن عابدين (ﷺ): وقال في المعراج إن إشتراط ما ذكر مخالف لعامة الرّوايات. **أقول**: وللآية أيضاً.

ثالثاً: عند الحنابلة: كلّ من يطيق الذّبح سواء كان رجلاً أو إمرأة أو صبيّاً مسلماً أو أهل الكتاب تحلّ ذبيحته إلّا إذا ترك التّسمية عمداً، وأمّا الطّفل الّذي لا يطيق الذّبح فلا تحلّ ذبيحته، ولم يشترطوا في أهل الكتاب أي شرط سوى عدم ترك التّسمية عمداً أو ذكر إسم المسيح عليه، فإن ذكروا إسم المسيح أو ترك التّسمية عمداً حرّمت ذبيحته.

رابعاً: عند المالكيّة: ومذهب مالك يوافق الحنابلة.

خامساً: عند إبن حزم: كلّ ما ذبحه يهوديّ أو نصرانيّ أو مجوسيّ رجالهم ونسائهم حلال إذا ذكروا إسم الله تعالى عليه، ثمّ بعد إشتراط التّسمية قال: كلّ ماغاب عنّا ممّا ذكّاه مسلم فاسق أو جاهل أو كتابيّ فحلال أكله لما روينا من طريق البخاري، حدّثنا

محمد بن عبيد الله هو أبو ثابت المديني أسامة بن حفص عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة (ﷺ) أنّ قوماً قالوا للنبيّ (ﷺ): (إنّ قوماً يأتوننا باللّحم لا ندري أذكروا اسم الله عليه أم لا ؟ فقال (ﷺ): سمّوا أنتم فقال: وكلوا)[1].

وهذا أحسن ما يتمسّك به اليوم في اللّحوم المستوردة من الدّول غير الشّيوعيّة؛ فسمّوا وكلوا هنيئاً مريئاً[2].

الفرع الثّالث: في آلة الذّبح: قال إبن رشد رحمه الله تعالى: أجمع العلماء على أنّ كل ما أنهر الدّم وفرى الأوداج سواء من حديد أو صخر أو عود أو قضيب فالتّذكية جائزة به، واختلفوا في ثلاثة: السّن والظّفر والعظم، فمنهم من أجاز ومنهم لم يجز، وهذه المسألة ليست مهمّة في هذا الزّمان فلذا لا نحتاج إلى بسطها.

الفرع الرّابع: في التّسمية: ذكر إبن رشد أنّ في التّسمية ثلاثة أقوال:

القول الأوّل: إذا تركت التّسمية عمداً أو سهواً حرّمت الذّبيحة، وهذا مذهب أهل الظّاهر، وذلك عند العلم بالترك وإلّا فما غاب عنّا نسمّي عليه ونأكله كما مر ذلك عن إبن حزم (رحمه الله).

القول الثّاني: إنّ التّسمية سنّة، فإذا تركت عمداً أو سهواً فلا تحرم الذّبيحة، وهذا مذهب الإمام الشّافعي (رحمه الله). **القول الثّالث**: إنّها إذا تركت عمداً حرمت الذّبيحة وإن كان سهواً فلا، وهذا مذهب مالك وأبي حنيفة وأحمد. وسيأتي زيادة تفصيل لهذا البحث عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ سورة الأنعام الآية/ ١٢١ ـ كما ويأتي زيادة تفصيل في ذبائح أهل الكتاب في الآية (٦) من هذه السّورة إن شاء الله تعالى.

والحقّ الّذي أراه: أنّ التّسمية ليست شرطاً في حلّ الذّبيحة لقوله تعالى ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ سورة البقرة الآية/١٣٧. فالآية حصرت بالنّسبة للتّسمية فيما سمّي لغير الله عليه، حيث قال: (وما أهلّ به لغير الله) ـ ولم يقل وما لم يهل به لله، وكذلك أيضاً لقوله: (وما أهلّ لغير الله به) ولم يقل ولم يهل لله به، وكذلك كلّ آية وردت في هذا الموضوع ينهى عن الإهلال به لغير الله ولا

(١) صحيح البخاري ٢/٧٢٦ الحديث رقم ١٩٥٢.

(٢) يقصد المذبوح الذي لم يعلم أنهم سموا عليه، فلا يشمل غير المذبوح.

ينهى عن عدم الإهلال به، لقوله تعالى. في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ سورة الأنعام الآية/ ١٢١ ـ فيجب تفسير هذا بأنّ معنى لم يذكر اسم الله عليه أي أنّه ذكر غير إسم الله تعالى عليه للتّوفيق بين الآيات، وليصحّ الحصر في الآية، فالتّسمية سنّة وتركها سهواً لا يضرّ وإن كان عمداً، فإن كان كفراً بالله أو هتكاً لحرمة اللّه تعالى فذلك[1] كافرٌ وملحد ولا تؤكل ذبيحته بالإتفاق، وإلّا فلا تحرم ذبيحته بالتّرك عمداً دون إنكار لذات الله تعالى، سيّما وقد وردت الآية في ذبائح المشركين الّذين كانوا يذكرون غير الله تعالى عليها والله أعلم. والحقّ أيضاً: أن ذبائح أهل الكتاب كلّهم بدون فرق بين طائفة وأخرى حلال سواء سمّوا عليها أم لا، واعتقدوا ألوهية المسيح أم لا، وذكروا إسم المسيح عليها أم لا، لأنّ الله تعالى كان يعلم هذه الأشياء كلّها من أهل الكتاب، وحين نزول القرآن كانت هذه الأشياء كلّها موجودة عندهم؛ لأنّ القرآن ينسب إليهم التّثليث وغيره ومع كلّ ذلك قال: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ سورة المائدة الآية/ ٥. بدون أي تفصيل وتفريق ولم يعرف عن رسول الله(ﷺ) تفصيل وتفريق بين طائفة وأخرى أو بين حالة من أهل الكتاب وأخرين، بل استعملت الآية على عمومها دون سؤال وتفصيل، ولا يجوز الحكم على الله ولا تفصيل حكمه إلّا من قبله أو من قبل رسول الله (ﷺ) ومَا اللّه بِغافلٍ عَما يعملون.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى الذّبائح أراد أن يذكر الصّيد فقال جلّ وعلا:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾

(يسألونك) أيّها النّبيّ **(ما ذا أحِلّ لهم)** من الصّيد **(قل)** لهم **(أحلّ لكم الطّيّبات)** منها وهو ما يؤكل لحمه شرعاً من الحيوانات أو الطّيور، وسيأتي ما أحلّ وما لم يحلّ في سورة الأنعام **(وما علّمتم)** أي وأحلّ لكم صيد **(ما علّمتم من الجوارح)** أي من

(١) أي فصاحب الترك كفرا...الخ.

الحيوانات الجارحات للصّيد كالكلب والفهد والعقاب والصّقر والباز والشّاهين والباشق مما يقبل التّعليم **(مكلّبين)** أي مرسلين إياهن ومهيجين لها على الصّيد **(تعلّمونهنّ)** الإصطياد **(مما علّمكم الله)** من كيفية الإصطياد، فتفيد الآية أنّ صيد الجارحة لا تحلّ إلّا إذا كانت معلّمة؛ وذلك بأنّه إذا أرسلت إسترسلت، وإذا زجرت إنزجرت، وإذا أخذت الصّيد أمسكته ولم تأكل منه شيئاً، وأن يجيبه إذا دعاه المرسل **(فكلوا مما)** أي من الصّيد الّذي **(أمسكن)** الجارحات **(عليكم)** أي لكم مما يحلّ أكله **(واذكروا اسم الله عليه)** أي سموا الله على إرسال الجارحة إلى الصّيد أو على أكل ما أمسكن عليكم أو على ذبح ما أمسكن إن أدركتموه حيّاً، أو المراد كلّ ذلك، حيث لا منافاة بينها بل الكلّ مقصود في الشّرع، ولكنّ الأظهر الرجوع إلى أكل ما أمسكن حسب الأسلوب العربي، ويؤيد الرّجوع إلى الإرسال الحديث الآتي فإنّه يصرح بالتّسمية على الإرسال **(واتّقوا الله)** فامتثلوا ما أمر واجتنبوا عمّا نهى **(إنّ الله سريع الحساب)** لثواب المطيع وعقاب العاصي. **مسألة:** ذكر الخازن أنّه روى البخاري ومسلم عن عديّ بن حاتم (رضي الله عنه) قال: سألت رسول الله (ﷺ) فقلت: إنّا قوم نصيد بهذه الكلاب، فقال (ﷺ): (إذا أرسلت كلبك المعلّم وذكرت اسم الله عليه فكل مما أمسك عليك إلّا أن يأكل الكلب فلا تأكل، فإنّي أخاف أن يكون أمسك على نفسه أي لنفسه لا لك، وإن خالط كلاباً لم يذكر اسم الله عليها فأمسكن وقتلهن فلا تأكل فإنّما سمّيت على كلبك ولم تسمّ على غيره)[1]. وفي رواية: فإنّك لاتدري أيّها قتل[2]، وسألته عن صيد المعراض فقال (ﷺ): إذا أصبت بحدّته فكل وإذا أصبت بعرضه فقتل فإنّه وقيذ فلا تأكل، وإذا رميت الصّيد فوجدته بعد يوم أو يومين ليس به إلّا أثر سهمك فكل، وإن وقع في الماء فلا تأكل)[3] فيفيد هذا الحديث أموراً: **الأوّل:** أنّه إذا أرسلت الكلب أو أي جارحة إلى الصّيد بدون التّسمية فقتل الصّيد لا يحلّ أكله لعدم التّسمية. فالتّسمية على إرسال الجارحة شرط للحلّ في الصّيد، وكذا في الرّمي إلى الصّيد وهذا مذهب أحمد، وعند مالك وأبي حنيفة: إن ترك التّسمية عمداً حرم وإن سهواً فلا يحرم لقول النّبيّ (ﷺ): (رفع عن

(١) صحيح مسلم ٣/١٥٢٩ الحديث رقم ١٩٢٩.

(٢) صحيح البخاري ٥/٢٠٨٩ الحديث رقم ٥١٦٧.

(٣) صحيح مسلم ٣/١٥٣١ الحديث رقم ١٩٢٩.

أمّتي الخطأ والنّسيان وما استكرهوا عليه)[١]، وعند الشّافعي: التّسمية سنّة فلا يحرم الصّيد بتركه عمداً ولا سهواً. فيكون معنى قوله (ﷺ): (فإنّك لم تسمّ إلّا على كلبك لا غيره) إنّك أرسلت كلبك لا كلب غيرك فربما قتله غير كلبك فيكون لصاحبه لا لك، ويؤيد هذا المعنى قوله: وفي رواية فإنّك لا تدري أيّهما قتل، والله تعالى أعلم. **الثّاني**: أفاد الحديث أنّ الجارحة إذا أكلت شيئاً من الصّيد فلا يحل الصّيد لأنّها حينئذ أمسكت لنفسها لا لصاحبها، وهذا قول أكثر أهل العلم ومذهب أبي حنيفة وأصح قولي الشافعي وأحمد (رحمهم الله تعالى)، ورخّص بعضهم في أكله، وبه قال جماعة من الأصحاب وعليه مذهب مالك وهو قول عن الشّافعيّ ورواية عن أحمد. **الثّالث**: إنّ ما يرمى إلى الصّيد إن قتله بحدّته وبجرحه له فحلال، وإن قتله بثقله أو إحراقه فلا يحلّ، فبنادق الصّيد اليوم إن قتلت الصّيد بالحرق أو الثّقل فهو حرام وإن قتلت بالجرح فحلال والله تعالى أعلم. واتّفقت الأئمة كلّهم على أنّه إذا أدركت صيد الجارحة أو الرمي وفيه حياة فذبحته فهو حلال.

* * *

﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٥﴾

(اليوم) أي في زمان رسالة محمّد (ﷺ) وبما أوحي إليه (**أحلّ لكم الطّيبات**) الّتي سألتم عنها بقولكم ماذا أحلّ لنا (**وطعام الّذين**) أي وذبائح الّذين (**أوتوا الكتاب**) وهم اليهود والنّصارى بالإتفاق، والمجوس على خلاف[٢] (حلّ لكم) تناوله وأكله (**وطعامكم حل لهم**) قد تمسّك بعض العلماء بهذه الآية على أنّ الكافر مكلّف بالفروع، ولكنّ هذا التّمسك واه، فإنّ المراد بالآية والله أعلم (**وطعامكم حلّ**) إعطاؤكم إيّاه لهم،

---

(١) كنز العمال ٤/٩٨ الحديث رقم ١٠٣٠٧.

(٢) أي خلاف بين الفقهاء في ذبائح المجوس.

فإنّ هذه الآية جاءت لبيان ما يحلّ للمسلم لا لغيره، والمراد كما فسّرنا بالطّعام هو الذّبائح، وقد ذكره تعالى مطلقاً ولم يفصّل ولم يبيّن ولم يفرق، فيحمل على العموم وكيفما كان، قال القرطبيّ: أنّه قال إبن عباس (رضي الله عنه): قال الله تعالى: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾ ثمّ استثنى جلّ وعلا فقال: (وطعام الّذين أوتوا الكتاب حلّ لكم وطعامكم حلّ لهم) فذبيحة اليهوديّ والنّصرانيّ حلال وإن كان النّصرانيّ يقول عند الذّبح باسم المسيح واليهودي باسم العزير لأنّهم يذبحون على الملّة، وقال عطاء (رضي الله عنه): كلْ من ذبيحة النّصراني وإن قال باسم المسيح لأنّ الله تعالى أباح ذبائحهم وقد علم ما يقولون، وقال القاسم بن مخيمِرَة (رضي الله عنه): كلّ من ذبيحته وإن قال باسم جرجيس اسم كنيسة لهم، وهذا قول الزهري وربيعة والشّعبي ومكحول من التّابعين، وروي عن أبي الدرداء وعبادة بن الصّامت من الصحابة ﷺ، وقالت طائفة: إذا سمعت الكتابي سمّى غير إسم الله فلا تأكل، وبهذا قال عليّ وعائشة وإبن عمر (رضي الله عنهم)، وقال مالك (رضي الله عنه): أكره ذلك ولا أحرّم. إنتهى ما قاله القرطبيّ بالنّص، إلّا بعض الكلمات لا تتجاوز ثلاثاً غيّرتها للإيضاح بدون أيّ تأثير في المضمون والمفاد.

أقول: هذا من جهة الذّابح، وأمّا من جهة كيفية ذبحهم فإليك ما قاله القرضاوي فقال: إشترط أكثر أهل العلم أن يكون تذكيتهم مثل تذكيتنا، إلّا أنّ جماعة من المالكية أفتوا بأنّ ذلك لا يشترط. قال القاضي أبو بكر إبن العربي في تفسير هذه الآية: وهذا دليل قاطع على أنّ صيد أهل الكتاب وطعامهم أي ذبائحهم من الطّيبات الّتي أحلّها الله تعالى لنا وهو الحلال المطلق، ولقد سئلت عن النّصراني يفتل عنق الدّجاجة حتّى تموت ثمّ يطبخها، هل تؤكل معه أو تؤخذ طعاماً؟ فقلت: تؤكل لأنّها طعامه وطعام أحباره ورهبانه وإن لم تكن هذه ذكاة عندنا، إلّا أنّ الله تعالى أباحهما لنا، ولقد قال علماؤنا أنّهم يعطوننا نساءهم أزواجاً فيحلّ لنا وطؤهن فكيف لا نأكل ذبائحهم والأكل أهون من الوطأ في الحلّ والحرمة. هذا **وأعيد قولي**: بأنّ الحقّ أنّ الآية عامّة فلا تخصيص لا بآية أو حديث صريحين، فالحاصل أنّ المسألة خلافية، وللمسلم متّسع وإنّ الله يحبّ التّيسير، فللمقلّد أن يعمل بأي قول شاء، ولا حقّ لأحد أن ينكر عليه، ولا ينكر أحد على من عمل بقول أو يفتي به فتوى إرشاد إلّا الجاهل أو المتعصّب أو العميل للتفرقة بين المسلمين، خدمة للأجنبي شعر بذلك أو لم يشعر **(والمحصنات)** أي وأحلّ لكم نكاح المحصنات **(من المؤمنات والمحصنات من الّذين أوتوا الكتاب من قبلكم)** وهم اليهود والنّصارى، فكما تحلّ ذبائحهم تحلّ نكاح بناتهم ونسائهم

(والمحصنات) العفيفات والعاقلات، وفسّرها مجاهد (رَحِمَهُ اللهُ): بالحرائر، وقال: لا يجوز نكاح الإماء من أهل الكتاب، قال القرطبيّ: وعلى هذا القول جلّة العلماء، وأباح أبو حنيفة (رَحِمَهُ اللهُ) نكاح الأمةِ الكتابيّة لعموم هذه الآية **(إذا أتيتموهنّ أجورهن)** أي مهورهنّ وهي الصّداق **(محصنين)** أي متعفّفين غير زانين بالباغيات العامّة **(ولا متّخذي أخدان)** صديقات خاصّة تزنون بهنّ. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى هذه الأحكام أنذر من يخالفها؛ فقال جلّ وعلا: **(ومن يكفر بالإيمان)** أي الإسلام وأحكامه فلم يطبّقها حيث لا يؤمن بها عبّر عن الأحكام بالإيمان تعبيراً عن اللّازم بالملزوم، لأنّ من لوازم الإيمان بالله والرّسول تطبيق أحكامهما **(فقد حبط)** أي بطل وهلك **(عمله)** أي ثوابه **(وهو في الآخرة)** يوم القيامة **(من الخاسرين)** الّذين خسروا جزاء أعمالهم لأنّ شرط ثواب الأعمال الموت على الإيمان، فمن مات على الكفر لا ينال ثواب أي عمل كان.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾

في هذه الآية الكريمة يبيّن الله تعالى كيفيّة الوضوء والتّيمم فقال جلّ وعلا: **(يا أيّها الّذين آمنوا إذا قمتم إلى الصّلاة)** فتوضؤوا، ثمّ يبيّن تعالى كيفية الوضوء بقوله: **(فاغسلوا....إلخ)** وظاهر الآية أنّه يجب الوضوء عند كلّ صلاة وإن كان المرء متوضئاً قبل ولم ينقض وضوؤه، وذلك لإفادة الشّرط أو الجزاء في قوله: **(إذا قمتم إلى الصّلاة فاغسلوا)** ذلك، وهذا مذهب أهل الظّاهر، والجمهور على أنّه لا يجب الوضوء إلّا على من كان محدثاً، فمن كان متوضّئاً ولم ينقض وضوؤه وحضرت الصّلاة صلّى بذلك الوضوء وليس تجديد الوضوء واجباً عليه بل هو سنّة.

ثمّ إنّ أركان الوضوء المتّفق عليها أربعة:

الرّكن الأول: غسل الوجه فبيّنه بقوله: (فاغسلوا وجوهكم) والوجه من منابت شعر الرّأس إلى منتهى الذّقن طولاً، ومن الأذن إلى الأذن عرضاً، فيجب غسل الوجه كلّه وإيصال الماء إلى تحت الحاجبين وأهداب العينين والشّارب والعذارين، خفيفة كانت أو كثّة، وقال مالك: ما بين اللّحية والأذن ليس من الوجه فلا يجب غسله، وقال إبن عبدالبّر: لا أعلم أحداً قال بقول مالك، وقال الزهري: الأذنان من الوجه فيجب غسلهما وهو أيضاً قول تفرد به الزّهري (رحمه الله تعالى).

ثمّ هنا أمور أختلف الفقهاء فيها:

الأوّل: داخل الفم والأنف ليس من الوجه عند الشّافعي (رحمه الله) فالاستنشاق والمضمضة سنتان لا واجبتان، وذلك في الوضوء والغسل أيضاً، وبذلك قال مالك (رحمه الله)، وعند الحنابلة هو من الوجه، فالإستنشاق والمضمضة واجبتان في الغسل والوضوء جميعاً، وفي رواية عن أحمد (رحمه الله) أنّهما واجبان في الغسل لا في الوضوء، وهذا مذهب الأحناف.

الثّاني: اللّحية إن كانت خفيفة وهي أن ترى فيها البشرة وجب إيصال الماء إلى ما تحتها وإلّا فيجب ظاهرها فقط، وإنّما تخليلها سنّة لا واجب، وقال أحمد (رحمه الله): وهذا حكم كل من أشعار الوجه والحاجبين والشّارب أيضاً، خلاف ما سبق من أنّ الواجب فيها إيصال الماء إلى ماتحتها خفيفة كانت أو كثّة.

الثّالث: ما نزل من اللّحية عن الذّقن في الوجه عند أحمد (رحمه الله) فيجب غسله، وقال أبو حنيفة (رحمه الله): لا يجب غسله، وللشّافعيّ (رحمه الله) قولان، وعند مالك (رحمه الله) يمرّ عليه الماء ولا يخلل وعاب على من خلّله.

الرّكن الثّاني: من أركان الوضوء غسل اليدين وقد ذكرها تعالى بقوله: **(وأيديكم إلى المرافق)** أي واغسلوا أيديكم إلى المرفقين، ويجب غسل المرفقين منهما لأنّ إلى بمعنى مع، ولفعل الرّسول (ﷺ) ذلك، فكان يدير الماء على المرفقين، وبهذا قال الشّافعيّ ومالك وأحمد وأبو حنيفة ، وقال بعض أصحاب مالك وابن داود: لا يجب غسل المرفقين لأنّ إلى لإنتهاء الغاية، فينتهي الغسل عند المرفقين، وحكي ذلك عن زفر (رحمه الله).

تنبيه: قال في المغني[1] : (من كان تحت أظفاره وسخ يمنع وصول الماء إلى ماتحته فقال إبن عقيل (رحمه الله): لا تصحّ طهارته حتّى يزيله. ويحتمل أنّه لا يلزمه ذلك

(١) لابن قدامة المقدسي على المذهب الحنبلي

إذ لو كان واجباً لبيّنه الرّسول (ﷺ)، وقد يجتمع الوسخ تحت أنملة وظفر أحدهم حتّى ينتنّ، فعاب عليهم نتن ريحها لا بطلان طهارتهم، ولو كان مبطلاً لبيّن؛ لأنّ ذلك أهم من النّتن فكان أحقّ بالبيان).

الرّكن الثّالث: مسح الوجه فذكره تعالى بقوله: **(وامسحوا برؤوسكم)** لا خلاف في أنّ مسح الرأس واجب إلّا أنّه وقع الخلاف في القدر الّذي يجب مسحه من الرّأس وفي ذلك أقوال.

الأوّل: عند الشّافعيّة يكفي مسح البعض وإن كان قليلاً قدره ثلاثة أشعار، وعند بعض ولو بعضاً من شعرة، وقال بعضهم: لا يجزئ أقلّ من قدر النّاصية، والأصحّ عندهم لا يتقدّر بشئ بل يكفي منه قدر ما يمكن.

الثّاني: عند الحنفيّة: فعن أبي حنيفة (رضي الله عنه) ثلاث روايات: أشهرهما ربع الرّأس، والثّانية قدر ثلاث أصابع، والثّالثة قدر النّاصية. وعن أبي يوسف نصف الرّأس.

الثّالث: عن مالك وأحمد والمزني: جميع الرأس، وفي رواية عن أحمد: أنّه لو ترك ثلث الرّأس جاز، وبهذا أفتى محمد بن مسلمة من أصحاب مالك . والخلاف كلّه نشأ من الباء في (برؤوسكم) فمن قال: للإلصاق قال يجب مسح الكلّ، ومن قال للتّبعيض قال: يكفي البعض، وأختلفوا في تقدير البعض بأقل شيء من الرّأس أو بالرّبع أو بالنّصف أو بالثّلثين، ولله درّهم في هذا الإجتهاد والتّفكير في الدّين.

الرّكن الرّابع: من أركان الوضوء هو غسل الرّجلين أو مسحهما، وقد ذكر تعالى الرّجلين فقال: (وأرجلَكم الى الكعبين) وقد قرئ (وأرجلكم) بالجرّ والنّصب وبالرّفع، ولذلك اختلفوا في حكم الرّجلين، فالجمهور على أنّ الواجب غسلهما ولا يجوز المسح لفعل الرّسول (ﷺ)، فإن فعله بيان للقرآن وكان يغسلهما دائماً ولم يرو منه المسح أبداً، وقراءة الجرّ وردت على جرّ الجوار لوقوعه في جوار الوجوه وهو مجرور، وعند البعض أنّ حكمها المسح فقط لا الغسل، فالغسل غير جائز لقراءة الجرّ، وهذا مذهب إبن عباس وقال به الشيعة، ومذهب انس بن مالك وعكرمه وكثيرين من التّابعين (رحمهم الله)، وقراءة النّصب عندهما للعطف على محلّ وجوهكم، وعند بعض[1] : المرء مخيّر بين الغسل والمسح لورود القراءتين فهما كالرّوايتين.

---

(١) كابن حزم الظاهري.

وعندي: إنّ هذا هو الأصحّ إلّا أنّ الأفضل الغسل لفعل الرّسول (ﷺ) وأما قوله: (ويل للأعقاب من النّار) لأنّ الغسل أو المسح لابدّ أن يصل كلّ واحد منها إلى الكعبين لنصّ الآية والحديث ورد في قوم كانوا يغسلون. فهذه هي الأركان الأربعة المتّفق عليها للوضوء وبقي ركنان إختلف فيهما:

أحدهما: النيّة: فذهب الجمهور إلى أنّ النيّة شرط لصحّة الوضوء وركن في الوضوء.وذهب الأحناف وكثير من الشّافعيّة إلى أنّ النّية ليست شرطاً ولا واجباً في الوضوء. **وأعتقد أنا**: أنّ هذا الخلاف لا حاجة إليه فإنّه ليس من أحد يتوضّأ إلّا وفي قلبه أنّه يتوضّأ وهذا هو النيّة فقط ولا حاجة إلى اللّفظ بدون خلاف. **الثّاني**: التّرتيب بين غسل الأعضاء كما ذكر في الآية الوجه أولاً ثمّ اليدين ثمّ المسح للرّأس ثمّ غسل الرّجلين، فعند الشّافعي وأحمد: أنّ التّرتيب ركن، فلو قدّم أو أخّر بطل وضوؤه، وهذا رواية عن مالك، إلّا أنّ الأشهر عنه أنّ التّرتيب سنّة لا واجب، وبهذا قال أبو حنيفة وأصحابه والثّوري والأوزاعي واللّيث بن سعد والمزني وداود بن علي .وأمّا الموالاة[1] فالجمهور على أنّها سنّة، وقال بعضهم: واجب، وقال بعضهم: تركها عمداً مبطل وسهواً لا يبطل، وفي رواية عن مالك: التّفريق أي ترك الموالاة في المغسول مبطل وفي الممسوحات لا.

* * *

(وإن كنتم جنباً فاطّهروا) أصله فتطّهروا قلبت التاء طاءً فأدغمت فيه بعد إسكانه، فاحتيج إلى زيادة همزة الوصل لتعذّر الإبتداء بالساكن أو المشدّد، فصار اطّهروا أي إذا قمتم إلى الصّلاة فتطهّروا من الجنابة إن كنتم **جنباً**، فالطّهارة من الحدث والجنابة شرط لصحة الصّلاة والدّخول فيها، وقد ذكرنا أحكام الغسل وموجباته في سورة النّساء **(وإن كنتم مرضى)** جمع مريض فلم تستطيعوا إستعمال الماء أو كان إستعماله يضرّكم أو يزيد به مرضكم **(أو)** كنتم **(على)** رأي في **(سفر)** ولم تجدوا ماءً **(أو جاء أحد منكم من الغائط)** أي قضى أحدكم حاجته من بول أو خروج **(أو لامستم النّساء)** والمراد باللّمس الجماع أو التقاء بشرة الرّجل والمرأة، خلاف ذكرناه في سورة النّساء **(فلم تجدوا ماء)** للغسل أو الوضوء أو لكليهما **(فتيمموا صعيداً)** تراباً **(طيباً)** طاهراً **(فامسحوا بوجوهكم**

---

(١) الموالاة هي عدم الفصل الطويل بين غسل الأعضاء بحيث لا يجف الأول قبل البدء بغسل الثاني مع اعتبار اعتدال الهواء والزمان والمكان.

وأيديكم منه) أي من ذلك التّراب، وقد مر ذكر التّيمم والتّفصيل فيه في سورة النّساء أيضاً **(ما يريد الله)** بعرض هذه الأحكام عليكم **(ليجعل عليكم من حرج)** من مشقّة، فإنّ هذه الأحكام لا مشقّة فيها وإنّها سهلة كلّها **(ولكن يريد)** الله **(ليطهركم)** بهذه الأحكام من الخبيث البدني والرّوحي **(وليتّم نعمته عليكم)** بتنظيم حياتكم الماديّة والرّوحيّة الفرديّة والإجتماعيّة بهذه الأحكام، وما أنزله عليكم من شرائعه وأوامره ونواهيه **(لعلكم تشكرون)** لعلّ هنا للأمر لا للتّرجي أي فاشكرون بإطاعة الأوامر والإجتناب عن المناهي كلّها.

تنبيه: لو كان المرء سالماً واجداً الماء ولا مانع في إستعماله إلّا أنّه لو كان توضّأ أو اغتسل فات الوقت للصّلاة، وإن تيمّم أدرك الصّلاة في الوقت لم يتيمّم ويؤخّر الصّلاة عند أكثر العلماء، وعند مالك: يتيمّم ويصلّي لفضيلة الوقت، هذا ما ذكره القرطبيّ، وقال في كتاب الفقه على المذاهب الأربعة: إنّه لا يجوز ذلك مطلقاً عند الشّافعيّ، وعند الحنفية: إن كان للصّلاة بدل كالصّلوات الخمس بدلها القضاء، والجمعة بدلها الظّهر، فلا يتيمّم بل يؤخّر ويأتي بدل الجمعة بالظّهر، وبدل الصّلوات بالمقضي، وإن كانت الصّلاة لا بدل لها كصلاة الجنازة والعيد والنّوافل المؤقّتة يتيمّم، فإنّ صلاة الجنازة لا بدل لها وكذا العيد، والنّوافل عندهم لا تقضى إلّا سنّة الصّبح تقضى إن فاتت معها الفرض أيضاً وإلّا فلا.

* * *

ثمّ بعد أن أمر الله تعالى المؤمنين أن يشكروه أراد الله تعالى أن يذكر كيفيّة شكرهم له فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾

(واذكروا) وقدّروا عظمة **(نعمة الله عليكم)** بتنظيم حياتكم بنظام أصلح وشريعة أقوى ومنهج أقوم بعد أن كنتم فوضى لا نظام لكم، ووحّدكم بهذا النّظام بعد أن كنتم متفرّقين وجعلكم إخواناً بعد أن كنتم أعداءً متناطحين وأعزّكم به بعد أن كنتم أذلّة، فاذكروا هذه النّعمة نعمة الإسلام فلا تضيّعوها ولا تنحرفوا عنها **(واذكروا)** عظمة

(ميثاقه) أي ميثاق الله تعالى حيث دعاكم إلى الإيمان والإسلام على لسان الرّسول فأجبتم دعوة الله **(إذ قلتم)** للرّسول **(سمعنا)** هذه الدّعوة **(وأطعنا)** ما تتضمن هذه الدّعوة من أحكام فلا تنقضوا هذا الميثاق والتزموا بالسّمع والطّاعة **(واتّقوا الله)** من مخالفة هذا الميثاق والإنحراف عن أحكام الله تعالى سرّاً أو علنًا حيث **(إنّ الله عليم بذات الصّدور)** أي بما يستولي على الصّدور من النّوايا والخفايا كما يستولي المالك على ملكه فيصرفه كيف شاء، فمن كان هذا علمه لا يخفى عليه شيء فيعاقبكم على ما تعملون سرّاً وعلناً، وليس المراد بذات الصّدور أنّه يعاقب العبد على النّوايا، حيث لاعقاب على ما في قلب العبد سوى الكفر والنّفاق حتّى يعمل به، بل المراد الإخبار عن علمه وأنّه لا يخفى عليه شيء. ثمّ ذكر الله تعالى أمرين آخرين هما من الشّكر على نعمة الإسلام والأخذ والإلتزام بالميثاق فقال جلّ وعلا: **(يا أيّها الّذين آمنوا كونوا قوّامين)** أي قائمين بشدّة بالإطاعة **(لله)** تعالى فيما يأمركم به وينهاكم عنه مما يتعلق بحقوقه فقط، ومما يتعلق بحقوق النّاس كونوا **(شهداء)** قائلين **(بالقسط)** بالعدل، سواء كنتم شهوداً أو حكاماً أو مدّعين أو مدّعين عليهم **(ولا يجرمنّكم)** أي ولا يحملنّكم على الجرم والذّنب **(شنئآن)** عداوة **(قوم)** وبغضهم فيحملكم ذلك **(على أن لا تعدلوا)** في الحكم أو الشّهادة أو الدّعوى أو جوابها بل **(اعدلوا)** في حقّ البعيد والقريب والعدّو والصّديق والصّالح والفاسق والمسلم والكافر **(هو)** أي العدل **(أقرب للتّقوى)** أي للتجنّب من عذاب الله تعالى، وليس معنى أقرب أنّ غير العدل قريب إلّا أنّ العدل أقرب من غير العدل بل المراد أنّ العدل أقرب الطّاعات إلى التّقوى من عذاب الله وأحبّها إلى الله تعالى، وفي الحديث: (عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة)[1] (واتّقوا) عذاب **(الله)** تعالى بالعدل وترك الظّلم **(إنّ الله خبير بما تعملون)** فيجازيكم عليه، وقد ذكر الجزاء فقال جلّ وعلا:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ۝٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ۝١٠﴾

---

(١) كشف الخفا ٢/٥٨ الحديث رقم ١٧٢١ بهذا اللفظ، وفي رواية بلفظ (يوم من إمام عدل خير من عبادة ستين سنة) / المعجم الأوسط للطبراني ٥/٩٢ الحديث رقم ٤٧٦٥. وضعّفه العلماء أنظر / إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيدج ٥/١٥ الحديث رقم ٢/٤٩١٨.

(وعد الله الّذين آمنوا) بالله إيماناً صحيحاً واستقاموا عليه وماتوا وهم مؤمنون **(وعملوا الصّالحات)** الّتي تتعلّق بحقوق الله والّتي أمر بها بقوله: **(كونوا قوّامين لله)** والّتي تتعلّق بحقوق العباد المأمور بها في قوله كونوا **(شهداء بالقسط)** ووعده لهم هو أنّه **(لهم مغفرة)** من ما صدر عنهم من الخطايا والذّنوب **(وأجر عظيم)** جدّاً لا يدرك عَظمته إلّا الله تعالى. ثمّ أنذر الله تعالى الكافرين فقال جلّ وعلا: **(والّذين كفروا)** بالإسلام **(وكذبوا بآياتنا)** المراد آيات التّوارة الّتي أمرتهم بالإيمان ووصفت لهم الرّسول أو آيات القرآن أو معجزات الرّسول ﷺ أو أحكام الله في الإسلام أو المراد كلّها حيث لا منافاة فإنّهم كفروا بالكلّ وكذّبوا بها **(أولئك)** الكافرون **(أصحاب)** أهل **(الجحيم)** وهي جهنّم أعاذنا الله منها آمين. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكّر المؤمنين بنعمة أخرى عظيمة نعمة النّصر والحفظ من الأعداء فقال جلّ وعلا:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

(يا أيّها الّذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ) أراد **(قوم)** من الكفار **(أن يبسطوا إليكم أيديهم)** بالقتل والإستئصال وكنتم ضعفاء **(فكف أيديهم)** وصرفها عنكم، وذلك أنّ المشركين كانوا غالبين كثيرين والمسلمين قليلين، وكان المشركون دائماً يريدون إستئصال المسلمين، إلّا أنّ الله تعالى منعهم عنهم إلى أن قوي المسلمون وعظمت شوكتهم؛ فغلبوا على أعدائهم جميعاً **(واتّقوا الله)** الّذي رعاكم هذه الرّعاية **(وعلى الله)** لا على غيره **(فليتوكّل المؤمنون)** وليس هنا المراد ترك الأسباب والعمل بل يجب العمل والكسب والاتّخاذ بالأسباب، إلّا أنّه لا يكون الإعتماد على الأسباب، بل على الله تعالى، فإنّ الأسباب بدون إرادة الله لا تنفع، وهذا هو الفرق بين الكافر والمسلم، حيث الكافر يعتمد على الأسباب فقط. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر للمؤمنين أنّه أنعم على اليهود نعماً كثيرة وعظيمة، وأخذ منهم الميثاق، وحيث لم يشكروا هذه النّعم غضب عليهم ولعنهم، وذلك ليعتبر بهم المؤمنون فلا يفعلوا مثل ما فعلوا فيقعوا في الغضب واللّعن، كما وقعوا فيه فقال جلّ ثناءه وعلا:

﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

(ولقد) أي والله لقد **(أخذ الله ميثاق)** العهد من **(بني إسرائيل)** أن يحكّموا التّوراة ويطبّقوا شريعة الله تعالى **(وبعثنا)** وجعلنا **(منهم اثني عشر نقيباً)** حاكماً لكل سبط حاكم منهم وقال الله **(إنّي معكم)** أنصركم على الأعداء **(لئن أقمتم الصّلاة)** وما ضيّعتموها **(وآمنتم)** واستقمتم على الإيمان برسلي السّابقين واتباع من جاء بعدهم من الرّسل **(وعزرتموهم)** ونصرتموهم **(وأقرضتم الله قرضاً حسناً)** بالتّضحية بالمال والأنفس في سبيل الحفاظ على دين الله وتطبيق شريعته **(لأكفّرن)** لأزيلّن **(عنكم سيئاتكم)** بالعفو عنها **(ولأدخلّنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر)** ونقض هذا الميثاق وانحرف **(بعد ذلك منكم فقد ضلّ)** أي ترك وهجر على **(سواء السبيل)** السّواء مصدر بمعنى إسم الفاعل أي المستوى، وأضيف إلى السّبيل إضافة الصّفة إلى الموصوف، فالتّقدير: فقد ترك السّبيل المستوى الّذي يبلغ سالكه الخير والفلاح، وسلك السّبيل الّذي يبلغ سالكه إلى الشّر والهلاك **(فبما)** أي بسبب شيء عظيم وهو **(نقضهم ميثاقهم)** بترك الصّلاة وعدم أدائهم للزّكاة والكفر بالرّسل وعدم نصرتهم وعدم التّضحية والعمل لإعلاء دين الله تعالى، فبسبب كلّ ذلك **(لعنّاهم)** أبعدناهم عن رحمتنا **(وجعلنا قلوبهم قاسية)** فاسدة جافة يابسة صلبة لا تؤثّر فيها الموعظة والإرشاد **(يحرّفون الكلم)** أي كلمات التّوراة فيزيّلونها **(عن مواضعه)** الموضوعة لها إلى معان أخرى يضلّون بها النّاس عن إتّباع الحقّ والهدى والصّراط المستقيم، وبذلك غيّروا حكم التّوراة في الأمور وغيّروا

وصف الرّسول والأمر بالإيمان به **(ونسوا حظّاً)** قسماً كبيراً **(ممّا ذكّروا)** وعظوا وأمروا **(به)** في التّوراة **(ولا تزال)** أيّها المخاطب **(تطّلع على خائنة)** أي خيانة **(منهم)** أو على فرقة خائنة منهم وعلى استمرار الزّمان، ومن هنا كان مظّنة أن يهيج قلب الرّسول والمؤمنين فيبطشوا باليهود سكان المدينة، فهداهم الله تعالى فقال: **(فاعف عنهم واصفح)** وأعرض ولا تتعرّضوا لهم **(إنّ الله يحبّ المحسنين)** فأعرض الرّسول عنهم إلى أن أمره الله تعالى بقتالهم وإجلائهم، إلى أن تطهّرت المدينة من خبثهم وخبائثهم. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حال اليهود أراد أن يذكر حال النّصارى فقالّ جل وعلا:

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾

(ومن الّذين قالوا إنّا نصارى) وادّعوا أنّهم ينصرون دين الله تعالى وعيسى وما جاء به وكذبوا لأنّهم بدّلوا وغيّروا فمنهم **(أخذنا ميثاقهم)** على لسان المسيح (عليه السلام) أن يحكموا بدين الله ويتمسّكوا بشريعته ولا ينحرفوا عنها **(فنسوا)** أي فتركوا **(حظّاً)** نصيباً كثيراً **(مما ذكّروا)** وعظوا وأمروا **(به)** في الإنجيل **(فأغْرينا)** فأوقعنا **(بينهم)** بين مذاهبهم **(العداوة والبغضاء)** ولا ينجون منها **(إلى يوم القيامة وسوف)** أي إذا جاء يوم القيامة **(ينبّئهم الله بما كانوا)** في الدّنيا **(يصنعون)** من تبديل دين الله وتحريف كتابه والإنحراف عن عقيدة التّوحيد وعن أحكام الله الواحد القهّار، والمراد بإخباره تعالى بما صنعوا أنّه ينتقم منهم على هذه الصنائع القبيحة والأعمال الشّنيعة، وفي هذه الآية معجزة فإنّه لا تزال النّصارى مذاهب متطاحنة يكفّر بعضها بعضاً ويلعنها ويعاديها، وحينما يتلو المسلمون هذه الآيات يجب عليهم أن ينظروا إلى أنفسهم ليروا هل فعلوا مثل ما فعل اليهود والنّصارى من نقض الميثاق والبعد عن الدّين فيتوبوا، أم لم يفعلوا مثلهم؟ بلى، ثمّ والله بلى، ولقد فعلنا مثلهم ونقضنا الميثاق وابتعدنا عن القرآن وروحه وعن السّنة النّبوية الصّحيحة وعن تعاليم الإسلام وأخلاقه وعن أحكامه وعاداته أفراداً وجماعات؛ فلذلك غضب الله تعالى علينا وأوقع بيننا العداوة والبغضاء وأذلّنا تحت أقدام الأعداء، وصدق فينا قول الرّسول (صلى الله عليه وسلم): (لتتّبعنّ سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتّى لو دخلوا جحر ضبّ لدخلتموه، قال قيل يا رسول الله: أو اليهود والنّصارى؟ قال:

فمن؟)[1] فهل للمسلمين من يقظة؟ وهل لهم من رجوع إلى دينهم ليعود إليهم عزهم وسعادتهم وقوّتهم وسيادتهم؟ فـ (إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم) فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

ثمّ دعا الله تعالى اليهود والنّصارى إلى الإيمان بالرّسولﷺ وأثبت لهم أنّه رسول من الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾﴾

(**يا أهل الكتاب**) أي اليهود والنّصارى (**وقد جاءكم رسولنا**) محمّد (ﷺ) من دلائل نبوّته ورسالته أنّه (**يبيّن لكم كثيراً ممّا كنتم تخفون**) من الأحكام والقصص والمواعظ الموجودة (**من الكتاب**) أي التّوراة والإنجيل، وممّا كان من مختصات الأحبار والرّهبان، وهو أمّي لم يكن له أيّ إلمام وأيّ إطّلاع على الكتب والقراءة والكتاب (**ويعفو عن كثير**) حيث إنّ القصد من إظهار ما خفي هو إثبات أنّه رسول؛ وذلك يحصل بإظهار بعض ما خفي بدون حاجة إلى إظهار الكلّ (**قد جاءكم من الله نور**) أي منهج صالح ونظام قويم (**وكتاب**) وهو القرآن (**مبين**) أي موضّح لهذا النّهج وذلك النّظام (**يهدي**) أي يوصل (**به الله من اتّبع**) وأحبّ الحقّ و(**رضوانه**) فيوصله تعالى (**سبيل السّلام**) السّلامة من عذاب الله تعالى في الدّنيا والآخرة، فالمتمسّك به سالم يسلّمه الله تعالى (**ويخرجهم من الظّلمات**) أي العقائد الباطلة والأحكام الفاسدة (**إلى النّور**) إلى العقيدة الصّحيحة والحكم الصّالح (**بإذنه ويهديهم**) ويرشدهم (**إلى صراط مستقيم**) لا يضلّ من سلكه.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر ضلال النّصارى واليهود وسبب كفرهم فقال جلّ وعلا:

---

(١) المستدرك على الصحيحين ١/ ٩٣ الحديث رقم ١٠٦.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾

إنّ تفسير هذه الآية الكريمة يتوقف على العلم بتأريخ الدّيانة المسيحيّة والمسيحيين؛ ولذلك ننقل ما قاله السّيد قطب (رحمة الله تعالى عليه) في هذا الموضوع نصاً بدون أي تغيير فيه فقال: إنّ الّذي جاء به عيسى (عليه السلام) من عند ربه هو التّوحيد الّذي جاء به كلّ رسول، والإقرار بالعبوديّة الخالصة لله شأن كلّ رسول، ولكنّ هذه العقيدة النّاصعة أدخلت عليها التّحريفات بسبب دخول الوثنيّين في النّصرانيّة وحرصهم على رواسب الوثنيّة الّتي جاؤوا بها ومزجها بعقيدة التّوحيد، حتّى لم يعد هناك إمكان لفصلها وفرزها وتنقية جوهر العقيدة منها، ولم تجيء هذه الإنحرافات كلّها دفعة واحدة، ولكنّها دخلت على فترات، وأضافتها المجامع واحدة بعد الأخرى حتى انتهت إلى هذا الخليط العجيب من التّطوّرات والأساطير الّذي يحتار فيه العقول، حتّى عقول الشّارحين للعقيدة المحرّفة من أهلها المؤمنين بها. وقد عاشت عقيدة التّوحيد بعد المسيح (عليه السلام) في تلامذته وفي أنبائهم وأحد الأناجيل الكثيرة الّتي كتبت وهو إنجيل برنابا، يتحدّث عن عيسى (عليه السلام) بوصفه رسولاً من عند الله. ثمّ وقعت بينهم الإختلافات. فمنهم من قال: إنّ المسيح رسول من عند الله كسائر الرّسل، ومن قائل أنّه رسول نعم، ولكن له بالله صلة خاصّة، ومن قائل أنّه إبن الله وليس مخلوقاً بل له صفة القدم كالأب، ولتصفية هذه الخلافات اجتمع في عام ٣٢٥م (مجمع نيقية) الّذي اجتمع فيه ٤٨ ألفاً من البطارقة والأساقفة، قال عنهم ابن البطريق أحد مؤرّخي النّصرانيّة: وكانوا مختلفين في الآراء والأديان، فمنهم من كان يقول: إنّ المسيح وأمّه إلاهان من دون الله وهم(البرَبرانية). ومنهم من كان يقول: إنّ المسيح من الأب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار، فلم تنقص الأولى بانفصال الثّانية منها، وهي مقالة (سابليوس) وشيعته، ومنهم من كان يقول: لم تحبل به مريم تسعة أشهر وإنّما مرّ في بطنها كما يمرّ الماء في الميزاب، لأنّ الكلمة دخلت في أذنها وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها، وهي مقالة (إيليان) وأشياعه، ومنهم من كان يقول: إنّ المسيح إنسان خلق من اللاهوت

كواحدٍ منّا في جوهره، وإنّ ابتداء الإبن من مريم، وإنّه إصطفي ليكون مخلصاً للجوهر الأنسي، صحبته النّعمة الإلهية وحلّت فيه بالمحبّة والمشيئة، ولذلك سمّي ابن الله، ويقولون: إنّ الله جوهرٌ قَديمٌ واحد وأقنوم واحد ويسمّونه بثلاثة أسماء، ولا يؤمنون بكلمة ولا بروح القدس، وهي مقالة (بولس الشّمشاطي) بطريرك أنطاكية وأشياعه وهم (البوليقانيون)، ومنهم من كان يقول: إنّهم ثلاث آلهة لم تزل صالح وطالح وعدل بينهما، وهي مقالة (مرقيون) اللّعين وأصحابه، وزعموا أنّ مرقيون هو رئيس الحواريّين وأنكروا (بطرس)، ومنهم من كانوا يقولون بألوهيّة المسيح، وهي مقالة بولس الرّسول ومقالة ١٣١٨ أسقفاً. وقد اختار الإمبراطور الرّوماني قسطنطين الّذي كان قد دخل في النّصرانية من الوثنيّة ولم يكن يدري شيئاً من النّصرانية، هذا الرأي الأخير وسلّط أصحابه على مخالفهم وشرّد أصحاب سائر المذاهب وبخاصة القائلين بألوهية الأب وحده، وناسوتيّة المسيح، وقد ذكر صاحب كتاب تاريخ الأمّة القبطيّة عن هذا القرار ما نصّه: (إنّ الجامعة المقدّسة والكنيسة الرّسولية تحرّم كلّ قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجوداً فيه، يقول: وإنه لم يوجد قبل أن يولد وإنّه وجد من لا شيء، أو من يقول: إنّ الإبن وجد من مادة أو جوهر غير جوهر الله الأب. وكلّ من يؤمن أنّه خلق، أو من يقول: أنّه قابل التّغير ويعتريه ظلّ الدّوران. ولكنّ هذا المجتمع بقراراته لم يقض على نحلة الموحّدين أتباع (آريوس)، وقد غلبت على قسطنطينة وأنطاكية وبابل والأسكندريّة ومصر، ثمّ ثار خلاف جديد حول (روح القدس) فقال بعضهم: هو إله، وقال الآخرون: ليس بإله، فاجتمع (مجمع قسطنطينية الأول) سنة١٨٣م ليحسم الخلاف في هذا الأمر، وقد نقل ابن البطريق ما تقرر في هذا المجمع بناء على مقالة أسقف الاسكندريّة وقال (تيموتاوس) بطريرك الأسكندرية: ليس روح القدس عندنا بمعنى غير روح الله، وليس روح الله شيئاً غير حياته، فإذا قلنا أنّ روح القدس مخلوق فقد قلنا أنّ روح الله مخلوق، وإذا قلنا أنّ روح الله مخلوق فقد قلنا أنّ حياته مخلوقة، وإذا قلنا أنّ حياته مخلوقة فقد زعمنا أنّه غير حيّ، وإذا زعمنا أنّه غير حيّ فقد كفرنا به، ومن كفر به وجب عليه اللّعن. وكذلك تقرّرت ألوهية روح القدس في هذا المجمع كما تقرّرت ألوهية المسيح في مجمع (نيقيه) وتمّ (الثّالوث) من الأب والإبن وروح القدس. ثمّ ثار خلاف آخر حول إجتماع طبيعة المسيح الإلهية وطبيعته الإنسانية أو اللّاهوت والنّاسوت كما يقولون، فقد رأى (نسطور) بطريرك القسطنطينية أنّ هناك (أقنوماً) وطبيعة أقنوم الألوهيّة من الأب وتنسب إليه، وطبيعة الإنسان قد ولدت من مريم، فمريم أمّ

الإنسان في المسيح وليست أمّ الإله، ويقول في المسيح الّذي ظهر بين النّاس وخاطبهم كما نقله عنه ابن البطريق: (إنّ هذا الإنسان الّذي يقول أنّه المسيح بالمحبّة فيتّحد مع الأبن، ويقال أنّه الله وإبن الله وليس بالحقيقة ولكن بالموهبة) ثمّ يقول نسطور: ذهب إلى أنّ ربّنا يسوع المسيح لم يكن إلهاً في حدّ ذاته، بل هو إنسان مملوء من البركة والنّعمة، أو هو ملهم من الله فلم يرتكب خطيئة وما أتى امراً، وخالفه في هذا الرّأي أسقف روما وبطريرك الأسكندرية وأساقفة أنطاكيا، فاتّفقوا على عقد مجمع رائع، وانعقد (مجمع أفسس) سنة ٤٣١م وقرر هذا المجمع كما يقول ابن البطريق: أنّ مريم العذراء والدة الله وأنّ المسيح إله حقّ وإنسان، معروف بطبيعتين متوحّد في الأقنوم ولعنوا نسطور، ثمّ خرجت كنيسة الأسكندرية برأي جديد إنعقد له (مجمع أفسس الثاني): إنّ للمسيح طبيعة واحدة اجتمع فيها اللّاهوت بالنّاسوت. ولكنّ هذا الرأي لم يسلم، واستمرّت الخلافات الحادّة فاجتمع مجمع (خلقيدونيّة) سنة ٤٥١م وقرّر أنّ المسيح له طبيعتان لا طبيعة واحدة، وأنّ اللّاهوت طبيعة وحدها والنّاسوت طبيعة وحدها إلتقيا في المسيح، ولعنوا مجمع أفسس الثّاني. ولم يعترف المصريّون بقرار هذا المجمع، ووقعت بين المذهب المصري (المنوفيسية) والمذهب (الملوكاني) الّذي تبنّته الدّولة الامبراطوريّة ما وقع من الخلافات الدّامية.

ونكتفي بهذا القدر في التّصوير لمجمل التّطورات المنحرفة حول ألوهيّة المسيح والخلافات الداميّة والعداوة والبغضاء الّتي ثارت بسببها بين الطّوائف، وما تزال إلى اليوم ثائرة، وتجيء الرّسالة الأخيرة لتقرّر وجه الحقّ في هذه القضيّة ولتقول كلمة الفصل، ويجيء الرّسول الأخير ليبيّن لأهل الكتاب حقيقة العقيدة الصّحيحة الّتي جاء القرآن لها فقال: **(لقد كفر الّذين قالوا إنّ الله هو المسيح عيسى ابن مريم)** وهؤلاء قوم من النّصارى **(قل)** أيّها المخاطب لهم **(فمن يملك)** يستطيع **(من الله)** من جانبه **(شيئاً)** من الموافقة **(إن أراد أن يهلك)** أن يميت **(المسيح ابن مريم)** وقد أماته فعلاً على القول بأنّه ميت ولم يستطع أن يدافع عن نفسه شيئا، فكيف يكون إلهاً أو يحييه عند القول بحياته، فلا يستطيع أن يدافع عن نفسه فكيف يكون إلهاً؟ **(وأمّه)** أي من يستطيع أن يدافع شيئا إن أراد الله أن يهلك أمّ المسيح؟ وقد أهلكها وأماتها الله تعالى فلم يستطع المسيح أن يدافع عنها شيئاً فكيف يكون إلهاً؟ **(ومن في الأرض جميعاً)** أي من يستطيع أن يدافع إن أراد الله أن يهلك من في الأرض جميعاً، سواء المسيح وأمّه أو غيرهما، وبهذا تثبت أنّ المسيح ليس إلهاً لأنّ الإله من يحيي ويميت

ويحيا ولا يموت، ويقتدر على كلّ شيء، وعيسى عجز في الدّفاع عن نفسه، وقد قال النّصارى إنّه قتل ومع ذلك يدّعون له الألوهيّة فكيف يكون إلهاً من يُقتل لا يستطيع الدّفاع عن نفسه؟ هذا ضلال مبين **(ولله ملك السّموات والأرض وما بينهما)** والمسيح ما كان يملك شيئاً فكيف يكون إلهاً؟ **(يخلق)** الله تعالى **(ما يشاء)** ولم يكن عيسى يستطيع أن يخلق شيئاً فكيف يكون إلهاً؟ **(والله على كلّ شيء قدير)** وعيسى كان عاجزاً عن كلّ شيء إلّا ما أقدره الله تعالى عليه.

سؤال: إنّ الله تعالى يقول في الآية (١٧١) من سورة النّساء ما معناه: أنّ النّصارى يقولون: إن الآلهة ثلاثة: الله وعيسى ومريم، وقال في سورة التوبة الآية (٣٠): إنّ النّصارى يقولون: إنّ المسيح هو ابن الله تعالى، فكيف التّوفيق بين الآيتين وآيتنا هذه؟

الجواب: إنّ النّصارى طوائف مختلفة في العقيدة، فمنهم من يقول: إنّ المسيح هو ابن الله، ومنهم من يقول: هو الله وحده، ومنهم من يقول، هو إله وأمّه إله مع الله تعالى، قال القرطبي: إنّه قيل أنّ النّصارى كانوا على دين الإسلام دين التوحيد إحدى وثمانين سنة بعدما رفع عيسى (عليه السلام)، حتّى وقع بينهم وبين اليهود حرب، وكان في اليهود رجل شجاع يقال له بولس، قتل جماعة من أصحاب عيسى فقال: إن كان الحقّ مع عيسى فقد كفرنا وجحدنا وإلى النّار مصيرنا، فنحن مغبونون إن دخلت النّصارى الجنّة ودخلنا نحن النّار، وإنّي أحتال فيهم فأضلّهم فيدخلون النار، وكان له فرس يقال له العقاب فأظهر الندامة ووضع على رأسه التّراب وقال للنّصارى: أنا بولس عدوّكم، فقد نوديت من السّماء أن ليس لك توبة حتّى تتنصر، فأدخلوه في الكنيسة بيتاً، فأقام فيه سنة لا يخرج لا ليلاً ولا نهاراً حتّى تعلّمَ الإنجيل، فخرج وقال نوديت من السّماء أنّ الله قبل توبتي فصدّقوه وأحبّوه، ثمّ مضى إلى بيت المقدس واستخلف عليهم نسطور، وأعلمه أنّ عيسى ابن مريم (عليه السلام) إله، ثمّ توجه إلى الرّوم وعلّمهم اللّاهوت والنّاسوت وقال: لم يكن عيسى بإنس فتأنس، ولا بجسم تجسّم، ولكنّه ابن الله، وعلّم رجلاً يقال له يعقوب ذلك، ثمّ دعا رجلاً يقال له الملك فقال له: إنّ الإله لم يزل ولا يزال عيسى، فلمّا استمكن منهم دعا هؤلاء الثّلاثة واحداً واحداً، وقال له: أنت خالقي ولقد رأيت المسيح بها في المنام ورضي عني، وقال لكلّ أنا غداً أذبح نفسي وأتقرّب بها، فادع النّاس إلى مذهبك. ثمّ دخل المذبح فذبح نفسه، فلمّا كان يوم ثالثه، دعا كلّ واحد منهم

النّاس إلى مذهبه، فتبع كل واحد منهم طائفة، فاقتتلوا واختلفوا إلى يومنا هذا، فجميع النّصارى يعود إلى الفرق الثّلاث النّسطورية واليعقوبية والملكانية، وهذه الطّوائف أعداء[1]، فهذا ما قاله تعالى ﴿فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ سورة المائدة الآية/ ١٤ ـ.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى إفك النّصارى أراد أن يذكر إفك اليهود والنّصارى حقاً فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

(وقالت اليهود والنّصارى نحن أبناء الله وأحبّاؤه) عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنّ النّبيّ (ﷺ) دعا جماعة من اليهود إلى الإسلام وخوّفهم بعقاب الله تعالى فقالوا: كيف تخوّفنا بالله ونحن أبناء الله وأحباؤه؟ هذا ما عن اليهود، وأما النّصارى فإنّهم يتلون في الإنجيل الّذي لهم أنّ المسيح قال لهم: أذهب إلى أبي وأبيكم، والحاصل أنّ اليهود والنصارى كانوا يرون لأنفسهم فضلاً على سائر الخلق بسبب أسلافهم من الأنبياء، حتّى انتبهوا في تعظيم أنفسهم إلى أن قالوا: نحن أبناء الله وأحبّاؤه، فردّ الله تعالى عليهم فقال جلّ وعلا: **(قل)** أيّها المخاطب لهم فإذا كنتم أبناء الله وأحباءه **(فلم يعذّبكم بذنوبكم)** باعترافكم؟ حيث تقولون: **(لن تمسّنا إلا أياماً معدودة)** والأب لا يعذّب إبنه وحبيبه بالنّار ولا يوماً واحداً، ولم يعذّبكم في الدّنيا بالبلايا والمصائب؟ والأب لا يؤذي ابنه وحبيبه، فتبيّن أنّكم كاذبون في دعاء بنوّتكم لله تعالى ومحبّة الله تعالى لكم **(بل أنتم)** كسائر النّاس **(بشر)** خلقتم **(ممّن خلق)** الله إياه وهو آدم وحواء وحالكم كحال النّاس **(يغفر)** الله **(لمن يشاء منكم)** وهو الّذي آمن وأسلم لله ولم يشرك بالله ولم ينسب إليه الولد والصّاحبة **(ويعذّب من يشاء)** وهو الّذي كفر ونسب إلى الله تعالى ما لا يليق به وأنّ الله تعالى منزّه عن الأولاد، لأنّ الأولاد إنّما يريدهم المحتاج؛ والله ليس محتاجاً بل هو غنيّ مطلق حيث **(ولله)** ملكاً وملكا كلّ **(ما في السّموات)** وجميع

---

(١) أي أعداء فيما بينهم.

ما في **(الأرض)** **(و)** عموم **(ما بينهما)** من الكواكب والنّجوم والشّموس والأقمار والطّبقات النّاريّة والغازيّة والهوائيّة **(وإليه المصير)** الرّجوع يوم القيامة، فيرجع إليه كلّ النّاس فيحاسبهم على عقائدهم وأعمالهم، ويجازيهم وفقها إن خيراً فخيراً وإن شرّاً فشرّاً، وهذا وعيد لليهود والنّصارى على كفرهم وإفكهم جميعاً. ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن سبب بعثه للرّسول محمّد (ﷺ) وقد يختلج بقلب اليهود والنّصارى أنّه لماذا يبعث الله محمّداً (ﷺ) نبيّاً وعندنا التّوراة والإنجيل ونحن مستغنون عن كلّ نبيّ ورسول فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩﴾

(يا أهل الكتاب) أي اليهود والنّصارى **(قد جاءكم رسولنا)** محمّد (ﷺ) **(يبيّن لكم)** العقائد الحقّة والأحكام الصّحيحة **(على فترة)** بعد انقطاع **(من الرّسل)** وتحريفات في العقيدة وتغيّرات في أحكام الله تعالى إلى حدّ حقّ عليكم العذاب في الدّنيا والآخرة، فأرسلنا إليكم هذا الرّسول ليعيد بكم إلى العقيدة الحقّة والأحكام الصّحيحة ودين الله الخالص، ولكي لا يبقى لكم أيّ معذرة وحقّ في **(أن تقولوا ما جاءنا من بشير)** يبشّرنا على اتباعه **(ونذير)** ينذرنا على الباطل الّذي خضناه، ولم يكن لنا ذنب في ذلك، حيث ورثناه من الآباء والأجداد ولم يأت أحد ينبّهنا على ما فيه من الأخطاء والانحرافات والضّلالات **(فقد جاءكم بشير ونذير)** ويخبركم بكلّ باطل أنتم عليه وينذركم عليه ويرشدكم إلى ما هو الحقّ ويبشّركم على التّمسك به والرّجوع إليه **(والله على كلّ شيء قدير)** ذو قدرة لا يعجز عن إرسال الرّسل وتنفيذ ما بشّروا به وأنذروا حسب أمره المحتوم وبيانه الواضح المبين.

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٠ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ

مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾

اعلم أنّه قبل هذه الآيات السّبع الشّريفة ذكّر الله تعالى بني إسرائيل بالميثاق الّذي أخذ منهم وأنّهم نقضوا الميثاق ولم يعملوا به وبشّرهم بالخير إن آمنوا بالرّسول(ﷺ) وأنذرهم على الكفر به وأثبت لهم حقيقة رسالة الرّسول(ﷺ) وبعد كلّ هذه الأمور أصرّوا على معاداة الرّسول وعدم الإيمان به فأتى الله تعالى بهذه الآيات لأمور: **الأوّل:** ليسلّي الرّسول(ﷺ) ويأمره بأن لا يحزن وأن يصبر عن بني إسرائيل فإنّ بني إسرائيل واليَهود قد جبلوا على التّمرد والخلاف، وقد تمرّدوا على موسى، وهو رسولهم ونبيّهم ومن بني جلدتهم وكانوا مؤمنين به أشدّ مما تمرّدوا عليك يا محمّد.

الثّاني: أن ينذر اليهود ويخوفهم بأنّهم إن استمرّوا على هذا التّمادي في الكفر ومعاداة الرّسول والتّمرد عليه فإنّ الله تعالى يعذّبهم كما عذّب أسلافهم حينما تمرّدوا على موسى (عليه السلام).

الثّالث: أن يكون ما في هذه الآيات معجزة للرّسول (ﷺ) وذلك لأنّ النّبي (ﷺ) كان أميّاً لا صلة له بأي كتاب وقصص وأخبار، فحينما يخبر عن هذه الأمور الخفيّة ويكشف أسراراً من تاريخ اليهود القديم ومما هو ما اختص به الأحبار والرّهبان، فإن دلّ ذلك على شيء فإنّما يدل على أنّه أوحي إليه هذه الأمور، وإلّا فلا مجال لعلمه بها سوى الوحي من الله تعالى.

الرّابع: أن يكون موعظة وعبرة للمؤمنين فيتجنّبوا ما ارتكبه اليهود من مخالفة رسولهم حذراً من أن يقعوا فيما وقع فيه اليهود من غضب الله تعالى عليهم وانتقامه منهم، وفي الآيات حكم كثيرة اكتفينا منها بهذا القدر والله تعالى أعلم. وقد اتّعظ المسلمون من هذه القصّة فإنّه حينما استشارهم الرّسول (ﷺ) في حرب بدر قالوا وبصوت واحد: (لا نقول

لك يارسول الله ما قاله بنو إسرائيل لنبيهم: إذهب أنت وربّك فقاتلا فإنّا هاهنا قاعدون، بل نقول: إذهب أنت وربّك فقاتلا فانّا معكما مقاتلون والله لو سلكت بنا هذا البحر لخضناه)[١] **(و)** أذكر يا أيّها النّبي بني إسرائيل أنّه حينما أنجى الله تعالى بني إسرائيل وأغرق عدوّهم فرعون في البحر، أمر تعالى موسى (عليه السلام) أن يذهب بقومه إلى بيت المقدس ويسكنوا هناك، ووعدهم أن يجعل منهم أنبياء كثيرين وملوكاً في الأرض كما فعل لهم ذلك سابقاً فخاطب و**(قال موسى لقومه يا قوم)** أصله قومي حذف الياء تخفيفاً **(اذكروا نعمة الله عليكم)** بأن أهلك عدوّكم فرعون وفلق لكم البحر و نجّاكم، وأنزل عليكم المنّ والسّلوى، وفجّر لكم من الحجر إثنتي عشرة عيناً وغير ذلك من النّعم، ومن أكبر نعمه الّتي يجب أن لا تنسوها **(إذ جعل فيكم أنبياء)** كثيرين من إبراهيم (عليه السلام) إلى يومنا هذا **(وجعلكم ملوكاً)** في الأرض من سيدنا يوسف (عليه السلام) إلى أن تسلط عليكم فرعون **(وآتاكم)** من النّعم **(ما)** قدراً **(لم يؤت أحداً)** سواكم **(من العالمين)** من كثرة الأنبياء والملوك .**(ياقوم ادخلوا الأرض المقدّسة)** في بلاد فلسطين **(الّتي كتب)** أي قدّر **(الله لكم)** القرار والتّواطن فيها **(ولا ترتدّوا)** ولا ترجعوا **(على أدباركم)** إلى ما وراءكم فتتهربوا من الدّخول فيها خوفاً من الجبابرة **(فتنقلبوا)** فتصيروا بذلك الإنهزام **(خاسرين)** ملككم وأرضكم ورعاية الله تعالى لكم **(قالوا ياموسى إنّ فيها قوماً جبّارين)** أي أشدّاء وهم العمالقة **(وإنّا لن ندخلها حتّي يخرجوا منها فإن يخرجوا منها)** من البلدة **(فإنّا داخلون)** فيها، وهكذا كان بنو إسرائيل يتدلّلون على الرسول[٢] وعلى الله ويريدون أن يكون لهم كلّ شيء بدون تعب وعمل وكفاح ومشقّه، وأن يكون كلّ شيء لهم حاصلاً بخارقة عادة ومعجزة يخلقها الله تعالى كالمنّ والسّلوى وتفجير العيون وفلق البحر وإنجائهم منها وأغرق عدوّهم فيه، وهذا الّذي كانوا يريدونه خلاف سنة الله تعالى في عباده، فإنّ الله تعالى خلق الإنسان ليكافح ويناضل، وبذلك يعزّ ويسود ويكون له الحياة الحرّة السّعيدة ولا يخلق تعالى للإنسان كلّ شيء بأمر كن فيكون ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم﴾ سورة التوبة الآية/ ١٠٥. أمر ربّ العالمين وقاعدة الحياة للنّاس وسنّة الله تعالى في عباده **(قال رجلان)** هما يوشع وكالب وكانا **(من الّذين يخافون)** الله تعالى وعقابه حيث **(أنعم الله عليهما)** بالإيمان به والخوف منه يا قوم **(ادخلوا عليهم الباب)**

---

(١) دلائل النبوة لجعفر بن محمد الفريابي ٣/ ٣٤.

(٢) أي عيسى عليه السلام.

باب المدينة ولا تخافوا **(فإن دخلتموه)** الباب **(فإنّكم غالبون)** عليهم بإذن الله تعالى **(وعلى الله فتوكّلوا)** في أمركم هذا ولا تخافوا **(إن كنتم مؤمنين)** بالله ورسوله فإنّ الله تعالى وعدكم النّصر وأنّه لا يخلف الوعد وحاشاه **(قالوا يا موسى إنّا لن ندخلها ابداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربّك فقاتلا)** القوم وأخرجوهم من القرية **(إنّا ههنا قاعدون)** ننتظر خروجهم فإذا خرجوا فإنّا داخلون فيها، فلمّا يئس منهم موسى وعلم أنّهم لا حراك لهم ولا غيرة لا للدّين ولا للدّنيا توجه إلى الله تعالى متحسراً ومعتذراً وشاكياً **(قال ربّ أنّي لا أملك إلّا نفسي وأخي)** هارون **(فافرق)** فاحكم **(بيننا وبين القوم الفاسقين)** أي الخارجين عن أمرك فاحكم بيننا وبينهم كما ترى وتريد **(قال)** تعالى استجابة لشكاية موسى(عليه السلام) **(فإنّها)** أي مدينة القدس **(محرّمة)** ممنوعة **(عليهم)** لا يستطيعون دخولها إلى **(أربعين سنة)** ويكون حالهم أنّهم **(يتيهون)** في الأرض في أرض التّيه ما بين مصر والشّام إلى أن يكمل أربعون سنة وبعد ذلك يفتحونها **(فلا تأس)** فلا تحزن على **(القوم الفاسقين)** الخارجين عن الطّاعة وعلى ذلّهم وتيههم هذه المرة فإنّهم يستحقون ذلك. هذا وإليكم القصّة الّتي تشير إليها هذه الآيات. قال الأستاذ عبدالوهاب النّجار في كتابه قصص الأنبياء: أمر الله تعالى موسى (عليه السلام) أن يذهب ببني أسرائيل إلى الأرض المقدّسة لامتلاكها، ولكنّ بني إسرائيل قد ثقفوا بالذّلة وتمكّن لهم الضّعة والهوان من أنفسهم، وتعوّدوا على الذّل في الأرض للفراعنة، فلم تكن لهم قوّة على الدّخول إلى تلك الأرض، وتمثّل لهم شبح الموت في كلّ خطوة في ذلك السبيل، فلم يريدوا أن يذهبوا لأمر ربّهم هذا وقالوا: (ياموسى إنّ فيها قوماً جبّارين وإنّا لن ندخلها حتّى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنّا داخلون) وقال رجلان ممن كانوا يؤمنون بالله ويخافونه واطلعوا على سكان بلدة أريحا لا تخافوا فاذهبوا (وادخلوا عليهم الباب) فإذا دخلتم البلدة فإنّكم تغلبونهم إلّا أنّ بني إسرائيل أبوا كلّ الإباء وامتنعوا عن الذّهاب إلى البلدة وقالوا لموسى: (إذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون) فإذا خلت البلدة ممن فيها ندخلها ونحن آمنون، فشكا موسى (عليه السلام) أمرهم إلى الله تعالى فقال: (ربّ إنّي لا أملك إلّا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين) فأخبره الله تعالى بأنّه حرّم عليهم أي منعهم من الدّخول إلى البلدة إلى أن يمضي عليهم أربعون سنة، وفي هذه المرّة يتيهون في الأرض الّتي كانوا فيها بين مصر وفلسطين، وفي هذه الفترة مات سيدنا موسى (عليه السلام)، وحينما انتهى أربعون سنة عبروا نهر الأردن وملكوا أريحا وما معها من الأرضين تحت قيادة سيدنا يوشع تلميذ موسى (عليه السلام) وفتاه، ولم يشأ القدر لموسى ولا لهارون أن يصيروا إلى تلك الأرض، فمات هارون قبل

موسى ودفن في جبل هور من جبال سينا في البرية، وأما موسى فأمره الله تعالى أن يصعد إلى جبل نبو وينظر إلى أرض الموعد أرض أريحا دون أن يدخلها ففعل ومات على الأكمة الّتي هي من رمل أحمر ودفن هناك. إنتهى ماقاله الأستاذ النّجار مع الإختصار.

ثمّ أراد الله تعالى أن يزيد من الإعجاز والتّسلي للرّسول وكأنّه يقول له أنّ التّمرد على أمر الله تعالى والخروج عن حكمه أمر مركوز في طبيعة البشر منذ أن خلق الله تعالى آدم وأسكنه الأرض، فلا تحزن بتمرّد المتمرّدين، فمن اهتدى فلنفسه ومن ضلّ فإنّما يضلّ عليها ولا يضرّك ضلالهم شيئاً فقال جلّ وعلا:

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

قبل أن نبدأ بتفسير الآيات نذكر خلاصة القصّة ليكون القارئ علي بصيرة من تفسيرها فنقول: كانت حواء تلد لآدم (عليه السلام) توأماً، كل بطن بنتا وإبناً، وكانت في شريعة آدم أنّ أنثى هذا التّوأم تُزوّج من ذكر التّوأم الآخر، فأمر آدم (عليه السلام) قابيل وكان أكبر من هابيل أن يزوّج أخته من هابيل ويتزوج هو أخت هابيل، وكانت أخت قابيل أحسن من أخت هابيل، فامتنع قابيل من إمتثال هذا الأمر، وأراد أن يتزوج هو بأخته دون هابيل، فأراد آدم أن يقنعه فأمر أن يقدّم كل واحد منهما قرباناً إلى الله تعالى، فأي واحد تقبّل قربانه فأخت قابيل تكون له، فكان هابيل صاحب غنم فعمد إلى أحسن كبش فذبحه وقدّمه قرباناً إلى الله تعالى، وقابيل كان زارعاً فعمد إلى بعض غلّاته فقدّمها قرباناً،

وكان من علامة قبول القربان أنّ النّار تأتي فتأكل القربان، فأتت نار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل، فغضب قابيل وقال لهابيل: لأقتلنّك لكي تبقى حبيبتي لي ولا تأخذها، فقال هابيل ـ وكان مسالماً ـ: لئن كنت تريد قتلي فأنا ما أريد قتلك، أريد أن تحمل أنت ذنوبي وذنوبك، فقتل قابيل هابيل، فكان أول قتل وقع على وجه الأرض، ثمّ تحيّر قابيل ماذا يفعل بجثّة أخيه؟ فرأى غراباً يحفر الأرض بمنقاره فأدخل في الحفرة غراباً أخر ميتاً وحثى عليه التّراب، ففعل قابيل مثل ما فعل الغراب، فحفر حفرة وأدخل فيها هابيل وحثى عليه التّراب فدفنه وستره، وتأسّف على أنّه لم يكن عالماً بقدر الغراب، فهو تعلّم منه دفن الأموات فأصبح من النّادمين من قتل أخيه أو من هذا الإنتظار ليعرف كيف يواري أخاه. **(واتل)** يا أيّها النّبيّ **(عليهم)** على اليهود **(نبأ ابني آدم)** قابيل وهابيل، وفي التّلاوة لهذا الخبر أمور:

الأوّل: أنّه يكون معجزة لك، فإنّك الأمّي الّذي لم يكن له أي صلة بالكتب والرّوايات حيثما تخبر بهذه الوقائع الخفّية والعجيبة وكما هو الواقع والحقّ، فلا ريب أنّ هذا جاءك بالوحي وإلّا فلا سبيل لك للعلم بهذه الأمور، إلّا من الوحي والنّبوّة، فثبت بذلك نبوّتك وأنّك رسول الله.

الثّاني: ليعلم اليهود أنّ الحسد يَسوق بصاحبه إلي معاصي جسام، بل وإلى الكفر، ويسبّب ذلك شقاوته في الدّنيا والآخرة، ليتركوا ما ساقهم إلى الكفر بك حسداً أن ينعم الله تعالى على غيرهم بالنّبوة والرّسالة.

الثالث: إنّ التّمرد على أمر الله تعالى والخروج عن حكمه يسوق بالمرء إلى المهالك والمعاصي، بل وإلى قتل الأخ لأخيه؛ لكي لا يتمرّدوا أكثر من ذلك على أمر الله تعالى فيؤمنوا بهذا الرّسول، ويتّبعوه وفق ما أمرهم به التّوراة والكتب السّابقة كلّها[١]. (إذ) أي وقتما **(قرّبا)** قدّم كلّ واحد من ابني أدم **(قرباناً)** إلى الله ليعلما الحقّ فيما تنازعا فيه **(فتقبّل من أحدهما)** وهو هابيل **(ولم يتقبّل من الآخر)** وهو قابيل **(قال)**

(١) **الرابع**: ليعلم أن تشريع أحكام الحلال والحرام هو لله تعالى لا للعقل، فالله تعالى هو الذي أحل الزواج من الأخت في ذلك الوقت وحرمها بعد ذلك وفي شريعتنا مع أن الواقعة واحدة. **الخامس**: أن أعمال الأبرار والمتقين المتصفة بالإخلاص مقبولة عند الله تعالى لا غيرها. **السادس**: أن هابيل بسبب إيمانه القوي لم يكترث للدنيا وشهواتها فلم يخالف أمر الله تعالى، كما أنه لم يخش الموت والرحيل عن الدنيا لأنه كان مطمئنا في إيمانه وأنه يدخل الجنة التي لاتساوي الدنيا بالنسبة إليها شيئا.

قابيل لهابيل (**لأقتلنّك**) حسداً على أنّه تقبّل قربانه وتكون له الأخت الجميلة (**قال**) هابيل: ولماذا تقتلني؟ فلست أنا سبب عدم قبول قربانك بل أنت السّبب، ذلك حيث (**إنّما يتقبّل الله**) القرابين (من **المتّقين**) الّذين لا يريدون الخروج عن حكم الله تعالى، وأنت تريد الخروج والعصيان، فكيف يتقبّل الله منك القربان (**لئن بسطتّ**) مددت (**إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك**) دفاعاً عن نفسي؛ وذلك لأنّ دفع القاتل ليس واجباً عند بعض العلماء، بل هو جائز والإيثار أفضل، وعند البعض واجب ولكنّ لم يكن واجباً في شريعة آدم (ﷺ) ، وهذا أصحّ بدليل قوله لهم: (**إنّي أخاف الله ربّ العالمين**) إنّي أريد بعدم الدّفاع والرّضا بقتلك لي (**أن تبوأ**) تحمل (**بإثمي**) بذنبي (**وإثمك**) لأنّ ذنوب المظلوم يحمل على الظّالم؛ فيعذب مكانه إقتصاصاً بظلمه إياه (**فتكون**) أنت (**من أصحاب النّار**) أي من أهل جهنّم (**وذلك**) أي الدّخول في جهنّم (**جزاء الظّالمين**) يوم القيامة (**فطوّعت**) فاختارت (**له**) لقابيل (**نفسه**) الحاسدة (**قتل أخيه**) وحبّبته إليه (**فقتله فأصبح من الخاسرين**) نعمة الله تعالى وهي الجنّة، ثمّ بقي حائراً ماذا يفعل بجثّة أخيه (**فبعث**) فأرسل (**الله غراباً يبحث**) يحفر (**في الأرض**) ووارى فيه جثّة غراب ميت وبعث الله هذا الغراب (**ليريه**) أي (**ليعلم**) قابيل (**كيف يواري سوأة**) عورة أخيه. خصّ بالذّكر بدل الجثّة لأنّها أحقّ بالسّتر (**قال ياويلتى**) **أي ياحسرتا** (**أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب**) في العلم (**فأواري**) وأستر (**سوأة أخي**) دون أن أتعلّم من الغراب (**فأصبح من النّادمين**) على قتل أخيه، وقيل: من حمل أخيه مدة ولا يدري ماذا يفعل بجثّته.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾

(**من أجل ذلك**) أي بسبب ذلك، وهو أنّ داء الشّر والحسد والإعتداء مركوزة في بعض النّفوس، وأنّه أشدّ وأكثر في طبيعة **بني** إسرائيل (**كتبنا على بني إسرائيل**) وغيرهم، إلّا أنّهم خصّوا بالذّكر بكونهم أميل إلى الفساد والشّر والحسد، وأرغب في قتل النّاس حتّى وصل بهم الحدّ إلى قتل الأنبياء وأرادوا قتل الرّسول (ﷺ) إلّا أنّ الله تعالى

عصمه منهم **(فكتبنا أنّه من قتل نفساً بغير نفس)** قصاصاً **(أو فساداً في الأرض)** إيقافاً لها عند حدّها **(فكأنّما قتل النّاس جميعاً)** في الإثم والمعصية، لأنّ من قتل نفساً فجزاؤه القتل. ومن قتل جميع النّاس فجزاؤه القتل أيضاً لا زيادة على ذلك، وهذا بالنّسبة إلى حكم الدّنيا، وبالنّسبة للآخرة فجزاء الكلّ جهنّم **(ومن أحياها)** بإنجائها من الغرق أو الحرق أو أي مصيبة أخرى **(فكأنّما أحيا النّاس جميعاً)** في الثّواب لأنّ ثواب الإثنين الجنّة **(ولقد جاءتهم رسلنا بالبيّنات)** أي المعجزات الدّالة على رسالتهم وبلغوهم بذلك **(ثمّ)** بعد تقدير هذا الجزاء عليهم **(إنّ كثيراً منهم)** من بني إسرائيل **(بعد ذلك في الأرض لمسرفون)** لمتجاوزون عن الحدّ فيقتلون النّاس بغير نفس وحقّ، ويفسدون في الأرض. ثمّ بعد أن أشار الله تعالى في الآية إلى أنّ قتل النّفس المتلبسّة بالفساد في الأرض تستحقّ القتل أراد أن يبيّن حكم المفسدين في الأرض فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

(إنّما جزاء الّذين يحاربون الله ورسوله) ثمّ بيّن الله تعالى كيفيّة محاربة الله تعالى ورسوله فقال: **(ويسعون)** أي ويعملون **(في الأرض فساداً)** بالقتل والنّهب والسّلب، فالسّعي في الأرض والعمل فيها بالفساد هو محاربة الله تعالى ورسوله وعداوة لهما فيها، لأنّ الله تعالى يحب الأمن والأمان والسّلم والسّلام، والمراد هنا قطاع الطّرق فقط عند أبي حنيفة، وعند الشّافعي ومالك والأوزاعي وليث بن سعد: هم قطّاع الطّرق والمكابرون في البلد أيضاً، فعقوبة هؤلاء متابعتهم إلى أن يقبض عليهم، وبعد القبض عليهم فحكمهم **(أن يقتّلوا)** بتشديد التّاء للمبالغة في القتل **(أو يصلّبوا)** فوق المشانق **(أو تقطّع أيديهم وارجلهم من خلاف)** بأن تقطّع اليد اليمنى والرّجل اليسرى منهم **(أو ينفوا من الأرض)** بأن يسجنوا؛ لأنّ السّجن نفي من أرض المجتمع، أي من معاشرة النّاس والأعمال.

قوله : **(أو)** عند البعض للتّخيير، فالإمام مخيّر بين هذه الأحكام الأربعة: القتل أو الصلب أو قطع الأيدي أو الأرجل أو النّفي ينفّذ فيهم أحد الأمور حسب المصلحة،

وهذا قول ابن عبّاس، وبه قال الحسن وسعيد بن المسّيب والنّخعي ومجاهد (رضي الله عنهم)، وفي قول ثانٍ أنّ (**أو**) للتّقسيم والبيان بأنّه إذا قتل قطاع الطّرق وأخذوا المال معاً قتلوا وصلبوا، وإذا قتلوا ولم يأخذوا الأموال قتلوا فقط، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطّعت أيديهم وأرجلهم، وإذا أخافوا النّاس فقط دون قتل وأخذ للمال نفوا من الأرض، وهذه رواية أخرى عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) وعليه الجمهور، والأصحّ أنّ المراد بالنّفي هو الحبس (**ذلك**) العقاب (**لهم**) لهؤلاء (**خزي**) إذلال لهم (**في الدّنيا ولهم في الأخرة**) يوم القيامة (**عذاب عظيم**) جداً، فهذا العذاب ينفذ في كلّهم (**إلّا الّذين تابوا**) وتركوا فسادهم (**من قبل أن تقدروا عليهم بالقبض**) أو القتل في قتالهم، فهؤلاء لا يعَذّبون (**فاعلموا** أنّ **الله**) تعالى (**غفور**) لمن تاب منهم (**رحيم**) بهم؛ ولذلك يغفر لهم. هذا إذا كان المفسد كافراً فتاب وآمن يسقط عنه جميع حقوق الله وحقوق العباد، ولا يطالب بشيء بالإجماع، وأمّا إذا كان المفسد مسلماً فتاب فيسقط عنه حقوق الله تعالى، وأمّا حقوق العباد فلا يسقط بذلك عند الشّافعي رحمه الله. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حكم المفسدين أراد أن يبيّن ما يخرج به المؤمن عن الفساد ويبتعد عنه فقال جلّ وعلا.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾

(**يا أيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله**) أي اجتنبوا ما نهى عنه الله تعالى من المعاصي والذنوب (**وابتغوا**) واطلبوا (**إليه**) أي إلى مرضاة الله تعالى (**الوسيلة**) ما تتوسّلون به وتصلون به إلى مرضاة الله تعالى وهو العبادة والإتيان بالأوامر وإمتثالها، فالدّين كلّه بعد الإيمان هو اجتناب المناهي ويعبر عنه بالتّقوى، والإتيان بالأوامر ويعبّر عنه بالعبادة والطّاعة، فالطّاعة والعمل هو المقرّب إلى الله تعالى، والوسيلة إليه وإلى مرضاته قال الرّسول (ﷺ) فيما يرويه عن ربّه: (وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنّوافل)[1]. فالعمل هو المقرّب إلى الله تعالى، وقد عنّف الله تعالى الّذين يعتقدون بأنّ هناك أشخاصاً أو تماثيل تقرّب إلى الله وهم المشركون حيث قالوا لأصنامهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ سورة الزمر الآية/٣، فمن إعتقد في أيّ شيء سوى عمله بأنّه يقرّبه إلى

---

(١) صحيح البخاري ٥/٢٣٨٤ الحديث رقم ٦١٣٧.

الله واتّخذه وسيلة فقد أشرك بالله تعالى، نعم يتّخذ من الأشخاص للتّعليم والإرشاد إلى ما يقرّب إلى الله تعالى من العبادات والقربات، فالوسيلة والتوسّل بالعبد في التّعليم والدّعاء موجود، وفي الإيصال والتّقريب مفقود وشرك في دين الله، فتتبّع الكتاب والسّنة لتعلم أنّ هذا هو الحقّ وأنّ غير ذلك هو الباطل والإشراك. ثمّ بعد أن أمر الله باتّخاذ الوسيلة إلى الله وهي أداء الأعمال الدّينيّة والواجبات الإسلاميّة، خصّص الله تعالى بالذّكر ما هو من أفضل الأعمال وهو الجهاد فقال جلّ وعلا: **(وجاهدوا)** أي اعملوا وتحمّلوا المشقّة والجهد **(في سبيله)** أي في سبيل نشر دين الله تعالى ورفع راية الإسلام وتحكيم كتاب الله وسنّة رسوله في شؤون الحياة كلّها؛ وذلك بالدّعوة باللّسان والقتال بالسّنان والأمر بالمعروف والإتيان به والنّهي عن المنكر والإجتناب عنه، فجاهدوا بكلّ ما استطعتم **(لعلّكم تفلحون)** أي لكي تفلحوا وتفوزوا بسيادة الدّنيا وسعادة الآخرة، وبدون الجهاد فلا سعادة لكم أيّها المؤمنون.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى واجب المؤمنين من التّقوى والعبادة والجهاد ونتيجة ذلك وهو الفلاح في الدّنيا والآخرة، أراد أن يبيّن عاقبة الكافرين فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾

(إنّ الّذين كفروا) بالله تعالى وأحكامه واتّخذوا من دونه إلهاً يعبدونه أو من دون شريعته شريعةً أخرى يطبّقونها **(لو أنّ لهم ما في الأرض جميعاً)** ملكاً وإستيلاءً **(ومثله)** ومثل ما في الأرض يكون **(معه)** ملكاً لهم، وأرادوا **(ليفتدوا به)** بكل ما يملكونه من ذلك لينجوا **(من عذاب يوم القيامة)** ونكاله وما يقرّبهم من الذّل والهوان **(ما تقبل)** كلّ ذلك منهم، فكيف بهم ولا يملكون شيئاً هناك **(ولهم عذاب أليم)** مؤلم جدّاً **(يريدون)** بإستمرار الزّمان **(أن يخرجوا من النّار)** لشدّة عذابها، وهذا كناية عن عدم تعوّدهم على العذاب أبداً **(وما هم بخارجين منها)** بل **(ولهم عذاب مقيم)** مستمر دائماً. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حكم الفساد والمفسدين في الأرض أراد أن يذكر عقاب نوع خاص من الفساد وهو السّرقة فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾

(والسّارق) أي والّذي سرق فيشمل كلّ من سرق من الرّجال **(والسّارقة)** أي والّتي سرقت فتشمل كلّ من سرقت من النّساء، فالسّارق والسّارقة حكمهما فيما يتلى وهو قوله: **(فاقطعوا أيديهما)** إضافة الجمع إلى المجتمع تفيد التّوزيع، أي إقطعوا يد كلّ منهما وهي اليمنى لقراءة **(أيمانهما)** والقطع يكون من الكوع لبيان الرّسول ذلك بفعله (ﷺ) **(جزاء)** إمّا مفعول مطلق أي جوّزوهم هذا الجزاء جزاء، أو مفعول له، أي إقطعوا أيديهما لأجل الجزاء **(بما)** أي بسبب الّذي **(كسبا)** من هذا الفعل القبيح **(نكالاً)** تنكيلاً **(من الله)** تعالى لهما، وزجراً عن هذا الفعل القبيح **(والله عزيز)** غالب على أمره **(حكيم)** في أحكامه. وما وضع هذا الحكم على السّراق إلّا لحكمة بالغة ومصلحة كاملة **(فمن تاب)** من السّراق **(من بعد ظلمه)** من بعد سرقته وترك هذا العمل **(وأصلح)** لله عمله **(فإنّ الله يتوب عليه)** أي يتقبّل توبته حيث إنّ الله **(غفور)** لمن تاب ويحبّ المغفرة له وقبول توبته لأنّه **(رحيم)** ولرحمته يجب ويفعل ذلك. ثمّ أثبت الله تعالى قدرته على العفو والإنتقام من كلّ من خالف أمره وأبض حكمه فقال جلّ وعلا: **(ألم تعلم)** أيّها المخاطب **(إنّ الله له ملك)** جميع **(السّموات والأرض)** مُلكاً وملكاً وسيطرةً وإستيلاءً، ومن كان كذلك فيكون له الإرادة المطلقة، فيعمل حسب إرادته **(يعذّب من يشاء)** ممن لم يتب من المسلمين والعصاة إن شاء، ومن شاء من الكافرين قطعاً إن لم يؤمنوا **(ويغفر لمن يشاء)** وهم من تاب من المسلمين قطعاً. ومن آمن من الكافرين يقيناً، ومن من لم يتب من المسلمين إن شاء **(والله على كلّ شيء قدير)** وبقدرته هذه يعذّب ويغفر.

مسائل:

المسألة الأولى: إنّ من شرط القطع أن يكون السّارق عاقلاً بالغاً عالماً بتحريم السّرقة فلا تقطع يد الصّبي والمجنون والجاهل بالتّحريم، كأن يكون قريب العهد بالإسلام.

المسألة الثّانية: إشترط الجمهور في القطع أن يكون المسروق موضوعاً في مكان

يحفظ فيه مثله، وأن يبلغ النّصاب، فإن لم يبلغ النّصاب فلا قطع، وكذا إذا وضع في مكان لا يحفظ مثله في ذلك المكان فلا قطع، وخالف الجمهور ابن عبّاس وابن الزبير والحسن (ﷺ)، فقالوا بالقطع في القليل والكثير، وسواء وضع في حرز مثله أولا، وإلى ذلك ذهب داود الظّاهري لعموم قوله تعالى: **(والسّارق والسّارقة)** دون تخصيص بالنّصاب ولا بالحرز.

المسألة الثّالثة: إختلف الّذين اشترطوا النّصاب في قدر النّصاب، فذهب الأكثر منهم إلى أنّه ربع دينار وهو ربع مثقال من الذّهب، أو ما يبلغ قيمته ذلك من غير الذّهب، وهذا قول أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ من الصّحابة (ﷺ)، وبذلك أخذ عمر بن عبدالعزيز والأوزاعي والشّافعي (ﷺ)، واستدلّوا بما روى عن عائشة (رضي الله عنها) أنّ رسول الله (ﷺ) قال: (لا تقطع يد السّارق إلّا في ربع دينار فصاعدا)[1]. وعند مالك وأحمد وإسحاق أنّه ثلاثة دراهم، أو قيمتها لما روي عن ابن عمر (رضي الله عنه) أنّ رسول الله (ﷺ) قطع يد سارقٍ في مجن قيمته ثلاثة دراهم[2] وذهب أبو حنيفة إلى أنّه لا تقطع في أقل من دينار أو عشرة دراهم، ويروى ذلك عن ابن مسعود (رضي الله عنه) و به أفتى سفيان الثّورى أيضاً.

المسألة الرّابعة: لا قطع فيمن سرق من والده أو ولده أو شريكه لوجود الشّبهة هنا ولقوله (ﷺ): (إدرؤوا الحدود بالشّبهات)[3].

المسألة الخامسة: إذا سرق شخص أول مرّة تقطع يده اليمنى، وفي المرة الثّانية رجله اليسرى من مفصل القدم، وفي الثّالثة يده اليسرى، وفي الرّابعة رجله اليمنى، وبعد ذلك إن سرق يحبس حتّى يتوب، وهذا عند الشّافعيّ ومالك ، وعند أبي حنيفة وأحمد والشّعبي والأوزاعي والنّخعي لا قطع بعد المّرة الثّانية.

المسألة السادسّة: قال أبو حنيفة وأحمد والثّورى وإسحاق: لا يجمع بين القطع والغرم فإذا قطع لا يغرم وإذا غرم لا يقطع، وقال الشّافعي (رضي الله عنه): يغرم حقّاً للنّاس ويقطع حقاً لله تعالى، وقال مالك : الغرم محتّم لأنّه حقّ الله لا يسقط، ويغرم إن كان غنيّاً وإن كان فقيراً فلا يغرم.

---

(١) صحيح مسلم ٣/ ١٣١٢ الحديث رقم ١٦٨٤.

(٢) مسند أبي عوانة ٤/ ١١٥ الحديث رقم ٦٢٢٦.

(٣) كنز العمال ٥/ ١٢٢ الحديث رقم ١٢٩٥٧.

المسألة السّابعة: إذا تاب قبل القطع هل يسقط الحدّ؟ قال بعض التّابعين: نعم، وقال الجمهور: لا يسقط. وبرأيي: الأوّل أصحّ، لقوله تعالى: (إنّ الله غفور رحيم)[١].

* * *

ثمّ إنّ الله تعالى بعد ما ذكر هذه الأحكام كرهها وأنكرها المنافقون واليهود، وقام اليهود يغيرون أحكام التّوراة الموافقة لأحكام الإسلام بتبديل الكلمات أو تأويلها فحزن بذلك رسول الله (ﷺ) فسلّاه الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٌۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾

(**يا أيّها الرسول**) خطاب تكريم وتشريف (**لا يحزنك**) كفر(**الّذين يسارعون في الكفر**) بأحكامك وأحكام التّوراة أيضاً، وهؤلاء قسمان: قسم (من) المنافقين (**الّذين قالوا آمنا**) يقولون ذلك (**بأفواههم**) فقط حيث (**ولم تؤمن قلوبهم**) لا بك ولا بكتابك (**و**)[٢]

(١) البقرة - ١٧٣ . وذكرت هذه الآية في في ثلاثة عشر موضعا من القرآن الكريم.

(٢) والقسم الثاني.

في **(من الّذين هادوا)** وطبيعتهم أنّهم **(سمّاعون للكذب)** أي مطيعون للكذب من الأحكام **(سمّاعون لقوم آخرين)** وهم يهود خيبر**(لم يأتوك)** إلى الآن وصفتهم أنّهم **(يحرّفون الكلام)** أي يغيرون كلمات التّوراة ويزيّلونها **(من بعد مواضعه)** الّتي وضعه الله تعالى فيها، وتذكّر الضّمير لأنّ المراد بالكلام الحكم، فيبدّلون حكم الله ويقولون للّذين يستفتونك **(إن أوتيتم)** من قبل محمّد **(هذا)** الحكم الّذي تقول لكم **(فخذوه)** واعملوا به **(وان لم تؤتوه)** بل آتاكم حكماً آخر **(فاحذروا)** ولا تطيعوه، فهكذا كفرهم وضلالهم، ولا يمكن هدايتهم، لأنّ الله تعالى قضى عليهم بالضّلال **(ومن يرد الله فتنته)** أي ضلاله وقضى عليه به لخبثه وسوء طويّته وعدم حبّه للهداية تملك عليهم حيث **(أولئك الّذين لم يرد الله أن يطهّر قلوبهم)** من الكفر والضّلال **(لهم في الدّنيا خزي) ذلّ وقد أذّلوا بعد ذلك تحت سيطرة الإسلام (ولهم في الآخرة عذاب عظيم)** جدّاً، لأنّ الله تعالى قضى عليهم بالضّلال **(ومن يرد الله فتنته)** أي ضلاله وقضي عليه به لخبثه وسوء طيشه وعدم حبّه للهداية **(فلن تملك له من الله شيئاً)** من الهداية فلا تحزن عليهم حيث **(أولئك الّذين لم يرد الله أن يطهّر قلوبهم)** من الكفر والضّلال **(لهم في الدّنيا خزي)** ذلّ وقد أذلّوا بعد ذلك تحت سيطرة الإسلام **(ولهم في الآخرة عذاب عظيم)** جداً **(سمّاعون للكذب)** إعادةٌ، ليكون كسبب لضلالهم وعدم إرادة الله الهداية لهم، فكأنّه قال: لم يرد الله ليطهّرهم لأنّهم **(سمّاعون للكذب)** ومطيعون للباطل من الأحكام، وذلك لأنّهم **(أكّالون للسّحت)** للحرام فيحكمون بالباطل لأخذ المال الحرام **(فإن جاؤوك)** للحكم فيهم **(فاحكم بينهم أو أعرض عنهم)** فأنت مخيّر بين الأمرين **(وإن تعرض عنهم فلن يضرّوك شيئاً)** لأنّ الله تعالى عصمك من النّاس **(وإن حكمت)** بينهم **(فاحكم بينهم بالقسط)** وهو ما أوحى لك الله من الأحكام فلا قسط إلّا في حكم الله تعالى **(إنّ الله يحبّ المقسطين)** العادلين والحاكمين بحكم الله تعالى. وجاء اليهود إلى الرّسول (ﷺ) لأن يحكم على زان وزانية فحكم عليهما بالرّجم فلم يقبلوا وأثبت لهم أنّ هذا حكم في التّوراة أيضاً، فاعرضوا بعد كلّ ذلك عن حكمه وحكم التّوراة معاً. فقال تعالى: **(وكيف يحكّمونك)** أي كيف يرضون بحكمك؟ والإستفهام للإنكار أي لا يرضون به لأنّهم لا يرضون إلّا بحكم يوافق هواهم ومصلحتهم **(وعندهم التّوراة فيها حكم الله)** الّذي حكمت به **(ثمّ يتولون)** يعرضون عن حكم التّوراة أيضاً **(من بعد ذلك)** أي من بعد ما حكمت لهم وفق التّوراة لأنّ الضّلال تمكّن في نفوسهم **(وما أولئك بالمؤمنين)** لا بك ولا بالتّوراة فلا يرضون إلّا بما يوافق هواهم ومصلحتهم.

ثمّ بعد ما ذكر الله تعالى أنّ اليهود لا يرضون بحكم الرّسول وإن وافق التّوراة أراد أن ينبّههم على أنّه يجب أن يتّبعوا حكم الرّسول (ﷺ) وافق التّوراة أو خالف، فإنّ كلّ رسول له منهجه وكلّ كتاب له وقته، فإذا جاء رسول فهو واجب الإتّباع لا الرّسول السّابق، وإذا أتى كتاب فهو واجب التّطبيق لا الكتاب الّذي قبله، فالتّوراة وموسى (عليه السلام) كانا واجب الإتباع إلى أن جاء عيسى (عليه السلام) فلما جاء عيسى (عليه السلام) أصبح هو والإنجيل واجب الاتّباع إلى أن جاء محمّد (ﷺ)، فلما جاء محمّد (ﷺ) فهو واجب الإتّباع فعليهم أن يتّبعوه سواء وافق حكمه التّوراة أم لا. فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ

جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

(إنّا)نحن **(أنزلنا التّوراة)** من عندنا إلى موسى (عليه السلام) **(فيها هدى)** إرشاد إلى الحقّ من العقائد **(ونور)** وتوضيح للأحكام والشّرائع؛ فكان يحكم بها النّبيون **(الّذين أسلموا)** انقادوا كلّهم لأمر الله تعالى وأطاعوه، وبعدهم كان يحكم بها **(الرّبانيون)** وهم العلماء الّذين تخلّوا للعبادة **(والأحبار)** وهم العلماء الّذين عاشروا النّاس لإرشادهم وتثقيفهم فكانوا كلّهم يحكمون **(بما)** وفق ما **(استحفظوا)** كلّفوا بالحفظ والعمل به **(من كتاب الله)** وهو التّوراة **(وكانوا عليه)** على الكتاب **(شهداء)** مراقبين يمنعون النّاس من التّحريف والتّبديل فيه، وأمرناهم بالحكم به وقلنا لهم **(فلا تخشوا النّاس)** فتبدّلوا أحكامي لخوفهم **(واخشونِ)** حذف الياء للإختصار والتّخفيف، واخشوني من أن أعذّبكم على كلّ تبديل وتحريف لأحكامي **(ولا تشتروا بآياتي)** أي بتبديل أحكامي **(ثمناً قليلاً)** فإنّ الثّمن مهما كان كثيراً فهو قليل بالنّسبة إلى ما يضيّعونه من ثواب الله تعالى، ولأنّ كلّ ما في الدّنيا فانٍ فهو قليل، والحاصل لا تبدّلوا أحكامي لا خوفاً ولا طمعاً حيث (و) كلّ **(من لم يحكم بما أنزل الله)** من الأحكام وانحرف عنها إلى أحكام أخرى مستوردة أو مخترعة من عنده **(فأولئك)** المنحرفون عن حكمي **(هم الكافرون)** بي وبأحكامي وبعقابي لهم على ذلك. ثمّ بيّن الله تعالى أنّ بعض الأحكام الّتي اختلف فيها اليهود مع الرّسول هو مثل ما حكم به الرّسول ولا يخالفه التّوراة أبداً فقال تعالى: **(وكتبنا عليهم فيها)** أي في التّوراة من الأحكام الجنائية **(إنّ النّفس)** يقتل بالنّفس إذا قتل شخص شخصاً، فهو يقتل عنه قصاصاً **(والعين بالعين)** فمن فقأ عين أحد فقئت عينه **(والأنف بالأنف)** فمن قطع أنف أحد قطع أنفه **(والأذن بالأذن)** فمن أهلك أذن أحد بالقطع أو بالتّصميم فعل به ما فعل **(والسّن بالسّن)** فمن قلع سنّ أحد أو كسرها فعل به ما فعل **(والجروح قصاص)** يجرح منه بقدر ما جرح منه **(فمن تصدق به)** أي بما فعل به فعفا عن المجرم **(فهو)** أي ذلك العفو **(كفارة)** أي للجاني يغفر الله تعالى له بعفو صاحب الحقّ عنه، ولا حقّ للحاكم إيذاءه، أيضاً فهذا حكم الله في التّوراة والقرآن لم

يتغيّر **(ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظّالمون)** المتجاوزون للحقّ والعدل والإنصاف **(وقفّينا)** أي وآتينا **(على آثارهم)** من بعد الأنبياء من بعد موسى (ﷺ) والأحبار والرّبانيين **(بعيسى ابن مريم مصدّقاً لما بين يديه)** أي لما جاء قبله **(من التّوراة)** وتصديقه للتّوراة هو أنّها أخبرت بمجيئه وأخذ فيها العهد على بني إسرائيل أن يؤمنوا حينما جاء ويتّبعوه **(وآتيناه)** أي عيسى (ﷺ) **(الإنجيل فيه هدى)** إرشاد إلى العقيدة الحقة **(ونور)** وبيان للأحكام الصّحيحة **(ومصدّقاً)** أي وموافقاً **(لما)** نزل **(بين يديه)** أي قبله **(من التّوراة)** في العقائد والأحكام المهمّة فقط، وإن غيّر فيه بعض الأحكام كما قال عيسى (ﷺ) لقومه **(ولأحلّ لكم بعض الّذي حرّم عليكم)** وكان الإنجيل **(هدىً)** إرشاداً **(وموعظةً)** ومواعظ **(للمتقين)** للّذين يحبّون التّقوى ويسعون له، وأمّا غيرهم فلا يفيد فيهم كلّ موعظةٍ وإرشاد لتمردّهم على الخير والحقّ والصّلاح وإتباعهم للهوى والمصلحة والضّلال. فكان حكم التّوراة معمولاً به وواجب الإتّباع إلى أن جاء الإنجيل، فحينما جاء الإنجيل لم يبق الحكم بالتّوراة فيما خالف حكم الإنجيل وأصبح الإنجيل معمولاً به وواجب الإتباع وأمرنا النّاس بذلك فقلنا **(وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل فيه)** من الحكم الّذي يخالف التّوراة **(ومن لم يحكم بما أنزل الله)** في الإنجيل من أهله وفي زمانه **(فأولئك هم الفاسقون)** الخارجون عن حكم الله تعالى وعن الحقّ والعدل والإنصاف **(وأنزلنا إليك)** يا محمّد **(الكتاب)** أي القرآن بالحقّ **(مصدقاً لما)** جاء **(بين يديه في الكتاب)** وهو التّوراة والإنجيل فيصدقهما في إخبارهما بمجيء الرّسول (ﷺ) ونزول القرآن عليه ويصدّقهما في العقائد والتّوحيد وفي مهمّات الأحكام **(ومهيمناً)** أي حاكماً القرآن **(عليه)** على الكتاب وهو التّوراة والإنجيل؛ فيحكم عليهما بالتّبديل والتّغيير والإزالة لبعض أحكامهم وحسب إرادة الله تعالى **(فاحكم)** أيّها النّبي ومن بعده من العلماء وحكام المسلمين **(بينهم)** بين النّاس كلّهم **(بما أنزل الله)** في الأحكام في القرآن **(ولا تتّبع أهواءهم)** أهواء النّاس فيما يريدون في الحكم حسب هواهم، وأحذرهم أن يفتنوك فيضرّوك **(عما جاءك من الحقّ)** إذ ما سواه باطل **(لكلّ جعلنا منكم)** من الرّسل **(شرعةً ومنهاجاً)** حسب زمانه فكان التّوراة واجب الإتباع إلى أن أتى الإنجيل فصار هو واجب الإتّباع إلى أن نزل القرآن، فأصبح هو واجب الإتباع والعمل به دون غيره من شرائع السّماء أو من شرائع الأرض **(ولو شاء الله لجعلكم أمّةً واحدةً)** وأنزل لكم شريعةً واحدةً **(ولكنّ)** لم يشأ ذلك بل يغيّر بعض الأحكام ويبدلها حسب إرادته **(ليبلوكم)** ليمتحنكم **(فيما)** أي بما **(أتاكم)** من بعض التّبديلات والإزالات لأحكام

الكتب السّابقة، فيظهر بهذا الإمتحان هل تتّبعون أمر الله تعالى أو لا **(فاستبقوا الخيرات)** بإتّباع أوامر الله تعالى وشرائعه حسب ما أنزل على رسول الوقت **(إلى الله مرجعكم)** يوم القيامه **(فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون)** أيّ الأمور حقّ وأيّها باطل وذلك الخير يورث الثّواب على الإتباع والعقاب على الإنحراف **(وأن احكم)** أي وأنزلنا إليك **(أن احكم)** أنت أيّها النّبي ومن بعده من علماء الأمّة والحكام **(بما أنزل الله)** في القرآن والسّنة من الأحكام **(ولا تتّبع أهواءهم)** أي أهواء النّاس **(واحذرهم)** من **(أن يفتنوك)** يصرفوك **(عن بعض ما أنزل الله إليك)** من الأحكام فتعمل بخلافها **(فإن تولّوا)** عنك وأعرضوا ولم يرضوا بحكم الله تعالى **(فاعلم إنّما يريد الله)** بسبب تولّيهم عن حكمه **(أن يصيبهم)** بالعذاب **(ببعض)** أي بسبب بعض **(ذنوبهم)** وهو الإعراض عن حكم الله تعالى وذلك العذاب يكون في الدّنيا بالذّل والهوان وفي القيامة بالعذاب بالنّار **(وإنّ كثيراً من النّاس لفاسقون)** يحبّون الخروج عن حكم الله لاتّباع الهوى في الحكم أو تبعيّة للغير فيه، فلا تتّبعهم في ذلك أيّها المسلم وفي ذلك الفسق والضّلال والإنحراف عن الحقّ والدّين القويم **(أفحكم الجاهليّة)** إستفهام للتّقريع والزّجر والتّضليل فالمعنى.

(أ) ألّا يرتدع هولاء الكثيرون من النّاس ولا يستحيون **(فحكم الجاهليّة يبغون)** يريدون أن يحكموا به وحكم الجاهليّة كلّ حكم خلاف حكم الله، والجاهليّة زمان عدم تطبيق شرع الله، والجاهليّون من لا يحكمون بدين الله ونظامه متى كانوا ومهما كانوا وأينما كانوا **(ومن أحسن من الله حكماً)** تمييز محوّل عن الفاعل فالتّقدير ومن أحسن حكمه من الله تعالى، والإستفهام للإنكار أي لا حكم أحسن من حكم الله تعالى وإنّ هذا الحسن إنّما يظهر **(لقوم يوقنون)** أي يعلمون فإنّ أهل العلم هم الّذين يعرفون الحّق من الباطل ومن عداهم، كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً، وحاصل المعنى أنّ من لم ير حكم الله أحسن من كلّ حكم فهو غير موقن، أي غير عالم، وهو جاهل وأضلّ من الأنعام. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى خبث اليهود والنّصارى وعداءهم السّافر مع الإسلام وأحكامه والرّسول الّذي جاء بها، وأنّهم لا يريدون إلّا شراً للمسلمين، نهى الله تعالى عن موادّتهم ومصادقتهم فقال جلّ وعلا:

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي

قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾

(**يا أيّها الّذين آمنوا**) بالرّسول واعتنقوا الإسلام ديناً (**لا تتّخذوا اليهود والنّصارى أولياء**) أي أصدقاء لكم توادّونهم وتتحاببون معهم، لأنّ هولاء لا يصدقون في المودّة والصّداقة والتّحابب إنّما (**بعضهم**) أي بعض اليهود (**أولياء بعض**) من اليهود فقط وأعداء مع غيرهم؛ لأنّ إختلاف العقيدة يورث الخلاف والعداء بين أصحابهما، فلا يمكن الجمع بين شخصين مختلفين في العقيدة (**والنّصارى**) كذلك بعضهم أولياء لبعضهم من النّصارى فقط، وأعداء لغيرهم لإختلاف العقيدة والمبدأ والنّظام (**ومن يتولّهُمْ منكم فإنّه**) يعتبر (**منهم**) وعدواً للإسلام وللمسلمين، فإنّ صديق العدوّ عدوّ، وهذه قاعدة مسلمة عند النّاس وأرباب العقول (**إنّ الله لا يهدي القوم الظّالمين**) وهم الّذين اتّخذوا أعداء الإسلام أصدقاء: فلا يوصلهم الله إلى الهداية الحقّة والحقّ النّاصع، فبعد هذه النّواهى الشّديدة لم يترك بعض النّاس مصادقة الكفّار حيث (**فترى الّذين في قلوبهم مرض**) في العقيدة وهم المنافقون (**يسارعون فيهم**) في توادد اليهود والنّصارى ويعتذرون في ذلك بأنّهم (**يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة**) أي حرب فيناصروننا، فاتركوا هذه الفكرة، ولا تطمعوا منهم النّصر، بل ولا تحتاجون إليهم، حيث إنْ عملتم بجدّ وصدق (**فعسى الله**) وعسى في كلام الله للتّحقيق، فالمعنى أنّ الله وعد (**أن يأتي بالفتح**) أي بفتح البلاد والغلبة والنّصر (**أو أمر**) أي بل وأمر آخر من عنده، وهو إذلال أهل الكتاب تحت سيادتكم (**فيصبحوا**) هؤلاء الّذين صادقوا اليهود والنّصارى (**على ما أسرّوا في أنفسهم**) من النّفاق والطمع في مناصرة الكفار لهم (**نادمين**) حيث لم يستفيدوا منهم إلّا الشّر والخسارة والخزي والعار، حيث ينكشف نفاقهم (**ويقول الّذين آمنوا**) مشيرين إلى المنافقين قائلين (**هؤلاء**) الّذين كانوا معنا ظاهراً وهم (**أقسموا جهد أيمانهم**) أي إيمانهم الغليظه على (**إنّهم لمعكم**) أيّها المؤمنون، وقد ظهرت أكاذيبهم وافتضح نفاقهم وبذلك (**حبطت أعمالهم**) الإسلامية الّتي كانوا يقومون بها مراءاة لنا (**فأصبحوا خاسرين**) في تلك الأعمال في الدّنيا حيث علم بهم المؤمنون فحرموا من تقديرهم، وفي الآخرة حيث لا يثيبهم الله تعالى عليها.

تنبيه: يجب أن نعلم الولاية الّتي نهى الله تعالى هذا النّهي الشّديد عن عقدها مع اليهود والنّصارى فنقول: لا شكّ أنّه ليس المراد منها التّعايش معهم بالمعروف والتّعامل معهم بالبيع والشّراء والمعاملات الماليّة، ولا بالقيام بالعدل والإحسان معهم لقوله تعالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الّذين لم يقاتلوكم في الدّين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم، إنّ الله يحبّ المقسطين. إنّما ينهاكم الله عن الّذين قاتلوكم في الدّين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولّوهم، ومن يتولّهم فأولئك هم الظالمون﴾ سورة الممتحنة الآية/ ٨-٩. فهاتان الآيتان تدلّان بوضوح على أنّ المراد بالولاية ليس ما ذكرنا من التّعايش معهم بالمعروف، لأنّ هاتين الآيتين وردتا في المشركين، فإذا جاز معهم المعروف فمع أهل الكتاب يجوز بالأولى، وإنّما المراد بالولاية المحرّمة أنواع:

الأول: التّحالف معهم في التّناصر والمشاركة في القتال لأنّهم لا يؤمنون بديننا فلا يحبّون نصرنا؛ فلا يناصروننا أبداً وكلّ ما يعدون به فهو كذب وخداع.

الثّاني: الإشراك معهم في العمل السّياسي والحركة الموحدّة والتّنظيم لإنشاء كيان مشترك، فإنّ الإسلام لا يقبل الكيان المشترك وإنّما العزّة لله ورسوله وللمؤمنين.

الثّالث: تسليم القيادة على المسلمين إليهم حيث قال الرّسول (ﷺ): (لا ولاية لكافر على مسلم)[1] وقال تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ سورة النساء الآية/ ١٤١، وانظر في سورة النّساء الآيات الّتي سبقت هذه والّتي تليها يتّضح لك هذا المراد. **الرّابع:** إنشاء الصّداقة معهم حينما أنشؤا تكتّلاً وحركة ضد المسلمين. وفي غير هذه الصّور يجوز التّصادق معهم والإستعانة بهم، نعم إن وجد مسلم يعرف العمل الّذي تحتاجه لا يجوز لك أن تستعين بهم وتترك المسلم، روي عن أبي موسى الأشعري قال: قلت لعمر (رضي الله عنه) : إنّ لي كاتباً نصرانيّاً، فقال: مالك قاتلك الله ألا اتّخذت حنيفاً، أما سمعت قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ سورة المائدة الآية/ ١٥. قلت: له دينه ولي كتابته، فقال: لا أُكرمهم إذا هانهم الله ولا أُعزّهم إذ أذلّهم الله ولا أُدنيهم إذا أبعدهم الله، قلت: لا يتم أمر البصرة إلّا به، فقال: مات النّصراني والسّلام؟ يعني: هب أنّه مات فما تصنع بعد؟ فمن

---

(١) لم أجده حديثا لكنه قول لدى الفقهاء وهو موافق لقوله تعالى: (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) و قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم) انظر مغني المحتاج ٣/ ٧٤.

تستعمله بعد موته؟ فأستعمله الآن واستغن عنه بغيره. وقال الفقهاء: إذا وجد طبيب مسلم لا يجوز مراجعة الطبيب الكافر إلّا إذا كان أحذق من المسلم أو يأخذ أقل من المسلم، وهكذا كلّ حرفة وصنعة وعمل، فقس إن كنت ذا قياس.

❊ ❊ ❊

ثمّ بعد أن نهى الله تعالى عن مصادقة غير المسلمين نهى عن الإرتداد عن الإسلام فقال جلّ وعلا:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾

(يا أيّها الّذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه) فيصير كافراً فلا يضرّ الإسلام شيئاً حيث فسوف **(يأتي الله بقوم)** إلى الإسلام والدّفاع عنه **(يحبّهم الله ويحبّونه)** أي الله **(أذلة)** أهل لين **(على المؤمنين أعزة)** أشدّاء **(على الكافرين)** كلّهم **(يجاهدون)** يعملون بجهد **(في سبيل)** نشر دين **(الله)** باللّسان وبالسّنان **(لا يخافون لومة لائم)** في عملهم وجهادهم **(ذلك)** الحبّ والجهاد **(فضل الله)** نعمة الله **(يؤتيه من يشاء والله واسع عليم)** أي واسع علمه، فبعلمه يعلم من يصلح للإسلام فيأتي به ومن لا فيضّله، وفي هذه الآية تهديد واستغناء وبشارة بأنّ كلّ قوم إذا ارتّدوا عن الإسلام فإنّ الله تعالى يأتي بقوم يؤدّبهم فيخلصون للإسلام. اللّهم فافعل برحمتك يا أرحم الراحمين.

ثمّ بعد أن نهى الله تعالى عن التّصادق مع اليهود والنّصارى والإستنصار بهم أمر بالموالاة مع الله ورسوله والمؤمنين والإستنصار بهم فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾

(إنّما وليّكم) ناصركم **(الله ورسوله والّذين آمنوا)** لا غيرهم، فاستنصروا بهم فقط، ثمّ لمّا كان الإيمان خفيّاً في القلب ولا يصدّق به إلّا إذا أثمر وأظهر الأعمال الشّاهدة عليه قال تعالى: **(الّذين يقيمون الصّلاة)** أي يؤدّونها ويأمرون بها من تحت رعايتهم

(ويؤتون الزّكاة وهم راكعون) خاشعون لله مطيعون أوامره الأخرى ويجتنبون النّواهي، فهؤلاء أولياء المؤمن، ويجب أن يستنصر ويعتزّ بهم فقط، فإذا فعل ذلك فيكون له الغلبة والنّصر كما قال تعالى: **(ومن يتولّ الله ورسوله والّذين آمنوا)** فصادقهم فقط واستنصر بهم؛ فيكون من حزب الله تعالى ويكون له النّصر حتماً **(فإنّ حزب الله هم الغالبون)** على غيرهم والمنتصرون عليهم.

ثمّ بعد أن نهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن الموالاة لليهود والنّصارى أراد تعالى أن ينهاهم عن الموالاة لجميع الكافرين فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٞ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾

(يا أيها الّذين آمنوا) بالإسلام واعتنقوه ديناً وعقيدةً ونظاماً من الله تعالى **(لا تتّخذوا الّذين اتخذوا)** أي اعتبروا **(دينكم هزواً)** شيئاً حقيراً وباطلاً **(ولعباً)** وهولاء **(من الّذين أوتوا الكتاب)** من الله تعالى **(من قبلكم)** وهم اليهود والنّصارى **(والكفار)** بدينكم غيرهم جميعاً، فلا تتّخذوهم أولياء تستنصرون بهم **(واتّقوا)** عذاب **(الله)** تعالى على اتّخاذهم أولياء **(إن كنتم مؤمنين)** حقاً بالله وثوابه وعقابه وبدينكم صدقاً وإخلاصاً، فالمعنى: أن من اتّخذ اليهود والنّصارى والكافرين من كانوا أولياء لأمره واستنصر بهم واتّفق معهم في العمل والحركة فليس بمؤمن صدقاً، وإنّما هو كاذب في إيمانه **(وإذا ناديتم إلى الصّلاة اتخذوها)** أي الصّلاة **(هزواً)** شيئاً حقيراً لا فائدة فيه **(ولعباً)** عملاً يلهي دون فائده **(ذلك)** أي عقيدتهم هذه بالنّسبة لدينكم والصّلاة حصلت لهم **(بـ)** سبب **(أنّهم لا يعقلون)** حقائق الأمور ومعانيها، وإلّا فلو تفكّروا في دينكم وصلاتكم وعرفوا حقائق الدّين ومفاهيم الصّلاة، لما اتّخذوا ما أنتم عليه هزواً ولعباً، بل حقاً يجب اعتناقه والإنقياد له، وكم من فيلسوف إعتنق الإسلام بعد دراسته له حقّ الدّراسة وكان من قبل ألدّ أعدائه؛ فهداه الله تعالى بالعقل والتّفكير في الإسلام. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّ اليهود والنّصارى يهزؤون بدين المؤمنين، أمر تعالى الرّسول والمسلمين أن يقولوا لهم ماذا تنكرون منّا فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾

(قل) يا أيّها المسلم **(يا أهل الكتاب هل تنقمون)** الإستفهام للإنكار، فمعناه: لا تنقمون أي لا تنكرون **(منّا)** ولا عيب لنا تنكرونه **(إلّا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا)** من الدّين الحقّ والقرآن الكريم **(وما أنزل)** أي وآمنا بما أنزل **(من قبل)** وهو التّوراة والإنجيل، وهذا ليس مما يليق بالإنكار بل العيب كلّ العيب فيكم، حيث آمنّا أي علمنا **(و)** حقّقنا **(إنّ أكثركم فاسقون)** خارجون عن أمر الله تعالى وعن أمر التّوراة، حيث أمركم فيها بالإسلام والإيمان بالنّبي ولا تؤمنون به **(قل)** أيّها المسلم لأهل الكتاب **(هل أنبّئكم بشرّ من ذلك)** أي من إنكاركم ديننا واتخاذه هزواً ولعباً، والإستفهام للتحذير فمعناه: بلى أخبركم بشرّ من ذلك الإنكار **(مثوبةً)** أي من حيث العقوبة **(عند الله)** وهي عقوبة **(من لعنهُ الله)** منكم **(وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير)** بسبب ذنوبهم **(و)** من كانوا **(عبد الطّاغوت)** والطّاغوت كلّ حكم يخالف حكم الله تعالى، فكلّ من أطاع غير حكم الله اختياراً فقد عبد الطّاغوت وأطاعه، لأنّ الطّاغوت صيغة مبالغة من الطّغيان بمعنى تجاوز الحدّ والحقّ، وأيّ تجاوز أشنع من التّجاوز عن حكم الله تعالى وشريعته والإنحراف عنها إلى ما يضعه النّاس من الدّساتير والأحكام على خلاف حكم الله تعالى وحسب هواهم **(أولئك)** الّذين وجد فيهم هذه الصّفات **(شرّ مكاناً)** يوم القيامة **(وأضلّ عن سواء السّبيل)** أي السّبيل المستوى وهو الصّراط المستقيم، صراط الله الّذي وضعه لعباده من منهج الإسلام، منهج الأنبياء والمرسلين جميعاً، وهذه الأمور وجدت كلّها في اليهود فهم شرّ مكاناً من كلّ أحد وأضلّ عن السّبيل المستقيم.

ثمّ أراد الله تعالى أن ينبّه الرّسول والمؤمنين على بعض صفات اليهود القبيحة فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ

يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾

(**وإذا جاؤوكم**) وهم اليهود المنافقون قالوا (**آمنّا**) بالإسلام ورسوله (**وقد دخلوا**) مجلسكم متلبّسين بالكفر بدينكم (**وهم قد خرجوا به**) بالكفر أيضاً، أي أتوا كافرين وذهبوا كافرين وإنّما يقولون: آمنّا نفاقاً ليمكنهم التّجسس عليكم والإطلاع على أسراركم لمصلحة ملتهم (**والله أعلم**) منكم (**بما يكتمون**) هؤلاء من الكيد والدّسائس ضدّكم فاحذروهم أيّها المؤمنون (**وترى**) أيّها المسلم (**كثيراً منهم يسارعون**) يتسابقون (**في الإثم**) أي في الكذب والخيانة معكم (**والعدوان**) والظّلم، وهذا يدل على عدم إسلامهم لأنّ المسلم لا يكذب ولا يخون ولا يظلم (**وأكلهم السّحت**) الحرام، فلو صدقوا في إسلامهم لما اتّصفوا بهذه الصفات (و) بعزّتي أقسم (**لبئس ما كانوا يعملون**) في الإثم والعدوان وأكل السّحت، وفي هذه الآية دلالة أيضاً على أنّ المسلم الّذي يتّصف بهذه الصّفات فليس بمسلم حقّاً. ثمّ بعد أن ذكر اللّه تعالى بعض صفات اليهود القبيحة أشار إلى خيانة علمائهم وعدم قيامهم بواجبهم الدّيني أيضا، فقال جلّ وعلا:

﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾

(**لولا**) حرف تحريض وتنديم وزجر أي فلماذا؟ (**لا ينهاهم**) أي لا ينهى اليهود (**الرّبانيون والأحبار**) من علمائهم عن قولهم (**الإثم**) أي الكذب (**وأكلهم السّحت**) الحرام (**لبئس ما كانوا يصنعون**) هؤلاء العلماء من سكوتهم عن الباطل وعدم نهيهم عن المنكر، وهذه المذمّة تشمل علماء المسلمين أيضا إذا سكتوا عن الباطل ولم ينهوا عنه مهما كلّفهم الأمر. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر إفكا وكذباً من أشنع الأكاذيب وكفراً لا كفر أشدّ منه فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ

ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

(و) من القول بالإثم والكذب والبشع أنّه **(قالت اليهود يد الله مغلولة)** غلّ اليد كناية عن البخل، كما أنّ بسطها كناية عن الجود والسّخاء، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ ـ سورة الإسراء الآية ٢٩، فقالت اليهود يد اللّه مغلولة، أي أنّ اللّه بخيل لا يوسع علينا في الرّزق، فأجابهم اللّه تعالى بقوله: ﴿غلّت أيديهم﴾ أي أنّهم هم البخلاء والأشحّاء **(ولعنوا بما قالوا)** واللّه ليس بخيلاً **(بل يداه مبسوطتان)** أي أنّ اللّه جوّاد كريم **(ينفق كيف يشاء)** لا يمنعه من الإنفاق مانع، ولا يلزم من ذلك إثبات اليد للّه تعالى، فإنّه يقال لمن ليس له ولا يد واحدة هو باسط يديه أي سخيّ، فهذه العبارة تستعمل في الجود والسّخاء وإن لم يكن لمن يقال له يد ولا يدان **(وليزيدنّ كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربّك)** من القرآن والإسلام والدّين **(طغياناً)** تجاوزاً عن الحقّ **(وكفراً)** باللّه، والمعنى: أنّهم يجدونك على ما أنزل إليك فيحملهم الحسد على الازدياد في الكفر والطّغيان **(و)** بسبب هذا **(ألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة)** بسبب حسدهم لكلّ النّاس، فاليهود حاقدون على البشريّة كلّها، ولا يريدون الحياة لغيرهم، فلو استطاعوا لأبادوا كلّ النّاس إلّا أنّ الله تعالى أذلّهم وجعلهم **(كلّما أوقدوا ناراً)** للإستيلاء على غيرهم **(أطفأها اللّه)** تعالى بسبب من الأسباب، ولا يقال إنهم أوقدوا نار الحرب في فلسطين وهي مشتعلة إلى الآن، لأنّ هذه النّار لم يوقدوها هم، وإنّما هي نار الدّول المستعمرة، وإنّما أوقدوها ضدّ الشّرق والمسلمين، وإنّما اليهود عملاؤهم، فالنّار نار الدّول الكبرى لا نارهم، ولا بد أن يطفئها اللّه تعالى، وسيطفئها إن صدق المسلمون وعملوا **(و)** من جبلة اليهود أنّهم **(يسعون)** دائما باستمرار الزمان **(في الأرض فساداً)** لأجل الفساد بين النّاس، فاللّه غضب عليهم حيث **(واللّه لا يحبّ المفسدين)** فكلّ فساد وتفرقة وإضلال ينشأ بين النّاس فلليهود أصبع فيه، ويشهد بذلك أهل السّير والتّأريخ.

ثمّ أشار الله تعالى إلى أنّ اليهود والنّصارى كلّ ما يفعلونه فإنّما يفعلون لمصالح دنيوية ومنافع ولكنّهم أخطأوا؛ فإنّهم لو آمنوا واتّقوا لكان أنفع لهم بالنّسبة للدّنيا والآخرة وأصلح لهم، فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

(**ولو أنّ أهل الكتاب آمنوا**) بالرّسول واعتنقوا الإسلام (**واتّقوا**) واجتنبوا الكفر والفساد (**لكفّرنا عنهم سيّئاتهم**) ذنوب ما عملوا (**ولأدخلناهم جنّات النّعيم**) هذا بالنّسبة للآخرة، وأمّا بالنّسبة للدّنيا فكما قال تعالى: (**ولو أنّهم أقاموا التّوراة والإنجيل**) أي عملوا بهما وفي ضمن العمل بهما الإيمان بالرّسول (ﷺ) (**وما**) أي وعملوا (**بما أنزل إليهم ربهم**) على أنبيائهم مثل كتاب أشعيا وحيقوق ودانيال، وهذه الكتب كلّها كانت تنادي بالبشارة بالرّسول وبالأمر بالإيمان به (**لأكلوا**) أي لوسّع اللّه تعالى عليهم الرّزق بسبب العمل بما أمروا، فأكلوا (**من فوقهم**) من ثمار الأشجار (**ومن تحت أرجلهم**) من حبوب النّبات، إلّا أنّ كونهم لم يقيموا التّوراة والإنجيل وما أنزل إليهم، فلم يؤمنوا بالرّسول ولم يسلموا، بل أصبحوا قسمين (**منهم**) أي بعضهم (**أمّة مقتصدة**) أي سائرة على السّبيل المستوى فآمن (**وكثير منهم ساء ما يعملون**) من الكفر ومعاداة الإسلام ورسوله (ﷺ). ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّ كثيراً من اليهود والنّصارى يعادون الرّسول(ﷺ) ويعملون الأعمال السّيئة والدّسائس الخبيثة ضدّ هذا الدّين والرّسول؛ للقضاء على الإسلام أراد أن يقوّي عزم الرّسول على الدّعوة والتّبليغ وعدم التّواني فيه مهما كثرت أعداؤه وأساؤوا العمل والدّسائس، ووعده بالعصمة وحفظه من أن تناله دسائس الدّساسين وكيد الكائدين فقال جلّ وعلا:

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾

(**يا أيّها الرّسول**) منّا إلى النّاس (**بلّغ**) كلّ (**ما أنزل إليك من ربّك**) ولا تترك شيئاً منها (**وإن لم تفعل**) بأن تترك شيئاً ممّا أنزل إليك فما بلّغت (**رسالته**) الّتي كلّفك بها اللّه، وهذا مثل ما يقال أدّ صلاتك كما هي ولا تترك شيئاً من واجباتها، وإلّا فما

صلّيت أي فلا تجزي صلاتك، فيفيد أنّ الدّين والرّسالة كلّها أمر واحد، فإذا نقص منها جزء فلا تجزئ تلك الرّسالة ولا يعتدّ بها، بهذا يندفع الإشكال بأنّ الشّرط والجزاء متحدّان، إذ التقدير وإن لم تبلّغ الرّسالة فما بلّغت الرّسالة، وهذا غير مقيد، وتفيد الآية أيضاً بأنّ كلّ ما لم يرد من الكتاب والسّنة فليس من الدّين في شيء؛ لأنّ الرّسول حاشاه أن يكتم شيئاً ممّا أنزل إليه، فبيّن كلّ شيء وبلّغ، فما لم يبلّغ فليس من الدّين، بل هو بدعة ابتدعها من ابتدعها، وكلّ بدعة ضلالة وكلّ ضلالة في النّار. ثمّ لما أمره تعالى بأن يبلّغ كلّ شيء أزال عنه كلّ المخاوف من كثرة الاعداء فقال جلّ وعلا: **(والله يعصمك** من **النّاس)** كلّهم، فلا تخف وبلّغ بدون خوف، وكان الرّسول (ﷺ) يحرسه سعد وحذيفة، فلمّا نزلت هذه الآية أخرج رأسه من قبة أدم وقال: إنصرفوا، فقد عصمني اللّه من النّاس **(إنّ الله لا يهدي)** أي لا يوصل **(القوم الكافرين)** إلى مقاصدهم من النّيل منك والقضاء على دينك أو عليك بالذّات.

ثمّ بعد أن أمر اللّه تعالى رسوله أن يبلّغ كلّ شيء وإن كان فيه المخاوف من النّاس، وإنّ اللّه تعالى يعصمه منهم، أمره تعالى أن يصارح اليهود والنّصارى بأنّهم على الباطل فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾

(قل) يا أيّها الرّسول لأهل الكتاب **(يا أهل الكتاب)** اليهود والنّصارى **(لستم على شيء)** من الدّين والحقّ والصّواب **(حتّى تقيموا التّوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربّكم)** بأن تعملوا بها فتؤمنوا بالرّسول الّذي بشرت تلك الكتب به وأمرت الإيمان به، ثمّ إنّ الرّسول بعد أن زال الخوف منه على نفسه، حيث وعده اللّه تعالى بأن يعصمه أصبح يخاف على اليهود والنّصارى أن يزيدوا في الطّغيان والكفر إذا صارحهم بكلّ شيء، فأراد أن لا يصارحهم بكلّ شيء رحمة بهم، ولعلّهم يهتدون باللّين وبعض المجاملات فقال تعالى: **(وليزيدنّ)** أي وبعزتي **(ليزيدنّ كثيراً منهم ما أنزل إليك طغياناً)** أي عناداً وتجاوزاً عن الحقّ **(وكفراً)** بك وإنكارهم لك فلا يكونن ذلك داعياً إلى لينك ومجاملاتك معهم، بل بلّغهم فليكفروا ولا ترحمهم ولا تحزن على كفرهم واستخفافهم

للنّار، كما قال جلّ وعلا: **(فلا تأس)** أي فلا تحزن **(على القوم الكافرين)** في كفرهم وفقدانهم سعادة الدّنيا والآخرة. ثمّ بعد أن ذكر اللّه تعالى مساوىء أهل الكتاب وصبّ عليهم هذه المحاولات؛ إختلج في قلوب النّاس أمران:

الأول: إنّ الّذين آمنوا منهم ودخلوا في الإسلام من المستبعد أن يقبل منهم الإسلام، فحزن بذلك من آمن منهم.

الثّاني: إنّ الّذين لم يسلموا ربما يعتقدون أنّه لا يقبل منهم بعد هذه الملامات لا الإيمان ولا الإسلام ولا كلّ شيء، فيكون بذلك عقبة في سبيل إيمانهم وإسلامهم فلا يؤمنون، فإزالةً لحزن الّذين آمنوا منهم وبشارةً لهم، وإزالة لهذه العقبة أمام الّذين لم يؤمنوا وبشارة بقبولهم وعفوهم، قال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾

(إنّ الّذين آمنوا) قبل نزول هذه الآية **(والّذين هادوا)** وبقوا على دينهم **(والصّابئون)** المتمسّكون بعد بعقيدتهم **(والنّصارى)** الباقين على النّصرانية **(كلّ من آمن)** في هؤلاء بأن ثبت المؤمنون على إيمانهم ولم يرتدّوا، وأنشأ الإيمان من اليهود والصّابئة والنّصارى فآمن **(باللّه واليوم الآخر وعمل صالحاً)** بالدّخول في الإسلام **(فلا خوف عليهم)** يوم القيامة حيث يغفر اللّه لهم **(ولا هم يحزنون)** على فوات الدّنيا حيث وجدوا خيراً منها وهو الجنّة ورضاء اللّه تعالى، وبهذه الآية فرح المؤمنون من تلك الطّوائف وانفتح السّبيل لدخول غيرهم في الإسلام حيث بشّروا هذه البشارة. اللّهم بشّرنا بكلّ خير في هذه الدّنيا وفي الآخرة آمين. وقد تقدّم الكلام على هذه الآية في سورة البقرة، وسيأتي تمام الكلام فيها في سورة الحج في الآية (٧١) إن شاء اللّه تعالى. ثمّ أراد اللّه تعالى أن يذكر أنّ معاداة الرّسل وتكذيبهم ليس أمراً جديداً في بني إسرائيل، بل إنّ ذلك طبيعتهم الرّاسخة في قلوبهم وعاداتهم الخبيثة الّتي تمكنت في نفوسهم، فقال جلّ وعلا:

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا

تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾

(**لقد**) أي وبعزتي أقسم (**لقد أخذنا ميثاق**) أي العهد من بني إسرائيل أن يؤمنوا بمن يجيء من الرّسل بعد موسى (عليه السلام) فنقضوا ميثاقهم، هذا حيث (**وأرسلنا إليهم رسلاً**) حينما انحرفوا عن الحقّ وبدّلوا وغيّروا الدّين فأصبحوا (**كلّما جاء رسول بما**) بحكم (**لا تهوى**) لا تحبّ (**أنفسهم**) ذلك الحكم من العقائد أو الفروع عادوا الرّسل، ولعداوتهم لهم (**فريقاً كذّبوهم**) ولم يؤمنوا بهم (**وفريقاً يقتلون**) أي قتلوهم، وعبّر بالمضارع لأنّ هذه الصّفة مستمرّة فيهم، فيريدون قتل الرّسل دائماً، فقد أرادوا قتل عيسى(عليه السلام) فعصمه اللّه تعالى منهم وأرادوا قتل محمّد(صلى الله عليه وآله) فعصمه اللّه تعالى منهم (**وحسبوا**) وظنّوا (**ألّا تكون**) أن لا تقع بهم (**فتنة**) عذاب بسبب هذه الجرائم، فلأمانهم هذا من العذاب (**عموا**) فلم ينظروا إلى الحقّ ولم يروه وارتكبوا الجرائم فقتلوا زكريّا ويحيى (**وصمّوا**) عن الحقّ (**ثمّ تاب اللّه**) تعالى (**عليهم ثمّ عموا وصمّوا**) مرةً أخرى حين مجيئ سيّدنا عيسى (عليه السلام) فكفروا به وأرادوا قتله، إلّا أنّه لم يعم كلّهم ولم يعمّ الجميع بل (**كثير منهم**) فقط حيث آمن بعيسى جماعة منهم (**واللّه بصير بما يعملون**) فينتقم منهم إنتقاما حسب إستحقاقهم وعنادهم وغلوّهم في الكفر والضّلال. ثمّ بعد أن ذكر اللّه تعالى نقض اليهود للميثاق وضلالهم، أراد أن يذكر ضلال النّصارى فقال جلّ وعلا:

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

(**لقد**) أي بعزتي أقسم (**لقد كفر الّذين قالوا إنّ اللّه هو المسيح** ابن مريم) وهذا مذهب النّسطورية من النّصارى وقالوا هذا الإفك خلاف ما وصاهم به عيسى ابن مريم

(عليه السلام) لأنه دعاهم إلى اللّه وعبادته وتوحيده في ذاته وصفاته **(وقال المسيح)** لهم **(يا بني إسرائيل اعبدوا اللّه)** وحده ولا تشركوا به شيئاً فإنّه **(ربي وربكم)** جميعاً وإنّ عاقبة الشّرك وخيمة جداً حيث **(إنّه)** أي إنّ الشأن والحكم هو أنّ **(من يشرك باللّه)** شيئاً من الهياكل أو الأشخاص من الملائكة أو الجنّ أو الإنس **(فقد حرّم اللّه عليه الجنّة)** فلا يدخلها أبداً **(ومأواه)** أي مرجعه يوم القيامه (**النّار وما للظّالمين من أنصار)** ينصرهم فينقذهم من عذاب النّار وبئس المصير. ثمّ بعد أن ذكر اللّه تعالى كفر هؤلاء من النّصارى، أراد أن يذكر كفر طائفة أخرى منهم فقال جلّ وعلا: **(لقد)** أي وبعزتي أقسم **(لقد كفر الّذين قالوا إنّ الله ثالث ثلاثة)** من الآلهة، فقالوا مريم إله وعيسي إله واللّه تعالى ثالثهم، وهذا مذهب الملكانيّة من النّصارى، ومذهب اليعقوبية أنّ عيسى هو ابن الله تعالى، فيقول الملكانيّون: إنّ اللّه ثالث ثلاثه، وقد كذبوا حيث **(وما من إله إلّا آله واحد وإن لم ينتهوا)** من هذه العقيدة فيتركوها إلى التّوحيد ويرجعوا **(عمّا يقولون)** ويتوبوا عنه **(ليمسّنّ الّذين كفروا)** وبقوا على الكفر والتّثليث أو ألوهية المسيح **(منهم عذاب أليم)** مؤلم جدّاً، والحاصل أنّ القرآن يقسم النّصارى إلى ثلاثة فرق: فرقة تعتقد بأنّ الله هو المسيح، وفرقة تقول بأن الآلهة ثلاثة: اللّه ومريم والمسيح، والأخرى تقول بأنّ المسيح هو ابن اللّه، وتعالى اللّه عن هذه الأقوال كلّها، ولذلك أمرهم اللّه تعالى بالتّوبة والإستغفار من هذه العقائد، وبيّن لهم أنّ المسيح هو بشر وعبد من عباد اللّه تعالى، وجعله رسولاً كسائر الرّسل الّتي خلت من قبله، فقال جلّ وعلا:

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾

(أفلا يتوبون) الإستفهام للإنكار فيكون في معنى الأمر، فالتّقدير فليتوبوا **(إلى الله)** تعالى بترك تأليه عيسى وحده، أو مع الله أو نبوّته لله تعالى **(والله غفور)** يغفر لهم إنّ تابوا **(رحيم)** بهم. ثمّ أراد الله تعالى أن يثبت بالدّليل أنّ المسيح ليس إلهاً ولا إبناً للّه تعالى فقال: **(ما المسيح ابن مريم إلّا رسول)** وليس بإله ولا بإبن اللّه تعالى؛ لأنّه لو كان المسيح إلهاً حيث أظهر المعجزات من إحياء الموتى وإبراء الأكمه

والأبرص لزم أن يكون أبناء اللّه تعالى كثيرين لأنّه **(قد خلت)** أي جاءت ومضت **(قبله)** قبل المسيح **(الرّسل)** المعروفون والكثيرون، وكلّ واحد منهم له خوارق مثل المسيح، أو أعجب منه كإخراج صالح النّاقة من الصّخرة، وكضرب موسى بعصاه البحر فانفلق ومضى هو وقومه فيه ثمّ إنطبق على فرعون وجنوده فغرقهم، وكضرب موسى أيضاً بعصاه الصخرة فانفجرت منها إثنتا عشرة عيناً، وكحياة يونس في بطن الحوت وتحت قعر البحر وكبقاء إبراهيم في النّار دون أن يحترق، فلو كان من أظهر خوارق العادات إلهاً أو ابن إله يلزم أن يكون الرّسل كلّهم آلهة أو أبناء اللّه تعالى **(وأمّه صدّيقة)** بإتفاق من المسلمين والنّصارى، وقد أخبرت هي بأنّ عيسى (عليه السلام) ولد منها، وأنّه عبد الله خلقه تعالى منها دون أن يمسّها بشر، والمخلوق لا يكون إلهاً ولا إبنه **(وكانا)** أي وكان عيسى وأمه مريم **(يأكلان الطّعام)** ولو لم يأكلا لماتا جوعاً، واللّه تعالى لا يقوم به الجوع ولا يأكل ولا يشرب، وإبنه لابد أن يكون مثله، فليس عيسى ولا أمّه إلهاً وهما بهذا العجز والحاجة إلى الطّعام، ثمّ طرحه حينما أصبح في البطن مهضوماً وفضلات لأنّ اللّه تعالى يجب أن يكون منزّهاً عن الحاجة إلى الطعام وعمّا يسببه الطعام، وعن كلّ شيء **(انظر كيف نبيّن لهم الآيات)** أي الدّلائل الدّالة على عدم كون المسيح إلها أو إبنه، والإستفهام للتعجّب أي نبيّن لهم الدلائل العجيبة، ومع ذلك لا يقنعون كما قال تعالى: **(ثمّ أنّى يؤفكون)** أي كيف يصرفون عن هذه الدّلائل الواضحة والمقنعة، فلا تؤثّر فيهم، وهكذا أصحب التّقليد والهدى، فحالهم عجيب وأمرهم غريب وضلالهم بعيد. ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن للرّسول والمسلمين كيفيّة مناقشة أهل الكتاب؛ فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾

(قل) يا أيّها النّبيّ ويا كلّ مسلم للنّصارى واليهود **(أتعبدون ما)** وهو المسيح والعزير والحال أنّ كلاً منهما **(لا يملك لكم)** أن يلحق بكم **(ضراً)** حيث إنّ النّصارى يعتقدون أنّ عيسى (عليه السلام) أوذي من قبل اليهود قتلوه وصلبوه فلم يستطع أن يدافع عن نفسه أو أن يضرّ اليهود شيئاً، وكذا عزير (عليه السلام) أوذي ولم يضرّ أعداءه **(ولا)** يملك أن يوصل إليكم **(نفعاً)** لأنّ من لم يستطع أن ينفع نفسه فكيف بالغير **(والله هو السميع)** الّذي يسمع دعوات الغير، فيدفع عنهم الضّر ويجلب لهم النّفع **(العليم)** بأموالهم فينفع من شاء ويضرّ من شاء **(قل)** أيّها المخاطب **(يا أهل الكتاب)** اليهود والنّصارى **(لا تغلوا)** أي لا تتعمّقوا[1] في دينكم **(غير الحقّ)** أي غير التّعمق الحقّ وهو شدّة الحزم في إمتثال الأوامر والإجتناب عن المناهي، والنّصارى تعمّقوا في فضل المسيح فجعلوه إلهاً أو ابن إله، واليهود تعمّقوا في عزير فجعلوه ابن اللّه وتعمّقوا في عداء المسيح فوصفوه بما لا يليق به، وحيث كان غلوّهم هذا تقليداً لأسلافهم، قال تعالى: **(ولا تتّبعوا أهواء قوم)** هم اسلافهم وهم **(قد ضلّوا من قبل)** عن الحقّ حيث حرّفوا دينهم وبدّلوه **(وأضلّوا كثيراً)** ممن تبعهم **(وضلّوا)** أي واستمرّوا على هذه الضّلالة **(عن سواء السّبيل)** أي الطّريق المستوي وهو الدّين الحقّ. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر وصف أسلافهم وحالهم فقال جلّ وعلا: **(لعن الّذين كفروا من بني إسرائيل)** وهم الّذين بدّلوا وغيّروا فلعنوا ودعي عليهم باللّعن **(على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك)** اللّعن التحق بهم **(بما عصوا)** ما مصدريّة أي بسبب عصيانهم لأمر اللّه وعدائهم لرسله **(وكانوا يعتدون)** يظلمون ويتجاوزون حقوق اللّه تعالى وحقوق النّاس **(وكانوا لا يتناهون)** أي لا ينهى بعضهم عن بعض **(عن)** أيّ **(منكر فعلوه)** وبعزّتي أقسم **(لبئس ما كانوا يفعلون)** من السّكوت عن المنكر وفشوّ الفساد فيهم دون أي إنكار وزجر من أحد منهم، وهذا ما وقعنا فيه اليوم المسلمون أيضاً وياللأسف الشّديد.

ثمّ وصفهم الله تعالى بوصف آخر فقال جلّ وعلا:

﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ

(١) الغلو هو الإفراط وتجاوز الحد في كل شيء، فلما تعمق النصارى وتجاوزوا الحد في تقديس عيسى وكذلك اليهود في تقديس عزير ألّهوهما فكفروا، فكذلك كلّ غلوّ غير مستند إلى دليل علمي وشرعي يؤدّي إلى الكفر أو الشّرك.

أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾

(ترى) أيّها المخاطب (**كثيراً منهم**) من أهل الكتاب (**يقولون**) يصادقون (**الّذين كفروا**) بدينهم وهم المشركون من أهل المدينة ومكّة، وذلك عداء للإسلام ويسلّمون إليهم زمام أمورهم (**و**) وبعزّتي (**لبئس ماقدمت لهم أنفسهم**) من الضّرر بسبب تولّيهم الكافرين وذلك الضّرر هو (**أن سخط الله عليهم**) في الدّنيا وهو الذّل، وهذا لكلّ من سلّم زمام أمورهم إلى أعداء دينه من الذّلّ في الدّنيا والعذاب في الآخرة، وسخط الله تعالى عليه، فإلى متى أيّها المسلمون تسلّمون أموركم لمن يكفر بدينكم، وإلى متى لا تتنبهون، وهذا كتابكم ينبّهكم وما من منبّه أحسن منه، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون (**ولو كانوا**) أي أهل الكتاب (**يؤمنون بالله والنّبي وما أنزل إليه**) من التّوراة والإنجيل، ثمّ القرآن الّذي أمروا بالإيمان به لو آمنوا بذلك إيمان صدق وإخلاص (**ما اتّخذوهم**) أي الكافرين بدينهم (**أولياء**) لأمورهم (**ولكنّ كثيراً منهم فاسقون**) خارجون عن أمر الله و**النّبيّ** وما أنزله الله؛ لأنّ كلّ ذلك ينهى عن أن يتّخذ المرء عدوّ دينه وليّاً لأمره. فلا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم، وهذا أشدّ وعيد للمسلمين اليوم. وكيف يمكن للمسلمين أن يسلّموا أمورهم إلى غيرهم وكلّ أمور المسلمين الآن مسلّمة إلى غيرهم، مع أنّ كلّ أمور المسلمين مربوط بالدّين والعقيدة والكتاب والسّنة وهم لا يؤمنون بذلك، بل يريدون هدم الكلّ وهدم هذا الدّين فلا حول ولا قوّة إلّا بالله.

﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

(**لتجدن**) أي بعزّتي لتجدّن أيّها النّبيّ ويا كلّ مسلم (**أشدّ النّاس عداوة للّذين آمنوا اليهود**) لأنّهم تعوّدوا على الكفر والعداء للحقّ ومعاداة الرّسل وقتلهم، وفي الحديث:

(ما خلا يهوديان بمسلم إلّا همّا بقتله)[1] **(والّذين أشركوا)**[2] فهم كاليهود في شدّة عدائهم للمسلمين (و) بعزّتي **(لتجدنّ أقربهم)** أي أقرب النّاس **(مودّة)** محبّة **(للّذين آمنوا)** هم **(الّذين قالوا إنّا نصارى)** وهم الّذين بقوا على حقيقة دين المسيح، وعلى أخلاق المسيح الطّيبة من لين الجانب والعريكة **(ذلك)** الحبّ منهم للمسلمين حاصل **(بأن)** بسبّب أنّ منهم **(قسّيسين)** وهم العلماء **(ورهباناً)** وهم العلماء المتفرغون للعبادة وأنّهم يعلمون حقيقة الإسلام **(وأنّهم لا يستكبرون)** على اتّباع الحقّ كاليهود، فإنّهم استكبروا عن الحقّ بعدما عرفوا وعلموا به، كما ذكر تعالى ذلك فقال: ﴿ولمّا جاءهم كتاب من عند الله مصدّق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الّذين كفروا فلّما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين. بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزّل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين﴾ سورة البقرة الآية/ ٨٩-٩٠ ـ وقالت صفيّة زوجة الرّسول (ﷺ): أنّه لما سمع أبي جبي بن أخطب وعمّي بمقدم الرّسول (ﷺ) إلى قباء؛ ذهبا إليه صبيحة يوم، فرجعا وقت العصر، فسمعت عمّي يقول: أليس **(هو)** أي محمّد **(هو)** أي الّذي يذكره التّوراة؟ قال: نعم، قال: فما موقفك معه؟ قال: لا أؤمن به أبداً. فالآية نزلت للمقايسة بين طائفة من اليهود الّذين عرفوا الحقّ فأنكروا استكباراً، وطائفة النّصارى عرفوا الحقّ فاتّبعوا وأسلموا، وذلك بدليل قوله جلّ وعلا:

﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾

---

(١) كنز العمال ٤/ ١٨٤ الحديث رقم ١١٢٥٩، تخريج الأحاديث والآثار ١/ ٤١٥ الحديث رقم ٤٢٨. قال رواه ابن حبان في كتاب الضعفاء.

(٢) وهم عبدة الأصنام والأوثان والبشر.

(وإذا سمعوا) هؤلاء القسّيسون والرّهبان ومن معهم إذا سمعوا **(ما أنزل إلى الرّسول)** محمّد وهو القرآن **(ترى أعينهم تفيض)** تمتلئ **(من الدّمع)** لكثرة بكائهم **(ممّا)** أي لأجل ما**(عرفوا من الحقّ)** وأصبحوا **(يقولون)** كلّهم وبصوت واحد **(ربّنا آمنا)** بهذا المُنزل ومن أُنزل عليه أنّه رسول، وإنّ هذا مُنزل عليه من عندك **(فاكتبنا مع الشّاهدين)** على الأمم وهم أمّة محمّد (ﷺ) حيث قال تعالى لهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ سورة البقرة الآية/١٤٣. وعرفوا ذلك في الإنجيل فدعوا من الله أن يكتبهم مسلمين، وهؤلاء جماعة النّجاشي، فإنّهم حينما تلا عليهم جعفر بن أبي طالب ﷺ سورة مريم بكوا، وأخذ النّجاشي قشّة وقال: والله ما زاد على ما قال الله في الإنجيل مثل هذا، فما زالوا يبكون حتّى فرغ جعفر من القراءة، وسنذكر القصّة في تفسير هذه الآيات إن شاء الله تعالى. وقالوا: **(وما لنا)** أيُّ سبب لنا **(لا نؤمن بالله)** الإيمان الصّحيح **(وما جاءهم من الحقّ)** وهو القرآن والإسلام الّذي عرفوا وعرفوا حقيته من الإنجيل **(ونطمع أن يدخلنا ربّنا مع القوم الصّالحين)** أي زمرة القوم الصّالحين، فالمعنى: حينما نطمع هذا الطّمع كيف لا نؤمن بما نزل وأنّه لا يكون من الصّالحين إلّا من آمن به؟، والإستفهام للتّعجّب، أي عجيب إذا لم نؤمن مع طمعنا هذا! **(فأثابهم الله)** أي فأتاهم الله تعالى ثواباً **(بما قالوا)** وأتاهم **(جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك)** الجزاء **(جزاء المحسنين)** جعلنا الله تعالى منهم **(والّذين كفروا)** من النّصارى وما آمنوا بالإسلام **(وكذّبوا بآياتنا)** الموجودة في الإنجيل والّتي تأمرهم بالإسلام وبآيات القرآن وبمعجزات الرّسول (ﷺ) **(أولئك أصحاب الجحيم)** أي أهل جهنّم، فهذه الأوصاف وهو أنّهم إذا سمعوا القرآن بكوا وآمنوا وترجّوا أن يكتبهم الله من المسلمين، وأنّهم اعترفوا أنّ من لا يؤمن فليس من الصّالحين، وأنّ الله تعالى أثابهم الجنّة، وأنّ الّذين لم يؤمنوا هذا الإيمان من أصحاب الجحيم، كلّ ذلك يدل على أنّ المراد بالآية جماعة مخصوصة من النّصارى لا كلّهم، وإنّ من هو غير مثل هؤلاء الجماعة من النّصارى ليس لهم ذرة من المودّة للمسلمين، بل إنّهم أعدى الأعداء لهم، ويشهد بذلك ما فعلوا في الحروب الصّليبيّة وما فعلوا ببلاد الأندلس من قتل وتشريد المسلمين وتنصيرهم بالجبر والإكراه، ولا يزالون يستعمرون بلاد المسلمين ويذلّونهم ويكيدون لهم كلّ كيد ودسيسة لتفريقهم وضرب بعضهم بعضاً، وإنّ اليهود لم يستطيعوا أن يسلبوا بلاد فلسطين ويقيموا فيها الدّولة العميلة إلّا بمساندة الدّول المسيحيّة دول الحلفاء وما ذلك ممّا يخفى على كلّ من له عقل أو ألقى السّمع وهو شهيد.

السّؤال: إذا كانت هذه الآية خاصّة بطائفة من النّصارى وهم الّذين أسلموا حينما سمعوا القرآن فاستثناهم الله تعالى بهذه الآية، فلمَ لم يستثن الّذين أسلموا من اليهود أيضاً أمثال عبدالله بن سلام وجماعته؟.

الجواب: إنّ الله تعالى أستثناهم أيضاً وأثنى عليهم في آيات تليت عليك في سورة النّساء وفي هذه السّورة أيضاً ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ سورة الملك الآية/ (٣ - هذا وإليك قصة النّجاشي وجماعته كما هو مذكور في كتب السّير والتّفاصيل.

قصّة النّجاشي

قال ابن عبّاس (رضي الله عنه) وغيره من المفسرين في قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ إنّ قريشاً ائتمرت أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم فوثبت كلّ قبيلة على من آمن منهم، فأذوهم وعذّبوهم، فافتتن من افتتن وعصم الله من شاء منهم، ومنع الله رسوله محمّداً (ﷺ) بعمّه أبي طالب، فلمّا رأى رسول الله (ﷺ) ما نزل بأصحابه ولم يقدر أن يمنعهم من المشركين، ولم يُأمر بعد بالجهاد، أمر أصحابه بالخروج إلى أرض الحبشة وقال: إنّ بها ملكاً صالحاً لا يَظلم ولا يُظلم عنده أحد، فاخرجوا إليه حتّى يجعل الله للمسلمين فرجاً؛ فخرج إليها أحد عشر رجلاً وأربع نسوة سرّاً وهم: عثمان بن عفّان وزوجته رقيّة بنت رسول الله(ﷺ) والزّبير بن عوّام وعبدالله ابن مسعود وعبدالرحمن بن عوف وأبو حذيفة بن عتبة وأمرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو ومصعب بن عمير أبو سلمة بن عبدالله الأسد وزوجته أم سلمة بنت أميّة وعثمان ابن مظعون وعامر بن ربيعة وإمرأته ليلى بنت أبي قيثمة وحاطب بن عمرو وسهيل بن بيضاء، فخرجوا إلي البحر وأخذوا سفينة بنصف دينار إلى أرض الحبشة، وذلك في رجب في السّنة الخامسة من مبعث النّبيّ (ﷺ)، وهذه الهجرة الأولى ثمّ خرج بعدهم جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنه)، وتتابع المسلمون فكان جميع من هاجر إلى أرض الحبشة من المسلمين إثنين وثمانين رجلاً سوى النّساء والصّبيان. فلمّا علمت قريش بذلك، وجّهوا عمرو بن العاص مع جماعة بهدايا إلى النّجاشي وبطارقته ليردهم إليهم، فدخل إليه عمرو وقال: أيّها الملك: إنّه قد خرج فينا رجل سفّه عقول قريش وأحلامها، وزعم أنّه نبيّ، وأنّه قد بعث إليك برهط من أصحابه ليفسدوا عليك قومك، فأحببنا أن نأتيك ونخبرك خبرهم، وإنّ قومهم يسألونك أن تردّهم إليهم، فقال: حتّى نسألهم، فأمر بهم فأحضروا، فلمّا أتو باب النّجاشي، قالوا يستأذن أولياء الله، فقال: إئذنوا لهم مرحباً

بأولياء الله، فلمّا دخلوا عليه سلّموا، فقال الرّهط من المشركين: أيّها الملك ألا ترى أنّا قد صدّقناك؟ أنّهم لم يحيّوك بتحيّتك الّتي تحيّا بها، فقال لهم الملك: ما منعكم أن تحيّوني بتحيّتي؟ فقالوا: إنّا جئناك بتحيّة أهل الجنّة وتحيّة الملائكة، فقال لهم النّجاشي: ما يقول صاحبكم في عيسى وأمّه؟ فقال جعفر بن أبي طالب (ﷺ) يقول: هو عبدالله ورسوله وكلمة الله وروح منه ألقاها إلى مريم العذراء، ويقول في مريم: إنّها عذراء البتول، قال: فأخذ النجاشي عوداً من الأرض وقال: والله ما زاد صاحبكم على ما قال عيسى قدر هذا العود، فكره المشركون قوله وتغيّرت وجوههم فقال: هل تعرفون شيئاً مما أنزل على صاحبكم؟ قالوا: نعم، قال: إقرأ، فقرأ جعفر سورة مريم، فكان هنالك قسّيسون ورهبان وسائر النّصارى؛ فعرفوا ما قرأ؛ فانحدرت دموعهم مما عرفوا من الحقّ فأنزل الله فيهم ﴿ذلك بأنّ منهم قسّيسين ورهباناً وأنّهم لا يستكبرون﴾ إلى آخر الآيتين، فقال النّجاشي لجعفر وأصحابه: إذهبوا فأنتم سيوم بأرضي، يعني: إنكم آمنون، فرجع عمرو وأصحابه خائبين، وأقام المسلمون بخير دار وخير جوار إلى أن هاجر رسول الله (ﷺ) إلى المدينة ولّى أمره وقهر أعداؤه، وذلك في سنة ستّ من الهجرة وكتب رسول الله (ﷺ) إلى النّجاشي على يد عمرو بن أميّة الفهري أن يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، وكانت قد هاجرت مع زوجها ومات عنها، فأرسل النّجاشي جارية يقال لها أبرهة إلى أمّ حبيبة تخبرها أنّ رسول اللّه (ﷺ) قد خطبها؛ فسرّت بذلك وأعطت الجارية أوصافاً كنت لها، وأذنت لخالد بن سعيد في نكاحها؛ فأنكحها رسول اللّه (ﷺ) على صداق مبلغه أربعمائة دينار، وكان الخاطب لرسول اللّه (ﷺ) النّجاشي، فأرسل إليها بجميع الصّداق على يد جاريته، أبرهة فلمّا جاءتها بالدّنانير وهبتها منها خمسين ديناراً فلم تأخذها وقالت: إنّ الملك أمرني أن لا آخذ منك شيئاً، وقالت: أنا صاحبة دهن الملك وثيابه، وقد صدّقت بمحمّد (ﷺ) وآمنت به، وحاجتي إليك أن تقرئيه منّي السّلام، قالت: نعم، فقالت: قد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بما عندهّن من دهن وعود، وكان رسول الله (ﷺ) يراه عندها فلا ينكره، قالت أمّ حبيبة: فخرجنا إلى المدينة ورسول الله (ﷺ) يحاصر خيبر، فخرج مَنْ خرج إليه ممن قدم من الحبشة، وأقمت بالمدينة حتّى قدم رسول الله (ﷺ)، فدخلت عليه المكان؛ فسألني عن النّجاشي وقرأت عليه السّلام من أبرهة جارية الملك، فردّ رسول الله (ﷺ) عليها السّلام، وأنزل الله عز وجلّ ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً﴾ سورة الممتحنة الآية ٧، يعني أبا سفيان، وذلك بتزوّج رسول الله (ﷺ) أمّ حبيبة، ولما بلغ أبا سفيان أنّ

رسول الله (ﷺ) تزوّج أمّ حبيبة؛ قال ذلك الفحل لا يجدع أنفه، وبعث النّجاشي بعد خروج جعفر وأصحابه إلى النّبي (ﷺ) إبنه أزهى في ستين من أصحابه، وكتب إليه: يا رسول الله إنّي أشهد أنّك رسول الله صادقاً مصدقاً، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك جعفر، وأسلمت لله رب العالمين، وقد بعثت إليك إبني أزهى وإن شئت أن آتيك بنفسي فعلت، والسلام عليك يارسول الله.

فركبوا في سفينة في أثر جعفر حتّى إذا كانوا في وسط البحر غرقوا ووافى جعفر وأصحابه رسول الله (ﷺ) وهو بخيبر، ووافى مع جعفر سبعون رجلاً، عليهم الثّياب الصّوف، منهم إثنان وستّون رجلاً من الحبشة وثمانية من الشّام، فقرأ عليهم رسول الله (ﷺ) سورة يس إلى آخرها، فبكى القوم حين سمعوا القرآن، وآمنوا وقالوا: ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى (ﷺ)، فأنزل الله هذه الآية فيهم وهي قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ المائدة ـ الآية ٨٢، يعني وفد النّجاشي الّذين قدموا مع جعفر، وهم السّبعون، وكانوا من أصحاب الصّوامع، وقيل: نزلت في ثمانين رجلاً، أربعين من نصارى نجران من بني الحرث بن كعب، وإثنين وثلاثين من الحبشة، وثمانية روميين من أهل الشّام، وقال قتادة: نزلت في ناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحقّ مما جاء به عيسى (ﷺ)، فلما بعث محمّد (ﷺ) آمنوا به وصدّقوه فأثنى الله عليهم بقوله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ المائدة ـ الآية ٨٢، يعني لا يتعظّمون عن الإيمان والإذعان للحقّ.

* * *

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى من قبلُ بعض الأحكام، وعقّب ذلك بمناظرة أهل الكتاب ومناقشتهم، أعاد تعالى الكلام إلى ذكر بعض أحكام أخرى فقال جلّ وعلا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

ووجه مناسبة ذكر هذه الآية أمور:

الأمر الأوّل: أنّ الله تعالى نهى في السّورة عن تحليل المحرّمات ونهى هنا عن تحريم المرء المحلّلات على نفسه.

الأمر الثّاني: إنّه مدح القسّيسين والرّهبان وأنّ من عادتهم أنّهم يحرّمون اللّذائذ على أنفسهم، فنهى الله تعالى المؤمنين على أن يفعلوا ذلك، ونبّههم على أنّ الإسلام لا يحرّم الطّيّبات. وذكروا في سبب نزول الآية أنّ رسول الله (ﷺ) وصف يوم القيامة لأصحابه في بيت عثمان بن مظعون، وبالغ وأشبع الكلام في الإنذار والتّحذير، فعزموا على أن يرفضوا الدّنيا ويحرّموا على أنفسهم المطاعم الطّيّبة والمشارب اللّذيذة، وأنّ يصوموا النّهار ويقوموا اللّيل، وأن لا يناموا على الفرش، وأن يخصّوا أنفسهم ويلبسوا المسوح ويسيحوا في الأرض، فأُخبر بذلك الرّسول (ﷺ) فقال لهم: **إنّي** لم أؤمر بذلك، إنّ لأنفسكم عليكم حقّاً، فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا، فإنّي أقوم وأنام وأصوم وأفطر وآكل اللّحم والدّسم، وآتي النّساء فمن رغب عن سنتي فليس منّي[١].

هذا والحكمة في الأمر بأكل الطّيبات والنّهي عن تحريمه إنّ الإسلام دين عمل وبناء وجهاد وتعمير الأرض، وذلك يحتاج إلى صحّة الجسم وقوّة البنية وإنّما تكون ذلك بأكل الطّيبات واللّذائذ؛ فقال جلّ وعلا: **(يا أيّها الّذين آمنوا لا تحرّموا)** أي لا تتركوا التّلذذ والتّمتّع وتناول **(طيّبات)** لذائذ **(ما)** عن الأشياء الّتي **(أحلّ الله لكم)** إيّاها **(ولا تعتدوا)** أي ولا تتجاوزوا حدود الله، فتحرّموا ما أحلّ الله لكم **(إنّ الله لا يحبّ المعتدين)** المتجاوزين حكمه وتشريعاته **(وكلوا من)** كلّ **(ما رزقكم الله)** إياه بشرط أن يكون **(حلالاً طيّباً واتّقوا الله)** أي إجتنبوا عذابه في التّجاوز إلى الحرام **(الّذي أنتم به مؤمنون)** ذكر العلّة فالمعنى: حيث آمنتم بالله فاتّقوه بإجتناب المحرّمات. ثمّ إنّ هؤلاء الصّحابة الّذين اتّفقوا على ترك اللّذائذ كانوا حلفوا على ذلك، فلمّا نزلت الآية بالنّهي عن ذلك، قالوا: فماذا نفعل بأيماننا؟ فأنزل الله تعالى حكم الأيمان فقال جلّ وعلا:

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ

(١) التفسير الكبير للرازي ١٢/ ٥٩.

تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

(**لا يؤاخذكم**) أي لا يعاقبكم الله (**باللّغو**) أي بسبب الحنث في اللّغو (**في أيمانكم**) أي بأيمانكم الّتي حلفتموها لغواً، فلغو اليمين معفوّ لا يعاقب المحالف عليه إن شاء الله تعالى (**ولكن يؤاخذكم**) يعاقبكم الله (**على**) الحنث (**بما**) أي بسبب ما (**عقدتم الأيمان**) عليه أي أكّدتم اليمين بالعزم والقصد لليمين عليه، فيعاقبكم الله تعالى على الحنث في مثل ذلك الأيمان المؤكّدة بالعزم والقصد لليمين (**فكفّارته**) أي كفارة عقاب الله تعالى على الحنث في تلك الأيمان أي ما يزيل هذا العقاب هو (**إطعام عشرة مساكين**) من قبلكم ويكون الإطعام (**من أوسط ما تطعمون أهليكم**) منه، أي بما تطعمون أهليكم حسب العادة لإطعام وقت المناسبات ولإطعام أوقات التقشّف والإقتصاد (**أوكسوتهم**) أي لباسهم قميص أو قباء[1] أو غير ذلك ممّا يسمّى لباساً (**أو تحرير**) أي إعتاق (**رقبة**) عبد فأحد هذه الأشياء كفارّة للحنث في اليمين، والمرء مخيّر في الإتيان بأي خصلة شاء من هذه الخصال الثّلاث (**فمن لم يجد**) المال بحيث لم يستطيع الإتيان بشيء من هذه الخصال (**فصيام ثلاثة أيام**) كفارته (**ذلك**) المذكور (**كفارة أيمانكم إذا حنثتم**) وحنثتم فيها (**واحفظو أيمانكم**) أي قلّلوا منها فلا تحلفوا إلّا عند الحاجة (**كذلك**) أي مثل ما ترى (**يبيّن الله لكم آياته**) أي أحكامه (**لعلّكم تشكرون**) لكي تشكروه بالتّنفيذ والتّطبيق لهذه الأحكام.

وهنا نذكر فوائد تتعلّق باليمين وأحكامها إن شاء الله تعالى.

الفائدة الأولى: **في بيان معنى الحلف**: إنّ الحلف والقسم واليمين ألفاظ مترادفة على معنى واحد، وقد عبّر العلماء عن ذلك المعنى بعبارات كثيرة، ولكنّ الّذي يلخّص من هذه العبارات إضافة إلى ذلك تتبع أحوال النّاس حين الحلف وبعده، وحينما يدعون إلى أن يحلفوا ـ أنّ الحلف عبارة عن تأكيد القائل قوله بذكر إسم مقرون بإحدى

(١) هذا مذكور كمثال في كتب الفقه لكنه يتغير حسب الزمان والمكان، وبشمل كل ما يلبس عرفا بشرط أن يغطي العورة وتصح الصلاة فيه من أوسط ما يلبسه المكفر بحسب حاله./ تفسير ابن كثير ٢/ ٩١، تفسير الكشاف ١/ ٧٠٦.

حروف القسم، وهي الواو والباء والتّاء معتقداً بأنّ صاحب الإسم ممّن يستحقّ التّعظيم والتّقديس وإنّ من كذب فيما أكّد بذكر إسمه عليه يكون آثماً، وإنّ صاحب الإسم سيعاقبه في الدّنيا أو الآخرة أو فيهما؛ وذلك بتأثيره الغيبي والقدرة وراء الأسباب. وقد كان الحلف بهذا المعنى موجوداً قبل الإسلام، ولما جاء الإسلام أقرّه واعتنى به، كما جاء في هذه الآية الكريمة وغيرها من الآيات، أمّا اليمين، فقد وردت بلفظها المجموع على أيمان في آيات كثيرة منها في ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾ سورة البقرة الآية/ ٢٢٤، ولم ترد بغير هذه الصّيغه أي لا بلفظها المفرد ولا المجموع على غير أفعال ولا بما اشتقّ أو يشتقّ من لفظها فيما علمت، هذا وإنّ هذه الآيات ذكر فيها الحلف قبل الإسلام مشروعاً وحينما جاء الإسلام أقرّه واعتنى به.

الفائدة الثّانية: في حكم الحلف:

الحلف كما ذكرنا مشروع في الإسلام وأنّه مباح من حيث ذاته إلّا أنّه يعتريه الوجوب والنّدب والتّحريم والكراهة بسبب خارج عن ذاته وحسب ما يحلف عليه من أمور: فهو يكون واجباً إذا توقف عليه إنقاذ إنسان غير مهدر الدم أو حفظ مال أو إحقاق حقّ أو إبطال باطل فإنّ حكمه حكم الشّهادة أو أداء الشّهادة واجب؛ لأنّ كتمانها حرام قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ سورة البقرة الآية/ ٢٨٣، ويكون حراماً إذا كان على كذب سيما إذا اقتطع به مال بغير حق قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ سورة آل عمران الآية/ ٧٧ ـ ويكون مندوباً إذا كان لإصلاح ذات البين، ومكروهاً وهو الحلف في البيع والشراء إذا كان صادقاً وإلا فهو حرام أيضاً لأنه يورث التغرير. قال رسول الله (ﷺ): (الحلف منفقة للسّلعة ممحقة للبركة)[1]. ويكون مشروعاً ومباحاً في غير ذلك وحكمة مشروعيّته الحثّ على الوفاء بالعقد مع ما فيه من تعظيم لله تعالى وتقديسه.

الفائدة الثّالثة: في ما يجوز وينعقد الحلف به:

يجوز وينعقد الحلف بالله تعالى، أو بصفة من صفاته الجليلة، أو بإسم من أسمائه

---

(١) صحيح البخاري ٢/ ٧٣٥ الحديث رقم ١٩٨١.

الحسنى مثل أن تقول بالله أو بقدرة الله أو بعلمه أو بالخالق أو بعظمة الله أو بالفعّال لما يريد ... إلخ، من صفاته الجليلة الأخرى، فبكلّ ذلك يجوز وينعقد الحلف والقسم واليمين، ولا يجوز ولا ينعقد الحلف بغير ذلك من أسماء المخلوقين وصفاتهم مهما كان ذلك المخلوق عظيماً عند الحالف، كأن يكون والداً أو وليّاً أو صدّيقاً أو نبيّاً أو رسولاً فإنّ الرّسول (ﷺ) نهى عن ذلك. روى عبدالله بن عمر (رضي الله عنهما) أدرك عمر وهو يسير في ركب يحلف بأبيه فقال إنّ رسول الله (ﷺ) قال: (ألا إنّ الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت)[1]، قال في (فتح الباري في شرح البخاري) في شرح هذا الحديث: إنّ بعض العلماء قالوا إنّ السّر في النّهي عن الحلف بغير الله تعالى أنّ الحلف يقتضى التّعظيم، وأنّ العظمة في الحقيقة لله تعالى وحده. وكذلك أخرج التّرمذي: عن ابن عمر (رضي الله عنهما) أنّه سمع رجلاً يقول: لا والكعبه، فقال: لا تحلف بغير الله فإنّي سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)، وقد حسّن الترمذي هذا الحديث وصححه الحاكم[2]، ففي فتح الباري[3] : وقال فيه أيضاً أنّ رسول الله (ﷺ) قال: (لو أنّ أحدكم حلف بالمسيح لهلك والمسيح خير من آبائكم)[4]. فاتّضح من هذه الأحاديث وممّا سبق من أنّ الحلف فيه من معنى التّعظيم والتّقديس ممّا لا يليق إلّا بالله تعالى. إنّ الحلف بغير الله تعالى أو بغير صفة من صفاته أو إسم من أسمائه الحسنى منهيّ عنه، وأنّه لا يجوز ولا ينعقد الحلف به، وإنّ من حلف بغيره كفر وأشرك كما نصّ على ذلك الحديث الشّريف، إلّا أنّ الفقهاء فصّلوا في ذلك فقالوا: إن أراد الحالف بغير الله تعالى تعظيم المخلوق به وتقديسه، مثل تعظيم الله تعالى، فلا شك في كفره أو شركه، وإن لم يرد ذلك فمنْهم من حكم فيه بالحرمة ومنهم بالكراهة، ولعلّ من حكم بالكراهة فقط أراد كراهة تحريم لا تنزيه، لكي لا يبتعد عن نصّ الحديث الشّريف؛ فإنّ الكفر قد أطلق في الأحاديث على المعصية والحرام أيضاً، وممّا يجب أن يعلم أنّ النّاس حينما يحلفون بغير الله

---

(١) صحيح البخاري ٦/٢٤٤٩ الحديث رقم ٦٢٧٠.

(٢) سنن الترمذي ٤/١١٠ الحديث رقم ١٥٣٥ وقال حديث حسن. المستدرك على الصحيحين ١/١١٧ الحديث رقم ١٦٩ وقال صحيح على شرط الشيخين.

(٣) فتح الباري ١١/٥٣١.

(٤) مصنف ابن أبي شيبة ٣/٧٨ الحديث رقم ١٢٢٧٨.

تعالى من الصّالحين فإنّهم يعتقدون بأنّ لهم تأثيراً غيبياً وقدرة وراء الأسباب، يستطيعون بها أن يلحقوا الضّرر والأذى بمن يحلف بهم كذباً، وهذا شرك صريح. ومن الآثار السّلبية السّيئة بلوغ الحدّ ببعضهم أنّهم يحلفون بالله كذباً في الوقت الذي يتجنّبون فيه الحلف بغير الله خوفاً وتورعاً، غير مبالين من جهلهم بسطوة الله، خائفين من سطوة كاذبة تنسب إلى غير الله تعالى.

الفائدة الرّابعة: في أقسام اليمين:

تنقسم اليمين تقسيماً أوليّاً إلى قسمين: لغو اليمين، وجدّ اليمين ويقال لها اليمين المنعقدة، وحكم لغو اليمين أنّ الحالف لا يؤاخذ بها ولا يعاقب عليها عند الله تعالى في يوم القيامة وإن كان حانثاً، كما وإنّه ليس عليه كفارة في الدّنيا، قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ سورة البقرة الآية/ ٢٢٥، وهذا ما اتّفق عليه الفقهاء إلّا أنّهم إختلفوا في تفسير لغو اليمين وما هو المراد به، فقال الحنفيّه لغو اليمين نوعان:

الأوّل: أن يظنّ الحالف ثبوت شئ أو نفيه، فيحلف على ما ظنّ ثمّ يظهر له خلاف ما ظنه وحلف عليه. وبهذا قال جماعة من السّلف: قال أبو هريره (رضي الله عنه): إذا حلف الرّجل على الشّئ لا يظنّ إلّا أنّه إيّاه، فإذا أنّه ليس هو، فهو اللّغو وليس فيه كفّارة ونحوه، وروي عن ابن عباس (رضي الله عنهما): أنّ قوماً تراجعوا القول عند رسول الله (ﷺ) وهم يرمون بحضرته، فحلف أحدهم لقد أصبتُ وأخطأتَ يا فلان، فإذا الأمر بالعكس! فقال الرّجل: حنث يارسول الله؟ فقال النّبيّ (ﷺ): أيمان الرّماة لغو لا حنث فيها ولا كفّارة)[١] (المذاهب ج/ ٢/ ص٥٩،القرطبيّ ج/ ٣/ ص٩٩).

الثّاني: من لغو اليمين ما تعوّد به النّاس عند الكلام من سبق اللّسان إلى الحلف دون قصد كقولهم: لا والله، وبلى والله، أو قصد شيئاً وسبق لسانه إلى الحلف (حيث روى عروة عن عائشة الصديقة (رضي الله عنها) أنّها قالت: أيمان اللّغو ما كنت في المراء والهزل والمزاحة والحديث الّذي لا ينعقد عليه القلب، وفي البخاري عن عائشة (رضي الله عنها) أيضاً أنّها قالت: نزل قوله تعالى: (لا يؤاخذكم الله باللّغو في أيمانكم) في قول الرّجل لا والله، وبلى والله[٢].

---

(١) المعجم الصغير للطبراني ٢/ ٢٧١ الحديث رقم ١١٥١.

(٢) صحيح البخاري ٤/ ١٦٨٦ الحديث رقم٤٣٣٧.

وعند الظّن كأن يحلف أن ليس لديه نقود مثلاً ظناً منه عدم وجودها فظهر خلافه، إلّا أنّ بعضهم يفرقّون بين المستقبل والماضي، فالظّن في الماضي يجعل اليمين لغواً عندهم، ولكنّ بالنّسبة للمستقبل فلا، كأن يظن أن زيداً يقدم غداً، فحلف أنّه يقدم ثمّ تبيّن خلافه، فقالوا: إنّ المستقبل غيب، فالحلف عليه بالظّن تكون جُرأةً فجزاؤها الكفارة،وعند الشّافعية للّغو ثلاثة أقسام:

الأوّل: أن يريد شيئاً فيجري على لسانه شيء آخر، كأن يريد أن يقول: والله لا أتكلّم فيسبق لسانه إلى والله لا آكل.

الثّاني: أن لا يكون عنده قصد الحلف مثل ما تعوّد النّاس أن يقولوا: لا والله، وبلى والله، في محاوراتهم دون قصد إلى الحلف.

الثّالث: أن يسبق لسانه إلى الحلف غضباً دون أن يقصد حلفاً هذا (وقد ذكر القرطبيّ عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) أنّ الرّسول (ﷺ) قال: (لا يمين في غضب)[1] فعلى هذا الحلف في حال الغضب لغو، حيث إنّ الحالف لا يريد أن يفعل ما حلف عليه بل إنّما يريد منع المخاطب أو تهديده مثلاً، وهنا أقوال أخرى لا حاجة إلى ذكرها.

القسم الثّاني من التّقسيم الأوّلي لليمين:

جدّ اليمين: وهي اليمين المنعقدة وهي قسمان: **الأوّل: اليمين الغموس**: وسميّت غموساً لإنغماس صاحبها في الإثم، وهي الحلف على أمر ماضٍ أو مستقبل كذباً ومتعمّداً، فعلاجها التّوبة والإستغفار فقط عند الحنفيّة والمالكيّة ولا كفّارة فيها، وعند الشّافعيّة: تجب فيها الكفّارة والتّوبة والإستغفار وإن ضيّع بها حقّ شخص، ويجب التّعويض والإستغفار فقط عند الأحناف والموالك دون الكفّارة إن ضيّع بها حقّ شخص.

الثّاني: من جدّ اليمين المنعقدة، وهي الحلف على فعل شيء أو عدم فعله في المستقبل، وهذا موجب الكفّارة عند الكلّ إذا حنث الحالف فيه، وهذه اليمين أقسام، لأنّ الحلف يكون إمّا على فعل حرام، أو ترك واجب، ففي هذا الحال يجب الحنث وأداء الكفّارة، وأمّا على ترك مندوب أو فعل مكروه، وفي هذه الحالة يسنّ الحنث وتجب الكفّارة إذا حنث، والنّوع الخامس: الحلف على فعل مباح أو تركه، فالمرء مخيّر

---

(١) فتح الباري ١١/ ١٦٥.وقال: وسنده ضعيف.

في الحنث وأداء الكفارة، وإذا كان على فعل واجب وترك حرام فيجب البرّ في هذه الحالة، وإذا حنث ففيه معصيّتان: معصيّة ترك الواجب، ومعصية الحنث، فعليه ذنبان ذنب المعصية وذنب الحنث، وإذا كان على فعل مندوب فالبرّ سنّة، وإن كان على ترك مكروه فكذلك يسنّ البرّ والعمل وفق ما حلف عليه.

الفائدة الخامسه: وقت أداء الكفّارة:

اختلف العلماء في جواز أداء الكفارة قبل الحنث: فعند الحنفيّة لا يصح إخراجها قبل الحنث مطلقاً أي سواء كانت الكفارة بالصّوم أو الإطعام أو الكسوة؛ لأنّ سبب وجوب الكفارة الحنث، ولا يصحّ تقديم العمل على سبب وجوبه، كما لا تجوز الصّلاة قبل وقتها، فلو أخرجها قبل الحنث وسلّمها للمساكين فهي له صدقه ولا تجوز له إسترددها. وعند المالكيّة: يصحّ إخراجها قبل الحنث، إلّا أنّ الأفضل تأخيرها عنه، وعند الشّافعيّة: يصحّ تقديمها إلّا الصّوم، فإنّ التّقديم في العبادات البدنيّة على وقت الوجوب لا يصحّ، بخلاف العبادات الماليّة فإنّها يجوز فيها التّقديم، حيث ورد قبول التّعجيل في الزّكاة عن رسول الله (ﷺ)، وعند الحنابلة: يصحّ التّقديم مطلقاً لأنّ الكفّارة قبل الحنث محلّلة لليمين وبعده مكفرة لها، هذا وقد اتّفق الكلّ على أنّه يجب التّكفير بعد الحنث فوراً إلّا لعذر (الفقه على المذاهب الأربعة ج/ ٢/ ٨٤).

الفائدة السّادسه: كفارة اليمين:

كفارة اليمين مذكورة في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ فالحانث في يمينه مخير بين فعل شيء من ثلاثة أشياء الإطعام أو الكسوة أو تحرير رقبة فمن لم يجد ولم يستطع شيئاً من هذه الثّلاثة فليصم ثلاثة أيّام وذلك حكم الله تعالى في كتابه الكريم فليس فيه خلاف بين المجتهدين.

الفائدة السّابعة: كيفيّة الإطعام:

يجب عليه أن يطعم عشرة مساكين ممّن ليس عليه نفقتهم، وأن يشبعهم وجبتين الغذاء والعشاء، أو يعطيهم قيمة ذلك، ويعتبر حاله يساراً وإعساراً، فإن كان ممّن يأكل لذيذ الطعام فعليه لذيذه، وإن كان فقيراً يطعمهم طعام الفقراء، ولا يجوز الإطعام

لمسكين واحد في يوم واحد، ولكنّه يجوز أن يدفع الطّعام لمسكين واحد في عشرة أيام كلّ يوم طعام ذلك اليوم، وكذلك يجوز له دفع القيمة إلى مسكين واحد في عشرة أيام ولا يجوز دفعها له في يوم واحد.

هذا وإن للقسم أقساماً أخرى: كالظّهار والإيلاء والحلف بالطّلاق والعتاق وغير ذلك، تركتها لأنّ هذه الأقسام عائدة إلى أبواب خاصّة وليست من باب القسم واليمين، سيّما ولم نرد زيادة تطويل والله الموفّق وهو يهدي السّبيل.

الفائدة الثّامنه: مقدار الإطعام:

مقدار الإطعام عند قوم هو أن يطعم كلّ مسكين مدّاً من الطّعام بمدّ النّبيّ (ﷺ) وهو رطل وثلث، بالرّطل البغدادي من غالب قوت البلد، وهذا مذهب مالك والشّافعي، وبه قال ابن عبّاس وإبن عمر وزيد بن ثابت من الصّحابة، وسعيد بن المسيّب والقاسم بن محمد وسليمان بن يسار وعطاء والحسن (ﷺ)، وعن عليّ وعمر وعائشة (ﷺ) أنّه يطعم كلّ مسكين مدّين من الحنطة وهو نصف صاع، وبذلك قال أهل العراق، وقال أبو حنيفة: إن أطعم من الحنطة فنصف صاع وإن من غيرها فصاع، وهذا قول الشّعبي والنّخعي وسعيد بن جبير ومجاهد ، وعند أحمد: إن أطعم من الحنطة فمدّ وإن من غيرها فنصف صاع.

الفائدة التّاسعة: شرط الإطعام:

من شرط الإطعام تمليكهم الطّعام، فلو عشّاهم وغدّاهم لم يجزه ذلك عند الشّافعيّة، وعند أبي حنيفة ومالك: إذا عشّى وغدى عشرة مساكين يكفيه ويجزيه ذلك، وكذلك لو أعطاهم القيمة جاز عند أبي حنيفه وكفى، وعند الشّافعيّ: لا يجوز، ويجوز عند أبي حنيفة أيضاً أن يعطي مسكيناً واحداً كلّ يوم ما قدر إلى عشرة أيام أو قيمته أو يعشّيه ويغذّيه عشرة أيام، وعند الشّافعي: لا يجوز ذلك بل يجب أن يعطى لعشرة أشخاص من المساكين، لأن تفريج عشرة قلوب أقرب إلى العفو من تفريج قلب واحد، كما وإن دعاء العشرة أقرب إلى الإجابة من دعاء واحد، ولأنّ الآية تنص على العدد.

الفائده العاشرة: من تصرف له الكفّارات:

يجوز عند أبي حنيفة صرف الكفّارات إلى الكافر الذّمي، وعند الشّافعي: لا يجوز صرفها إلّا إلى مسلم حرّ محتاج، فلا يجوز إلى كافر أو عبد أو غني، واتّفقوا على أنّه

لا يجوز صرف الزّكاة إلى الكافر ذمّياً كان أو غيره.

الفائدة الحادية عشرة: التّتابع في صوم الكفّارة:

إنّه يجب التّتابع في صيام كفارة اليمين قياساً على كفارة الظّهار والقتل، وهذا مذهب أبي حنيفة، وقال به ابن عبّاس ومجاهد وطاوس وعطاء وقتادة وأحمد بن حنبل والشّافعي في أحد قوليه، وأما عند مالك وأحد قولي الشّافعي لا يجب التّتابع في كفارة اليمين إلّا أنّه أحسن.

الفائدة الثّانية عشرة: حالة تعدّد الأيمان:

قال في المجموع: إذا تعدّدت الأيمان، فإنّ تعدّد المحلوف عليه كأن قال: والله لا أدخل الدّار والله لا أسافر، والله لا أكلّم فلاناً، تعدّدت الكفّارات بقدر الأيمان إن حنث فيها، وإن كان المحلوف عليه واحداً كأن قال: والله لا أدخل الدّار، ثمّ قال: والله لا أدخل الدّار، ثمّ قال: والله لا أدخل الدّار، فإن أراد بما بعد تأكيد الأوّل فكفارة واحدة، وإن أراد الإستئناف ففيه قولان: أحدهما: لكلّ يمين كفّارة، والقول الثّاني: عليه كفّارة واحدة، قال في المجموع: وهذا القول هو الصحيح لأنّه لم يفد بغير الأوّل إلّا ما أفاد بالأوّل، وإذا لم يكن له نيّة لا للتّأكيد ولا للإستئناف فهو كالإستئناف في القولين.

* * *

ثمّ بعد ما قال الله تعالى: وكلوا ممّا رزقكم الله حلالاً طيباً، وكانوا يستطيبون الخمر والميسر وما يستفيدون مما تذبح على الأنصاب وممّا يصيبهم من الأزلام إستثنى الله تعالى ذلك وحرمّه فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٌ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾

(يا أيّها الّذين آمنوا إنّما الخمر) مشتقّ خمر يخمر أي ستر فسمّى الخمر به لستره

العقل بالسّكر، فكلّ ما يخمّر ويسكر فهو حرام وفي الحديث الصّحيح: (كلّ مسكر حرام)[١] أي قليله وكثيره (**والميسر**) وهو القمار بجميع أنواعه لأنّ فيه أخذ المال بدون عوض (**والأنصاب**) وهي كانت حجارة نصبوها للعبادة، وكانوا يذبحون عندها تبرّكاً بها (**والأزلام**) وهي كانت أقداحاً يقسمون بها الأموال، وقد مرّ تفسيره في هذه السّورة الآية/ (٣) (**رجس**) أي قبيح ومستقذر كلّ ذلك (**من عمل الشّيطان**) من عمل يحبّه الشّيطان (**فاجتنبوه لعلّكم تفلحون**) أي لكي تفلحوا، فتفيد الآية أنّ من عمل هذه الأعمال لا يفلح (**إنّما يريد الشّيطان**) بتزيينه لكم الخمر والميسر (**أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء**) لأنّ السّكران يعمل أعمالاً يورث تلك الأعمال العداوة والبغضاء، والخاسر في القمار يكره الرّابح لأخذه ماله بالقمار (**ويصدّكم**) أي ويمنعكم (**عن ذكر الله وعن الصّلاة**) لأنّ السّكران يذهب شعوره فينسى الصّلاة، والمقامر يلهو باللّعب فيغفل عن الصّلاة وذكر الله تعالى (**فهل أنتم منتهون**) تاركون لذلك لنتائجه القبيحة هذه، والإستفهام للأمر أي فانتهوا (**وأطيعوا الله**) وحيث لا يمكن إطاعة الله، حيث لا يدرك كيفيّة إطاعته إلّا من الرّسول، قرن الأمر بإطاعته[٢] بإطاعة الرّسول، فقال (**وأطيعوا الرّسول**) فيما يبلّغكم به من أوامر الله تعالى ونواهيه (**واحذروا**) في المخالفات (**فإن تولّيتم**) أعرضتم عن الرّسول وإتّباعه فاعلموا أنّما على (**رسولنا البلاغ المبين**) أي التّبليغ الواضح، وقد فعل وأدى واجبه، وبقي واجبكم وهو الإتّباع، فإن لم تفعلوا فعند الله العذاب الأليم. هذا وحينما نزلت آية الخمر والميسر والأنصاب والأزلام وكان أكثر المؤمنين قد فعلوا ذلك قبل نزول الآية فَحزِنوا وخافوا الإثم فقال جلّ وعلا:

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

(**ليس على الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات جناح**) أي إثم (**فيما طعموا**) من الخمر والميسر ومال القمار، وما ذبح على الأنصاب، وما أصابهم من الأزلام قبل نزول الآية (**إذا ما اتّقوا**) عن هذه الأشياء (**وآمنوا**) بتحريمها، فإن من إجتنب عن هذه الأشياء لا للحرمة يبقى عليه الإثم، كمن ترك الخمر لأنّ الطّبيب قال له: إنّه يضرّك مثلاً (**وعملوا**

---

(١) صحيح البخاري ٥/ ١٥٧٩ الحديث رقم ٤٠٨٧.

(٢) أي بإطاعة الله تعالى.

الصّالحات ثمّ اتّقوا) أي استمروا على الإجتناب عن هذه الأشياء **(وآمنوا)** واستقرّوا على الإيمان بحرمتها، ثمّ اتقوا المحرّمات الأخرى **(وأحسنوا)** وفعلوا ما حسّنه الشّرع؛ فأولئك كما أنّه يرتفع عنهم الإثم فيما عملوا قبل ذلك، يكونون من أحبّة الله تعالى حيث **(والله يحبّ المحسنين)** بالإجتناب عن النّواهي وإمتثال الأوامر.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى بعض المحرّمات المؤبّدة أراد أن يذكر بعض المحرّمات المؤقّتة، وهي الصّيد وقت الإحرام والتعرّض للهدى فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾

(يا أيّها الّذين آمنوا ليبلونّكم الله) أي ليمتحنكم الله فيسوقنّ إليكم **(بشيء من الصّيد)** أي ممّا يصاد عادة من الغزلان وغيرها من الحيوانات الوحشيّة أو الطّيور، ويقرّب ذلك الصّيد إليكم بحيث **(تناله)** أي تصله **(أيديكم)** فَتعتَذرون أن تصيدوه بأيديكم أو تقتله **(رماحكم)** فتعتذرون أن تصيدوه بالرّماح ويفعل الله ذلك **(ليعلم الله من يخافه بالغيب)** ومن لا يخافه بالغيب حال من الهاء في يخافه، أي يخاف الله كائناً

الله تعالى بالغيب أي غائباً عنه، أو متعلق بيخاف أي يخاف بالغيب أي بالقلب، إذ القلب مستور فهو غائب عن النّاس، ومعنى ليعلم الله من يخافه ليصير علمه الأزلي الّذي كان متعلّقاً بالمعدوم متعلقاً بما هو موجود في الواقع ومحقّق، أي ليظهر علمه في الخارج مطابقاً لما كان في المعنى في الأزل، فإنّ الله تعالى كان يعلم في الأزل أنّ فلاناً يخافه بالغيب فلا يصيد، وإنّ فلاناً لا يخاف فيصيد، فيأتي بالصّيد قريباً منهم، ليتحقّق من كان يعلم أنّه يخاف فلا يصيد، ومن لا يخاف فيصيد (**فمن اعتدى**) أي تجاوز حكم الله تعالى (**بعد ذلك**) الإبتلاء ومعرفة حرمة الإصطياد فصاد (**فله عذاب أليم**) يوم القيامة بالنّار وفي الدّنيا بالبلايا أو بهما معاً. (**يا أيّها الّذين آمنوا لا تقتلوا الصّيد وأنتم حرم**) أي محرمون بالحج أو بالعمرة، فحرّم الله تعالى قتل الصّيد كما حرّم إصطياده (**ومن قتله منكم متعمّداً**) عالما بالتّحريم وبأنّه محرّم وقصداً لا خطأً، كأن رمى لشيء آخر فأصاب الصّيد (**فجزاء**) يجب عليه، وذلك الجزاء هو (**مثل ما قتل من النّعم**) إن كان له مثل، كأن قتل نعجة وحشيّة فعليه أن يجزي ويفدي بنعجة مثلها في الجسم والسّمن، وإن قتل بقرة فبقرة مثلها، فإن لم يكن له مثل من النّعم يخمّن ويقوّم ويجزي بقيمته من النّعم، وإنّ هذه المماثلة أو التّقويم (**يحكم به**) شخصان (**ذوا عدل منكم**) أي من المسلمين ويهدي ذلك الجزاء (**هدياً**) يرسل إلى أن يكون (**بالغ**) واصل (**الكعبة**) فيذبح هناك ويتصدّق به على الفقراء الموجودين هناك، سواء كانوا من أهل مكّة أو مسافرين فيها (**أو كفّارة**) يكفّر بها بدل النّعم والكفّارة هي (**إطعام مساكين**) بقيمة المقتول لو كان نعماً، أو بقيمة مثله إذا كان له مثل من النّعم، فلو ساوى المقتول عشرة دنانير يطعم ما يساوي عشرة دنانير طعاماً ويعطي للفقراء في مكّة (**أو عدل ذلك**) أي وما يساوي ذلك الطّعام يصوم (**صياماً**) مقابل كلّ مدّ يوماً و (**أو**) في الآية للتَخير عند أبي حنيفة ومالك والشّافعي، فمن قتل صيداً فهو عند الشّافعي مخيّر بين أن يهدي مثله أو ما يساويه من النّعم إلى الكعبة، أو يوزّع الطّعام بقيمته على المساكين، أو يصوم بدل كلّ مدّ يوماً. وعند محمّد بن الحسن صاحب أبي حنيفة: العدلان مخيّران في فرض أحد الأمور الثّلاثة عليه، وأمّا عند أحمد بن حنبل وزفر (**أو**) للتّرتيب فلا يعدل عن الهدي إلى الطعام إلّا بعد العجز عن الهدي، ولا عن الطّعام إلى الصّوم إلّا بعد العجز عن الطّعام. وهنا أمور أخرى لا حاجة إلى ذكرها تجدها في تفسير الرّازي والخازن (رضي الله عنهما). وفرض الله تعالى ذلك الجزاء (**ليذوق**) القاتل للصّيد (**وبال**) عذاب (**أمره**) أي فعله وهو قتل الصّيد (**عفا الله عمّا سلف**) من قتلكم للصّيد وقت الإحرام

قبل نزول الآية والتّحريم **(ومن عاد)** إلى قتله بعد علمه بالتّحريم **(فينتقم الله منه)** في الدّنيا بالجزاء الّذي ذكر، وفي يوم القيامة بالنّار إن لم يكفّر بأداء الجزاء **(والله عزيز)** غالب على أمره لا يمنعه من الإنتقام أحد **(ذو انتقام)** لمن عصاه وتعدّى حكمه وحدوده.

ثمّ لمّا حرّم الله تعالى قتل الصّيد والاصطياد، استثنى نوعاً من الصّيد فأحلّه وهو صيد البحر، فقال جلّ وعلا: **(أحلّ)** أي أحلّ الله **(لكم صيد البرّ وطعامه)** أي حلال لكم أن تصطادوه بأنفسكم، وأن تأكلوا ما صاده غيركم، بخلاف صيد البرّ فإنّه حرام صيده، وأمّا أكل ما صاد غير المحرّم ففيه خلاف، فعند ابن عباس وطاوس والثّوري: لا يجوز أكله، وعند المذاهب الأربعة: يجوز أكله إن لم يمكن له دخل في صيده **(متاعاً لكم)** أيّها المحرمون **(وللسّيارة)** وللقوافل غير المحرمين أحلّ صيد البرّ **(وحرّم عليكم صيد البرّ ما دمتم حرماً)** أي محرمين بالحجّ أو بالعمرة **(واتّقوا الله)** في الإصطياد حال الإحرام فإنّ الله هو **(الّذي إليه تحشرون)** يوم القيامة فينتقم منكم، إنّما خالفتم أمره وحكمه. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر محرّمات أخرى فقال جلّ وعلا: **(جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً)** أي مكاناً للأمن وقيام النّاس بأمورهم، حيث حرّم أن يتعرّض أحد لأحد؛ فيقومون بأمورهم في أمن وأمان **(والشّهر الحرام)** وجعل الله تعالى **(الشّهر الحرام)** جنس يشمل الأشهر الحرم كلّها، فجعلها الله تعالى زماناً لقيام النّاس بأمورهم بأمان لا خوف فيها، حيث حرّم في تلك الأشهر القتال، وأن يتعرّض أحد لأحد **(والهدي)** وهو الحيوان الّذي يساق إلى الكعبة ليذبح هناك ويوزّع لحمه على الفقراء، فجعله الله تعالى سبباً لقيام من معه الهدى من الحجّاج والعمّار بأمورهم في أمن وأمان؛ لأنّ الله تعالى حرّم التّعرض للهدى ولمن معه الهدي **(والقلائد)** جمع قلادة وهي ما يعلّق على الهدي علامة على أنّه هدي فلا يتعرّض له، أو يعلّق الشّخص على نفسه ليعلم أنّه حاجّ أو معتمر فلا يتعرّض له. فحرّم الله تعالى هذه الأشياء، وجعل في قلوب النّاس الخوف والهيبة والتّعظيم لهذه الأمور، فلا يتعرّضون إليها **(ذلك)** أي إن الله تعالى حكم هذه الأحكام الموجودة في هذه السّورة **(لتعلم)** اللّام في: لتعلم، لام العاقبة فالمعنى: ليحصل لكم بعد هذه الأحكام العلم وتعترفوا **(أنّ الله يعلم ما في السّماوات وما في الأرض** وأنّ **الله بكلّ شئ عليم)** وذلك لأنّ من تفكّر في أحكام الله تعالى رأى أنّها كلّها وفق المصالح والمنافع البشريّة العامّة، وفيها أحكام عظيمة وأمور دقيقة لا يصل إليها إلّا من كان يعلم ما في السّموات وما في الأرض، فيعرف أنّ الله الّذي

حكم هذه الأحكام هو كذلك (**وأنّ الله بكلّ شئ عليم**) لا يخفى عليه شيء. ثمّ أراد الله تعالى بعد ذلك أن ينذر من يخالف أحكامه هذه فقال (**إعلموا**) أي اعتقدوا (**أنّ الله شديد العقاب**) لمن خالف أمره وتجاوز عن حدوده فلا تتجاوزوها (**وأنّ الله غفور رحيم**) لمن تمسّك بأوامره ووقف عند حدوده وحكم حسب أحكامه (**ما على الرسول إلّا البلاغ**) التّبليغ بهذه الأحكام، وأمّا العقاب والحساب فيعود إلى الله تعالى، ولا يخفى عليه شئ من أعمالكم حيث (**والله يعلم ما تبدون**) من أعمالكم (**وما كنتم تكتمون**) منها فيحاسبكم عليها ويجازيكم بها إن خيراً فخيراً وإن شرّاً فشرّاً؛ فلا تلوموا إلّا أنفسكم حينما تلقون عذاب الله تعالى في الدّنيا أو في الآخرة أو فيهما؛ لأنّ كلّ ذلك بسبب أعمالكم وما الله بظلّام للعبيد. ثمّ بعدما حرّم الله تعالى أشياء وأحلّ أشياء سمّى الله تعالى ما حرّمه خبيثاً يجب أن يستقذر منه، وسمّى الحلال طيّباً، والمراد بالخبيث هنا الخبيث المعنوي لا الخبيث المادّي، فإنّ الغزال الّذي يصاد وقت الإحرام مثلاً هو الغزال الّذي يصاد وقت الحلال فالأوّل: خبيث معنىً، والثّاني: طيب معنىً، ولكنّه في كلا الحالتين طيّب جسماً ولحماً ومادّة، فالمراد بالخبيث هو الخبيث المعنويّ، فذكر الله تعالى ذلك فقال جلّ وعلا:

﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

(قل **لا يستوي الخبيث**) المعنوي (**والطّيب**) المعنوي من حيث النّتيجة وعاقبته، فإنّ الخبيث وهو المحرّم عاقبته العذاب والخجل والنّدامة يوم القيامة، والطّيّب عاقبته الرّضا من الله تعالى. فلا يستوي الخبيث والطّيب (**ولو أعجبك كثرة الخبيث**) فلو وجدت عملاً حراماً مقابل دنانير، ووجدت عملاً حلالاً مقابل درهم، فاختر الحلال ولو أعجبك كثرة الحرام في الدّنيا، فإنّ هذه الكثرة كثرة في العذاب والخجل يوم القيامة، فإذاً (**فاتقوا الله**) بالإجتناب عن الحرام (**يا أولي الالباب**) يا أصحاب العقول، وهنا إشارة إلى أنّ من لم يتّق الله وخاض في الحرام فليس من أصحاب العقول، وإن بلغ ما بلغ من العلم والثّقافة، فإنّ العقل ما يعقل صاحبه من الإضرار، وليس ضرر أضرّ مما يضرّ بالمرء يوم القيامة، كما وأشار تعالى بقوله: ﴿**لعلّكم تفلحون**) أي لكي تفلحوا إلّا أنّ الفلاح كلّه مربوط بالتّقوى والإجتناب عن الباطل والمحرّمات.

ثمّ إنّه كان ينزل القرآن، وكان فيه بيان الحلال والحرام والحقّ والباطل، وأكثر

النّاس من عرض الأسئلة على الرّسول (ﷺ) فنهى الله تعالى عن كثرة الأسئلة والوقوف على ما يرد من الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

(**يا أيّها الّذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء**) ماذا حكمه أهو: بحلال أو حرام؟ لأنّ كثيراً من الأشياء (**إن تبد لكم**) حكمها (**تسؤكم**) لمشقّتها عليكم (**وإن تسألوا عنها حين**) وقت ما (**ينزّل القرآن**) وهو وقت حياة الرّسول (**تبد لكم**) فلا تستطيعونها ولذلك (**عفا الله عنها**) فلم يفرضها عليكم ولم يذكرها لكم (**والله غفور رحيم**) بعباده، ومن هنا قال الرّسول (ﷺ): (إنّ الله تعالى فرض فرائض فلا تضيّعوها، وحدّ حدوداً فلا تعتدّوها وحرّم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمةً بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها)[1] وفي الصّحيح أيضاً: (إنّ أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرّم فحرّم من أجل مسألته)[2] وهذان الحديثان مع الآية دليل على أنّ أحكام الله تعالى وضعيّة لاعقلية واردة لحسن الشيء أو قبحه، فإنّه لو كان عقليّاً للحكم به سئل عنه أو لا، ولا يترك لعدم السّؤال، فتنبّه وافهم فإنّه دقيق. ثمّ إنّ الله تعالى ذكر لهم حال من قبلهم وأنّهم هلكوا نتيجة كثرة السؤال عن الأشياء فقال جلّ وعلا: (**قد سألها**) أي قد سأل عن أشياء كثيرة (**قوم قبلكم**) وهم اليهود (**ثمّ**) بعدما بيّن تعالى لهم حكمها (**أصبحوا بها كافرين**) حيث شقّ عليهم ومن هنا قال الرّسول (ﷺ): (ذروني ما تركتكم فإنّما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم وإختلافهم على أنبيائهم)[3]، ومن هنا تظهر سماحة الإسلام وأنّ التّعمق في الأمور ليس من الدّين، فالأصل في الأشياء الطّهارة ولا حاجة إلى التّفتيش والأصل في الأشياء الحلّ ولا داعي إلى التّشويش، سئل الرّسول (ﷺ): أنّه يأتينا النّاس

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ٢٢/٢٢٢ الحديث رقم ٥٨٩.

(٢) صحيح البخاري ٦/٢٦٥٨ الحديث رقم ٦٨٥٩.

(٣) مسند الحميدي ٢/٤٧٧ الحديث رقم ١١٢٥.

بلحوم لا ندري أسمّوا عليها أولا ؟ قال: (سمّوا عليها وكلوا)[١] أي فلا تفتّشوا ولا تتعمّقوا. إعلم أنّه كان في الجاهليّة طقوس وأحكام وكانت هذه الأحكام ثلاثة أقسام: قسم كان من بقايا دين إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) ولم يلصق به شئ من تبديل الجاهليّة، فلمّا جاء الإسلام أقرّه كما هو، مثل إحترام البيت، والشّهر الحرام والهدي والقلائد. وقسم كان أيضاً من بقايا دين إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) إلّا أنّه لصق به شيء من تبديل الجاهليّة، فلمّا جاء الإسلام هذّبه وطهّره ممّا لصق به، وردّه إلى أصله طاهراً نقياً، وأقرّه بعد النّقاء. وقسم كان من وضع الجاهليّة ولم يكن له أصل في دين إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام)، ولا في دين آخر، فلمّا جاء الإسلام نفى ذلك القسم ونهى عنه، ومن هذا القسم البحيرة والسّائبة والوصيلة والحامي، فلما جاء الإسلام نهى عن تلك الأشياء، فقال جلّ وعلا:

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

(ماجعل الله من بحيرةٍ) فعيلة بمعنى المفعولة أي مبحورة، من بحره إذا شقّه، وذلك أنّ النّاقة إذا أنتجت عشرة أبطن شقّوا أذنها وتركوها ترعى ولا تُمنع ولا يُنتفع بها **(ولا سائبة)** وهي النّاقة، كان الرّجل يقول إذا قدمت من سفري أو برأت من مرضي مثلاً فناقتي هذه سائبة مرسلة، أي وجعلها كالبحيرة في عدم الإنتفاع بها **(ولا وصيلة)** فعيلة أي واصلة وهي النّاقة إذا ولدت ذكراً أو أنثى في بطن واحد قالوا: وصلت النّاقة أخاها فلم يذبحوها وجعلوها كالبحيرة **(ولا حام)** فهو الجمل إذا نتج من صلبه عشرة بطون قالوا: حمى ظهره؛ فلا يركب ولا يحمل عليه شئ، فجعل الجاهلون هذه الأمور طقوساً وشعائر دينيّة، فنفى الله تعالى ذلك فقال: ما جعل الله هذه الأشياء شعائر دينيّة **(ولكنّ الّذين كفروا يفترون على الله الكذب)** فيضعون أموراً عندهم ويجعلونها شعائر

---

(١) نصّ الحديث كما ورد عن عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ قَوْمًا قَالُوا لِلنَّبِيِّ إِنَّ قَوْمًا يَأْتُونَا بِاللَّحْمِ لَا نَدْرِي أَذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ أَمْ لَا؟ فَقَالَ: سَمُّوا عَلَيْهِ أَنْتُمْ وَكُلُوه.

دينيّة ويقولون هذا من عند الله تعالى وحكمه **(وأكثرهم)** أي وأكثر الّذين كفروا الّذين يتّبعون هؤلاء المفترين **(لا يعلمون)** حقيقة الأشياء وحقيقة الدّين، حيث لو عقلوا ما اتّبعوا هؤلاء المفترين والمخترعين من عندهم شعائر لا معنى ولا أساس لها، وبلغ بهم السّفه والتّقليد إلى أنّه **(وإذا قيل لهم)** من قبل العقلاء والأنبياء والعلماء **(تعالوا إلى ما أنزل الله)** من كتابه واتبعوه ولا تتّبعوا هذه التّقاليد الباطلة **(وإلى الرّسول)** أي إلى سنته فاتّبعوها **(قالوا حسبنا)** يكفينا ما وجدنا عليه آباؤنا من الشّعائر والتّقاليد والدّين والأحكام، فاستفهم تعالى إستفهام إنكار فقال: **(أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون)** إلى الحقّ يبقون مع ذلك على تقليدهم واتّباعهم؛ إنّ هذا لضلال مبين، قال الإمام الرّازي: وهذا ردّ على أصحاب التّقليد، ثمّ قال: إنّ الإقتداء لا يجوز إلّا بالعالم المهتدي ولا يكون العالم مهتدياً إلّا إذا بنى قوله على الحجّة والدّليل، أي في الكتاب والسنّة، فإذا لم يكن كذلك لا يجوز الإقتداء به.

أقول: وفيه دليل الى أن كل ما وضع شعائر ولم يرد بها كتاب ولا سنة فهو ضلال. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى هذه الأحكام وفند بعض الأحكام الجاهليّة أصرّ الكافرون على ضلالهم، وكانوا يحاولون جلب المسلمين إلى عقائدهم وتقاليدهم الجاهليّة، وهذا دأب الضّالين فإنّهم كما ترى لا يزالون يبنون وينشرون دعوات لإبعاد المسلمين عن دينهم، ولذلك حذّر الله تعالى المؤمنين من أن ينخدعوا بالدّعوات الضّالة أو أن يزلّوا إلى أفكار غريبة عن دينهم مستوردة من أهل الكتاب أو غيرهم فقال جلّ وعلا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

(يا أيّها الّذين آمنوا عليكم) أي احفظوا **(أنفسكم)** من أن تزلّوا عن الحقّ والصّراط المستقيم، صراط الله تعالى وهو الإسلام، وذلك بأن يحفظ المرء نفسه ويعظ غيره ويزجره عن المعاصي، ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر قولاً وفعلاً، وحسب الإستطاعة، وحسب ما له من قوّة ومنعة **(لا يضرّكم)** إخبار لفظاً وإنشاء معنىً فالمعنى لا تفسحوا المجال لأن يضرّكم **(من ضلّ)** بأن يجرّكم إلى ضلاله **(إذا اهتديتم)** ووصلتم إلى الحقّ واعتنقتم الإسلام ديناً **(إلى الله مرجعكم جميعاً)** يوم القيامه **(فينبّئكم)** أي

يخبركم **(بما كنتم تعملون)** من الإنخداع بالأفكار المضلّلة أو الثّبات على العقيدة، والوقوف ضدّ كلّ من يخالف أمر الله تعالى ويدعو إلى خلاف شريعته، فيعاقب من ذلّ وانخدع ويثيب من ثبت وصمد. اللّهم ثبّتنا على الإسلام ووفّقنا لتطبيقه آمين. ثمّ إنّ هذا المعنى هو ما فسّر به أبوبكر الصّديق (رضي الله عنه) هذه الآية[1] وعلى تقدير كون **(لايضرّكم)** إخباراً يكون المعنى لكلّ امرئ عمله فلا يضرّكم ضلال **(من ضلّ إذا اهتديتم)** أنتم ويكون الحال مثل ما قال الصّديق (رضي الله عنه)؛ لأن الإهتداء يفرض الثّبات على الحقّ والوقوف ضدّ الباطل والأمرَ بالمعروف والنّهي عن المنكر حسب الاستطاعة والقوّة، وقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾

(يا أيّها الّذين آمنوا شهادة) أمر يحصل من **(بينكم إذا حضر أحدكم الموت)** أي إذا ظهر عليه أمارات الموت وأراد أن يوصي فالشّهادة حين الوصيّة **(إثنان ذوا عدل منكم)** أي من عشيرتكم أو من المسلمين **(أو)** إثنان **(آخران)** تجعلونهما شاهدين **(من غيركم)** أي من غير عشيرتكم أو من غير المسلمين، فشهادة غير المسلمين مقبولة عند ابن عبّاس (رضي الله عنه). وعند الجمهور: لا تقبل، والحقّ أنّها تقبل للضّرورة، مثل أن يكون في السّفر ولا يجد غيرهم. والمراد هنا بالشّاهدين الوصيّان كما يفيده المقام، وهو قوله

---

(١) عن أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: يا أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها في غير موضعها (عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم) وإنا سمعنا النبي (ﷺ) يقول: لو أن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب./ سنن أبي داود ٤/ ١٢٢ الحديث رقم٤٣٣٨.

تعالى: ﴿إن انتم ضربتم﴾ أي سافرتم وسرتم **(في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت)** فحاصل المعنى: أنّ الوصيّه بتسليم الأموال إلى الأهل والحقوق إلى أهلها تكون لإثنين من رجال العشيرة أو من المسلمين، أو من غير العشيرة والمسلمين إذا أدرك الموت المرء في السّفر ولم يجد أقرباءه أو المسلمين فيوصي الإثنين، وإذا وقع الشّك في الوصيّين أنّهما خانا يوقفان بعد الصّلاة ويقسمان بالله لا نشتري بما عندنا من الحقّ ثمناً، ولا نبدلّه ولو كان الّذي نشهد له ذا قربى، فإن وجد ما خانا فيه كأن سرقا شيئاً فوجد عندهما، فيأتي شخصان من أقرب أقرباء الميت، فيقسمان بالله أنّ هذا لنا ويقولان: إنّ شهادتنا أحقّ من شهادتهما أي الوصيّين، وبذلك يحكم على الوصيّين بالخيانة وينتهي الحكم، ويفصل النّزاع وذلك مثل ما قال تعالى: **(تحبسونهما)** أي توقفون الشّاهدين أي الوصيّين **(من بعد الصّلاة)** أي صلاتهما فإن كانا مسلمين فالأولى بعد صلاة العصر، وإن كانا غير مسلمين فبعد صلاتهما، وذلك تغليظاً لليمين **(فيقسمان بالله)** حين الوقوف بعد الصّلاة، وهذا القسم ما يصار اليه **(إن إرتبتم)** أي شككتم في خيانتهما، فيقولان في القسم والله **(لا نشتري به)** بهذا القسم **(ثمناً)** لمن نشهد له ولو كان ذا قربى وإنّ الحقّ ما نقول **(ولا نكتم شهادة الله)** أي الّتي أمر الله تعالى بها وبأدائها كما هو الحقّ **(إنّا إذاً)** كتمنا شهادة الله تعالى **(لمن الآثمين)** أي لمن الخائبين والكاذبين نحن **(فإن عُثر)** أي فإن اطّلع أحد **(على أنّهما استحقّا إثماً)** خيانة وكذباً بأن وجد عندهما شيء من أموال الميت لم يسلّما إلى صاحبه **(فـ)** يأتي شخصان **(آخران يقومان مقامهما)** بعد الصّلاة ويكون الشّخصان **(من الّذين استحق)** أي ظهر **(عليهم)** الظّلم حيث إنّهما **(الأوليان)** الأقربان إلى الميت، وهما يستحقّان المال الّذي ظهر الخيانة فيه **(فيقسمان بالله)** أنّ هذا المال هو مال الميت وأنّه **(لشهادتنا أحقّ من شهادتهما وما اعتدينا)** أي وما ظلمنا في شهادتنا هذه **(إنّا إذاً)** أي إذا إعتدينا **(لمن الظّالمين)** المتجاوزين الحقّ ودين الله تعالى، وبعد ذلك يؤخذ ذلك المال ويسلّم لأقرباء الميت الوارثين، ويثبت على الوصيّين الخيانة، وينتهي الحكم ويفصل النّزاع. ثمّ قال الله جلّ وعلا:

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

(ذلك)أي ذلك الحكم مثل ما قرّرنا **(أدنى)** أي أقرب ما يكون سبباً في **(أن يأتوا)**

أي الأوصياء **(بالشّهادة)** أي الإعتراف وتسليم الحقوق **(على وجهها)** الصّحيح **(أو يخافوا أن تردّ)** أي أن تطلب من أولياء الميت **(أيمان بعد أيمانهم)** وضدّها، فيفتضحوا وتظهر خيانتهم **(واتّقوا الله)** ولا تخونوا ولا تكذبوا الوصيّة **(واسمعوا)** أوامر الله تعالى وطبّقوها، وبعكس ذلك تكونوا فاسقين **(والله لا يهدي)** أي لا يوصل إلى الفلاح **(القوم الفاسقين)** أي الخارجين عن حكم الله تعالى وتعاليمه، هذا وإليك سبب النّزول ليتّضح لك معنى الآيتين أكثر: (روى البخاري والدّارقطني وغيرهما عن عبّاس قال كان تميم الدّاري وعديّ بن بداء يختلفان إلى مكّة، فخرج معهما فتى من بني سهم، فتوفّي بأرض ليس بها مسلم، فأوصى إليهما أي إلى تميم وعديّ وهما لم يكونا مسلمين، وسلّم إليهما أمواله، فدفعا تركته إلى أهله، وحبسا جاماً من فضة مخوّصاً بالذّهب، فاستحلفهما رسول الله (ﷺ) ما كتمتما ولا أطلقتما، ثمّ وجد الجام بمكّة فقالوا: إشتريناه من عديّ وتميم نجاد، رجلان من ورثة السّهمي، فحلفا أنّ الجام للسّهميّ ولشهادتنا أحقّ من شهادة عديّ وتميم فأخذ الرّسول (ﷺ) الجام وسلّمه لأهل السّهمي)[1] وفيهم نزلت هذه الآيات الثّلاث، وإنّ الحكم لعام وإن كان المورد خاصّاً، كما قرر ذلك في علم الأصول. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى المحاكمة في الأبناء والشّهادة على الأمور واليمين عليها أراد أن يذكر محاكمة الله تعالى للنّاس والرّسل فقال جلّ وعلا:

﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْۖ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾

(يوم) أي لا يهدي الله تعالى القوم الفاسقين إلى الفوز والفلاح **(يوم يجمع الله الرّسل كلّهم)** فيحاسبهم، **(فيقول)** لهم **(ماذا أجبتم)** من قبل الأمم الّتي دعوتموهم إلى عبادتي والعمل بشريعتي **(قالوا)** كلّهم **(لا علم لنا)** علماً ذاتيّاً، بل كلّ علمنا منك، فالعلم الذّاتي لك حيث **(إنّك أنت)** لاغيرك **(علّام الغيوب)** كلّها فكيف بغيرها، فعلمك هو العلم الذّاتي، ولذا نفوّض العلم بإجابتهم إليك. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أنّه يفضح اليهود ويكذّبهم فيما يقولون في حقّ عيسى (عليه السلام) من أنّه ليس برسول بل هو ساحر، وينسبون إليه ما هو بريء منه، وذلك بأن يأتي بعيسى يوم القيامة على ملأ من

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٠٢٣ الحديث رقم ٢٦٢٨، سنن الدارقطني ٤/ ١٦٨ الحديث رقم ٣٠ واللفظ له.

النّاس، ويقرّر الله بأنّه كان رسولاً منه، وأنّه أنعم عليه بالنّعم، وآتاه المعجزات الباهرة، وبذلك ينال اليهود الخزي والعار، ويوضّحون أمام الأولين والآخرين من النّاس فقال جلّ وعلا:

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾

(إذ) أي أذكر (**إذ قال**) أي يقول الله يوم الحشر، عبّر عنه بالماضي لتحقيق وقوعه (**يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك**) والنّعمة جنس يشمل كلّ ما أنعم به الله على عيسى(عليه السلام) وعلى أمّه مريم (رضي الله عنها) (**إذ أيّدتك**) ظرف لنعمتي، فالمعنى أنعمت عليك (**اذ**) وقتما أيّدتك (**بروح القدس**) أي بالرّوح الظّاهرة تعمل العجائب من المعجزات، والمراد بها جبرائيل (عليه السلام) أو روح عيسى نفسه (**تكلم النّاس في المهد**) إعجازاً (**وكهلاً**) وحال الكهولة للتّبليغ والإرشاد (**وإذ علّمتك الكتاب**) أي الخطّ والكتابة والقراءة (**والحكمة**) وهي الأعمال والأقوال وعلمتك (**التّوراة والإنجيل**) وبهما أي باتباعهما، وحسّنت أقوالك وأعمالك، إذ لا حسن لشيء إلّا بموافقة كتاب الله تعالى ومنهجه القويم (**و**) أنعمت عليك (**إذ تخلق**) تصّور (من **الطّين كهيئة**) كصورة (**الطّير بإذني فتنفخ فيها**) في تلك الصّورة (**فتكون**) فتصير تلك الصّورة (**طيراً**) حقيقة (**بإذني**) أي بإرادتي وخلقي (**وتبرئ الأكمه**) الأعمى خلقة (**والأبرص بإذني**) بإرادتي وخلقي لبراءتهما (**وإذ تخرج الموتى**) من القبور أحياءً (**بإذني**) كذلك (**وإذ كففت**) منعت (**بني إسرائيل عنك**) عن إيذائك (**إذ جئتهم بالبيّنات**) بالمعجزات الظّاهرة فأرادوا إيذاءك وقتلك حيث كفروا بك (**فقال الّذين كفروا إن هذا**) الّذي يعلمه عيسى من الخوارق (**إلّا**

سحر مبين) واضح لا غبار عليه وليس معجزة **(و)** أنعمت عليك **(إذ أوحيت)** أي ألهمت وأدخلت **(إلى)** قلوب **(الحواريّين)** وأمرتهم **(أن آمنوا بي وبرسولي)** عيسى، فاستجابوا **(قالوا)** لك **(آمنا)** بالله وبك **(واشهد)** لنا يوم القيامة **(بأننا مسلمون)** منقادون لك ولأمر الله تعالى. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر نعمة أخرى خاصّة فقال جلّ وعلا:

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾

(إذ) أي أذكر يا عيسى **(إذ قال الحواريّون)** لك أوّل ما آمنوا لزيادة الإيقان والإيمان وتثبيت قلوبهم **(يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربّك)** أي هل يقدر **(أن ينزّل علينا مائدة من السّماء)** وهي ما جمع عليه الأطعمة **(قال اتّقوا الله)** في أن تشكّوا في قدرته تعالى على ذلك وعلى أكبر منه **(إن كنتم مؤمنين)** به، فإنّ الإيمان يجب أن يكون مقروناً بالإيمان بأنّه قادر على كلّ شيء، وقد تعب المفسّرون في تأويل قولهم **(هل يستطيع ربّك)** وقالوا: كيف شكّوا في قدرة الله تعالي على ذلك؟ فذكروا وجوها للتّأويل لأنّه لا مانع من أناس يؤمنون بالله تعالى بادئ البدء، ثمّ يؤمنون بصفاته بعد ذلك شيئاً فشيئاً، ولا يلزم من الإيمان بالله أولاً الاطّلاع على جميع صفاته والعلم بها، وإنّما المؤمن المستجدّ يتعلّم صفات الله تعالى شيئاً فشيئاً بالسّؤال عن الرّسل أو العلماء أو تتبّع الكتاب والسّنة، ألا ترى أنّ النّاس إلى الآن مختلفون في بعض صفات الله تعالى، ولم يصلوا إلى العلم بحقيقتها، بل وينفيها البعض حينما يثبتها الآخرون، فلا يستبعد من الحواريّين أنّهم بعد ما آمنوا سألوا ذلك ليعلموا مدى قدرة الله تعالى، ولتطمئنّ قلوبهم كما هو ظاهر قوله تعالى: **(قالوا)** أي قال الحواريّون بعد أن قال لهم عيسى **(اتّقوا الله)** **(قالوا)** لا نريد بهذا السّؤال تعنّتاً بل **(نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا)** على الإيمان بمدى قدرة الله تعالى **(ونعلم أن قد صدقتنا)** في وصفك لقدرة الله العظيمة **(ونكون عليها)** على تبليغاتك **(من الشّاهدين)** عيانا، فنعلمها عياناً كما علمناها إستدلالاً، لنصل إلى حقّ اليقين، كما وإنّ من شرط الشّاهدين أن يرى المشهود به، أو آثاره محققّة له. فلمّا علم عيسى (عليه السلام) أنّ سؤال الحواريّين ليس للتّعنت بل هو للإطمئنان والتّثبيت كما قال سيّدنا إبراهيم (عليه السلام): ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ

لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ سورة البقرة الآية/ ٢٦٠، لمّا علم عيسى (عليه السلام) أنّ سؤالهم كسؤال سيّدنا إبراهيم توجّه إلى الله تعالى بالدّعاء كما قال جلّ وعلا:

﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾

(**قال عيسى ابن مريم**) إستجابة لطلب الحواريّين (**اللّهم**) أصله يا ألله، حذف حرف النّداء وعوّض عنه الميم في أخره (**ربّنا**) زاد ربّنا ترحّماً؛ لأنّ الرّب من صفته التلّطّف على المربّين لتترسّخ التّربية في نفوسهم (**أنزل علينا مائدةً من السّماء تكون عيداً**) أي سبب فرح (**لأوّلنا**) حيث استجيب دعوتهم ويأكلون منها (**و**) تكون عيداً لـ (**آخرنا**) لأنّه من الجبلة الإنسانيّة أنّه يفتخر الخلق بمفاخر السّلف وتكون تلك المائدة (**آيةً**) معجزةً (**منك**) يطمئن بها قلوب المؤمنين (**وارزقنا**) بتلك المائدة رزقاً لدنيّاً بدون كسب وسبب (**وأنت خير الرّازقين**) أي ورزقك اللّدنّي خير من الأرزاق المكتسبة بسبب الأسباب منك، فاستجاب الله تعالى دعاء عيسى (عليه السلام) بشرط وهو أنّه (**قال الله**) ياعيسى إنّي (**منزّلها**) المائدة (**عليكم**) كما طلبتم (**فمن يكفر بعد**) أي بعد رؤية هذه المعجزة (**فإنّي أعذّبه عذاباً**) نوعاً خاصّاً من العذاب في الشّدة (**لا أعذبه**) هذا العذاب (**أحداً من العالمين**) فنزلت المائدة وعليها خبز ولحم. وبعد هذه المحاورة اللّذيذة من الله تعالى مع عيسى (عليه السلام) علمت اليهود أنّ عيسى رسول الله وحبيبه، وأنعم عليه هذه النّعم، فأخذوا على رؤوس الخلائق وفضحوا، واستولى عليهم الحسرة والنّدامة والخزي والعار من عدم الإيمان به، وعلموا أنّهم سيساقون إلى جهنّم نتيجة كفرهم بعيسى (عليه السلام) وقولهم فيه ما هو منزّه عنه.

ثمّ بعد أن فضحَ الله تعالى اليهود وأخزاهم هذا الخزي، أراد أن يفضح النّصارى ويخزيهم على رؤوس الخلائق أيضا فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا

قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾

(**و**) اذكر (**إذ قال**) يقول الله يوم القيامة (**يا عيسى ابن مريم أأ نت قلت للنّاس**) وهم النّصارى (**اتّخذوني**) اعتقدوني (**وأمّي**) مريم (**إلهين من دون الله**) تعالى واعبدونا (**قال**) عيسى لله (**سبحانك**) مصدر سبح للمبالغة، وسبح في الأصل بمعنى مشى على الماء، ثمّ إستعمل في المشي السّريع، لأن السّابح يمشي سريعاً، قال الشّاعر في مدح فرسه:

وتصعدني في غمرة بعد غمرة سبوح لها منها عليها شواهد

فقوله: سبوح أي سريع العدو، ثمّ استعمل في معنى البعد، لأنّ من مشى سريعاً إبتعد، ثمّ استعمل في النّزاهة لأنّ من ابتعد عن شئ تنزه عنه، فمعنى سبحانك تنزهتَ يا الله عن أن يكون غيرك إلهاً (**ما يكون**) أي ما هو (**لي أن اقول**) لهم ما ليس لي بحقّ (**إن كنت قلته فقد علمته**) لأنّه لا يخفى عليك شئ (**لأنّك تعلم ما في نفسي**) أي قلبي وإن لم أتكلّم به فكيف لو تكلّمت به (**ولا أعلم ما في نفسك**) إي إرادتك (**إنّك أنت**) وحدك (**علّام الغيوب**) كلّها فكيف بما ليس بغيب؟ (**ما قلت لهم إلّا ما أمرتني به**) أن أقول وهو (**أن اعبدوا**) أيّها النّاس (**الله**) وحده ولا تعبدوا أحداً سواه لأنّه (**ربّي وربّكم**) ومن كان ربّا فهو الحقيق بأن يعبد (**وكنت عليهم شهيداً**) أي رقيباً (**ما دمت**) أي مدة بقائي (**فيهم**) فلم أقبل منهم أن يعبدوا غيرك (**فلما توفيتني**) أي أخذتني من بينهم بالموت وهو الأصح أو بالرفع حيّاً (**كنت أنت الرّقيب عليهم**) وحدك كما كنت رقيباً عليهم معي في وقت حياتي فيهم (**وأنت على كلّ شيء شهيد**) تعلم ماذا فعلوا بعدي وماذا أحدثوا (**إن تعذّبهم**) فلك الحقّ (**فإنّهم عبادك**) وقد خالفوا أمرك وعصوا (**وإن تغفر لهم**) فلا يمنعك أحد حيث (**إنّك أنت العزيز**) الغالب على أمره لا يمنعه من تنفيذ إرادته أحد (**الحكيم**) ولحكمتك تغفر لهم أو تعذّبهم، ولا شيء منهما خالياً عن الحكمة، وهذا تفويض الأمر من عيسى إلى الله تعالى، لا دعاء منه لمغفرتهم لينافي[١] قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾

(١) قصده ليس دعاء حتى ينافي بل تفويض حتى لا ينافي.

سورة النساءالآية/ ٤٨، ولو سلمنا أنّه دعاء لهم فإنّما كان ذلك لمن أشرك وقت الفترة وهم ليسوا مسؤولين. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ سورة الإسراء الآية/ ١٥، فيجوز الدّعاء لهم.

تنبيه: قد سبق أنّ للنصارى في حقّ عيسى (عليه السلام) ثلاثة مذاهب:

الأوّل: إنّهم يقولون إنّ عيسى إله ومريم إله والله تعالى إله، وعلى هذا المذهب واضح أنّهم اتّخذوا عيسى وأمّه إلهين من دون الله تعالى.

الثاني: إنّهم يقولون أنّ الله هو المسيح عيسى ابن مريم، ولا ينكرون أنّ المسيح ولد من مريم فيلزم أن تكون مريم إلها لأنّ الإله لا يولد إلّا من الإله، كما أنّ الإنسان مثلاً لا يولد إلّا من الإنسان، لوجوب التّماثل بين الوالدة والولد، وبهذا أيضاً اتّخذوا المسيح وأمّه آلهين من دون الله تعالى.

الثّالث: إنّهم يقولون: إنّ المسيح هو ابن الله تعالى، فيلزم أن يكون المسيح إلهاً لوجوب التّماثل بين الوالد كما أنّ أب الإنسان لا يكون إلّا إنساناً، وكذلك يلزم أن تكون مريم إلهاً أيضاً، لوجوب التّماثل بين الوالد والولد، كما أنّ أب الإنسان لا يكون إلّا إنساناً، وكذلك يلزم أن تكون مريم إلهاً أيضاً لوجوب التماثل بين الولد والوالدة والصّاحب والصّاحبة. فيلزم أنّهم اتّخذوا على جميع المذاهب عيسى وأمّه إلهين من دون اللّه تعالى.

* * *

ثمّ لمّا أجاب عيسى (عليه السلام) هذا الجواب الصّدق واستولى على النّصارى الخزي والعار والنّدامة، وفضحوا على رؤوس الخلائق، وعلموا أنّهم إستحقّوا العذاب، قال جلّ وعلا:

﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾

(قال اللّه) تعالى بعد جواب عيسى هذا الجواب الحقّ **(هذا يوم)** أي يوم القيامة **(ينفع)** فيه **(الصّادقين صدقهم)** الّذي كانوا عليه في الدّنيا، لأنّ أعمال الآخرة لا ثواب عليها، لأنّه يوم حساب وليس يوم عمل، والدّنيا هي يوم عمل لا يوم حساب. ثمّ بيّن

الله تعالى نفعهم فقال جلّ وعلا: **(لهم)** أي للصّادقين **(جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً)** مرّ تفسيرها مراراً **(رضي الله عنهم)** بسبب أعمالهم وصدقهم **(ورضوا عنه)** بهذا الجزاء الأوفى **(ذلك)** الجزاء هو **(الفوز العظيم)** الّذي لا يدرك كنه عظمته إلّا للّه تعالى.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن أنّه لا إله غيره، وأنّه يقتدر على هذا الجزاء للصّادقين فقال جلّ وعلا:

﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾

(لله ملك السّموات) كلّها **(والأرض)** جميعها **(و)** ملك كلّ **(ما فيهن)** في السّموات والأرض، ومن كان هذا ملكه فلا إله غيره **(وهو على كلّ شئ قدير)** وبهذه القدرة الواسعة يستطيع أن يجزي الصّادقين هذا الجزاء، والمراد بالصّادقين هم الّذين صدقوا في عقائدهم وأقوالهم وأعمالهم ومعاملاتهم مع اللّه تعالى ومع عباده جميعاً. وهذا يشمل حقيقة الإسلام ولبّه، كما بيّن تعالى الصّادقين بهذا المعنى في قوله: (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ سورة البقرة الآية/ ١٧٧، فقوله: (أولئك الّذين) معناه أنّ هذه أوصاف الصّادقين والصّادق من اتّصف بهذه الصّفات، وهو الّذي يستحقّ هذا الجزاء وكذلك المتّقي، فالصّادق والمتّقي متّحدان حسب الصّدق ومختلفان حسب المفهوم كالإنسان والبشر. اللّهم اجعلنا من الصّادقين والمتّقين وخصّنا برحمتك يا أرحم الرّاحمين، وصلّى اللّه على سيدّنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم إلى يوم الدّين وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

سورة الأنعام

(مكيّة، (165) مائة وخمس وستّون آية نزلت بعد الحجر سميّت بالأنعام لما فيها من ذكر حكم الأنعام).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١﴾

(الحمد) قد مرّ تعريف الحمد والمدح والشّكر في سورة الفاتحة، وحاصل المعنى: الحمد هو الثّناء على الشّخص بالجميل الّذي يوجب التّعظيم والتّقدير، والنّاس إعتادوا من جهلهم أنّهم يعظّمون أشياء ويعطونهم تقديراً، كتقديس المشركين الأصنام وتعظيمهم لها، وكتقديس اليهود لعزير والنّصارى لعيسى ومريم (على نبيّنا وعليهم الصّلاة والسّلام)، ولا يزال النّاس يقدّسونهم ويعظّمون أشخاصاً، ويعطونهم العظمة والقدسيّة والسّلطة الغيبيّة في الكون وعلى النّاس، ولإعادة الحقّ إلى أصحابه وميزانه، وإخراج المؤمنين من الجهل وإنقاذهم من كلّ ما فيه الشّرك أو إيتاء صفة تخصّ اللّه تعالى لغيره، قال تعالى: **(الحمد)** أي التّعظيم والتّقديس والوصف بالكمال وصفاته **(للّه)** وحده وليس لغيره شيء من ذلك، أراد تعالى أن يستدلّ على أنّ الحمد للّه وحده، فقال جلّ وعلا: **(الّذي)** أي اللّه تعالى هو الّذي **(خلق السّماوات والأرض)** جمع السّماوات لأنّها متعدّدة، وأفرد الأرض لأنّها واحدة، وقوله تعالى: ﴿خلق سبع سّماوات ومن الأرض مثلهنّ﴾ أي مثلهنّ في الخلق لا في التّعدد، ومن قال أنّه توجد مجموعات شمسيّة

ولكلّ مجموعة أرض فتعدّدت الأرض غير صحيح أيضاً، لأنّه في كلّ مجموعة أرض واحدة وسماوات متعددة، فيكون المآل خلق سماوات في المجموعات والأرض الواحدة فيها، فالأرض على كلّ حال تكون مفردة **(وجعل)** الله تعالى أي وخلق **(الظّلمات)** جمع الظّلمات لأنّها كثيرة، فظلمة اللّيل وظلمة قعر البحر والبئر وغير ذلك وقال **(والنّور)** مفرداً لأنّ النّور واحد، وللإشارة إلى أنّ الحقّ في الشّيء أمر واحد؛ فمن أدركه على وجهه فهو نور، ومن لم يدركه على ما هو عليه فهو ظلمة، والإدراكات المخالفة للحقّ إدراكات مختلفة وكثيرة؛ فمن كان من عظمته وقدرته أنّه خلق هذه السّماوات وهذه الكواكب والشّموس والأقمار وهذه الأرض وما عليها من جبال ووديان وأنهار وعيون وآبار وبحار، ومن نباتات وحبوب وأشجار وثمار وما فيها من معادن وكنوز، وممّا يدهش العقول والأفكار، فالّذي خلق هذا الخلق العجيب والصّنع البديع هو الّذي يليق بالحمد والتّعظيم والتّقديس لا غيره مهما كان ومهما بلغ في ما يعجب النّاس من العلم أو العقل أو الصّلاح أو العبادة، فالتّعظيم كلّه للّه، وإنّما هناك إحترام وتقدير حسب ما قدّره الشّرع وبقدر ما قدّره بلا إفراط فيه ولا تفريط ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ سورة الكهف الآية/ ١١٠. فإن كان الأمر للرّسولﷺ هكذا فكيف بغيره، **(ثمّ)** بعد وضوح هذه الدّلائل الدّالة على أنّ الحقيق بالحمد والتّقديس والتّعظيم هو اللّه تعالى ترى **(الّذين كفروا)** أي ضلّوا عن الحقّ أو ستروه وأنكروه **(بربّهم يعدلون)** فيه تقديم وتأخير والأصل **(يعدلون)** أي يساوون الغير **(بربّهم)** مما يقدّسونه فينسبون إليه صفات تخصّ اللّه تعالى، كالتّأثير أو السّلطة الغيبيّة، أو حقّ الحكم والتّشريع، وغير ذلك ممّا اختصّ اللّه تعالى به. هذا وأمّا على قول من جعل (الحمد للّه) إنشاءً أي أحمد اللّه، فيؤوّل المعنى إلى ما ذكرنا أيضاً، فالمآل واحد إلّا أنّه لا داعي للعدول عن الظّاهر إلى غيره بدون سبب أو مانع من إرادة الظّاهر. كما هو المقرر في تفسير النّصوص من أنّه لا يعدل عن الظّاهر إلّا لمانع عن إرادته ولا مانع هنا.

ثمّ ذكر الله تعالى دليلاً آخر على أنّ اللّه تعالى هو الحقيق بالحمد؛ فقال جلّ وعلا:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢﴾

(هو) أي اللّه **(الّذي خلقكم من طين)** فإنّه خلق آدم أوّل الأمر من طين، ثمّ قال له: كن فيكون، وكذلك يخلق كلّ إنسان وكلّ حيوان من **طين**، وذلك لأنّ الماء ينزل

على التّراب فيجعله طيناً، ثمّ إنّ هذا الطّين يصير نباتاً، والنّبات يصير غذاءً، والغذاء يصير دماً، والدّم يصير نطفةً، وتقذف نطفة الذّكر إلى رحم الأنثى فتمتزج مع نطفة الأنثى فتنتج نطفة موحدة، ثمّ تصير علقة أي تتجمّد بحيث تعلق باليد إذا مسّته، ثمّ تصير مضغة أي قطعة لحم غير مختلقة، أي غير مصوّرة ثمّ تصير مصوّرة، ثمّ ينفخ فيها الرّوح، ثمّ تخرج من الرّحم فتسلك سبيل البول وينزل الأرض **(ثمّ قضى)** أي قدر اللّه تعالى **(أجلاً)** للحياة لكلّ فرد من أفراد الإنسان لا يتجاوزه، فإذا جاء ذلك الأجل مات ولم يمنعه من الموت شيء **(وأجل مسمىً)** أي معين لبقاء المجموعة الإنسانية والقضاء عليها وهو يوم القيامة **(عنده)** معين عند اللّه لا يعلمه إلّا هو **(ثمّ)** بعد العلم بهذا الخلق وكيفية هذا الإيجاد لكم **(أنتم تمترون)** في وجود اللّه أو وحدته، أو أنّه العظمة والحمد له لا شريك له في ذلك.

ثمّ أراد الله أن يذكر دليلاً آخر على أنّه هو مستحقّ للحمد لا غيره فقال جلّ وعلا:

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾

(وهو) أي هذا الخالق للسّماوات والأرض هو **(اللّه)** أي المعبود والمطاع **(في السّماوات والأرض)** لا يستحقّ الإطاعة غيره إلّا في حدود ما أمره هو، وهي داخلة في إطاعته أيضاً **(يعلم سرّكم)** ما خفي من الأقوال والأفعال **(وجهركم)** ما ظهر من الأقوال والأعمال **(ويعلم)** كلّ **(ما تكسبون)** من الخير والشّر فيجازيكم عليه، فمن كان هذا صفته فلا يليق الحمد إلّا له، وهذه الصفات من كون اللّه تعالى خالقاً للسّماوات والأرض وما فيهم، وللحيوان وللإنسان من الطّين بالكيفيّة الّتي ذكرنا، وبكونه مطاعاً في السّماوات والأرض، وأنّه عالم بالسّر والجهر من أعمال وأقوال الإنسان وما يكسب، كانت معلومة عند المشركين الّذين خوطبوا بهذا الخطاب، وكانوا يعترفون بكلّ ذلك للّه، إلّا أنّهم مع هذا الإعتراف كانوا يشركون به غيره فيعظّمونه ويقدسّونه ويصفونه بصفات تخصّ اللّه تعالى؛ فأتى اللّه هذه الأدّلة تنبيهاً على ضلالهم وإيقاظاً لهم عن أنّ من اتّصف بهذه الصّفات لا شريك له، ولا يحمد سواه، فلينتهوا عن هذا الشّرك وهذا الضّلال وإعترافهم بهذه الصّفات للّه تعالى وإيمانهم بذلك أخبر عنه القرآن في آيات:

١- قال تعالى: ﴿ولَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاواتِ والأرْض وَسَخَّرَ الشَّمْسَ والْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللّهُ فأنّى يُؤفَكُون﴾ سورة العنكبوت الآية/ ٦١.

٢- قال تعالى: ﴿ولَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاواتِ والأرْض لَيَقولُنَّ اللّهُ

قل الحمدُ للّه بلْ أكثرُهُمْ لايعلمُون﴾ سورة لقمان الآية/ ٢٥.

وتفيد هذه الآية أنّ من اعترف بأنّ اللّه خلق السّماوات والأرض هو الحق بالحمد، حيث قال (قل الحمد للّه) أي فما دام اعترفت بأنّ اللّه خالق السّماوات والأرض فاعترفت بأنّ الحمد للّه وحده؛ لأن هذا مقتضى ذلك فبهذا يكون تفسيرنا لهذه الآيات كما ذكرنا موافقاً لهذه الآية وحقاً.

٣ ـ قال تعالى: ﴿ولَئِنْ سَألتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السّمَاواتِ والارْض ليَقولُنّ خلَقَهُنّ الْعَزِيزُ العَلِيمُ﴾ سورة الزخرف الآية/ ٩. وفي هذه الآية أيضاً إعترافهم بعزّة اللّه وعلمه الثّابت والشّامل، إلى غير ذلك من الآيات التي تخبر بأنّ المشركين والمعاندين للإسلام حين مجيئه كانوا يعترفون باللّه وبخلقه لهم وللسّماوات والأرض، وبعلمه بالسّر والعلانية إلّا أنّهم كان منهم من يشرك باللّه، وكان منهم من ينكر البعث ومنهم من ينكر نبوّة محمّد (ﷺ)، فظهر أنّ جاهليّة اليوم أفحش من الجاهلية الأولى، وجدالنا أصعب من الجدال الأوّل،لأنّنا نجادل من لا يؤمن باللّه ولا بأي دين ولا بأي شيء من القيم والأخلاق، فهم كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً.

تنبيه: إن هذه الأمور من السّماوات والأرض وما فيهن، ووجود الإنسان والحيوان من الطّين، هذه الكيفية كما تكون دليلاً على أنّ اللّه هو الحقيق بالحمد والتّعظيم والإطاعة تكون أيضاً دليلاً على وجود اللّه ووحدته وحقيّة الأحياء بعد الموت والحساب بعد ذلك وذلك بأن نقول: إن وجود السّماوات والأرض وما فيهن من الكواكب والنّجوم والأقمار والنّبات والثّمار والأشجار والجبال والعيون والآبار والكنوز والذخائر والآثار، وكذلك وجود الإنسان والحيوان من الطّين بالكيفيّة المذكورة كلّ ذلك أمر محقّق لا ينكره أحد فنقول: إنّ هذا النّظام وهذا الخلق لا يمكن أن يأتي إلى الوجود بنفسه لأنّ شيئاً لا يوجد بنفسه، بل لابد أن يكون له من موحد وصانع، ولا يمكن أن يكون الصّانع هو الطّبيعة لأنّه لا يمكن أن يصنع هذا الصّنع إلّا من كان حيّاً عليماً عالماً شاملاً قادراً قدرة لا نهاية لها، وإنّ الطّبيعة الصّماء لا علم ولا قدرة لها، سيّما وأنّ الطّبيعة أيضاً هي داخلة في هذا النّظام أو هي نفسه، فلابد أن يكون الصّانع لهذا النّظام ذاتاً متصفاً بالعلم والحياة والقدرة وخارجاً عن هذا النّظام وهو اللّه تعالى، فثبت وجود اللّه. ثمّ إنّ الله الّذي خلق هذا النّظام التّكويني، وخلق هذا الإنسان المختلف أفراده في الميول والنّوازع والإتّجاهات، والمتنافس أفراده على الحياة، ليس من المعقول

أن لّا يضع هذا الصّانع لهذا الإنسان نظاماً تكليفياً يكلّفه العمل بهذا النّظام تجاه اللّه تعالى وتجاه إخوته من بني الإنسان، فلابدّ وأن يكون له نظام وأرسله إلى النّاس بواسطة الملائكة إلى من اختاره من البشر، ليبلّغ النّاس بذلك. ثمّ نقول: إنّ من مقتضى كلّ نظام أن يثاب من يطبّقه ويعاقب من يخالفه، وحيث لا يوجد هذا الثّواب والعقاب كلّياً في الدّنيا حيث يموت كثير من المجرمين دون عقاب ويتوفى كثير من الصّالحين دون ثواب، فلابدّ أن يأتي يوم يطبّق فيه ذلك الثّواب والعقاب لتتحقّق عدالة اللّه تعالى؛ لأنّ من خلق هذا النّظام وله هذه القدرة، لقادر على أن يعيد الإنسان بعد الموت ويحاسبه تحقيقاً لعدالته، فثبت بذلك يوم القيامة أيضاً، ثمّ نقول: إنّ من له هذه القدرة العظيمة والعلم الشّامل، وخلق بهما هذا الخلق، لا يعجز عن شيء، فهو واحد لا شريك له لأنّ الشّريك إنّما يتّخذه من كان عاجزاً عن عمله وجاهلاً، وتعالى اللّه عن ذلك كلّه، فلا شريك له، فهو المطاع وهو الحقيق بالحمد والمختصّ به دون من سواه.

* * *

ثمّ بعد أن ذكر اللّه تعالى هذه الدّلائل على وجود اللّه ووحدته ومجي يوم القيامة، وأنّ اللّه هو الحقيق بالحمد والعبادة والإطاعة، أراد أن يذكر ضلال القوم ويعاتبهم وينذرهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾﴾

(وما تأتيهم من آية) من برهان ودليل كوني وقولي **(من آيات ربهم)** الّتي تدلّ على وجوده ووحدته، وأنّه هو الحقيق بالحمد والتّعظيم والإطاعة، وعلى إمكان البعث ومجيئه **(إلّا كانوا عنها)** عن الآيات كلّها **(معرضين)** لا يتفكّرون فيها، ولا يتعظّون بها، بل إنّهم أسوأ حالاً من هذا، لأنّهم بدل التّفكر والإتّعاظ يكذبون بها، كما قال تعالى: **(فقد كذّبوا بالحقّ لما جاءهم)** وانكشف لهم، ولذلك أنذرهم اللّه تعالى فقال: **(فسوف)** أي بعد مدة **(يأتيهم أنباء)** أي جزاء **(ما كانوا به يستهزئون)** من الحقّ وذلك الجزاء يأتيهم في الدّنيا والآخرة معاً أو في إحداهما.

ثمّ ذكر الله تعالى أحوال أمم أهلكوا بالعذاب في الدّنيا نتيجة توليهم عن الحقّ

وتكذيبهم له، ليعتبروا بهم فلا يكذبوا بالحقّ فيؤمنوا ليؤمّنوا أنفسهم من هلاك الدّنيا وعذاب الآخرة فقال جلّ وعلا:

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾

(ألم يروا) أي ألم يعلموا من الأخبار والآثار علماً هو الرّؤية في التّيقّن والثّبات **(كم)** أي عدداً كثيراً **(أهلكنا من قبلهم من قرن)** أي من أهل قرن هو مدّة من الزّمان الأصحّ أنّها مئة سنة، فالمراد هنا هو الجيل، أي أهلكنا كثيراً من أجيال الأمم، **(مكّناهم)** أي قويناهم وأعطيناهم السّلطان **(في الأرض ما)** أي مقداراً من القوّة والسّلطان **(لم نمكن)** لم نقدّر **(لكم)** ذلك المقدار من القوّة، بل هم كانوا أشدّ قوّة وسلطاناً منكم **(وأرسلنا السّماء عليهم)** أي السّحاب **(مدراراً)** بالمطر **(وجعلنا)** وخلقنا لهم **(الأنهار)** من الماء **(تجري من تحتهم)** أي من تحت تصرّفهم أو من تحت مزارعهم وبساتينهم **(فأهلكناهم)** بعد هذه القوّة والسّلطان والسّعة في الرّزق والمال أهلكناهم **(بذنوبهم)** بسبب ذنوبهم الّتي ارتكبوها **(وأنشأنا)** وخلقنا **(من بعدهم قرناً)** أهل قرن **(آخرين)** من النّاس.

هذا والقرون الّتي أهلكهم اللّه تعالى وعلم بهم وبسبب هلاكهم المخاطبون، هم قوم عاد وثمود وفرعون وغيرهم من الأقوام.ثمّ أراد اللّه تعالى أن يذكر كفر المشركين ومن عادى الإسلام أوّل مجيئه وتعنّتهم وضلالهم، فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾

(ولو نزلنا عليك) يا محمّد **(كِتابًا)** مكتوباً **(في قرطاس)** مجلّداً ومضخّماً **(فلمسوه بأيديهم)** ورأوه بأعينهم لما آمنوا بل **(لقال الّذين كفروا)** بك **(إن)** أي ليس **(هذا)** الكتاب ونزوله **(إلّا سحر مبين)** واضح سحرك به محمّد، فمعنى الآية أنّ عدم إيمانهم ليس لغموض رسالتك وخفائها، ولا لعدم ظهور حقيقة دعوتك، بل إنّ كفرهم للعناد والاستكبار فلا يؤمنون، ولو أتيت لهم بكلّ آية بل ولو تيقّنوا لما آمنوا إستكباراً وعناداً،

قال تعالى في سورة النمل: ﴿وجحدوا بها واسْتيْقَنَتْهَا أنفسهم ظلماً وعلوّاً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ سورة النمل الآية/ ١٤. فكفر قريش كان إستكباراً (ذكر ابن هشام أن الأخنس بن شريق بن عمر بن وهب الثّقفي إستمع هو وأبو جهل القرآن يقرؤه الرّسول محمّد (ﷺ)؛ فذهب الأخنس إلى أبي جهل فدخل عليه بيته فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمّد؟ فقال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتّى إذا تجاذبنا على ركب وكنّا كفرسي رهان، قالوا: مِنّا نبيٌّ يأتيه الوحي، فمن يدرك مثل هذه، واللّه لا نؤمن به أبداً ولا نصدّقه، فقام عنه الأخنس وتركه[1].

وكان كفر اليهود بالرّسول حسداً وكرهاً أن تنتقل النّبوة والرّسالة من بني إسرائيل إلى غيرهم، كما أخبر تعالى عنهم فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ سورة البقرة الآية/ ٨٩،٩٠ [2].

ثمّ بلغ تعنّت الكافرين وتمرّدهم على الرّسول (ﷺ) أن طلبوا منه أشياء، منها أنّهم أرادوا أن يأتي ملك من السّماء ويصاحبه، ويشهد له بالرّسالة فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾

(وقالوا) أي الكافرون تعنّتاً **(لولا أنزل)** من السّماء **(عليه)** على محمّد **(ملك)** من الملائكة يشهد له بنبوّته ورسالته، فردّ اللّه تعالى على طلبهم هذا فقال: **(لو أنزلنا ملكاً)** وشهد برسالة محمّد لما آمنوا أيضاً، لما ترسّخ في نفوسهم من الكفر والإستكبار حينما لم يؤمنوا **(لقضي الأمر)** بهلاكهم وتدميرهم؛ لأنّه من عادة اللّه تعالى أنّ أيّ أمّة طلبت آية وخارقة فلم يؤمنوا بعد إستجابة اللّه تعالى لطلبهم؛ دمرهم اللّه تعالى وأهلكهم **(وهم**

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٥٧.

(٢) ويؤيد ذلك أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة: (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩))

لا ينظرون) أي لا يمهلون لحظة بعد أن قضي بتدميرهم وهلاكهم، وقيل في معنى الآية: أنّه لو أنزل ملك ورأوا الملك في صورته لقضي بهلاكهم كلّهم لأنّهم لا يحتملون رؤية الملك في صورته، فلذا لن يرسل اللّه الملك في صورته ولو أرسله في صورة إنسان لا ينتبهوا فيه وكذّبوه، كما اشتبهوا في شخص محمّد (ﷺ) فكذّبوه بعد أن كانوا يشهدونه بصدقه وأمانته أنّه أصدق النّاس وأكثرهم أمانة، وخصّصوه بلقب الأمين بين قريش كلّها، وهذا المعنى أوفق بقوله جلّ وعلا:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾

(ولو جعلناه) أي لو جعلنا الشّاهد عليه وعلى رسالته **(ملكاً لجعلناه)** أي ذلك الملك رجلاً، لأنّه لا يمكن له رؤية الملك في صورته الأصليّة، وإنّما يرونه بعد التّشكل بصورة إنسان **(و)** حيئنذٍ **(للبسنا عليه)** أي لأوقعناهم في شبهة **(ما يلبسون)** مثل ما يشتبهون فيك أو في من يشهد بك كالصّديق وغيره من الأصحاب الكرام، فلا يصدّقونهم لأنّهم بشر، هذا وفي بعض الأقوال أنّ الكافرين كانوا يحتجّون على الرّسول بنوعين:

الأوّل: كانوا يقولون: لولا يأتي ملك يصحبه فيشهد له برسالة.

الثّاني: كانوا يقولون: لما لم يأت ملك بالرّسالة والتّبليغ عن اللّه تعالى، وكيف يكون البشر مبلّغاً عن اللّه دينه ويكون رسولاً منه؟ فرد اللّه تعالى على هذا القول بقوله: (ولو جعلناه) أي ولو جعلنا الرّسول(ملكاً) لم يكن لهم أن يروه ويسمعوا منه على صورته، بل إنّما يمكن التّفاهم والتّخاطب منهم إليه، أو منه إليهم حينما يتشكّل في صورة البشر (و) حينئذ (للبسنا عليه) لوقعوا في الاشتباه مثل (ما يلبسون) يشتبهون فيك ويقولون له إنّما أنت بشر.

تنبيه: إنّ تعنّت كفار مكة وتمرّدهم على الرّسول (ﷺ) وطلبهم أن يأتي معه ملك يشهد له بالرّسالة، ويكون الرّسول من الملائكة، وإنكارهم لأن يكون الرّسول من اللّه تعالى إلى البشر بشراً وإقتراحهم أن يكون الرّسول من الملائكة لم يكن مختصّاً بهم ومن ديدنهم فقط، بل كان اليهود أيضاً يحتجّون بهذه الحجّة على الرّسول محمّد (ﷺ) بل وكلّ أمّة كانت حينما يأتيهم رسول يتعنّتون عليه ويطلبون هذا المطلب، ويقترحون هذا الإقتراح عناداً وتمرّداً وتعنّتاً على الرّسول، وللعلم إليك هذه الآيات الشّريفة:

١- قال اللّه تعالى: في حقّ اليهود ومخبرا عمّا يقولون للرّسول (ﷺ) ويحتجّون به عليه: (وما قدروا اللّه) أي اليهود (حقّ قدره إذ قالوا) للرّسول محمّد (ﷺ) رداً لدعواه

الرّسالة ﴿ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ فردّ الله تعالى عليهم فقال: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ سورة الأنعام الآية/ ٩١. فتبيّن من هذه الآية أنّ هذا الإقتراح كان لمجرد تعنّت من الكافرين والتمرد على الرّسول (ﷺ) وإلّا فكيف ينكر اليهود أن ينزل الوحي بالرّسالة على بشر وهم يعترفون برسل وأنبياء كلّهم من البشر.

٢ ـ قال تعالى: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنّي لكم نذير مبين. أن لا تعبدوا إلّا الله إنّي أخاف عليكم عذاب يوم أليم. فقال الملأ الّذين كفروا من قومه ما نراك إلّا بشراً مثلنا وما نراك اتّبعك إلّا الّذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنّكم كاذبين﴾. فأنكر هذا الملأ أن يكون الرّسول من البشر ولذا قالوا: ﴿ما نراك إلّا بشراً مثلنا﴾ سورة هود الآية/ ٢٥-٢٧.

٣- قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ أي ولا يكون من البشر رسول بل (تريدون) هذه الادعاءات ﴿أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ سورة إبراهيم الآية/ ٩-١١.

٤- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ سورة المؤمنون الآية/ ٢٣-٢٤.

٥- قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي من بعد قوم نوح ﴿قَرْنًا آخَرِينَ(٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ(٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ سورة المؤمنون الآية ٣١-٣٤.

٦- قال تعالى: (قالوا) أي قوم ثمود لرسولهم صالح (عليه السلام) ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ سورة الشعراء الآية/١٥٣-١٥٤.

٧- قال تعالى: ﴿قالوا) أي قوم شعيب لشعيب (ﷺ) (قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ سورة الشعراء الآية/ ١٨٥-١٨٦.

٨- قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ سورة فصلت الآية/ ١٣-١٤.

٩- قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ سورة التغابن الآية/٥- ٦ ـ فظهر من هذه الآيات أنّ هذا التعنّت والإستنكار هو دين كلّ الأمم الكافرة، فالكفر ملّة واحدة وطبيعة الكافرين وسجيّتهم واحدة. أللّهم فحفظاً من سجاياهم برحمتك يا أرحم الرّاحمن آمين.

* * *

ثمّ أراد اللّه تعالى أن يرسل رسوله وينذر قومه فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾

(ولقد) أي فلا تحزن من تكذيبهم وإستهزائهم بك حيث **(استهزئ برسل)** كثيرين **(من قبلك)** وإنّ هذا من لوازم الرّسالة والنّبوة فلا رسول لم يستهزئ به، فمن تحمّل الرّسالة فليتحمّل الإستهزاء، وكذا كلّ من أراد الدّعوة فليتحمّل نتائجها من الإستهزاء والأذى ولكنّ العاقبة للرّسل **(فحاق)** أي أحاط **(بالّذين سخروا منهم)** جزاء **(ما كانوا به يستهزئون)** من الهلاك والدمار أو الخزي والذّل في الدّنيا والآخرة **(قل)** للمستهزئين **(سيروا في الأرض ثمّ انظروا كيف كان)** أي صارت **(عاقبة المكذبين)** بالرّسل لتصدّقوا ما أقول ولتعتبروا بهم، والسّير سيران: سير حقيقيّ: وهو السّفر إلى بلاد المكذّبين لرؤية آثارهم ودمارهم، وسير غير حقيقيّ: وهو قراءة كتب التّواريخ الصّحيحة للاطلاع على حالهم، وربّما كان هذا السّير أسهل بل وأفيد وأدلّ على حالهم وأدعى إلى العبرة والإتّعاظ. وبعد أن أمر اللّه تعالى بالسّير في الأرض والإطلاع على أحوال الأمم ليعلموا

سوء عاقبة الشّرك وتكذيب الرّسل ومعاداة التّوحيد وعدم الخضوع لشريعة اللّه تعالى فيعتبروا بذلك، وليتّعظوا أمر اللّه تعالى بالنّظر في السّماوات والأرض والإستدلال بها على وحدانيّة اللّه تعالى، وأنّ إرسال الرّسل حقّ فقال جلّ وعلا:

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢﴾

(قل) يا أيّها النّبيّ ويا أيّها المسلم الدّاعي إلى الله تعالى والعمل بشريعته **(لمن ما في السّماوات والأرض)** من كلّ ماهو موجود منهما وفيهما فإن لم يجيبوك فأنت **(قل لله)** كلّ ذلك فإنّ المخاطبين في ذلك الوقت كانوا لا ينكرون ذلك، وأمّا في الاوقات الأخرى فكلّ من تفكّر في السّماوات والأرض يعلم أنّ هذا النّظام البديع والصّنع العجيب لا يمكن أن يوجده إلّا صانع عليم بلغ علمه الشّمول والكمال، ووصلت قدرته إلى أقصى ما يتصور من الغلبة والكثرة، فيعترف بأنّ من خلق هذا الكون هو الله ولاشكّ أنّ من خلق شيئاً فهو مالكه، فإذا سأل عن مالك السّموات والأرض والكون كلّه يقول هو **(الله)** تعالى، ولاشكّ أنّ من له هذا الكون ملكاً وملكاً فهو غني وأغنى الأغنياء، فلا يحتاج إلى شريك، فإنّ الشّريك لا يتخذه إلّا العاجز أو الجاهل، وتعالى الله عن ذلك. ثمّ بعد ما اعترف به لك يعلم أنّه ليس من المعقول أنّ هذا المالك لا يضع نظاماً لمن يسكنه في هذا الكون، وإنّ النّظام يختار له بعض النّاس لتبليغه، فيؤمن بالرّسل إذا دعوا الرّسالة وأظهروا المعجزات والدّلائل الدّالة على رسالتهم. ثمّ بعد الإشارة إلى هذا الدّليل الواضح على أنّ الله واحد لا شريك له، وأنّ الرّسالة حقّ قال تعالى **(كتب)** أي قدر الله تعالى **(على نفسه)** أي على ذاته الرّحمة بالنّاس، ولذلك لا يعجّل لهم بالعقوبة، ولكن إن أمهل فلا يهمل فوالله **(ليجمعنّكم إلى يوم القيامة)** فيحاسبكم فيه ويجزي كلّاً وفق عمله **(لا ريب فيه)** في مجيء ذلك اليوم **(الّذين خسروا)** الّذين: منصوب على الإختصاص أي أخص بالذّكر من الّذين يجمعهم الله تعالى للحساب الّذين **(خسروا أنفسهم)** يجعلها مستحقّة للعذاب. ثمّ ذكر الله تعالى سبب خسارتهم لأنفسهم فقال: (فهم) أي بسبب أنّهم **(لا يؤمنون)** بوحدانيّة الله ووجوب إتباع رسله وما جاؤوا به من نظام الله ومنهجه القويم المستقيم.

﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣﴾

(وله) أي ولله ملكاً وملكاً كلّ **(ما سكن)** من السّكن أي حلّ **(في اللّيل والنّهار)** أو المراد السّكون، فالمعنى ما سكن وتحرّك في اللّيل والنّهار، حذفت الحركة بقرينة السّكون الدّال عليها **(وهو السميع)** لجميع الأقوال والأصوات **(العليم)** بجميع الأعمال والأفعال. وهذه الآية أيضاً دليل على أنّ الله لا شريك له، فإنّه إذا كان كلّ ما في اللّيل والنّهار ملكه، فلا يكون شيء ممّا يوجد فيهما شريكاً له، لأنّ المملوك لا يكون شريكاً للمالك، وفي هذه الآية أيضاً دليل على حقيقة الرّسالة، فإنّ من هذا ملكه لا يتصوّر أن لا يضع نظاماً لمن في ملكه، والنّظام لا يسلم لكلّ أحد، بل يختار له بعض النّاس ويرسل إليه النّظام ليقوم بتبليغه وهم الرّسل وقال: **(في اللّيل والنّهار)** بدون برهان عليه لأنّ المشركين المخاطبين بذلك ما كانوا ينكرون ذلك، كما وإنّ من تفكّر في هذه المخلوقات يعلم أنّه مخلوق لخالق، والمخلوق ملك خالقه؛ فيعترف، فلا حاجة إلى الإستدلال لأنّه موكول إلى العقل والفطرة الّتي تشهد بذلك، ومن اعترف بمالكيّة الله لهذه المخلوقات وخالقيّته لها يؤمن ويقول: **(وهو السّميع العليم)** لأنّ مثل هذا الخالق لابدّ وأن يكون سميعاً وعليماً.

ثمّ لمّا أثبت مالكيّة الله تعالى للسّموات والأرض ولكلّ موجود، أراد أن يذكر أنّ هذا الملك هو الحقيق بأن يعبد ويطاع ويفوّض إليه الأمور كلّها؛ فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾

(قل) يا أيّها النّبيّ ويا كلّ مخاطب **(أ)** بعد هذه الدّلائل الدّالة على وجود الله ووحدانيّته وقدرته وعظمته **(اغير الله أتّخذ وليّاً)** فأعبده وأفوّض إليه أموري؟ كلّا، ثمّ كلّا، لأنّه هو المعبود وحده، وكلّ الأمور بيده لأنّه هو **(فاطر السّماوات والأرض)** أي موجدهما من العدم إلى الوجود **(وهو يطعم)** يرزق كلّ حيّ **(ولا يطعم)** أي ولا يرزقه أحد **(قل إنّي أمرت)** من قبل الله تعالى **(أن أكون أولّ من أسلم)** لله وانقاد لأمره وحده وقال تعالى لي: **(ولا تكونّن من المشركين)** بي شيئاً **(قل إنّي أخاف إن عصيت**

ربّي) بالكفر أو بالإشراك، أو بأيّ معصية أخرى أن يعذّبني الله **(عذاب يوم عظيم)** هو يوم القيامة **(من يصرف عنه)** ذلك العذاب **(يومئذٍ)** أي يوم القيامة **(فقد رحمه)** الله تعالى **(وذلك)** الرّحم يصرف العذاب عنه **(هو الفوز المبين)** والنّعمة العظيمة.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّ يوم القيامة بيده العذاب والرّحمة، أراد أن يذكر أنّه بيده النّفع والضّر في الدّنيا أيضاً فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾

(وإن يمسسك) يصبك **(الله بضرٍّ)** من المرض أو الفقر أو البلاء **(فلا كاشف)** فلا دافع **(له)** لذلك الضر **(إلا هو)** بنفسه **(وإن يمسسك بخير)** فلا مانع يمنعه منه **(فهو)** إذن **(على كلّ شيء قدير)** قدرة ثابتة لا تعارض ولا تعجز **(وهو القاهر)** الغالب **(فوق)** على **(عباده)** كلّهم **(وهو الحكيم)** لا يضرّ أحداً إلّا لحكمة، ولا ينفع أحداً إلّا لحكمة **(الخبير)** بأحوال النّاس وأعمالهم ونيّاتهم وعلى حسب ذلك الحكمة ينفع ويضرّ ويغني ويفقر ويصحّ ويمرض ويعزّ ويذلّ، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم.

وقد ذكر الله تعالى هذه الصّفات لكي لا يخاف المؤمن من أحد، وإن يدعو إلى الله دون خوف، وأن يعتمد على الله وحده، ولا يخاف لومة لائم، فإن فعل ذلك فإنّ الله ينصره، ولذلك عقب ذكر هذه الصّفات بأمر الرّسول والداعية في كلّ عصر بمصارحة الكافرين، فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾

(قل) يا أيّها النّبيّ **(أيّ شيء)** أكبر شهادة؟ فإن سكتوا **(قل الله شهيد بيني وبينكم)** بأنّي قد بلّغتكم ودعوتكم إلى الحقّ والله أكبر شاهد **(وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به)** على الشّرك والعدول عن شريعة الله تعالى **(و)** لأنذر به كلّ **(من بلغ)** هذا القرآن. ثمّ أمر الله تعالى بمنابذة الكافرين والمشركين في عقيدتهم وشريعتهم فقال:

(أإنكم لتشهدون أنّ مع الله آلهة أخرى) لهم التّكوين والتّشريع ويستحقّون العبادة والإطاعة والتّقديس **(قل)** فإن شهدتم أنتم بهذا الباطل فإنّي **(لا أشهد)** بذلك **(قل إنّما هو)** الله **(إله واحد)** لا إله غيره **(وإنّني بريء مما تشركون)** بالله مهما كان نوعه وبهذه المنابذة والمصارحة يتميّز المؤمن الصّادق من الكافرين والمنافقين جميعاً، ويتوجّه الله تعالى بتاج العزّة في الدّنيا والآخرة. ثمّ بعد أن ناقش تعالى المشركين أراد أن يناقش أهل الكتاب فقال جلّ وعلا:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

(الّذين آتيناهم الكتاب) وهم اليهود، آتاهم الله تعالى التّوراة، والنّصارى آتاهم الله تعالى الإنجيل وإنّ كلاًّ منهما **(يعرفونه)** أي يعرفون الرّسول (ﷺ) أنّه رسول، وذلك بسبب ما بشّر به في التّوراة والإنجيل، وذكر فيهما أوصافه، فبهذه الأوصاف يعرفونه **(كما يعرفون أبناءهم)** ولا يشتبه عليهم، وأخصّ من بينهم بالذّكر **(الّذين خسروا أنفسهم)** بجعلها مستحقّة للعذاب **(فهم)** أي والسّبب في خسارة أنفسهم أنّهم هم لا يؤمنون بالرّسول (ﷺ) بعد معرفتهم له هذه المعرفة.

ثمّ وجه الله تعالى الملامة إلى المشركين وأهل الكتاب معاً، فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾

(ومن) الإستفهام للإنكار، أي لا يوجد من هو أظلم أشدّ ظلماً **(ممّن افترى على الله كذباً)** بأن ينسب إليه ما لا يليق به من شريك له أو أي أمر آخر هو منزّه عنه، وهذا ما كان يفعله المشركون **(أو كذّب بآياته)** الموجودة في التّوراة والإنجيل والّتي تصف محمّداً وتأمر بالإيمان به حينما جاء، وهذا ما فعله أهل الكتاب، حيث كذّبوا تلك الآيات؛ بسبب عدم الإيمان بالرّسول (ﷺ) فهؤلاء المشركون وأهل الكتاب أشدّ ظلماً ؛ولذلك لا يفلحون حيث **(إنّه)** أي أنّ الشّأن وحكم الله تعالى هو أنّه **(لا يفلح الظالمون)** فلا ينالون رحمة الله تعالى في الآخرة بتاتاً.

ثمّ أنذر الله تعالى الكلّ وذكر حالهم يوم القيامة فقال جلّ وعلا:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

(ويوم) منصوب بفعل مقدّر تقديره واذكر **(يوم نحشرهم)** أي المشركين وأهل الكتاب **(جميعاً ثمّ نقول للّذين أشركوا)** من المشركين وأهل الكتاب **(أين شركاؤكم الّذين كنتم تزعمون)** أنّهم شركاء الله، وأنّهم ينقذونكم من العذاب، فأتوا بهم لينقذوكم، والإستفهام للتّقريع والتّعجيز والتّنديم **(ثمّ)** بعد هذا الإستفهام منهم **(لم تكن فتنتهم)** أي كذبهم **(إلّا أن قالوا والله ربّنا ما كنّا مشركين)** فكذبوا في الدّنيا بالإشراك وكذبوا في الآخرة بأنّهم أشركوا **(انظر)** نظر تعجّب **(كيف كذبوا)** أي شهدوا **(على أنفسهم)** كذباً **(وضلّ عنهم)** أي غاب عنهم **(ما)** الشّركاء الّذين **(كانوا يفترون)** فيهم ويقولون هؤلاء شركاء لله وشفعاؤنا عنده، ويقربونا إلى الله زلفى، ويحكّمونهم في أمور دينهم ودنياهم.

تنبيه: أدرج الله أهل الكتاب مع المشركين لأنّهم مشركون أيضاً، لأنّ اليهود اتّخذوا عزيراً إبناً لله، وإنّ ابن الله يجب أن يكون إلهاً لوجوب التّماثل بين الأب والإبن، كما إن ابن الإنسان إنسان لا محالة، ولأنّ النّصارى اتّخذوا عيسى إلهاً أو ثالث الآلهة أو ابن الله تعالى، وإنّ الطّائفتين جميعاً اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله تعالى، قال تعالى: ﴿اتّخذوا﴾ أي اليهود والنّصارى ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ سورة التوبة الآية/ ٣١. وسئل الرّسول (ﷺ) عن معنى الآية فقال: (أحلّوا لهم الحرام فأتّبعوهم وحرّموا عليهم الحلال فأطاعوهم، وهذا معنى اتّخاذهم إياهم أرباباً)[1]. فظهر من هذه الآية وحديث الرّسول (ﷺ) أنّ كلّ من اتّبع

---

(١) عن عدي بن حاتم قال أتيت النبي (ﷺ) وفي عنقي صليب من ذهب فقال: ياعدي إطرح عنك هذا الوثن!وسمعته يقرأ سورة براءة (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) قال أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا إستحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه، سنن الترمذي ٥/ ٢٧٨ الحديث رقم ٣٠٩٥. وفي رواية البيهقي: قلت يارسول الله إنهم لم يكونوا يعبدونهم، قال: أجل ولكن يحلون لهم ما حرم الله فيستحلونه ويحرمون عليهم ما أحل الله فيحرمونه فتلك عبادتهم لهم./ سنن البيهقي ١١٦/١٠ الحديث رقم ٢٠١٣٧.

أحداً في التّشريع سوى الله تعالى فقد اتّخذه ربّاً أو أشرك بالله تعالى.

* * *

ثمّ روي أنّه اجتمع أبو سفيان وأبو جهل وأبو لهب والوليد بن المغيرة والنّضر بن الحارث وعتبة وشيبة بن ربيعة وأميّة وأبيّ بن خلف والحارث بن عامر يستمعون القرآن من رسول الله حينما يتلو فقال للنّضر: يا أبا قتيبة ما يقول محمّد؟ قال: وما أدري ما يقول، إلّا أنّي أراه يحرّك لسانه ويقول أساطير الأوّلين مثل ما حدّثتكم عن القرون الماضية، فقال أبو سفيان: إنّي لأرى بعض ما يقوله حقّاً، فقال أبو جهل لا نقرّ بشيء من هذا، فأنزل الله تعالى مخبراً الرّسول بذلك فقال جلّ وعلا:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

(ومنهم) أي وبعض من الكفّار **(من يستمع إليك)** أي إلى تلاوتك للقرآن إلّا أنّهم لا يستفيدون منه شيئاً حيث **(وجعلنا)** بسبب عنادهم وتعنّتهم وإستكبارهم **(على قلوبهم أكنّة)** أغطية مانعة من **(أن يفقهوه)** على حقيقته ويتّبعوه **(وفي آذانهم)** جعلنا **(وقراً)** أي ثقلاً فلا يسمعونه حقيقة السّمع وسمع الإجابة **(بل)** لا يستجيبون أبداً **(و) إنّهم** لعنادهم وتعنّتهم **(إن يروا كلّ آيةٍ)** معجزة من معجزات الله الدّالة على حقيقة القرآن وحامله محمّد (ﷺ) **(لا يؤمنوا بها)** إستكباراً وعناداً **(حتّى)** أنّهم **(إذا جاءوك يجادلونك)** لا لإظهار الحقّ بل للمكابرة والمعاندة ولذلك **(يقول الّذين كفروا إن)** ليس **(هذا)** أي القرآن **(إلّا أساطير)** أي حكايات **(الأوّلين)** يحكيها محمّد مثل ما يحكى القصّاصون قصص الأمم الماضية، وليس من الله في شيء **(وهم ينهون)** النّاس **(عنه)** عن القرآن والإيمان به **(وينأون)** ويتصدّون بأنفسهم عنه **(عن)** القرآن ولا يؤمنون به ولا يستمعونه حقّاً، ويريدون بذلك أن يضرّوا الإيمان والمؤمنين **(وإن يهلكون)** أي وما يهلكون بهذا **(إلّا أنفسهم وما يشعرون)** بهذا الهلاك.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن إهلاكهم لأنفسهم بعداوة القرآن ومصيرهم بسبب ذلك؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾

(ولو ترى) أيّها المخاطب حالهم **(إذ وقفوا)** أي عرضوا على النّار فرأوها، أو المعنى إذ عرضوا في النّار، وجواب الشّرط محذوف تقديره: لرأيت أمراً فظيعاً وعظيماً **(فقالوا يا ليتنا نردّ)** إلى الدّنيا فنؤمن **(ولا نكذّب بآيات ربّنا ونكون من المؤمنين)** بالقرآن وما فيه من أحكام، يقولون هذا ولكنّهم يكذبون؛ فهم لا يؤمنون ولو ردّوا إلى الدّنيا **(بل)** إنّما يقولون هذا القول لأنّه **(بدا)** ظهر **(لهم)** عاقبة **(ما كانوا يخفون من قبل)** نتيجة فضائح أعمالهم وقبائح صفاتهم، ولهذا يقولون ذلك **(ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه)** من الشّرك والمعاصي وقبائح الأعمال؛ لأنّه أصبح الشّرك والمناهي والأعمال القبيحة من جبلّتهم وتمكنّت في نفوسهم فلا يتركونها **(وإنّهم لكاذبون)** في قولهم ولا نكذّب بآيات ربّنا ونكون من المؤمنين، وما أصدق هذا القرآن فإنّنا نرى كثيراً من الفاسقين يبتلون بآلام وأمراض ومصائب، فيدعون وينادون ويقولون لو نجّانا الله تعالى من هذا، فلا نقترف ذنباً ولا نرتكب إثماً، ويحلفون أحلافاً على ذلك، ثمّ لما نجوا عادوا إلى ماهم عليه، فما أصدق هذا القرآن.

هذا وإنّ هذه الصّفات المذكورة في هذه الآيات من عدم نفوذ القرآن إلى القلوب، وعدم الدّخول في الأسماع، والقول على القرآن بأنّه أساطير الأولين، والنّهي عن إتباعه والإبتعاد عنه، هي صفات كلّ معاند للإسلام منذ زمن مشركي مكّة إلى يوم القيامة، فكلّهم يعادون القرآن هذا العداء، ويبتلون يوم القيامة بهذا التّمني، ولا يفيدهم هذا التّمني شيئاً، وهذا حالهم ومقالهم في حقّ القرآن، وأمّا حالهم بالنّسبة ليوم القيامة والإيمان به فقد أخبر تعالى عنهم؛ فقال جل وعلا:

﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾

(وقالوا) أي هؤلاء الكافرون بالنّسبة للآخرة **(إن)** أي ليس **(هي)** أي الحياة **(إلّا حياتنا الدّنيا)** أي الحياة القربى وهي هذه الحياة **(وما نحن بمبعوثين)** بعدما متنا لحياة أخرى **(ولو ترى إذ وقفوا)** أي حبسوا **(على ربّهم)** أي على مكان فيه حساب ربّهم يوم القيامة لرأيت أمراً عظيماً في الهول والشّدة والخجل إذ **(قال)** الله لهم **(أليس هذا)** البعث **(بالحقّ)** كما قلتم في الدّنيا **(قالوا بلى وربّنا)** قال **(فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون)** بهذا اليوم في الدّنيا **(قد خسر الّذين كذبوا)** في الدّنيا **(بلقاء الله)** في هذا اليوم واستمرّوا **على** هذا التّكذيب **(حتّى)** أي إلى أن **(جاءتهم السّاعة)** أي يوم القيامة **(بغتةً)** فجأةً **(قالوا)** في ذلك الوقت **(يا حسرتا على ما فرّطنا)** أي قصرنا **(فيها)** في حقّ الساعة حيث ماعملنا لها **(وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم)** أي يلازمهم أوزارهم **(ألا ساء ما يزرون)** ما يحملونه من الذّنوب حيث يضرّهم ما حملوا.

ثمّ إنّ أكثر ما يعصي الإنسان ويذنب إنّما هو حبّ الدّنيا والميل إليها؛ فلذا قال جلّ وعلا:

﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٣٢﴾

(وما) أي وليس **(الحياة الدّنيا إلّا لعب ولهو)** فلا يليق بالمرء أن يركن إليها **(ولهو)** ويخسر بسببها الآخرة حيث **(و)** بعزّتي **(للدّار الآخرة خير)** من الدّنيا، وهي مختصّة **(للّذين يتّقون)** المعاصي والشّرك **(أفلا تعقلون)** فتتركون هذه الحياة الأبديّة السّعيدة لتلك الحياة الفانية الّتي ملأها الشّقاء والكدرات.

تنبيه: إنّ الحياة الدّنيا مذمومة إذا كانت سبباً لضياع حياة الآخرة، وأمّا الحياة المحصلة لثواب الآخرة كالحياة والعمل وفق شريعة الله تعالى فكما أنّها يتنعّم بها المرء في الدّنيا فيكون سبباً لحياة الآخرة وسعادتها، فإنّ الدّنيا مزرعة الآخرة، فطوبى لمن زرع فيها ما يثمر السّعادة في الآخرة، ويا حسرة لمن عكس الأمر وخالف الحقّ وجانب ما فيه النّفع هناك.

❊ ❊ ❊

ثمّ أراد الله تعالى أن يسلّي رسوله فقال جلّ وعلا:

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾

(قد نعلم) جداً (أنّه) أنّ الشّأن هو **(ليحزنك الّذي يقولون)** فيك وفي الله تعالى وفي الآخرة من الإنكار والكفر فلا تحزن **(فإنّهم لا يكذّبونك)** وحدك **(ولكنّ الظّالمين بآيات الله)** القوليّة والكونيّة **(يجحدون)** ينكرون أيضاً؛ فعداؤهم ليس معك فقط، بل معك ومع الله معاً، وإنّ هذا ليس من حال أمّتك فقط بل **(و)** بعزّتي **(لقد كذّبت رسل)** كثيرون **(من قبلك)** من أممهم **(فصبروا على ما كذبوا)** فيه وهو دين الله تعالى ورسالتهم منه **(وأوذوا)** فيه من الدّعوة إلى الحقّ ورجوع السّلطان إلى دين الله تعالى وتحرير النّاس من سلطان البشر الظّالمين فصبروا **(حتّى أتاهم)** إلى أن أتاهم **(نصرنا)** لهم على الأعداء الكافرين، فاصبر أنت أيضاً إلى أن يأتيك نصرنا، فإنّ النّصر يأتي حيث **(لا مبدّل لكلمات الله)** وهي وعده الرّسل بالنّصر وإنذاره الكافرين بالخذلان **(ولقد جاءك من نبأ المرسلين)** ما يكفيك لأن يطمئّن قلبك به وتعلم أنّ النّصر لك، والخزي والعار لأعدائك، ذلك النبأ هو نصر **المرسلين** جميعاً وهزيمة أعدائهم؛ فاصبر فإنّ لكلّ كتاب أجل، وإنّ الله لا يخلف الميعاد **(وإن)** وقد **(كان كبر)** صعب **(عليك إعراضهم)** عن إيمانهم رحمة بهم، وبلغ حرصك حدّاً تعمل كلّ ما تستطيع لإقناعهم **(فإنّ استطعت أن تبتغي نفقاً)** سربّاً تذهب فيه وتغوص **(في)** طبقات الأرض لتأتي لهم بآية ليقنعوا لفعلت حرصاً عليهم وشفقة بهم **(أو)** إن استطعت أن تبتغي **(سلّماً)** لتصعد عليه فترقى **(في السّماء فتأتيهم بآيةٍ)** ليقنعوا فعلت ذلك حرصاً عليهم وشفقةً بهم؛ فلا تحرص هذا الحرص لأنّه **(ولو شاء الله)** أن يجمعهم على الهدى جبراً بالآيات أو بغيرها **(لجمعهم على الهدى)** جبراً إلّا أنّ الله تعالى لم يشأ الجبر؛ لأنّ في الجبر لا يبقى فضل لأحد على أحد، فجعل الله تعالى الهداية إلى إختيارهم، فمن أرادها خلقها الله له، ومن لا

فلا، ليتميّز الطّيب من الخبيث[١] (فلا تكوننّ من الجاهلين) بحكمة الله تعالى في الأمور وإنّ الكلّ لا يستجيبون.

ثمّ بعد أن جعل الله تعالى الإختيار إلى العباد بين الّذين يستجيبون من الّذين لا يستجيبون، فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾

(إنّما يستجيب) للإيمان بالحقّ **(الّذين)** يحبّون الحقّ **(ويسمعون)** الحقّ ليتّبعوه **(والموتى)** وهم الّذين لا يحبّون الحقّ أو لا يسمعونه للإتّباع بل للعناد والمكابرة؛ شبّههم بالموتى لعدم وجود روح الحقّ في نفوسهم فهؤلاء **(يبعثهم الله)** يوم القيامة **(ثمّ)** بعد البعث **(إليه يرجعون)** فيعاقبهم على ذلك. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر تعنّت الكافرين فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾

(وقالوا) تعنّتاً وكفراً **(لولا نزّل عليه)** على الرّسول سوى القرآن **(آية)** خوارق عادات كإحياء الموتى مثل عيسى (عليه السلام) وكتفجير الماء من الصّخرة كموسى (عليه السلام) أو غير ذلك من الخوارق الكونيّة **(قل)** في جوابهم **(إنّ الله قادر على أن ينزّل آية)** بل آيات **(ولكنّ أكثرهم لا يعلمون)** أنّ كلّ رسول اختص بنوع من المعجزات، وأنّها تعطى على حسب إرادة الله تعالى، لا حسب إقتراح النّاس، أو يقال: **(ولكنّ أكثرهم لا يعلمون)** أنّ اظهار الآيات حسب إقتراحهم يضرّهم؛ لأنّه من عادة الله تعالى أنّ الأمّة إذا اقترحت آية فنزلت ولم يؤمنوا إستأصلهم، فرحمةً بهم لا يستجيب طلبهم في الآيات.

ثمّ أراد الله تعالى أن يثبت أنّ له القدرة على إنزال الآيات ولماذا لا ينزلّها، فقال جلّ وعلا:

---

(١) أي ليتحقق الإختبار وبالجبر ينتفي الإختيار فلا يتحقق الإختبار الذي أخبر به تعالى في أماكن متعدّدة من القرآن منها قوله تعالى في سورة الملك: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢)). ومنها في سورة المائدة: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨)).

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ۝٣٨ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٣٩﴾

(وما من دابّة) من الحيوان والحشرات وكلّ حيّ يوجد **(في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه)** في الجوّ **(إلّا أمم أمثالكم)** خلقها الله تعالى ويدير شؤونها، فمن كانت قدرته هذه فهو قادر على إنزال الآيات إلّا أنّه لا ينزل حسب إقتراحهم لأنّه **(ما فرّطنا في الكتاب)** في القرآن وما تركنا فيه **(من شيء)** ممّا يثبت رسالة الرّسول ونبوّتة وحقيقة ما جاء به، وذكرنا الدّلائل العقليّة والنقليّة الكافيّة، فإذا لم يؤمنوا بعد هذه الدّلائل المذكورة والإيضاحات المسطورة لا يؤمنون بالآيات أيضاً، وإن نزلت حسب إقتراحهم **(ثمّ بعد)** ما ذكرنا من الدّلائل في القرآن وعدم إقتناعهم بها **(إلى ربّهم يحشرون)** بعد الموت فيلقون جزاء هذا التّعنّت والإنكار **(والّذين كذّبوا بآياتنا)** بالدّلائل الموجودة في القرآن فلم يقتنعوا بها فهؤلاء **(صمّ)** عن الحقّ **(وبكم)** لا ينطقون بالحقّ ومستمرون **(في الظّلمات)** من الكفر والتّعنت والإنكار ولا يقتنعون بشيء **(من يشأ الله يضلله)** وهم الّذين لا يحبّون الحقّ وليس عندهم إلّا التّعنّت **(ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم)** وهم الّذين يحبّون الحقّ وينظرون إلى الأدّلة بوجه الإسترشاد لا بوجه الإنكار والعناد.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبرهن لهم على بطلان الشّرك بما ركّز في نفوسهم؛ فقال جلّ وعلا:

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٤٠ بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ۝٤١﴾

(قل) للمشركين أيّها المسلم **(أرأيتكم)** أي أخبروني **(إن أتاكم عذاب الله)** من مرض أو حريق أو غريق وحينما يشتدّ بكم الأمر **(أو أتتكم السّاعة)** القيامة **(أغير الله تدعون)** في ذلك الوقت الضيّق، والإستفهام للإنكار، أي لا تدعون في تلك الحالات غير الله تعالى، فأخبروني عن حالكم هذا **(إن كنتم صادقين)** وقولوا لا تدعو غيره لأن الواقع كذلك، فإنّكم

لا تدعون غيره في تلك الحالات **(بل إيّاه تدعون)** وحده، ولا تدعون غيره **(فيكشف)** فيدفع الله تعالى **(ما تدعون إليه)** من البلاء **(إن شاء)** أن يدفعه **(وتنسون)** في تلك الحالات أن تدعو **(ما تشركون)** به، فهذا دليل على أنّ الفطرة فطرت على التّوحيد، وأنّ الانسان في داخل نفسه لا يدعو غير الله، ولا يعتقد في غيره كشف الضّر، أو جلب الخير إلّا أنّ التّقاليد والعادات والمصالح تغيّر الفطرة وتضلّ الإنسان عن الصّراط المستقيم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يلفت أنظار القوم إلى الأمم السّابقة الّذين أهلكوا نتيجة الإنكار والتّكذيب، ويذكّرهم بهم ليعتبروا بهم ويتركوا إنكار الرّسولﷺ؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾

(و) بعزّتي **(لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك)** رسلاً مبشرين ومنذرين فلم يؤمنوا **(فأخذناهم)** فعاقبناهم **(بالبأساء)** أي الفقر الشّديد **(والضّراء)** والأمراض الشّديدة **(لعلّهم يتضرّعون)** لكي يؤمنوا ويتوبوا إلى الله تعالى فلم يتوبوا ولم يؤمنوا، ويدلّ على ذلك قوله تعالى: **(فلولا)** أي هلّا **(إذ)** جاءهم بأسناً عذابنا المذكور **(تضرّعوا)** إلى الله وتابوا، فكان من حقّهم أن يتضرّعوا ويتوبوا **(ولكن قست)** فسدت **(قلوبهم وزيّن لهم الشّيطان ماكانوا يعملون)** من الكفر والمعاصي **(فلمّا نسوا ما ذكّروا)** وعظوا **(به)** من الباساء والضّراء وخوّفوا، إستدرجناهم الإستدراج بأن **(فتحنا عليهم أبواب كلّ شيء)** من النّعم **(حتّى إذا فرحوا)** بطروا وطغوا **(أخذناهم)** عاقبناهم **(بغتةً)** فجأة، ومن حيث لا يشعرون **(فإذا هم مبلسون)** آيسون من كلّ نعمة **(فقطع دابر)** أي أهلك آخر **(القوم الّذين ظلموا)** ولم يبق منهم أحد **(والحمد لله ربّ العالمين)** على هذا الإنتقام الّذي نفّذه في حقّ الظّالمين. وفي هذه الآيات وعد للمؤمنين بقهر أعدائهم، ووعيد للكافرين وتسلية لرسول الله (ﷺ)، وإشارة إلى أنّ إهلاك الظّالمين من أكبر النّعم الّتي يحمد الله تعالى عليها.

روي أنّ رسول الله (ﷺ) قال: إذا رأيت الله يعطي العبد من الدّنيا على معاصيه ما

يجب فإنّما هو إستدراج، ثمّ تلا (ﷺ): ﴿فلمّا نسوا ما ذُكّروا بِهِ ....﴾ إلى آخر الآية[1].

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر دلائل أخرى على وحدتة فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

(**قل**) أيّها السّامع للمشركين (**أرأيتم**) أي أعلمتم (**إن أخذ الله سمعكم**) فأصبحتم صمّاً (**وأبصاركم**) فصرتم عمياً (**وختم على قلوبكم**) فما عرفتم شيئا (**من إله غير الله يأتيكم به**) يرجع لكم بالسّمع والبصر والقلوب (**انظر كيف نصرّف**) أي نبيّن (**الآيات**) أي الدّلائل المتنوّعة على أنّه لا إله غيره (**ثمّ هم**) بعد هذه الدّلائل الّتي لا يبقى معها أيّ مجال للشّك في وحدة الله تعالى (**يصدفون**) يعرضون عن الحقّ ويعودون إلى الشّرك بالشّرك بالله تعالى. (**قل أرأيتم**) أي أخبروني (**إن أتاكم عذاب الله بغتة**) أي بدون مقدّمات وعلامات وفجأة (**أو جهرة**) أي نبّهتم عليه بعلامات ومقدّمات (**هل يهلك إلّا القوم الظّالمون**) الكافرون، فلماذا لا ينجيهم آلهتهم لو صدقوا أنّهم آلهة.

ثمّ إنّ الكفرين كانوا يطلبون من الرّسول (ﷺ) خوارق عادات متنوعة ومعجزات هم يريدونها، ولعلّ الرّسول (ﷺ) كان يحبّ إستجابتهم لإقناعهم حرصاً على إيمانهم، فقال له الله جلّ وعلا:

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ١٤٥ الحديث رقم ١٧٣٤٩.

(وما نرسل) أي وما جعلنا من عادتنا أن نرسل **(المرسلين)** والأنبياء **(إلّا مبشّرين)** بالجنّة لمن آمن واتّقى **(ومنذرين)** بالنّار لمن كفر وعصى وما أرسلناهم ليظهروا الخوارق الكونيّة القاهرة فيأتوا بالنّاس إلى الإيمان بقوّة الخوارق والمعجزات. فإنّ من يأتي إلى الإيمان بقوّة المعجزات لا فضل في إيمانه، بل الفضل لمن يأتي إليه بمنطق العقل والقناعة القلبيّة، وكذلك من يأتي بالخوارق إلى الإيمان لا يوثق بإيمانه، لأنّه لو أظهر له آخر خوارق أخرى ودعاه إلى الإنصراف عمّا التزمه ينصرف فيكون مذبذباً ويتغيّر مع الخوارق، فإنّ بعض بني إسرائيل آمنوا بموسى للخوارق لا للإقتناع العقلي، فلمّا أظهر لهم السّامري خارقة العجل، إنصرف البعض إلى العجل فعبدوه وتركوا دين موسى (عليه السلام)، ولذلك لا نستجيب لك يا محمّد في دعوى الخوارق وما عليك إلّا التّبشير والإنذار، فبشّر وأنذر **(فمن آمن)** بعد تبشيرك وإنذارك **(وأصلح)** حاله وأعماله بإتباع شريعة الله تعالى **(فلا خوف عليهم)** يوم القيامة **(ولا هم يحزنون)** على فوات الدّنيا لأنّهم وجدوا خيراً منها **(والّذين كذّبوا بآياتنا)** الموجودة في القرآن وبالدّلائل العقلية الّتي تظهر لهم على صحّة دعواك للرّسالة وعلى صحّة التّوحيد، وما أنزل إليك من الدّين أولئك **(يمسّهم العذاب)** يوم القيامة **(بما كانوا يفسقون)** يخرجون عن إتّباع أمر الله تعالى وإعتناق دينه وشريعته **(قل)** لهم يا أيّها النّبيّ **(لا أقول لكم عندي خزائن الله)** فأوسع عليكم الرّزق كما تريدون **(ولا أعلم الغيب)** فأخبركم بكلّ ما تريدون **(ولا أقول لكم إنّي ملك)** فلا آكل ولا آشرب ولا أباشر النّساء كما تقترحون علي ذلك فتقولون: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ سورة الفرقان الآية/ ٧ ـ **(إن أتّبع ما يوحي إليّ)** من الله تعالى وبالوحي أعلم الحقّ من الباطل **(قل هل يستوي الأعمى)** الّذي علم ما يوحى ولم يتّبعه **(والبصير)** الّذي علم ما يوحى فاتّبعه **(أفلا تتفكّرون)** فتعلموا المهتدي من الضّال والعالم من الجاهل. هذا وكان الرّسول (صلى الله عليه وآله) يحب أن يهتدي كلّ النّاس، فأعلمه الله تعالى أنّه ليس من دواعي الرّسالة أن يؤمن كلّ أحد، بل هناك من يحبّ الحقّ فيتّبعه ومن لا فيضلّ، ولذا قال تعالى: **(وأنذر به)** أي ويستفيد من إنذارك ويتّبعه **(الّذين يخافون أن يحشروا إلى ربّهم)** ويعلمون أنّه **(ليس لهم)** في ذلك اليوم **(من دونه)** أي من دون إذن الله تعالى **(وليّ)** ينصرهم وينقذهم من عذاب الله تعالى **(ولا شفيع)** يشفع لهم **(لعلّهم يتّقون)** ولعل في كلام الله تعالى للتّحقيق، فالمعنى: أنّ هؤلاء يتّقون ويتّبعون ما تدعو إليهم، وقد فسرنا هكذا لأنّ الإنذار عام لمن يخاف ومن لا يخاف إلّا أنّ الإستفادة خاصّ بمن يخاف، والله تعالى أعلم.

ثمّ كانت طلبات الكافرين من الرّسول أنواعاً: منها أن يوسّع عليهم أرزاقهم، وأن يخبرهم بالغيب، وأن يظهر لهم الخوارق حسبما يريدون، وأن يتجرّد عن الأكل والشّرب ومباشرة النّساء، فردّ الله تعالى عليهم بما سبق من الآيات، وكان من إقتراح بعض صناديد قريش أن يطرد الفقراء الّذين آمنوا لأنّهم يستنكفون أن يجتمعوا معهم في مجلسه، وأن يجالسوهم، فردّ الله تعالى عليهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾

(ولا تطرد) الفقراء **(الّذين يدعون ربّهم)** يذكرونه ويصلّون **(بالغداة والعشيّ)** أي بالصّباح والمساء **(يريدون وجهه)** أي وجه الله تعالى أي رضاءه فلا تطردهم من عندك لطلب الصّناديد، ذلك وربّما كان يقول الصّناديد أنّ هؤلاء الفقراء ليس عندهم إخلاص وإيمان صادق، إنّما أتوا إليك لفقرهم فقال تعالى: **(ما عليك من حسابهم من شيء)** من أنّهم آمنوا قلباً وصدقاً، فالعبرة بالظّاهر فمن آمن يقبل عنه إيمانه ولا يفتّش عما في قلبه **(وما من حسابك)** عليهم من **(شيء)** فلا يسأل أحد عن عمل أحد، فكلّ يؤخذ ويحاسب حسب عمله **(فتطردهم)** أي ليس عليك حسابهم فتحاسبهم على ما في القلوب فتطردهم فتكون بطردهم من **(الظّالمين)** المتجاوزين الحقّ، فإنّ من أتى إلى الإسلام وآمن كيفما كان سيتنفذ الإيمان في قلبه، ويثبت الإخلاص بإذن الله تعالى إلّا من نافق، وهؤلاء يفضحهم الله تعالى فيما بعد، وما كان الرّسول (ﷺ) ليطرد هؤلاء إستجابة لطلب الصّناديد وإن لم ينزل الوحي لعصمته (ﷺ) من الظّلم إلّا أنّه نزلت للتّعبير عن خباثة قلوب هؤلاء الصّناديد وكبريائهم وعن عظمة الإسلام. حيث إنّه لايعتبر بالقوّة

والضّعف، ولا بالغنى والفقر، وإنّما العبرة والفضل في الإيمان والعمل ممن صدر وكيفما كان صاحبه، فإبن الراعي له فضل إن آمن وإبن السّلطان لا قيمة له بدون الإيمان والعمل **(وكذلك)** أي مثل ما ترى من إيمان بعض الفقراء وكفر بعض الصّناديد **(فتنّا)** إمتحنّا **(بعضهم)** وهم الصّناديد **(ببعض)** وهم الفقراء **(ليقولوا)** أي فكان عاقبة هذا الإمتحان أن يقولوا أي الأغنياء **(أهؤلاء)** الفقراء **(من الله عليهم من بيننا)** بالوصول للحقّ، فلو كان حقّاً لهدانا الله تعالى قبل الفقراء لأنّنا أكرم منهم عنده، فردّ الله تعالى عليهم بأن الأكرميّة ليست بالمال ولا بالقوّة ولا بالنّسب والعشيرة، وإنّما الأكرميّة بالقلب الطّاهر والنّفس النّقيّة، فيهتدي هؤلاء لا أصحاب النّفوس الخبيثة. والّذين منّ الله عليهم بالهداية من الفقراء، هم أصحاب قلوب طاهرة ونفوس زكيّة فهداهم لذلك كما قال: **(أليس الله بأعلم بالشّاكرين)** فيهديهم ويمن عليهم، بلى وقد علم الله أنّ هؤلاء شاكرون فمنّ عليهم بالهداية، وهؤلاء غير شاكرين فضلّوا ولم يمنّ الله عليهم. هذا، ثمّ بعد أن نهى الله تعالى الرّسول (ﷺ) عن أن يطرد الفقراء الّذين آمنوا وأن لا يفرّق بين من آمن من الفقراء والأغنياء، أمره أن يقبل من يأتي إلى الإيمان من كان، سواء كان فقيراً أو غنياً قويّاً أو ضعيفاً، وأن لا يفرّق بين أحد فيقبل هذا لا ذاك لإعتبارات؛ فقال جلّ وعلا: **(وإذا جاءك الّذين يؤمنون)** أي يريدون أن يؤمنوا **(بآياتنا)** أي بشريعتنا وديننا **(فقل)** للجميع بدون تفرقة **(سلام عليكم)** وأبشركم بأنّه **(كتب ربكم على نفسه الرّحمة)** بالعباد ورحمته هي **(أنّه من عمل منكم سوءاً)** من قبل **(بجهالة)** بسبب الجهالة فكلّ سوء جهل. وكلّ من **عمل** سوءاً فهو جاهل وإن كان عالماً **(ثمّ تاب)** أي آمن إن كان قبل كافراً، أو تاب من ذنبه إن كان مسلماً فتاب **(من بعده)** بعد العمل السيّئ **(وأصلح)** حاله وأعماله بعد ذلك **(فإنّه)** فإنّ الله **(غفور)** يغفر له ما تقدّم **(رحيم)** ذو رحمة ولرحمته يغفر لا لحاجته إليه أو أمر آخر، وإنما يغفر لمجرد الرحمة بكم. اللّهم فاغفر وارحم وأنت خير الرّاحمين آمين.

(وكذلك) مثل ما علمت **(نفصّل الآيات)** نبيّن الأحكام والحقائق الدّينية والمساواة بين افراد الإنسان لتعملوا بها **(ولتستبين سبيل المجرمين)** أي ليظهر طريقتهم، وذلك بأنّ من لم يطبّق هذه الأحكام، ولم يعمل حسب هذه الحقائق، فهو مجرم، ومن عمل بها فهو صالح، فيتبيّن المجرم من الصّالح والمؤمن من الكافر والمطيع من العاصي، حيث لا علم بذلك إلّا بعد مجيء الشّرع والأحكام.

وكان من إقتراحات الكفّار على رسول الله (ﷺ) **أن** يميل هو إلى دينهم شيئاً مّا،

وهم يميلون إلى دينه بعضاً مّا، ليقاربوا وليرتفع بينهم الخلاف، فخاطب الله رسوله بقوله:

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾

(قل) يا أيّها النّبيّ **(إنّي نهيت)** من الله تعالى **(أن أعبد)** أن أعظّم أو أقدّس الآلهة **(الّذين تدعون)** إياهم آلهة **(من دون الله)** تعالى؛ فإنّ ذلك باطل، أو **(قل)** لهم أيضاً **(لا أتّبع أهواءكم)** فيما تحكمون به وتشرّعونه حسب هواكم **(قد ضللت إذاً)** أي إذا عبدت آلهتكم أو اتّبعت أهواكم **(وما أنا)** إذا فعلت ذلك **(من المهتدين)** الواصلين إلى الحقّ، وكان من إقتراحهم أيضاً تعنتاً وإستهزاءاً أن يأتي العذاب الّذي يخوّفهم به، فقال تعالى: قل لهم **(إنّي على بيّنة)** أي على يقين حصل ذلك اليقين **(من ربّي)** أنّ العذاب الموعود به **(وكذّبتم به)** بالعذاب، وإنّما تستعجلون به تعنتاً وإنكاراً، كما قال تعالى عنهم: (فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ سورة الأعراف الآية/ ٧٠ ـ أي لست صادقاً وإلّا فأت به، يأتيكم إلّا أنّه **(ما عندي)** أي ليس من مقدوري أن آتي **(ما تستعجلون به)** من ذلك العذاب، بل هو بيد الله تعالى، يأتي به كيف شاء ومتى شاء **(إن الحكم)** أي القضاء بالعذاب وبكلّ شيء **(الّا لله)** وحده وأنّه **(يقصّ)** أي يتّبع **(الحقّ)** أي حكمته وتقديره في الأمور، ولا يتبع مطاليب النّاس، فإذا جاء وقت تقديره وتمّت حكمته في العذاب أتى به لا محالة **(وهو خير الفاصلين)** الحاكمين **(قل لو أنّ عندي)** أي لو كان بيدي **(ما تستعجلون به)** من العذاب **(لقضي الأمر)** لأتيت به ولقضي الأمر وانتهى النّزاع **(بيني وبينكم)** واسترحت من مخاصمتكم **(وهو)** أي الله تعالى **(أعلم)** بحال **(الظّالمين)** الّذين يستحقّون تنفيذ العذاب.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّه أعلم من كلّ أحد، أراد أن يفصل علمه الشّامل الّذي ليس لأحد جزء من ملايين ذلك العلم؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩﴾

(وعنده) أي عند الله تعالى **(مفاتح)** والمفاتح إمّا جمع مِفتح بكسر الميم، وهو المفتاح، أو جمع مَفتح بفتح الميم وهو المخزن، أو يراد به الإثنان؛ فإنّه عند الله كلّ مفاتيح ومخازن **(الغيب)** ولا يغيب عليه شيء **(لا يعلمها)** أي لا يعلم تلك المفاتح وتلك المخازن **(إلّا هو)** أي الله تعالى وحده **(ويعلم)** كلّ **(ما)** يوجد **(في البرّ)** وهو غير البحر، فيدخل فيه ما في الجبال والوديان والآكام وداخل الأرض، **(و)** يعلم كلّ ما في **(البحر)** المراد به الماء، فيدخل فيه ما في الأنهر والعيون **(وما تسقط من ورقة)** من غصن من أغصان شجرة كانت **(إلّا يعلمها)** الله تعالى **(و)** لا تسقط من **(حبّة)** من نبات فتقع **(في ظلمات الأرض)** ولا يقع من **(رطب ولا يابس إلّا)** هو مسطور **(في كتاب مبين)** واضح عند الله تعالى، وهو علم الله تعالى، وقيل: هو اللّوح المحفوظ، والأوّل أصحّ في المراد.

ثمّ بعد أن بيّن الله تعالى علمه الشّامل، أراد أن يذكر قدرته الشّاملة أيضاً؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٦٠ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ٦١ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ٦٢﴾

(وهو الّذي يتوفّاكم) أي يأخذ روحكم عند النّوم **(باللّيل)** أي في اللّيل، خصّ اللّيل بالذّكر وإن كان النّوم يكون بالنّهار أيضاً؛ لأنّ غالب النّوم الأصل فيه أن يكون باللّيل **(ويعلم ما جرحتم)** إكتسبتم **(بالنّهار)** من خير أو شر **(ثمّ يبعثكم)** يوقظكم من

النّوم **(فيه)** أي في النّهار وهكذا تنامون وتفقدون **(ليقضى)** إلي أن يقضى أي ينتهى **(أجل)** وقت **(مسمىً)** محدّد لحياتكم وموتكم بعد إنتهاء ذلك الأجل **(ثمّ)** بعد ذلك الأجل والموت **(إليه مرجعكم)** رجوعكم **(ثمّ ينبئكم)** أي يجازيكم بما كنتم **(في الدّنيا تعملون)** إن خيراً فخير وثواب، وإن شرّاً فشرّ وعذاب، إلّا أنّ يحقّ الله أحداً برحمته وهو أرحم الرّاحمين **(وهو القاهر)** أي المتسلّط **(فوق عباده)** كلّهم **(ويرسل عليكم حفظة)** يحفظون ويسجلون أعمالكم **(حتّى إذا جاء أحدكم الموت توفّته)** أي أخذت روحه **(رسلنا)** وهم ملائكة الموت وقبضة الأرواح **(وهم)** أي الحفظة وملائكة الموت **(لا يفرطون)** لا يقصّرون في عملهم، فلا يترك الحفظة عملاً إلّا ويسجّلونه، ولا ملائكة الموت يقصّرون في قبض الأرواح، فيقبضون كلّ من جاء أجله دون تأخير **(ثمّ)** بعد الوفاة يقال للملائكة **(ردّوا)** أرواحهم المقبوضة **(إلى مولاهم)** أي خالقهم **(الحقّ)** فهو يتولّى أمرهم **(له الحكم)** كلّه بعذابهم أو تنعيمهم **(وهو أسرع الحاسبين)** لأعمالهم الّتي بها يستحقّون الثّواب والعقاب.

ثمّ أراد الله تعالى أن ينبّه الإنسان على قدرته وسطوته على العباد بأحوالهم وما يلاقونه في الحياة، فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾

(قل) أيّها الموحّد لمن يشرك بالله تعالى غيره ويرجو منه النفع ويخاف من الضّر **(من ينجّيكم من ظلمات)** أي من مهالك **(البّر والبحر)** هل الله ينجيكم أو من تشركون به حينما **(تدعونه)** أي تدعون الله وحده في ذلك الوقت وتنسون كلّ شريك، وتقولون **(لئن أنجانا)** الله تعالى **(من هذه)** المهالك **(لنكوننّ من الشّاكرين)** لله وحده ولا نشرك به غيره، فإذا لم يجيبوا فأجب أنت و **(قل الله ينجّيكم منها)** من هذه المهالك **(ومن**

كلّ كرب) بلاء سوى ذلك، لأنّ هذا الجواب مسلّم عندهم في قرارة أنفسهم **(ثمّ)** بعد أن أنجاكم الله تعالى ما وقعتم فيه **(أنتم مشركون)** به أليس هذا ضلالاً مبيناً **(قل هو)** أي الله تعالى **(القادر على أن يبعث)** يرسل **(عليكم عذاباً من فوقكم)** أي من السّماء من الصّواعق أو غيرها **(ومن تحت أرجلكم)** أي من الأرض بالخسف أو غيره **(أو يلبسكم)** أي يجعلكم **(شيعاً)** جماعات متفرقة كلّ يعادي الآخر **(ويذيق)** بسبب هذه التّفرقة **(بعضكم بأس)** عذاب **(بعض)** بالقتل والنّهب والحرب الضّروس **(أنظر)** نظر تعجب **(كيف نصرّف)** نبيّن **(الآيات)** الدّلائل المختلفة **(لعلهم يفقهون)** لكي يفقهوا، ولكن لا يفقهون بكلّ هذه الآيات بل **(وكذّب به)** بالقرآن الذي فيه هذه الآيات **(قومك)** من أهل مكّة وغيرهم **(وهو الحقّ)** الّذي لا شكّ فيه **(قل لست عليكم بوكيل)** بمتسلّط فأعاقبكم على تكذيبكم لهذا القرآن، ولكنّ الله تعالى سيعذّبكم وأنّه **(لكلّ نبأ مستقر)** زمان لوقوع ذلك النّبأ **(وسوف تعلمون)** نتيجة تكذيبكم وكيفيّة عذابكم على هذا الإنكار والتّكذيب لما جئت به من القرآن وما فيه من التّوحيد، والأحكام وتندمون في ذلك الوقت وحيث لا ينفع النّدم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر كيفيّة التّعايش للمسلم مع الكافرين فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾

(وإذا رأيت) أي وإذا علمت وسمعت كلام **(الّذين يخوضون في آياتنا)** بالتّكذيب والإستهزاء **(فأعرض)** أيّها المسلم **(عنهم)** واترك مجلسهم واخرج من بينهم، ولا تعد إليهم **(حتّى يخوضوا في حديث)** في كلام آخر (غيره) غير الإستهانة بالقرآن **(وإمّا)** أصله إن ما، وإذا اجتمعت إن و ما فالمتأخّرة منها زائدة، فالتّقدير هنا وإن **(ينسينّك الشّيطان)** أن تخرج فما خرجت ثمّ تذكّرت **(فلا تقعد بعد الذّكرى)** بعد أن تذكّرت **(مع القوم الظّالمين)** بالكفر والإستهزاء بالقرآن. هذا وكأنّ قائلاً يقول: ولماذا يخرج ويترك مجلسهم؟ فهل يعصي هو بكفرهم وإستهزائهم؟ فقال جلّ وعلا: **(وما على الّذين يتّقون)** الإستهزاء والكفر **(من حسابهم)** من ذنبهم وهو الإستهزاء **(من شيء)** حيث ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ سورة الإسراء الآية/ ١٥ ـ ولكن يجب عليهم الخروج من بينهم

(ذكرى) ليكون خروجهم ذكرى أي موعظة وزجراً لهم **(لعلّهم يتّقون)** فيما بعد فلا يستهزئون، وهذا أضعف الأعمال، فإنّ المسلم حينما يسمع المنكر أو يراه يجب عليه أن يصنعه بالقوّة فإن لم يستطع فبالكلام، فإنّ لم يستطع فليكره ذلك وليظهر الإكراه لهم كما قال الرّسول (ﷺ): (من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده فان لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فليكره بقلبه وذلك أضعف الإيمان)[1] أي الأعمال، وهاتان الآيتان تتعلّقان بوقت ضعف الإسلام وشوكته، والأفضل إستخدام القوّة مع من تكلّم واستهزأ بالقرآن أو بأي أمر ديني يقصم ظهره ويلغم فاه بما يكره، هذا وأنّ كلّ مجلس يعمل فيه أي معصيّة يجب الخروج منه وتركه وعدم الجلوس مع الخائضين فيها زجراً وإظهاراً لكراهتهم وإن لم يستطع المنع أيّها المسلم؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

(وذر) واترك أيّها المسلم **(الّذين اتّخذوا دينهم)** الّذي أنزله الله إليهم وأمرهم بالتّديّن به فاتّخذوه **(لعباً ولهواً)** أي باطلاً ولم يقتنعوا **(و)** سبب كفرهم، هذا لأنّه **(وغرّتهم الحياة الدّنيا)** فكلّ ما يكدّر عليهم الحياة ويمنعهم من الشّهوات لا يميلون إليه ويرونه باطلاً، فاتركهم أيّها المسلم حينما لا تستطيع منعهم **(وذكّر)** وعظّم **(به)** القرآن كراهة منك **(أن تبسل)** أي تهلك **(نفس)** أي نفس كانت فإنّ كلّ نفس أخوك في البشريّة ويجب عليك أن ترحمها فتعظها لكي لا تهلك **(بما كسبت)** من المعاصي والكفر **(في يوم)** وهو يوم القيامة **(ليس لها من دون)** الله الّذي هلكه **(وليّ)** ينصره **(ولا شفيع)** يشفع له، فإنّ كلّ شفاعة لا تكون إلّا باذن الله تعالى، وإذا أراد الله تعالى إهلاك نفس فلا يأذن الله بالشّفاعة له **(وإن تعدل)** أي وإن تفدي تلك النّفس المذنبة **(كلّ عدل)** كلّ فداء **(لا يؤخذ منها)** ذلك الفداء **(أولئك)** مبتدأ **(الّذين أبسلوا)** أي أهلكوا **(بما كسبوا)** من الذّنوب، والموصول مع الصّلة صفة لأولئك، وخبر أولئك قوله تعالى: **(لهم)** أي

(١) صحيح مسلم ١/٦٩ الحديث رقم ٤٩.

وجب أو أعد لهم (**شراب من حميم**) ماء حارّ يقطع الأمعاء (**وعذاب أليم بما كانوا**) في الدّنيا (**يكفرون**) ويعادون الإسلام دين الله الحقّ والصّراط المستقيم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يعلم المسلم كيف يناقش ويبرهن على بطلان الإشراك فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣)﴾

(**قل**) أيّها المسلم الموحّد للمشركين (**أندعو**) ذكر بصيغة المتكلّمين مع الغير، مع أنّ الأمر في (قل) لواحد؛ بناء على أنّ المسلم يعبّر عن عقيدته وعن عقيدة جميع المسلمين، ويناقش نيابة عن الجميع فقوله: (قل) خطاب للمسلم لا على اليقين، فيشمل كلّ المسلمين وأمر لهم أن يقولوا (**أندعو من دون الله ما**) قال ما دون من ليشمل كلّ معبود غير الله تعالى من الأصنام والأشخاص وغير ذلك وقوله: (**لا ينفعنا ولا يضرّنا**) صلة لما جيئ بها لإثبات أنّ غير الله لا يستحقّ أن يدعى، فإنّ ما لا ينفع ولا يضرّ كيف يدعى، والدّعاء هنا إما بمعنى العبادة أو النّداء لدفع الضّرر وجلب المنافع، أو كليهما؛ فإنّ الدّعاء بكلّ المعنيين إذا كان لغير الله تعالى فهو شرك، فالعبادة يجب أن تكون لمن ينفع ويضرّ بالذّات لا كسباً، وهو الله تعالى، والنّداء أيضاً يجب أن يكون موجّهاً إلى من ينفع أو يضرّ بالذّات، وهو الله تعالى لاغيره (**ونردّ**) عطف على ندعو أي أنردّ؟ والاستفهام في كليهما للإنكار، أي لا ندعو ولا نرد (على **أعقابنا**) إلى الشّرك (**بعد إذ هدانا الله**) إلى التّوحيد (**كالّذي استهوته**) أخذته (**الشّياطين**) مردة الجنّ وألقته في هوة (**في الأرض حيران**) صيغة المبالغة للحائر أي حائراً لا يدري أين يذهب (**له أصحاب**) رفقة (**يدعونه إلى الهدى**) إلى طريق الرّشد ويقولون له (**إئتنا**) فعندنا الهداية والطّريق الموصل إلى المقصود، وهم المؤمنون إلّا أنّه لا يلتفت إليهم (**قل**) أيّها المسلم

للمشركين أيضاً (**إنّ هدى الله**) الذي أنزله إلينا (**هو الهدى**) وكلّ ما سواه ضلال؛ وذلك الهدى هو الإسلام (**وأمرنا**) في ذلك الهدى (**لنسلم لربّ العالمين**) وحده ولا نشرك به شيئاً (**وأن**) أي وأمرنا (**أن أقيموا الصّلاة واتّقوه**) أي اتّقوا ربّ العالمين فلا تخالفوه ولا تنحرفوا عن حكمه وشريعته (**وهو الّذي إليه تحشرون**) فيحاسبكم على أعمالكم ولا تحشرون إلى أحد سواه؛ فإذاً هو الحقيق بالعبادة والتّقوى (**وهو الّذي خلق السّماوات والأرض بالحقّ**) أي بالحكمة لا بالعبث، والعبث هو أن يخلق الكون والنّاس، ولا يضع لهم نظاماً يعملون به ويتركهم سدى وفوضى، ومن كان كذلك فنظامه هو الحقّ بالإتباع، وما سواه باطل، وكذلك من له هذه القدرة الّتي خلق بها هذا الكون، لا يحتاج إلى شريك ولا يقبله (**و**) خلق الله السّماوات والأرض (**يوم**) لم يكن شيء منهما موجوداً بل كان الله تعالى (**يقول**) لأي شيء أراد كونه (**كن فيكون**) فوراً (**قوله**) أي أمره الّذي يتحقق به كلّ شيء أراده هو (**الحقّ**) وهذه إشارة إلى أنّ بدا الخلق بأمره وتصرّفه. ثمّ أراد الله أن يشير إلى أنّ المعاد أيضاً كلّه بأمره وتقديره؛ فقال جلّ وعلا: (**وله**) أو لله وحده (**الملك**) كلّ التّصرفات من الحساب والثّواب والعقاب (**يوم ينفخ في الصّور**) لحشر النّاس (**عالم الغيب**) أي ما عمله النّاس في الغيب وخفيةً (**والشّهادة**) ما عملوه جهراً وعلانيةً، وحسب علمه هذا يحاسبهم (**وهو الحكيم**) الّذي يحاسب النّاس وفق حكمته (**الخبير**) بأحوالهم وأعمالهم كلّها، ووفق علمه هذا وحكمته هذه يحاسبهم ويجازيهم.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى هذه الدّلائل على وحدة الله وعلى بطلان الشّرك وعبادة غيره تعالى، أراد أن يذكر لهم أنّ إبراهيم (عليه السلام) كان موحّداً وأنّه كيف أثبت حقيقة التّوحيد وبطلان عبادة غير الله؛ وذلك لأنّ كلّ الملل يؤمنون بإبراهيم (عليه السلام) ويعتزّون به، فلينهجوا منهجه وليتركوا الإشراك إن كانوا يصدّقون في الإعتزاز بابراهيم (عليه السلام) فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ

يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾

(وإذ) أي واذكر للمشركين **(إذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتّخذ أصناماً آلهةً)** تعبدهم وتعتقد فيهم أنّهم ينفعون أو يضرّون فتعبدهم وتتقرّب إليهم وتذبح لهم النّذور والقرابين وتدعو بهم للنّفع ودفع المضرّات **(إنّي أراك)** يا أبت **(وقومك)** الّذين هم على عقيدتك هذه **(من الضّالين)** عن الحقّ والصّراط المستقيم هذا. وقد كان قوم إبراهيم (عليه السلام) يعرفون الله تعالى ويؤمنون به، إلّا أنّهم اتّخذوا غيره من الأصنام والنّجوم والقمر والشّمس آلهة إعتقدوا فيهم النّفع والضّرر والتّأثير، ولذلك كانوا يعبدونهم ويقدّمون لهم القرابين، وينذرون لهم النّذور ويخافون ضرّهم ويرجون نفعهم؛ فيدعونهم لدفع المضارّ وجلب المنافع، فأوّل ما فكّر ابراهيم (عليه السلام) فكّر في الأصنام، فرأى أنّها جمادات لا تنفع ولا تضرّ، وأنّها من مصنوع النّاس فكيف يعبد النّاس ما يصنعونه بأيديهم، وليس له حياة ولا نطق ولا كلام ولا قدرة، فعلم أنّ هذه الأصنام ليست بآلهة، وأنّ عبادتها باطلة وصارح بذلك أباه **(وكذلك)** أي ومثل ما أرينا إبراهيم (عليه السلام) بطلان ألوهيّة الأصنام جعلنا **(نري إبراهيم ملكوت)** صيغة مبالغة من الملك أي ملك **(السّماوات والأرض)** ونوجّه بفكره إلى ما في السّماوات والأرض كلّها؛ ليعرف به الإله الحقيقيّ **(ونريه ذلك كلّه ليكون من الموقنين)** بما يستحقّ الألوهيّة فوجّه إبراهيم (عليه السلام) فكره بعد أن تيقّن بطلان ألوهيّة الأصنام، وجّه فكره إلى النّجوم ليعلم هل هي آلهة؟ كما يدّعي ذلك قومه **(فلمّا جنّ)** أظلم **(عليه اللّيل رأى كوكباً)** جنس يشمل كلّ الكواكب والنّجوم **(قال هذا ربّي)** قال: إستفهاماً أو دعوى ليستدل على حقيقته أو بطلانه لا إعترافاً[١]، وتصديقاً.

---

(١) اتبع إبراهيم (عليه السلام) أسلوبا استقرائيا للوصول بالقوم إلى التوحيد، والإستقراء هو عرض الجزئيات وبحثها للوصول عن طريقها إلى قاعدة عامّة. فافترض عن طريق السّؤال والإستفسار جدلا وافتراضا أن يكون النّجم إلها ثم أبطله لجريان التغيّر عليه وهو الأفون الدّالّ على الحدوث؛ فأثبت أنّه حادث أي مخلوق غير خالق، واتّبع الأسلوب نفسه بالنّسبة إلى القمر والشّمس حتّى إذا انتهى إلى أنّ جميع ماحوله ممّا يراه كلّها حوادث، بدليل حدوث أبرزها عند النّاس من الكواكب والقمر والشّمس، فأعلن (عليه السلام) أنّ الإله الخالق=

(**فلمّا أفل**) غاب الكوكب وعرف أنّه مسيّر ومتسلّط عليه قوّة أفهم منه وتدبّره فلذلك علم أنّه ليس بإله و (**قال لا أحبّ الآفلين**) ولا أعبدهم ولا أعتقد فيهم ألوهيّة (**فلمّا رأى القمر**) بعد الكواكب (**بازغاً**) طالعاً (**قال هذا ربّي فلمّا أفل**) وعلم أنّه مسيّر أيضاً (**قال لئن لم يهدني ربّي**) إلى الحقّ (**لأكوننّ من القوم الضّالين**) المنحرفين عن الحقّ والصّراط المستقيم (**فلمّا رأى الشّمس بازغةً**) طالعةً (**قال هذا ربّي هذا أكبر**) من الكلّ فلو صلح شيء من هذه الأشياء للألوهيّة لصلح هذا لأنّه أكبر من الكلّ (**فلمّا أفلت**) غربت علم أنّها مسيّرة ومسخّرة، فعلم أنّ ألوهيّة هذه الأشياء كلّها باطلة، وإنّما الألوهيّة لله الّذي أوجد هذه الأشياء كلّها، فصارح بذلك قومه (**فقال ياقوم إنّي بريء ممّا**) من كلّ (**ماتشركون**) إياه مع الله تعالى في الألوهيّة والعبادة؛ فلا أعبد شيئاً من ذلك بل (**إنّي وجهت وجهي للّذي**) لعبادة الّذي (**فطر السّماوات والأرض**) وهذه الكواكب والقمر والشّمس كلّها (**حنيفاً**) أي مائلاً عن باطلكم الّذي أنتم عليه إلى الحقّ الّذي وصلت إليه (**وما أنا من المشركين**) بالله شيئاً من ما تشركونه وتعبدونه من دون الله تعالى، وبهذا أظهر إبراهيم (عليه السلام) توحيده وتبرأ من الشّرك والمشركين جميعاً، فكونوا أيّها المعتزّون بإبراهيم (عليه السلام) مثله واتّخذوا منهجه وارجعوا إلى التّوحيد إن كنتم صادقين في الاعتزاز بإبراهيم (عليه السلام) والإيمان به.

ثمّ لمّا صارح إبراهيم (عليه السلام) قومه بالتّوحيد ونفى ألوهيّة تلك الآلهة الّتي كانوا يعبدونها دون الله تعالى، أصبح قومه يجادلونه في ذلك؛ فقال تعالى جلّ وعلا حكاية عن ذلك:

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ

= ماوراء ذلك وهو الله تعالى القائم الدّائم الّذي لا تجري عليه الحوادث، بل هو الّذي يوجد الحوادث ويخلق كلّ شيء المعبّر عنه بالّذي فطر السّماوات والأرض... وهو أسلوب ليّن رائع يورث التّفكر والإذعان، وهو أولى من أسلوب الجدل والمناظرة الّذي يورث العناد والمكابرة. / انظر تفسير الطبري ٧/ ٢٥٠ و البيضاوي ٢/ ٤٢٣. إذ فيهما مضمون ما يدلّ على ما قلته إشارة.

سُلْطَٰنًا فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

(وحاجّه) أي وجادل إبراهيم (ﷺ) **(قومه)** وأرادوا أن يصرفوه عن التّوحيد ونفي الآلهة بالدّلائل، فلم يستطيعوا، وغلبهم في الإحتجاج **(قال أتحاجّوني)** أتجادلونني في توحيد الله تعالى **(وقد هدان)** أصله هداني حذفت الياء للتّخفيف أي وقد هداني الله وأوصلني إلى التّوحيد بتلك الدّلائل الّتي ذكرتها لكم، وكان ضمن مجادلتهم إيّاه أنّهم خوّفوه بأنّ الآلهة الّتي رفضها وترك عبادتها ستغضب عليه وتبليه بالبلايا والمصائب والنّكبات فقال: **(ولا أخاف ما)** الّذي **(تشركون به)** أي بالله وتعتقدون أنّه شريك له من أن يصيبني بضرر أو بلاء، فلا أنال ضرراً ولا بلاءً **(إلّا أن يشاء الله)** ذلك، حيث لا ضرر ولا نفع إلّا من الله تعالى **(وسع ربّي كلّ شيء علماً)** تمييز محوّل عن الفاعل فالتّقدير: وسع علم ربّي كلّ شيء **(أفلا تتذكّرون)** تتفكّرون فتفرّقوا بين من يقدر ومن لا يقدر، فتخافوا من الله تعالى فقط ولا تخافوا من غيره **(وكيف أخاف ما أشركتم)** الآلهة الّتي أشركتم إياها مع الله تعالى، وهي عاجزة عن كلّ شيء **(ولا تخافون)** أنتم من الله تعالى أن يصيبكم بعذابه على **(أنّكم أشركتم بالله ما)** شركاء **(لم ينزّل به عليكم سلطاناً)** أي دليلاً وحجةً تحتجّون بها لا من العقل ولا من النّقل، بل العقل والنّقل ينفي ذلك الشّرك **(فأيّ الفريقين)** من الموحّدين والمشركين **(أحقّ بالأمن)** من العذاب والبلايا أجيبوني **(إن كنتم تعلمون)** ذلك. وحيث إنّهم لم يجيبوا لأنّهم علموا بضلالهم إلّا أنّهم لم يعترفوا تعنتاً وعناداً فأجاب إبراهيم (ﷺ) عن ذلك فقال: **(الّذين آمنوا)** بالله **(ولم يلبسوا)** ولم يخلطوا **(إيمانهم بظلم)** أي بشرك **(أولئك لهم الأمن)** من العذاب فقط **(وأولئك هم المهتدون)** فحسب. روى البخاري ومسلم أنّه لما نزلت هذه الآية شقّ على المسلمين وقالوا: وهل فينا من لا يظلم نفسه، أي لا يعصي؟ فقال رسول الله (ﷺ): ليس ذلك، أي ليس المراد بالظّلم المعصية، إنّما هو أي المراد بالظّلم هنا الشرك[1]

---

(١) عن عبد الله (ﷺ) قال:لما نزلت (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) قلنا يا رسول الله! أينا لا يظلم نفسه؟ قال: ليس كما تقولون (ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) بشرك، أو لم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه: (يابني=

(وتلك) الحجج الّتي رأيتها (**حجّتنا**) دلائلنا الّتي (**آتيناها**) علّمناها إبراهيم (ﷺ) (**على قومه**) فغلبهم بها (**نرفع درجات**) كثيرةً من العلم والعقل والهداية (**من نشاء**) أن نرفعه (**إنّ ربّك حكيم**) يعلم من يشاء لحكمة في القول والعمل (**عليم**) يعلم من يشاء ما يشاء من العلم.

تذكـرة: حينما رأيت محاجّة سيّدنا إبراهيم (ﷺ) لقومه، وأنّهم كانوا يخافون من الآلهة أكثر من الله تعالى، تذكّرت ما كانت عادة ولا يزال عادة متّبعة في ديارنا، وهي أنّ النّاس يضعون أشياء على المشاهد ومقابر الصّالحين، ويعتقدون أن صاحب القبر أمين على تلك الأشياء ويحفظها من أن يأخذها النّاس، وإنّ من أخذها فإنّ صاحب القبر يعميه أو يأخذ ولده أو إلى آخر ما يتوهّمونه، وبالفعل إنّ النّاس يخافون صاحب القبور ولا يأخذون ما وضع عند قبره مخافة منه، ولو وضع نفس الشّيء في مكان آخر غير القبور لأخذه النّاس ولم يبق منه شيء، ولم يكونوا يخافون من أنّ هذا حرام وأنّ الله يعذّبهم على إقتراف هذا الحرام وأكل أموال النّاس بالباطل، والّذي نهى الله تعالى عنه، فرأيت أنّ هذه العقيدة نفس عقيدة قوم إبراهيم (ﷺ) ويخافون من سلطة غير الله الغيبية ولا يخافون من سطوة الله تعالى، وهذا الوضع بحاجة إلى شخص مثل إبراهيم (ﷺ) يحاجهم ويصارحهم بالحقّ ولا يخاف لومة لائم.

* * *

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أنّه أنعم على إبراهيم (ﷺ) جزاء لما اعتنقه من التّوحيد والإخلاص لله تعالى، ومكافحته المشركين وجهاده المتواصل ضدّ الإشراك فقال جلّ وعلا:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ

= لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم)؟ / صحيح البخاري ٣/ ١٢٢٦ الحديث رقم ٣١٨١، صحيح مسلم ١/ ١١٤ الحديث رقم ١٢٤. واللفظ للبخاري.

﴿وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾

(ووهبنا له) لإبراهيم (عليه السلام) جزاء على توصيته وصموده ضدّ الباطل **(إسحاق)** إبناً له **(ويعقوب)** إبناً **(لإسحاق)** وحفيداً لإبراهيم (عليه السلام) **(كلّاً)** من إبراهيم وإسحاق ويعقوب (عليه السلام) **(هدينا)** هم إلى الحقّ من التّوحيد والحكم بشريعته الله تعالى **(ونوحاً هدينا من قبل)** أي من قبل إبراهيم (عليه السلام) إلى التّوحيد ومكافحة الإشراك والمشركين **(ومن ذريّته)** الضّمير لنوح لأمرين:

الأوّل: أنّه إذا دار الضّمير بين القريب والبعيد وصلح لكلّ منهما فإرجاعه إلى القريب أولى.

الثّاني: إنّ لوطاً ليس من ذريّة إبراهيم (عليه السلام) بل هو ابن اخيه، وقال بعضهم راجع إلى إبراهيم (عليه السلام) لأنّ الكلام سيق لأجل الإمتنان عليه وبيان جزاء الله له، وذكر لوطاً من ذريّته تغليباً والتّغليب معمول به في القرآن، قال تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ سورة البقرة الآية/ ١٣٣ ـ وإسماعيل لم يكن من آباء يعقوب بل كان عمه فذكر مع الآباء تغليباً.

(داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك) مثل ما جزينا إبراهيم بهذه الذّرية الطيّبة **(نجزي المحسنين)** كلّهم على إحسانهم، ولا يلزم أن يكون جزاء كلّ المحسنين بنوع واحد؛ فكلّ محسن يجزي إمّا بمثل جزاء أمثاله أو بنوع آخر، فإنّ من المحسنين من خلف ذريّة غير صالحة، كما قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ ـ سورة مريم الآية/ ٥٩ ـ وهدينا من ذريّته أيضا **(زكريّا ويحيى وعيسى وإلياس كلٌّ)** من هؤلاء الأربعة أو كلّ منهم، وممّا سبق ذكرهم **(من الصّالحين)**، واستدل العلماء بهذه الآية على أنّ ابن بنت الشّخص هو من ذريّته، لأنّ عيسى ابن مريم قد جعل من ذريّة إبراهيم وهو ابن بنته لا ابن إبنه، حيث لا أب له. وجعلوا لذلك دليلاً على أنّ أولاد سيدتنا فاطمة (رضي الله عنها) من أولاد الرّسول (صلى الله عليه وسلم) ولا أعتقد أنّ هذا الإستدلال صحيح لوجوه:

الأوّل: أنّ هذه الإضافة من إختصاص عيسى (عليه السلام) لأنّه لم يكن له أب، فمن لم يكن له أب يكون من ذريّة أب الأم.

الثّاني: إنّ العرب قالوا:

بنونا بنوا أبنائنا وبناتنا بنوهنّ أبناء الرّجال الأباعد.

الثّالث: قوله تعالى ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ فلو جعلنا أولاد فاطمة أولاداً له لخالفنا الآية.

الرّابع: لو كان أولاد البنت ذريّة لما سمّى الكافرون الرّسول أبتر أي مقطوع النّسل، ولمّا حزن الرّسول بذلك، فيحتاج إلى أن يسليه الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)﴾ سورة الكوثر.

الخامس: لو اعتبر أولاد سيّدتنا فاطمة من ذريّة الرّسول، ومن أحفاده وأولاده لما طالب عباس الإرث من الرّسول؛ لأنّ العمّ يسقط بالولد وكان عليّ (رضي الله عنه) يحتجّ عليه بأنّه محجوب بالأولاد، وإن أريد الأولاد غير أولاد الصّلب فلا شكّ في ذلك فإنّهم من ذوي الأرحام له (ﷺ).

(و) أيضاً (**إسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً**) من هؤلاء وممن سبق ذكرهم (**فضلنا**) إيّاهم (**على العالمين**) كلّ على عالم زمانه، ولا يلزم تفضيل الشّخص على نفسه فافهم (**و**) هدينا (من **آبائهم**) أي المذكورين (**وذريّاتهم وإخوانهم أناساً كثيرين واجتبيناهم**) للرّسالة أو النّبوة (**وهديناهم إلى صراط مستقيم**) وهو دين الله تعالى ولا يكون قوله تعالى: وهديناهم تكراراً، لأنّ معناه وثبّتناهم على صراط مستقيم الّذي هديناهم إليه والله تعالى أعلم، اللّهم إهدنا الصّراط المستقيم وثبّتنا عليه آمين يا رب.

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٨٨) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ (٨٩) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ (٩٠)﴾

(ذلك) التّوحيد والدّين الّذي كان عليه هؤلاء الأنبياء (**هدى الله**) وحده وما سواه ضلالة ومن الشّيطان (**يهدي**) الله تعالى (**به**) بذلك الهدى (**من يشاء من عباده**) وهم الّذين يحبّون الحقّ ويسعون للوصول إليه (**ولو أشركوا**) أي ولو أشرك هؤلاء الأنبياء مع جلالة قدرهم ورفعة شأنهم (**لحبط**) أي لهلك وبطل (**عنهم**) عن إفادتهم (**ما كانوا**

يعملون) من العبادات والإحسان، فإنّ كلّ عمل لا ينفع مع الإشراك بالله تعالى أو الكفر به أو برسول الوقت **(أولئك)** الأنبياء الّذين ذكروا هم **(الّذين آتيناهم الكتاب والحكم والنّبوة فإن يكفر بها هؤلاء)** أي لهذه الأشياء من حكم الله فلم يعلموا به، والكتاب فلم يطبقّوه والنّبوة فلم يتّبعوا من اتّصف بها، فلا تحزن لأنّهم هم الّذين يخسرون، وإن طريقة الله تعالى لا تخسر ولا تبقي مهملاً حيث **(فقد وكّلنا بها)** بالإيمان بهذه الأمور وبك يا محمّد **(قوماً ليسوا بها)** بتلك الأمور وبك **(بكافرين)** بل يؤمنون ويدافعون ويكافحون في سبيلها بكلّ غال ورخيص، ففي كلّ زمان تجد قوماً متمسّكين بالإسلام،ويضحّون في سبيله إلى يوم القيامة، فالإسلام باق وإنّما الخذلان لمن لا ينضم ولا يتبعه**(أولئك)** الأنبياء هم **(الّذين هدى الله)** إياهم **(فبهداهم)** فبطريقتهم من التّوحيد والصّبر والشّكر والثّبات على الدّعوة والمضيّ فيها **(اقتده)** أيّها النّبيّ وأيّها المسلم الدّاعي إلى الإسلام **(قل)** أيّها النّبيّ ويا أيّها الدّاعي إلى الإسلام، قل للّذين يتكاسلون عن الإسلام، مخافة أن تطلب منهم المال أو المنفعة، قل لهم **(لا أسألكم عليه)** على الإسلام والدّخول فيه **(أجراً)** أي أجراً وعوضا عن التّبليغ **(إن هو)** أي القرآن دعوة عامة **(إلّا ذكرى للعالمين)** كلّهم لا القوم دون قوم أو شعب دون شعب أو زمان دون زمان، بل إنّ الإسلام دين الله الخالد، وأنزل من الله تعالى للنّاس كافة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ سورة سبأ الآية/ ٣٤ ـ.

تنبيهات: الأوّل: إنّ هذه الآية تفيد أنّ الرّسول (ﷺ) كان أفضل الرّسل لأنّ الله تعالى أمره بالإقتداء بالرّسل كافّة، وأنّه معصوم من عدم إمتثال الأمر (فاقتدِ بهم) فاتّصف بفضائل الكلّ كصبر أيّوب وشكر سليمان وجهاد داود وزهد يحيى وعيسى وغير ذلك، فأجمع فيه فضائل الكلّ فهو أفضلهم.

الثّاني: إنّه من علامة إخلاص الدّعاة والدّاعية إلى الإسلام أن لا يطلب من جرّاء دعوته أجراً، ولا يجمع في طلبها مالاً، ولا يرجو من ورائها جاهاً ولا سلطاناً، وإنّ هذا هو من صفة الصّادقين في كلّ دعوة، وقد كان كلّ المرسلين (على نبّينا وعليهم الصّلاة والسلام) يعلنون للنّاس أنّهم لا يريدون من تبليغهم مالاً ولا أجراً ولا منفعة منهم، قائلين لهم ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ سورة الشّعراء الآية/ ١٠٩ ـ وإن نبيّنا داود(عليه السلام) بعد أن صار له الملك والدّولة كان يعيش من كسب يده ومن صنعه للدّروع ونبيّنا محمّد (عليه السلام) أتى إلى عمه أبي طالب جماعة من قريش وقالوا له: إنّ ابن أخيك قد سبّ آلهتنا وسفّه أحلامنا، فافصل بيننا وبينه، فإن كان يريد

مالاً جمعنا له حتّى يكون أثرى النّاس في مكّة، وإن أراد سلطاناً ملّكناه علينا، وإن أراد النّساء زوّجناه أحسن بناتنا، وإن كان به مرض جمعنا له الأطباء وعالجناه، فعرض ذلك أبو طالب على رسول الله (ﷺ) فقال: ياعمّاه والله لو وضعت الشّمس في يميني والقمر في يساري لما تركت هذا أو أهلك دونه[1]. ثمّ نراه حينما شكّل دولة الإسلام وأمره الله تعالى أن يجمع الزّكاة والصّدقات حرّم ذلك على نفسه وعلى أقربائه لكي لا ينتفع هو وأقرباؤه من هذه الدّعوة، ولئلّا يلتصق بالدّعوة تهمة المال والأطماع، ولتبقى الدّعوة دون أجر وانتفاع منها، وكان رزقه ومعيشته كفافاً لم يدخر يوماً من الأيام درهماً ولا ديناراً، وتوفي ودرعه كان مرهوناً في مقابل دين، رغم أنّه لو أراد أن يجمع المال لجمعه إلى أن يصير أغنى النّاس، فإنّه في حين أنّه كان نبيّاً كان رئيس دولة، وما أسهل لرئيس الدّولة أن يجمع المال ويدّخره إن أراد ذلك، وهكذا كان الرّسول (ﷺ) وقد نهج الخلفاء الرّاشدون منهجه، والعلماء العاملون مسلكه، وبهذا نشروا هذا الدّين فلم يجمعوا ولا ادّخروا درهماً ولا ديناراً من جراء دعوتهم وقيامهم بأمر الدّين، بل عاشوا كفافاً وماتوا خفافاً، هذا وإنّ من علامة الدّعاة غير الصّادقين في دعوتهم أنّهم يتّخذون الدّعوة والارشاد وسيلة لجمع حطام الدّنيا، ويعيشون في أترف حياة ويجمعون الأموال ويدّخرونها، كلّ ذلك على حساب الدّعوة والإرشاد، وقد ذكر الرّسول هؤلاء بأنّهم يأكلون الدّنيا بالدّين، وأنذرهم بأنّ لهم يوم القيامة أشّد العذاب.

الثّالث: إنّ الله تعالى سمّى القرآن هنا ذكرى وفي بعض الآيات ذكراً وفي بعضها تذكرة، وذلك للإعلام بأنّ كلّ ما في القرآن من العقائد والأحكام إنّما هو ذكر، والذّكر عبارة عن تنبيه الإنسان على شيء كان يعلمه إلّا أنّه غفل عنه لسبب ما، ونبّه بذلك على أنّ كلّ ما في القرآن من عقائد وأحكام وأخلاق ونصائح ليس شيئاً غريباً عن الإنسان وفطرته، بل كلّ ذلك موافق للفطرة وللعقل السّليم يدركه العاقل بأدنى التفات أو تنبيه عليه.فالقرآن جاء لإيقاظ الضّمائر الحيّة وتحريك العقول السّليمة وتنبيهها على

---

(١) هنا دمج الشيخ رحمه الله تعالى بين قصتين: قصة عرض الملك والمال والنساء عليه من قبل عتبة بن ربيعة ليترك الدعوة إلى الإسلام فلم يفعل (ﷺ) وقرأ عليه سورة فصلت وقصة تهديد أبي طالب بالحرب معه من قبل قريش إن لم يمنع ابن أخيه مما يدعو إليه فكلمه أبو طالب فقال (ﷺ) مقولته: (لو وضعوا الشمس في يميني...الخ) / أنظر السيرة الحلبية ١/ ٣٣٨ و١/ ٤٨٧.فإن عبارة (لو وضعوا الشمس في يميني...) في الثاني لا فيما ذكرها الشيخ.

ماغفلت عنه بسبب غلبة التّقاليد أو العادات أو الرّغبات أو الشّهوات أو المصالح أو خوف أو طمع في المنافع الوقتيّة أو غير ذلك، فالسّبب في عدم إيمان بعض النّاس بالقرآن أو الإسلام ليس لبعده أو خفائه أو غموضه لأيّ العقول والأذهان، ولا لعدم ظهوره حقيته وصدقه أو مجانبته للحقّ أو بعده عن فطرة الإنسان وعقله، بل إنّما ذلك لواحد من هذه الأمور الآتية:

الأمر الأوّل: العادات والتّقاليد الّتي إستورثوها من الآباء والأجداد ولا يستطيعون التّحرر منها، أو يستنكفون أن يخرجوا منها، وهؤلاء ذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ فرد الله تعالى عليهم فقال: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ سورة البقرة الآية/ ١٧٠ ـ .

الأمر الثّاني: التكبّر والإستعلاء الّذي سيطر على بعض النّاس، فمنهم من اتّبع صاحب الدّعوة محمّد(ﷺ) أو من بعده من الدّعاة إلى الإسلام، وهؤلاء مثل أهل مكّة الّذين ذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ سورة الزّخرف الآية/ ٣١ ـ أي على رجل عظيم من إحدى القريتين مكة أو الطّائف فاستنكفوا أن يتّبعوا محمّداً لأنّه لم يكن من عظائهم.

الأمر الثّالث: المنافسة القبليّة أو المنافرة العنصريّة، وذلك مثل أبي جهل إذ قال تسابقنا نحن وبنو هاشم حتّى أصبحنا كفرسي رهان، ثمّ تنبؤوا فهل نستطيع أن نتنبأ؟ والله لا أتّبعه أي لا أتّبع محمّداً؛ إذ هو من بني هاشم المتنافسين معنا.

الأمر الرّابع: الخوف من ضياع الرّياسة أو بعض المصالح الّتي يجدها بعض من طريق الضّلالة والمبادئ الفاسدة، وهؤلاء مثل أحبار ورهبان النّصارى واليهود فإنّهم لم يؤمنوا بمحمّد وغيّروا ما في التّوراة من الأمر بالإيمان به ومن ذكر أوصافه والبشارة بمجيئه؛ لما كانوا يجدون من رياستهم الرّوحيّة منافع ومصالح دنيويّة عن البقاء على دينهم المنسوخ وعقيدتهم المحرّفة والباطلة.

الأمر الخامس: الجهل والغباوة الّتي سيطرت على عقول بعض النّاس فلا تسمع للحقّ ولا تستسيغه، وهؤلاء ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ سورة البقرة الآية/ ١٧١ ـ.

الأمر السّادس: سيطرة بعض السّادة والكبراء على النّاس وإضلالهم لهم، لجلب

منافع ومصالح ومصّ دمائهم وأموالهم، وتسخيرهم في سبيل بقاء زعامتهم وسلطتهم الدّينية أو الدّنيوية، وهؤلاء مثل الّذين ذكرهم الله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ سورة الأحزاب الآيتان/ ٦٦،٦٧. وهناك أمور أخرى ولكن ترجع كلّها إلى هذه الأمور فإنّها الأمور الأساسّية والله تعالى أعلم.

التّنبيه الرّابع: دلّ قوله تعالى (فبهداهم اقتده) على أنّ دين الله تعالى من الأزل إلى الأبد، واحد وأنّ لكلّ الأنبياء والمرسلين دين واحد، وإنّما جاء المرسلون لأنّ النّاس غيّروا دينهم وحرّفوه، فجاء الأنبياء والمرسلون تترى لإعادة الحقّ إلى نصابه ولتطهير الدّين مما لصق به من خبث العقائد وأباطيل الأحكام، وهذا ما أفاده قوله تعالى بالتّفصيل: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي ثمّ اختلفوا ولذلك ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ سورة البقرة الآية/ ٢١٣ ـ.

التّنبيه الخامس: قوله تعالى: ﴿فبهداهم اقتده﴾ معناه إقتدِ بهم في مكارم ومحامد الصّفات والتّوحيد والعقائد وأمّهات الأحكام فلا ينا في ذلك أن يخالف بعض أحكامه أحكامهم بدليل ما قال عيسى (عليه السلام) لبني اسرائيل ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ سورة آل عمران الآية/ ٥٠، فالمراد بوحدة دين الرسل وحدته في العقائد ومكارم الأخلاق وأمهات الأحكام لا في كلّ الفروع والجزئيّات.

التّنبيه السّادس: ذكر تعالى أولئك الأنبياء وأنّهم كلّهم على طريقة واحدة، وجاء الرّسول على طريقتهم وأنّ الكافرين كانوا يعترفون بهؤلاء كلّهم، فلماذا لا يؤمنون بالرّسول الّذي جاء بما جاء به.

* * *

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حال الكافرين عموماً وضلالهم وناقشهم، أراد أن يذكر حالاً من أحوال اليهود خاصة لأنّها أفحش الأحوال وأظهر في الضّلالة فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾

(وما قدروا) أي وما عظّموا الله تعالى حقّ تعظيمه، حيث يكذبون عليه **(إذ قالوا)** أي اليهود لك أيّها النّبي **(وما أنزل الله على بشر)** قط **(من شيء)** من الوحي أو الكتب فكيف تقول يا محمّد أنزل الله عليَّ الكتاب؟ **(قل لهم)** إذا أنتم تذكرون نزول شيء من الله على أحد فاذاً **(من)** الّذي **(أنزل الكتاب)** أي التّوراة **(الّذي)** جاء به موسى نوراً يهتدي به إلى طريق الحياة **(وهدى للنّاس)** يهتدي به إلى الحقّ **(تجعلونه)** أي تكتبونه **(قراطيس)** أجزاء **(تبدونها)** لأنّها تفيدكم **(وتخفون كثيراً)** منها مما لا يوافق هواكم **(وعلمتم)** بالتّوارة **(ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم)** ممّن أنزل هذا الكتاب الّذي تؤمنون به فحيث لا يجيبونك خجلاً ولأنّهم أفحموا فأنت **(قل)** أنزله **(الله)** تعالى **(ثمّ ذرهم)** ولا تناقشهم واتركهم **(في خوضهم)** باطلهم **(يلعبون)** وهذا كان إشارة إلى أنّ أمرهم مؤقت حيث سمّي لعباً واللّعب مؤقت والله تعالى أعلم.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾

(و) كما أنزلنا التوارة على موسى نوراً وهدى فنزل على غيره الكتب أيضاً **(وهذا)** القرآن الذي ترونه **(أنزلناه)** نحن على محمّد وهو **(مبارك مصدق الّذي بين يديه)** من التّوارة والإنجيل، فإنّه كان في التّوراة والإنجيل البشارة بمجيء الرّسول محمّد(ﷺ) ونزول القرآن عليه، فمجيء القرآن تصديق لهما، وكذلك القرآن يصدّقهما ويوافقهما في التّوحيد والعقائد والأحكام المهمة **(و)** أنزلنا إليك القرآن **(لتنذر به)** أهل **(أمّ القرى)** وهي مكّة سمّيت بذلك لأنّها كانت كعاصمة للجزيرة العربيّة، أو لأنّها خلقت وسكن فيها النّاس بعد نزول آدم قبل كلّ قرية، ومنها تشعبّت القرى والمدن[1] **(ولتنذر)** به **(أمّ**

(١) لعل سبب تسمية مكة أم القرى هو كونها مركز الارض، فقد أثبتت الدراسات الحديثة أن مكة المكرمة هي مركز الأرض وقلبها، فهو مركز التّجمع الإشعاي للتّجاذب المغناطيس، لذلك ينجذب إليها قلوب النّاس، =

القرى ومن حولها) فمن حولها يشمل أهل الأرض كلّها لأنّ الأرض كروية فأي نقطة تعين وباقي أجزاء الأرض كلّها تكون حولها، فدعوة الرّسول عامّة **(والّذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به)** أي بالقرآن ومن أنزل عليه وهو محمّد (ﷺ).

سؤال: ماهي الملازمة بين الإيمان بالآخرة والإيمان بالقرآن؟

الجواب: قال المفسّرون وجوها شتّى لم يدخل ما رأيته في خلدي، حيث لم أر فيما ذكروا إثبات الملازمة، والّذي أراه أنّ هذا وارد في حقّ اليهود والنّصارى وبعض مشركي العرب الّذين علموا من التّوارة والإنجيل والأخبار وبقيّة دين إسماعيل وإبراهيم (ﷺ) أنّ محمّداً سيرسل وينزل عليه القرآن، وأمروا بأن يؤمنوا به وأنذروا بالعذاب يوم القيامة إن لم يؤمنوا، وهؤلاء كان فيهم من لا يؤمن بالآخرة فلا يخاف من عدم الإيمان بمحمّد (ﷺ)، ومنهم من يؤمن بالآخرة فيؤمن إمتثالاً لما في التّوارة والإنجيل وخوفاً من عذاب الآخرة، ومنهم من يؤمن بالآخرة إيماناً لا يردّهم عن الجرائم حيث كانوا يقولون ﴿لن تمسّنا النّار إلّا أيّاماً معدودة﴾.

* * *

وعلى هذا قال تعالى: **(والّذين يؤمنون بالآخرة)** إيماناً يردعهم عن الضّلال والجرائم **(يؤمنون به)** أي بالقرآن لأنّهم يعرفون أنّه حق وأنّ الكافر به سيعذّب بالنّار يوم القيامة ويخلد فيها **(وهم على صلاتهم يحافظون)** أي ويستمرّون بالإسلام ويؤمنون به على أداء واجباته كلّها، وإنّما خصّ الصّلاة بالذّكر لأنّها أفضل العبادات كلّها، ولأنّ من صلّى حقّ الصّلاة فلا يترك أمراً إلّا أتى به ولا نهياً إلّا وابتعد عنه، فإنّ الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، وأمّا الّذين لا يؤمنون بالآخرة لا يؤمنون بالقرآن، وإن علموا أنّه الحقّ لأنّه لا باعث يبعثه على الإيمان ولا رادع له عن الكفر سيّما وإنّ هواه يميل إلى الكفر رعاية لمصالحه أو منافعه أو تقاليده، أو ميلاً إلى الشّهوات أو لغير ذلك من الأسباب.

= من هنا اتّخذت قبلة في الصّلاة، لأنّ جرينتش اتّخذ مقياسا لذلك بناء على أساس سياسي لا على أساس علمي، لذلك يجب أن تتخذ مكة أساسا لقياس الوقت بدل جرينتش، وأن يبدأ اليوم الأوّل من الشهر الهلالي منه، لا من مكان آخر غيره.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

(ومن أظلم) الإستفهام للإنكار أي لا تجد أحداً أظلم **(فمن افترى على الله كذباً)** مثل هؤلاء اليهود وغيرهم الّذين قالوا أو يقولون: **(ما أنزل الله على بشر من شيء)** فينكرون الرّسالة والنّبوة ويريدون بذلك التّخلص من حكم الله، وليحكموا حسب هواهم **(أو)** فمن **(قال أوحى إليّ)** كمسيلمة الكذّاب، والّذين ادعوا النّبوة ويدّعونه كذباً حيث **(ولم يوح إليه شيء)** من الله تعالى **(و)** من **(من قال سأنزل مثل ما أنزل الله)** على محمّد (ﷺ) وذلك مثل عبدالله بن أبي سرح القريشي أسلم وأصبح كاتباً للرّسول محمّد (ﷺ) وقد أملى عليه النّبي محمّد (ﷺ): ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ سورة المؤمنون الآيات/١٣،١٤،١٥. فجرى على لسان عبدالله، فقال النّبيّ محمّد (ﷺ): اكتبها فكذلك نزلت، فشكّ عبدالله وقال: إن كان محمّد صادقاً فقد أوحي إليّ مثل ما أوحي إليه، وإن كان كاذباً فقد قال مثل ما قلته، فارتدّ ولحق بمكّة، ومثل النّضر بن الحارث كان يقول: سأنزل مثل ما أنزل الله على محمّد، ويقول: والطّاحنات طحناً والعاجنات عجناً فالخابزات خبزاً، ويعارض بذلك القرآن. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّ هؤلاء أظلم النّاس أراد أن يذكر عذابهم والإنتقام منهم فقال: **(ولو ترى)** أيّها المخاطب **(إذ الظّالمون)** أمثال هؤلاء يقعون **(في غمرات الموت)** وسكراته **(و)** في ذلك الحال **(الملائكة باسطوا أيديهم)** إليهم لقبض أرواحهم ويقولون لهم: **(أخرجوا أنفسكم)** أرواحكم تبكيتاً لهم وزجراً ثمّ يقولون لهم: **(اليوم تجزون عذاب**

الهون) أي الإهانة والتّحقير **(بما)** بسبب **(ما كنتم تقولون على الله غير الحقّ)** مثل: أنّه لم ينزل على بشر من شيء أو أوحي إليّ أو سأنزل مثل ما أنزل الله تعالى وبسبب ما **(كنتم عن آياته)** أي عن أحكام الله تستكبرون فلا تؤمنون بها ولا تطبّقونها أو إلى غير ذلك من مخالفة النّاس لأحكام الله تعالى وشريعته. اللّهم فاحفظنا برحمتك يا أرحم الرّاحمين. ثمّ بعد ذلك عرضوا على الله تعالى فقال تعالى لهم: **(و)** بعزّتي **(لقد جئتمونا فرادى)** جمع فريد أي رجعتم إلينا منفردين عن المال والقوّة والجاه وكلّ من كان تأملون فيه النّصر والمعونة **(كما خلقناكم أول مرّة)** لا تملكون شيئاً **(وتركتم ما خوّلناكم)** من المال والقوّة والجاه والأولاد والأقارب **(وراء ظهوركم)** لم يأت معكم شيء من ذلك **(وما نرى معكم شفعاءكم)** الّذين ظننتم أنّهم يشفعون وينجونكم من العذاب اليوم، والّذين ظننتم **(أنّهم فيكم)** أي في ألوهيّتهم لكم **(شركاء)** الله تعالى **(لقد تقطّع بينكم)** برفع النّون يكون البين بمعنى الوصلة، أي تقطّعت صلتكم، وبفتح النّون أي وقع التّقطيع والإنفصال بينكم **(وضلّ)** أي غاب **(عنكم ما كنتم تزعمون)** من أنّهم ينقذونكم ويشفعون لكم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر دلائل على وجوده ووحدته فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾

(إنّ الله فالق الحبّ) يفتّته و يشقّه ليخرج منه النّبات **(والنّوى)** يفتّته فيخرج منه الشّجر **(يخرج الحيّ)** وهو النّبات والشّجر والحيوان **(من الميّت)** وهو الحبّ والنّوى والنّطفة **(ومخرج الميّت)** وهو الحبّ والنّوى والنّطفة **(من الحيّ)** وهو النّبات والشّجر والحيوان. وهذا الصّنع مستمر ومشاهد ومحسوس، والّذي يقول: أنّ هذه صنع الطّبيعة نقول: فمن الّذي أوجد هذا المعمل وهذه الطّبيعة فتعمل هذا العمل باستمرار **(ذلك)** الذي يخلق هذا الخلق **(الله)** دون شكّ فهو الحقيق بالعبادة والإطاعة وهو الإله لاغيره **(فأنّى تؤفكون)** تصرفون فتعتقدون في غيره الألوهية زوراً وبهتاناً **(فالق الإصباح)** أي خالق الصّبح بأن يفلق ظلمة اللّيل فيخرجه منها **(وجاعل اللّيل سكناً)** أي وقتاً للسّكونة

والرّاحة بأن جعله مظلا ماً لا يمنع التّحرك فيه للعمل (**و**) جعل (**الشّمس والقمر حسباناً**) يحسب بهما الأوقات، فبالقمر يعرف الشّهور والسّنوات وبالشّمس يعرف الفصول الأربعة، أو بالقمر يعرف الشّهور القمريّة وبالشّمس يعرف الشّهور الشّمسيّة (**ذلك**) الصّنع والتّقدير هو (**تقدير العزيز**) أي من له القدرة كاملة لا يعجز عن شيء لأنّه لا يمكن أن يوحّد هذا النّظام إلّا بصنع من له هذه القدرة (**العليم**) الّذي له العلم الشّامل؛ إذ من شرط كلّ صفة العلم بها والقدرة عليها، وهذا النّظام أبدع وأعظم مما يتصوّر فلا يوجد إلّا من صانع لا يتصوّر كنه قدرته وحدود علمه (**وهو الّذي جعل**) أي خلق (**لكم النّجوم**) والكواكب (**لتهتدوا بها**) إلى الأماكن والجهات فتسترشدون بها (**في ظلمات البرّ**) وهي الصحاري (**والبحر قد فصّلنا**) أي ذكرنا (**الآيات**) مفصّلة، لكن لا تفيد هذه الآيات إلّا (**لقوم يعلمون**) وعندهم حبّ العلم والتّفكير، وهنا إشارة إلى أنّ من لم يهتد لهذه الآيات إلى وجود الله وقدرته الشّاملة وعلمه ووحدته فلا علم له حقيقة مهما بلغ من الثّقافة والعلوم.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى دلائل قدرته من الآفاق أراد أن يذكر الدّلائل من الأنفس فقال جلّ وعلا:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾

(**وهو الّذي أنشأكم**) أي أوجدكم (**من نفس واحدة**) هي نفس آدم (عليه السلام) (**فمستقرّ**) أي فلكم حالات، فحالة إستقرار وهي حالة كونكم في أصلاب الآباء (**ومستودع**) وهي حالة الإستيداع في أرحام الأمّهات، ثمّ الإستقرار في الأرض، ثمّ الإستيداع في البرزخ، ثمّ الإستقرار يوم القيامة (**قد فصّلنا**) للنّاس (**الآيات**) الدّالة على قدرة الله وعلمه الشّاملين، ولكن لا تفيد هذه الآيات إلّا (**لقوم يفقهون**) المدلولات من الدّلائل.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر دلائل قدرته وعلمه فيما به قوام الإنسان وحياته، من نعم الله الّتي أنعم بها على عباده فقال جلّ وعلا:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ

أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

(**وهو**) أي الله (**الّذي أنزل من السّماء**) أي من العلوّ وهو السّحاب العالي على الأرض (**ماءً**) وهو المطر (**فأخرجنا به**) بذلك المطر وإمتصاص الأرض له (**نبات كلّ شيء**) يحتاج إليه الإنسان والحيوان والطّير والحشرات (**فأخرجنا منه**) أي من ذلك النّبات (**خضراً**) شيئاً أخضر (**نخرج منه**) من ذلك الأخضر (**حبّاً متراكباً**) ركب بعضها على بعض (**ومن النّخل**) جنس يشمل كلّ أشجار النّخل يخرج (**من طلعها قنوان**) جمع قنو، وهو من التّمر كالعنقود ومن العنب (**دانية**) قريبة بعضها من بعض أو غير دانية، حذف للقرينة وأخرجنا بالماء أيضاً (**جنّات من أعناب**) جمع عنب جمع لكثرة أصنافها وأخرجنا أيضاً (**الزّيتون والرّمان مشتبهاً**) بعضها مع بعض (**وغير متشابه**) في اللّون والطّعم أو المقدار (**أنظروا إلى ثمره**) أي إلى ثمر ما ذكر (**إذا أثمر**) أي أول ما يثمر كيف يخرج الثّمر ضعيفاً، ثمّ ينمو شيئا فشيئا وانظروا (**إلى ينعه**) إلى نضوجه في اللّذة والزّينة والمنافع الّتي فيها (**إنّ ذلكم**) المذكور من النّبات والنّخيل والثّمار (**لآيات**) تدلّ على وجود الله تعالى وقدرته ووحدته، إلّا أنّ تلك الآيات لا تفيد إلّا (**لقوم يؤمنون**) يحبّون الإطّلاع على الحقّ والإيمان به، وأمّا من كان همّه إشباع بطنه وشهوته فقط، فهو كالأنعام بل أضلّ سبيلاً.

توضيح: ذكر الله تعالى أنظمة كثيرة يحتويها نظام الكون العام، وذلك كنظام خروج الحيّ من الميّت، والميّت من الحيّ باستمرار الأوقات والأزمان، ونظام إخراج نور الصّباح من ظلام اللّيل، والإتيان بظلام اللّيل على هذا الصّباح، وايقاف الشّمس والقمر في هذا الفضاء الواسع وتسييرها على نسق دقيق يحدث بذلك اللّيل والنّهار والشّهور والسّنوات، ويعرف بذلك النّاس حساب أمورهم ومعاملاتهم، ونظام توالد الأنساب ومروره بأطوار الإيداع والإقرار، ونظام نزول الثّلوج والأمطار، ونظام خلق النّباتات والأشجار والحبوب والثّمار، فكلّ نظام من هذه الأنظمة لو فكّر الإنسان فيها لآمن واقتنع بأنّ هذا النّظام فضلاً عن النّظام العام الّذي يحتوي على هذه الأنظمة كلّها، لا يمكن وجوده بدون صانع حكيم له قدرة لا يتصور مداها، وله علم لا يحيط به العقل والتّفكير؛ فيؤمن بوجود الله تعالى، ثمّ يعلم أنّ من له هذا العلم وهذه القدرة لا يقبل

شريكاً ولا يتّخذه، فإنّ الشّريك إنّما يكون للعاجز عن عمله أو جاهل في أمره؛ فيؤمن بأنّ الله غنيّ عن كلّ شريك ومثيل، ولكنّ هذه الآيات لا تغيب عن الكلّ، بحيث يمكنهم الوصول إلى الحقّ فيعقل ويفقه، ومن لا فلا يفيده كلّ شيء؛ لأنّه لا يريد في الحياة إلّا ما يشبع بطنه أو يقضي به شهوته، وهؤلاء قال الشّاعر فيهم:

رأيت أناسا يرون الحياة أكلاً وشرباً فقلت لهم تبّاً لما سلكتموه تبّاً

ومع هذه الدّلائل كلّها ترى المشركين يجهلون أو يتجاهلون، فيشركون بالله تعالى كما قال تعالى جلّ وعلا:

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾

(وجعلوا) أي ومع هذه الدّلائل الواضحة الّتي تدلّ على نزاهة الله تعالى من الشّركاء والولد **(جعلوا)** أي الكافرون **(لله)** متعلّق بشركاء، أي جعلوا واعتقدوا وجود آلهة شركاء لله **(الجنّ)** بيان للشركاء، فبعضهم اعتقدوا أنّ الجنّ شركاء لله ينفعون ويضرّون ويعلمون الغيب فيستعينون بهم **(وخلقهم)** أي والحال أنّ الله خلقهم أي الجنّ والمخلوق كيف يكون شريكاً للخالق **(وخرقوا)** أي وبعض الكافرين خرقوا أي اختلقوا **(له)** لله تعالى **(بنين)** كاليهود والنّصارى يقولون: نحن أبناء الله، ويقول اليهود أيضاً: عزير ابن الله، ويقول النّصارى: عيسى ابن الله تعالى **(وبنات)** أي بعضهم نسبوا إلى الله تعالى بنات، وهم بعض المشركين يقولون: أنّ الملائكة بنات الله تعالى، ويفعلون كلّ ذلك **(بغير علم)** بذلك حيث لا وجود لما قالوا ليعلموا **(سبحانه)** أي تنزّه الله تعالى تنزهه **(وتعالى عمّا يصفون)** إيّاه به منها الشّركاء والبنين والبنات. ثمّ أراد الله تعالى أنْ يستدل على نفي الشّريك والولد على ذاته بأدلّة: الأوّل قوله **(بديع)** أي مبدع **(السّماوات والأرض)** أي خلقهما بدون مثال سابق لهما، وهذا يدلّ على كمال قدرته وشمولها، ومن له هذه القدرة لا يحتاج إلى شريك ولا إلى ولد المثال، قوله **(أنّى)** أي كيف؟ والإستفهام للإستبعاد والإستحالة، أي من المحال أنّه **(يكون له ولد)** لأنّ من شرط الولد للشّخص أن يكون له زوجة يباشرها **(ولم تكن له)** لله **(صاحبة)** حيث لا يماثله شيء

ليتزاوج معه **(وخلق كلّ شيء)** فكلّ شيء مخلوقه، والمخلوق لا يكون لا شريكاً للخالق ولا ولداً ولا صاحبة له **(وهو بكلّ شيء عليم)** فمن كان له هذا العلم الشّامل، وتلك القدرة العظيمة، فهو غنيّ عن كلّ ما نسب إليه، لأنّ **كلّ** ما نسب إليه من الشّريك والولد إنّما يكون للمحتاج، وهو أغنى الأغنياء عن كلّ شيء بل كلّ شيء محتاج إليه. ثمّ بعد أن ذكر تعالى صفاته هذه قال: **(ذلكم)** الموصوف بهذه الصّفات والمتميّز بها تميز المشار إليه هو **(الله ربّكم)** لاغيره **(لا إله)** لا معبود بحقّ **(إلّا هو)** فكلّ ما تعبدونه سواه باطل لأنّه هو **(خالق كلّ شيء)** فهو خالقكم لا غيره، وإنّما يستحقّ العبادة الخالق **(فاعبدوه)** وحده إذاً ولا تعبدوا غيره، وإذا عدلتم عن طاعته وعبادته لخوف أو طمع فذلك خطأ جداً حيث **(وهو)** أي الله على كلّ شيء من النّفع والضّرر وغير ذلك **(وكيل)** حفيظ، فكلّ شيء بيده فلا خوف إلّا منه، ولا طمع إلّا في رحمته، فلا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ولا رادّ لما قضى إلّا هو.

ثمّ بعد أن عيّن الله تعالى ذاته بالصّفات في الآية السّابقة أشار إليه لتعيّنه بهذه الصفات كتعيّن المشاهد المحسوس، كأنّ قائلاً يقول: لماذا لم يعيّن الله تعالى ذاته بالحسّ والمشاهدة والعيان؟ فقال جلّ وعلا:

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾

والمعنى أنّ ذات الله تعالى هو بحيث **(لا تدركه الأبصار)** فيعيّن ويعلم وجوده بالمشاهدة والعيان، وإنّما يعرف ويعلم وجوده بالصّفات وآثار الصّفات من مصنوعاته وتقديراته وقضائه وتدبيره للأمور، والتّبديل والتّغيير والخلق والإيجاد **(وهو)** أي الله تعالى **(يدرك الأبصار وهو اللّطيف)** فلذلك لا تدركه الأبصار **(الخبير)** فهو يدرك الأبصار كلّها.

مسألة في رؤية الله تعالى: قال أهل السّنة والجماعة إنّ رؤية الله تعالى في الدّنيا والآخرة جائزةٌ عقلاً وثابتةٌ في يوم القيامة نقلاً، وقال المعتزلة والمرجئة والخوارج أنّها ممتنعةٌ عقلاً وغير ثابتة نقلاً، ولكلّ من الجانبين أدّلته العقلية والنّقلية، فأمّا دليل أهل السّنة العقلي فهو أنّه لا خلاف في أنّ الأجسام والأعراض ترى، فلابدّ أن يكون متعلّق الرؤية شيئاً مشتركاً بينهما، ولا شيء يشترك فيه الأجسام والأعراض،لأنّ يكون متعلّق الرؤية إلّا الوجود، والله تعالى متّصف بالوجود أيضاً، فيصحّ أن يرى عقلاً، فإن قيل: لعلّ أن يكون متعلّق الرّؤية في الأجسام والأعراض الإمكان أو الحدوث، والله تعالى لا

يتّصف بهما قلنا: إنّ الإمكان عبارة عن الوجود غير الواجب، والحدوث عن الوجود بعد العدم، فقد دخل في تصريف كليهما العدم، والعدم لا يصحّ أن يكون الشّيء الوجودي، فبقي في كليهما الوجود فقط. ليصحّ أن يكون متعلّقاً للرّؤية فثبت المطلوب، ولكنّ هذا الدّليل إنّما يتمّ إذا لم يكن هناك مانع من رؤية الله تعالى، فإنّه من القاعدة أنّه، إذا أجتمع المقتضي والمانع فالحكم للمانع، وكذلك يقال لعلّ أن يكون عدم وجوب الوجود شرطاً لصّحة الرؤية، فهذا الدّليل لا يفيد القطع، بل الظّن فقط، والكلام في القطع وإلّا فالظّن لا يجدي نفعاً.وأما الدّليل النّقلي الّذي تشبّث به أهل السّنة والجماعة في الرّؤية فآيات هي:

١- قوله تعالى جلّ وعلا: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربّها ناظرة﴾ أي إلى ذات ربّها ناظرة، ولا يخفى أنّ هذه الآية ليست نصّاً في الرّؤية لأنّه يحتمل أنّ معناها إلى رحمة ربّها ناظرة، أي منتظرة، ويؤيّد هذا المعنى أنّ هذه الآية واردة في الحشر، وحين إستلام النّاس الكتب وتلاوتها، فالمؤمنون ينتظرون رحمة الله تعالى، لما يجدون في كتبهم صالح أعمالهم، والكافرون يحزنون لما يجدون في كتبهم قبائح أعمالهم وعقائدهم، كما قال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ والرّؤية تكون في الجنّة لا في الحشر، فلا يتمّ الإستدلال بهذه الآية إلّا إذا قيل بالرّؤية في الحشر أيضاً وأثبت ذلك، وسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى.

٢- قال تعالى في سورة المطفّفين ﴿كَلّا إِنَّهُمْ﴾ أي الكافرون ﴿عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة (لَمَحْجوبون) فإنّ الله تعالى ذمّ الكافرين بأنّهم يوم القيامة عن رؤية ربّهم لمحجوبون، وإنّما يكون ذلك ذمّاً لهم إذا كانت الرؤية ممكنة وثابتة لغيرهم، إلّا أنّهم محجوبون حرموا منها لكفرهم، هذا ولا يخفى أنّ هذه الآية لا تكون نصّاً في ذلك أيضاً؛ لأنّه يحتمل أن يكون المراد عن رحمة ربّهم لمحجوبون لا عن رؤيته، فلا تكون مفيدة لثبوت الرّؤية لغيرهم، بل تفيد ثبوت الرّحمة لغيرهم ولا خلاف في ذلك. سيّما وأنّ الآية تخبر عن يوم الحشر لا عن وقت الجنة، بدليل ما يأتي بعدها من قوله تعالى: ﴿ثمّ إِنَّهُمْ لَصالُوا الْجَحيم﴾ والرّؤية الّتي يتكلّمون فيها هي في الجنّة وأمّا في الحشر فيأتي الكلام عنها إن شاء الله تعالى.

٣- هذه الآية فإنّ قوله ﴿لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ﴾ وردّ التّمدّح بها، وإنّما يكون التّمدّح لو كانت الرّؤية ممكنة، إلّا أنّه حجب بعظمته عن الأبصار، وهذا أيضاً لا يكون قطعاً

فإنّه يمكن أن يكون قوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ﴾ لبيان حقيقة الحال، وأنّ ذاته مما لا تدرك لا للتّمدح، ثمّ أنّ الآية تنفي الإدراك لا الرؤية فتفيد التّمدّح بعدم الإدراك لا عدم الرّؤية، والإدراك غير الرّؤية كما يأتي أنّ أهل السّنة يقولون ذلك.

٤ ـ سأل سيّدنا موسى (عليه السلام) ربّه أن يريه ذاته فقال: ﴿ربِّ أَرِني أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ سورة الأعراف الآية/ ١٤٣ ـ فلو لم تكن الرّؤية جائزة لما طلبها موسى؛ لأنّه يجب أن يعرف النّبيّ ماهو واجب أو ممتنع في حقّ الله تعالى. ويمكن الجواب عن هذا بأنّ الواجب أن يعرف ماهو الواجب من صفات الكمال وممتنع من صفات النّقص، وأمّا جميع الصّفات والّتي لا توجب ثبوتها كمالاً ولا نقصاً، وكذا عدمها فيمكن أن لا يعرفها النّبيّ، ويدلّ ذلك أنّ سيّدنا إبراهيم (عليه السلام) طلب المغفرة لأبيه ولم يعلم أنّ الله لا يغفر لمن أشرك به، أو يقال أنّ النّبيّ يعلم ما يجب ويمتنع ويجوز بعد تعليم الله إيّاه، وموسى لم يعلم ذلك إلى أن قال تعالى: ﴿لَنْ تَرانِي﴾ وبما حرّرنا تبيّن أنّه لا دليل في القرآن يفيد القطع بإمكان الرّؤية أو ثبوتها.وأمّا القائلون بعدم جواز الرّؤية فاستدلّوا أيضاً بالعقل والنّقل، أمّا بالعقل فقالوا: لأنّ من شرط الرّؤية أن يكون بين الرّائي والمريء مسافة معيّنة لا بالقريب جداً ولا بالبعيد جداً، وأن يخرج شعاع من العين ويتّصل بالمريء، وأن يكون المريء في جهة وأن لا يكون حجب بين الرّائي والمريء، وهذه الشّروط كلّها من صفات الأجسام، فلا توجد في الله تعالى، فلا يمكن رؤيته، وهذا الكلام باطل، لأنّ هذه الشّروط كلّها أسباب إعتيادية وشروط وضعية يجوز لله تعالى أن يبدلّها لمن أراد أن يراه في الدّنيا وأن يزيلها في الآخرة، كما تزال الأسباب المعتادة في الدّنيا يوم القيامة؛ فلا تنهض هذا دليلاً على عدم إمكان الرّؤية.وأمّا بالنّقل فتشبّثوا بهذه الآية وقالوا: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ نصّ على أنّه لا يرى، ولا يخفى أنّ الآية تنفي الإدراك ولا تنفي الرّؤية، وفرق بين الرّؤية والإدراك، لأنّ الإدراك الإحاطة بالشّيء ومعرفة حقيقته، والرّؤية غير ذلك، فلا دلالة في الآية على نفي إمكان الرّؤية، فتبيّن بما حرّرنا أنّه لا توجد لا في العقل ولا في القرآن ما يفيد القطع بإمكان الرّؤية وثبوتها، ولا ما يفيد القطع بنفيهما، ولكنّ الرّؤية يوم القيامة في الجنّة تثبت بالأحاديث الصّحيحة الّتي لا تحتمل تأويلاً ولا خفاءً ولا غموضاً في إثبات ذلك.

١ ـ عن جرير بن عبدالله قال كنّا جلوساً عند النّبيّ محمّد (صلى الله عليه وسلم) فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: (إنّكم ستعرضون على ربّكم فترونه كما ترون هذا القمر لا تضامّون في

رؤيته، فإن استطعتم ألّا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشّمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا، ثمّ قرأ: وسبّح بحمد ربّك قبل طلوع الشّمس وقبل الغروب) قال في التّاج رواه الأربعة، أي البخاري ومسلم وأبو داود والتّرمذي[1] .٢- عن عبدالله بن قيس عن النّبيّ (ﷺ) قال: جنّتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنّتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربّهم إلّا رداء الكبرياء على وجهه في جنّة عدن)[2] قال في التّاج رواه الشّيخان، هذا وإنّ هذا الحجاب سيكشف كمايأتي في الحديث الآتي.

٣ ـ عن صهيب (رضي الله عنه) أنّ النّبيّ (ﷺ) تلا هذه الآية ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ ثمّ قال: إذا دخل أهل الجنّة، الجنّة يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنّة وتنجينا من النّار؟ قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحبّ إليهم من النّظر إلى ربّهم عزّ وجلّ) قال في التّاج: رواه مسلم والترمذي[3].

فبهذه الأحاديث ثبتت رؤيته تعالى في الجنّة، وإذا ثبتت رؤيته ثبت الإمكان لأنّ غير الممكن لا يقع، وإذا ثبت إمكان الرّؤية ووقوعها في الآخرة ثبت إمكانها في الدّنيا أيضاً، لأنّه لا فرق في الإمكان بالنّسبة إلى الدّنيا والآخرة، فالممكن ممكن فيهما والمحال محال في الدّارين، وأمّا وقوع الرّؤية في الدّنيا فلم يثبت لأحد، وبالنّسبة للرّسول (ﷺ) إختلف الأصحاب، فبعضهم يقولون: إنّه رآه في المعراج، وبعضهم ينفون ذلك والله تعالى أعلم. هذا وقد وقع بعض الجهلة في الكفر والإلحاد بحجة أنّهم لا يؤمنون بما لا يرى ولا يدرك، وفي نفس الوقت نراهم يؤمنون بأشياء لا ترى، وذلك مثل الذّرة وتيار الكهرباء والبروتون والنيوترون وغير ذلك، ولم يروا شيئاً من ذلك، فليس كلّ ما لا يدرك لا يوجد، وإلّا للزم القول بعدم وجود كثير من الأشياء الّتي أجمع على وجودها العقلاء جميعاً وقد قيل قديماً:

قل للّذي يدّعي في العلم فلسفة حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء

(١) صحيح البخاري ١/ ٢٠٣ الحديث رقم ٤٥٦٠، صحيح مسلم ١/ ٤٣٩ الحديث رقم ٦٣٣، سنن أبي داود ٤/ ٢٣٣ الحديث رقم ٤٧٢٩، سنن الترمذي ٤/ ٦٧٨ الحديث رقم ٢٥٥١.

(٢) صحيح البخاري ٤/ ١٨٤٨ الحديث رقم ٤٥٩٧، صحيح مسلم ١/ ٢٦٣ الحديث رقم ١٨٠.

(٣) صحيح مسلم ١/ ١٦٣ الحديث ١٨١، سنن الترمذي ٥/ ٢٨٦ الحديث رقم ٣١٠٥.

وأمّا رؤية الله تعالى في المحشر ويوم الحساب فهناك حديث يحتملها وهو أنّه قيل لإبن عمر(رضي الله عنهما) كيف سمعت رسول الله (ﷺ) يقول في النّجوى؟ قال: سمعته يقول: يدنو أحدكم من ربّه حتى يضع كنفه عليه فيقول: أعملت كذا وكذا؟ فيقول: نعم، ويقول: أعملت كذا وكذا؟ فيقول: نعم، فيقرّره ثمّ يقول: سترت عليك في الدّنيا وأنا أغفرها لك اليوم، ثمّ يعطى صحيفة حسناته، وأمّا الكفّار، فينادى على رؤوس الأشهاد هؤلاء الّذين كذبوا على ربّهم، ألا لعنة الله على الظّالمين) وقال في التّاج: رواه الشّيخان[١] فهذا الحديث يحتمل الرّؤية وعدمها والله تعالى أعلم.

* * *

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى هذه الدلائل على وجوده ووحدته وقدرته، أظهر وأعلن إستغناءه عن إيمان النّاس له وتوحيدهم وغير ذلك فقال جلّ وعلا:

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

(قد) أي قل يا أيّها النّبيّ **(جاءكم بصائر)** أي حجج **(من ربكم)** هي تثبت الحقّ وتكون سبباً للعلم والإقتناع كالبصائر، جمع بصيرة، وهي ما يبصر ويرى به الشّيء **(فمن أبصر)** أي أقتنع وآمن **(فلنفسه)** المنفعة ولا ينفع الله ورسوله شيئاً **(ومن عمي)** عنها أي ضلّ عنها كما يضلّ الأعمى عن الطّريق **(فعليها)** على نفسه الوبال والضّرر ولا يضرّ الله ورسوله شيئاً **(وما أنا عليكم بحفيظ)** أي رقيب؛ فأحاسبكم وأعاقبكم على ضلالكم، وإنّما ذلك إلى الله تعالى **(وكذلك)** ومثل ما رأيت **(نصرّف الآيات)** أي نذكر الدّلائل متنوّعة ومتغيّرة **(وليقولوا)** اللّام لام العاقبة، فالمعنى: إنّ عاقبة هذه الدّلائل أنّ الكافرين يقولون: **(درست)** أي تعلّمت هذه الأقوال من الكتب السّابقة **(ولنبيّنه)** أي الحقّ والهدى لقوم **(يعلمون)** يحبّون العلم بالحقّ ليتّبعوه ويحتاجون إلى البيان، فبيّنا لهم ليتّبعوه فاتّبعوه هذا.

---

(١) صحيح البخاري٢/ ٨٦٢ الحديث رقم ٢٣٠٩، ٤/ ٢١٢٠ الحديث رقم ٢٧٦٨.

ثمّ بعد هذه البصائر والدّلائل إزداد عمى الكافرين وضلالهم؛ فضاق بذلك قلب الرّسول (ﷺ) فقال تعالى مسليّاً له:

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾

(اتّبع) أنت يا أيّها النّبيّ **(ما أوحي إليك من ربّك)** من القرآن وما فيه من العقائد والتّوحيد والأحكام، أي دم على إتّباعك له **(لا إله الاّ هو)** فهو يهدي ويضلّ، وليس عليك إلّا التّبليغ **(وأعرض عن المشركين)** ولا تتعرّض لهم بالقوّة ولا تحزن عليهم، حيث لا يضرّ شركهم إلّا أنفسهم **(ولو شاء الله)** أن يجبرهم على التّوحيد **(ما أشركوا)** ولكنّ الله تعالى لا يجبر أحداً على الحقّ أو الباطل، وإنّما يبيّن لهم الحقّ ثمّ يجعل الإختيار في أيديهم، فمن اختاره فله الفضل والثّواب، ومن لا فعليه الخزي والعذاب **(وما جعلناك عليهم حفيظاً)** مراقباً فتحاسبهم، بل الحساب عند الله تعالى **(وما أنت عليهم بوكيل)** فليس بيدك إجبارهم على الحقّ وهدايتهم بالقوّة وإنّما عليك البلاغ والإنذار والتّبشير، وقد فعلت ذلك ودم عليه دون توان. هذا وكان المسلمون حينما يناقشون المشركين يأخذهم الحماس والغيرة على الحقّ فيحملهم هذا الحماس على أن يسبّوا آلهة المشركين، والمشركون وإن كانوا لا يؤمنون بالله إلّا أنّه كان يحملهم المقابلة بالمثل على أن يسبّوا الله تعالى.

فقال تعالى جلّ وعلا:

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾

(ولا تسبّوا) أيّها المؤمنون الآلهة **(الّذين يدعون)** إيّاهم المشركون **(فيسبّوا)** هم أيضاً **(الله)** مقابلة بالمثل **(عدواً)** لمجرد عداوتكم **(بغير علم)** منهم **(كذلك)** مثل ما ترى **(زيّنا لكلّ أمّة عملهم)** أي جعلنا من طبيعة النّاس أنّ كلّ أحد يحبّ عمله ويراه حسناً ولا يرضى بتقبيحه، فليس الإرشاد بتهيّج العواطف، وإنّما هو بتحريك العقول وسوقها على النّظر والتّفكير، إلى أن يعلم قبح عمله فيراه قبيحاً ويتركه، ولكنّ العنف يزداد في ضلال النّاس والتّمرد والعناد **(ثمّ إلى ربّهم مرجعهم)** أي إلى الله رجوعهم

يوم القيامة **(فينبئهم بما كانوا يعملون)** أي يعاقبهم على ذلك كلّه.

ثمّ إنّ الكافرين كانوا يطلبون من الرّسول (ﷺ) أن يظهر لهم خوارق عادات ومعجزات حسب ما يريدون، وكان الرّسول (ﷺ) يحبّ إستجابتهم رغبة في إيمانهم وحرصاً على هداية النّاس وبسط سلطان الله تعالى ونشر دينه في الأرض، وحيث كان الله تعالى يعلم أنّ إقتراحاتهم هذه كلّها لم يكن إلّا للتّعنّت والإنكار، قال جل ثناؤه مخاطباً الرّسول:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾

(وأقسموا) أي وحلف الكافرون **(بالله جهد أيمانهم)** من إضافة الصّفة إلى الموصوف، أي أقسموا الأيمان الجاهدة أي القويّة جداً، وقالوا: **(لئن جاءتهم آية)** معجزة من قبل محمّد **(ليؤمننّ)** بمحمّد **(بها)** بسبب تلك المعجزة، وحينما قالوا ذلك أحبّ الرّسول (ﷺ) أن يظهر الله تعالى تلك المعجزة على يديه ليؤمنوا، ولكنّ الله تعالى حيث كان عالماً بخباثة قلوبهم، وأنّ طلبهم المعجزة لم يكن للإقتناع والإيمان بل لمجرد التّعنّت والإنكار، لم يستجب طلب الرّسول (ﷺ) فقال: **(قل)** يا أيّها النّبيّ **(إنّما الآيات عند الله)** أي بيد الله يظهر كما يشاء لا كما تشاؤون، وليس في يدي شيء لأظهر لكم الآيات كما تريدون، ثمّ هدّأ الله تعالى حرص المؤمنين على إظهار المعجزات ليؤمن هؤلاء؛ فقال جلّ وعلا: **(وما يشعركم)** وما الّذي يعلمكم **(أنّها)** أي الآية والمعجزة **(إذا جاءت لايؤمنون)** بعد ذلك أيضا، أراد تعالى أنّهم ولو جاءت لهم كلّ الآيات لا يؤمنون كما قال: **(ونقلّب)** أي ونحوّل **(أفئدتهم)** جمع فؤاد وهو القلب **(وأبصارهم)** نحولّها عن التّفكّر في الآية والإيمان بها فلا يؤمنون **(كما لم يؤمنوا به)** أي بالآية والتّذكير لأنّ الآية مصدر، يذكّر ويؤنّث كالتّذكرة **(أوّل مرّة)** أي حينما جاءت قبل الآن، فلا يؤمنون بالآتي أيضاً ويبقون في الطّغيان **(ونذرهم)** نتركهم **(في طغيانهم يعمهون)** يتحيّرون فلا نأتي بهم إلى الإيمان جبراً، ونسب تعالى تقليب الأفئدة والأبصار إلى نفسه لأنّه خالق الأفعال، إلّا أنّ خلقه لذلك التّقليب إنّما هو بسبب إختيارهم التّقليب والتّمرد والإستنكار، ولذلك يلامون في الدّنيا ويعاقبون في الآخرة.

ثمّ صرح الله تعالى بأنّه لو جاءتهم كلّ الآيات والمعجزات لما آمنوا، فقال جلّ وعلا:

﴿۞وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾

(ولو أنّنا نزّلنا إليهم الملائكة) فشهدوا برسالة الرّسول وحقيقة التّوحيد وبطلان الشّرك **(وكلّمهم الموتى)** بعد إحيائهم بذلك **(وحشرنا)** وجمعنا **(عليهم كلّ شيء)** من الخوارق والمعجزات فشاهدوها **(قبلاً)** أي أمامهم **(ما كانوا ليؤمنوا)** بعد كلّ ذلك **(إلّا أن يشاء الله)** إيمانهم جبراً، والله لا يهدي جبراً، بل يهدي من يحبّ الهداية والخير، ويسعى له **(ولكنّ أكثرهم يجهلون)** فلا يحبّون الحقّ ولا يسعون له، ولذلك يتركهم الله تعالى في ضلالهم حسب إختيارهم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يسلّي رسوله فقال جلّ وعلا:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

(وكذلك) أي مثل ما يعاديك هؤلاء الكفّار ويقفون ضدّك وضدّ دعوتك **(جعلنا لكلّ نبيّ عدوّاً)** وليس أنت وحدك صاحب الأعداء بل لكلّ نبيّ **(عدوّا)** والعدوّ جنس يشمل القليل والكثير، ولذا فسّره تعالى بالجمع فقال: **(شياطين)** بيان للعدو، أي ذلك العدو للأنبياء كانوا **(شياطين)** من الإنس وهم الكافرون ومن **(الجنّ)** وهم مردة الجنّ **(يوحي بعضهم)** أي يلقي بعضهم **(لبعض زخرف)** باطل **(القول)** أي الكلام ضدّ أنبيائهم ودينهم فيغرونهم **(غروراً)** كما يريدون **(ولو شاء الله)** تعالى أن لا يفعل هؤلاء الشّياطين من تضليل النّاس **(ولو شاء الله)** أي ما غروا أحداً. ولكن الله تعالى شاء أن يخلق الشر والخير والحق والباطل إمتحانا للناس، لأنه لو خلق الحق فقط وهدى الناس جبراً وما خلق الباطل لما كان لأحد فضل في الهداية ولما تميّز الخبيث من الطّيب ولذلك **(فذرهم)** أي اترك هؤلاء الشّياطين **(وما يفترون)** مع إفتراءاتهم ولا تجبرهم على الإيمان

والإسلام ولا تذهب نفسك حسرات عليهم أبداً. ثم ذكر الله تعالى حكمة وجود المحق والمبطل فقال: **(ولتصغى)** أي وجعلنا هؤلاء الشّياطين **(لتصغى إليه)** أي إلى ذلك العدوّ وهم الشّياطين **(أفئدة الّذين لا يؤمنون بالآخرة)** وليتّبعوهم، واللّام لام العاقبة أي أنّ العاقبة أنّهم يتّبعونهم **(وليرضوه)** أي يرضون بهذا الغرور **(وليقترفوا)** ويعملوا **(ما هم مقترفون)** ما هم عاملون له من الجرائم والآثام، كلّ ذلك ليتميّز أصحاب القلوب الصّالحة والمائلة إلى الخير، وأصحاب النّفوس الخبيثة للشّر، وليجزي كلّ حسب عمله وإختياره، وما ربّك بظلّام للعبيد. ثمّ إنّ الشّرك نوعان: **النّوع الأوّل**: أن يعظّم المرء غير الله تعالى ويقدّسه ويعتقد فيه النّفع والضّر والتّأثير بالسّلطة الغيبية فيذبح له النّذور ويقدّم له القرابين.

النّوع الثّاني: أن يعتقد في غير الله تعالى حقّ التّشريع والحكم فيعمل بنظامه ودستوره.

ثمّ لما ذمّ الله تعالى القسم الأول وأبطله بالدلائل والحجج، أراد أن يبطل القسم الثّاني ويفنّده فقال جلّ وعلا:

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾

(أفغير) أي قل أيّها النّبيّ وأيّها المسلم **(أفـ)** بعد هذه البصائر الّتي تثبت وحدة الله وقدرته وخالقيّته لكلّ شيء وحاكميّته في الشّؤون **(غير الله أبتغي)** أقبل وأرضى **(حكماً بيني وبينكم)** في بيان الحلال والحرام والحقّ والباطل والصّحيح والفاسد في العقائد والأحكام **(وهو الّذي أنزل إليكم الكتاب)** أي القرآن **(مفصّلاً)** أي مبيّناً فيه العقائد والأحكام **(والّذين آتيناهم الكتاب)** من اليهود والنّصارى **(يعلمون)** كلّهم **(أنّه)** أي

القرآن **(منزّل من ربّك بالحقّ)** لما يجدون في التّوراة من البشارة بمجيئه والشّهادة على حقيقته **(فلا تكوننّ)** أيّها المسلم **(من الممترين)** أي المتردّدين في حقيقة القرآن **(وتمّت كلمة)** أي تقديرات **(ربّك)** لأنّ الكلمة جنس يشمل كلّ الكلمات وقد قرأت **(كلمات ربّك)** أيضاً أي تقديراته وبياناته للعقائد والأحكام كلّها **(صدقاً)** في الأخبار والعقائد **(وعدلاً)** في القضايا والأحكام **(لا مبدّل لكلماته)** لأحكامه حسب الهوى، أو بدلائل من عقول النّاس **(وهو السّميع)** لمن يطعن في أحكامه **(العليم)** بمن يغيّرها فلا يتخلّص من قبضته وشدّة عذابه في الآخرة أو في الدّنيا أيضاً أو فيهما معاً **(وإن تطع)** أيّها المؤمن **(أكثر من في الأرض يضلّوك عن سبيل الله)** لأنّ أكثرهم يحبّون أن يكون الحكم حسب هواهم، وكما يشتهون، وأنّهم في أحكامهم **(إن يتّبعون إلّا الظنّ)** الّذي يستولي على نفوسهم وعقولهم فيضلّهم **(وإن هم)** أي ليس هم على حال إلّا أنّهم **(يخرصون)** يكذبون في قولهم إنّ هذا حلال وهذا حرام وهذا كذا وذلك كذلك. ممّا يصدرون في الأحكام من عندهم، حيث لا يوافق حكمهم الحقّ والواقع والعدل والإنصاف **(إنّ ربّك أعلم)** من كلّ أحد **(بمن ضلّ عن سبيله)** وهو الحقّ **(وهو أعلم بالمهتدين)** إلى الحقّ، وحسب ذلك العلم وضع الأحكام والشّرائع وبيّن العقائد والأحكام، فحكمه هو الّذي يجب أن يتّبع لا غيره.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّ الحكم هو حكم الله وهو الحقّ، أراد أن يذكر أحكاماً اختلف فيه المشركون مع المؤمنين؛ فقال جلّ وعلا:

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾

كان في الجاهليّة أمور يعتقدون بأنّها أمور شرعيّة وأحكام إلهيّة؛ فيتّبعونها ويعملون بها، فأبطل الله تعالى هذه الأحكام ونفى أن يكون من الله تعالى، والأمور هي:

الأمر الأوّل: هو أنّهم كانوا يأكلون الميتة، ويقولون لم تأكلون ما قتلتموه أنتم وهي الذبيحة، ولا تأكلون ما قتله الله تعالى وهي الميتة فقال: **(فكلوا)** أيّها المسلمون ممّا

ذكر **(إسم الله عليه)** أي ذبح، ولا تأكلوا من غير ذلك وهي الميتة **(إن كنتم بآياته)** أي بأحكامه **(مؤمنين)** مصدقين.

الأمر الثّاني: أنّه كان عندهم البحيرة والسّائبة والحامي، فكانوا يحرّمونها ولا يأكلونها ذبحت أو لا. فقال تعالى جلّ وعلا: **(وما لكم)** أي وأي دليل لكم **(ألّا تأكلوا ممّا ذكر إسم الله عليه)** من الذّبائح إذا كانت بحيرة أو سائبة أو حامياً **(وقد فصّل)** الله **(لكم ما حرّم عليكم)** وهذه الأشياء ليست داخلة فيما فصّل ممّا حرّم، فما حرّم عليكم فلا تأكلوها **(إلّا ما)** أي حراماً **(إضطررتم إليه)** أي إلى أكله، فيجوز الأكل حين الإضطرار، وذلك بأن لم تجدوا شيئاً، أو أكرهتم على أكله **(وإنّ كثيراً)** من النّاس **(ليضلّون)** النّاس عن شريعة الله **(بأهوائهم)** أي بأحكامهم حسب الهوى **(بغير علم)** بالحقّ وشريعة الله تعالى **(إنّ ربّك هو أعلم بالمعتدين)** أي المتجاوزين دينه وحكمه وشريعته، فيعاقبهم عقاباً شديداً.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى الحرام والحلال، أمر تعالى بالإجتناب عن كلّ ما حرّم الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾

(وذروا) أي واتركوا أيّها المسلمون **(ظاهر الإثم وباطنه)** في معنى ظاهر الإثم وباطنه أقوال كثيرة تجدها في تفسير الخازن وإبن كثير والرازي (رضي الله عنهم) إلّا أن كلّ تلك الأقوال لم يقتنع به هذا الفقير، والّذي أراه: أنّ الله تعالى فرض علينا أحكاماً إعتقاديّة محلّها القلب، كوجوب الإيمان بالله وبصفاته وبوحدته والآخرة، إلى آخر مسائل الإعتقاد المتواتر عليها، وفرض أيضاً أحكاماً عملية كأداء الواجبات وترك المحرّمات، ولا شكّ أنّ الأحكام العمليّة أحكام ظاهريّة والإعتقادية قلبيّة باطنية لا يمكن الإطّلاع عليها، وكلّ ما خالف تلك الاحكام إثم، فظاهر الإثم ما يخالف الإحكام العمليّة، وباطنه ما يخالف الأحكام الاعتقاديّة. فمعنى قوله تعالى: **(وذروا ظاهر الإثم)** أي اتركوا الآثام الظّاهرة كلّها سواء كان عملها في السّر أو العلنّ، وتلك الآثام الظّاهرة هي ما يخالف الأحكام العمليّة الظّاهرة **(وباطنه)** أي واتركوا الآثام الباطنة وهي ما تخالف الأحكام الإعتقاديّة كلّها، فالإسلام ظاهر وهو ما ظهر من الأعمال، وباطن وهو ما في

القلب من الإعتقادات، وهذا ما يقال إنّ الدّين ظاهر وباطن، ولا يفيد الظّاهر بدون الباطن أي العقيدة، كما ولا يكفي الباطن بدون الظّاهر أي بدون العمل، فالصّلاة بدون العقيدة باطلة، وكلّ من فسّر الباطن والظّاهر بغير هذا التّفسير فقد عدل عن المنهج القويم، وقد ضّل كثير من النّاس بتفسيرات أخرى[1] **(إنّ الّذين يكسبون الإثم)** أي الظّاهر والباطن إذا علم به **(سيجزون)** يوم القيامة **(بـ)** أي بسبب **(ما كانوا يقترفون)** من الإثم وبقدر ما يستحقّونه.

الأمر الثّالث: الّذي كان موجوداً في الجاهلية أنّهم كانوا يسمون الآلهة الباطلة على الذّبح ويذبحون باسم اللّات أو العزّى أو غير ذلك من الأصنام فحرّم تعالى الأكل من ذلك فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾

(ولا تأكلوا ممّا لم يذكر إسم الله عليه) أي على ذبحه، فظاهر الآية أنّ ما نزلت التّسمية عليه سهواً أو عمداً لا يجوز أكله، ويأتي الخلاف وأقوال العلماء في ذلك بعد تمام تفسير الآية إن شاء الله **(وإنّه)** أي الأكل ممّا لم يذكر إسم الله عليه أو عدم ذكر إسم الله عليه **(لفسق)** أي لذنب **(وإنّ الشّياطين)** أي رؤساء الباطل **(ليوحون)** ليلقون **(إلى أوليائهم)** أتباعهم وأصدقائهم الباطل من الأقوال **(ليجادلوكم)** بذلك الباطل الّذي علمّهم شياطين الإنس، وذلك أنّ رؤوس الكفر كانوا يرسلون أناساً ويقولون لهم: قولوا لمحمّد: هل أنّ ما قتله الكلب حلال عندكم من الصّيد، وما قتله الله هو الميتة حرام فكيف هذا الحكم؟ ويقولون: هل إنْ قتلتموه أنتم بالذّبح حلال، وماقتله الله وهو الميتة حرام؟ إلى غير ذلك مما كان الكفرة يجادلون به الرّسول **(ولئن أطعتموهم)** في أحكامهم **(إنّكم لمشركون)** بالله بذلك الإطاعة. قال ابن كثير: أي لأنّكم عدلتم عن أمر الله وشرعه إلى قول غيره، فقدمتم عليه غيره، فهذا هو الشّرك قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا

---

(١) فضل الشيخ رحمه الله تعالى هذا التفسير لظاهر الإثم وباطنه لإبطال دعاوى الباطنيين وقطع الطريق عنهم للدعوة إلى مذاهب و أديان ما أنزل الله بها من سلطان متشبثين بأن للقرآن أو للدين ظاهر وباطن فضلوا وأضلوا.

أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ سورة التوبة الآية/ ٣١ - روى الترمذي عن عدي بن حاتم أنّه قال: يا رسول الله ما عبدوهم؟ فقال: بلى، إنّهم أحلّوا لهم الحرام وحرّموا عليهم الحلال فاتّبعوهم، فذلك عبادتهم إيّاهم. فظهر أنّ كلّ من عمل بنظام غير نظام الله تعالى فقد أشرك بالله تعالى(١)، وهذا لا شّك فيه.

ولنعد إلى بيان الخلاف في ما لم يذكر عليه إسم الله تعالى من الذّبائح فنقول: قال ابن قدامة في المغني: المشهور من مذهب أحمد أنّ ترك التّسمية عمداً يحرّم الذّبيحة وأمّا سهواً فلا، وبذلك قال مالك وأبو حنيفة، وروى ذلك عن ابن عبّاس وكثير من التّابعين، وفي رواية عن أحمد أنّ التّسمية مستحبّة، فلا تحرم الذّبيحة بتركها عمداً ولا سهواً، وهذا ما ذهب إليه الشّافعيّ (ﷺ)، وفسّر أحمد (ﷺ) قوله: (مما لم يذكر إسم الله عليه) أي مما لم يذبح وهي الميتة، وفسّره الشّافعي بقوله أي ممّا ذكر إسم غير الله تعالى عليه، ولكلّ أدلّته من الأحاديث الصّحيحة، وما ذهب إليه الشّافعي أقوى حجةً وإن أردت الأطّلاع على دلائلهم فعليك بتفسير ابن كثير (رحمة الله تعالى عليه).

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر حال المؤمنين والكافرين ويبيّنهما، وذكر ذلك في مثال فقال جلّ وعلا:

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

(أو من كان ميتاً) المراد به المؤمن الّذي كان من قبل كافراً، شبّهه في حالة الكفر بالميت؛ لأنّ الإيمان روح القلوب وحياته، فمن لا إيمان له ليس له روح معنوي وشعور ربّاني وإنساني كما هو الإنسان، فالمعنى: هل هذا المؤمن الّذي كان ميتاً قبل **(فأحييناه)**

---

(١) نص الحديث في الترمذي هو:عن عدي بن حاتم قال: أتيت النبي (ﷺ) وفي عنقي صليب من ذهب، فقال يا عدي، إطرح عنك هذا الوثن، وسمعته يقرأ سورة براءة (إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) قال أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه. / سنن الترمذي ٥/ ٢٧٨ الحديث رقم ٣٠٩٥.وقال: هذا حديث غريب.

بالإيمان **(وجعلنا له نوراً يمشى)** أي يعيش ويعمل **(به في النّاس)** أي بينهم؟ وذلك النّور هو منهج الإسلام الّذي يعيش عليه المسلم، فإنّه كالنّور يضيء للمسلم طريق الحياة وكيفية الحياة الحقّة الّتي يجب أن يعيش كلّ النّاس وفقهاً. أهذا المؤمن **(كمن مثله)** أي حاله مستقرّة **(في الظّلمات)** وهي ظلمة الكفر والجهل والإستكبار والتّمرد على الحقّ والإنكار **(ليس بخارج منها)** أي من الظّلمات حيث لا يريد ذلك، والإستفهام للإنكار أي ليس حاله سواء في السّعادة وراحة القلب وإطمئنانه والعاقبة والهداية إلى الحقّ، والجواب فليس حال المؤمن كالكافر إلّا أنّ الكافر لا يهتدي لأنّه **(كذلك)** مثل ما ترى وتعلم **(زيّن للكافرين ما كانوا يعملون)** من قبل النّفس والهوى والشّياطين من الجنّ والإنس، فلذلك لا يؤمنون لخفاء الحقّ. ثمّ أراد تعالى أن يبيّن بعض الشّياطين من الإنس الّذين يزيّنون الكفر أمام النّاس وأمام أنفسهم، فقال تعالى: **(و)** مثل ما ترى من وجود رؤساء مجرمين في مكّة المكرّمة يزيّنون الكفر ويعملون الدسّائس ضدّ الإيمان والحقّ **(جعلنا في كلّ قرية)** من قرى الأمم الماضية الّذين أتاهم رسل الله والدّعاة إلى الحقّ جعلنا فيها **(أكابر)** رؤساء **(مجرميها)** أي مجرمين فيها **(ليمكروا)** اللّام لام العاقبة، فالمعنى: يمكرون فيها، أي يقفون ضدّ الحقّ ويعملون الدسّائس للقضاء على الحقّ الّذي جاء به الرّسل، ويبعدون النّاس عنه، فهذا سنّة الله تعالى في عباده، فلا تحزن يا محمّد بما يعمل قومك في المكر والخديعة ضدّك وضدّ ما جئت به لأنّه **(وما يمكرون)** أي ولا يضرّون بهذا المكر **(إلّا بأنفسهم)** لأنّهم يجعلونها مستحقّة للعذاب في الآخرة والخذلان في الدّنيا، وأنّ النّصر للحقّ وأهله، إن عملوا بجدّ وصدق وإخلاص **(وما يشعرون)** هؤلاء المجرمون أنّهم يضرّون أنفسهم بأعمالهم هذه، وفي الآية تسلية للرّسول (ﷺ) ووعد للمؤمنين بالنّصر ووعيد للكافرين بالخذلان في الدّنيا والآخرة.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر مكر هؤلاء وكيفيّة صدّ النّاس وأنفسهم عن الإيمان بالحقّ؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

(وإذا جاءتهم آية) تأمرهم بالإيمان أو معجزة تحثّهم على إتّباع الرّسل **(قالوا)** هؤلاء

الأكابر (**لن نؤمن**) بدين الله الّذي جاء به الرّسل (**حتّى نؤتى**) نعطي من الوحي والرّسالة (**مثل ما أوتي رسل الله**) أي الرّسل السّابقون الّذين كانوا يعترفون بهم، والمعنى لا نؤمن حتّى نكون نحن الرّسل لأنّنا أكثر أموالاً وأكبر سنّاً وأقوى عشيرةً وأكثر جاهاً بين النّاس، فنحن إذاً أحقّ بالرّسالة من هؤلاء الّذين يدعون الرّسالة وهم ليسوا من الكبراء فردّ الله تعالى عليهم فقال: (**الله أعلم**) منهم ومن كلّ أحد (**حيث**) أي بالمكان الّذي (**يجعل رسالته**) فيه والشّخص الّذي يجعله رسولاً، وليس إختياره للشّخص للرّسالة لكون الشّخص غنيّا أو قويّاً أو حسناً أو من سادة القوم والكبراء، بل إنّما يختار الشّخص الّذي يوافق حكمته، وإنّ حكمته إقتضت أن لا يختار الرّسالة من الأغنياء أو الكبراء أو الأقوياء، لكي لا يتّهم النّاس الرّسول بأنّه أتى بالنّاس إلى إتّباعه بالقوّة أو المال أو السّيادة، لا بالحقّ والحجّة والبرهان، ولكي يكون تبعيّة النّاس له دالة على حقيقة دعوته وليقولوا: لولا أنّ دعوته حقّ لما اتّبعه النّاس، وهو ليس من السّادة والأقوياء والأثرياء، ولأمور أخرى يعلمها الله تعالى. ثمّ أنذر الله تعالى هؤلاء الكبراء فقال جلّ وعلا: (**سيصيب الّذين أجرموا**) لكونهم كبراء ولكبريائهم (**صغار**) ذلّ وهوان (**عند الله**) في الآخرة أو في الدّنيا والآخرة معاً (**و**) يصيبهم (**عذاب شديد**) في الدّارين أو في أحدهما (**بما**) بسبب ما (**كانوا يمكرون**) ضدّ دين الله ومن جاء به من الرسل، وهكذا يتصارع الحقّ والباطل والمحقّ والمبطل، الرّسل دعة يدعون إلى الحقّ ودين الله، ومردة ومجرمون يدعون إلى الباطل، والنّظام الّذي يحافظ على سلطتهم وسيادتهم، فمن النّاس من يحبّ الحقّ ويتّبعه، ومنهم من لا يحبّ فيتمرّد ويضلّ كما قال جلّ وعلا:

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

(**فمن يرد الله أن يهديه**) جبراً إن كان مراداً، أو لحبّه للحقّ إن كان مريداً؛ فذلك (**يشرح**) يفتح الله تعالى (**صدره للإسلام**) والدّخول فيه. سئل النّبيّ (ﷺ) عن شرح الصدر؟ فقال: نور يقذفه الله في قلب المؤمن[1]، أي للّذي يحبّ الإيمان والحقّ فيشرح

(١) الفتح السماوي للمناوي ٢/٦١٦ الحديث رقم ٥٠٦.

له وينفسح، قيل له: فهل لذلك علامة؟ قال نعم، الإنابة إلى دار الخلود، والتّجافي عن دار الغرور، والإستعداد لما بعد الموت، فشرح الصّدر هو إنفساحه وميله لقبول الحقّ بقرينة قوله: **(ومن يرد أن يضلّه)** لأنّه لا يحبّ الإيمان والحقّ **(يجعل صدره ضيّقاً)** عن قبول الحقّ فيضيق صدره عن الإيمان، فإذا أراد الإيمان صعب عليه ورأى نفسه **(كأنّما يصّعّد إلى السّماء)** في الصّعوبة، ويقال: إنّ قلبه يضيق كما يضيق من يصعد في السّماء، فيختنق إذا إرتفع درجات في العلوّ حيث يفقد الأوكسجين، واعتبروا هذه الآية من معجزات القرآن، حيث أخبر بحال الصّاعد إلى السّماء قبل أربعة عشر قرناً ثمّ كشف العلم ذلك في هذا القرن **(كذلك)** إلى مثل ما ذكرنا لك **(يجعل الله الرّجس)** المعنوي **(على)** قلوب **(الّذين لايؤمنون)** لا يحبّون الإيمان ولا يسعون له، بل ينكرونه خوفاً من مصالحهم ومنافعهم، أو إنسياباً وراء شهواتهم وأهوائهم، أو حرصاً على تقاليدهم وعاداتهم وحفاظاً عليها.

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

(وهذا) أي شرح الله بعض الصدّور للدّخول في الإسلام، وتضييق بعضها عن الدّخول فيه حسب ما يرى من الحكمة **(صراط ربّك)** عادة ربّك وعمله، وكان ذلك العمل **(مستقيماً)** لا إعوجاج فيه لموافقته للحكمة، وليس علينا العتاب في ذلك، بل كلّ العتاب عليهم لأنّا **(قد فصّلنا الآيات)** الدّلائل والبراهين على الحقّ حينما دعوناهم إليه، ولكن لا تفيد كلّ هذه الآيات إلّا **(لقوم يذكرون)** يحبّون التّذكير ويتذكرون، وأمّا من لا يريد التّذكير ولا يصغي إليه، فهؤلاء صمّ بكم عمي فهم لا يعقلون. ثمّ اراد تعالى أن يذكر جزاء المتذكّرين فقال: **(لهم)** أي للمتذكّرين **(دار السلام)** وهي الجنّة أو طبقة منها **(عند ربّهم هو)** أي ربهم **(وليّهم)** أي محبّهم **(بما)** بسبب ما **(كانوا)** في الدّنيا **(يعملون)** من أعمال الخير والبرّ والإحسان.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر عاقبة الّذين ضاقت صدرهم عن الإسلام فقال جلّ وعلا:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ

مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾

(ويوم) أي واذكر لهم ما يجري **(يوم يحشرهم)** أي يحشر الله تعالى النّاس كلّهم **(جميعا)** مجتمعين في صعيد واحد، ويوجّه الله تعالى خطابه العتابي إلى الكفار جنّهم وإنسهم فيقول: **(يا معشر)** يا جماعة **(الجنّ)** الكفرة وهم مردة الشّياطين من الجنّ **(قد إستكثرتم من)** إتّباعكم الإنس فأغويتم كثيراً منهم **(وقال أولياؤهم)** أي أصدقاء الجنّ **(من الإنس)** الضّالين **(ربّنا استمتع)** أي تلذّذ بعضنا **(ببعض)** بسبب بعض، فقد تمتّعنا نحن بالشّهوات بسبب إغواء شياطين الجنّ لنا، وتمتّع الشّياطين بضلالنا وإتّباعنا لهم فعشنا هكذا **(وبلغنا أجلنا الّذي أجّلت)** حدّدت **(لنا)** من العمر، فمتنا وجمعنا لديك والأمر إليك **(قال)** تعالى **(النّار مثواكم)** جميعاً الأتباع والمتبوعين **(خالدين فيها)** في النّار يمكثون فيها **(إلّا ما)** مدة **(شاء الله)** عدم مكثهم فيها، وهي ما بين الحكم عليهم بالنّار والدّخول فيها **(إنّ ربّك حكيم)** لا يعذّب أحداً إلّا لحكمة **(عليم)** بمن يستحقّ العذاب ومن لا يستحقه **(وكذلك)** أي كما أتبعنا الإنس الجن في دخول النّار وأدخلناهم فيها **(نولي)** نتّبع **(بعض الظّالمين)** الكافرين **(بعضاً)** منهم من الإنس فندخلهم في النّار الأتباع بعد المتبوعين وذلك **(بما)** أي بسبب **(ما كانوا يكسبون)** من إضلال المتبوعين

للتابعين وأتباع الأتباع لهم في الكفر والضّلال والفسق والفجور، فيسوق الله تعالى كلّهم إلى النّار، فلمّا اجتمعوا فيها خاطبهم الله تعالى خطاب العتاب مرة أخرى، فقال جلّ وعلا: **(يا معشر الجنّ والإنس)** قدّم الجنّ على الإنس لا لأنّهم أقدم وجوداً، بل لأنّ الجنّ أصل في الغواية والإغواء **(ألم يأتكم رسل منكم يقصّون عليكم آياتي)** دلائل وجودنا ووحدتنا وآيات فيها أحكامنا **(وينذرونكم لقاء يومكم هذا)** وعذابنا فيه لمن كفر وفجر **(قالوا)** إعترافاً **(شهدنا على أنفسنا)** بأنّهم جاؤوا فلم نتّبعهم. ثمّ بين الله تعالى سبب عدم إتّباعهم للرّسل فقال: **(وغرّتهم الحياة الدّنيا)** فلذلك لم يتّبعوا الرّسول، هذا إذا كان من قول الله تعالى، وإن كان من قول المخاطبين قالوا على طريقة الإلتفات من التّكلم إلى الغيبة **(وغرّتهم)** أي وغرت هؤلاء المجموعين في النّار الحياة الدّنيا، فلذا لم يتّبعوا الرّسل، فيكون جملة أخرى من شهادتهم على أنفسهم **(وشهدوا على أنفسهم أنّهم كانوا)** في الدّنيا **(كافرين)** بالرّسل وبشرائع الله تعالى **(ذلك)** أي ذلك المكالمة ومخاطبة الله المجرمين وإعترافهم بمجيء الرّسل وكفرهم بهم ليعلم **(أن لم يكن ربّك مهلك)** أهل **(القرى)** الّذين أهلكهم في الدّنيا ويعذّبهم في الآخرة ما يفعل ذلك **(بظلم)** منه، بأن لم يبلّغهم ولم يرسل إليهم **(وأهلها)** أي أهل القرى **(غافلون)** عن وجود الله ووحدته وشريعته، فإنّهم بلّغوا بكلّ ذلك، وأرسل إليهم الرّسل وحاجّوهم، إلّا أنّهم كفروا حسب إعترافهم؛ فاستحقّوا الإهلاك في الدّنيا والعذاب في الآخرة، وما الله بظلّام للعبيد **(ولكلّ)** من المؤمنين والكافرين **(درجات)** في الجنّة والنّار حسب أعمالهم **(ممّا عملوا)** في الدّنيا **(وما ربّك بغافل عما يعملون)** فيجازيهم على كلّ ما يعملون، ولا يخفى عليه شيء منه. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى إهلاك أهل القرى من الأمم السّابقة، خاطب النبيّ في خواصّه المعاندين منهم، فقال جلّ وعلا: **(وربّك)** يا محمّد **(الغنيّ)** عن أمتّك ولا يحتاج إليهم، فإبقاؤه لهم وعدم إهلاكهم ليس إلّا لأنّه **(ذو الرّحمة)** فيرحم ولا يهلكهم كما أهلك الأمم السّابقة. ثمّ إلتفت الله تعالى إلى الأمّة فقال: **(إن يشأ)** الله إهلاكهم **(يذهبكم)** أي يهلككم **(ويستخلف)** مكانكم **(من بعدكم ما يشاء)** من النّاس **(كما أنشأكم من ذريّة قوم آخرين)** استخلفهم من بعد قوم أهلكوا وهم قوم نوح، فالله تعالى رحم بكم في الدّنيا فلا ينزل عليكم عذاب إستئصال، ولكن لا يهملكم بل يعذّبكم يوم القيامة حسب ما توعدون؛ ولذا قال: **(إنّ ما توعدون لآت)** لا محالة **(وما أنتم بمعجزين)** الله في أن يعذّبكم في ذلك الوقت ثمّ أمر الله الرّسول (ﷺ) أن ينهي نقاشه معهم كلّه مع حكمة وثقة بالنّفس والمبدأ والنّصر فقال: **(قل يا قوم إعملوا على**

مكانتكم) على حالتكم من العناد والوقوف ضدّ دعوتي **(إنّي عامل)** أيضاً ولا أقف عن دعوتي **(فسوف تعلمون لمن تكون له عاقبة الدّار)** النّصر والفلاح في **(الدّار)** الدّنيا والآخرة، والجواب هنا تكون لنا لأنّكم ظالمون كافرون و**(إنّه)** إنّ الشّأن **(لا يفلح الظّالمون)** أنتم والفلاح لنا، وهكذا يكون الفلاح في الدّارين للمؤمنين كلّ زمان إن عملوا بصدق وإخلاص مع الله تعالى.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن بعض ضلالات القوم وجهالاتهم وشركهم والّتي اتّخذوها ديناً وتقرّباً إلى الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

(وجعلوا) أي وعيّنوا بعضاً **(ممّا ذرأ)** الله أي خلقه **(من الحرث)** أي المزروعات **(والأنعام)** الإبل والبقر والضّأن والمعز فعيّنوا من هذه الأشياء **(نصيباً)** قسماً **(فقالوا هذا)** القسم **(لله بزعمهم)** فيعطونه ويوزعونه على الفقراء والمساكين والضّيوف،وعينوا من هذه الأشياء قسما آخر فقالوا: و**(هذا)** القسم لشركائنا أي لآلهتنا الّذين هم شركاء الله تعالى بزعمهم، فيعطون للسّدنة وقال فيما قالوا لله **(بزعمهم)** وإن كان ما يعطى للفقراء والمساكين والضّيوف من أمر الله ومشروعاً لأنّ الأعمال المقرونة بالشّرك لا تقبل، فلا يكون لله إلّا بزعمهم ثمّ بعد ما خصصوا قسماً لله وقسماً للشّركاء **(فما كان لشركائهم)** وخصصوه لهم **(فلا يصل)** فلا يصرفون شيئاً منه **(إلى الله)** أي فلا يصرفون شيئاً منه للفقراء والمساكين والضّيوف ويقولون: إنّ الله غنيّ **(وما كان لله)** وخصّصوه له **(فهو)** كان **(يصل إلى شركائهم)** ويصرفون منه لسدنة الآلهة، إذا أرادوا ذلك **(ساء ما يحكمون)** من هذا التّقسيم وهذا الإعتقاد **(وكذلك)** ومثل هذا الحكم الّذي زيّن لهم الشّيطان **(زيّن)** بالبناء للفاعل وفاعله شركاؤهم، فالمعنى: زيّن شركائهم **(لكثير من**

المشركين قتل أولادهم) فقتلوا بناتهم، والمراد بالشّركاء هنا من شرع لهم قتل البنات الشّياطين الّذين يوسوسون إليهم، ذلك، فدلّت الآية أنّ إطاعة غير الله تعالى فيما يخالف أمر الله إشراك بالله تعالى **(ليردوهم)** اللّام لام العاقبة أي كان عاقبة قتل أولادهم أنّ الشّركاء بهذا القتل **(ليردوهم)** أي يهلكوهم أو للعلة أي كان قصد الشّركاء وهو الشّياطين من تزيين قتل الأولاد لهم هو أن يهلكوهم **(وليلبسوا)** وليخلطوا أو يغيّروا **(عليهم دينهم)** الّذي كانوا عليه من دين سيدنا إبراهيم وإسماعيل (على نبيّنا وعليهما الصّلاة والسّلام) وهنا ضاق صدر الرّسول والمؤمنين، وأرادوا أن يجبروا هؤلاء على ترك هذه الضّلالات بالقوّة مهما كلّف الأمر؛ فقال تعالى أنّه لا جبر ولا قهر في الدّين، إنّما الدّين الدّعوة **(ولو شاء الله)** أن يجبرهم على عدم فعل ذلك لأجبرهم عليه و **(ما فعلوه)** أي الشّرك والقتل للأولاد **(فذرهم وما يفترون)** وادعهم إلى الحقّ فمن اهتدى فنعم، ومن ضلّ فإلى جهنم وبئس المصير.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر قسماً آخر من ضلالاتهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

(وقالوا) لبعض الأنعام والحرث **(هذه أنعام وحرث)** معينة **(حجر)** ممنوع أكلها **(لا يطعمها إلا من نشاء)** من سدنة الأصنام والأوثان، وجعلوها وقفاً عليهم، وجعلوا ذلك حكماً من الله تعالى **(بزعمهم)** الباطل وعقيدتهم الفاسدة، وأشاروا إلى بعض الأنعام الأخرى وقالوا: **(و)** وهذه **(أنعام حرّمت ظهورها)** فلا يجوز أن يركبها أحد، وهذه الأنعام كانت تسمّى سوائب وحوامي، وقد مرّ معناها **(و)** قالوا لبعض الأنعام هذه **(أنعام**

لا يذكر اسم الله عليها) حين الذّبح وبأمر من الله تعالى ويقولون ذلك **(إفتراءً)** على الله تعالى **(سيجزيهم)** الله **(بما)** بسبب **(ما كانوا يفترون)** على الله من هذه الأحكام وينسبونها إليه تعالى ولم ينزل الله تعالى بها من سلطان **(وقالوا)** لبعض الأنعام **(ما في بطون هذه الأنعام خالصةً)** خاصة **(لذكورنا)** لا حق للإناث فيها ويحرم أكلها عليهنّ إن ولدتها أحياء كما قال: **(ومحرّم على إناثنا)** الأكل منها وتذكير محرّم بإعتبار لفظ ما وتأنيث خالصة بإعتبار أن ما في البطون أجنة وقالوا **(وإن كان)** ما في البطون **(ميتةً)** أي خرجت ميتة **(فهم)** أي الذّكور والإناث **(فيه)** أي ما في البطون **(شركاء)** وينسبون ذلك الحكم إلى الله تعالى فقال: **(سيجزيهم وصفهم)** هذه الأحكام بأنّها من الله تعالى **(إنّه)** أي إنّ الله تعالى **(حكيم)** لا يجزي أحداً إلّا لحكمة **(عليم)** يعلم من يستحقّ ذلك **(قد خسر الّذين قتلوا أولادهم)** بتزيين الشّياطين لهم فقتلوهم **(سفهاً)** تجانباً عن العقل **(بغير علم)** بالنّقل **(و)** خسر الّذين **(حرّموا ما رزقهم الله)** من الأنعام كالبحيرة والسّائبة والحامي وبعض ما في البطون وفعلوا كلّ ذلك **(إفتراءً على الله)** بنسبتها إليه بأنّها حكمه تعالى **(قد ضلوا)** عن الحقّ **(وما كانوا مهتدين)** إلى ما يلائم العقل والنقل، وما يكون رشداً ودراية في ميزان أولى الألباب، وتبيّن من هذه الآيات أنّ كلّ من أحدث حكماً أو عبادةً أو أحلّ شيئاً أو حرّم دون الإستناد إلى كتاب الله وسنّة رسوله فقد أشرك بالله وضلّ عن سبيله، وخسر وافترى على الله الكذب، ويستحقّ عذاب الله تعالى؛ ولذلك قال (ﷺ): (وكلّ بدعة ضلالة وكلّ ضلالة في النّار)[1] أي صاحبها في النّار.

ثمّ أراد الله تعالى أن يثبت أن التّحريم والتّحليل ليس من وظيفة النّاس بل من حقّ الله تعالى، لأنّه هو خالق كلّ شيء، والخالق هو الّذي يجب أن يكون له الحكم فيما خلق، ولا حقّ للمخلوق في ذلك، فمن أراد أن يحكم فقد ادعى صفة من صفات الألوهيّة فيكفر بذلك، ومن أطاعه وصدّقه فقد أشرك بالله تعالى؛ فقال جلّ وعلا:

﴿۞وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ

(١) سنن النسائي الكبرى١/ ٥٥٠ لحديث قكم ١٧٨٦.

أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾

(وهو) أي الله **(الّذي أنشأ)** أوجد جنّات بساتين فيها نباتات من **(المعروشات)** وهي النّباتات الّتي تتعرّش أي تنبسط وتمتدّ على الأرض كشجرة العنب والبطّيخ والقرع وما يشابهها مما ينبسط ويمتدّ على الأرض **(وغير معروشات)** وهي النّباتات الّتي تعلو على الأرض، ولها ساق مؤقتة كالفول والباقلاء والماش والحنطة وغيرها مما له ساق مؤقت، أو نباتات لها ساق دائمة كالأشجار **(والنّخل)** أي وأنشأ لكم **(النّخل والزّرع)** يشمل جميع المزروعات **(مختلفاً أكله)** فإنّ كلّ قسم من المزروعات له ثمر مخصوص وهو مأكول مخصوص **(والزّيتون والرّمان)** متشابهاً أفراده فالحلوّ أفراده متشابه، وكذا الحامض والمرّ وغير متشابه؛ فإنّ أفراد الحلو لا يشابه أفراد الحامض أو المرّ، وهكذا **(فإنّ الزّيتون والزّرع)** قد ذكرا في ضمن المعروشات، إلّا أنّه أعاد ذكرهما ليضمّ إليهما قوله: **(مختلفاً أكله)** وكذا الزّيتون والرّمان ذكرا لبيان تشابه أفرادهما وعدم تشابهها **(كلّوا من ثمره)** أي من ثمر ما ذكر **(إذا أثمر)** أي نضج ثمره **(وآتوا حقّه)** أي حقّ الله تعالى منها للفقراء **(يوم حصاده)** أي جمعه **(ولا تسرفوا)** بأن تعطوا كلّه للفقراء أو لا تعطوا شيئاً منه لهم، إذ كلا الأمرين إسراف أي مجاوزة للحدّ الّذي حدّده الله تعالى للنّاس **(إنّه)** أي إنّ الله **(لا يحبّ المسرفين)** أي المتجاوزين للحدّ بالإفراط أو التّفريط، وفي هذه الآية دليل للأصناف في أنّ كلّ ما نبت من الأرض فيه الزّكاة **(ومن الأنعام)** أي إنشاء من الأنعام **(حمولة)** فعولة بمعنى الفاعل أي حاملة لأثقالكم كالإبل والبقر

(وفرشاً) أي كالفرش لا يحمل عليه كالمعز والضأن، شبّه بالفرش لدنوّه من الأرض **(كلوا مما رزقكم الله)** من هذه الأنعام كلّها **(ولا تتّبعوا خطوات الشّيطان)** بأن تحرّموا بعضها كالبحيرة والسّائبة والحامي وغير ذلك **(إنّه)** أي الشّيطان **(لكم عدو مبين)** ظاهراً العداوة أو مظهر عدواته من أوّل ما خلق الله الإنسان **(ثمانية أزواج)** أي وأنشأ من الأنعام **(ثمانية أزواج)** والأزواج جمع زوج وهو ما يزاوج غيره، فالذّكور زوج لأنّه يزاوج الأنثى، والأنثى زوج لأنّها تزاوج الذّكر كما قال تعالى: **(من الضأن إثنين)** الذّكر والأنثى **(ومن المعز إثنين)** الذّكر والأنثى **(قل ءآلذكرين حرّم)** لذكورتهما، فإذا كان كذلك فكلّ الذّكور حرام **(أم الأنثيين)** أي أنثى الضّأن والمعز، فإذا كان التّحريم لأنوثة يجب أن يكون كلّ الإناث حراماً **(أم ما اشتملت عليه)** أي احتوته **(أرحام الأنثيين)** لاحتواء الرّحم له فيكون كلّ حيوان حراماً **(نبّئوني)** أخبروني **(بعلم)** بدليل الحرمة **(إنّ كنتم صادقين)** في أنّ ما حرّمتم حرام من الله فإنّه لا يحرم شيء إلّا لعلة توجد فيه توجب الحرمة، فنفى تعالى هنا وجود العلة في حرمة هذه الأشياء أو بورود نص في حرمته ونفي وجود النّص في قوله الآتي إذ يقول: **(ومن الإبل)** إثنين الذّكر والأنثى **(ومن البقر إثنين)** الذّكر والأنثى **(قل ءآلذكرين)** منهما حرّم للذّكورة فتحرم كل الذّكور **(أم الأنثيين)** حرّم لأنوثتهما فيلزم حرمة كلّ الإناث **(أمّا اشتملت)** إنطوت عليه **(أرحام الأنثيين)** لذلك الإنطواء فيلزم حرمة كلّ حيوان لأنّ كلّه ينطوي أرحام الأنثى عليه. فلمّا نفى الله تعالى أن يكون علّة لحرمة هذه الأشياء، أراد أن يذكر أنّه لا نصّ في تحريم هذه الأشياء أيضا؛ فقال تعالى: ﴿أم كنتم) أيّها المحرّمون لهذه الأشياء باسم الله تعالى **(شهداء)** **حاضرين** عند الله تعالى **(إذ وصّاكم)** أمركم **(الله بهذا)** التّحريم والإستفهام للإنكار، فالمعنى: لا أمر من الله تعالى بذلك فيكون قولهم هذا إفتراءً على الله تعالى ولذلك قال تعالى: **(فمن أظلم)** الإستفهام للإنكار فالمعنى لا أحد **(أظلم ممّن افترى على الله كذباً)** بأن حكم حكماً من عنده ونسبه إليه **(ليضلّ)** اللّام لام عاقبة أو تقليل أي فعل ذلك وعاقبته أنّه يضلّ أو قصده أن يضلّ **(النّاس)** عن دين الله تعالى **(بغير علم)** أي جهلاً بالحقّ أي دون أن يعلم أنّ ذلك من دين الله، لأنّه ليس منه؛ ليعلم أنّه منه **(إنّ الله لا يهدي)** إلى الفلاح يوم القيامة أو في الدّنيا أيضاً **(القوم الظّالمين)** حدود الله فيحرّمون ويحلّلون حسب أهوائهم دون الرّجوع إلى كتاب الله تعالى أو سنة رسوله (ﷺ).

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن ما أحلّه الله تعالى وما حرّمه من اللّحوم فقال جلّ وعلا:

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

(قل) أيّها النّبيّ لهؤلاء الّذين يحرّمون من الأنعام أشياء وينسبون التّحريم إلى الله تعالى لقد كذبتم حيث **(لا أجد فيما أوحي إليّ)** أي شيء **(محرّماً)** عند الله تعالى **(على طاعم يطعمه)** من الحيوانات **(إلّا أن يكون ميتةً أو دماً مسفوحاً)** أي دماً سائلاً عن الكبد والطّحال؛ فإنّهما دمان غير سائلين وهما حلالان **(أو لحم خنزير فإنّه)** أي لحم الخنزير **(رجس)** أي نجس أو يكون **(فسقاً)** لأنّه **(أهلّ به)** أي بذبحه لغير الله بأن ذكر إسم غير إسم الله على ذبحه، وهذه الآية دليل الشّافعي في تفسيره قوله تعالى: **(ولا تأكلوا ممّا لم يذكر اسم الله)** بأنّ معناه: ذكر إسم غير الله عليه، ولذلك أفتى بإباحة ما لم يسمّ الله عليه سهواً أو عمداً، وهو مصيب والله تعالى أعلم **(فمن اضطرّ)** أي أصابه الإضطرار إلى أكل الميتة أو لحم الخنزير أو ما أهلّ لغير الله، بأن لم يجد غيره وإن لم يأكل مات، أو أصابه مرض بشرط أن يكون **(غير باغ ولا عاد)** فله أكل كلّ ذلك وكلّ ما حرّم عند الإضطرار **(فإنّ ربك غفور)** يغفر لمن أكل للإضطرار **(رحيم)** يرحم به ولذلك أجاز له الأكل من الحرام، وفي حكم المضطرّ والمكره على أكله أيضاً، ومعنى الباغي والعادي إختلف فيه المفسّرون والفقهاء، وذكرت أقوالهم مفصّلاً في سورة البقرة الآية/ ١٧٣. **(وعلى الّذين هادوا)** أي وعلى اليهود **(حرّمنا كلّ ذي ظفر)** وهو ما لم يكن أصابعه مفصولة بعضها عن بعض، كالإبل والنّعامة والبطّ **(ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما إلّا ما)** أي شحوماً **(حملت)** إياه ظهورهما **(أو الحوايا)** أي الأمعاء جمع حاوية **(أو)** شحماً **(إختلط بعظم)** فهذه الشّحوم لم تحرّم عليهم **(ذلك)** التّحريم ليس تحريماً على كلّ النّاس بل على اليهود فقط، وبهذا التّحريم **(جزيناهم)** أي

عاقبناهم (**ببغيهم**) أي بسبب ظلمهم وخروجهم عن الأمر (**وإنّا لصادقون**) في كلّ ما نخبر ونُعِدّ (**فإن كذّبوك**) أيّها النّبيّ بعد هذا التّبليغ (**فقل ربّكم ذو رحمة**) ولذلك لا يعجّل بعذابكم (**واسعة**) رحمته، ولكن ليس معنى عدم تعجيله بالعقوبة أنّه لايعاقبكم، كلّا، فإنّه إن أمهل لا يهمل ويأتي بالعقاب (**ولا يردّ بأسه**) عقابه إذا جاء (**عن القوم المجرمين**) بسبب تكذيب الرّسل والخروج عن شريعة الله تعالى. وهنا بحث نبيّنه إن شاء الله تعالى في التّنبيه الآتي: **تنبيه**: دلّت الآيات السّابقة على أمور: **الأمر الأوّل**: **أنّ** التّحريم والتّحليل حكمان لاحقّ للعبد فيهما، بل مختصّان بالله تعالى كسائر الأحكام الدّينية.

الأمر الثّاني: أنّ العلم بتحريم ما أحله الله تعالى وتحليله لا طريق إليه إلّا بالوحي من الله تعالى إلى رسله، فطريق العلم بذلك هو الرّجوع إلى الكتاب والسّنة، وكذلك كلّ الأمور الدّينية.

الأمر الثّالث: أنّ ظاهر الآية تدلّ على أنّه لا يحرم من الحيوانات والطّيور إلّا هذه الأشياء الأربعة (**الميتة والدّم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به**) وقد أكدّت هذه الآية قوله تعالى: ﴿إنّما حرّم عليكم الميتة والدّم ولحم الخنزير وما أهلّ به لغير الله فمن اضطرّ غير بغ ولا عد فلا إثم عليه إنّ الله غفور رحيم﴾ سورة البقرة الآية/١٧٣ ـ فأفادت الآيتان أنّ كلّ حيوان وطير غير هذه الأربع حلال، وروي هذا القول عن ابن عبّاس وعائشة (رضي الله عنهم) من الأصحاب وعن سعيد بن جبير رحمه الله من التّابعين، وهو ظاهر مذهب مالك، واستدلّ هؤلاء بالآيتين وبأنّ إنّما للحصر، والآيتان خبران، والخبر لا يعلّل بهما النّسخ، ولكنّ جمهور الفقهاء ذهبوا إلى أنّ التّحريم ليس حصراً على هذه الأشياء الأربعة، بل هناك حيوانات وطيور لا يحلّ أكلها، فنذكر أقوالهم في الحيوانات والطّيور المحرّمة غير هذه الأشياء الأربعة إن شاء الله تعالى فنقول:

١- الحشرات كالدّيدان والجعلان وإبنا وردان والخنافس والفأر والأوزاع والحرباء والضّفادع والجراذين والعقارب والحيّات كلّها حرام عند أبي حنيفة والشّافعي وأحمد (رحمهم الله). ورخّص مالك والأوزاعي وإبن أبي ليلى (رحمهم الله) في أكل هذه الأشياء إلّا الأوزاعي، قال ابن عبد البرّ(رحمه الله): إنّها مجمع على تحريمها، وقال مالك (رحمه الله): الحيّة حلال إذا ذكيّت، واحتج المبيحون لهذه الأشياء بعموم الآية فجمع.

٢ ـ القنفذ: حرام عند أحمد (رحمه الله) وقال مالك (رحمه الله): أكله مكروه، وقال أبو

حنيفة (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): أكله مكروه، وعند الشّافعي (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) حلال، وروى ابن قدامة (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): إباحته عند مالك (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ).

٣- لحم الحمر الأهليّة: حرام عند أحمد والشّافعي وأبي حنيفة (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) وعند مالك (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): ثلاث روايات أشهرها أنّه مكروه، والثّانية أنّه حرام، والثالثة مباح. وقال ابن عبدالبر: لا خلاف بين علماء المسلمين اليوم في تحريمه، وحكي عن ابن عبّاس وعائشة (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) : أنّه حلال لعموم هذه الآية وظاهرها.

٤ ـ لحم البغال: حرام عند كلّ من يقول بحرمة الحمر الأهلية لأنّها متولدة من الحمر، والمتولد من بين الحرام والحلال حرام، وأمّا ألبانها فحرام أيضاً إلّا عند طاوس وعطاء والزّهري، قال ابن قدامة: والأوّل أصحّ لأنّ حكم الألبان حكم اللّحوم.

٥ ـ لحم الخيل: من كلّ أنواعها حلال عند الشّافعي وأحمد ، وبه قال ابن المبارك وسعيد بن جبير وابن الزبير والعطاء والحسن والأسود بن يزيد وحماد واللّيث وأبي ثور (رَحِمَهُمُ اللَّهُ)، وعند أبي حنيفة: حرام، وعند مالك: مكروه، وهو قول الأوزاعي وأبي عبيد.٦- لحم الثعلب والضّبع: حرام في رواية عن أحمد (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، وحرام عند أبي حنيفة (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، ومكروه عند مالك (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، ومباح عند الشّافعي (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) ورواية عن أحمد (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، وقال بإباحة الضّبع عليّ بن إبي طالب (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) وإسحاق بن راهويه وأبو ثور وخلائق كثيرون من الصّحابة والتّابعين (رَحِمَهُمُ اللَّهُ)، وممّن قال بإباحة الثّعلب طاوس وقتادة وأبو ثور أيضاً، قال ابن قدامة: الرّواية عن أحمد بتحريم الثّعلب أكثر من روايات إباحته إلّا أنّ القول بإباحته أصحّ عنده.

٧ ـ الكلب: حرام عند جميع الأئمة إلّا في رواية عن مالك أنّه مكروه.

٨ ـ السّنور الأهلي (الهرّة): حرام عند الجمهور ، وأباحه اللّيث بن ربيعة،وقال مالك: هو مكروه، وفسّر بعضهم قوله: مكروه، بكراهة تنزيه، وبعضهم بتحريم والله تعالى أعلم.

٩ ـ لحم الضّب واليربوع: حلال عند الشّافعية ومالك وأحمد والجمهور وعند أبي حنيفة مكروه، ونقل صاحب البيان عن أبي حنيفة تحريم لحم الضبّ والوبر وإبن عريس والقنفذ واليربوع.

١٠- الأرنب: حلال عند الشّافعي ومالك وأحمد، قال ابن قدامة: لا نعلم قائلاً بتحريمها إلا شيئا روى عن عمرو بن العاص.

١١- ابن آوى والنّمر وإبن عرس: كلّها حرام عند أحمد وأبي حنيفة، وخالف

الشّافعي في ابن عريس فقط، فقال بإباحته لأنّه ليس له ناب قوي، فيكون كالضّب، ولأصحابه في ابن آوى قولان أيضاً الحرمة والإباحة.

١٢- القرد: قال ابن قدامة: نقلاً عن ابن عبدالبّر أنّه قال: لا أعلم خلافاً بين علماء المسلمين في أنّه لا يجوز أكله ولا بيعه وهو من الخبائث، ولكن ذكر في المجموع أنّ الإمام مالك قال: إنّه ليس بحرام أكله.

١٣- الفيل حرام عند الجمهور، وأباحه الشعبي ابن شهاب ومالك في رواية عنه.

١٤- الدّب: قال أحمد : إن كان له ناب يفرس به فهو حرام وإلّا فحلال، وقال أصحاب أبي حنيفة : هو سبع فهو حرام، وعند مالك: أنّ السباع لا تحرم بل تكره ﴿قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرماً﴾ سورة الأنعام الآية/ ١٤٤ ـ .وأما الطيّور فقال ابن قدامة: فيها ما يلي: مسألة وكلّ ذي مخلب من الطيّر وهي تعلق بمخاليبها الشّيء وتصيد بها فهو حرام عند الله أكله، وهذا قول أكثر العلماء، وبه قال الشّافعي وأبو ثور وأصحاب الرّأي ، وقال مالك والأوزاعي ويحيى بن سعيد : لا يحرم شيء من الطّير، قال مالك: لم أر أحداً من أهل العلم يكره سباع الطّير واحتجوا بعموم الآية وبحديث أبي الدّرداء وإبن عبّاس (رضي الله عنهم) حيث قال: قال رسول الله (ﷺ): ما أحلّ الله في كتابه فهو حلال، وما حرّم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من الله عافيته فإنّ الله لم يكن لينسى شيئاً وتلا: ﴿وَما كانَ رَبُّكَ نَسِيّاً﴾ سورة مريم/ الآية ٦٤ ـ وقال (رضي الله عنه): (إنّ الله فرض فرائض فلا تضيّعوها وحدّ حدوداً فلا تعتدّوها وسكت عن أشياء غير نسيان فلا تبحثوا عنها)[١]. واستدلّ المحرمون لكلّ ذي مخلب من الطّير بما روي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: نهى رسول الله (ﷺ) عن كلّ ذي ناب من السّباع وكلّ ذي مخلب من الطيّر[٢]، وبما روي عن خالد بن الوليد (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): حرام عليكم الحمر الأهلية، وكلّ ذي ناب من السّباع، وكلّ ذي مخلب من الطيّر رواهما أبو داود. كما قال في المغني[٣] وأجاب من حرّم الأشياء الّتي لم يذكر في الآية وزيد عليها بوجوه:

(١) سنن الدارقطني ٤/ ١٨٤ الحديث رقم ٤٢.

(٢) صحيح مسلم ٢/ ١٥٣٤ الحديث رقم ١٩٣٤.

(٣) سنن أبي داود ٣/ ٣٥٦ الحديث رقم ٣٨٠٦.: هذا وإن هذه المسائل كلّها مأخوذة من المجموع للإمام النّووي ج/ ٩/ ٣-٤٢، مطبعة التّضامن الأخوي بمصر ومن منشورات المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، ومن المغني لإبن قدامة المقدسي المنشور من قبل عالم الكتب بيروت وفي ج/ ٨/ ٥٨٥ -٥٩٥.

الأوّل: أن يكون المعنى: لا أجد محرّماً، ممّا كان أهل الجاهليّة يحرّمونه، ولا يخفى أنّ هذا ينافي ذكر لحم الخنزير وما أهلّ به لغير الله تعالى، لأنّ هذين لم يكونا محلاً للبحث.

الثّاني: أنّ المراد بـ (لا أَجِدُ مُحَرَّماً)، في هذا الوقت إلّا هذه المذكورات، ثمّ حرّم، بعد نزول هذه الآية أشياء أخرى أوحي إلى الرّسول (ﷺ) فأخبر عنها بالسّنة والله تعالى أعلم.

* * *

ثمّ بعد هذه المناقشة القيّمة لم يبق للمشركين أي حجة في الشّرك وفي تحريمهم لهذه الأشياء فالتجأوا إلى مذهب الجبر وإلى أنّ الله تعالى أراد لهم الشّرك وهذا التّحريم ولا يمكن لأحد أن يخرج عن مقتضى إرادة الله تعالى فأراد تعالى أن يردّ عليهم فقال جلّ وعلا:

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

(**سيقول الّذين أشركوا**) بعد ما أفحموا ولم يبق لديهم حجّة (**ولو شاء الله**) عدم إشراكنا وتحريمنا لهذه الأشياء (**ما أشركنا ولا آباؤنا**) بالله شيئاً (**ولا حرّمنا**) من هذه الأنعام (**من شيء كذلك**) مثل ما ترى من قومك وأنّهم يكذّبونك بهذه الحجّة وكمثلهم (**كذب**) الأقوام الّذين (**من قبلهم**) رسلهم بهذه الحجّة وبقوا على الكفر (**حتّى ذاقوا بأسنا**) أي عذابنا بإهلاكهم (**قل**) أيّها النّبيّ والمسلم في جوابهم (**هل عندكم من علم**) حجّة من عقل أو نقل بأنّ مشيئة الله تعالى وإرادته وخلقه لشرككم وتحريمكم يكون مبرراً لما تفعلون، ومخلصاً لكم من عواقبه ومن العذاب. والإستفهام للإنكار فالمعنى: ليس لكم أي حجّة في ذلك، لأنّ الله تعالى خلقكم وأسكنكم هذه الأرض وأعطاكم العقل والفكر ونصب لكم الدّلائل على الوحدة والحقّ، بحيث لو تفكّرتم فيها لعرفتم الحقّ ولا تبعتموه ولهداكم الله إليه. ولم يكتف الله تعالى بهذا القدر فأرسل الرّسل ونبّهوكم على هذا الحقّ فأعرضتم عنه وعن التّفكر في الحقذ وحبّ الإهتداء إليه، واخترتم الضّلال على الهدى، فأراد الله تعالى لكم الضّلال بعدكم، ذلك لأنّ الله تعالى

لم يجعل من عادته أن يجبر أحداً على الهدى أو الضّلال بل خلق العقل والأدلّة على الحقّ ونبّه بالرّسل عليه، فمن أراد الهداية واحبّها هداه ومن تولّى أضلّه كما قال تعالى: ﴿ومن يرد ثواب الدّنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشّاكرين﴾ ـ سورة آل عمران الآية/ ١٤٥ ـ فاذا علمتم ذلك فمشيئة الله ليست دليلاً على أنّكم غير مسؤولين إنّما ذلك لو أراد ضلالكم جبراً ولا جبر في ميزان الله تعالى فلذلك (إنّ) أي لا (**تتّبعون إلّا الظنّ**) في إستدلالكم هذا (**وإن أنتم إلا تخرصون**) تكذّبون في أنّ الله تعالى أجبركم على الشّرك والتّحريم لهذه الأشياء، بل إنّما كان ذلك بإختياركم وحبّكم للضّلال وكرهكم للحقّ فإذا تبيّن هذا (**قل فلله الحجّة البالغة**) أي الكافية في عذابكم حيث خلقكم وآتاكم العقل وأرسل الرّسل وبيّن لكم الحقّ والباطل وآتاكم القدرة على اتّباع الخير وإعتناقه، وعلى اتّباع الباطل والعمل به، فاخترتم الباطل فخلقه تعالى وشاءه لكم وتركتم الحقّ والهداية، فما أجبركم الله عليها وإلّا (**فلو شاء**) أن يهديكم جبراً (**لهداكم أجمعين**) إلّا أنّه لم يجعل الجبر من عادته إمتحاناً لعباده؛ وليحصل الفضل في الهداية والفرق بين محبّي الحقّ وكارهيه وخبثاء القلب وطيّبيه، ولتجزي كلّ نفس بما تسعى، والله تعالى أعلم وهو يهدي السّبيل.

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

(**قل لهم**) أي للكافرين (**هلمّ**) احضروا (**شهداءكم الّذين يشهدون أنّ الله حرّم هذا**) الأمر للتّعجيز لأنّهم ليس لهم شهداء عدل تقبل شهادتهم، ولو أتوا فعندما يأتون بأمثالهم (**فإن شهدوا**) هؤلاء الّذين لا تقبل شهادتهم (**فلا تشهد معهم**) أي فلا تصدّقهم، حيث ولا تقبل شهادتهم لأنّهم لا يشهدون إلّا حسب هواهم (**ولا تتّبع أهواء الّذين كذّبوا بآياتنا**) أي بأحكامنا (**والّذين لا يؤمنون بالآخرة**) فإنّ من لا يؤمن بالآخرة لا يتحرّر من الشّهادة بالباطل ولا من كلّ ذنب، إذ ليس له رادع (**والّذين بربّهم يعدلون**) يساوون به من غيره من الآلهة الباطلة، فمن شهد هذه الشّهادة الباطلة، كيف تقبل سائر شهاداته وهل يوثق به؟ كلّا، ثمّ كلّا، وفي الآية دليل على أن الدّعوى بدون دليل لا تقبل، وأنّ التّقليد من صفات الجهلة، وعار على أهل العلم محض التّقليد وعدم التّفكر في الأدلة والبراهين.

ثمّ أراد تعالى أن يبيّن بعض ما حرّم على عباده فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

(قل) أيّها النّبيّ وأيّها المسلم الدّاعي إلى الإسلام **(تعالوا)** أي إيتوا **(أتل)** أصله أتلو أي إقرأ الخبرْ بحذف الواو لأنّه وقع جزاء لشرط مقدّر تقديره إن تأتوا أتل لكم **(ما حرّم ربّكم عليكم)** لتعرفوا الحلال من الحرام، فإنّ التّحريم والتّحليل مختص بالله، فهو الحاكم بذلك لا حاكم سواه، ومن حكم بذلك من غيره فقد أشرك نفسه مع الله في الألوهية، ومن أتّبعه فقد أشركه بالله تعالى. ثمّ بيّن الله تعالى ما حرّم، فذكر بعضه في ضمن النّهي عنه، وبعضه بالأمر لغيره، وذلك لحكم نذكرها إن شاء الله تعالى، فقال جلّ وعلا: **(أن لا تشركوا به)** أي بربّكم شيئاً، أن منصوب أمّا بقوله (أتل ما حرّم ربّكم عليكم) فيكون بدلاً أو بياناً لما حرّم، والإشراك المنهيّ عنه أنواع نوقش فيها في الآيات السّابقة وهي:

الأوّل: إعطاء صفة الحاكميّة لغيره بالتّحريم والتّحليل ولسائر التّشريعات إلّا حسب الكتاب والسّنة والإستنباط منهما، والإستعداد بهما وبأصولهما العامّة.

الثّاني: التّقرب إلى غيره بالنّذور والقرابين أو السّجود أو سائر العبادات له.

الثّالث: إعطاء الحاكميّة لغيره في التّأثير والإيجاد وإيصال النّفع أو الضّرر بالسّلطة الغيبيّة إلى النّاس وبدون طريقة الأسباب، أو في طريقة الأسباب معتقداً أنّها مستقلّة بالتّأثير دون الله تعالى.

الرّابع: إعطاء بعض الأوصاف المختصّة بالله لغيره أو إطاعته الغير لذاته لا لأمر الله به، أو اطاعته في خلاف ما أمر الله تعالى به، وهذه الأمور كلّها مذكورة في القرآن الكريم، وعدّها القرآن أو السّنة النبويّة شركاً، وقد مرّ بك كلّ ذلك ونبّهت عليه في هذا التّفسير والحمد لله تعالى، ثمّ ذكر تعالى محرّماً آخر في ضمن الأمر بضدّه وهو عقوق الوالدين، إشارة إلّا أنّه ليس المطلوب ترك العقوق فقط بل يجب الإحسان إليهما، وإنّ ترك الإحسان إليهما عقوق، ولذا قال تعالى: **(وبالوالدين)** أي وأحسنوا بالوالدين **(إحساناً)** تامّاً لا نقص فيه **(ولا تقتلوا أولادكم)** وهن البنات حيث كانوا يبيدون البنات خوف الفقر كما قال تعالى: **(من إملاق)** أي من خوف الفقر، حيث كانت البنات لا يكسبن شيئاً من المال، وكان الكسب حصراً على الأبناء فلا تقتلوهم خوف الفقر حيث **(نحن نرزقكم وإياهم)** جميعاً لا أنتم **(ولا تقربوا الفواحش)** فسّروا الفواحش بالزّنا وقالوا: **(ما ظهر منها)** كالزّنا بالنّساء المعترفين بالزّنا والمعلن عنه **(وما بطن)** وهو الزّنا بالصديقات الّتي لم يشتهرن بالزّنا، **وأقول**: لو كان المراد بالفواحش الزّنا فلا داعي إلى جمعه، بل كان يقول: ولا تقربوا الفاحشة ...إلخ، فلذلك أرى أنّ المعنى: ولا تقربوا الفواحش أي المعاصي كلّها **(ما ظهر منها)** من الأفعال القبيحة **(وما بطن)** من العقائد الفاسدة والصّفات الذّميمة الّتي هي مصادر للأفعال القبيحة **(ولا تقتلوا النّفس الّتي حرّم الله إلّا بالحقّ)** والحقّ هو كلّ ما جعل الشّرع دمه هدراً كالقاتل بغير حقّ، والزّاني المحصن، والتّارك للصّلاة، والمرتدّ، والمفسد في الأرض، وغير ذلك لمن أباح الشّرع قتله **(ذلكم)** الأمور **(وصّاكم)** ربّكم **(به)** وأمركم بتنفيذها **(لعلّكم تتّقون)** لكي تتّقوا عذاب الله الّذي تستحقّونه بسبب عدم تنفيذ ما وصّاكم به الله تعالى **(ولا تقربوا مال اليتيم إلّا بالّتي)** إلّا بالحالة **(الّتي هي أحسن)** من الإبتعاد عنها، والحالة هي حالة إنمائها ورعايتها وحفظها، ففي هذه الحالات أقربوه **(حتّى يبلغ أَشُدَّهُ)** أي رشده في العقل وحسن التّصرف؛ فحينئذ سلّموا إليه أمواله، وإن بلغ سفيهاً فلا يسلّم إليه ماله، بل ينصب له ولي يتصرّف في ماله ويصرف عليه ويصرف له الزائد على ما يحتاج إليه. ثمّ ذكر تعالى محرّماً آخر وهو البخس في الكيل أو الوزن بالأمر بصده فقال تعالى: **(وأوفوا الكيل والميزان)** أي كلوا الأشياء وأوزنوها للنّاس حينما تبيعونها لهم أو تسلمون إليهم من حقوقهم كيلاً ووزناً وافياً، فالمحرّم هنا البخس في الكيل أو الوزن إلّا أنّه أمر بالوفاء ضدّ البخس إشارة إلى وجوب الإعتناء بعدم البخس وتحققّه بالكيل والوزن الوافيين بالحقّ ويكون الوفاء **(بالقسط)** أي بالعدل فلا تظلم نفسك ولا تظلم غيرك،

وحيث الوفاء في الكيل والوزن حقيقة صعبة جداً، لأنّه ربّما يكون خلل في الكيل أو الميزان أو ينزل فيهما غبار أو أمور أخرى، فلذلك يجب الوفاء حسب العلم والطّاقة، فلذا قال تعالى: **(لا تكلّف نفسا إلّا وسعها)** أي ما في طاقتها وما لا فلا، وفي الآية إشارة إلى هذه الأوامر الّتي سبقت وكلّف بها العباد هي في وسع البشر وليست خارجة عن طوقها **(وإذا قلتم)** في الوصف أو الإخبار أو الشّهادة أو الحكم **(فاعدلوا)** في وصفكم، فلا تصفوا أحداً بما ليس فيه مدحاً أو ذماً، ولا تخبروا عنه ما لم يفعله ولا تشهدوا عليه أو له، ولا تحكموا له أو عليه بالجور **(ولو كان)** من تشهدون له أو عليه أو تكون له أو عليه تصفونه أو تجرون عنه **(ذا قربى)** في النّسب أو الرّحم أو الجوار أو المبدأ أو العقيدة إليكم **(وبعهد الله)** كلها **(أوفوا)** بإداء ما أمر به وترك ما نهى عنه، فالمحرّم هنا نقض العهد إلّا أنّه عبر عنه هكذا إشارة إلى أنّ المطلوب الوفاء بالعهد تماماً لا عدم نقضه فقط **(ذلك وصّاكم به لعلكم تذكرون وانّ هذا)** أي ما أمرتم به ونهيتم عنه في السّورة هذه أو في القرآن كلّه **(صراطاً مستقيماً)** أي منهاجي الّذي أرسلته إليكم لتسلكوه **(فاتّبعوه)** جميعاً دون نقص فيه ولا زيادة **(ولا تتّبعوا السّبل)** المخالفة لهذا المنهج ولهذا النّظام **(فتفرّق)** أصله فتتفرّق تلك السّبل وتعدل **(بكم عن سبيله)** هذا فحذفت إحدى التّاءين للتّخفيف، وهذه قاعدة في باب تفعل، يعمل بها عند الأمن من الإلتباس، وهنا مأمون، لأنّه لو كان ماضياً لتفعل لقيل: فتفرّقت، ولو كان مضارعاً لفرّق لقيل: فتفرّقكم **(ذلكم)** المذكور في هذه الآية **(وصّاكم)** ربّكم **(به لعلكم)** أي لكي **(تتّقون)** عذاب الله بالإلتزام به وعدم الإنحراف عنه، فتفيد الآية أنّ كلّ نظام ومنهاج غير نظام الله ومنهجه تعالى إضلال وموجب لعذاب الله تعالى وسخطه، فإن كان العدول عنه إنكاراً له وإستهانة به، أو ترجيحاً لنظام آخر عليه فكفر وموجب للعذاب المخلّد، وإن كان لشهوة أو لطمع أو خوف مع الإعتراف بأنّه باطل وأنّه عاص ففسق موجب للعذاب المؤقت، وهنا نذكر كلاماً لطيفاً وهو أنّه: حينما أصدر عبدالكريم قاسم حاكم العراق في وقته[1] قوانين مخالفة لشريعة الله تعالى ولنصّ القرآن سألت أحد

---

(١) في تموز سنة ١٩٥٨م انقلب على الحكم الملكي وحوله إلى نظام جمهوري اسما و فوضوي حقيقة، وفي بداية الأمر إعتمد على الشيوعيين ثم ضربهم فاعتمد على غيرهم ثم أصبح حكما فرديا يتخبط تخبط العشواء حتى هلك على يد البعثيين سنة ١٩٦٣م. ومنذ ذلك الوقت فقد العراق حالة الإستقرا ر إلى يومنا هذا.

القضاة: كيف تحكم بهذا القانون؟ فأجاب: نحن لا نقول حكمنا إنّما نقول أنّ القانون حكم، وسألت قاضيا آخر فقال: نحكم به ونحن مجرمون، فكم من فرق بين قول القاضي الأول المخادع والثاني الصّادق المعترف. اللّهم اجعلنا من المعترفين فإنّ المعترف بذنبه كمن لا ذنب له.

تنبيه: قال تعالى في آخر الآية الأولى: تعقلون، وفي الثّانية: تذكرون، وفي الثّالثة: تتّقون، قال الإمام الرازي (رحمة الله تعالى عليه): لأنّ الأمور الخمسة المذكورة في الآية الأولى أمور ظاهرة، فوجب تعقلّها وتفهمّها، وأمّا الأربعة المذكورة في الآية الثّانية، فهي خفيّة لابدّ من الإجتهاد والتّفكر فيها ليصرف الإعتلال منها، **وأقول**: فعلى ضوء هذا فإن الآية الأخيرة تأمر بالتّمسك بشريعة الله ومنهجه تعالى، فيجب التّقوى عن الإنحراف عنها. وأفادت الآية أنّ طريق الحقّ واحد هو الإسلام، ولكن طرق الضّلالة كثيرة. وروى عن عبدالله بن مسعود (رضي الله عنه) قال: خطّ لنا رسول الله (ﷺ) يوماً خطّاً ثمّ قال: هذا سبيل الله، ثمّ خط خطوطاً عن يمينه وعن يساره ثمّ قال: هذه سبل على كلّ سبيل منها شيطان يدعو إليها ثمّ قرأ ﴿وإنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقيماً ...﴾.

ثمّ بعد أن أمر الله تعالى المسلمين باتّباع منهج القرآن، وعدم الإنحراف عنه نبّههم على أنّه كما أنزل هذا القرآن إلينا فقد أنزل على قوم موسى (عليه السلام) منهجاً صحيحاً إلّا أنّهم انحرفوا عنه، وليعتبر المسلمون بهم فلا ينحرفوا فقال جلّ وعلا:

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

(ثمّ) أي بعد ما أخبرناكم بهذه الوصايا وعلّمناكم أنّ هذا القرآن صراط الله المستقيم، نخبركم أنّا آتينا من قبلكم المنهج والصّراط المستقيم لموسى وقومه، إلّا أنّهم إنحرفوا عنه ولم يبقوا عليه وذلك إنّا **(آتينا موسى الكتاب)** التّواراة **(تماماً)** من حيث النّظام والمنهج والشّريعة لا خلل ولا نقصان فيه، وفرضنا إتباعه **(على الّذي أحسن)** آمن به من موسى وقومه وفصّلنا فيه **(تفصيلاً)** بياناً **(لكلّ شيء)** من العقائد الحقّة والأحكام الواجبة والأخلاق الحسنة والأعمال الفاضلة **(وهدىً)** أي وكان سبب هداية أو هو بما فيه إرشاد إلى الحقّ **(ورحمة)** عظيمة **(لعلّهم بلقاء ربّهم يؤمنون)** فيخافون منه ويطبقون هذا الكتاب إلّا أنّهم انحرفوا عنه وتفرّقوا بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الّذينَ فَرَّقوا دِينَهُمْ﴾ سورة الأنعام الآية/ ١٥٩ ـ فقال جلّ وعلا:

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾

(وهذا) أي القرآن **(كتاب أنزلناه)** إليكم أيّها المسلمون **(مبارك)** خير كلّ ما فيه **(فاتّبعوه)** أي إعملوا وتمسّكوا به **(واتّقوا)** من الإنحراف عنه **(لعلّكم تفلحون)** أي لكي تفلحوا باتّباعه وتفوزوا بالسّعادة في الدّارين.

ثمّ ذكر الله تعالى سبب إنزاله للقرآن بعد التّوارة الّتي كانت تماماً وتفصيلاً لكلّ شيء وهدى ورحمة، وأنّ السّبب في ذلك أمور:

الأوّل: إنّ أهل التّوراة غيّروا التّوراة وأحكامه وحرّفوها، فأنزل الله تعالى القرآن لتصحيح ماغيّروا وإعادة الحقّ إلى نصابه، وأشار بذلك في الآية السّابقة بأنّهم ما اتّبعوه بدليل ما يأتي من قوله: ﴿إنّ الّذين فرّقوا دينهم﴾ كما شرحنا ذلك، وهناك سببان آخران ذكرهما تعالى فالأوّل ما ذكره تعالى في قوله:

﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾

(أن تقولوا) أي أنزلنا إليكم هذا الكتاب المبارك لكي لا تبقى لكم معذرة في **(أن تقولوا إنّما أنزل الكتاب)** أي التّوراة **(على طائفتين)** اليهود والنّصارى **(من قبلنا)** ولسنا مكلّفين باتّباعه والعمل به لأنّه أنزل على قوم خاصّة وعلاوة على ذلك **(وإنّ)** أي وقد **(كنّا عن دراستهم)** أي قراءتهم للكتاب **(غافلين)** لأنّه كان بلغتهم وما كنّا نعرف من لغتهم شيئاً.

الأمر الثّاني: هو ما قاله تعالى:

﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

(أو تقولوا) معذرة في ضلالكم **(لو أنّا أنزل علينا الكتاب)** من الله تعالى **(لكنّا أهدى)** أكثر هداية **(منهم)** من اليهود والنّصارى **(فـ)** قطعاً لهذه الحجّة **(قد جاءكم بيّنة)**

بيان واضح لكلّ شيء وهي **(من ربّكم)** فاتّبعوها **(وهدى)** فاهتدوا به **(ورحمة)** فاستقوا منها، ولكن ما اتبعتم وما أهتديتم بل كذّبتم **(فمن أظلم ممّن كذّب بآيات الله)** فلم يؤمن بها **(وصدف)** وأعرض **(عنها)** مثل ما فعلتم أنتم، فلا أحد أظلم منكم **(سنجزي الّذين يصدفون عن آياتنا)** ولا يؤمنون بها وينحرفون عنها وعن العمل بها نجزيهم **(سوء العذاب بما كانوا)** بسبب ما كانوا **(يصدفون)** يعرضون عن آيات الله وأحكامه ومنهجه ونظامه.

ثمّ إنّ الكافرين كانوا يطلبون من الرّسول خوارق عادات حسب هواهم؛ فقال جلّ وعلا:

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٥٨﴾

(هل) الإستفهام للإنكار فالمعنى ما **(ينظرون)** أي ما ينتظرون ويريدون **(إلّا أن تأتيهم الملائكة)** فيشهدوا برسالة الرّسول وحقيقة دعوته فيؤمنوا **(أو يأتي ربّك)** بذاته فيشهد ويأمرهم بذلك فيؤمنوا **(أو يأتي بعض آيات)** أي علامات عذاب ربّك كالصّواعق أو غيرها ممّا أتى على الأقوام السّابقة فأهلكتهم فيؤمنوا حينئذ، فكان القوم يطلبون مثل هذه الخوارق، فردّ الله تعالى عليهم، فقال: **(يوم يأتي بعض آيات ربّك)** وقدّر الله عليهم العذاب **(لا ينفع نفسا إيمانها)** إذا **(لم تكن آمنت من قبل)** أي من قبل مجيء العذاب إيماناً بصدق وإخلاص كالمؤمن الصّادق **(أو كسبت)** قبل مجيء العذاب **(في إيمانها)** النّفاق **(خيراً)** بأن أخلص وترك النّفاق، وكان كلّ من المؤمنين والكافرين يتربّص أحدهما بالآخر الدّوائر والمصائب، ولذلك قال تعالى: **(قل انتظروا)** هلاكنا أو فشل دعوتنا **(إنا منتظرون)** عذابكم وذلك نصرنا عليكم إلى أن نرى لمن العزّة والإنتصار ولمن الذّلة والهوان، وذلك تعريض بهم بأنّ الذّلة والهوان يلحقهم، فهذا وعيد بذلك لهم ووعد للمؤمنين بالنّصر والغلبة، فإنّ الرّسول واثق من نصره وفي قوله، وإنّ الله حينما يقول: قل كذا وكذا، فإنّما يريد أن يبلّغه بأنّ النّصر والعزّة له ولأعدائه الذّل والخذلان، وقد كان كذلك والحمد لله. ثمّ إنّ الكافرين من المشركين وأهل الكتاب كلّ منهم يريد أن يلصق بالإسلام ما هو ليس منه، أو يريدون أن يجرّوا بداعيته إلى دينهم

ولو شيئاً ما؛ فنبّه الله تعالى المؤمنين على ذلك، وأمرهم أن لا يميلوا لا يمنةً ولا شمالاً وأنّ دينهم متميّز عن كلّ ما هم فيه من الباطل، ولا يكون المسلم مسلماً حتّى يكون بعيداً عن كلّ تعاليم وتقاليد وعقائد الملل كلّها، فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

(إنّ الّذين فرّقوا دينهم) أي جعلوه أقساماً، فأبقوا بعضه ممّا يلائم مصالحهم، وتركوا ما سواه **(وكانوا)** وأصبحوا **(شيعاً)** جماعات متفرّقة **(لست)** أيّها المسلم **(منهم في شيء)** ممّا هم عليه، ولا يجوز لك إتباعهم **(إنّما أمرهم إلى الله)** أي أمر هؤلاء **(إلى الله فقط)** من هذا التّفريق في الدّين والإنحراف عنه **(ثمّ ينبّئهم)** يوم القيامة **(بما كانوا يفعلون)** فيجازيهم عليه.

ثمّ وعد الله المسلمين الثّابتين على الإسلام والمجتنبين كلّ ما يخالف الإسلام من عادات وعقائد وأحكام الملل، وإذا كان فيهم ما يوافق الإسلام فعندما يعملونه باسم الإسلام وباسم الله وباسم الشّريعة المنزلة إليهم لا بإسم آخر وعدهم بالثّواب الجزيل والتّساهل معهم في الحساب فقال جلّ وعلا:

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

(من جاء) بالخصلة **(الحسنة)** فعملها **(فله)** ثواب **(عشر أمثالها)** على الأقل، ويزداد إلى سبعمائة، بدليل قوله تعالى: ﴿والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾ سورة البقرة الآية/ ٢٦١ ـ **(ومن جاء ب)** بالخصلة **(السّيئة فلا يجزى إلّا)** عقاب **(مثلها)** بقدرها إن لم يعرف عنه **(وهم)** أي العاملون **(لا يظلمون)** فينقص شيء من حسناتهم فلا تحسب أو يحمل عليهم ما لم يعملوا من السّيئات. ذكر الخازن عن صحيح مسلم عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ) يقول الله تبارك وتعالى: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، وأزيد ومن جاء بالسّيئة فجزاؤه سيّئة أو يغفر له، ومن تقرّب منّي شبراً تقرّبت منه ذراعاً، ومن تقرب منّي ذراعاً تقرّبت منه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة، ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة بعد أن لا يشرك بي شيئاً لقيته بمثلها مغفرة)[1]. وذكر

أيضاً عن البخاري ومسلم عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنّ رسول الله (ﷺ) قال: يقول الله تبارك وتعالى، وإذا أراد عبدي أن يعمل سيّئة فلا تكتبوها عليه حتّى يعملها، فإن عملها فاكتبوه بمثلها، وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة، وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة، فان عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة، وهذا اللّفظ للبخاري، وفي مسلم مثله بلفظ آخر)[١].

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾

(قل) أيّها النّبيّ وأيّها المسلم للّذين يريدون أن تميلوا إلى دينهم **(إنّني هداني ربّي)** أوصلني **(إلى صراط)** منهج **(مستقيم)** لا عوج فيه ولا خلل ولا إنحراف عن الحقّ، وكان هذا المنهج **(ملّة)** دين **(إبراهيم)** الّذي تعترفون به أيّها الملل كلّكم، وكان إبراهيم **(حنيفاً)** تاركا للباطل، واتّجه إلى الحقّ من التّوحيد وتقديس الله عن الشّريك والولد والبنات **(وما كان)** إبراهيم **(من المشركين)** فكيف أنتم أيّها الملل تشركون وتدّعون الإنتساب إلى إبراهيم وتقرون به.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾

(قل إن صلاتي) الّتي أؤدّيها ودعواتي كلّها **(ونسكي)** وعباداتي كلّها **(ومحياي ومماتي)** ملك لله رب العالمين وبخلقه وتقديره، وما كان ملكاً فيجب أن يصرف كلّه له ووفق أمره، فالصّلاة يجب أن تكون له وحده، والعبادات كلّها يجب أن تكون له وحده، والحياة يجب أن تصرف في سبيله ووفق أمره وشريعته، والممات يجب أن يكون في سبيله والدّفاع عن دينه، وعلى شريعته بدليل قوله تعالى: ﴿ولا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون﴾ سورة آل عمران/ الآية ١٠٢ ـ **(لا شريك له)** في كلّ ذلك **(وبذلك)** التّوحيد **(أمرت)** من قبل الله تعالى **(وأنا أوّل المسلمين)** المنقادين لله تعالى. وبهذه الأوامر وما في هذه الآيات تميّز الإسلام عن الأديان كلّها، وخلص من كلّ إنحراف وتغيّرٍ وقع في الأديان السّابقة،

(١) صحيح مسلم ٤/٢٠٦٨ الحديث رقم ٢٦٨٧.

(٢) صحيح البخاري ٦/ ٢٧٢٤ الحدجيث رقم ٧٠٦٢.

وبذلك أعيد الدّين إلى حقيقته النّاصعة ﴿ألا لله الدّين الخالص﴾ سورة الزمر/الآية ٣.

سؤال: قد دخل في الإسلام تغيّرات وبدع وتبديلات وفوق أيضاً، فما الفرق بينه وبين سائر الأديان؟

الجواب: نعم قد تفرّق المسلمون أيضاً إلى فرق، وأدخلوا في الإسلام كثيراً ممّا الإسلام تنزّه عنه، إلّا أنّ الفرق بينه وبين الأديان من وجهين:

الوجه الأوّل: أن أصل الإسلام وهو الكتاب المنزل من الله تعالى لم يبدّل ولم يغيّر ولم يستطع أحد أن يبدّله أو يغيّره؛ لأنّ الله تعالى تكفّل بحفظه قائلاً: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ سورة الحجر الآية/٩ ـ فالقرآن بقي ميزاناً يوزن به ويعرف به كلّ الإنحرافات والتّبديلات والبدع الّتي لا يرتضيها الإسلام، وكذا سنّة الرّسول الصّحيحة. وأمّا الأديان الأخرى فقد غيّر وبدّل كتابهم وأصل دينهم، ولم يبق لهم ميزان يصحّح به الأخطاء ويعرف به المغيّر والمحرّف من الصّحيح، بل إنّما يعرف ذلك أيضاً بالقرآن الكريم.

الوجه الثّاني: إنّ الملل الأخرى لم يبق فيهم فرقة على الدّين الصّحيح وشريعة الله النّاصعة ودين الله الخالص، بل كلّهم منحرفون عن الحقّ والحقيقة في العقائد والأحكام، ولكنّ الإسلام لم يزل ولا يزال ولن يزال يبقى طائفة كثيرة على الحقّ وحقيقة الإسلام وبذلك لا يختفي الإسلام ولا ينطمس كما أخبر بذلك الرّسول (ﷺ) بقوله: (لا تزال طائفة من أمّتي ظاهرين على الحقّ حتّى يأتي أمر الله)[1] أي السّاعة وهو يوم القيامة.

* * *

ثمّ بعد أن أمر الله تعالى رسوله وكلّ مسلم أن يبيّن ويعلن للنّاس جميعاً موقفه من التّوحيد، أمرهما بإستنكار ما هم عليه من الشّرك بالله أي وجه كان ذلك الشّرك فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

(١) صحيح البخاري ٦/ ٢٦٦٧ الحديث رقم٦٨٨١. بلفظ (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون.)

(**قل أغير الله أبغي**) أدعو وأطلب (**ربّاً**) وأعتقد فيه صلاحيّته للتّكوين أو التّأثير أو الحكم أو التّشريع، والإستفهام للإنكار أي لا أبغي غيره ربّاً حيث (**وهو ربّ كلّ شيء**) فلا صلاحيّة لغيره في الربوبيّة، حيث لا يكون المربوب ربّاً (**ولا تكسب كلّ نفس إلّا عليها**) فشرككم يضرّكم فقط (**ولا تزر**) أي ولا تحمل (**وازرة**) نفس آثمة (**وزر**) ذنب (**نفس**) آثمة (**أخرى**) غيرها فكلّ نفس تحمل وزرها فقط (**ثمّ إلى ربّكم**) الحقيقي وهو الله (**مرجعكم**) يرجعكم يوم القيامة (**فينبّئكم**) فيخبركم (**بما كنتم فيه تختلفون**) معناه أهل التّوحيد حيث يعاقبكم على شرككم بكلّ أنواعه، والغرض من هذه الآية أن يدفع الرّسول التّهمة عن نفسه بأنّ دعوته إياهم ليس لجلب نفع إلى نفسه أو دفع ضرّ عنه، بل إنّما يدعوهم لحبّ الخير لهم ولنصحهم وإرشادهم إلى الحقّ أداءً لواجبه الملقى عليه من الله تعالى، وإنقاذاً لهم من الباطل الّذي وقعوا فيه، وإلّا فلا يلحقه من شركهم ضرر لا في الدّنيا ولا في الآخرة، ولا يكسب من هدايتهم إلى التّوحيد شيئاً؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾

(**وهو**) أي الله تعالى (**الّذي جعلكم خلائف**) جمع خليفة أي يخلف بعضكم بعضاً (**في الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات**) في المال والقوّة والعلم وغير ذلك من النّعم الّتي أنعم بها على العباد وفعل تعالى ذلك (**ليبلوكم**) ليمتحنكم (**في ما آتاكم**) في النّعم، أي ليظهر الشّاكر النّعمة بطاعته وصرفها في ما أباح له، والإحسان بها إلى من دونه والّذي يغلب عليه كفران النّعم يصرفها في غير ما أباح الله أو الطّغيان والتّصدي بها على النّاس فلا يبقى لمن يعذّبه حجّة يوم القيامة حيث: (**إنّ ربّك سريع الحساب**) للطّاغين فيعذّبهم حسب ما يستحقون بسبب طغيانهم وكفرانهم للنّعم (**وإنّه لغفور رحيم**) لكلّ من شكر نعمة وصرفها فيما أبيح له، وأحسن بها على عباد الله وجعلها ذريعة ووسيلة لتحصيل الآخرة وحسن الختام.

اللّهم اجعلنا منهم آمين. والحمد لله الّذي تتمّ بنعمته الصّالحات، وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وزد وبارك وسلم بغداد ٤/٧/١٤٠٧ هجريّة.

سورة الأعراف

(مكيّة، وهي مائتان وستّ آيات، نزلت بعد سورة (ص)، وسمّيت بهذا الإسم لما فيها من ذكر الأعراف في الآية (٤٦) والآية (٤٨)، والأعراف هي شُرَفُ الجنّة بضمّ الشّين جمع شُرْفة).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓصٓ ﴿١﴾ ﴾

(ألمص) وقد تقدم الكلام على معنى هذه الحروف المقطّعة الّتي صدّرت بها بعض السّور، في أولّ سورة البقرة بما لا داعي إلى الكلام عليها هنا.

﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾

(كتاب) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذا كتاب **(أنزل إليك)** أيّها النّبيّ (ﷺ) **(فلا يكن في صدرك)** أي في قلبك **(حرج)** ضيق وصعوبة **(منه)** من حمله وتبليغه للنّاس ودعوتهم إليه وإلى العمل به، وقال تعالى ذلك لأنّه كان يعلم أنّ الرّسول الّذي يعيش بين هذا القوم الضّال المتوغّل في الجاهلية والضّلالة، والّذين اتّخذوا هذه الجاهليّة ديناً وعقيدة لهم، مع ما في رؤوسهم من الإستكبار والنّخوة، لا شكّ أنّ هذا الرّسول يجد صعوبة في دعوة هذا القوم إلى دين يخالف عقيدتهم ويضرب مصالحهم، ويقضي على سيادتهم الباطلة، فنهاه الله تعالى عن هذا التحرّج والإستصعاب للدّعوة والإرشاد إلى

الحقّ، وبهذا النّهي انشرح قلب الرّسول وزال عنه، هذا التّحرج والإستصعاب فأمره تعالى بالتّبليغ فقال: أنزل إليك هذا الكتاب لتحمله **(ولتنذر به)** من لا يؤمن به بالعذاب الشّديد في الدّنيا والآخرة وليكون **(ذكرى)** موعظة وتذكيراً بالحقّ **(للمؤمنين)** أي الّذين يحبّون الحقّ ويسعون له، فإذا وجدوه آمنوا به أينما وجدوه ولم يجدوا في قلوبهم نفرةً ولا إستكبارا ولا تعنّتاً وإستنكاراً. ثمّ خاطب الله تعالى النّاس وأمرهم بالإيمان بهذا القرآن وما فيه من التّوحيد والعقائد والأحكام، فقال جلّ وعلا: **(إتّبعوا)** أيّها السّامعون لهذا الخطاب والمبلّغون بهذا الكلام من نزول القرآن إلى يوم القيامه **(إتّبعوا ما أنزل إليكم)** وهو القرآن ويبلّغكم الرّسول به ومَنْ بعده من علماء الأمّة ودعاة الإسلام، فاتّبعوه لأنّه أنزل **(من ربّكم)** إلهكم وخالقكم ورازقكم وموجدكم ومحييكم ومميتكم، فما أنزله هو من نظامه ودينه وشريعته وهو الأحقّ بالإتّباع ما تبعوه **(ولا تتّبعوا من دونه)** من غير الله تعالى من تجعلونه باتّباعكم له **(أولياء)** لأمركم تطيعونهم فيها، يأمرون وينهون ويضعون لكم الأنظمة والعقائد والأحكام من عند أنفسهم وحسب هواهم، وما يريدون فإن الأمر يجب أن يكون لله والنظام لله والإتباع لنظامه وحده **(قليلاً ما تذكرون)** في موضع العلّة لإنزال القرآن ولبيان الحكمة في ذلك فكأنّه قيل: فلماذا أنزل الكتاب وما الحاجة إليه فقال لأنّه: **(قليلاً ما)** لفظ ما للتّأكيد أي قليلاً جدّاً **(تذكرون)** أي تتذكّرون الحقّ وتتفكّرون فيه لتصلوا إليه؛ لأنّ الإنسان وإن تفكّر وتذكّر فلا تدعه الأهواء والنّوازع أن يصل إلى الحقّ وأن يأخذ به، ومن طبيعة الإنسان أن يغلب عليه أمور كثيرة ويحيط به دواع تصرّفه عن إدراك الحقّ؛ فلذلك إحتاج النّاس إلى نظام ينزل إليهم من الله تعالى ويهديهم إلى الحقّ، ويأمرهم العمل به وتطبيقه لتسود العدالة والحقّ، وليتغلّب المرء به على الأثرة وحبّ الذّات؛ فيبتعد عن التّعدي والظّلم والطّغيان والسّير وراء الأهواء والشّهوات.

ثمّ بعد أن أمر الله تعالى النّاس بإتّباع ما أنزل إليهم ونهاهم عن اتباع غيره من الأنظمة والشّرائع، أراد أن ينذرهم بعذاب الدّنيا وهلاكهم إن انحرفوا ولم يتّبعوا ما أنزل الله تعالى إليهم؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾﴾

(وكم) وكثيراً **(من قرية)** من القرى **(أهلكناها)** وأهلها حيث لم يؤمنوا بما أنزل الله تعالى ولم يتّبعوا شريعته ولم يؤمنوا برسله وكتابه **(فجاءها بأسنا)** عذابنا الّذي دمرناها به **(بياتاً)** أي في اللّيل **(أو)** جاءهم العذاب حينما **(هم قائلون)** أي نائمون نوم القيلولة وهو النّوم في نصف النّهار **(فما كان دعواهم)** معذرتهم **(إذ)** حينما **(جاءهم بأسنا إلّا أن)** إعترفوا و**(قالوا إنّا كنّا ظالمين)** إلّا أنّه لم يفدهم هذا الإعتراف لأنّ كلّ توبة أو إيمان أو إعتراف لا يفيد حين البأس وهو وقت معاينة العذاب أو علامات الموت.

تنبيه: قوله: (أو) في (أو هم قائلون) للتّقسيم لا للتّرديد، فالمعنى: أنّ عذاب الله كان يأتي على أهل القرى باللّيل قبل الصّبح أو وقت القيلولة لأنّ هذين الوقتين من وقت الإستراحة والغفلة وعدم الشّعور بالعذاب، وفي الآيتين إنذار لأهل مكّة وغيرهم ممن أرسل إليهم الرّسول وأنزل إليهم القرآن بأنّهم إن لم يتّبعوا القرآن ولم يعتنقوا الإسلام فإنّ الله تعالى يعذّبهم في الدّنيا كما عذّب الأقوام السّابقين لعدم إتّباعهم لرسل الله ودينه،ولعدم تطبيقهم لكتابه وشريعته.

* * *

ثمّ بعد أن أنذر الله النّاس بعذاب الدّنيا أراد أن ينذرهم بعذاب الآخرة أيضاً، فقال جلّ وعلا:

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾

(فلنسألن) أي فوالله لنسألنّ يوم القيامة الأقوام ويقال لـ **(الّذين أرسل إليهم)** الرّسل والكتب والشّرائع من الله تعالى هل بُلِّغْتم بذلك؟ ولماذا ما أجبتم وما أتّبعتم رسلي؟ وما طبّقتم شريعتي؟ **(ولنسألنّ المرسلين)** إليهم، هل بلّغتموهم رسالتي وشريعتي، وهل أجابوا وامتثلوا أو لا؟ فالرّسل والعلماء والدّعاة مسؤولون عن الدّعوة والتّبليغ قولاً وعملاً، والأمّة مسوؤلة عن الإستجابة للدّعوة والإتّباع والعمل بما أنزل إليهم من المبدأ

والعقيدة والأخلاق والآداب والأحكام، وما رسم الله تعالى لهم أفراداً وجماعات وفي نواحي الحياة كلّها وفي ميادين العمل جميعاً، وفائدة سؤال الرّسل مع علم الله بهم أنّهم بلّغوا وأدّوا ما وجب عليهم هي: أنّ بعض الكافرين ينكرون مجيئهم وتبليغهم فيسألون للشّهادة على الأمم، وفائدة العلماء والدّعاة أن يظهر المقصّر مِن غيره فلا يلومنّ إلّا نفسه إذا عذّب علي التّقصير في الدّعوة والتّواني فيها، وفائدة سؤال الأمم ليتبيّن قصور من قصر ووفاء من وفّى بما عليه، ولا يبقى حجّة لمن عذّب، وليعترف بذنبه وإستحقاقه للعذاب وليظهر عدل الله تعالى، وأنّه ليس بظلّام للعبيد. ثمّ بعد هذا السّؤال ينكر من ينكر أعماله أو ينسى أو يتلجلج من يتلجلج لسانه، فيظهر الله تعالى لهم سجلّ أعمالهم، ويخبرهم بكلّ ما فعلوا من خير وشرّ، كما قال تعالى **(فلنقصّن)** أي فبعد هذا السؤال **(نقصنّ)** أي نخبرنّ ونتلونّ **(عليهم)** على المرسلين، والمرسلين إليهم أعمالهم إخباراً مقروناً **(بعلم)** بكلّ هذه الأعمال خيراً كانت أو شرّاً حيث **(وما كنّا)** في الدّنيا **(غائبين)** عنهم وعن أعمالهم، فلم يكن لتخفى علينا أعمالهم.

تنبيه: إنّ هذا السّؤال عامّ للمرسلين والمرسل إليهم، وكذا قوله: (ولنقصنّ عليهم) وبهذا يتميّز الكافرون والمؤمنون، فيساق الكافرون إلى جهنّم دون الوزن والحساب، والمؤمنون يبدأ الله بحساب أعمالهم ووزنها ليتبيّن لهم نسبة حسناتهم إلى سيّئاتهم، وينال كلّ درجته الّتي يستحقّها من الجنّة؛ فإنّه يروى أنّ الرّسول محمّد (ﷺ) قال: (إنّ الله أعطاكم الجنّة بإيمانكم فقسّموها بينكم بأعمالكم)[1]، فقوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ خاصّ بالمؤمنين ولا وزن ولا حساب للكافرين بعد أن ثبت كفرهم، وهذا ما أرى ويرتاح له قلبي، إلّا أنّ المفسّرين الّذين رأيت أقوالهم، يفسرونه بما يشمل الكافرين والمؤمنين، ويحملون ثقل الموازين على ثقلها بالإيمان وخفّتها بالكفر، ويدخلون في مناقشة مع المرجئة بما لا يحتاج إليه، حيث إن هذه الآية لا يشمل الكافرين بتاتاً وإنّما هي مختصّة بالمؤمنين، لأنّ الوزن للأعمال لبيان نسبتها لا للكفر والإيمان، وأن الكافرين لا وزن لأعمالهم ولا حساب، وذلك بدليل الآيات التّالية:

١- قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ سورة آل عمران الآيتان/ ٢١- ٢٢ ـ ومعنى الحبط: الإبطال وعدم الإعتداد بها وعدم حسابها ووزنها.

---

(١) لم أجده فيما اطلعت عليه.

٢ ـ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ـ سورة الأعراف الآية/ ١٤٧.

٣- قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ سورة التوبة الآية/ ١٧.

٤- قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ـ سورة هود الآيتان/ ١٥-١٦ ـ فهاتان الآيتان تنصّان على أنّ الكافر لا ثواب له في الآخرة على الأعمال وأنّها باطلة؛ فإذن لم الوزن ولم الحساب.

٥ ـ قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ سورة إبراهيم الآية/ ١٨ ـ مما يدل على عدم الإعتداد بأعمال الكفار.

٦- قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ سورة الكهف الآية/ ١٠٥ ـ فهل يبقى شك بعد هذه لآيات في أنّ أعمال الكفار لا توزن.

٧- قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ سورة الفرقان الآية/ ٢٣.

٨- قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ﴾ أي أحبط (أَعْمَالَهُمْ﴾ سورة محمد الآية/ ١ ـ أي فلا يعتدّ بها، فلا داعي إلى الوزن والحساب.

٩- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ سورة محمد الآية/ ٨ ـ.

* * *

هذا والآيات في إحباط أعمال الكفّار وعدم الإعتداد بها، وعدم حسبانها ووزنها كثيرة جداً؛ فلذلك يجب أن يكون قوله تعالى هنا: **(وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ)** مختصاً بالمؤمنين فنقول: **(والوزن يومئذٍ)** أي يوم إذ سئل المرسلون والأمم، وتُليَ عليهم أعمالهم **(الحقّ)** أي الثّابت، ذلك الوزن للمؤمنين، فيوزن حسناتهم و سيئاتهم فتكون نتيجة الوزن ما قال تعالى: **(فمن ثقلت موازينه)** بأن زادت حسناته على سيئاته أو ساوتها **(فأولئك هم المفلحون)** أي الفائزون بالنّعيم، حيث يدخلون الجنّة دون عذاب **(ومن خفّت موازينه)** بأن زادت سيئاته على حسناته **(فأولئك الّذين خسروا أنفسهم)** حيث

جعلوها مستحقّة للعذاب بقدر سيئاتهم وإلى أن يتطهّروا، وذلك العذاب **(بما)** أي بسبب ما **(كانوا بآياتنا)** أي عن أحكامنا **(يظلمون)** يتجاوزون ويخالفونها. هذا ما أرى في هذا المقام والله تعالى أعلم.

ثمّ بعد أن أنذرهم الله تعالى بعذاب الدّنيا والآخرة، أراد أن يذكّرهم بنعمه الّتي أنعم بها عليهم ليشكروه فيؤمنوا به، ويوحّدوه ولا يشركوا به، ويتّبعوا شريعته فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾

(ولقد) كلّما وجدت لقد في القرآن الكريم فاللّام جواب لقسم محذوف تقديره: وبعزّتي لقد **(مكّناكم)** أي أسكنّاكم وأعطيناكم القوّة على التّصرف فيها **(وجعلنا لكم فيها معايش)** جمع معيشة وهو ما يعيش بها الإنسان من الحبوب والطّعام واللّحوم والنّباتات والأشجار والثّمار **(قليلاً ما)** أي قليلاً جداً **(تشكرون)** هذه النّعم حيث منكم من يشرك بالله، ومن يكفر به ومن يصرف نعمه هذه في غير ما أباحه، ومنكم من ينحرف عن شريعته وأمره ونهيه فيعصي ويذنب ويفجر.

ثمّ لقد سبق أن أثبت الله تعالى في شريعته عقيدة التّوحيد وألوهيّته وربوبيّته ووجوب اتّباع شريعته في سورة الأنعام بالأدلة والبراهين والحجج من الآفاق والأنفس، وفي هذه السّورة أراد أن يثبت هذه العقيدة بالقصص والأخبار الّتي كلّها عظة وملؤها عِبَر؛ ليتعظ بها النّاس ويعتبر، فلا ينحرف عن التّوحيد إلى الإشراك، ولا عن شريعته إلى نظم أخرى باطلة وضعتها الأهواء، ومن ليس له حقّ التّشريع لكي لا يبتلوا ويهلكوا كما هلك هؤلاء الأمم السّابقة وخسروا الدّنيا والدّين نتيجة إنحرافهم عن الحقّ واتّباعهم لشياطين الإنس والجنّ والدّعوة إلى الباطل والإشراك بالله وإلى شريعة الأرض وأنظمة العباد، فبدأ تعالى أولاً بقصّة إبليس، ثمّ يأتي بعد ذلك بقصّة آدم، ثمّ قوم نوح وأقوام رسل آخرين إلى أن يأتي إلى قوم الرّسول الأعظم محمّد (ﷺ) فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾

(ولقد خلقناكم) أي لقد قدّرنا إيجادكم **(ثمّ)** بعد تقديرنا الإيجاد **(صوّرناكم)** أي أخرجناكم في هذه الصّورة الّتي أنتم عليها، فأوجدنا آدم لتتناسلوا منه **(ثمّ)** بعد أن أوجدنا آدم **(قلنا للملائكة اسجدوا لآدم)** تكريماً له وتقديراً وإعترافاً بفضله، وقد مرّ الكلام على هذه السّجدة في سورة البقرة **(فسجدوا)** الملائكة كلّهم إلّا إبليس أي الشّيطان سمّي إبليس من أبلس ومعناه: قلّ خيره، أو يئس من رحمة الله، أو حزن وانكسر، وكلّ هذه المعاني وجدت في إبليس، فامتنع الشّيطان من السّجود لآدم و**(لم يكن من السّاجدين)** له **(قال)** تعالى لإبليس **(ما)** أي شيء وسبب **(منعك)** حملك على **(أن لا تسجد)** لآدم **(إذ)** أي وقتما أمرتك بالسّجود له، حيث كان الأمر يشمله فإن قوله: **(ثمّ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم)** كان معناه: أنتم ومن معكم، والشّيطان كان معهم أولاً لأنّه حين يؤمر الملائكة بالسجود لآدم فالشّيطان يكون مأموراً بذلك بالأولى، لأنّه أنزل درجةً من الملائكة؛ إذ هو من الجنّ والملائكة أشرف من الجنّ **(قال الشّيطان)** لم أسجد له لأنّه **(أنا خير منه)** من آدم لأنّه **(خلقتني من نار وخلقته من طين)** والنّار خير من طين، فالمخلوق منها خير من المخلوق منه، فكان الأولى أن تأمره أن يسجد هو لي لا أنا أسجد له **(قال)** تعالى للشّيطان **(فاهبط منها)** أي من حظيرة القدس، وهي مجمع الملائكة المقرّبين **(فما يكون)** أي ما يمكن أن تتكبّر فيها أي في هذه الحظيرة والبقعة، لأنّه ليس مكاناً للمتكبّرين **(فاخرج إنّك من الصّاغرين)** من الأذلّين، حيث استكبرت في مكان لا يليق بالتكبّر فيها ومن تكبّر أذلّه الله تعالى.

وهنا فوائد نذكرها إن شاء الله تعالى:

الفائدة الأولى: إنّ القياس لا يجوز في مقابلة النّص ولا يعمل به أبداً.

الفائدة الثّانية: إنّ من عدل عن أيّ حكم من أحكام الله تعالى إلى حكم آخر، ورأى ذلك الحكم أحسن منه من حكم الله فقد كفر ويكون مطروداً من رحمة الله تعالى، فإنّ الشّيطان لم يطرد لعدم سجوده، بل طرد لأنّه اعترض على حكم الله تعالى ورأى حكمه أحسن من حكم الله تعالى؛ وذلك لأنّ من فعل ذلك، فقد نسب الجهل إلى الله تعالى، فيستحق اللّعن والطّرد من رحمته وما أكثر هؤلاء اليوم.

الفائدة الثّالثة: إنّ الشّيطان أخطأ حينما رأى النّار خيراً من الطّين، فإنّ كلّ المنافع في الطّين، فإنّ هذه المعادن والنّباتات والأشجار وما به قوام حياة الإنسان وتقدمّه وما فيه إختراعاته كلّها من الطّين، ولا يوجد شيء من ذلك في النّار، فالطّين خير من النّار بكثير.

الفائدة الرّابعة: إنّ الإنسان إذا صلح يكون أشرف من الملائكة؛ حيث أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم، وإنّما يؤمر المفضول بالسّجود لأفضل منه، ويدلّ على أفضلية الإنسان من الملائكة صريحاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ سورة البينة الآية/ ٧ ـ أي خير المخلوقات كلّها والملائكة من المخلوقات، ولهذا ذهب أهل السّنة والجماعة إلى أنّ خواصّ الإنسان أفضل من خواصّ الملائكة، وخواصّ الملائكة أفضل من عوام الإنس، وعوام الإنس أفضل من عوام الملك، وهذا كلّه للمؤمنين وإلّا فالكافر شرّ من كلّ شيء حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ ـ سورة البينةالآية/ ٦ ـ أي المخلوقات كلّها.

الفائدة الخامسة: إنّ التّكبّر صفة ذميمة جدّاً ويحمل صاحبه على الكفر؛ ولذا قال (ﷺ): (لا يدخل الجنّة من كان في قلبه مثقال ذرّة من كبر)[١]، هذا وإنّ الكبر هو غمط الحقّ وإنكاره وعدم الخضوع كما فسره الرّسول (ﷺ) بذلك في حديث آخر[٢] الفائدة السّادسة: إنّ المعصية في بعض الأماكن شرّ منها في أماكن أخرى، فالمعصية في حضيرة القدس أوجب اللّعن والطّرد لا في مكان آخر، يروى أنّ رجلاً رأى أناساً يطردون النّاس من المطاف ليطوف أحد العظماء، وبعد مدّة رأى ذلك العظيم يستجدي في سوق بغداد، فقال له: ألست الّذي كان يطرد لك النّاس في المطاف؟ قال: بلى، تكبّرت في مكان يتواضع فيه النّاس فأذلّني الله تعالى في مكان يتكبّر فيه النّاس.

﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾

---

(١) صحيح مسلم ١/ ٩٣ الحديث رقم ٩١.

(٢) يشير إلى تكملة الحديث نفسه وهي: (قال رجل إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس).

(قال) الشّيطان لله **(أنظرني)** أي أمهلني ولا تمتني **(إلى يوم يبعثون)** يحيون هؤلاء الّذين تخلقهم من ظهر آدم ونسله **(قال)** تعالى له **(إِنَكَ مِنَ الْمُنْظَرِين)** أي الممهلين إلى ذلك اليوم وهو يوم القيامة **(قَال)** الشّيطان لله تعالى **(فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي)** أي بسبب أنّك حكمت عليّ بإغوائي وضلالي بسبب عدم السجود لآدم، وكان آدم سبباً لهذا الّذي أصابني سأنتقم منه ومن ذريّته وبعزّتك قسمي **(لأقْعُدَنَّ لَهُمْ)** أي إضلال بني آدم **(صرَاطَكَ الْمُسْتَقِيم)** فأضلّهم عنه **(ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ)** أي قدّامهم **(وَمَنْ خَلْفَهُمْ)** أي ورائهم **(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وعَنْ شَمَائِلِهِمْ)** جمع شمال وهي جهة اليسار، أي آتيهِمْ من كلّ الجوانب، كالجيش الّذي يأتي من كلّ الجهات فيحيط بالمرء فلا يستطيع أن يتحرك ويعمل ويسوقه إلى حيث يشاء، فآتيهم مثل هذا الجيش أنا وأعواني؛ لأسوقهم إلى الشّر والكفر **(وَلَا تَجِدُ)** بسبب إغوائي وإضلالي لهم **(أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِين)** لك مؤمنين بك وموحّدين لك ومطبّقين لشريعتك **(قَالَ اخْرُج مِنْهَا)** من حظيرة القدس **(مَذْؤوماً)** أي مذموماً **(مدْحُوراً)** أي معيباً وبعزّتي **(لَمَنْ تَبِعَكَ مِنهُمْ لأمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ)** أي التّابعين والمتبوعين **(أَجْمَعِينَ)** كلّهم مجتمعين فيها.

تنبيه: قال تعالى: (منكم) وما قال: (منهم) ومنكم؛ إشارة إلى أنّ من اتّبع الشّيطان فهو من الشّياطين، لأنّ الشّيطان معناه المفسد والبعيد من الله، فمن أفسد من الجنّ وابتعد عن دين الله تعالى فهو شيطان الجنّ، ومن أفسد وأبتعد عن شريعة الله فهو شيطان الإنس، فليس كلّ جنّ شيطاناً ولا كلّ إنسان شيطاناً، ولا كلّ شيطان من الجنّ، ولا كلّهم من الإنس، بل هناك شياطين من الإنس والجنّ، وأولياء الله من الطّرفين.

العبرة من هذه القصة أمور:

الأمر الأول: إن الشيطان طرد من الرحمة والقرب وساحة الرضوان لأنه انحرف عن شريعة الله فيجب على الإنسان أن لا يخالف حكم الله تعالى في أي شيء مخافة أن يطرد كما طرد أبليس.

الأمر الثّاني: إنّ إبليس أعلن أوّل ما خلق آدم عداوته له ولذريته، ووقف نفسه على إغوائهم وإضلالهم، فيجب على الإنسان أن يكون على حذر دائماً من هذا العدوّ ويتجنّب عنه، ويكون يقظاً من وساوسه ودسائسه، لكي لا يقع في شبكته ومصيدته، ولا يكون ذلك إلّا بتبعيّة شريعة الله تعالى حرفياً وعدم الإنحراف عنها، فإنّ كلّ إنحراف عن الشّرع هو اتباع للشّيطان ووقوع في مصيدته وإضلاله أعاذنا الله تعالى.

الأمر الثّالث: العلم بأنّ أكثر ما يضلّ الإنسان عن الصّراط المستقيم وعن الحقّ هو

الكبر والحسد؛ فإنّهما اللّذان أوقعا إبليس في المخالفة، وهما من صفات إبليس، فيجب على الإنسان أن يتطهّر من هاتين الصّفتين الخبيثتين، اللّهم فاحفظ.

* * *

ثمّ بعدما انتهى قصة إبليس وذكر الله تعالى مصيره ليكون عبرة، أراد تعالى أن يذكر مصير آدم، بعد ذلك أيضاً للعظة والإعتبار فقال جلّ وعلا:

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

(ويا آدم) أي وبعد أن تمّ الإحتفال بوجود آدم، وسجد له الملائكة وطرد الشّيطان من الملأ الأعلى، خاطب الله تعالى آدم وقال له **(يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنّة)** أي جنّة الخلد، وهو الأصحّ، أو جنّة من بساتين الأرض، والأوّل أصحّ، وقد حقّقنا ذلك في سورة البقرة **(فكلا)** من الجنّة **(من حيث)** من أي نوع شئتما من ثمار الجنّة **(ولا تقربا هذه الشّجرة)** وهي كانت شجرة معينة منع الله تعالى آدم وحواء من الأكل منها، ولم يعيّن لنا ماهيّة الشّجرة وهويّتها لا في القرآن ولا في السّنة؛لأنّ القصّة للعبرة ولا علاقة للعبرة بشجرة دون شجرة، وإنّما العبرة في الإمتحان والأمر ومخالفته، وهو حاصل بأيّ شجرة كانت **(فتكونا)** بالأكل منها **(من الظّالمين)** أي المتجاوزين حدود الله تعالى والمخالفين لأمره **(فوسوس)** فألقى الشّيطان **(لهما)** إليهما كلاماً في النّفس، وزيّن

لهما الأكل من الشّجرة (**ليبدي لهما ما وري**) ما ستر (**عنهما من سوآتهما**) من عوراتهما، واللّام في ليبدي لام الغرض، فكأنّ غرض إبليس من أكلهما من الشّجرة حملهما على الخطيئة، ولكنّ غرض إبليس من حمل النّاس على المعاصي نفس المعاصي، لأن المعاصي كلّها فيها لذّة للمرء وتمتّع من حيث ذاتها، فلا تكون هي من غرض الشّيطان؛ لأنّ الشّيطان عدوّ لا يريد التّمتّع واللّذة للإنسان، بل إنّما يقصد من المعاصي عواقبها من الإنتقام العاجل أو الآجل الّذي يأتي على العاصي بعد معصيته، فكان إبليس يعلم أنّهما إن أكلا من الشّجرة ينتزع عنهما لباس الجنّة ويطردان منها، فكان الغرض الأصل له نزع اللّباس وكشف عورتهما وطردهما من الجنّة، فلذلك قال تعالى: (لِيُبدِيَ لَهُما ... إلخ) ولم يقل ليأكلا لأنّ الأكل لم يكن مقصوداً له بالذّات ولم يقل: (لِيُبْدِيَ لَهُما سَوْآتِهِما.... وَيُطْرِدا من الجنّة) إختصاراً، إذ المفهوم ليبدي لهما، وما يأتي بعد ذلك عليهما من العواقب غير محمودة. ثمّ شرح الله تعالى كيفيّة وسوسته وتزيينه الأكل من الشّجرة، فقال جلّ وعلا: (**وقال**) لهما (**ما نهاكما ربّكما عن هذه الشّجرة**) والأكل منها (**إلّا**) كراهة (**أن تكونا ملكين**) بالأكل منها (**أو**) أن (**تكونا من الخالدين**) في الجنّة. فإن من أكل منها أصبح ملكاً وخالداً في الجنّة، وفي قراءة ملكين بكسر اللام أي مالكين لملك دائم وهذا موافق لقوله تعالى: إذ يقول: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ سورة طه الآية/ ١٢٠ ـ وهذه القراءة أيضاً مناسبة لأنّ يغتر آدم وحواء، لأنّ كلّ إنسان يحبّ الملك الدائم والخلود، وأمّا قراءة فتح اللّام فالإغترار بالخلود ظاهر، وأمّا بكونهما ملكين فلا؛ لأنّ آدم أكبر من الملائكة؛ حيث كان نبيّاً وسجدوا له، فكيف يأكل ليكون ملكاً وهو أرفع شأناً منه؟ وأجيب عن هذا الإشكال بعدة أجوبة أحسنها أحبّ آدم أن يكون له قوّة الملك، وأن يكون من سكان العرش والملأ الأعلى (**وقاسمهما**) أي وحلف لهما كثيراً قائلاً: (**إنّي لكما من النّاصحين**) المخلصين (**فدلاهما**) أي فنزلهما عن عزمهما (**بغرور**) بسبب أن غرّهما بإخلاصه لهما، وبما ذكر كذباً من العواقب الحسنة والفوائد من هذا الأكل، فأكلا، فبعد الأكل لم يبق إستحقاق البقاء في الجنّة والتّمتّع بما فيها من كسوة الجنّة ولباسهما (**فلمّا ذاقا**) أكلا (**الشّجرة**) نزع عنهما لباسهما و(**بدت لهما سوآتهما**) عوراتهما (**وطفقا**) اي شرعا وبدءآ (**يخصفان**) يضعان (**عليهما**) على عوراتهما ما يسترهما (**من ورق**) أشجار الجنّة؛ فيتزرون ويرتدون بها كهيئة المحرم بالحجّ أو العمرة، ولعلّ الحكمة في هذا العمل للمحرم تذكر حال الجدّ الأعلى، وإنّه أصيب بالخطأ، فيتجنّب عن الأخطاء أو

يتوب كما تاب جدّه الأعلى، والإنسان الأوّل **(وناداهما ربّهما)** وقال لهما على وجه الزّجر والتّنبيه **(ألم أنهكما عن)** الأكل من **(تلكما الشّجرة)** فلماذا أكلتم منها **(و)** ألم **(أقل لكما إنّ الشّيطان لكما عدو مبين)** فلا تطيعوه فيما يوسوس أو يقول لكم **(قالا ربّنا ظلمنا أنفسنا)** حيث جعلناها مستحقّة للعذاب **(وإن لم تغفر لنا وترحمنا)** ولرحمتك تغفر **(لنكوننّ من الخاسرين)** الفاقدين نعمة التّمتّع بالجنّة **(قال)** تعالى **(اهبطوا)** انزلوا كلّكم أي آدم وحواء وإبليس من الجنّة إلى الأرض **(بعضكم لبعض عدو)** ففسقة النّاس أعداء الصّالحين من الإنس والجنّ، وفسقة الجنّ أعداء الصّالحين من الجنّ والإنس، والنّاس من طبيعتهم أن يعدو بعضهم على بعض في الأموال والأطماع والمناصب **(ولكم في الأرض)** أفراداً وجماعات **(مستقرّ)** استقرار **(ومتاع)** وتمتّع **(إلى حين)** مخصوص، فكلّ فرد له أجل محدود لحياته علي الأرض، ولكلّ أمّة أجل محدود، وللبشريّة أيضاً وقت محدود. ثمّ بين الله تعالى كيفية إستقرارهم في الأرض فقال جلّ وعلا: **(فيها تحيون)** للعمل والإكتساب **(وفيها تموتون)** وتنقطعون عن الأحباب **(ومنها تخرجون)** يوم القيامة للجزاء والحساب، وبهذا تمّ إسكان الإنسان والشّياطين في الأرض ليؤدّي كلّ واحد دوره في الحياة.

العبرة في القصّة: يؤخذ من هذه القصّة عِبَرٌ وعظات:

الأولى: أن يعلم الإنسان أنّ الشّيطان عدوّ له فلا يأمره إلّا بالشرّ وبما فيه الضّرر للدّنيا والآخرة، فيجب أن يجتنب عنه فلا يطيعه في شيء من أمور الحياة، وأن الإجتباب عنه إنّما يكون باتباع شريعة الله وتطبيقه في جميع شؤون الحياة ونواحيها.

الثانيّة: ليعلم الإنسان أنّ المخالفة لأمر الله تعالى تسبّبت لأن يبعد الإنسان من الجنّة ويسكن في هذه الإرض، وابتلى بما فيها من التّعب والكدّ والشّقاء؛ ليتجّنب بذلك عن المعصية والأخطاء، ليرجع إلى الجنّة الّتي لا يجوع فيها ولا يعرى ولا يظمأ فيها ولا يضحى، ولا يتعب ولا يشقى.

الثّالثة: أن يعلم أن دواء الذّنوب والآثام هو التّوبة إلى الله تعالى والإعتراف بالذّنب والإقلاع منه، ليتدارك المرء موقفه حينما أبتلى بذنب أو خطأ أو زلل، فيتوب ويستغفر ربّه، فإنّ الله غفور يغفر له ورحيم ويرحم به.

❊ ❊ ❊

سؤال: إنّ إبليس خالف، وآدم خالف أيضاً، فلم أصبح الشّيطان ملعوناً مطروداً من رحمة الله تعالى وعاد آدم محبوباً لله تعالى ونبيّاً من أنبيائه ؟

الجواب: إنّ إبليس خالف واتّهم الله تعالى، ونسب إلى الله تعالى الخطأ في الحكم، فكفر ولم يتب، فبقي عدوّاً لله تعالى، ولكنّ آدم خالف ثمّ إعترف بالذّنب وتاب فعاد محبوباً، فإنّ الله يحبّ التّوابين، وهكذا من إعترض على حكم من أحكام الله يصير كافراً وعدوّاً لله إلّا أن يتوب، وكلّ من عصى فاعترف بالذّنب فتاب يكون حبيب الله تعالى، رزقنا الله تعالى التّوبة والإنابة، آمين.

* * *

ثمّ تبيّن من هذه القصّة أنّ كشف العورة والتّسفر أمر منكر لا يرتضيه الجبلّة البشرية؛ ولذلك حينما اكتشف عورة آدم وحواء أسرعا إلى سترهما بوضع أوراق الأشجار عليهما، وتبيّن أيضاً أنّ كشف العورات ممّا يدعو إليه الشّيطان؛ لأنّه كان الغرض من وسوسته إلى آدم وحواء هو كشف عورتهما، وتبيّن أيضاً أنّ ستر العورة هو ممّا يحبّه الله تعالى ويدعو إليه، ولذلك خلق اللّباس وعلّم الله الإنسان صنع اللّباس ولبسه، فقال تعالى مخاطباً البشر بعد أن أسكنهم الأرض، فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

(يا بني آدم) أي قلنا لبني آدم بعد إسكانهم الأرض **(قد أنزلنا عليكم لباساً يواري)** يستر **(سوآتكم)** عوراتكم **(وريشاً)** أي وزينةً لكم، فجعل الله اللّباس للزّينة وللسّتر **(ولباس التّقوى)** وهو الّذي يستر النّفس عن الميل إلى المعاصي **(ذلك)** اللّباس **(خير)** من اللباس الجسدي؛ لأنّه إذا لم يكن التّقوى لا يكون السّتر والأكل فضيلة أو خلق كريم **(ذلك)** أي أنزل الله تعالى اللّباس وخلقه **(من آيات الله)** الدّالة على وجوده

وقدرته ووحدته، وهذه الآيات كلّها يظهرها الله تعالى **(لعلهم)** أي لعلّ بني آدم **(يذكرون)** أي لكي يتذكّروا في الآيات ويتفكّروا فيؤمنوا بالله ويوحّدوه ويتّبعوا شرعه ويطبّقوه.

تنبيه: كيفيّة إنزال الله تعالى اللّباس من السّماء أي من العلوّ هي أنّ الله تعالى ينزل من السّماء المطر، وفي المطر مادّة تختلط بالتّراب فينبت منه النّباتات ومن النّباتات ما يصنع منه اللّباس كالقطن وغيره، والنّباتات أيضاً تصبح غذاءً للحيوان، فيصبح الغذاء نطفةً ومن النّطفة تولّد الحيوانات ومن الحيوانات يؤخذ الصّوف والوبر والشّعر، ومنها يصنع اللّباس فكلّ شيء من الموجودات الأرضية هو من الماء الّذي يختلط بالتّراب، فالمطر حينما ينزل فيه مواد إذا إختلط بالأرض يصبح ذهباً أوفضّةً أو نحاساً أو حديداً إلى غير ذلك بدليل قوله تعالى: ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للنّاس﴾ ـ سورة الحديد الآية/ ٢٥ ـ وكذلك أنزل تعالى الإلهام إلى قلوب بعض النّاس فعلّمهم بهذا الإلهام صنع اللّباس فصنعوه ولبسوه، وهذه الأمور كلّها من آيات الله، فحقّ ما قال الشّاعر:

وفي كلّ شيء له آية تدل على أنّه الواحد

* * *

ثمّ قد كان في زمان الجاهليّة التّكشف وعدم ستر العورات والسّفور معتاداً، وكان يروّجها بعض شياطين الإنس مثل ما يفعل الشّياطين من الإنس اليوم، فقال تعالى: **(يا بني آدم لا يفتننّكم)** لا يضلنّكم **(الشّيطان)** من الإنس أو الجن بدعوته إلى كشف العورات والفسق والفجور من أي نوع كانت **(كما أخرج أبويكم)** أي أباكم آدم وأمّكم حواء فثنّيا على لفظ أبوين تغليبا كالقمرين تثنية للشّمس والقمر، أخرجهما بفتنته من الجنّة **(ينزع عنهما لباسهما)** أي أصبح سبباً لنزع لباسهما **(ليريهما سوآتهما)** عوراتهما بالكشف عنها، فاحذروا من هذا الشّيطان حيث **(إنّه يراكم هو)** أي مطلع عليكم **(و قبيله)** أي وأعوانه **(من حيث)** من مكان **(لا ترونهم)** لِلَطافة أجسامهم فيوسوسون إليكم الشّر من كلّ نوع، وكذلك شياطين الإنس من حيث لا ترونهم، إنّهم شياطين لأنّهم يأتون إليك كناصح ومثقّف ومنوّر، ويدّعون أنّهم يعلمونك التّمدن والتّقدم والتّحضر وينقذونك من الرجعيّة والخرافة والرّجوع إلى الوراء **(إنّا جعلنا الشّياطين أولياء)** أي متسلّطين وقادة **(للّذين لا يؤمنون)** أي لا يختارون الإيمان بشريعة الله تعالى فيقودونهم

إلى الميوعة والخلاعة والرّجوع إلى البهيميّة والطّبيعة الحيوانيّة من الرّكض وراء الشّهوات دون وازع ونظام وتحفّظ، وإنّما نظامهم إفعل ما تشتهي، وكُلْ ما تشتهي، واشرب ما تريد، واركض وراء الشّهوات كالبهائم والأنعام(١).

لطيفة: أتذكّر أنّه أقيمت حفلة بمناسبة مولد الرّسول الأعظم (ﷺ) عام ١٩٦٧ فألقيت قصيدة بالمناسبة، وهجمت فيها على بعض الأمور الّتي اتّخذت في هذا العصر شعاراً للتّقدم والتّمدن والحضارة، وكان في القصيدة هذه الابيات:

لو كان في هذا السّفور تقدم ... فقد تقدّم قبلكم حمار

إن قيل لي فإنّك الرّجعي ... قلت نعم والرّجعة أختار

إنّ الرّجوع للفضيلة يحمد ... كما التّقدم للرّذيلة عار(٢)

وكان هناك مسؤولون كبار(٣) فأعجبتهم القصيدة والحمد لله تعالى.

* * *

(١) كما يقول تعالى في سورة محمد: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (١٢)﴾

(٢) صحيح أن الإقدام على الرّذيلة ليس تقدما، ذلك لأن مظاهر السّفور والمجون وشرب الخمور والقمار وأمثالها هي مظاهر رجعية تعود إلى عصور ما قبل الإسلام، فجاء الإسلام حالة متقدمة ومتطوّرة بالنّسبة إليها فنقل النّاس من وحشيّة تلك المظاهر وتفاهتها إلى حضارة الإسلام ومفاهيمه الرّاقية، ومفهوم التّقدم هو الإنتقال من حالة ظهر فسادها وضررها إلى حالة الصّلاح وتحقيق المنافع بالقضاء على تلك المفاسد والأضرار. لذلك فإن الرّجوع إلى مظاهر ما قبل الإسلام رجعيّة وانتكاسة لا العكس. فالعالم الآن يعيش حالة الرّجعية إلى الجاهليّة والضّلال. ولاعبرة بما حصل في عالمنا اليوم من التّقدم الصّناعي والتّقني المادّي لأنّ المفاهيم والعقيدة والأخلاق والعلاقات والإجتماعيّة شيء واعتبار التّقدم بها، وتقدم صور الأدوات الماديّة لتسهيل الحوائج المعيشية شيء آخر و اعتبار ليس بها ولا يدل على رقي صاحبه، فقد نرى عالما في الذّرة والإلكترون يعبد الصّنم ويشرب الخمر ويرتكب الزّنا. لذلك فالتقدم بالفكر والعقيدة والأخلاق والتّشريع لا بتنوع الأشكال المدنيّة والحوائج الإقتصاديّة، فماذا نصنع بمن يبني ناطحات السّحاب ويستعمل أحدث الوسائل التقنية لكنّه في نفس الوقت يحمل عقليّة استعمارية وخلقا استهداميّة وحشيّة يحتل الشعوب ويميتهم جوعا ويسرق خيراتهم ويقتل بعضهم ببعض مع ذلك يسمّي نفسه أرقى الأمم في الدّيموقراطيّة والعلمانيّة...!

(٣) ومن المسؤولين الذين حضروا خير الله تلفاح محافظ بغداد آنذاك.

فالسّفور والتّعرّي كان من التّقاليد المستحسنة في الزّمن الجاهليّ، وقد اتّخذوا التّعرّي شرطاً لبعض العبادات، فكانوا يطوفون بالبيت وهم عراة، ويرون أنّ ذلك من شرط صحّة الطّواف، وينسبون ذلك إلى الله تعالى، فكذّبهم الله تعالى فقال جلّ وعلا: **(وإذا فعلوا فاحشةً)** كعبادة الأصنام ووأد البنات وكشف العورات وغير ذلك ممّا انتشر فيهم من الفواحش وأمرهم الرّسول بترك ذلك **(قالوا إنّا وجدنا عليها)** أي على هذه التّقاليد آباءنا فلا نتركها حفظاً على تقاليدهم وعاداتهم **(والله أمرنا بها)** أي بهذه الأمور **(قل)** إنّ هذه الأمور فحشاء وكذبتم في قولكم، وأمرنا الله بها حيث **(إنّ الله لا يأمر بالفحشاء)** من أي نوع كانت **(أتقولون على الله)** أموراً وتنسبونها إليه **(ما لا تعلمون)** من الأحكام والأمور والعادات والتّقاليد والاستفهام للزّجر والتّوبيخ والإنكار، لأنّ يكون هذه الأشياء ممّا يأمر به الله تعالى. وفي هذه الآية إنكار شديد وذمّ فظيع للتّقليد الأعمى واتّباع عادات النّاس دون رؤية وفكر في صحتها وفسادها، وبمجرد أنّه قاله فلان أو فعله فلان، فإنّ كلّ إنسان يؤخذ منه ويردّ عليه إلّا رسول الله (ﷺ).

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّه لا يأمر بالفحشاء، أراد أن يبيّن بعض الأمور الّتي يأمر بها فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

(قل) أيّها النّبي ويا أيّها المسلم للمنحرفين **(إنّ الله لا يأمر بالفحشاء)** بل **(إنّ الله يأمر بالقسط)** أي بالعدل فاعدلوا **(وأقيموا)** أي إعدلوا **(وجوهكم)** أي إتجاهكم **(عند كلّ مسجد)** مصدر ميمي بمعنى السّجود والسّجود بمعنى العبادة والطّاعة، فالمعنى: إجعلوا اتجاهكم في كلّ عبادة وإطاعة مستقيماً وعدلاً بأن تكون مما شرّعها الله تعالى، ووفق ما شرّعها، ولا يكون ذلك إلّا بالعمل وفق كتاب الله تعالى وسنّة رسوله **(وادعوه)** أي اعبدوا الله تعالى **(مخلصين)** مطهرين **(له الدّين)** فيه تقديم وتأخير، والأصل مخلصين أي مطهّرين الدّين، والعبادة له عن كلّ قصد لإرضائه وعن كلّ ما لم يأمر به، ولم يشرّعه هو في كتابه أو على لسان رسوله، والمراد بالدّين المنهج والنّظام والشّريعة. ثمّ بعد أن أمر تعالى بالدّينونة له فقط والعبادة له فحسب والاتباع لمنهجه ونظامه دون ما

سواه، أنذر الّذين لا يستقيمون على هذا الإتجاه فقال جلّ وعلا: **(كما بدأكم)** أي كما خلقكم أولاً **(تعودون)** إليه بأن يحييكم بعد الموت فتعودون إليه فريقين **(فريقاً هدى)** الله إيّاكم فتمسّكوا بدينه وعملوا بنظامه، فهؤلاء يستحقّون التّكريم والنّعيم المقيم **(وفريقاً حقّ)** أي ثبت **(عليهم الضّلالة)** الإنحراف عن منهج الله والعدول عن شريعته حيث **(إنّهم اتّخذوا الشّياطين)** وهم الّذين يدعون إلى خلاف شريعة الله تعالى والعمل بغير نظامه فاتّخذوهم **(أولياء)** لأمورهم فاتّبعوهم **(من دون الله)** أي اتّبعوهم ولم يتّبعوا الله تعالى **(ويحسبون أنّهم مهتدون)** أي محقّون في مخالفة الله تعالى والعدول عن شريعته، فهولاء جزاؤهم الإهانة والعذاب الأليم وهم كَفَرَة. وأمّا الّذين يتّبعون المفسدين ويخالفون بذلك شريعة الله تعالى، ويحسبون أنّهم مبطلون ومذنبون فهم عصاة فيعذبون بقدر عصيانهم إلّا أن يعفو الله تعالى عنهم فإنّه غفور رحيم، اللّهم اغفر لي وارحمني فإنّك أرحم الرّاحمين. ورد في صحيح مسلم عن عروة عن أبيه قال: كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلّا الحمس، والحمس: قريش وما ولدت، فكانوا يطوفون بالبيت عراة إلّا أن تعطيهم الحمس ثياباً، فيعطى الرّجال الرّجال والنّساء النّساء، وكانت الحمس لا يخرجون من المزدلفة، وكان النّاس كلّهم يبلغون عرفات[1]، ويقول: الحمس نحن أهل الحرم فلا ينبغي لأحد من العرب أن يطوف إلّا في ثيابنا، ولا يأكل إذا دخل أرضنا إلّا مِنْ طعامنا، فمن لم يكن له من الحمس صديق يُعيره ثوباً ولا يسار يستأجره به كان بين أحد أمرين، امّا أن يطوف بالبيت عرياناً وإما أن يطوف في ثيابه، فإذا فرغ من طوافه ألقى ثوبه فلم يمسّه أحد، ويسمي ذلك الثّوب اللّقي، وكانت العرب أيضاً لا يأكلون في الحجّ إلّا قليلاً، ولا يأكلون دسماً، وكان بعضهم يقولون لا نطوف في ثياب عصينا فيه فيطوف عرياناً، وكانت هذه العادات ديناً عندهم وينسبونها إلى الله فأنزل الله جلّ وعلا:

﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ

(١) صحيح مسلم ٢٨٩٤ الحديث رقم١٢١٩.

ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣)﴾

(يا بني آدم خذوا زينتكم) أي لباسكم سميّ اللّباس زينة لأنّ الله تعالى قال: **(قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً)** أي وزينة فخذوا زينتكم والبسوا **(عند كلّ مسجد)** أي إلبسوا عند كلّ عبادة، ولا تؤدّوها وأنتم عراة؛ فلا تطوفوا بالبيت عراة فإنّه ليس من شرع الله، كما تقولون ذلك كذباً **(وكلوا)** كلّ ما أباح الله أكله ولا تحرّموا شيئاً من عندكم، فإنّ التّحريم والتّحليل من حكم الله تعالى، وليس لأحد حقّ فيه، فمن حلّل أو حرّم شيئاً من عنده فقد كفر وأشرك بالله نفسه، ومن اتّبعه فقد أشركه بالله في الحكم **(واشربوا)** كلّ ما أبيح لكم شربه **(ولا تسرفوا)** والإسراف هو تجاوز حدود الله تعالى، فلا تأكل فوق الشّبع ولا تشرب فوق الرّي فإنّه إسراف، والأكل والشّرب مِمَّا حرّمه الله تعالى[1] وإن كان قليلاً جداً إسراف لأنّه تجاوز عن حدّ الله تعالى وحكمه، والأكل من مال الغير والشّرب منه بدون إذنه إسراف وإن كان قليلاً، فالإسراف تجاوز ما حدّده الله تعالى. ثمّ شدّد الله تعالى النّكير على من حرّم مِنْ ما أحلّه الله تعالى فقال جلّ وعلا: **(قل من حرّم)** والإستفهام للإنكار والتّهديد فمن الّذي **حرّم** وله الحقّ في أنّه حرّم **(زينة الله التي أخرج لعبادِهِ)** وهو اللّباس وقت الطّواف كما فعله الجاهليّون الأوّلون، وكما يفعله جاهليّة اليوم فيحرّمون الحجاب باسم التّقدم والتّمدن **(و)** من حرّم **(الطيبات)** أي الحلال **(من الرّزق)** الّذي أحلّه الله تعالى كما كانت العرب يفعلون ذلك فيحرّمون بعض الأشياء في الحجّ أو في غيره، فمعنى الإستفهام أنّه ليس لأحد أن يحلّل أو يحرّم إلّا الله، فإنّ الله هو الحاكم تكليفاً كما هو الحاكم تكويناً، ومن حرّم أو حلّل دون الرّجوع إلى الله تعالى فقد كفر والعياذ بالله من ذلك **(قل هي)** أي الطّيّبات من الرزق **(للّذين آمنوا)** كغيرهم حلال، فالمسلم والكافر شركاء في هذه الطّيبات **(في الحياة الدّنيا)** وأمّا في الآخرة وهي أي الطّيبات **(خالصة)** مختصّة بالمؤمنين **(يوم القيامة)** لا ينالها الكافرون **(كذلك)** مثل ما ترى **(نفصل)** نتبين **(الآيات)** أي الأحكام **(لقوم يعلمون)**

---

(١) كالميتة والخمر.

يحبّون العلم بأحكام الله تعالى ليعلموا بها، وأمّا الجاهليّون وإن كانوا مكلّفين بالأحكام فلا يستفيدون منها إلّا أنّهم لا يطبّقونها، فلذا اختصّ العاملون بالذّكر وإشارة إلى أنّ من لم يتّبع حكم الله فهو جاهل مهما بلغ من الثّقافات. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّه لم يحرّم هذه الأشياء، أراد أن يبيّن ما حرّمه فقال جلّ وعلا: **(قل إنّما حرّم ربّي الفواحش)** أي المعاصي الّتي يخالف بها أمر الله تعالى فحرّمها كلّها **(ما ظهر منها)** وهي الأعمال القبيحة الظّاهرة **(وما بطن)** وهي العقائد الباطلة، وسواء أعلنت تلك الأعمال والعقائد أو أخفيتها فشملت هذه الفقرة كلّ المعاصي وكلّ الذّنوب عقائدية وفروعية وعلنيّة وسريّة. ثمّ خصّ الله تعالى بالذّكر ثلاثة أشياء، لأنّها أهمّ وأكثر خطراً على البشريّة فقال: **(والإثم)** أي الخمر وهي كلّ ما أسكر **(والبغي)** والتّعدي على حقّ النّاس من الأموال والأنفس والأعراض **(بغير الحقّ)** وأمّا بالحقّ كالقصاص وأخذ ما ضمن فأمر مشروع **(وأن تشركوا بالله)** **(ما)** شيئاً **(لم ينزل به)** بإشراكه له **(سلطاناً)** دليلاً من العقل أو النّقل، وهذا القيد ليس للإحتراز فيفيد أنّ ما أنزل الله بإشراكه دليلاً فأشركوه به حيث لا يوجد شيء من ذلك إلّا أنّ الله تعالى ذكر كذلك ليدلّهم إلى الدّلائل فيفكّروا فلا يجدوا دليلاً، فيكون يقينهم بعد ذلك أثبت وأحكم **(وأن تقولوا)** أي وحرّم عليكم أن تقولوا: **(على الله)** من الأحكام فتنسبوها إليه **(ما)** أحكاماً **(لا تعلمون)** أنّها من عنده، فالمعنى لا يجوز الحكم إلّا بعد العلم بأنّه من الله تعالى حسب كتابه أو سنّة أو إجماع أو قياس واضح جليّ.

ثمّ بعد ذكر هذه الأحكام أراد الله تعالى أن يوقظ الإنسان من غفلته وينزله من طغيانه ويخوّفه من عذابه؛ فلا يغفلْ عن حكم الله ولا يطغى، فيحكم دون أمر الله فقال جلّ وعلا:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

(ولكلّ أمّةٍ) الأمّة يطلق على الأفراد والجماعة بدليل قوله تعالى: **(كان إبراهيم أمةً قانتاً)** فالمعنى أن لكلّ فرد أجل محدود في الحياة ولكلّ جماعة أو قوم أجل معيّن **(فإذا جاء أجلهم)** المعيّن يقضى عليهم ويرجعون إلى حساب الله تبارك وتعالى وحينما جاء أجلهم **(لا يستأخرون)** أي لا يؤخّرون **(ساعةً)** والمراد بها الجزء الّذي لا يتجزأ من الزّمان. وإذا لم يأتهم أجلهم **(لا يستقدمون)** أي لا يقدم عذابهم على وقته المحدود المعلوم، وهذا جواب لقول المشركين وطلبهم من الرّسول تهكماً واستهزاءاً أن يأتيهم

بالعذاب الّذي ينذرهم به، فالمعنى إنّ العذاب يأتيكم لا محالة إلّا أنّ له وقتاً معيّناً لا يتقدّم عليه ولا يتأخّر، وقد جاءهم العذاب يوم بدر وفي الأيام الأخرى من القتال إلى أن ذلّوا وخضعوا للحقّ ورغم الأنوف. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أمره لبني آدم بعدما أسكنهم الأرض بالسّتر وعدم كشف العورات، وفي طيّ ذلك ردّ على بعض العادات الجاهليّة الّتي إعتبروها عبادة لله تعالى، أخبرهم باتّباع رسله والشّرائع الّتي يأتون بها من عند الله تعالى، فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾

(يا بني آدم) أي بعدما أسكنّا بني آدم الأرض ناديناهم فقلنا يا بني آدم **(إما)** أصله (إن ما) أدغم النّون في الميم، وإنّ للشّرط وما للتّأكيد أي إن **(يأتينّكم رسل منكم)** من جنسكم من قبلنا **(يقصّون)** يذكرون ويتلون **(عليكم آياتي)** أحكامي العقائديّة والتّكليفيّة **(فمن اتّقى)** إجتنب تكذيبهم وآمن **(وأصلح)** باتّباع أحكامي **(فلا خوف عليهم)** يوم القيامة **(ولا هم يحزنون)** على فوات الدّنيا لأنّهم يلقون داراً خيراً منها وحياةً أرقى وأزكى **(والّذين كذّبوا بآياتنا)** فلم يؤمنوا بها **(واستكبروا عنها)** فلم يطبّقوها **(أولئك أصحاب النّار)** أي أهلها وداخلوها **(هم فيها)** في النّار **(خالدون)** لا يخرجون منها أبداً.

ثمّ بعد هذا التّوحيد والأمر الإلهي العظيم ضلّ بنوا آدم فكذّبوا الرّسل ونسبوا إلى الله تعالى ما لا يليق به، ففي حقّ هؤلاء قال جلّ وعلا:

﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا

ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

(**فمن**) الإستفهام للإنكار فالمعنى لا أحد (**أظلم**) أكثر ظلماً (**ممن افترى على الله كذباً**) بأن نسب إليه الشّريك، كمن عبد الأصنام أو نسب إليه الولد، كقول اليهود عزير ابن الله تعالى، وقول النّصارى المسيح ابن الله، وكقول المشركين الملائكة بنات الله تعالى عن كلّ ذلك (**أولئك**) الّذين يفترون (**ينالهم نصيبهم**) حصّتهم (**من الكتاب**) من الّذي كتب وقدّر لهم من الحياة والتّمتّع بالدّنيا فيتمتّعون (**حتّى إذا جاءتهم رسلنا**) الملائكة الموكّلون بقبض الأرواح فحينئذ ينتهي تمتّعهم حيث إنّ الملائكة (**يتوفّونهم**) ويقبضون أرواحهم، فلمّا قبضوا أرواحهم (**قالوا**) أي الملائكة لهم (**أين ما كنتم**) في الدّنيا (**تدعونهم**) تعبدونهم (**من دون الله**) وكنتم تأملون فيهم أنّهم شفعاء فينجونكم من العذاب فلم لا يأتون (**قالوا ضلّوا**) أي غابوا (**عنّا وشهدوا على أنفسهم**) في ذلك الوقت (**أنّهم كانوا**) في الدّنيا (**كافرين**) بما أسلفنا (**قال**) لهم الملك الموكل بسوقهم إلى النّار (**ادخلوا في**) ضمن (**أمم من قبلكم من الجنّ والإنس**) واجتمعوا معهم (**في النّار**) فيدخلون النّار جماعة تلو الجماعة (**كلّما دخلت أمّة**) النّار (**لعنت أختها**) مثيلتها الّتي دخلت قبلها لأنّها ضلّت بسببها وتقليداً لها، وهكذا يدخلون أمّة بعد أمّة (**حتّى إذا أدّاركوا**) اجتمعوا كلّهم (**فيها**) في النّار (**جميعاً**) مجتمعين (**قالت أخراهم**) وهم الأتباع (**لأولاهم**) وهم المتبوعون (**ربّنا هؤلاء أضلّونا**) عن الحقّ والإيمان بالرّسل (**فآتهم عذاباً ضعفاً من النّار**) لضلالهم وإضلالهم إيّانا (**قال**) تعالى (**لكلّ منكم**) من الأتباع والمتبوعين ضعف، أمّا الأتباع فلضلالهم ولتقليدهم للمتبوعين دون تفكير، وأمّا المتبوعون فلضلالهم وإضلالهم للاتّباع (**ولكن لا يعلمون**) أي لا يعلم واحد بالآخر، لأنّ كلاًّ لا يدري ما به من العذاب وكلّ يشكو ألمه (**وقالت أولاهم**) المتبوعون (**لأخراهم**) أي التّابعين (**ما لكم علينا من فضل**) إذ كلّنا ضالّون كافرون، فينادون من قبل الملائكة إسكاتاً لهم (**فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون**) في الدّنيا واسكتوا، وليس هنا محلّا للجدال.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى دخول هؤلاء النّار أراد أن يذكر أنّ بقاءهم فيها مخلد، فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

(**إنّ الّذين كذّبوا بآياتنا**) أي بأحكامنا أو بمعجزاتنا ودلائل وحدتنا وقدرتنا (**واستكبروا عنها**) أي عن الإيمان بمقتضاها، إن كان المراد الدّلائل والمعجزات، أو عن تطبيقها إن أريد بها الأحكام، ويجوز أن يراد كلاهما، فإنّه لا مانع من جمعهما، بل هما متلازمان (**لا تفتّح لهم أبواب السّماء**) ليدخلوا فيها ويصعدوا إلى الجنّة، وهذا دليل على أنّ الجنّة في السّماء ولا يدخلون الجنّة (**حتّى يلج**) أي يدخل (**الجمل**) أي الإبل (**في سمّ**) في ثقبة (**الخياط**) أي ما يخاط به وهي الإبرة، وفي بعض التّفاسير الجمل هو حبل السّفينه، وكلا المعنيين كانا عن إستحالة دخولهم الجنّة كإستحالة دخول الإبل أو الحبل في ثقب الإبرة (**وكذلك**) ومثل ما ذكرنا (**نجزي المجرمين**) المرتكبين جريمة الكفر والتّكذيب لآيات الله تعالى (**لهم من جهنّم**) أي من نارها (**مهاد**) فرش يسكنون عليها (**ومن فوقهم غواش**) جمع غاشية أي طبقات من النّار تغشاهم (**وكذلك**) مثل ما ذكرنا (**نجزي الظّالمين**) المتجاوزين الحقّ حيث كفروا وكذبوا بآيات الله تعالى.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حال الكافرين أراد أن يذكر حال المؤمنين فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

(**والذين آمنوا وعملوا**) الأعمال (**الصّالحات**) بقدر وسعها وطاقاتهم، فإنّ الصّالحات كلّها لا يستطيع أن يعملها أحد إلّا الرّسول (ﷺ) ولذا قال: (إذا أمرتكم بأمر فأتوا به ما

استطعتم، أو كما قال)[١]، **(أولئك أصحاب)** أي أهل **(الجنّة هم فيها خالدون)** لا يخرجون فيها ولا يخرجون **(ونزعنا)** أي وأزلنا **(ما كان في صدورهم)** أي قلوبهم **(من غلّ)** من حقد أو كراهية مع أخيه المؤمن في الدّنيا فيصير كلّهم إخواناً وأحباباً على سرر متقابلين **(تجري من تحتهم)** أي من قربهم **(الأنهار)** من العسل واللّبن والخمر والماء والزّلال **(وقالوا)** وهم في الجنّة شكراً لما رزقوا **(الحمد لله الّذي هدانا لهذا)** أي لما كان سبباً لهذا العزّ والتّكريم **(وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله)** الى هذا الدّين، والله **(لقد جاءت رسل ربّنا بالحقّ)** وبهذا أصبح إيمانهم حقّ اليقين، وقد كان في الدّنيا علم اليقين **(ونودوا)** من قبل الملائكة **(أن)** مخففة من الثّقيلة إسمها ضمير الشّأن المقدّر فالتّقدير: (أنّه) أي أنّ القصّة هي **(تلكم الجنّة)** الّتي سكنتموها **(أورثتموها)** أي أعطاكم الله تعالى إيّاها **(بما)** بسبب ما **(كنتم تعملون)** في الدّنيا من الأعمال الصّالحة والإيمان.

ثمّ حيث إنّه من النّعم اللّذيذة أن يعلم المرء ذلّة عدوّه، وهو أنّه تبشيراً للمؤمنين بوصولهم إلى تلك النّعمة قال جلّ وعلا:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

(نادى أصحاب الجنّة أصحاب النّار) تبكيتاً ويقولون لهم **(أنْ)** أي قد **(وجدنا ما وعدنا ربّنا حقاً)** وهي الجنّة والنّعيم **(فهل وجدتم ما وعدكم ربّكم حقاً)** من الذّل والعذاب الأليم **(قالوا نعم فأذّن)** فنادى **(مؤذّن)** منادٍ وأعلن حكم الله تعالى وهو **(أنْ)** أي أن الشأن هو **(لعنة الله)** أي البعد عن الرّحمة والخلود في النّار ثبت **(على القوم الظّالمين)** بالكفر ومعاداة دين الله تعالى كما قال **(الّذين يصدّون)** أي يمنعون النّاس

---

(١) هو جزء من حديث طويل كما وردعن أبي هريرة قال خطبنا رسول الله (ﷺ) فقال: أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا، فقال رجل أكل عام يارسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثا، فقال رسول الله (ﷺ) لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم! ثم قال ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا به ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه./ صحيح مسلم ٢/ ٩٧٥ الحديث رقم ١٣٣٧.

(عن) تطبيق **(سبيل الله)** أي شريعته والعمل بها كالدّول المستعمرة اليوم[١] **(ويبغونها)** أي السّبيل والنّظام **(عوجاً)** منحرفاً ومائلاً عن سبيل الله تعالى ونظامه **(وهم بالآخرة كافرون)**، فلذلك يجرؤون على هذه الجريمة الكبرى، والآية وعيد وتهديد لكلّ من يدعو إلى مبدأ غير مبدأ الإسلام، أو نظام غير نظامه للعمل به وتطبيقه، فقال جلّ وعلا:

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾

(وبينهما) وبين أهل النّار وأهل الجنّة **(حجاب)** حاجز يمنع أهل النّار من الدّخول في الجنّة **(وعلى الأعراف)** جمع عرف، وهي أمكنة مرتفعة بين الجنّة والنّار مشرفة على المكانين، فعلى هذه الأعراف **(رجال)** من المسلمين **(لم يدخلوها)** الجنّة بعد، فهؤلاء الرّجال **(يعرفون كلاً)** من أهل الجنّة وأهل النّار **(بسيماهم)** بعلاماتهم **(ونادوا أصحاب الجنّة أن سلام عليكم)** فيسلّمون على أهل الجنّة وهم **(لم يدخلوها)** الجنّة بعد **(وهم يطمعون)** أي ينتظرون دخولها بعد ذلك **(وإذ)** أي وفاجأهم **(إذ صرفت أبصارهم)** فحوّلت **(تلقاء)** إلى جهة **(أصحاب النّار قالوا)** إذ رأوا أحوالهم **(ربّنا لا تجعلنا من القوم الظالمين)** أنفسهم بالكفر واتباع غير شريعة الله تعالى **(ونادى أصحاب الأعراف)** وهم هؤلاء فنادوا **(رجالاً)** في النّار يعرفونهم بسيماهم **(وقالوا)** لهم **(ما أغنى)** أي ما دفع **(عنكم)** شيئاً من العذاب جمعكم من القوّة والعشيرة والجنود الّذي كان لكم في الدّنيا **(و)** لأدفع عنكم شيئاً **(ما كنتم تستكبرون)** به عن الإيمان واتّباع دين الله تعالى وهي السيادة والرّئاسة الّتي كانت تمنعهم عن اتباع الرّسل وتطبيق شريعة الله تعالى، ويقولون لهم أيضاً مشيرين إلى أهل الجنّة **(أهؤلاء)** الّذين هم في النّعيم وأنتم في النّار وكنتم في الدّنيا **(أقسمتم)** حلفتم على أنّه **(لا ينالَهم الله بِرَحْمَةٍ)** وقد قيل لهم اليوم **(ادخلوا الجنّة**

(١) وعملاؤها من الحكام وغيرهم.

لا خوف عليكم) من العذاب **(ولا أنتم تحزنون)** على فوات الدّنيا حيث وجدتم خيراً منها وقيل لكم أدخلوها النّار الّتي كلّها عذاب وفيها كلّ الحسرة والحزن والنّدامة. ثمّ قال جلّ وعلا:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

(ونادى أصحاب) أهل **(النّار أصحاب الجنّة)** وطلبوا منهم **(أن أفيضوا)** أي إنزلوا **(علينا)** شيئاً ولو قليلاً **(من الماء أو ممّا رزقكم الله)** من الطّعام والشّراب والثّمار **(أو)** هنا ولو ليس لمنع الجمع بل يمكن أن يكون هو بمعنى بل، أي بل وانزلوا علينا ممّا رزقكم الله شيئا **(وقالوا)** لهم لا نستطيع ذلك حيث **(إنّ الله حرّمهما)** أي الماء والرّزق **(على الكافرين)** كلّهم. ثمّ بين الله تعالى الكافرين بوصفهم فقال: **(الّذين اتّخذوا دينهم)** الّذي أمر الله تعالى بإتّباعه والعمل به وتطبيقه **(لهواً ولعباً)** اي لهواً عنه ولعبوا به أي استهزأوا به، أو المعنى أنّهم اتّخذوا دينهم ونظامهم اللّهو واللّعب فقط، ولم يلتزموا بدين الله ولا شريعته، بل كلّ حياتهم صرفوها في اللّهو واللّعب وفيما يتعلّق بالدّنيا فقط **(و)** فعلوا ذلك لأنّه **(غرّتهم الحياة الدّنيا)** وأغفلتهم عن الآخرة والسّعي **(فاليوم ننساهم)** هذا من قوله تعالى أي نتركهم ولا نكرمهم بشيء **(كما)** أنّهم **(نسوا)** تركوا العمل وأنكروا لقاء يومهم هذا، فمن لا يعمل ليوم لا يعطى في ذلك اليوم شيء، ويحرم من نعيمه وتكريمه **(وما)** أي وتركناها كما **(كانوا بآياتنا)** بمعجزاتنا ودلائلنا وأحكامنا **(يجحدون)** ينكرون ويتركونها فلم يعملوا وفقها وحسب مقتضاها، ولم يكن إعتراضه عن آيات الله تعالى عن غفلة بل عن علم بها وبعد تبليغها إياهم حيث **(ولقد)** أي وبعزّتي لقد **(جئناهم)** بلغناهم **(بكتاب فصّلناه)** وضّحناه **(على علم)** أي عن علم بما يسعدهم فأمرناهم به وما يشقيهم فنهيناهم عنه، وكان ذلك الكتاب **(هدىً)** إرشاداً إلى الحقّ من العقائد والأحكام **(ورحمةً لقوم)** لكلّ قوم **(يؤمنون)** به لأنّهم بالعمل به يسعدون في

الدّنيا وفي الآخرة، فضلّوا عن علم ولم يبق لهم حجّة بعد التّبليغ في الجهل والضّلال والبقاء على ما هم فيه.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى نزول القرآن وأنّهم لم يؤمنوا به أنذرهم فقال جلّ وعلا:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

(هل) للإستفهام على سبيل الإنكار فالمعنى: ما **(ينظرون)** أي ما ينتظرون **(إلّا تأويله)** أي عاقبة ونتيجة الكتاب، وهي تنفيذ ما فيه من الوعد والوعيد فيؤمنوا حينذاك، ولكن لا يفيدهم ذلك الإنتظار لأنّه **(يوم يأتي تأويله)** وتنفيذ الوعد والوعيد وهو يوم القيامة يعترفون بضلالهم وكفرهم حيث **(يقول)** الّذين نسوه تركوه أي الكتاب فلم يعملوا به **(من قبل)** من قبل هذا اليوم أي في الدّنيا **(قد جاءت)** في الدّنيا **(رسل ربّنا بالحقّ)** ولكنّا كفرنا بهم وكذّبناهم **(فهل لنا)** اليوم **(من شفعاء فيشفعوا لنا)** وينقذوننا من العذاب **(أو)** هل **(نردّ)** إلى الدّنيا **(فنعمل غير الّذي كنّا نعمل)** فنؤمن بالرّسل ونتّبع شريعة الله ونطبّقها، وهذا الإستفهام للتمني أي يتمنّون أن يكون لهم شفعاء أو يردّوا إلى الدّنيا فيؤمنوا، ولكنّ هذا التّمني لا يقبل منهم ولا يستجاب لأنّهم **(قد خسروا أنفسهم)** في الدّنيا بالكفر والإشراك **(وضلّ)** وغاب **(عنهم ما)** شركاء كانوا يعبدونهم يعتقدون أنّهم يشفعون لهم، وينقذونهم من العذاب، فغابت تلك الشّركاء ولم ينفعوهم شيئاً.

ثمّ أراد الله تعالى أن يثبت أنّه هو الحقيق بالعبادة والإطاعة والتّضرع إليه في طلب الحاجات ودفع أو رفع المنكرات فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

(**إن ربّكم**) الّذي يعود إليه تربيتكم تكويناً وتكليفاً وإيجاداً وتأثيراً وتأديباً وتشريعاً هو (**الله**) وحده فلا تعتقدوا في غيره قدرة التّأثير ولا حقّ التّشريع لأنّه هو (**الّذي خلق السّموات والأرض في ستّة أيام**) وذكر الله تعالى كيفيّة الخلق وتقسيمه على ستّة أيام في سورة السّجدة، وقد فصّلنا الكلام على ذلك عند قوله تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ سورة النازعات الآية/ ٣٠ ـ (**ثمّ استوى**) أي الله تعالى (**على العرش**) ذكر العلماء في معنى الإستواء على العرش معاني كثيرة أحسنها ما نقل عن جعفر الصّادق والحسن وأبي حنيفة ومالك (رضي الله تعالى عنهم وعنّا) وهو: أنّ الإستواء معلوم والتّكييف مجهول والإيمان به واجب والسّؤال عنه بدعة والجحود له كفر، وإنّ هذه الفقرة من متشابهات القرآن، وقد فصّلت الكلام عليها في أوّل سورة البقرة والحمد لله تعالى. (**يغشي اللّيل**) أي يأتي الله تعالى باللّيل فيجعله غشاء يستر به (**النّهار**) كما ويفعل ذلك بالنّهار فيغشى ضوءه باللّيل (**يطلبه**) أي يطلب اللّيل النّهار (**حثيثاً**) سريعاً ليستره، كما يطلب النّهار اللّيل كذلك لذلك إلّا أنّ الله اكتفى بذكر ستر اللّيل للنّهار فقط؛ لأنّ الضّد يعرف بالضّد وللإختصار، ولأنّ ستر اللّيل للنّهار أظهر (**و**) خلق تعالى أيضاً (**الشّمس والقمر والنّجوم مسخراتٍ**) كلّ من **الشّمس** والقمر والنّجوم فتعمل حسب ما نسق لها أن تعمل، فهذا الخالق الّذي خلق هذا الخلق هو الّذي يجب أن يتّخذ ربّاً وإلهاً، وبهذا تبيّن أنّ الخلق والإيجاد والتّشريع كلّه له، وليس لغيره شيء من ذلك كما قال: (**ألا**) أي فانتبهوا بهذه الدّلائل على أنّه (**له**) لله (**الخلق**) والإيجاد والتّأثير كلّه لا لغيره (**و**) له الأمر والنّهي والتّكليف والتّشريع جميعه، وليس لغيره شيء من ذلك (**تبارك**) أي تعالى وتنزّه (**الله**) عن أن يكون له شريك في الخلق والتّكوين أو التّكليف لأنّه هو (**ربّ العالمين**) كلّهم، فخلقهم وتكليفهم يعود إليه ويحقّ له لا لغيره، فإذا كان الأمر كذلك (**ادعوا ربّكم**) واطلبوا منه قضاء الحاجات وجلب الخيرات ودفع أو رفع المنكرات والمضرّات ولا تدعوا غيره فادعوه (**تضرّعاً وخفيةً**) أي سرّاً وهمساً. قال (ﷺ) حينما رفع النّاس أصواتهم بالدّعاء: (يا أيّها النّاس أربعوا على أنفسكم إنّكم لا تدعون أصمّاً ولا غائبا إنّكم تدعون سميعاً بصيراً)[١] ذكره الخازن عن مسلم والبخاري وذكره النسفي عن الحسن: (بين دعوة السّر والعلانيّة سبعون ضعفاً). (**إنّه**) أي أنّ الله تعالى (**لا يحبّ المعتدين**) أي المتجاوزين الحقّ الّذين يدعون غيره ويطلبون جلب

---

(١) صحيح البخاري ١/١٠٩١ الحديث رقم ٢٨٣٠، صحيح مسلم ٤/٢٠٧٦.

الخيرات ودفع المنكرات أو رفعها منهم، جهلاً وشركاً وضلالاً، ولا تفسدوا في الأرض فتشركوا بالله وتعملوا بغير شريعته **(بعد إصلاحها)** أي بعد أن أصلحها الله تعالى بإرسال الرّسل والشّرائع؛ لتتمسّكوا بها وتطبّقوها في شؤون الحياة. **(وادعوه)** أي واعبدوا الله تعالى **(خوفاً)** من عذابه **(وطمعاً)** في مغفرته ونعيمه، فالمسلم يجب أن يكون دائماً بين الخوف والرّجاء، فإنّه لو لم يخف لم يعمل لأنّه يكون أميناً والأمين لا يعمل، ولو لم يرْجُ لم يعمل؛ لأنّه مأيوس، والمأيوس من فائدة العمل لا يعمل؛ لذلك جعل الله تعالى اليأس كفراً فقال: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ سورة يوسف الآية/ ٧٨ - وكذلك من أمن عذاب الله تعالى لا يعمل وبجبره ذلك إلى الكفر كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ هذه السّورة الآية/ ٩٩.

أقول: والحياة كلّها على الخوف والرّجاء فمن أمن ولم يخف الفقر والفاقة لم يعمل فلا ينتج فيصيبه الفقر، ومن خاف من الكسب ويئس من إنتاجه لا يعمل، وهنا مثال آخر فمن خاف من الإصطدامات والإنقلابات لم يستطع أن يسوق السّيارة مثلاً، ومن أمن وساق دون خوف بتاتاً إنقلبت به السّيارة أو إصطدمت لأنّه لا يراعي قواعد السّوق. فكلّ شيء يكون ويستقيم بالخوف والرّجاء **(إنّ رحمة الله قريب من المحسنين)** أي من الّذين أحسنوا أعمالهم بالعبادة والدّعاء تضرّعاً وخفيةً وعدم الإفساد في الأرض والدّعاء والعبادة لله خوفاً وطمعاً. وقد تعب المفسّرون في بيان تفسير **(قريب)** مع أنّه خبر للرّحمة، والرّحمة مؤنث، ولا حاجة إلى هذا التّعب، الرّحمة مصدر فيجوز تذكير ما عاد إليه وتأنيثه، قال تعالى في حقّ القرآن: ﴿كَلّا إِنَّها تَذْكِرَةٌ. فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ﴾ سورة عبس الآيتان/ ١١,١٢.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى الدّلائل على وحدته وإستحقاقه للعبادة وحده، أراد أن يبيّن قدرته على الإحياء بعد الموت؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

(وهو) أي الله **(الّذي يرسل الرّياح)** جمع ريح، ومن عادة القرآن أنّه يذكّر المفرد للشّر والجمع للخير، وفي الحديث: (ألّلهم إجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً)[1] فيرسل الله تعالى **(بشراً)** أي بشارةً بمجيء المطر **(بين يدي)** أي قبل مجيء **(رحمته)** وهي المطر وقرئ (نشراً) بالنّون أي ينشر تعالى الرّياح قبل مجيء المطر **(حتّى إذا أقلّت)** اي رفعت الرّياح **(سحاباً)** جنس فيشمل الكثير، فلذا قال: **(ثقالاً)** بالجمع، أي سُحُباً ثقيلة بالمياه فحينئذ **(سقناه)** أي السّحاب **(لبلد ميّت)** أي يابس لا ينبت لعدم سقوط المطر فيه، وإفراد ضمير سقناه بإعتبار لفظ السّحاب لأنّه مفرد **(فأنزلنا به)** بالسّحاب **(الماء)** أي المطر **(فأخرجنا به)** بالمطر من كلّ الثّمرات بالمعتادة والموجودة في ذلك المكان **(كذلك)** مثل ما نخرج النّباتات المثمرة الميّتة من الأرض الميّتة بعد موتها نخرج **(الموتى)** من الإنسان في القبور **(لعلّكم تذكرون)** لعلّ هنا للأمر أي فتذكّروا في هذه الأشجار الميتة الّتي لا تورق ولا تثمر، والنّباتات الميتة الّتي لا تنبت كيف نحييها ونخرجها من بذرها وعلى أصولها، وكذلك نخرج الإنسان حيّاً من القبر ومن أجزائه الأصليّه، إذ لا فرق بين العمليّتين إذ كلتاهما إعادة بعد الفناء ورجوع بعد الزّوال والله على كلّ شيء قدير. ثمّ بعدما ذكر تعالى المطر أراد أن يذكر مثالاً فقال جلّ وعلا: **(والبلد الطيّب)** ترابها ومناخها **(يخرج نباته)** حسناً بعد المطر **(بإذن الله)** تعالى وإرادته **(والّذي خبث)** من البلاد **(لا يخرج)** نباته **(إلّا نكداً)** غير حسن، فكذلك قلوب العباد أنزلنا عليه مطر المواعظ والهدى في القرآن الكريم؛ فالقلب الطيّب ينبت فيه الإيمان بسهولة ويثمر حسن الأخلاق والأعمال، وأمّا القلب الّذي خبث فلا يخرج منه إلّا الخبث والنّفاق وإنكار الحقّ ومعاداة القرآن، ومن أتى به **(كذلك)** مثل ما ذكرنا لك **(نصرّف الآيات)** أي نذكرها متعدّدة ومختلفة، والمراد بالآيات هنا إمّا الأمثال أو الدّلائل أو كلاهما ونذكر هذه الآيات **(لقوم يشكرون)** نعم الله تعالى فيؤمنون ويوحدون ويمتثلون منهجه وشريعته أي يريدون الحقّ وليتّبعوه، والآيات وإن كانت للشّاكرين وغيرهم إلّا أنّه حيث لا يتّبعها إلّا الشّاكرون خصّوا بالذّكر.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر قصص بعض الأمم السّابقة والّذين أهلكوا ودمّروا

---

(١) تمام الحديث: عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: كان النبي (ﷺ) إذا ثارت ريح استقبلها وجثا على ركبتيه وقال: اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذابا. / مسند أبي يعلى ٤/ ٣٤١ الحديث رقم ٢٤٥٦.

نتيجة الكفر والطّغيان، وتكذيب الرّسل ليعتبر بهم الأجيال المتعاقبة فيؤمنوا بالرّسل ولا يكذّبوه فقال جلّ وعلا:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾

(لقد) اللّام في هذه المواضع جواب لقسم مقدّر تقديره: وبعزّتي **(لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه)** قال الشّيخ عبدالوهاب النّجار في كتابه «قصص الأنبياء»: إنّ نوحاً هو النّبيّ الثّاني ممّن ذكروا بعد آدم (ﷺ) والأوّل بعد آدم، وهو جدّ نوح الأكبر إدريس(ﷺ) ونوح (ﷺ) هو أوّل الرّسل كما في حديث الشّفاعة عن أبي هريرة (ﷺ) في صحيح مسلم: (يا نوح أنت أوّل الرّسل إلى الأرض)[١] وبعضهم يؤوّل هذا الحديث ويقول برسالة آدم وإدريس قبله. **أقول:** وهذا هو الأصحّ لأن آدم كان رسولاً إلى نفسه وزوجته وأولاده ومن يولد منهم في وقته، حيث لا يعقل إخلاء هذه المدّة من الزّمان، وهذه الأجيال إلى مجيء نوح دون أن يرسل إليهم رسولاً يأتي بشريعة من الله تعالى ليعملوا بها، والآيات ناطقة وموافقة لما قلنا يطول ذكرها هنا، فمعنى الحديث: (أنت أوّل الرّسل بعد الطّوفان) ونوح كما ذكره النّجار: هو ابن آلامك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس بن يارد بن مهليئل بن قينان بن أنوشي بن شيت بن آدم (على نبينا وعليهما الصلاة والسلام). ثمّ قال الأستاذ النّجار: هذا هو الّذي ورد في كتب التّواريخ وفي التّوراة، وإن كنت أشكّ كثيراً في نسق هذا النّسب لأنّي أعتقد أنّ بين نوح وآدم أكثر من ذلك. هذا وكان قوم نوح يعبدون الأصنام وتركوا شريعة الله الّتي أنزلت على آدم وإدريس (على نبّينا وعليهما الصّلاة والسّلام) وحرّموا الحلال وأحلّوا الحرام حسب هواهم، فأرسل الله

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٢١٥ الحديث رقم ٣١٦٢، صحيح مسلم ١/ ١٨٥ الحديث رقم ١٩٥.

تعالى لهم نوحاً ليعيدوهم إلى عبادة الله واتباع شريعته فجاء نوح قومه **(فقال)** لهم **(يا قوم)** أصله قومي حذفت الياء للتّخفيف وهذه قاعدة مطّردة **(اعبدوا الله)** وحده ولا تشركوا به شيئاً **(ما لكم)** في الحقيقة والواقع **(إله)** يستحقّ العبادة **(غيره)** فكلّ ما سواه ممّا يعبدون النّاس باطل، سواء كان من الملائكة أو الكواكب أو الهياكل أو الأشخاص **(إنّي أخاف عليكم)** إن لم ترجعوا عما أنتم عليه من الشّرك و شرائع الأرض **(عذاب يوم عظيم)** عذابه، **(قال الملأ)** أي الكبراء **(من قومه إنّا لنراك في ضلال مبين)** في ما جئت به **(قال يا قوم ليس)** ملتصقاً **(بي ضلالة)** أبداً **(ولكنّي رسول من ربّ العالمين)** أرسلني إليكم وأمرني بأن أبلّغكم ما أقول ممّا أمرني، فلذالك وأداءً لهذه الرّسالة والواجب الملقى على عاتقي **(أبلّغكم)** رسالات ربّي الّتي أرسلني بها **(وأنصح)** وأخلص **(لكم)** فأبلغكم تلك الرّسالات حسب ما هي **(وأعلم من الله ما لا تعلمون)** من قدرته وصفاته وأحكامه ومن عذابه الّذي أعدّه لمن كفر به أو أشرك أو انحرف عن دينه وشريعته، إلّا أنّهم كذّبوه وما اتّبعوه، واحتجّوا عليه بأنّه بشر مثهلم، فكيف تكون له الرّسالة من الله تعالى فقال لهم **(أو)** أي أو بعد أن رأيتم معجزاتي وفهمتم أقوالي المعقولة وعلمتم أنّ الرّسل الّذين جاؤوا من قبلي كلّهم كانوا من البشر إلى البشر أو بعد كلّ ذلك **(عجبتم)** واستنكرتم **(إن جاءكم ذكر)** شريعة **(من ربّكم)** ومن مقتضى الرّبوبية إذ يرسل الرّسل والشّرائع لتربية النّاس على الحقّ والخلق الّذي يليق بالإنسان وتكون تلك الشّريعة **(على رجل منكم)** ليمكن التّفاهم والتّخاطب وبهذا التّفاهم **(لينذركم)** عواقب الإنحراف الوخيمة عن دين الله **(ولتتقوا)** وتتجنّبوا مخالفة أوامر الله تعالى، أي ولكي ترحموا بتقواكم هذه واتّباع شريعة الله تعالى، فلا ينالكم بعذابه في الدّينا ولا في الآخرة.

ثمّ إنّ نوحاً واصل دعوته وإنذاره وتبشيره إلى أن أيس من إيمانهم، فبعد ذلك حقّ عليهم العذاب فأهلكهم الله تعالى، كما قال جلّ وعلا:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

(فكذبوه) تكذيباً لم يبق بعده أمل في إيمانهم فأرسلنا عليهم طوفاناً **(فأنجيناه)** أي نوحاً **(والّذين آمنوا معه)** أنجينا كلّهم **(في الفلك)** في السّفينة الّتي صنعها بأمر الله تعالى

وتعليمه **(وأغرقنا الّذين كذّبوا بآياتنا)** أي معجزاتنا وأحكامنا لأنّهم **(كانوا قوماً عمين)** جمع عم أصله عمي، يقال عم لفاقد البصيرة، وأعمى لفاقد البصر، قال الشاعر زهير:

واعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم[١]

أي كانوا قوماً فقدوا بصيرتهم ولم يبق أمل في هدايتهم فلم يبق فائدة في بقائهم ولذلك أهلكناهم اجمعين.

قصّة نوح: هنا وإليك قصّة نوح كما يفهم من القرآن، والّتي ذكرها في سور متعدّدة:

كان قوم نوح قد عكفوا على عبادة الأصنام، واتّخذوا لهم أصناماً يعبدونها من دون الله تعالى، وانحرفوا عن قيم السّماء و شريعة الله، فاختار الله تعالى نوحاً من بينهم، وجعله رسولاً لينذرهم عذاب الله تعالى إذا ما تمادوا في غيّهم وضلالهم، فعتوا عن أمر ربّهم، واجتمع كبراء القوم وأثرياؤهم على تكذيبه، واحتقروا من اتّبعه، واستبعدوا أن يكون واحد منهم لا يمتاز عليهم بالغنى والثّروة، وأنفوا أن يكونوا مثل هؤلاء الضّعفاء الّذين اتبعوا نوحاً، وأن يخالطوهم في المجالس والمحافل، وزعموا أنّ هؤلاء الضّعفاء ما اتّبعوه عن رؤية وفكرٍ وأحكام في الرأي، وطلبوا من نوح أن يطرد الضّعفاء الّذين آمنوا به إستكباراً منهم أنّ يجتمعوا معهم في دين، فأبى نوح ذلك خوفاً من الله تعالى، وبيّن لهم أنّه إن طردهم، فإنّ الله تعالى يعذّبه ولا يجد ناصراً ينقذه من عذاب الله تعالى، وبيّن لهم أنّه لا يدّعي أنّه ملك أو يعلم الغيب أو يملك خزائن الأرض، بل إنّما هو بشر إختاره الله تعالى للرّسالة فجاءهم بهداية الله تعالى وإرشاداته ليبلغهم إيّاها، وبيّن لهم أن أتباعه المؤمنين الّذين هم يحتقرونهم ويقولون فيهم أنّهم لا يمكن أن يدركوا خيراً دونهم أو يحصلوا على سعادة سواهم، ولو كان ما سلكوه خيراً لكانوا هم سابقين إليه بيّن لهم أنّ أولئك أمرهم إلى الله تعالى، وهو أعلم بسرّهم، وأن الوصول إلى الخير والسّعادة ليس بالثّروة والسّيادة، بل إنّما يكون بطيب النّفس وركونها إلى الهدى والحقّ والرّضا به، وأعلن لهم أيضاً أنّه لا يطلب وراء دعوتهم إلى الهدى أجراً من مال أو جاه وإنّما يطلب أجره من الله تعالى، وهكذا واصل نوح دعوته وبذل منتهى جهده، واجتهد غاية وسعه وإمكانه لأن يهدي قومه وأن يتّبعوه في الإيمان بالله

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى ١/ ٥.

تعالى، وأن يقلعوا عن عبادة تلك الأصنام، وطال الزّمن وهو يفاديهم بالنّصح ويراوحهم بالوعظ والإرشاد سرّاً وعلانيةً، إلّا أنّهم لم يزدادوا إلّا بعداً عن طريقته، مع أنّهم كان يعدهم إن آمنوا أن ينعم الله تعالى عليهم بالنّعم الكثيرة من إرسال المطر عليهم مدراراً وكثرة مزارعهم وبساتينهم ووفرة الأموال والذّرية والأولاد، وكان يضرب لهم الأمثال ويذكر لهم القصص ويوجّههم إلى أن ينظروا إلى صنع الله البديع في خلقهم أطواراً، وخلق السّماوات والأرض وما بينهما من الكوكب والنّجوم والشّمس والقمر، وأنّ من بدأهم هكذا لقادر على أن يعيدهم بعد الموت ويحاسبهم على ما فرّطوا في جنب الله تعالى من الكفر والشّرك والإنحراف عن الحقّ، إلّا أنّ القوم كانوا يتبرّمون به وينالونه بالأذى والإستهزاء، وكذّبوه واتّبعوا بعض الكبراء الّذين لا يزيدونهم إلّا خساراً، وكانوا يمكرون فيها بينهم ضدّ نوح مكراً كبّاراً إلى أن نفدت حيلة نوح، ويأس من إيمانهم، وقالوا لنوح: لن نترك ما نحن عليه فائْتنا بما تعدنا من العذاب الّذي تخوّفنا به، فلّما بلغ طغيانهم هذه الدّرجة ومضى على نوح وهو يدعوهم تسعمائة وخمسين سنة إلى الله، ولا يألوا في نصحهم جهداً، دعا نوح عليهم فقال: ﴿ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا. إنّك إن تذرهم يضلّوا عبادك ولا يلدوا إلّا فاجراً كفّاراً﴾ ـ سورة نوح الآيتان/ ٢٦،٢٧ ـ فاستجاب الله تعالى دعاءه وأمره أن يعمل الفلك لتكون أداة نجاته ومن معه من الغرق الّذي يأتي على القوم؛ نتيجة شدّة التّمرد والطّغيان، فبدأ نوح يصنع السّفينة بأمر الله تعالى وحسب تعليمه إيّاه، فصار قومه كلّما مرّوا به سخروا منه ومن صنعه السّفينه، حيث بلغهم أنّه يعمل هذه السّفينة لينجو بها مع من معه من العذاب النّازل بهم، فكان أيضاً يسخر منهم ومن غفلتهم عن الحقّ وبلادتهم عن أخذ الإحتياط لأنفسهم بالإيمان وترك الغواية والضّلال، وكان يتعمّد بهم العذاب. فلمّا أتمّ نوح السّفينه وجاء موعد العذاب، ورأى العلامة الّتي بينه وبين ربّه على مجيء الطّوفان وهي أن يفور تنور أهله بالماء، أمره الله تعالى أن يحمل في السّفينة أهله ويدخل فيها من كلّ حيوان وطير ووحش زوجين أي الذّكر والأنثى، وأن يترك زوجه لأنّها كانت كافرة، وأمره أن يأخذ كلّ من آمن من قومه وكانوا قليلين، فلمّا استووا على ظهر السّفينة هطلت السّماء بالأمطار وانفجرت عيون الأرض وحملت المياه السّفينة ومن فيها، ومكثت على الماء إلى أن غرق كلّ ما على الأرض من إنسان وحيوان. ثمّ استقرت السّفينة على الجودي وهو جبل من جبال أرارات في ديار بكر، ولمّا أراد نوح أن يركب السّفينة نادى إبناً من أبنائه ﴿يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا﴾ سورة هود الآية/ ٤٢. أي مع المؤمنين فأبى أن يركب معهم

لأنّه كان كافراً وبقي مع الكافرين، وحيث وعده ربّه أن ينجو أهله توجّه إليه وقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ سورة هود الآية/ ٤٥ ـ وحيث إنّه كان مراد الله تعالى بالأهل من كان مؤمناً وعلى دينه قال تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ سورة هودالآية/٤٦، فاعتذر نوح عن طلبه وطلب من الله تعالى العفو والمغفرة، ولم ينسل أحد ممّن كان مع نوح؛ فبقى ذريته فقط وانتشروا في الأرض كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الباقِينْ﴾ سورة الصافات الآية/ ٧٧، ولذا يسمّى نوح بآدم الثّاني، هذا ويؤخذ من هذه القصّة عبر وعظات: **الأولى**: إنّ الدّاعي إلى الله يجب أن لا يسأم من الدّعوة لعدم قبول النّاس ما يدعو إليه، بل عليه أن يواصل دعوته سواء أتّبعه النّاس أم لا؟ ولا يكون إباء النّاس ورفضهم دعوته سبباً لتركه الدّعوة أو التّكاسل فيها، فهذا نوح (عليه السلام) عاش تسعمائة سنة يدعو قومه ولم يؤمن به إلّا قليل، ولم يسأم من الدّعوة والوعظ والإرشاد، بل واصل إلى أن قضى الله تعالى على قومه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ سورة هود الآية/١٤٦، فالدعوة لأداء الواجب ولإطاعة الخلق وإستجابتهم، فإنّ ذلك موكول إلى الله تعالى.

الثانية: هي أنّ القصة وعد للمؤمنين بإهلاك عدوّهم ووعيد للكافرين بتدميرهم إن عاجلاً أو آجلاً، إن عمل المؤمنون بصدق.

الثّالثة: إنّ الأهل والآل للمرء هو من كان على دينه لا من ذريته، فإبنك الّذي ليس على عقيدتك ليس أهلاً لك، ومن كان أبعد النّاس عنك فهو آلك إن كان على دينك[1]، ألا يرى أنّ الإبن الكافر لا يرث أباه المسلم، ويكون إرثه لبيت مال المسلمين

(١) لذلك فإنّ جمهور العلماء على أنّ المقصود بالآل في صيغة الصّلاة على النّبي الّتي هي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) أو (أللهم صلّ على محمّد وعلى آل محمّد) هو أتباعه من جميع أمّته لا خاصّة أهل بيته، وعلى ذلك أدلّة كثيرة منها: **أوّلا**: من المعاني المذكورة للآل في كتب اللّغة هو الأتباع، **ثانيا**: أنّنا نصلّي على آل إبراهيم، فلو كان المقصود به أولاده لدخل فيها مشركو قريش، لذلك كان المقصود به أتباع إبراهيم. **ثالثا**: روى الطّبراني عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ: مَنْ آلُ مُحَمَّدٍ؟ فَقَالَ: كُلُّ تَقِيٍّ، وَقَالَ: وَتَلا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّاالْمُتَّقُونَ. **رابعا**: قال تعالى في سورة غافر ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦)﴾ مع أنّ فرعون لم يكن له أولاد، فيعني أدخلوا أتباع فرعون أشدّ العذاب. وقد

إن لم يكن له عصبة يسلمون سوى هذا الإبن فينتقل الإرث إليهم ويحجب الكافر من الميراث؟!.

* * *

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى قصّة قوم نوح للعبرة، أراد أن يذكر قصّة قوم عاد أيضاً للعبرة؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦)﴾

(و) عطف على نوح أي ولقد أرسلنا **(إلى عاد أخاهم هوداً)** هو هود بن عبدالله ابن رباح بن الخلود بن عوص بن إرم بن سام بن نوح (عليه السلام) فأرسل الله تعالى هوداً هذا إلى قومه عاد **(قال ياقوم اعبدوا الله)** وحده واتركوا عبادة هذه الأصنام الباطلة؛ لأنّه **(مالكم)** ليس لكم في الحقيقة، والواقع **(من إله)** آخر **(غيره)** غير الله تعالى **(أفلا)** أي بعد وضوح الأدلّة والبراهين على وحدانيّة الله تعالى **(ألا تتّقون)** الشّرك وعبادة الأصنام **(قال الملأ)** السّادة **(الّذين كفروا)** به **(من قومه)** والموصول والصّلة للتّعريف لا للإحتراز، لأنّه لم يؤمن أحد من السّادة **(إنّا لنراك)** يا هود **(في سفاهةٍ)** أي قلةٍ في العقل وجنون، ولذلك تأمرنا بترك عبادة آلهتنا **(وإنّا لنظنّك من الكاذبين)** في دعواك أنّك رسول من الله تعالى.

قال جلّ وعلا:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ

يرد لفظ الآل بمعنى الأهل والأولاد لكن ذلك هو من باب ذكر العام الّذي يراد به الخاص، لأنّ اللّفظ يحتمل المعنيين وفي كلّ مكان يستعمل وفق قرينته، مع ذلك فإنّ حصر الدّعاء لفئة خاصّة ضيّقة دون تعميمه للأمّة جمعاء بخل على الأمّة، ومخالف لسنّة الله الّذي علّمنا القرآن، وهو قوله تعالى على لسان نوح في سورة نوح: (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ...(٢٨)). فالأتباع يدخل فيه الأولاد وغيرهم بعكس الحصر على الألاد. فتفسير الآل بالأتباع أولى.

رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾

(**قال**) ياقوم (**ليس بي سفاهة**) جنون (**ولكنّي**) بدون شكّ (**رسول من ربّ العالمين إليكم أبلّغكم**) بلا خيانة (**رسالات**) أوامر (**ربّي**) ونواهيه وأحكامه والعقائد والفروع (**وأنا لكم ناصح**) مخلص (**أمين**) لإخوانكم لا بالقول ولا بالعمل (**أو**) بعد أن علمتم أنّ الرّسل كلّهم جاؤوا من البشر ورأيتم معجزاتي (**عجبتم**) وأنكرتم (**إن جاءكم ذكر**) شريعة (**من ربّكم**) الّذي هو بمقتضى ربوبيّتة، يرسل الرّسل لتربية البشر؛ فإنزال الشّريعة (**على رجل منكم**) والإستفهام للإنكار أي إنّ إنكاركم هذا وتعجّبكم منكر جداً (**لينذركم**) هذا الرّجل بالعذاب على إنحرافكم عن شريعة الله تعالى، ويبشّركم بنعيم الله وتكريمه إن اتّبعتم أوامره وطبّقتم نظامه (**واذكروا إذ جعلكم**) الله تعالى (**خلفاء**) سكنتم في هذه الأرض (**من بعد قوم نوح**) الّذي أهلكهم لإنحرافهم عن دينه وعبادته (**وزادكم في الخلق**) على غيركم (**بسطة**) حيث كان لهم أجسام طوالّ يقال كان أقصرهم ستّون ذراعاً وأطولهم مائة ذراع[١] (**فاذكروا آلآء**) نعم (**الله**) تعالى واشكروها (**لعلّكم تفلحون**) بذلك في الدّنيا والأخرة، فكذّبوه ولم يؤمنوا به، وردّوا عليه كما قال جلّ وعلا:

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾

(**قالوا**) لهود (**أجئتنا لنبعد الله وحده**) ولا نشرك به (**ونذر**) ونترك عبادة (**ما كان يعبد**) هم (**آباؤنا**) والإستفهام للإنكار أي إنّ ما تدعون إليه منكر جداً (**فأتنا بما تعدنا**) تخوّفنا به من العذاب إن (**كنت من الصّادقين**) أنّك رسول الله، وأنّ العذاب يأتينا إن لم نؤمن، ولعمري إن هذا لغاية التّمرد والإستنكار منهم، فأجابهم هود بعدما يئس منهم كما قال جلّ وعلا:

---

(١) وتأتي بسطة بمعنى القوة والشدة./ تفسير الطبري ٥/ ١٥١٠.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾

(قال) هود لقومه بعد أن يئس من إيمانهم **(قد وقع)** أي قد حقّ وقرّر أنْ يقع **(عليكم رجس)** أي عذاب وغضب **(من ربّكم)** بسبب تمرّدكم عن الحقّ وثباتكم على الباطل **(وغضب)** حيث تجادلونني بالباطل وفي الباطل **(أتجادلونني)** جهلاً **(في أسماء)** أي في مسمّيات أسماء **(سمّيتموها)** آلهة **(أنتم وآباؤكم)** بدون حجّة وبرهان ودليل من العقل ولا من النّقل، حيث **(ما نزّل الله بها)** أي بألوهيتها وحقيّة العبادة لها **(من سلطان)** حجّة تحتجّون بها **(فانتظروا)** مجيء هذا العذاب **(إنّي معكم من المنتظرين)** وفرق بين الإنتظارين، فإنّ إنتظارهم كان عن إنكار وإستهزاء، وإنتظاره كان عن ثقة وعلم بمجيئه. ثمّ صدق الله تعالى إنتظاره فجاء العذاب **(فأنجيناه)** أي هوداً من العذاب حينما جاء **(و)** أنجينا **(الّذين معه)** من المؤمنين **(برحمة منّا وقطعنا دابر الّذين كذّبوا بآياتنا)** أي أهلكناهم، يقال قطع دابره أي ما أبقى شيئاً **(وما كانوا مؤمنين)** بهود وما جاء به من التّوحيد وشريعة الله تعالى، وهكذا يكون عاقبة المفسدين والكافرين وتلك سنّة الله في العباد.

خلاصة قصّة عاد كما يفهم من القرآن الكريم: كانت مساكن عاد في أرض الأحقاف وهي تقع في شمال حضرموت، وفي شمالها الرّبع الخالي، وفي شرقها عمان، وموضع بلادهم اليوم رمال ليس بها أنيس بعد ذلك العمران والنّعيم المقيم، ولم يتعرّض أحد من الأوروبيّين الباحثين والمنقّبين إلى الكشف عن بلادهم والتّنقيب في أرضهم، ولعلّ تحت الرّمال من الثّروة العلميّة ما لو كُشف لكان عظيم القيمة في عالم الآثار، وأبان عن مدينة عظيمة مطمورة تحت تلك الكثبان، هذا وكان قوم هود أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله تعالى، ضاهوا في عبادتها قوم نوح عبدوا وداً وسواعاً ويغوث ونسراً. وفي أثر مروي عن ابن عبّاس أنّهم اتّخذوا صنماً يقال له صمود، وصنماً يقال له هذار، فبعث الله تعالى إليهم هوداً. كان هود من قبيلة يقال لها الخلود، وكان من أواسطهم نسباً وأصبحهم وجهاً، وكان في مثل أجسادهم أبيض بادي الصّفقة

طويل اللّحية، فدعاهم إلى عبادة الله تعالى، وأمرهم أن يوحّدوه، وأن يكفّوا عن الشّرك وعبادة الأصنام، وعن ظلم الضّعفاء من النّاس، فأبوا ذلك وكذّبوه، فأنذرهم بالعذاب فقالوا: **(من أشدّ منّا قوة)** فواصل هود دعوته ليدعو وينذر قومهن ويحذّرهم بأس الله تعالى، ويضرب لهم المثل بقوم نوح، ويذكّرهم بنعم الله تعالى عليهم، وأنّ الله تعالى زاد في خلقهم بسطةً وجعلهم خلفاء من بعد قوم نوح وبوأ أرضاً تدرّ عليهم الخير وتخرج لهم الزّرع الّذي يعيشون منه وتنبت لهم الكلأ الّذي ترعى فيه ماشيتهم، وذكر لهم أنّ عليهم أن يستعلموا عقولهم ليتبيّنوا ويعلموا أنّ ما يعبدونه من دون الله لا يضرّهم ولا ينفعهم ولا يستطيعون شيئاً، وأنّ الّذي ينفع و يضرّ هو الله وحده الّذي أغدق عليهم هذه النّعم. وهو الّذي خلقهم وبيده مماتهم، وأنّ الواجب عليهم أن يتّقوا عذابه ويتوبوا إليه وأن يستغفروه لما فرّط منهم من الشّرك والكفر وظلم العباد، ووعدهم أنّهم إذا تابوا واستغفروا؛ أرسل الله تعالى عليهم الأمطار ويزيدهم نعماً إلى نعمهم وعزّاً إلى عزّهم، ويبيّن لهم هود أيضاً أنّه لا يطلب على نصحه وإرشادهم أجراً منهم أو رئاسة عليهم، وإنّما يطلب أجره من الله تعالى، وإنّما يدعوهم لأداء الواجب الّذي ألقاه تعالى على عاتقه، وكان في ملأ عاد قوم هود، أناس قد (عَتَوْا) ورأوا كبيراً على أنفسهم أن يمنعوا عن أيّ أمرٍ يريدونه، كما كان منهم مؤمنين إلّا أنّ أهل الكفر كانوا الجمهور الكبير. فسفّهوا هوداً وكذّبوه، وتجاهلوا عن كلّ حجّة وبرهان أقامه هودعلى صدقه، وقالوا له: ﴿قَالُوا يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ سورة هود الآية/ ٥٣، وأنكروا رسالته، وقوله أنّ آلهتهم لا تنفع ولا تضرّ ولا تشفع، وإنّ عبدتها باطلة، وأنّه يجب أن تكون العبادة لله وحده؛ حيث إنّ ذلك خلاف ما أخذوه من الآباء والأجداد. فواصل هود دعوته وأكّد أنّه رسول من ربّ العالمين، ولا يتصوّر أنّ يرسل الله تعالى سفيهاً ولا مجنوناً إلى العباد، وترقّى قومه في تكذيبه وقالوا له: إنّ آلهتنا قد غضبوا عليك فأصابوك بالخبال والجنون، فاتّهموه بالجنون ليصدّوا عنه النّاس، سمع هود ذلك فأعلن توحيده وأشهد الله تعالى وأشهدهم على أنّه بريء من تلك الآلهة الباطلة كلّها. وليفعلوا ما يفعلوا فإنّهم لا يستطيعون شيئاً، وأعلن أنّه واثق بربّه الّذي بيده نواصي كلّ ما على الأرض، أنّه سيمنعه ويحفظه وينصره على جميع الأعداء، وبيّن هود لهم أنّه قام بواجب من التّبليغ، وأنّهم إذ تولّوا فإنّ الله تعالى سيدمّرهم ويستخلف بعدهم قوماً آخرين. ثمّ لم يزل هود يمحضهم النّصح ويعلن لهم أنّه ناصح أمين خالص النّية في دعوته، ويدعوهم إلى ما فيه سعادتهم وحسن صالح في

الدّنيا والآخرة، وانّه ليس لهم حقّ في أن يتعجّبوا أن يأتيهم نذير منهم ؛لأنّ ذلك من سنّة الله تعالى في العباد؛ وما جعل الله الرّسل إلى البشر إلّا بشراً منهم، ليسهّل بينهم التّفاهم في الخطاب، أنكر قومه مرة أخرى ما يدعوهم إليه هود من عبادة الله تعالى وحده وترك هذه الأصنام، فإنّ في ذلك تحقيراً لآبائهم، ونسبة الجهل والضّلال إليهم، كما وفيه تحقيراً لآلهتهم وأوليائهم وشفعائهم عند الله تعالى، وأنّه كيف يأمر بترك التّوسل بهم والتّوجه اليهم لدفع المضرّات وجلب الخيرات، وتحدّوا هوداً فقالوا: (**فَأْتِنا بما تَعِدُنا**) من العذاب (**إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِين**). فبعد ذلك أنذرهم هود قائلاً: (**قَدْ وَقَعَ**) أي قد قرب أن يقع (**عَلَيْكُمُ مِنْ رَبّكُمْ رِجْسٌ وَعَذابٌ عَظيم**) فأحلّ الله تعالى بهم نقمته بأن أمسك عنهم المطر حتّى جهدوا، فذكرهم هود بدعوته وأنّه لا ينجيهم من البلاء سوى أتباعه والعمل وفق إرشاده، إلّا أنّه كان يزيدهم ذلك عتواً، إلى أن أرسل الله تعالى الرّيح العقيم فأدامها عليهم ﴿سَبْعَ ليالٍ وَثَمانِيَةَ أَيّامٍ حُسوماً﴾ سورة الحاقة الآية/ ٧ ـ فأهلك كلّهم وأبادهم، وصارت أجسادهم كأنّها أعجاز نخل خاوية، ونجّا الله تعالى هوداً ومن معه من المؤمنين، وقوم عاد الّذين أهلكوا هم عاد الأولى، وأمّا عاد الثّانية فهم سكان اليمن، ويقول أهل حضرموت: إنّ هوداً (عليه السلام) إلى أن مات ودفن كان في شرقيّ بلادهم على بعد مرحلتين من مدينة تريم قرب وادي برهوت، وهذا هو الصّحيح دون قول الفلسطينيّين أنّه مدفون عندهم. وقد ذكر القرآن قوم عاد في سور أخرى، وأخبر عن حالهم في سور: (هود والمؤمنون والشّعراء وفصّلت والأحقاف والذّاريات والقمر والحاقّة والفجر) فأطنب في بعض وأوجز في بعض، واقتصد في بعض آخر، وكلّ حسب ما يقتضيه المقام، ومفاد الكلّ وخلاصة ما في جميع السّور هي ما ذكرنا والحمدلله ربّ العالمين.

* * *

ثمّ عقب الله تعالى قصّة عاد بقصّة قوم ثمود فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾

(وإلى ثمود) أي وأرسلنا إلى ثمود **(أخاهم صالحاً قال)** لهم صالح **(ياقوم اعبدوا الله ولا تعبدوا)** غيره من الأصنام حيث **(ما لكم)** حسب الحقيقة والواقع **(إله غيره)** فكلّ ما تعبدونه من غيره ليسوا بآلهة في الحقيقة، وعبادتهم كفر وضلال **(قد جاءكم بيّنة)** معجزة واضحة تدل على صدقها أنّها **(من ربّكم)** أتت هذه المعجزة من ربّكم، ثمّ بين المعجزة الّتي أتت فقال مشيراً إلى ناقة **(هذه ناقة الله لكم)** متعلق بقوله: آية، وآية حال من قوله: (هذه)، أي أشير إلى هذه النّاقة حال كونها آية لكم، وسبب كونها معجزة أمور:

الأمر الأوّل: أنّها أخرجها الله تعالى بدعاء صالح من الصّخرة دون ذكر وأنثى وحمل وطول زمان إلّا أنّه دعا فخرجت ولذلك أضيفت إلى الله تعالى، أي ناقة خلقت بمجرد أمر الله تعالى دون الولادة من الوالدين.

الأمر الثّاني: كان لها شرب يوم، فتشرب في يوم بقدر ما يشرب القوم كلّهم مع مواشيهم في يوم.

الأمر الثّالث: كان حليبها كثيراً، فكان القوم يحلبونها يوم شربها، فيكفي حليبها أهل القرية كلّهم.

الأمر الرّابع: أنّ الوحوش والحيوانات كانت تمتنع يوم شربها؛ فلا ترد الماء ولا واحدة منها، حيث أمر الله تعالى أن لا يرد أحد الماء يوم شربها كما قال **(فذروها)** فاتركوها **(تأكل في أرض الله)** كيف شاءت وأين أرادت **(ولا تمسّوها بسوء)** من الضّرب أو الطّرد أو العقر **(فيأخذكم)** بسبب الإساءة إليها **(عذاب أليم)** مؤلم جدّاً، وكانت مجيء هذه المعجزة حسب إقتراحهم، حيث طلبوا من صالح أن يخرج ناقة من هذه الصّخرة ففعل، فلم يؤمنوا رغم استجابة الله دعاء صالح لدعواهم، فأنذرهم صالح وذكّرهم بمن قبلهم والّذين أهلكوا؛ نتيجة الكفر وتكذيب الرّسل والإشراك بالله تعالى فقال: **(واذكروا)** ذكر عظة وعبرة **(إذ جعلكم)** الله تعالى **(خلفاء)** في هذه الأرض، وأسكنكم فيها وأعزّكم **(من بعد عاد)** الّذين أهلكوا لكفرهم وشركهم وتكذيبهم لرسولهم

(وبوّأكم) الله **(في الأرض)** هذه، وألهمكم العمل ووفّقكم فيه حيث **(تتخذون)** تصنعون وتبنون **(من سهولها قصوراً)** رفيعة وأبنية جميلة لتّسكنوا فيها بالصّيف **(وتنحتون)** وتشقّون **(الجبال)** فتصنعون منها **(بيوتاً)** لتسكنوا فيها في الشّتاء **(فاذكروا آلاء)** نعم **(الله)** تعالى هذه **(ولا تعثوا)** ولا تصيروا **(في الأرض مفسدين)** بعبادة غير الله والإنحراف عن شريعته، فكذّبه قومه ولم يؤمنوا به، واستهزؤوا به وبمن آمن به، كما قال جلّ وعلا:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾

(قال الملأ) أي الجماعة **(الّذين استكبروا)** عن الإيمان لصالح **(من قومه)** الّذين دعاهم إلى الإيمان وهم السّادة والكبراء والأثرياء فكفروا وقالوا: **(للّذين استضعفوا)** منهم وهم الفقراء فقالوا لهم أي **(لمن آمن منهم)** بصالح فتفيد الآية أنّ المستضعفين لم يؤمنوا به كلّهم، فقال الكبراء للمؤمنين **(أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربّه)** وتصدّقونه في ذلك **(قالوا)** نعم **(إنّا بما أرسل به)** صالح، وهو التّوحيد والشّريعة والنّظام الّذي جاء به مؤمنون لا نشك في حقيّة ذلك ولا في صدق صالح أبداً **(وقال الّذين استكبروا)** عن اتّباع صالح فكفروا به، وذكروا بهذا اللفظ إشارة إلى أنّ تكذيبهم له وعدم اتّباعهم له للإستكبار، لإخفاء ما يدعو إليه صالح وعدم علمهم بصدقه؛ فلذلك الإستكبار كفروا وقالوا: **(إنّا بالذي آمنتم به)** وهو التّوحيد والدّين الّذي جاء به صالح ونبوّته، فبكلّ ذلك نحن **(كافرون)** فلا نؤمن به **(فعقروا)** فذبحوا **(النّاقة)** الّتي جاء بها صالح معجزة ذبحوها لأنّها كانت تضايقهم في مائهم ومراعيهم **(وعتوا)** وخرجوا **(عن أمر ربّهم)** بأنّ لا يمسّوا النّاقة بسوء، فأنذرهم صالح بالعذاب إن لم يتوبوا ولم يؤمنوا فأصرّوا على الكفر

والإستكبار والتّكذيب **(وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا)** وتخوّفنا به من العذاب **(إن كنت من المرسلين)** قالوا ذلك تهكّماً واستهزاءً وعتوّاً وضلالاً، فأرسل الله تعالى عليهم العذاب **(فأخذتهم الرّجفة)** والرّجفة هي الزّلزلة **(فأصبحوا)** بسبب هذه الزّلزلة في دارهم جاثمين أي واقعين على وجوههم ميّتين لا حراك لهم، وقوله تعالى: **(في دارهم)** أي أصبح كلّ واحد في داره جاثماً وفي آية / ٧٦ في سورة هود: ﴿في ديارهم﴾ من قبيل ركب القوم دوابّها أي أصبح كل واحد في داره جاثماً، ومآل معناها مع هذه الآية واحد لا تناقض بينهما.

تنبيه:

١- قال تعالى: ﴿فأخذتهم) أي أصابتهم أي قوم ثمود لتكذيبهم صالحاً ﴿الصّيحة مصبحين﴾ سورة الحجر الآية/ ٨٣، فأفادت أنّهم أهلكوا بالصّيحة أي الصّاعقة أو بصيحة من ملك من ملائكة الله تعالى.

٢ ـ قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ سورة فصلت الآية/ ١٧ ـ فدلّت الآية هذه على أنّ الصّيحة كانت صيحة الصّاعقة لا صيحة الملك.

٣ ـ قال تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ سورة الذاريات الآيتان / ٤٣،٤٤، فأكدّت الآية هذه على أنّهم أهلكوا بالصّاعقة.

٤ ـ قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ سورة هود الآية/ ٦٧، فالمراد بالصّيحة هنا صيحة الصّاعقة بقرينة ما مرّ سابقاً.

* * *

فتبيّن من هذه الآيات أنّ قوم ثمود أهلكوا بالصّاعقة، فالمراد بالرّجفة هنا ما يرجف الأرض ويزلزلها وهي الصّاعقة، فقد جاءت صاعقة زلزلت الأرض بهم؛ فهلكوا جميعاً ووقعوا على جباههم **(فتولّى)** فخرج صالح **(عنهم)** من بينهم هو ومن آمن به حينما نزل عليهم العذاب وبعدما أهلكوا جميعاً إلتفت إليهم **(وقال)** تحسّراً **(يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربّي)** حقاً وصدقاً وبيّن لكم عاقبة الشّرك والكفر **(ونصحت)** وأخلصت **(لكم)** في التّبليغ والوعظ والإرشاد **(ولكن)** أنتم **(لا تحبّون النّاصحين)** فما اتّعظتم

بوعظي ولا استرشدتم بإرشادي، وفعلتم ما فعلتم إلى أن لقيتم ما لقيتم فلا تلوموا إلّا أنفسكم، ومثال ما خاطب الرّسول (ﷺ) قتلى المشركين يوم بدر وبعدما ألقوهم في قليب فقال (ﷺ): يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربّكم حقاً؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربّي حقاً، فقال له أصحابه: أتكلّم قوماً موتى؟ فقال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنّهم لا يستطيعون أن يجيبوا)[1] وفي رواية: (لقد علموا أنّ ما وعدهم ربّهم حقّ) والرّواية الأولى أصحّ؛ لأنّ الثّانية لا تلائم أن تكون جواباً لسؤالهم. هذا ثمّ إنّ قصة قوم ثمود ذكرت في سور متعدّدة بإطناب في البعض وبإيجاز في بعض آخر، ويتوسط بين الإطناب والإيجاز وحسب ما يقتضيه المقام، وخلاصة القصّة مايلي:

١- إختلف المؤرّخون في نسب صالح فقال الحافظ البغوي: هو صالح بن عبيد بن آسف بن ماشخ بن عبيد بن حاذر بن ثمود، وعن وهب أنّه أبن عبيد بن جابر بن ثمود، وفي كلا القولين أنّ ثمود هو جدّه الأعلى، وهو الّذي سمّيت قبيلة صالح وقومه باسمه وهو ابن عامر بن إرم بن سام، وقيل: هو ثمود بن عاد بن عوص بن إرم. وذكر الأستاذ عبدالوهاب النّجار: أنّ هذا القول نقله الآلوسي عن الثّعلبي والله تعالى أعلم.

٢ ـ مسكن ثمود كانت بالحجر، وموقعها بين الحجاز والشّام إلى وادي القرى، وأنّ مدائن صالح وقومه ظاهرة إلى اليوم، ورممهم اليوم باقية وآثارهم ظاهرة في طريق من ورد من الشّام، ويقع الحجر في الجنوب الشرقي من أرض مدين، وهي مقاربة لخليج العقبة.

٣ ـ كانت قبيلة ثمود تعبد الأصنام ويشركونها مع الله تعالى؛ فأرسل الله تعالى إليهم صالحاً ليعظهم ويذّكرهم بنعم الله تعالى، ويبيّن لهم الأدلّة الدّالة على أنّ الله تعالى واحد لا شريك له، وأنّه هو الحقيق بالعبادة، وأنّ عبادة ما سواه كفر وضلال، فجاءهم صالح فوعظهم وعرض لهم نصيحته، وذكّرهم بنعم الله تعالى وأظهر لهم الحجج والبراهين على وحدة الله تعالى، وخوّفهم بالعذاب إن لم يتوبوا عن الشّرك ولم يؤمنوا به، وخوّفهم بما جرى على من قبلهم من الأمم من الهلاك والتّدمير نتيجة شركهم وتكذيبهم لرسل الله وإنحرافهم عن شريعة الله تعالى، وبيّن لهم أنّه لا يريد من دعوته هذه أجراً ولا مالاً ولا سلطاناً ولا سيادة ورئاسةً عليهم، وإنّما يطلب أجره من

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ١٨٧.

الله تعالى و يدعوهم إلى ما يدعو إليه، لأنّه أمره الله تعالى بذلك، فيدعو أداءاً للواجب الملقى عليه، ومن كان شأنه هذا فهو أبعد من أن يتّهم بأنّه يريد جر النّفع إلى نفسه أو يتّخذ الوعظ والإرشاد وسيلة لجمع المال أو لنيل الرّئاسة، وألحّ على القوم أن يطيعوه ولا يتّبعوا سبيل المسرفين الّذين يفسدون في الأرض بنشر عقائد فاسدة وشرائع باطلة تخالف شريعة الله تعالى، كلّ ذلك للحفاظ على مكاسبهم ومنافعهم الّتي يجرونها من الإفساد؛ ولذلك يفسدون ولا يصلحون بنشر التّوحيد ونشر شريعة الله تعالى بين النّاس، فآمن به المستضعفون وكفر به السّادة والكبراء والمستكبرون وقالوا: (أأنزل عليه) أي على صالح (الذّكر) أي الدّين، واختاره الله تعالى للرّسالة (من بيننا) فاستنكروا أن ينال الخير والشّرف سواهم ممن لا يمتاز عليهم بالقوّة أو بالثّروة والمال، وقالوا للمؤمنين به (أتعلمون أنّ صالحاً مرسل) من الله تعالى فأجابوهم (وقالوا) نعم و(إنّا بما أرسل به مؤمنون) فقال الكبراء (إنّا بالّذي أرسل به) من التّوحيد والشّريعة (كافرون) غير مؤمنين. ثمّ واصل صالح دعوته وضاق بالكافرين ذرعاً، فطلبوا منه أن يأتي لهم بمعجزة، فأتى لهم بالنّاقة كما وصفت وذكرناها وأوصافها سابقا، فكفروا وأصرّوا على التّكذيب رغم إتيانه بالمعجزة حسبما أرادوا، فبذل صالح أكثر جهده في تذكير القوم ونصحهم وتبشيرهم وإنذارهم، فزادوا في التّكذيب والاستهزاء به، وعقروا النّاقة، فقال لهم صالح: إنّ العذاب سينزل بهم بعد ثلاثة أيام، فأقسم القوم أنّهم ليقتلن صالحاً إلّا أنّ الله تعالى (نجى) صالحاً؛ فأنزل صاعقة عليهم، فزلزل بهم الأرض زلزالاً شديداً، فوقعوا كلّهم على وجوههم موتى لا حراك لهم، وذهب صالح ومن آمن به إلى الرّملة في فلسطين على أصحّ الرّوايات، وكان الّذين نجوا مع صالح مائة وعشرين بيتاً والهالكون أهل خمسة آلاف بيت والله تعالى أعلم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر للنّاس قصّة لوط؛ ليعتبروا بهم ويتّعظوا فلا يرتكبوا ما إرتكبوا من المعصية والشّذوذ والتّكذيب لرسل الله والإنحراف عن شريعة الله تعالى؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ

أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

(**ولوطاً**) أي وأرسلنا لوطاً إلى قومه وذكر حالهم (**إذ قال لقومه**) على وجه الإستنكار (**أتاتون الفاحشة**) من الفحش وهو الشيء البشع المنكر جداً، وكانت الفاحشة الّتي يأتونها اللّواط، فأنكر عليهم ذلك ونهاهم عنه وقال (**ما سبقكم بها**) أي بهذه الفاحشة وما عملها قبلكم (**أحد من العالمين**) فهذا خروج منكم عن جبلّة الإنسان وقد خرجتم عن الطّبيعة الإنسانية حيث (**إنّكم لتأتون الرّجال شهوة**) أي لقضاء شهوتكم منهم (**من دون النّساء**) وقد خلقت النّساء لذلك لا الرّجال، فليس هذا من صفة الإنسان (**بل أنتم قوم مسرفون**) جداً، حيث تجاوزتم أمر الله تعالى وتجاوزتم حدود الجبلّة والطّبيعة أيضاً، فأيّ إسراف أكبر من هذا الإسراف (**وما كان جواب قومه**) له بعد الوعظ والزّجر والإرشاد الصّحيح (**إلّا أن قالوا**) أي قال بعضهم وهم السّادة للبعض وهم الأتباع، فأمروهم وقالوا لهم (**أخرجوهم**) أي لوطاً ومن آمن به كلّهم (**من قريتكم**) هذه حيث (**إنّهم أناس يتطهّرون**) يدعون الطّهر والنّزاهة لهم وينسبون إلينا الخبث، ويدّعون أنّ عملنا هذا خبيث ولا خبث فيه، فخالف لوط ومن معه عقيدتنا؛ فأخرجوهم من قريتكم لكي لا يبدّل تقاليدنا وعاداتنا، فكافح لوط وواصل إرشاده إلى أن يئس منهم؛ فأنزل الله تعالى عليهم العذاب كما قال: (**فـ**) أي فأنزلنا على قومه العذاب و (**أنجيناه وأهله**) من العذاب (**إلّا امرأته**) فأهلكت مع القوم لأنّها كانت كافرة، ولذا كانت (**من الغابرين**) أي الباقين مع القوم فأهلكت معهم، ولم يقل من الغابرات تغليباً لأنّها كانت تؤيّد عمل الرّجال وفسادهم. ثمّ بين الله تعالى كيفيّة إهلاك قوم لوط، فقال جلّ وعلا: (**وأمطرنا عليهم**) أي على قوم لوط (**مطراً**) من حجارات من سجّيل فأهلكوا كلّهم (**فانظر**) أيّها المخاطب (**كيف كان عاقبة المجرمين**) نظراً وعبرةً واتّعظ لتتجنّب أفعالهم وتبتعد عن أعمالهم، لكي لا تبتلى بما ابتلوا به ولا تعذّب كما عذّبوا. وانّ قصّة لوط كغيرها مذكورة في سور متعدّده وحسب المقام، والمقتضى وخلاصتها كما يلي:

خلاصة قصّة لوط:

إن لوطاً كان ابن هاران وهاران كان أخاً لإبراهيم، آمن به واهتدى بهديه وهاجر معه فسكن مع عمّه في شيكيم وهي مدينة نابلس، ثمّ إفترق من إبراهيم باتّفاق بينهما،

فذهب وأقام في سدوم، وكان قوم سدوم أهل الشّر والفسق والفجور، فكانوا يقطعون الطّريق على النّاس ويسلبونهم أموالهم، وقد ذهب الحياء من وجوههم فلا يستقيمون قبيحاً ولا يرغبون في أمر حسن، وابتدعوا من المنكرات ما لم يسبقهم أحد من خلق الله تعالى. حيث إنّهم كانوا يأتون الرجال لقضاء الشّهوة من دون النّساء ويعملون ذلك علناً ولا يستترون حيث كانوا لا يرون في ذلك قبحاً ولا عيباً ولا ذنباً، فبدأ لوط يعظهم وينصحهم وينهاهم عن فعلهم هذا ويخوّفهم بأس الله وعذابه إن لم يتوبوا عن هذا العمل القبيح فلم يتّعظوا ولم يرتدعوا، فلما ألح لوط في وعظهم وإنذارهم هددوه بالرّجم أي القتل تحت الحجارات مرّة وبإخراجه من القرية مرةً أخرى، فلمّا اشتد الأمر بينهم وضايقوا لوطاً جاءته الملائكة كضيوف وفي صورة غلمان مرد حسان الوجوه فجاء كبراء القرية إلى لوط وأرادوا أن يفعلوا بضيوفه الفاحشة الّتي اعتادوها، وقد جهد لوط في ردّهم عن الضّيوف، فلم يقبلوا منه كلّ ما طلب به دفعهم عن الضّيوف فتحسّر وتمنّى **(وقال لو أنّ لي بكم قوّة أو آوي إلى ركن شديد)** فحينئذ علمه الملائكة أنّهم ملائكة أتوا لتدمير هؤلاء القوم وإهلاكهم، فهجم القوم على بيت لوط ليأخذوا ضيوفه بالقوّة إلّا أنّ الله تعالى طمس على أعينهم فلم يبصروا ولم يهتدوا إلى مكان الضّيوف، فبعد ذلك أخرج الملائكة لوطاً وابنتيه وزوجته من القرية، وأمروهم أن لا يلتفت أحد منهم إلى القرية وأن يمشوا حيث يأمرونهم، فلم يلتفت منهم أحد إلّا امرأته، فإنّها التفتت إلى القرية لترى ما يحلّ بها، وكانت تحبّ أهل القرية وتكره لوطاً، فحلّ بها ما حلّ بهم من العذاب، فماتت لأنّها كانت كافرة، وأمطر الله تعالى على أهل القرية حجارة من سجّيل، وقلب الله تعالى ديارهم، فجعل سافلها عاليها، وهكذا قضى الله تعالى عليهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

* * *

فائدة: قال الأستاذ عبد الوهاب النّجار في قصصه للأنبياء، واعتقد أنّ البحر الميّت المعروف الآن ببحر لوط أو بحيرة لوط لم يكن موجوداً قبل حادثة قوم لوط، وإنّما حدث من الزّلزال الّذي جعل عالي البلاد سافلها، وصارت أخفض من سطح البحر بنحو أربعمئة متر، وقد جاءت الأخبار في السّنتين الماضيتين بأنّهم اكتشفوا آثار مدن قوم لوط على حافّة البحر الميت.

* * *

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر قصّة شعيب عليه السّلام فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

(وإلى مدين) أي وأرسلنا إلى مدين **(أخاهم شعيباً قال)** لهم **(يا قوم اعبدوا الله)** وحده ولا تشركوا به غيره **(ما لكم)** في الحقيقة والواقع **(من إله غيره)** فكيف تتّخذون غيره آلهةً **(قد جاءتكم)** على يدي **(بيّنة)** معجزة واضحة في الدّلالة على رسالتي وصدقي في دعواي الرّسالة؛ فأطيعوني فيما آمركم به وأنهاكم عنه **(فأوفوا الكيل والميزان)** أي كِلوا وزنوا الأشياء للنّاس وافياً تامّاً دون نقص **(ولا تبخسوا ولا تنقصوا النّاس أشياءهم)** بسبب التّطفيف في الكيل والوزن **(ولا تفسدوا في الأرض)** بنشر الشّرك بالله والدّعوة إلى غير نظام الله تعالى **(بعد إصلاحها)** أي بعد أن أصلح الأنبياء والعلماء ببثّ عقيدة التّوحيد والعمل بشريعة الله تعالى **(ذلكم)** الّذي أمركم به **(خير لكم)** ممّا أنتم عليه من الفساد في العقيدة والأحكام وقوله: (خير) لأنّ ما كانوا عليه كان فيه بعض الخير الدّنيوي لأنّهم كانوا يستفيدون منه مادياً إلّا أنّ ما دعاهم إليه كان أكثر خيراً، حيث كان فيه منفعة الدّنيا لأنّ التّعامل بالصّدق يورث البركة وحبّ النّاس، وكان فيه منفعة الآخرة أيضاً، بخلاف ما هم عليه فإنّه كان يضرّهم بالنّسبة للآخرة ويورث العذاب والعقاب، وقال: **(إن كنتم مؤمنين)** فإنّ خيريّة كلّ عمل بالنّسبة للآخرة وتسبّبها في الثّواب لا يكون إلّا إذا كان مبنيّاً على الإيمان، وكذا العمل الصّالح لا يكون خيراً بالنّسبة للدّنيا أيضاً إلّا إذا عمل وفق الإيمان، لأنّ غير المؤمن لا يعمل خيراً

إلّا إذا ترقّب فيه جر نفع للدّنيا، ولكنّ المؤمن يعمل الخير لأنّه خير، سواء جرّ نفعاً أو لا، فيكون عمل المؤمن خيراً من عمل الكافر بالنّسبة للدّنيا والآخرة جميعاً **(ولا تقعدوا بكلّ صراط)** بكلّ طريق من الطّريق الّتي تصل إلى البلدة وبكلّ طريق تؤدّي إلي بيت شعيب **(توعدون)** النّاس وتحذّرونهم قبل الدّخول في البلدة وبعدها من الإتّصال بشعيب والدّخول في دينه **(وتصدّون)** وتمنعون بكلّ قوّة **(عن)** الدّخول في **(سبيل الله)** أي دينه وشريعته كلّ **(من آمن)** أي أراد الإيمان لأنّكم **(تبغونها)** أي السّبيل **(عوجاً)** منحرفاً حسب هواكم وسبيل الله مستقيم ثابت لا ينحرف **(واذكروا)** حالكم **(إذ كنتم قليلاً)** تظلمون لقلّتكم **(فكثّركم)** الله تعالى فلا يستطيع أحد أن يظلمكم، فاشكروا الله تعالى على ذلك، فلا تظلموا أنتم غيركم حيث علمتم مرارة المظلوميّة **(وانظروا)** نظر عبرة واتّعاظ **(كيف كان عاقبة المفسدين)** فاعتبروا بهم فلا تفسدوا لكي لا يصيبكم ما أصابهم من الدّمار والهلاك والفساد بسبب الشّرك بالله والعمل بغير شريعته **(وإن كان طائفة آمنوا بالّذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا)** به فلا يكره أحد غيره على اتّباع منهجه، بل فليدع كلّ إلى عقيدته بالحجّة والبرهان وبعد ذلك **(فاصبروا)** عن إيذاء من يخالفه **(حتّى يحكم الله بيننا)** بتكثير جانب وتقليل الآخرين، حسب إختيار النّاس، فدعوا النّاس يعتنقوا من عقيدتي أو عقيدتكم، وهذا أمر وترويج لحريّة العقيدة وللدّعوة بالحجّة إلى ماتدعو إليه بالقوّة والإكراه، إلّا أنّ الكافرين علموا أنّهم لو تركوا شعيباً يدعو إلى دينه وإعطاء الحريّة للنّاس لإعتناق ما يختارونه من الدّين لترجّح جانب شعيب؛ لأنّهم علموا أنّ ما يدعو إليه حقّ ويلائم العدل والوجدان والعقل والضّمير، فلذلك هدّدوا شعيباً كما أخبر عن ذلك الله فقال جلّ وعلا:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾

(قال الملأ الّذين استكبروا من قومه) عن الإيمان بشعيب، وفيه إشارة إلى أنّ كفرهم

كان للإستكبار فقط لا لخفاء الحقّ عليهم وغموض، فقالوا لشعيب: **(لنخرجنّك يا شعيب والّذين آمنوا معك)** متعلّق إمّا لنخرجنّك أو يأمنوا، والكلّ صحيح **(من قريتنا)** أي بلدتنا **(أو لتعودنّ)** لترجعنّ **(في ملتنا)** في ديننا **(قال)** شعيب لهم **(أو لو كنّا كارهين)** دينكم تكرهوننا على الدّخول فيه، فهذا أمر غير مستقيم، لأنّ الإكراه على العقيدة ليس من آداب الدّعاة **(قد افترينا)** أي لقد قلنا **(على الله كذباً إن عدنا في ملّتكم)** في دينكم لأنّه كان في دينهم نسبة الشّريك إلى الله تعالى، وهو إفتراء على الله تعالى جلّ وعلا، فلا نعود فيها **(بعد إذ نجّانا الله منها)** وهدانا إلى الحقّ **(وما يكون)** أي وما يمكن وما ينبغي لنا **(أن نعود فيها)** في ملّتكم **(إلّا أن يشاء الله ربّنا)** أن نعود فيها فإنّه يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء، وإنّ الإستقامة والثّبات على الحقّ بيده وأمره **(وسع ربّنا كلّ شيء علماً)** أي وسع علمه كلّ شيء فيعلم من يستحقّ الضّلال أو الهداية **(على الله توكّلنا)** في أن يمنعكم من إخراجنا وأن يكفينا شرّكم وأذاكم. ثمّ توجّه شعيب إلى الله بالدّعاء فقال **(ربّنا افتح)** أي حلّ المشكلة الّتي **(بيننا وبين قومنا بالحقّ)** أي بإعلاء الحقّ **(وأنت خير الفاتحين)** للمشاكل والمنهين لها.

ثمّ بعد هذه المخاطبة السّليمة الحكيمة لم يرجع الكبراء عن غيّهم وطغيانهم واستعملوا العنف والإكراه كما قال جلّ وعلا:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾

(وقال الملأ) أي الجماعة **(الّذين كفروا من قومه)** من قوم شعيب وما آمنوا به، قالوا للّذين آمنوا وغيرهم **(لئن اتّبعتم شعيباً)** وآمنتم به وبقيتم على الإيمان به **(إنّكم إذاً)** التّنوين بعوض المضاف إليه أي إذا اتّبعتموه **(لخاسرون)** كلّ ما تريدون في الدّنيا حتّى الحياة فيها **(فأخذتهم الرّجفة)** أي أصابتهم الزّلزلة العظيمة **(فأصبحوا)** كلّهم **(في دارهم جاثمين)** واقعين على جباههم موتى لا حراك لهم **(الّذين كذّبوا شعيباً)** أصبحوا **(كأن لم**

يغنوا) لم يقيموا **(فيها)** أي في القرية أبداً **(الّذين كذّبوا شعيباً)** وطغوا وهدّدوا المؤمنين بالخسارة **(كانوا)** أصبحوا **(هم الخاسرين)** فخسروا الدّنيا والآخرة **(فتولّى)** شعيب **(عنهم)** وخرج من بينهم حينما علم بمجيء العذاب، فلمّا أهلكوا إلتفت إليهم **(وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربّي)** وأوامره **(ونصحت)** وأخلصت لكم فأهلكتم بكفركم فلا آسى عليكم **(فكيف آسى)** أي أحزن **(على القوم الكافرين)** بالله وبالحقّ، فأهلكوا كذلك، والإستفهام للإنكار، أي فلا أحزن عليهم أبداً، هذا ولقد ورد ذكر شعيب وقصّته في هذه السّورة وفي سورة هود والشّعراء والعنكبوت حسب ما يقتضيه المقام من الإيجاز والإطناب وخلاصة قصّته كما يلي:

خلاصة قصّة شعيب:

إنّ قوم شعيب هم أولاد وقبيلة مدين بن إبراهيم (عليه السلام) وكانوا ينزلون في بلاد الحجاز ممّا يلي الشّام، وقد سمّيت قريتهم مدين لذلك، وكان أهل مدين في عيش رغيد وحياة طيّبة، فكانوا أهل زراعة وتجارة، ولهم الظّلم في التّجارة، حيث كانوا يطفّفون في الكيل والميزان، وكانوا يحطّون من أسعار أموال الواردين فيشترونها منهم بأنقص من ثمنها، وكانوا يعبدون غير الله تعالى، أرسل الله إليهم شعيباً فأصبح ينهاهم عن هذه الأمور كلّها، ويوجّههم إلى العدل في المعاملات والإيمان بوحدة الله تعالى، وأظهر لهم المعجزات الدالة على رسالته ونبوّته، فكذّبوه ولم يؤمنوا به، ونصبوا راية العداء له ولدينه الّذي جاء به، فكانوا يقعدون على الطّرق ويحذّرون النّاس من الإتّصال به، ويمنعون النّاس بالقوّة من الإيمان به، ويبذلون كلّ جهدهم لإبطال أمره، ويستهزئون به، فتارة يقولون: (يا شعيب مانفقه كثيراً ممّا تقول) وتارة يقولون: (وإنّا لنراك فينا ضعيفاً) وتارة يقولون: (ولولا رهطك) أي عشيرتك (لرجمناك وما أنت علينا بعزيز) إلّا أنّ شعيباً كان حريصاً في دعوته لا يثنيه عنها كلّ هذه السّخريات والإنذارات، فكان كما يقال: القافلة تسير والكلاب تنبح. يمضي في دعوته ويصدع بالأمر والتّبليغ، وكان لفصاحته وبلاغته يسمّى خطيب الأنبياء، فلمّا رأى السّادة أنّ هذه الدّعوة أصبحت خطراً عليهم وعلى منافعهم وسيادتهم، وأنّها تمضي كما تمضي النّار في الحشيش، اجتمعوا واتّفقوا على أن يستعملوا القوّة لإطفاء هذه الدّعوة، حيث علموا أنّهم لا ينجحون في طريق الحجّة والبرهان، فهدّدوا شعيباً ومن آمن به، وخيّروهم بين أمرين: فإمّا أن يخرجوا من القرية أو يعودوا إلى دينهم من الكفر والشّرك والظّلم في المعاملات وأكل أموال النّاس بالباطل والحيل، فأجابهم شعيب ومن آمن معه بأنّ الرّجوع إلى دينهم لا

سبيل إليه، فإنّ الرّجوع إلى الضّلال بعد الخروج منه أمر مستحيل، فالتجؤوا إلى أنّهم يهدّدون المؤمنين والضّعفاء ويقولون: لئن اتّبعتم شعيباً أو بقيتم على اتّباعه إنّكم إذاً لتخسرون كلّ ما تريدون حتّى الحياة، فلمّا اشتدّ الأمر بالمؤمنين، وإشتدّ الملأ في طغيانهم، أرسل الله تعالى صاعقة فزلزلت بقريتهم زلزالاً شديداً، فأصبحوا كلّهم في دارهم جاثمين واقعين على الجبين موتى لا حراك لهم، فلمّا علم شعيب بمجيء العذاب، خرج هو ومن معه من القرية، فلمّا أهلك القوم التفت إليهم وقال: (ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربّي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين). ثمّ ذهب حيث أمره الله تعالى وأرسله إلى أصحاب الأيكة، والأيكة هي الأشجار الكثيرة الملتفّة فروعها وأغصانها لكثرتها، وكانت تلك الأيكة بقرب من مدين، وكان شعيب أجنبياً منهم، أي لا يصل إليهم بقرابة، وكان أصحاب الأيكة على طريقة أهل مدين، فبدأ شعيب يعظهم وينهاهم عما هم فيه، قالوا له: (إنّما أنت من المسحّرين * وما أنت إلّا بشر مثلنا وإن نظنّك لمن الكاذبين) فكانوا يريدون أن يكون الرّسول من الله تعالى ملكاً من الملائكة، فبلغت الحماقة والعناد بهم إلى أنّهم يقولون لشعيب (فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا) قطعاً (مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِين﴾ سورة الشّعراء الآية/ ١٨٥-١٨٧، في أنّك رسول من الله تعالى، فأرسل الله تعالى عليهم عذاب يوم الظّلة فأهلكهم به، وذلك أنّه سلّط الله عليهم الحرّ سبعة أيام، فبلغ الحرّ إلى أن غلت مياههم، ثمّ ساق تعالى عليهم غمامة فاجتمعوا إليها للإستظلال بها من حرّ الشّمس فأمطرت الغمامة عليهم ناراً فأحرقتهم جميعاً.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى قصص هؤلاء القوم أراد أن يذكر تمرّد النّاس وطبيعتهم السّيئة وأخلاقهم وعتوّهم عن الحقّ ولامهم على ذلك وأنذرهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾

(وما أرسلنا في قرية من نبيّ) قال من نبيّ ولم يقل من رسول لأنّ الرّسالة بعد

النّبوّة فكلّ رسول كان نبيّا، قبل، ثمّ يجعل رسولاً **(إلى قرية)** أي إلى أهلها إلّا استهزؤوا به وسخروا منه ولذلك **(أخذناها)** أي أصبنا أهلها **(بالباساء)** الفقر الشّديد **(والضّراء)** المرض **(لعلّهم يضّرّعون)** أي لكي يضّرّعوا إلى الله فيؤمنوا، أصله يتضرّعون، والقاعدة الصّرفيّة أنّه إذا كان فاء تفعل أحد حروف (أنشد ذرسثص ضظوى) تقلب تاءه بمثل فاء الفعل وأدغم فيه، فهنا قلب التّاء ضاداً وأدغم فيه فصار يضرع هذا ولكنّهم لم يتضرّعوا إلى الله تعالى ولم يتوبوا إليه بالإيمان برسوله **(ثمّ بدلناهم مكان السّيئة)** أي الفقر والمرض **(الحسنة)** فوهبنا لهم الصّحة والرّغد في العيش **(حتّى عفوا)** أي زاد عددهم وكثروا فلم يشكروا النّعمة هذه، بل كفروا **(وقالوا قد مسّ آباءنا الضّراء)** الفقر **(والسّراء)** والغنى، وهذا من سنّة الحياة وعادة الزّمان، وليس من الله تعالى ولا بسبب المعاصي أو الطّاعات، والحاصل أنّهم لم يعتبروا لا بالنّعم فيؤمنوا ولا بالنّدم فيتوبوا، بل زادوا كفراً في كلّ الأحوال **(فأخذناهم)** أي أصبناهم بالهلاك والتّدمير **(بغتةً)** أي فجأة.

سؤال: إنّ الدّولة المتقدّمة هم في الرّخاء والنّعم، ولم يأخذهم الله تعالى، وأنّ دول الإسلام أذلّاء تحت أيديهم، فكيف يوافق هذا الواقع الآية الكريمة؟

الجواب: قد سبق أن ذكر الله تعالى أنّه يمتحن النّاس أولاً بالشّدة لعلهم يتضرّعوا، ثمّ يمتحنهم بالرّخاء، فإذا لم يشكروا أخذهم وعذّبهم، وأنّ الدّول المتقدّمة قد كانوا في الشّدة وذهب دور شدّتهم، والآن هم في دور الرّخاء، فإذا لم يشكروا يؤخذوا، وإنّهم إن أمهلوا لا يهملوا، إلّا انّه لكلّ أمةٍ أجل ولكلّ أجل كتاب. **أو نقول**: إنّ هذه الدّول لم يُدعوا إلى الإسلام الصّحيح ولم تصلهم الدّعوة الصّحيحة، ولم يبلّغوا، والنّاس إنّما يعذّبون بعد التّبليغ وظهور الحقّ والإباء، بعد ذلك قال تعالى: ﴿وما كنّا معذّبين حتّى نبعث رسولاً﴾ سورة الإسراء الآية/ ١٥ ـ وأمّا المسلمون فإنّهم لا يعملون وفق الإسلام الصّحيح، ولذلك ذلّوا، فإن عادوا إلى الإسلام عاد إليهم العزّ، قال تعالى: ﴿وإن عدتم عدنا﴾ اللّهم أعذنا آمين.

* * *

(و) في حال جاءهم العذاب **(هم لا يشعرون)** بمجيء العذاب ولا أيّ مكروه **(ولو أنّ أهل القرى آمنوا)** برسل الله **(واتّقوا)** معاصي الله تعالى والإنحراف عن شريعته **(لفتحنا عليهم)** أبواب **(بركات من السّماء)** بإدرار الأمطار **(و)** من **(الأرض)** بالزّروع والنّباتات والأشجار والثّمار وإستخراج المعادن **(ولكن كذّبوا)** الرّسل وحرّفوا الشّرائع،

وابتعدوا عن احكام الله تعالى **(فأخذناهم)** أي عذّبناهم **(بما)** بسبب **(ما كانوا يكسبون)** من المعاصي والكفر والفسوق والآثام، فكلّ ما يجري على النّاس من الفقر والفاقة ومصائب الدّهر والآفات والنّكبات فكلّ ذلك هو عقوبة من الله تعالى نتيجة أعمالهم السّيئة وأفعالهم القبيحة وأفكارهم الدّنيئة وعقائدهم الباطلة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ سورة الشورى الآية/ ٣٠.

ثمّ أراد الله تعالى أن ينبّه النّاس من غفلتهم ويوقظهم من نومتهم، وأمرهم أن لا يأمنوا عذاب الله تعالى وهم في المناهي متوغّلون، وعن الله غافلون ولأحكامه تاركون وعن تعاليمه منحرفون، فقال جلّ وعلا:

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾

(أفـ) أي أفبعد أن علم النّاس بهلاك هؤلاء الأقوام نتيجة كفرهم وتمرّدهم على رسل الله تعالى وشريعته، أفبعد كلّ هذا **(أمن أهل القرى)** الّتي جاءهم رسول الإسلام وشريعته فكذّبوه ولم يؤمنوا، أفامنوا من **(أن يأتيهم بأسنا)** عذابنا **(بياتاً)** باللّيل **(وهم نائمون)** لا يشعرون بالعذاب ولا بمقدماته ليتداركوا الموقف، أو أمن أهل القرى **(أن يأتيهم بأسنا)** عذابنا **(ضحىً)** في وقت الضّحى **(وهم يلعبون)** منهم غافلون عن العذاب ولا يعلمون به، فيتداركوا موقفهم وقال: (هم يلعبون) وإن كان النّاس لا يلعبون جمعيهم في ذلك الوقت إلّا أنّ الإنسان الكافر يعتبر كلّ عمله لعباً حيث لا ينفعه للآخرة، وكلّ عمل المسلم[١] جدّ ويعتبر عبادة لأنّه يبنيه على الإيمان فيفيده **(أفامنوا مكر الله)** أي عذابه فليس لهم أن يأمنوا حيث **(فلا يأمن مكر الله إلّا القوم الخاسرون)** الّذين خسروا تفكيرهم وعقولهم؛ فلا يخافون عواقب الذّنوب ومعصية علّام الغيوب، فخسروا بذلك أنفسهم حيث جعلوها مستحقّة لعذاب الدّنيا والآخرة ولضياع الدّنيا والدّين، والإستفهامات هنا كلّها للإنكار والتّعجب، فالمعنى: إنّ أمنهم هذا ممّا ينكر ويتعجّب منه وهم فيماهم فيه ممّا يسبّب لهم نزول العذاب والدّمار من عصيان الملك القهّار والتّمرد

(١) يقصد عمل المسلم الموافق للإسلام باعتبار أن المطلوب من المسلم أن لا يخالف.

على الرّسول المختار، وتتبّع قبائح الأعمال وباطل المبادى والأفكار فأمرهم هذا منكر وغريب وحالهم عجيب وجداً عجيب.

ثمّ لامهم الله تعالى على عدم تفكيرهم فيمن قبلهم وعدم الإعتبار والإتّعاظ بهم؛ فقال جلّ وعلا:

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢)﴾

(أو لم يهد) أي أو لم يتبيّن **(للّذين يرثون الأرض)** أي أرض من أهلكوا، ألم يتبيّن لهم **(أن لو نشاء أصبناهم)** أي أهلكناهم مثل من سبقهم **(بذنوبهم)** أي بسبب ذنوبهم **(ونطبع)** أي ونختم **(على قلوبهم)** بسبب تعنّتهم وتمرّدهم وغلوّهم في المعاصي، فإنّ المعاصي تسوّد القلب وتعميها كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ سورة المطففين الآية/ ١٤، فإذا طبع على القلوب **(منهم)** أي أصحابها **(لا يسمعون)** لا يستجيبون الهدى، وبذلك يستحقّون العذاب، كمن قبلهم فليعتبروا بهم ويتركوا المعاصي قبل أن يختم على قلوبهم ويستحقّوا العذاب **(تلك القرى)** الّتي تعلمونها كما تعلمون ما ترونها وتشيرون إليها **(نقص عليك من أنبائها)** من أخبار أهلها وهو أنّهم كذّبوا الرّسل فأهلكوا **(ولقد)** وبعزّتي **(لقد جاءتهم رسلهم بالبيّنات)** بالمعجزات الواضحة والدّلائل الدّالة على صدقهم **(فما كانوا)** أي الخلق **(ليؤمنوا بما)** بالّذي **(كذّبوا من قبل)** أي كذّب أسلافهم به، فأهلكوا بسبب ذلك **(كذلك)** مثل ما ترى من أحوال الأقوام **(يطبع الله على قلوب الكافرين)** لغلوّهم في المعاصي وخوضهم في المناهي، فلا يعتبرون بمن قبلهم ولا يتّعظون بإرشاد الرّسل، ولا يقنعون بالأدلّة والبراهين. والحاصل أنّ هذا من دأب النّاس فكلّما أهلك قوم بسبب الذّنوب وجاء بعدهم قوم آخر فعلوا مثل ما فعلوا وخاضوا مثل ما خاضوا في الكفر والمعاصي، فلا عبرة ولا اتّعاظ **(وما وجدنا)** في الأقوام **(من عهد)** من الوفاء بعهد **(وإن)** أي وقد

(وجدنا أكثرهم) أي أكثر الأقوام السّالفة والخالفة **(لفاسقين)** لخارجين عن العهد. ولذلك أهلكناهم. هذا والعهود كثيرة: **العهد الأوّل**: إنّ الله تعالى حينما تاب على آدم عهد إليه وإلى ذرّيته أنّه يسكنهم هذه الأرض ويرسل إليهم شريعةً ومنهجاً، فمن عمل بها فقد أفلح ومن إنحرف عنها فقد استحق عذاب الدّنيا والآخرة، وذلك العهد مذكور في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)﴾ سورة البقرة الآيات/ ٣٧، ٣٨، ٣٩. وهذا العهد ذكره الرّسل ليبقى للأمم إلى أن جاء الرّسول الأعظم (ﷺ) وبعده يذكرها العلماء والدّعاة، ولكن النّاس في كلّ زمان ضيّعوا هذا العهد ونقضوه، حيث لم يعلموا بهدى الله ولم يطبّقوا شريعة رسوله.

العهد الثّاني: إنّ كلّ رسول جاء وأتى بشريعة الله تعالى وبلّغها إلى النّاس، وأخذ منهم العهد بالعمل بها وتطبيقها وعدم الإنحراف عنها، ثمّ بعد ما مات الرّسول أصبحت الأمّة تغير الشّريعة شيئاً فشيئاً وتنحرف عنها إلى أن تعمّ الجاهليّة ويرجعون إلى الجاهليّة الأولى، وينقضون العهد بتمامه، فيأتيهم رسول آخر ويعيد الدّين إلى حقيقته ويطهّر الشّريعة ممّا ألصق بها، ويأخذ العهد من الأمّة البقاء عليها كما هي، ثمّ بعد أن توفّى نقضت الأمّة العهد وبدّلت وغيّرت ورجعت إلى الجاهليّة؛ فيأتيهم رسول آخر وهكذا إلى أن جاء دور الرّسول الأعظم (ﷺ) ورجع بالنّاس إلى الحقّ المبين وهداهم إلى صراط مستقيم. ثمّ كلّ ما يأتي إنحراف على الدّين يرسل الله تعالى مجدّداً فيعيده إلى حقيقته ويطهّر من الدّخيلة تنفيذاً لوعده بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ سورة الحجر الآية/ ٩.

العهد الثّالث: إنّ كلّ رسول أخذ العهد من أمّته أن يؤمنوا بالرّسول الّذي يأتي بعده إلى مجيء الرّسول الأعظم، وأنّه أخذ العهد من الأمّة أن يتمسّكوا بكتاب الله وسنة رسوله، فنقض الأمم هذا العهد فلم يؤمنوا بالرّسول الآتي وكفروا به ونحن قد نقضنا **العهد** فابتعدنا عن روح الدّين وعن حقيقة سنّة سيّد المرسلين وعن تطبيق الشّرع المبين فلذلك حقّ علينا العذاب، فأصبحنا أذلّة تحت نير الأجانب المستعمرين، فلا دواء لنا إلّا الرّجوع إلى الله والحكم بشريعته ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ سورة الرّعد الآية/ ١١. أللّهم غيّر ما بنا من الإنحراف لتغيّر ما بنا من الذّل والهوان وأنت أرحم الرّاحمين.

ثمّ إنّ قوم عاد وهود ولوط وشعيب كلّهم كانوا قبل مجيء موسى (عليه السلام) بدليل قوله تعالى الآتي: (ثمّ بعثنا من بعدهم موسى) فبطل قول من قال إنّ عاداً كانوا طائفة من اليهود أو أن قوم شعيب كان قوماً من اليهود، لأنّ اليهوديّة إنّما وجدت بعد مجيء موسى (عليه السلام) فقال جلّ وعلا:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾

(ثمّ بعثنا) أي ثمّ أرسلنا **(من بعدهم)** من بعد هؤلاء الرّسل إلى تلك القرى بعثنا **(موسى بآياتنا)** بمعجزاتنا وأحكامنا **(إلى فرعون)** حاكم مصر **(وملئه)** أي وجماعته **(فظلموا)** أي كذلك ظلم فرعون وملؤه **(بها)** أي بالآيات كلّها **(فانظر كيف كان عاقبة المفسدين)** من فرعون وأتباعه، وكيف كان إهلاكنا وتدميرنا لهم **(وقال موسى يا فرعون إنّي رسول)** بعثت **(من ربّ العالمين)** فأطعني فإنّ أمري أمر الله وقولي قول الله تعالى، وحيث كنت رسولاً من الله فإنّي لا أقول إلّا ما أمرني به **(وحقيق)** وواجب **(عليّ أن لا أقول على الله إلّا)** القول **(الحقّ)** وهو ما أمرني به أن أقول **(قد جئتكم ببيّنة من ربّكم)** بمعجزة واضحة تصدّقني في أنّي رسول من الله تعالى **(فأرسل معي بني إسرائيل)** أي أتركهم لأنّ يأتوا معي، فإنّ الله تعالى أرسلني لأذهب بهم إلى فلسطين لتخلص أنت منهم ولينجوا هم من عذابك وتذليلك إياهم فلم يرق لفرعون أن يصدّق موسى بأنّه رسول من الله تعالى أو أن يأذن لبني اسرائيل أن يذهبوا، إذ لو ذهب بنو إسرائيل وهجروا مصر فمن الّذي يعمل وهم الطّبقة العاملة، ثمّ كيف يقبل فرعون أن يكون لبني إسرائيل وطن خاص وكيان خاصّ فلو وقع ذلك فلا يأمن فرعون أن يشكل هؤلاء دولة وتقوى دولتهم فيقضوا على سلطانه وينتقموا منه على ما كان يسومهم سوء العذاب يذبّح أبناءهم ويستحي نساءهم فلكلّ ذلك قابل فرعون موسى بالتّكذيب والجدال فقال عنه جلّ وعلا:

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

(قال) فرعون لموسى **(إن كنت جئت بآية)** بمعجزة **(فأت بها)** أي فأظهرها **(إن كنت من الصّادقين)** في أنّك رسول ولك معجزة **(فألقى)** موسى **(عصاه فإذا هي)** أي العصا **(ثعبان)** حيّة عظيمة **(مبين)** واضح لا يشكّ أحد في أنّها حيّة حقيقيّة **(ونزع)** أي وأخرج موسى **(يده)** من جيبه **(فإذا هي)** اليد **(بيضاء)** تشرق كالشّمس **(للنّاظرين)** إليها.

فلمّا أظهر موسى هاتين المعجزتين لجأ الملأ إلى مقابلة، ورد كون ما أظهر موسى معجزة ولذا عنهم قال جلّ وعلا:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾

(قال الملأ) أي الجماعة الخاصّة **(من قوم فرعون)** والملتفون حوله **(إنّ هذا)** أي موسى **(لساحر عليم)** بالسّحر **(يريد)** بهذا السّحر أن يجمع النّاس حوله، فيشكّل قوّة وبهذه القوّة **(أن يخرجكم من أرضكم)** أي أن يستولي عليكم، فإذا استولى عليكم فستخرجون من الأرض حيث لا تقبلون الخضوع للغير[١] **(فماذا تأمرون)** أن نعمل لمقابلة موسى وإضعاف أمره لكي لا يتّبعه النّاس فقال جلّ وعلا:

﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾

(قالوا) أي جماعة **فرعون** وحاشيته **(أرجه)** أصله أرجئه أي أجّله حذفت الهمزة للتّخفيف فصار أرجه، فلما ضمّ إلى واو وأخاه وهمزته، اجتمع ثلاث حركات متواليات، فحذف حركة الوسط وهو هاء أرجه فصار **(أرجه)** أي أجّل موسى وأخاه هارون أي أجّل أمرهما ومجادلتهما إلى مدّة **(وأرسل في المدائن)** أناساً **(حاشرين)** جامعين للسّحرة فإذا أرسلتهم للسّحرة **(يأتوك بكلّ ساحر عليم)** بالسّحر فأت بهم ليبطلوا سحر موسى أو يغلبوا عليه في السّحر فيعلم النّاس **أن** موسى ساحر فلا يتبعوه. فأرسل النّاس جميع السّحرة فجاؤوا كما قال جلّ وعلا:

---

(١) وهكذا طواغيت هذا الزمان من الحكام كلما ظهرت دعوة إسلامية مخلصة ضربوها بشدة بحجة أنها تتآمر على السلطان أو تريد أن تستولي على الحكم.

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾

(**وجاء السّحرة فرعون قالوا**) لفرعون (**إنّ**) أصله أإن للإستفهام، وقد قرئ أإن أيضاً أي هل إنّ لنا (**لأجراً**) لجائزة كبيرة (**إنْ كنّا نحن الغالبين**) على موسى في السّحر؟ (**قال**) فرعون لهم (**نعم**) أي لكم أجر بل (**وإنّكم لمن المقرّبين**) إى زيادة على الجائزة إن غلبتم موسى. فاجتمع السّحرة وموسى والنّاس في ساحة واسعة للمسابقة بين موسى والسّحرة، فتوجه السّحرة إلى موسى كما قال عنهم جلّ وعلا:

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾

(**قالوا**) أي السّحرة (**ياموسى إمّا أن تلقي**) أنت سحرك قبلنا (**وإما أن نكون نحن الملقين**) لسحرك قبلك (**قال ألقوا**) أنتم قبلي (**فلمّا ألقوا**) أي السّحرة سحرهم (**سحروا**) أي غيّروا أعين النّاس عن إدراك ما فعلوا، وحقيقته حيث رموا الحبال وجعلوها تسعى كأنّها حيّات ولم تصر في الحقيقة حيّات، بل دهّنوها بشيء حرّكها كالحيّات (**واسترهبوهم**) أي خوفوا النّاس بهذه الحبال الّتي تخيّلوها حيّات (**وجاؤوا**) بما فعلوا (**بسحر عظيم**) جدّاً.

لطيفة: أشار في الجلالين إلى سؤال وهو: إنّ السّحر حرام وموسى كان رسولاً، فكيف أمرهم بفعل السّحر، وكيف الرّسول يأمر بالحرام؟ ثمّ أشار إلى الجواب بأنّ الأمر لم يكن بعمل السّحر، بل بتقديم عملهم عليه، وأنّه وإن كان أمراً بالسّحر فكان لإظهار الحقّ بعد ذلك وذلك جائز، ولكن نحن **نقول**: إنّ موسى في ذلك الوقت لم ينزل عليه الشّريعة ليكون السّحر حراماً، وإنّما نزلت التّوراة عليه بعد ذلك الوقت بزمان، وبعدما نجا من النّيل مع قومه[1]. ثمّ لنا أن نسال أيضاً هل كان السّحر حراماً في شريعة موسى

---

(١) لعل المسألة هو أنّه لما كان معجزة موسى هو انقلاب العصا حية بإذن الله، إدّعى فرعون أنّها سحر وأشاع ذلك كذلك بين النّاس، فأراد سحرة فرعون تحدّيه بالباطل والكذب لابطال دعوته ظنّا منهم أنّ ما عند موسى هو مثل ما عندهم وباعتبارهم أقدم وأسبق في السّحر فسيغلبونه بغلبة قوّة سحرهم على سحر=

(عليه السلام) لنسأل هذا السّؤال وهو محلّ تحقيق...!؟

ثمّ بعد أن عمل السّحرة عملهم هذا وخاف النّاس كلّهم وخاف موسى أيضاً، وكان يسأل في نفسه، فماذا يفعل؟ فأوحى الله تعالى إليه كما قال جلّ وعلا:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

(وأوحينا إلى موسى) فقلنا له **(أن ألق عصاك)** إلى الأرض **(فإذا هي)** تصير ثعباناً **(تلقف)** تبلع **(ما يأفكون)** ما يكذبون من السّحر، فألقى موسى عصاه فأصبحت ثعباناً وبلعت كلّ هذه الحبال الّتي ظنّها النّاس حيّات **(فوقع)** فثبت **(الحقّ)** الّذي كان يدعوه موسى، وهو أنّه رسول وأنّ له معجزة **(وبطل ما كانوا يعملون)** من السّحر وتبيّن بطلانه **(فغلبوا)** أي الملأ أي غلبهم موسى (عليه السلام) بإذن ربّه **(هنالك)** في نفس المكان **(وانقلبوا)** أي رجعوا إلى البلدة **(صاغرين)** أذلّاء خجلانين من أمرهم **(وألقي السّحرة)** على الأرض، أي ألقوا أنفسهم على الأرض **(ساجدين)** الله تعالى، وقال ألقى بصيغة المجهول لأنّ الدّاعي إلى إلقاء أنفسهم على الأرض سجداً، كان ما أظهر موسى من المعجزة، فكأنّ موسى ألقاهم بل وألقاهم الله تعالى بإلقاء الحقّ في قلوبهم، فإنّهم حينما سجدوا **(قالوا آمنّا بربّ العالمين)** كلّهم **(ربّ موسى وهارون)** قالوا هذا إشارة إلى أنّهم آمنوا بالله على طريقة هارون وموسى من التّوحيد، وأنّ الألوهيّة والحاكميّة له

موسى،، وكان ذلك حاصلاً لامحالة دون أمر موسى (عليه السلام) إذ كانوا يستعملون ذلك السّحر حتما دون أمره لإبطال معجزته، إلّا أنّ الغرض كان من السّحرة في التّخيير في المبادرة إلى التّحدي فقبل موسى (عليه السلام) أن يلقوا هم أوّلا ثمّ يكون هو الثّاني لكي يبطل سحرهم، فهو قبل التّخيير بقوله ألقوا أي تحدّوني ولم يأمر بالسّحر، فقوله (عليه السلام) ألقوا وإن كان على صيغة الأمر إلّا أنّه يدلّ على قبوله أن يبدؤوا هم بالتحدي لكي يبطل سحرهم ويثبت معجزته، لأنّ الشّيء يبطل بعد حدوثه لا قبله. وإنّ النّاس كانوا قد رأوا سحر السّحرة من قبل ويعلمون أنّه السّحر، كما أنّهم رأوا معجزة موسى فتوهّموا أنّه كسحر السّحرة وما كان يتميّز أحدهما عن الآخر عند النّاس إلّا بالمقابلة والتحدّي، فلمّا رأوا المقابلة والتّحدي ميّزوا المعجزة عن السّحر فآمنوا.

وحده، لا على طريقة فرعون وملئه من الشّرك وأنّ لغيره الحكم والتّشريع والحاكميّة لفرعون، فالله إله وفرعون ربّ على زعمهم، فلا ربّ ولا إله ولا حاكم إلّا الله تعالى، كما يقول ويعتقد ويبلّغ ذلك موسى وهارون، فلمّا لم يبق لفرعون أي حجّة وأيّ دليل يجادل بهما موسى لجأ إلى إستعمال القوّة، وهذه عادة كلّ جاهل متكبّر أنّه إذا عجز عن الحجّة ولم يبق له ما يجادل به، واستكبر عن التّسليم والتّصديق لخصمه، يلجأ إلى الغضب وإستعمال القوّة، فسلك فرعون نفس المسالك كما قال عنه جلّ وعلا:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

(قال فرعون) بعدما سقط من يديه ولم يبق له حجّة **(آمنتم)** أيّها السّحرة **(به)** بموسى(**قبل أن آذن)** أي قبل أن ينادي (لكم)[١] ويأمركم بالإيمان **(إنّ هذا)** الّذي وقع هو **(لمكرٌ)** لمؤامرة **(مكرتموه)** أي دبرتموه **(في المدينة)** قبل أن تأتوا إلى ساحة المسابقة، وذلك ليتّبعكم النّاس فتستولوا على المدينة **(لتخرجوا منها أهلها)** المسيطرين عليها **(فسوف تعلمون)** ما أفعل بكم من العذاب. ثمّ بين عذابه فقال: **(لأقطّعن أيديكم وأرجلكم من خلاف)** أي اليد اليمنى ثمّ الرّجل اليسرى **(ولأصلّبنكم)** بعد ذلك **(أجمعين)** كلّكم **(قالوا)** أي السّحرة لا نبالي بقتلنا وصلبنا فافعل ماشئت حيث **(إنّا)** أي نحن وأنت **(إلى ربّنا منقلبون)** بعد الموت؛ فنربح نحن حيث ندخل الجنّة وتخسر أنت حيث تدخل جهنّم وبئس المصير، وإنّ نقمتك علينا ليس بحقّ حيث **(وما تنقم منا)**

---

(١) وقال بعض المفسرين معناه قبل أن آمركم أنا بالإيمان به / تفسير السعدي ١/ ٣٠٠. وهذا طبيعة المستبدين والظالمين فكأنهم يتصوّرون أنّهم يملكون حتّى عقول النّاس وعقائدهم وأديانهم، فيجب أن تكون كما يريدون ويأمرون به، وهكذا يعمل الحكّام المستبدّون اليوم من إجبار النّاس يوما على الإشتراكيّة وأخرى على العلمانيّة والدّيموقراطيّة ويحملون الشعوب على العادات والتّقاليد الغربيّة المخالفة للإسلام حسب مزاجهم وهواهم تصوّرا منهم أنّهم كما يملكون كرسي الحكم كذلك يملكون النّاس و عقولهم وعقائدهم ومشاعرهم. فإنّ أذعان الشّعوب لهم منتهى التّخلف والخسران.

لسبب يحقّ لك أن تنتقم فإنّك لا تنقم **(إلّا أن)** أي لأنّه **(آمنا بآيات)** بمعجزات **(ربّنا لما جاءتنا)** وليس هذا مما يبيح لك أن تنقم منا فإنّه أمر حقّ والحقّ يجب أن لا ينتقم منه أحد. ثمّ توجّه السّحرة بعد إيمانهم إلي الله تعالى فقالوا: **(ربّنا أفرغ علينا صبراً)** نصبر به على إيذاء فرعون أن فعل **(وتوفّنا مسلمين)** ولا تصرف قلوبنا عن الإسلام مهما إشتدّ علينا الأمر والحال. **سؤال:** هل نفّذ فرعون وعيده وقتل السّحرة أم لا ؟ **الجواب:** هناك روايتان، إحداهما عن ابن عبّاس وجماعة أنّه نفّذ وقتلهم وصلبهم، ورواية أخرى عن غيره أنّه لم يقدر على قتلهم، حيث قال تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ سورة القصص الآية/ ٣٥ ـ وهذا والله تعالى أعلم.

* * *

وهنا فائدتان: الفائدة الأولى: أنّه يجب أن يكون الإيمان هكذا وكإيمان سحرة فرعون في القوّة بحيث لا يبالي في سبيله بالتّقطيع إرباً إرباً وبالصّلب، وأن يقف صاحب الإيمان هذا الموقف من الظّلمة والطّغاة وبهذا الإيمان ينال المرء سعادة الدّنيا والآخرة، وبهذا الإيمان نال المسلمون الذّروة من السّيادة والعزّة والكرامة في الدّنيا فأصبح الرّعاة منهم ملوكاً في الأرض، وبهذا الإيمان رضي الله تعالى عنهم وأعدّ لهم في الجنّة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ولو بقي المسلمون على هذا الإيمان لما استطاع أن يظفر أحد أو أن يستولي عليهم دولة ولكن إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

الفائدة الثّانية: إنّ كلّ علم خير ومفيد من حيث هو علم لا من حيث الإستعمال، فإنّ سحرة فرعون بعلمهم السّحر علموا أن ما يفعل موسى هو معجزة، وساقهم ذلك العلم إلى الهدى والإيمان، وأمّا الجاهلون فبقوا على ضلالهم حتّى اتّهموا السّحرة بالتآمر مع موسى للإستيلاء عليهم.

* * *

ثمّ بعد أن آمن السّحرة بموسى وآمن معهم كثيرون شعر أتباع فرعون بخطر عظيم؛ فاجتمعوا عند فرعون للمشاورة مع فرعون وفي ذلك يقول جلّ وعلا:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

(وقال الملأ) أي جماعة **(من قوم فرعون)** وحاشيته **(أتذر)** أتترك **(موسى وقومه)** وأتباعه **(ليفسدوا في الأرض)** بتفريق النّاس وإخراجهم عن عبادتك **(و)** لأن **(يذرك)** أي يترك عبادتك **(وآلهتك)** فيتركها ولا يعبدها **(قال)** لا بل **(سنقتّل أبناءهم)** ذكورهم **(ونستحي)** ونبقي **(نساءهم)** حيات **(وإنّا فوقهم قاهرون)** غالبون فلا ينفلتون من أيدينا ومن تأديبنا لهم.

فبدأ فرعون ومرتزقته بإيذاء بني إسرائيل، وراجع بنو إسرائيل سيدّنا موسى وشاوروه في الأمر، فأجابهم موسى كما قال عنه جلّ وعلا:

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾

(قال موسى لقومه استعينوا بالله) على دفع فرعون وإيذائه **(واصبروا)** وتحمّلوا المشقّة والأذى في سبيل عقيدتكم، فسيكون الغلبة لكم حيث **(إنّ الأرض لله)** ملك الله **(يورثها)** يعطيها **(من يشاء من عباده)** أي من خلقه **(والعاقبة)** بالنّصر وإستلام الأرض **(للمتّقين)** عن الكفر والإشراك بالله، فالأرض وإن كانت اليوم بيد الكفار أعداء الله إلّا انّ هذا إمتحان فإن صبرتم وأخلصتم لله فسوف تكون لكم **(قالوا)** طال علينا الإيذاء حيث **(أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعدما جئتنا)** فإلى متى الصّبر **(قال عسى ربّكم)** أي قرب الأمل بالنصر وبربكم **(أن يهلك عدوكم)** فرعون **(ويستخلفكم)** ويوليكم أمر الأرض بعد هلاكه **(فينظر)** الله تعالى إليكم بعد الإستخلاف **(كيف تعملون)** أنتم هل بالإخلاص فيزيدكم من النعم أو بالتّقصير والإنحراف فيعذّبكم كما عذّب عدوّكم، فالدّنيا كلّه إمتحان لكم ولعدوّكم فطوبى لمن نجح. أللّهم اجعلنا من النّاجحين آمين.

ثمّ قال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن

مَعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾

(و) أي وبعد أن دعا موسى على فرعون بقوله: **(عسى ربّكم أن يهلك عدوّكم)** بعزّتي **(لقد أخذنا)** أي عذّبنا **(آل فرعون)** أي هو وأتباعه **(بالسّنين)** أي بسنوات من القحط أي عدم وجود الحبوب والزّاد **(ونقص من الثّمرات)** الفواكه **(لعلّهم يذكّرون)** أي لكي يتذكّروا قدرة الله فيؤمنوا، لأنّ المرء عند البلاء يكون قلبه أرقّ ولكنّهم لم يتذكّروا بل زادوا في التّمرد على موسى **(فـ)** أصبحوا **(إذا جاءتهم الحسنة)** النّعمة من الرّخاء وسعة الرّزق **(قالوا لنا هذه)** أي لخيراتنا هذه **(وإن تصبهم سيّئة)** كالقحط والغلاء **(يطّيروا)** يتشاءموا **(بموسى ومن معه)** ويقولون أتتنا هذه من شؤم هؤلاء[1] **(ألا إنّ طائرهم)** أي فليعلموا أنّه إنّما طائرهم شؤمهم **(عند الله)** يأتي من الله بسبب كفرهم وضلالهم **(ولكنّ أكثرهم لا يعلمون)** ذلك وأقلّهم يعلمون فيؤمنون، أو يبقون على ضلالهم خوفاً من فرعون أو للتّعصب والعنصريّة، وكان موسى في هذه الأحوال الشّديدة يذكّرهم ويعظهم وينبّههم على أنّ هذه الشّدائد كلّها بسبب كفرهم، فليؤمنوا لترتفع عنهم الشّدة ويظهر لهم المعجزات إلّا أنّهم كانوا يزدادون كفراً وضلالاً **(وقالوا مهما)** أصله ما ما، فما الأولى للإستفهام، والثّانية موصولة قلبت ألف ما الأولى هاءً فالمعنى: أيّ شيء **(تأتنا به من آية لتسحرنا)** أي لتصرفنا عن عقيدتنا **(بها)** بتلك الخوارق **(فما نحن لك بمؤمنين)** ونعتقد آياتك سحراً لا معجزات.

تنبيه: إنّ القحط ونقص الثّمرات أصيب بهما أتباع فرعون دون بني إسرائيل بأن أصابت مزارعهم وأشجارهم آفة لم تنتج تلك ولم تثمر هذه ولم تصب مزارع وأشجار بني إسرائيل تلك الآفة وذلك بدليل قوله تعالى: ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات﴾ فخصص آل فرعون أي أتباعه بهذا العذاب ولأن أتباع فرعون إعترفوا بأن هذا القحط والنقص (آية) أي خارق عادة واعتبروها من سحر موسى، ولو كان عاماً لما كان خارق عادة، وكذلك الطّوفان. وما بعده من الآيات الّتي توردها الآيات القادمة

---

(١) وهكذا حال المسلمين المتعلمنين اليوم، ينسبون ماأصابهم من التخلف والتفرقة والضعف التي أبتلوا بها على أيدي الإستعمار الغربي إلى الإسلام وينسبون الإيجابيات إلى الحضارة الغربية.

أصاب آل فرعون فقط لقوله تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم﴾ أي على آل فرعون ولأنّه لو كان عاماً لما كانت آية.

* * *

وكون هذه الأمور آيات لأنّ بني إسرائيل كانوا مختلطين مع القبط في مزارعهم وبساتينهم وبيوتهم، فإصابتهم بآفات سماويّة دون مجاوريهم آية لا خفاء فيها؛ فقال جلّ وعلا:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

(**فأرسلنا**) أي فبعد أن ابتلوا بالسّنين ونقص الثّمرات فلم يؤمنوا، واعتبروا ذلك من سحر موسى (**أرسلنا عليهم الطّوفان**) فسّروا الطّوفان بمعان كثيرة، فبمطر أو سيل ومعان أخرى، الأصحّ أنّه الماء، سواء بالمطر أو بالسّيل، وكان تمتلئ بيوت القبط ماء دون أن يدخل بيوت بني إسرائيل مع اختلاط بيوتهم ببيوتهم (**والجراد**) أرسل على زرعهم وأشجارهم فأكلت الكلّ (**والقمّل**) قيل: هو صغار الجراد يأكل ما تركه الجراد، وقيل: هو ما يقع في بدن الإنسان، وورد لمعان أخرى، والأصحّ هنا هو الأوّل أو الثّاني أو السّوس (**والضّفادع**) جمع ضفدع، وهو معروف كأن يقع في طعامهم وشرابهم (**والدّم**) يملأ عينهم وطعامهم وشرابهم، فهذه كانت (**آيات**) تسع تأتي كلّ واحدة منها تلو الأخرى (**مفصّلات**) الأولى: العصا، الثّانية: اليد البيضاء، الثّالثة: السّنون، الرّابعة: نقص

من الثّمرات، الخامسة: الطّوفان، السّادسة: الجراد، السّابعة: القمّل، الثّامنة: الضّفادع، التّاسعة: الدّم. **(فاستكبروا)** عن الإيمان بكلّها من أنّها معجزات من الله تعالى فيؤمنوا بموسى **(وكانوا قوماً مجرمين)** حيث كفروا بعد كلّ هذه الآيات **(و)** كانوا **(لما وقع)** كلّها **(وقع عليهم الرّجس)** العذاب بسبب آية من هذه الآيات يأتون إلي موسى و **(قالوا يا موسى ادع لنا ربّك بما عهد عندك)** أي وعد لك بأنّه يكشف العذاب إن آمنوا وأنفسهم بمقدّساتنا **(لئن كشف)** الله تعالى لي أزال **(عنّا)** هذا **(الرّجس)** العذاب **(لنؤمننّ لك)** بأنّك رسول الله **(ولنرسلنّ معك بني إسرائيل)** ونترك سبيلهم لتأخذهم وتذهب بهم إلى حيث شئت **(فلمّا)** دعا موسى بعد ذلك و**(كشفنا)** أزلنا عنهم **(الرّجس)** العذاب **(إذا هم ينكثون)** ينقضون عهدهم فلا يؤمنون. وهكذا كانوا يستهزئون بموسى وبآياتنا إلى أن استحقّوا عذاب الإستئصال **(فانتقمنا منهم)** وأهلكناهم **(فأغرقناهم في اليمّ)** أي البحر **(بأنّهم)** بسبب أنّهم **(كذّبوا بآياتنا)** كلّها **(وكانوا عنها غافلين)** غفلة الإستهانه والسّخرية وعدم المبالاة **(وأورثنا)** أي وأعطينا بني إسرائيل **(الّذين كانوا يستضعفون في الأرض)** فيذبّحون أبناءهم ويستحيون نساءهم، أعطيناهم **(مشارق الأرض)** أي أرض فلسطين (ومغاربها) تلك الأرض **(الّتي باركنا فيها)** بخصوبة الأرض وعذوبة المياه وكثرة الأشجار والثّمار **(وتمّت)** وأنجزت **(كلمة ربّك)** وعد ربّك **(الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا)** إذ وعدهم بقوله فقال جلّ وعلا. ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦)﴾ سورة القصص الآيات/ ٤،٥،٦. (ودمرنا) وأهلكنا **(ما كان يصنع فرعون وقومه)** من الظّلم فأصبحوا رعاة بني إسرائيل وأهلكنا **(ما كانوا يعرشون)** يبنون من القصور والبساتين والحكم والسّلطان. وهكذا يكون الفلاح لمن صبر على دين الله تعالى، والخزي والعار والدّمار لأعداء الله وأعداء المؤمنين إذا صبروا.

ثمّ إنّ موسى (عليه السلام) بعد أن أنجاه الله تعالى من مشكلة فرعون وقومه أبتلى بمشاكل بني إسرائيل وأخبر تعالى عن ذلك فقال جلّ وعلا:

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ

مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

(و) لما **(جاوزنا ببني إسرائيل البحر)** بعد أن أغرق فرعون وقومه في البحر حينما اتبعوهم **(فأتوا)** أي بنو إسرائيل **(على قوم يعكفون)** يقيمون **(على)** عبادة **(أصنام لهم قالوا)** أي قوم موسى **(يا موسى إجعل لنا إلهاً)** مجسماً نراه نعبده **(كما لهم)** لهؤلاء **(القوم آلهةً)** مجسمة يرونها حينما يعبدونها **(قال)** موسى لهم: **(إنّكم قوم تجهلون)** أنّ هذه ليست آلهة بحقّ، وأنّ الله تعالى ليس مجسّماً ومتجسّداً فيرى ويلمس، ولا تغترّوا بهؤلاء القوم حيث **(إنّ هولاء متبّر)** هالك **(ما هم فيه)** من العبادة والعقيدة، فلا ينفعهم ذلك شيئاً حيث **(وباطل ما كانوا يعملون)** من عبادة هذه الأصنام لأنّها ليست الآلهة **(قال)** موسى لهم تأكيداً لبطلان طلبهم **(أغير الله)** الّذي عرفته لكم **(أبغيكم)** أي أبغي لكم **(إلهاً تعبدونه)** وغيره لا يستحقّ العبادة وقد أنعم عليكم لأنّه **(وهو)** لا غيره **(فضّلكم على العالمين)** بالهداية والإنجاء من الذّل وإهلاك الأعداء **(و)** أي واذكروا **(إذ أنجيناكم)** أي أنجاكم الله تعالى **(من آل فرعون)** إلّا أنّه نسب الإنجاء إلى الجمع لأنّه شارك في ذلك بالدّعاء من الله تعالى دعاؤه، وقد كان آل فرعون **(يسومونكم)** أي يذيقونكم **(سوء العذاب)** أي العذاب السيّئ. ثمّ بيّن كيفيّة ذلك العذاب فقال **(يقتّلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم)** العذاب **(بلاء)** إمتحان **(من ربّكم عظيم)** فكيف تبغون عبادة غير الله، وهو الّذي أنعم عليكم هذه النّعمة وفضلكم على العالمين.

ثمّ لما نجّا الله موسى من هذه المشكلة إبتلي بمشكلة أخرى، وهي ما يأتي ذكرها في الآيات التّالية فقال جلّ وعلا:

۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ

إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

(وواعدنا موسى ثلاثين ليلة) يأتي إلى الطّور لأنْ نعطيه كتاباً فيه شريعتنا وأحكامنا، حيث كان وعد بني إسرائيل بعد أن أهلك الله فرعون أن يأتيهم بكتاب يحكمون به، فأمره الله تعالى أن يذهب لطور فيصوم ثلاثين يوماً وهو عشر ذي القعدة، وفي اليوم الأخير حسّ من فيه رائحة فتسوّك فأزال رائحة الصّوم، فقال: لماذا تسوّكت؟ ألم تعلم أنّ رائحة الصّوم أطيب عندي من رائحة المسك الأزفر؟ فزيد له أن يبقى عشرة أيام أخرى كما قال تعالى: **(وأتممناها)** أي أتممنا تلك الثّلاثين (بـ) زيادة **(عشر)** آخر من اللّيالي **(فتمّ ميقات ربّه)** أي الوقت الّذي حدّده له ربّه أربعين ليلة **(وقال)** موسى قبل أن يذهب إلى الطّور **(لأخيه هارون اخلفني)** أي كن خليفة لي ووكيلي **(في أهلي)** أي في أتباعي، فأرشدهم وأنصحهم وأدر أمورهم **(ولا تتّبع سبيل المفسدين)** بإهمال القوم وعدم الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر والسّماح لبعض أهل النفوس الخبيثة أن يقولوا بما يفسد **(ولمّا جاء موسى لميقاتنا وكلّمه ربّه)** فسمع موسى كلام الله إشتاق إلى أن يراه فتتلذّذ عينه كما تلذّذت سماعه، ولذا **(قال ربّ أرني)** ذاتك **(أنظر إليك)** وأراك **(قال)** تعالى له **(لن تراني)** أي لن تصحّ لك أن تراني ولا تستطيع ذلك، وليطمئن موسى بأنّه لا يستطيع ولا يتحمّل رؤيته، قال له **(ولكن انظر إلى الجبل فإن استقرّ)** أي ثبت الجبل **(مكانه)** في مكانه ولم يضطرب ولم يتزلزل **(فسوف)** أي فبعد ذلك تراني، وإن لم يستقر فلا تراني، فإنّه إذ لم يتحمّل الجبل تجليّاتي فكيف تتحمّل أنت؟ فنظر موسى إلى الجبل **(فلمّا تجلّى ربّه)** أي أظهر تعالى نفسه للجبل **(جعله)** أي جعل تجليّه الجبل **(دكّاً)** أي مدقوقاً **(وخرّ)** أي وقع موسى على الأرض **(صعقاً)** أي مغشيّاً عليه أو ميّتاً قولان **(فلمّا أفاق)** أي إنتبه موسى بأن أحياه الله تعالى بعد الموت وأيقظه بعد الغشيان **(قال سبحانك تبت إليك)** حيث طلبت منك مالم أؤمر به **(وأنا أوّل المؤمنين)** من هذا القوم بك وبوحدانيّتك، وليس معنى تبت أن موسى (عليه السلام) عصى بطلب الرّؤية بل إنّه خالف أصول الضّيافة، فإنّه ليس للضّيف أن يطلب من المضيّف الأمور، بل ينتظر ما يقدّم إليه ويقتصر عليه.

تنبيه: تمسّك أهل السّنة بهذه الآية على جواز الرّؤية وإمكانها؛ فقالوا: إنّ موسى (عليه السلام) طلب الرّؤية وهو رسول من أولي العزم، ولا يسأل الرّسول إلّا ما كان جائزاً، فالرّؤية جائزة،إلّا أنّ هذا الإستدلال لا يتمّ لأنّه يجوز أنّه لم يعلم موسى في ذلك الوقت إمتناع الرّؤية، فعلم بعد ذلك، فلا تفيد الآية الجواز. وتمسّك المعتزلة بالآية نفسها على عدم جواز الرّؤية لقوله تعالى: (لن تراني) فمعناه: لا يمكن لك الرّؤية، فإذا لم تجز لرسول كموسى (عليه السلام) لم تجز لغيره أيضاً. وهذا الإستدلال أيضاً لا يتمّ لأنّه يمكن أنّ معنى: لن تراني أي لا تقع الرؤية لا أنّه لا يجوز، فلا تفيد الآية عدم الجواز. والحاصل أنّ الرؤية وعدمها لم يدل عليها القرآن صريحاً، بل إنّ الرّؤية ثابتة بالأحاديث الصّحيحة، وقد أطلنا الكلام على هذا الموضوع في سورة الأنعام عند قوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ ...﴾ الخ.

ثمّ بعد أن أفاق موسى (عليه السلام) وقال تبت إليك أراد الله تعالى أن يسليّه فخاطبه جلّ وعلا:

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

(قال) الله تعالى **(يا موسى إنّي اصطفيتك)** أي إخترتك من بين النّاس وخصّصتك **(برسالاتي وبكلامي)** معك حيث كلّمتك دون غيرك **(فخذ ما آتيتك)** من التّوراة والعقائد والأحكام الّتي فيها **(وكن من الشّاكرين)** هذه النّعمة وهي الرّسالة والمكالمة وإيتاء الشّريعة **(وكتبنا له في الألواح)** الّتي كتب عليها التّوراة **(من كلّ شئ)** يحتاجون إليه من

العقائد والأحكام والأخلاق **(موعظة)** مفعول كتبنا ومن كلّ شئ بيان لها **(وتفصيلاً)** وبياناً لكلّ شئ من أمور الدّين **(فـ)** أي وقلنا له: **(خذها)** أي الألواح **(بقوّة)** بجدّ واعمل بها **(وأمر قومك أن يأخذوا بأحسنها)** أي بأحسن ما فيها من الأحكام، لأنّ الأحكام منها حسن، وهو ما كان عدلاً كالقصاص مثلاً والإعتداء بالمثل، وأحسن وهو ما كان فضلا كالعفو والتّسامح **(سأريكم دار الفاسقين)** أي الخارجين عن حكم ما في التّوارة في جهنّم، فيكون وعيداً لمن انحرف عنها بعذاب الآخرة، ويقال معناه دار الفاسقين، وهم قوم لوط وثمود الّذين أهلكوا بسبب إنحرافهم عن شريعة الله تعالى ليعتبروا بهم، فلا ينحرفوا فيكون وعيداً بعذاب الدّنيا وأقول معناه **(سأريكم دار الفاسقين)** في الدّنيا والآخرة فيكون وعيداً بعذابهما. ثمّ ذمّ الله تعالى الّذين ينحرفون عن دينه وأنذرهم، فقال جلّ وعلا: **(سأصرف)** أي سينصرفون فأصرفهم **(عن آياتي)** أي عن أحكامي وشريعتي **(الّذين يتكبّرون في الأرض بغير الحقّ)** أي دون أن يكون لهم حقّ في التكبر لأنّ الكبرياء لله وحده **(وأن يروا كلّ آية)** كلّ معجزة **(لا يؤمنون بها)** بل يكفرون ويحملون المعجزات على السّحر وغيره **(وإن يروا سبيل الرّشد)** وهو دين الله تعالى وشريعته **(لا يتّخذوه سبيلاً)** لهم فلا يسلكونه **(وإن يروا سبيل الغيّ)** وهو ما يوافق هواهم من الأحكام **(يتّخذوه سبيلاً)** لهم فيسلكونه ويطبّقونه **(ذلك)** الّذي يعملون **(بأنهم)** بسبب أنّهم **(كذّبوا بآياتنا)** بمعجزاتنا ودلائل وجودنا ووحدتنا وحاكميتنا فقط **(وكانوا عنها)** عن الآيات **(غافلين)** أي عن التّفكير فيها والعمل بمقتضاها. ثمّ بعد أن لام تعالى الّذين ينحرفون عن آيات الله ودينه، أراد أن يذكر عاقبتهم فقال جلّ وعلا: **(والّذين كذّبوا بآياتنا ولقاء الآخرة)** وحسابهم فيها هؤلاء **(حبطت أعمالهم)** الحسنة ولم تقبل منهم، لأنّهم لم يعملوها للآخرة **(هل يجزون)** الإستفهام للإنكار فيكون المعنى ما يجزون **(إلا ما)** أي علي وفق **(ما كانوا يعملون)** وهم عملوا في الدّين للدّنيا لا للآخرة فجوزوا في الدّنيا وحرموا في الآخرة، أو المعنى ولا يعاقبون يوم القيامة إلّا على ما كانوا يعملون من الكفر والتّكذيب والمعاصي والذّنوب والآثام، ثمّ قال جلّ وعلا:

﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا

لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾

(ولما رجع موسى) من الطّور **(إلى قومه)** لكونه **(غضبان)** عليهم من هذا العمل **(أسفاً)** حزينا على ضلالهم هذا **(قال)** لهم تبكيتاً وتقريعاً **(بئس ما)** أي بئس الخلافة والوكالة الّتي **(خلفتموني)** أي قمتم بها عني **(من بعدي)** أي في غيابي **(أعجلتم أمر ربكم)** يقال عجّل الأمر أي إستبطأه، فالمعنى: أإستبطأتم وعد ربّكم أن يرسل لكم كتاباً فيه دينكم وشريعتكم فتصرفتم قبل ذلك وأنشأتم ما لم يقبل الله تعالى **(وألقى الألواح)** الّتي كتب فيها التّوراة فطرحها على الأرض غضباً **(وأخذ برأس أخيه)** هارون **(يجرّه إليه)** غضباً عليه **(قال)** هارون لموسى **(ابن أمّ)** أي يا ابن أمّي **(إنّ القوم إستضعفوني)** أي أقهروني وغلبوا عليّ فلم أستطع منعهم **(وكادوا يقتلونني)** حيث نهيتهم عن فعلهم هذا **(فلا تشمت)** تفرح **(بي)** أي بإيذائي **(الأعداء ولا تجعلني)** ولا تعدّني **(من القوم الظّالمين)** فإنّي لست منهم، فلمّا علم موسى أنّ هارون لم يشاركهم في الأمر بل ناضلهم ونهاهم **(قال ربّ اغفر لي)** من إيذائي لأخي **(ولأخي)** حيث لم يهجرهم أو لم يقاتلهم لمعذرة ذكرها له **(وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الرّاحمين)** فاحفظنا من الهلكة في الدّنيا والآخرة، فأوحى إليه تعالى **(إنّ الّذين اتّخذوا العجل)** فعبدوه وبقوا على عبادته ولم يتوبوا **(سينالهم غضب)** عذاب **(من ربّهم)** في الآخرة **(وذلّة في الحياة الدّنيا وكذلك)** مثل ما قلنا **(نجزي المفترين)** على الله باتّخاذ غيره إلها **(والّذين عملوا**

السّيئات) من الشّرك أو المعاصي **(ثمّ تابوا)** ندموا ورجعوا إلى التّوحيد ودين الله تعالى **(إنّ ربّك من بعدها)** أي بعد التّوبة **(لغفور)** يغفر لهم **(رحيم)** بهم ولذلك يغفر لا لأمر آخر **(ولمّا سكت)** أي ولمّا سكن **(عن موسى الغضب)** وتهدّأ **(أعصابه أخذ الالواح)** تناولها من الأرض **(و)** كان **(في نسختها)** أي فيما كتب فيها عقائد وأحكام وشرائع كلّها **(هدى)** إن شاء الله إلى الحقّ والعدل والرّشد **(ورحمة للّذين هم لربّهم يرهبون)** يخافون عذابه ويرجون رحمته، وأمّا الّذين لا يخافون الله فلا يمتثلون أمره، فهم الّذين ضيّعوا هذه الرّحمة على أنفسهم، فمن عطش ولم يشرب الماء فهلك فلا لوم على الماء ولا يضرّ مائيته شيئاً.

ثمّ قال جلّ وعلا:

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

(واختار موسى قومه) أي من قومه **(سبعين رجلاً)** لأن يذهب بهم **(لميقاتنا)** الّذي حدّدناه لهم ليأتوا فيعتذروا ممّا جرى فيهم من عبادة العجل، فلمّا وصلوا للجبل أصاب الله تعالى الجبل بزلزال، فمن هذه الزّلزلة كاد أن يموتوا أجمعهم، أصابتهم رجفة وأصابهم الله تعالى بهذه الرّجفة؛ لأنّهم فرّطوا حيث إنهم وإن كانوا ممن لم يعبدوا

العجل إلا أنّهم كان عليهم أن يقاتلوا من عبده أو يفارقوهم في المكان، ولكن أهملوا واجبهم هذا **(فلمّا أخذتهم الرّجفة)** هذه **(قال)** موسى (عليه السلام) **(ربّ لو شئت أهلكتهم وإياي من قبل)** أي من قبل أن تأتي بهم هنا، فماذا أقول لبني إسرائيل إذا قالوا لي أنت الّذي ذهبت بهم فأهلكتهم **(أتهلكنا)** ربّ **(بما فعل السّفهاء منّا)** من عبادتهم العجل وما كنّا راضين بعملهم **(إن هي)** أي ليست مسألة العجل **(إلّا فتنتك)** أي إمتحانك الّذي ظهرت بها أقوياء الإيمان من ضعفائهم وخبثاء النّفوس من أصحاب القلوب الطّيبة **(تضلّ بها)** أي تظهر بهذه الفتنة والإمتحان ضلال **(من تشاء)** وهم خبثاء النّفوس **(وتهدي)** وتثبّت بها **(من تشاء)** على الهداية وهم أصحاب القلوب الطّيبة **(أنت وليّنا)** بيدك كلّ أمورنا **(فاغفر لنا وارحمنا)** بهذه المغفرة **(وأنت خير الغافرين)**، لأنك تغفر لمجرد رحمتك بخلاف من سواك؛ فإنّهم يعفون عن النّاس لضعفهم أو لحاجتهم إلى العفو، أو لترقّبهم منفعة وراء عفوهم، وهذا معنى ما ذهب إليه ابن عبّاس من أنّ هؤلاء السّبعين غير الّذين طلبوا رؤية الله تعالى فأخذتهم الصّاعقة. وعند بعضهم هم. والمراد بالرّجفة هنا هي الصّاعقة، وما ذهب إليه ابن عبّاس أولى بالقبول، لأنّ الصّاعقة أماتتهم ثمّ أحياهم الله تعالى. وفي هذه الآية لا دلالة على أنّهم ماتوا، بل الظّاهر أنّهم ما ماتوا، بدليل أنّ موسى قال: (أتهلكنا...إلخ) فالظّاهر أنّهم أشرفوا على الهلاك إلّا أنّ موسى (عليه السلام) دعا ربّه فلم يهلكوا، فالسّياق ظاهر في أنّ هذه القصّة غير قصّة الصّاعقة، فإنّهم حينما أصابتهم الصّاعقة ذهبوا لإستلام الأحكام، وهنا ذهبوا للإعتذار عمّا جرى فيهم من عبادة العجل، والله تعالى أعلم **(واكتب)** وقدّر لنا في هذه الدّنيا حسنة من العاقبة والحياة الطّيبة والتّوفيق على عمل الخير والعبادات **(وفي الآخرة)** حسنة أيضاً، من العفو والمغفرة والنّور بالجنّة والنّعيم والرّضوان **(إنّا هدنا)** تبنا **(إليك)** ممّا صدر من التّقصير **(قال)** تعالى في جواب موسى (عليه السلام) **(عذابي)** أصيب به **(من أشاء)** من خلقي وعبادي **(ورحمتي)** في الدّنيا **(وسعت كلّ شيء)** وتعمّ كلّ الكافر والمؤمن والفاسق والصّالح وأمّا في الآخرة **(فسأكتبها)** أي أخصصها **(للّذين يتّقون)** الإلحاد والشّرك **(والّذين هم بآياتنا)** بشريعتنا وأحكامنا **(يؤمنون)** ويعملون بها **(الّذين يتّبعون الرّسول)** وهو محمّد (صلى الله عليه وآله) وقال **(النّبي)** بعد قوله الرّسول وإن كان كلّ رسول نبيّاً لأنّه كان عرّفه الله تعالى في التّوراة وسمّاه **(النّبي الأمّي)** أي الّذي لا يعرف القراءة ولا الكتابة **(الّذي يجدونه مكتوباً عندهم في التّوراة والإنجيل)** بأوصافه وأسمائه، وبهذا العنوان وأنّ هذا النّبيّ **(يأمرهم بالمعروف)** بما هو مستحسن عقلاً وطبعاً **(وينهاهم عن المنكر)** أي القبيح

عقلاً وطبعاً، والمراد بالعقل العقل المستقيم وبالطّبع الطّبع السّليم وميزانهما موافقة شرائع الله تعالى، وليسا هما ميزاناً للشريعة، فإنّ العلم الكامل بمعروفية الأمور ومنكريّتها هو الله تعالى **(ويحلّ لهم الطّيبات)** حسب الواقع ونفس الأمر، فما أحلّه فهو طيّب **(ويحرّم عليهم الخبائث)** في الحقيقة، فما حرّمه فهو خبيث[١] **(ويضع)** ويزيل **(عنهم إصرهم)** التّكاليف الشّاقة من بعض الواجبات **(والأغلال الّتي كانت عليهم)** وهي بعض ما حرّم عليهم بذنوبهم **(فالّذين آمنوا به)** بهذا النّبي حينما بعث **(وعزّروه)** وأيّدوه **(ونصروه)** على أعدائه **(واتّبعوا النّور)** الشّرع **(الّذي أنزل معه)** إلى النّاس **(أولئك هم المفلحون)** الواصلون إلى الحقّ في الدّنيا وإلى النّعيم المقيم في الآخرة، وهذه الآية من أوضح الأدلة على أنّ رسالة الرّسول (ﷺ) عامّة وإنذ من لم يؤمن بالإسلام ولم يدخل فيه من اليهود والنّصارى فهو كافر. وتلجم هذه الآية أفواه بعض المأجورين الّذين يقولون أنّ اليهود والنّصارى ليسوا كافرين ما داموا يؤمنون بالله فليخسأ المأجورون.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّه أخذ هذا العهد المتين من اليهود والنّصارى أن يؤمنوا بمحمّد (ﷺ) حينما بعث، أمر الله تعالى رسوله أن يعلن أنّ رسالته عامّة وأن يدعو النّاس كلّهم إلى دينه والإيمان به، فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

(قل) يا محمّد للنّاس **(يا أيّها النّاس)** من المشركين واليهود والنّصارى وغيرهم من جميع النّاس **(إنّي رسول الله إليكم جميعاً)** وليست رسالتي خاصّة بقوم دون قوم بل أرسلني الله إلى كافّة النّاس هو **(الّذي له ملك السّموات والأرض)** فكما أنّ مالكيّته وملكيّته عامّة لكلّ الكون؛ فدينه وحكمه وشريعته شاملة لكلّ من في الكون **(لا إله)** لا مكوّن ولا مشرّع[٢] **(إلّا هو يحيي)** من حيّ **(ويميت)** من مات وَمنْ هذا وصفه لا نظام

(١) فهي قاعدة عامة: أن كل ماأحله الله تعالى في الإسلام فهو طيب وكل ماحرمه فهو خبيث.

(٢) ولا معبود.

لأحد غيره **(فآمنوا بالله)** مثل هذا الإيمان **(ورسوله)** أي وآمنوا برسوله الّذي وصف في الكتب السّابقة بإسم **(النّبيّ الأمّي الّذي يؤمن بالله)** بأنّه لا إله إلّا هو **(وكلماته)** أي ويؤمن بكتبه كلّها **(واتّبعوه لعلكم تهتدون)** أي لكي تهتدوا إلى الحقّ والدّين الّذي أمركم الله أن تديّنوا به **(ومن قوم موسى أمّة)** جماعة **(يهدون)** أي يرشدون النّاس ويأمرونهم **(بالحقّ)** وهو الإيمان بالرّسول (ﷺ) **(وبه يعدلون)** أي وبالإسلام يحكمون فيعدلون لأنّ كلّ حكم خلاف الإسلام، أو بدون إسمه والإسناد إليه ظلم وإنّ وافقه.

فائدة: وهنا نذكر بعض ما في التّوراة والإنجيل وأخبار ماضيه من الأخبار بمجيء الرّسول (ﷺ) نقلاً عن تفسير الغرناطي فإنّه قال (رحمة الله تعالى عليه): (ولنذكر هنا ما ورد في التّوراة والإنجيل وأخبار المتقدّمين من ذكر نبيّنا محمّد (ﷺ)، فمن ذلك ما ورد في البخاري وغيره أنّ في التّوراة من صفة النّبيّ (ﷺ): (يا أيّها النّبيّ إنّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأميّين أنت عبدي ورسولي، أسميتك المتوكّل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخّاب في الأسواق، ولا تجزي بالسّيئة السّيئة، ولكن تعفو وتصفح، ولن أقبضه حتى أقيم به الملّة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلا الله، فيفتح به عيوناً عمياً وآذاناً صمّاً وقلوباً غلفاً). ومن ذلك ما في التّوراة ممّا أجمع عليه أهل الكتاب وهو باق بأيديهم إلى الآن، أنّ الملك نزل على إبراهيم (عليه السلام) فقال له: في هذا العام يولد لك غلام إسمه إسحاق، فقال إبراهيم(عليه السلام): يارب ليت إسماعيل يعيش يخدمك، فقال الله لإبراهيم: ذلك لك قد أستجيب لك في إسماعيل وأنا أباركه وأثمّنه وأكبّره وأعظّمه بماذ ماذ، وتفسير هذه الحروف محمّد، ومن ذلك في التّوراة أنّ الرّب تعالى جاء في طور سيناء وطلع من ساعد وظهر من جبال فاران، ويعني بطور سيناء موضع مناجاة موسى (عليه السلام) وساعد موضع عيسى (عليه السلام) وفاران هي مكّة مولد نبيّنا محمّد (ﷺ) ومبعثه، ومعنى ماذكر من مجيء الله وطلوعه وظهوره هو ظهور دينه على يد الأنبياء الثّلاثة المنسوبين لتلك المواضع، وتفسير ذلك ما في كتاب أشعيا خطاباً لمكّة: قومي فأزهري مصباحك فقد دنا وقتك وكرامة الله طالعة عليك، فقد تحلّل الأرض الظّلام وعلا على الإسم المصاب. والربّ يشرق عليك إشراقاً ويظهر كرامته عليك، تسير الأمم إلى نورك والملوك إلى ضوء طلوعك إرفعي بصرك إلى ما حولك وتأمّلي فإنّهم مستجمعون عندك تحجّ إليك عساكر الأمم. وفي بعض كتبهم: لقد تقطّعت السّماء من بهاء محمّد المحمود وامتلأت الأرض من حمده، لأنّه ظهر بخلاص أمّته. ومن ذلك في التّوراة أن هاجر أمّ إسماعيل، لمّا غضبت عليها سارة تراءى لها ملك فقال لها: يا هاجر أين تريدين؟ ومن

أين أقبلت؟ فقالت: أهرب من سيّدتي سارة، فقال لها: إرجعي إلى سارة وستحبلين وتلدين ولداً إسمه إسماعيل، وهو يكون عين النّاس وتكون يده فوق الجميع، وتكون يد الجميع مبسوطة إليه بالخضوع، ووجه دلالة هذا الكلام على نبوّة محمّد (ﷺ) أنّ هذا الّذي وعدها به الملك من أنّ يد ولدها فوق الجميع، وأنّ يد الجميع مبسوطة إليه بالخضوع إنّما ظهرت بمبعث النّبيّ (ﷺ) وظهور دينه وعلوّ كلمته، ولم يكن ذلك لإسماعيل ولا لغيره قبل محمّد (ﷺ)، ومن ذلك أيضاً في التّوراة: أنّ الرّب يقيم لهم نبيًّا من إخوتهم، وأيّ رجل لم يسمع ذلك الكلام الّذي يؤدّيه ذلك النّبيّ عن الله فينتقم الله منه، ودلالة هذا الكلام ظاهرة بأنّ أولاد إسماعيل هم أخوة إسحاق وقد انتقم الله من اليهود الّذين لم يسمعوا كلام محمّد (ﷺ) كبني قريظه وبني قينقاع وغيرهم، ومن ذلك في التّوراة: أنّ الله أوحى إلى إبراهيم (عليه السلام): وقد أجبت دعاءك في إسماعيل، وباركت عليه وسيلد إثني عشر عظيماً، وأجعله لأمّة عظيمة. ومن ذلك في الإنجيل أنّ المسيح (عليه السلام) قال للحواريّين: إنّي ذاهب عنكم، وسيأتيكم الفارقليط الّذي لا يتكلّم من قبل نفسه، إنّما يقول كما يقال له، بهذا وصف الله سبحانه نبيّه محمّد (ﷺ) في قوله: ﴿وما ينطق عن الهوى.إن هو إلّا وحيٌ يوحى﴾ سورة النجم الآيتان/ ٣، ٤. وتفسير الفارقليط أنّه مشتقّ من الحمد، وإسم نبيّنا محمّد (ﷺ) وقيل: معنى الفارقليط الشّافع والمشفّع. ومن ذلك في التّوراة مولده بمكة أو مسكنه بطيبة وأمّته الحمادّون، وبيان ذلك أنّ أمّته يقرؤون (الحمد لله) في صلاتهم مراراً كثيرة في كلّ يوم وليلة. وعن مشهر بن حوشب مثل ذلك في إسلام كعب الأحبار وهو من اليمن من حمير أنّ كعباً أخبره بأمره وكيف كان ذلك؟ وقيل: كان أبوه من مؤمني أهل التّوراة برسول الله (ﷺ) وكان من عظمائهم وخيارهم، قال كعب: وكان من أعلم النّاس بما أنزل الله على موسى (عليه السلام) من التّوراة وبكتب الأنبياء، ولم يكن يدّخر عنّي شيئاً ممّا كان يعلم، فلمّا حضرته الوفاة دعاني فقال: يابنيَّ قد علمت لم أكن أدّخر عنك شيئاً ممّا كنت أعلم إلّا أنّي حبست عنك ورقتين، فيهما ذكر نبيّ يبعث، وقد أطلّ زمانه فكرهت أن أخبرك بذلك، فلا آمن عليك بعد وفاتي أن يخرج بعض هؤلاء الكذّابين فتتّبعه، وقد قطعتها من كتابك وجعلتهما في هذه الكوّة الّتي ترى وطويت عليهما، فلا تتعرّض لهما ولا تنظرهما زمانك هذا، وأقرّهما في موضعهما حتّى يخرج ذلك النّبيّ. فإذا خرج فاتّبعه وانظر فيها فإنّ الله يزيدك بهذا خيراً. فلمّا مات والدي لم يكن شيء أحبّ من أن ينقضي المأتم حتّى انظر ما في الورقتين، فلمّا انقضى المأتم فتحت الكوّة ثمّ استخرجت الورقتين؛ فإذا

فيها محمّد رسول الله (ﷺ) خاتم النبيّن لا نبيّ بعده، مولده بمكة ومهاجره بطيبة ليس بفظّ ولا غليظ ولا صخّاب في الأسواق، ولا يجزي بالسّيئة السّيئة ولكن يجزي بالسّيئة الحسنة ويعفو ويغفر ويصفح، وأمّته الحمادّون الّذين يحمدون الله على كلّ شرف وعلى كلّ حال وتتذلّل بالتّكبير ألسنتهم وينصر الله نبيهم، على كلّ من ناوئه يغسلون فروجهم بالماء ويأتزرون على أوساطهم وأناجيلهم في صدورهم، ويأكلون قربانهم في بطونهم ويؤجرون عليها، وتراحمهم بينهم تراحم بني الأم والأب وهم أول من يدخل الجنّة يوم القيامة من الأمم، وهم السّابقون المقرّبون والشّافعون المشفّع لهم. فلمّا قرأت هذا قلت في نفسي: والله ما علّمني شيئاً خيراً إليّ من هذا، فمكثت ما شاء الله حتّى بعث النّبيّ (ﷺ) وبيني وبينه بلاد بعيدة منقطعة لا أقدر على إتيانه وبلغني أنّه خرج في مكة فهو يظهر مرة ويستخفي مرّة فقلت: هو هذا، وتخوفت ما كان والدي حذرني وخوفني من ذكر الكذابين وجعلت أحب أن اتبيّن وأتثبّت فلم أزل بذلك حتّى بلغني أنّه أتى المدينة، فقلت في نفسي: إنّي لأرجو أن يكون إيّاه، وجعلت ألتمس السّبيل إليه، فلم يقدّر لي حتّى بلغني أنّه توفّي رسول الله (ﷺ)، فقلت في نفسي: لعلّه لم يكن الّذي كنت أظن، ثمّ بلغني أنّ خليفة قد مقدمه، ثمّ لبثت إلّا قليلاً حتّى جاءتنا جنوده، فقلت في نفسي: لا أدخل في هذا الدّين حتّى أعلم هم الّذين كنت أرجو وأنتظر وأنظر كيف سيرتهم وأعمالهم وإلى ما تكون عاقبتهم؟ فلم أزل أدفع ذلك وأؤخّره لأتبيّن وأتثبّت حتّى قدم علينا عمر بن الخطّاب(ﷺ)، فلمّا رأيت صلاة المسلمين وصيامهم وبرّهم ووفاءهم بالعهد وما صنع الله لهم على الأعداء، علمت أنّهم هم الّذين كنت أنتظر فحدّثت في نفسي بالدّخول في دين الإسلام، فوالله إنّي ذات ليلة فوق سطح، إذا برجل من المسلمين يتلو كتاب الله حتّى أتى على هذه الآية: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ سورة النساء الآية/ ٤٧. فلمّا سمعت هذه الآية خشيت الله ألّا أصبح حتّى يحول وجهي في قفاي، فما كان شيء أحبّ إليّ من الصّباح فغدوت على عمر (ﷺ) فأسلمت حين أصبحت. وقال كعب لعمر عند إنصرافهم إلى الشّام: يا أمير المؤمنين أنّه مكتوب في كتاب الله أنّ هذه البلاد الّتي كان فيها بنو إسرائيل وكانوا أهلها مفتوحة على يد رجل من الصّالحين، رحيم بالمؤمنين شديد على الكافرين، سرّه مثل علانيّته وعلانيّته مثل سرّه، وقوله لا يخلف فعله والقريب والبعيد عنده في الحقّ سواء، وأتباعه رهبان باللّيل وأسود في النّهار متراحمون

متواصلون متبادلون، فقال عمر (رضي الله عنه): ثكلتك أمّك أحقٌّ ماتقول؟ قال: أي والّذي أنزل التّوراة على موسى والّذي يسمع ما تقول، فقال عمر (رضي الله عنه): الحمد الله الّذي عزّنا وشرّفنا وأكرمنا ورحمنا بمحمّد (ﷺ) برحمته الّتي وسعت كلّ شيء. ومن ذلك كتاب فروة بن عمرو الجذامي إلى رسول الله (ﷺ) كان من ملوك العرب بالشّام فكتب إليه: بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد رسول الله من فروة بن عمرو، إنّي مقرّ بالإسلام مصدّق أشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أنّ محمّداً عبد الله ورسوله، وأنّه الّذي بشّر به عيسى ابن مريم، فأخذه هرقل لمّا بلغه إسلامه وسجنه فقال: والله لا أفارق دين محمّد أبداً، فإنّك تعرف أنّه النّبيّ الّذي بشّر به عيسى ابن مريم، ولكنّك حرصت على ملكك وأحببت بقاءه، فقال قيصر: صدق الإنجيل، يشهد لهذا ما أخرجه البخاري ومسلم من كتاب رسول الله (ﷺ) إلى هرقل، وسؤال هرقل عن أحواله وأخلاقه (ﷺ) فلمّا أخبر بها علم أنّه رسول الله، وقال: إنّه يملك موضع قدمي ولو خلصت إليه لغسلت قدميه. ومن حديث زيد بن أسلم عن أبيه وهو عندنا بالإسناد أنّ عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) خرج زمان الجاهليّة مع ناس من قريش في التّجارة إلى الشّام قال: فإنّي لفي سوق من أسواقها إذا أنا ببطريق قد قبض على عنقي فذهبت أنازعه، فقيل لي: لا تفعل فإنّي لأنصف لك منه، فأدخلني كنيسة فإذا تراب عظيم ملقى فجاءني بزنبيل ومجرفة فقال لي: أنقل ما ههنا فجعلت انظر كيف أصنع؟ فلمّا كان الهاجرة وأتاني وعليه ثوب أرى سائر جسده منه فقال: أثنك على ما أرى ما نقلت شيئاً، ثمّ جمع يديه فضرب بهما دماغي فقلت: أثكلتك أمّك يا عمر أبلغت ما أرى؟ ثمّ وثبت إلى المجرفة فضربت بها هامته فنشرت دماغه، ثمّ واريته في التّراب وخرجت على وجهي، لا أدري أين أسير، فسرت بقيّة يومي وليلتي من الغد إلى الهاجرة، فأنهيت إلى دير فاستظللت بفنائه، فخرج إليّ رجل منه فقال لي: يا عبدالله ما يقعدك هنا؟ فقلت: أضللت أصحابي، فقال لي: ما أنت على طريق وإنّك لتنظر بعيني خائف، فادخل فأصب لك من الطّعام واسترح، فدخلت فأتاني بطعام وشراب، وأطعمني ثمّ صعّد في النّظر وصوّبه فقال: قد علم والله أهل الكتاب أنّه ما على الأرض أعلم بالكتاب منّي وإنّي لأرى صفتك الصفّة الّتي تخرجنا من هذا الدّير وتغلبنا عليه، فقلت: يا هذا لقد ذهبت بي في غير مذهب، فقال لي: ما اسمك؟ فقلت: عمر بن الخطاب، فقال: أنت والله صاحبنا، فاكتب لي على ديري هذا وما فيه، فقلت: ياهذا إنّك قد صنعت إليّ صنيعة فلا تكرّرها. فقال: إنّما هو كتاب في رّق، فإن كنت صاحبنا فذلك، وإلّا لم يضرّك شيء، فكتبت له على ديره وما فيه. فأتاني بثياب ودراهم فدفعها لي، ثمّ أوكف أتاناً فقال لي: أتراها؟

فقلت: نعم، قال سر فإنّك لا تمرّ بقوم إلاسقوها وعلفوها وأضافوك، فإذا بلغت مأمنك فاضرب وجهها مدبرة فإنّهم يفعلون بها كذلك حتّى ترجع إليّ، قال: فركبتها، فكان كما قال حتّى لحقت بأصحابي، وهم متوجّهون إلى الحجاز فضربتها مدبرة، وانطلقت معهم، فلمّا وافى عمر الشّام في زمان خلافته، جاءه ذلك الرّاهب بالكتاب وهو صاحب دير العرس، فلمّا رآه عرفه فقال: قد جاء ما لا مذهب لعمر عنه، ثمّ أقبل على أصحابه فحدثهم بحديثه، فلمّا فرغ منه أقبل على الرّاهب فقال: هل عندكم من نفع المسلمين؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين قال: إن أضفتم المسلمين ومرضتموهم وأرشدتموهم فعلنا ذلك، قال: نعم يا أمير المؤمنين فوفى له عمر رضي الله عنه. وعن سيف يرفعه إلى سالم بن عبدالله قال: لمّا دخل عمر الشّام تلقاه رجل من يهود دمشق فقال: السّلام عليك يا فاروق، أنت صاحب إيلياء والله لا ترجع حتّى يفتح الله إيلياء. ومن ذلك أنّ عمرو بن العاص (رضي الله عنه) قدم المدينة بعد وفاة رسول الله (ﷺ) وكان رسول الله (ﷺ) قد أرسله إلى عمان وإيلياء عليها فجاءه يوماً يهودي من يهود عمان فقال له: أنشدك بالله من أرسلك إلينا؟ فقال له: رسول الله (ﷺ) فقال اليهودي: والله إنّك لتعلم أنّه رسول الله، قال عمرو: اللّهم نعم، فقال اليهودي: لئن كان حقّاً ما تقول لقد مات اليوم، فلمّا سمع عمرو ذلك جمع أصحابه وكتب ذلك اليوم الّذي قال له اليهودي أنّ النّبيّ (ﷺ) مات فيه، ثمّ خرج فأخبر بموت النّبيّ (ﷺ) وهو في الطّريق ووجده قد مات في ذلك اليوم (ﷺ). ومن ذلك أنّ غسان قدموا على رسول الله (ﷺ) فلقيهم أبو بكر الصّديق (رضي الله عنه) فقال لهم: من أنتم؟ قالوا: رهط من غسان قدمنا على محمّد لنسمع، فقال لهم: إنزلوا حيث تنزل الوفود، ثمّ أتوا رسول الله (ﷺ) فكلّموه فقالوا: وهل نقدر على كلامه كما أردنا، فتبسّم أبوبكر (رضي الله عنه) وقال: إنّه ليطوف الأسواق ويمشي وحده لا شرطة معه، ويرغب من يراه منه فقالوا لأبي بكر (رضي الله عنه): من أنت أيّها الرّجل؟ فقال: أنا أبو بكر بن أبي قحافة، فقالوا: أنت تقوم بهذا الأمر بعده، فقال أبو بكر رضي الله عنه: الأمر إلى الله، فقال لهم: تخدعون عن الإسلام وقد أخبركم أهل الكتاب بصفته وأنّه آخر الأنبياء. ثمّ لقوا رسول الله (ﷺ) فأسلموا، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، يحتمل أن يكون هذا من وصف النّبيّ (ﷺ) في التّوراة فتكون الجملة في موضع الحال من ضمير المفعول في يجدونه، أو تفسير لما كتب من ذكره، أو يكون إستئناف وصف من الله تعالى غير مذكور في التّوراة والإنجيل.

* * *

ثمّ أعاد الله تعالى الكلام إلى ذكر أحوال بني إسرائيل فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

(وقطّعناهم) أي وجعلناهم **(إثنتي عشرة)** قطعة أي فرقة، وكانوا كلّهم **(أسباطاً)** أحفاداً لشخص واحد هو إسرائيل (يعقوب) (عليه السلام) حيث كان ليعقوب إثنا عشر إبناً، فذريّة كلّ ابن كان يسمّى سبطاً **(أمماً)** حال من أسباطاً أي حال كون الأسباط أمماً، لأنّ كلّ سبط كان أمّة لهم رئيس يؤمونه أي يتّبعونه. فحاصل معنى الآية أنّ الله تعالى جعلهم إثنتي عشرة قبيلة، كلّ قبيلة تسمّى سبطاً، لأنّها من أحفاد يعقوب، وتسمّى أمّة لأنّ لها رئيساً خاصاً يتّبعونه **(وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه)** طلبوا منه الماء للشّراب حيث كانوا في صحراء، لم يكن فيها ماء فقلنا لموسى **(أنْ اضرب بعصاك الحجر)** الألف واللّام للإشارة إلى حجر معهود له؛ فضربه موسى بعصاه **(فانبجست)** فانفجرت **(منه)** من الحجر **(إثنتا عشرة عيناً)** لكلّ سبط عين، قد علم كلّ أناس **(مشربهم)** مكان شربهم **(وظلّلنا)** أي جعلنا **(عليهم الغمام)** ظلّة تظلّهم وتسترهم من الشّمس **(وأنزلنا عليهم المنّ)** هو شيء ينزل على الأشجار وغيرها، فيجفّ ويؤخذ وهو حلو كالعسل **(والسّلوى)** نوع من الطّير وقلنا لهم **(كلوا من طيّبات ما رزقناكم)** وهو المنّ والسّلوى، فما شكروا هذه النّعم فانتقما منهم وما ظلمونا بكفرانهم هذه النّعم **(ولكنّ كانوا أنفسهم يظلمون)** حيث جعلوها مستحقّة للإنتقام في الدّنيا والآخرة **(وإذ قيل)** أي واذكروا لهم إذ قيل **(لهم اسكنوا)** أي أدخلوا **(هذه القرية)** واسكنوا فيها

والقرية هي القدس (أريحا) **(وكلوا منها حيث شئتم)** فإنّ فيها ما تريدون من الأقوات والفواكه والثّمار **(وقولوا)** حينما تدخلونها **(حطّة)** أي طلبنا من الله تعالى **(حطّة)** مغفرة من ذنوبنا **(وادخلوا الباب سجّداً)** متواضعين لا متكبّرين أمروا بأن يقاتلوا الكافرين الساكنين في بيت المقدس، ووعدهم الله تعالى بالفتح وأمرهم أن يكون قصدهم من الجهاد مغفرة الله تعالى من الذّنوب، وأن يدخلوا البلدة متواضعين لا متكبّرين، وقال تعالى لهم: إنّ فعلتم مثل ما نأمركم **(نغفر لكم خطيئاتكم وسنزيد المحسنين)** بالثّواب الجزيل **(فبدّل الّذين ظلموا)** حيث لم يمتثلوا أمر الله تعالى أوّل الأمر بل قالوا: إنّ فيها قوماً جبّارين وإنّا لن ندخلها حتّى يخرجوا منها فإن خرجوا منها فإنّا داخلون. قال رجلان من الّذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنّكم غالبون. وعلى الله فتوكّلوا إن كنتم مؤمنين. ﴿قالوا يا موسى إنّا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها، فاذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون﴾ سورة المائدة الآية/ ٢٤. ثمّ بعد أن قوى الله تعالى عزمهم وفتح عليهم البلدة دخلوها متكبّرين جبّارين، وقالوا بدل حطّة حنطة نريدها من هذا الفتح كما قال تعالى **(فبدل الّذين ظلموا قولاً)** وهو حنطة **(غير الّذي قيل لهم)** وهو أن يقولوا حطّة فانتقمنا منهم **(فأرسلنا عليهم)** أي على الّذين بدلوا **(رجزاً)** عذاباً **(من السّماء)** وهو الطّاعون **(بما)** أي بسبب **(ما كانوا يظلمون)** من تبديل أمر الله تعالى والإنحراف عنه فقال جلّ وعلا:

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾

هذه الآيات تشير إلى قصّة وقعت في بني إسرائيل، فتسهيلاً لفهم الآيات نذكر

القصّة قبل تفسيرها والقصّة كما يلي: كان بعض بني إسرائيل في زمان داود (عليه السلام) بقرية أيلة وحرّم الله تعالى عليهم صيد السّمك في يوم السّبت، فكان إذا دخل يوم السّبت لم يبق حوت في البحر إلّا اجتمع هناك حتّى لا يرى الماء من كثرة الحوت، فإذا مضى يوم السّبت تفرقت الحيتان ولزمت قعر البحر، فذلك قوله تعالى: ﴿إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرّعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم﴾ أي الحيتان فوسوس إليهم الشّيطان، وقال إنّما نهيتم عن أخذها يوم السّبت ولم تنهوا عن أخذها في غيره، فعمد رجال منهم فحفروا حياضاً كباراً حول البحر وشرعوا من البحر إلى الحياض أنهاراً، فإذا كان عشيّة يوم الجمعة فتحوا تلك الأنهار، فيقبل الموج من البحر بالحيتان إلى تلك الحياض فيقعن فيها ولا تقدر على الخروج منها لعمقها، فإذا جاء يوم الأحد جاؤوا فأخذوا تلك الأسماك، وقيل: إنّهم كانوا ينصبون الشّخوص والحبائل يوم الجمعة ويخرجونها يوم الأحد، ولعلّ كلتا الحيلتين صدرتا منهم، فاستعملوا هذه الحيل زماناً ولم تنزل بهم عقوبة، فتجرّؤوا على السّبت فأخذوا في السّبت أيضاً، وأكلوا وباعوا واشتروا، وصار أهل القرية ثلاثة أصناف، وكانوا سبعين ألف شخص: فصنف أمسك عن الصّيد ونهى غيره عن الإصطياد، وصنف أمسك ولم ينه غيره، وصنف إصطاد وإنهمك في الذّنب وهو الصيد، وهتكوا حرمة أمر الله تعالى، وكان الصنف النّاهون إثني عشر ألفاً، فلمّا أبى المجرمون قبول نصحهم قالوا: والله لا نساكنكم في قريةٍ واحدةٍ، فقسموا القرية بينهم بجدار فبقوا على ذلك سنين ثمّ غضب عليهم داود (عليه السلام) لإصرارهم على المعصية ولعنهم، فخرج النّاهون ذات يوم ولم يخرج من المجرمين أحد ولم يفتحوا الباب، فلمّا أبطأوا تسوّر النّاهون عليهم الجدار فإذا هم كلّهم قردة لهم أذناب يتعاودن، ويقال: إنّ الشّباب صاروا قردة والشّيوخ صاروا خنازير فمكثوا ثلاثة ثمّ هلكوا كلّهم ولم يتوالدوا.

* * *

هذا وإليكم تفسير الآية الكريمة: **(واسألهم)** أي واسأل يا محمّد اليهود **(عن القرية)** أي عن أهل القرية **(الّتي كانت حاضرة البحر)** أي على شاطئه وقريباً منه واذكر لهم **(إذ يعدون)** يظلمون **(في السّبت)** بمخالفتهم لأمر الله تعالى بصيد الأسماك يوم السّبت وذلك **(إذا)** أي لأنّه كانت **(تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرّعاً)** جمع شارع أي ظاهرة على وجه الماء وكثيرة جداً **(ويوم لا يسبتون)** أي وفي غير يوم السّبت **(لا تأتيهم)**

الحيتان ولا تظهر أبداً (**كذلك**) مثل ما ترى من مجيء الحيتان يوم السّبت وإختفائها سائر الأيام (**نبلوهم**) أي نمتحن أهل القرية (**بما**) أي بسبب (**ما كانوا**) حسب جبلتهم (**يفسقون**) يحبّون الفسق فامتحنّاهم ليظهر من يعمل الفسق ومن لا يعمل، فكانت جماعة منهم ينهونهم عن هذه المعصية والإصطياد يوم السبت، وأمّة أخرى لا تنهاهم فذكّرهم تعالى فقال: (**وإذ قالت أمّة**) أي جماعة منهم للّذين كانوا ينهون ويعظون المجرمين ويأمرونهم بترك الصّيد يوم السّبت (**لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذّبهم عذاباً شديداً**) أي يريد الله إهلاكهم أو تعذيبهم عذاباً شديداً (**قالوا**) أي الجماعة الصّالحة والقائمة بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر (**معذرة إلى الله**) أي نعظهم أداءً للواجب و(**ومعذرة**) نعتذر بها (**إلى الله**) تعالى فإنّ الواجب على المسلم أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، سواء أطاعه النّاس أم لم يطيعوا، وإنّما يخرج عن المسؤولية بهذا الواجب وأدائه (**ولعلّهم يهتدون**) أي ولكي يهتدوا، فالموعظة لا تخلو عن الفائدة فإنّه ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ سورة الأعلى الآية/ ١٠، ١١. فبالموعظة تظهر الطيب من الخبيث والصّالح من الفاسق. ولولا الموعظة لبقي النّاس كلّهم سواء (**فلما نسوا**) أي تركوا (**ما ذكروا به**) من النّهي عن الصّيد ولم يعملوا به، واستمرّوا على معصيتهم هذه (**أنجينا الّذين كانوا ينهون عن السّوء**) أي عن العاصين (**وأخذنا**) أي وعذّبنا (**الّذين ظلموا**) وهم الّذين ظلموا بالصّيد وقد نهوا عنه، والّذين سكتوا عن الباطل ولم ينهوا عنه، فعذّبوا كلّهم (**بعذاب بئيس**) أي شديد (**بما كانوا يفسقون**) من مخالفة أمر الله تعالى وصيدهم يوم السّبت أو السّكوت عن هذه المعصية. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر نوعيّة العذاب فقال جلّ وعلا: (**فلمّا عتوا**) فلما امتنعوا (**عن**) امتثال (**ما نهوا عنه**) وعن أن يتركوا الإصطياد يوم السّبت (**قلنا لهم**) أي أمرناهم أمر تكوين لا تكليف فقلنا لهم (**كونوا قردة خاسئين**) أذلّاء فأصبحوا قردةً أذلّاء في الحال. هذا ويفهم من القصّة وهذه الآيات أمور:

الأمر الأوّل: إنّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر واجب،سواء استجاب النّاس أم لا.

الأمر الثّاني: إنّ السّكوت عن الباطل والمعاصي حرام وإن السّاكت يناله ماينال العاصي من العذاب.

الأمر الثّالث: إنّ إستعمال الحيل في شرع الله تعالى حرام وأنّها من أعمال اليهود ويستحق المحتالون العذاب الشّديد.

قال الشّاعر:

لـيـس ديـن الـلـه بـالـحـيـل فـانـتـبـه يـا راقـد الـمـقـل

ثمّ ذكر الله تعالى إضافة إلى ما سبق ما ينتظرهم من العذاب يوم القيامة فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

(و) واذكروا يا محمّد لليهود **(إذ تأذّن)** أعلن **(ربّك)** أنّه ليبعثنّ عليهم **(إلى يوم القيامة)** بسبب ذنوبهم وانحرافاتهم **(من يسومهم)** يلحق بهم **(سوء العذاب)** العذاب الشّيء من الذّل والهوان **(إنّ ربّك لسريع العقاب)** لمن تمرّد على أمره وانحرف عن شريعته **(وإنّه لغفور)** لمن تمسّك بدين الله وحكم بشريعته وطبقها على نفسه وعلى من تحت ولايته **(رحيم)** بهم فينعم عليهم في الدّنيا والآخرة، فلا يزال اليهود مسيطر عليهم من قبل أصحاب الأديان الأخرى، وأذلّاء تحت نيرهم، وأنّ حكومة إسرائيل اليوم ليست علامة عزّهم لأنّهم أذلّاء تحت حكم الدّول الأخرى، وأنّها ليست دولة مستقلّة، بل هي قاعدة من قواعد الدّول العظمى **(وقطّعناهم)** أي وجعلناهم قطعاً وفرقاً متخالفين فيما بينهم ومنتشرين في الأرض، فلا توجد دولة إلّا وفيها فرقة من اليهود **(أمماً)** كلّ أمّة لها من يقتدي بها ويخالف الأمّة الأخرى في المذهب والتّصور والمسلك والمشرب **(منهم الصّالحون)** وهم الّذين آمنوا بالإسلام **(ومنهم دون)** غير **(ذلك)** أي غير صالحين حرّفوا التّوراة وغيروها **(وبلوناهم بالحسنات)** أي بالنّعم في الأموال والأنفس **(والسّيئات)** بالبلايا ونقص من الأموال والأنفس **(لعلّهم يرجعون)** أي لكي يرجعوا عن تمرّدهم وانحرافهم عن الحقّ والدّين فلم يرجعوا **(فخلف)** فجاء **(من بعدهم)** أي من بعد

الأولين منهم **(خلف)** من يقوم مقامهم **(ورثوا)** أخذوا **(الكتاب)** أي التّوراة وتعلّموها يأخذون **(عرض)** أي متاع **(هذه)** الحياة **(الأدنى)** وهي الدّنيا؛ فيستغلون علمهم ودينهم للدّنيا، ويبدّلون ويؤوّلون حسب مصلحتهم وحسب هواهم، وهم يعلمون أنّ هذا فسق ليس وراءه فسق إلّا أنّهم إغترّوا **(وسيقولون سيغفر لنا)** لأنّهم يقولون **(لن تمسّنا النّار إلّا أيّاماً معدودة وإن يأتيهم عرض)** متاع جديد **(مثله)** مثل الأول الّذي شعروا أنّه كان فسقاً **(يأخذوه)** ولا يتورّعون أبداً **(ألم يؤخذ عليهم ميثاق)** عهد في **(الكتاب)** الّذي درسوه وتعلّموه وهو التّوراة **(أن لا يقولوا على الله إلّا الحقّ)** فلا يغترّوا ولا يغيّروا حكم الله تعالى ولا يؤوّلوه، والإستفهام للإنكار، وإنكار النّفي إثبات، فالمعنى أنّه أخذ عليهم الميثاق، ولذا عطف عليه قوله: **(ودرسوا ما فيه)** من الميثاق، وعلموا أحكام الله تعالى، إلّا أنّهم يغيرونها لأغراض الدّنيا وإنّهم يخسرون بذلك العمل حيث **(والدّار الآخرة)** الّتي يضيّعونها بعملهم هذا **(خير)** من حياتهم في الدّنيا والآخرة، إنّما تكون **(للّذين يتّقون)** أعمالهم هذه، ثمّ خاطبهم خطاب التّقريع فقال جلّ وعلا: **(أفلا)** أي أفبعد كلّ هذه الزّواجر والمواعظ والنّواهي **(تعقلون)** الحقّ فتتّبعوه، والشّريعة فلا تغيّروها لغرض فان تضيّعون به عرضاً باقياً خالداً، فيه ما يشتهون.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى المنحرفين عن التّوراة وعقابهم، أراد تعالى أن يذكر المتمسّكين بها وثوابهم، فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾

(والّذين يمسّكون) يعتصمون **(بالكتاب)** بالتّوراة فيعملون بها، وفي ضمن العمل بها الإيمان بمحمّد (ﷺ) والدّخول في الإسلام **(إنّا لا نضيع أجر المصلحين)** أي أجرهم ووضع (المصلحين) موضعهم ليعلم أنّ المصلح هو المتمسّك بشريعة الله تعالى، وأنّ الإصلاح إنّما يكون باتّباع دين الله وتطبيق أحكامه، وكلّ إصلاح لم يكن في نطاق الشّريعة الإلهية فهو ليس بإصلاح، وإنّما هو فساد وإفساد.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أنّه كيف ومتى أخذ منهم الميثاق والعهد، بأن يتمسّكوا بالتّوراة ويعملوا بها؛ فقال جلّ وعلا:

﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾

(و) أي واذكر لهم (**إذ نتقنا**) رفعنا(**الجبل**) من أصله وجعلناه فوقهم، أي فوق رؤوسهم؛ فصار الجبل (**كأنّه ظلّة**) سقيفة تظلّلهم (**وظنّوا**) وتيقّنوا أنّه أي الجبل (**واقع**) ساقط (**عليهم**) فيدمّرهم جميعاً، وقلنا لهم: (**خذوا ما آتيناكم**) وهو التّوراة فخذوها (**بقوّة**) بجد وإيمان واعملوا (**واذكروا**) وادرسوا (**ما فيه**) كلّه (**لعلّكم تتّقون**) أي لكي تتّقوا فلا تخالفوه ولا تنحرفوا عنه، فأخذوا التّوراة وأعطوا العهد والميثاق أن يعملوا بالتّوراة ولايخالفوها قيد شعرة.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى الميثاق الّذي أخذ من بني إسرائيل، أراد أن يذكر الميثاق الّذي أخذ من بني آدم؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

تمهيد: عن ابن كثير والغرناطي وغيرهما من التّفاسير في معنى هذه الآية قولان:

الأوّل: إنّ الله تعالى لما خلق آدم أخرج ذريّته من صلبه مثل الذّر وأخذ عليهم العهد بأنّه ربّهم فأقرّوا بذلك والتزموه.

الثّاني: إنّ ذلك من التّمثيل، وإن هذه الذّرية عبارة عن إيجادهم في الدّنيا، ومعنى إشهادهم على أنفسهم أنّ الله تعالى نصب لهم الأدلّة على ربوبيّته وألوهيّته؛ فشهدت بها عقولهم، فكأنّه أشهدهم على أنفسهم وجعلهم بحيث إذا قال لهم (ألست بربّكم؟ قالوا بلى) لأنّه أعطاهم العقل ونصب لهم الأدلة الواضحة، فلو خفي شيء عليهم فإنّما يخفى لقصورهم وعدم تفكّرهم، فالمعنى: إنّ وجود الله تعالى وربوبيّته ثابت في فطرة الإنسان وعقله المفكر، بحيث لو خلي وطبعه وقال له الله: ألست بربّكم؟ قالوا بلى، إلّا أنّ هذه الفطرة قد يطغى عليها أمور كالتّقليد أو المصالح أو العصبيّة ...... إلى غير ذلك ممّا يحيد الإنسان عن الفطرة وعن الأدلة وعن الفكر الصّحيح. هذا وقد رجّح بعض النّاس المعنى الأوّل؛ لوجود أحاديث وفق هذا المعنى، إلّا أنّ تلك الأحاديث ليس في بعضها ذكر الأشهاد، وما فيه ذكر الأشهاد موقوف كلّه لم يرفع إلى النّبي (ﷺ) فلا يعمل به سيما إذا عارض ظاهر الآية لأنّ الآية تقول: (من بني آدم) ولا يقول: من آدم، وإنّ ما

يقال أنّ كلّ من يولد من آدم إلى آخر الدّنيا كان في ظهر آدم مثل الذّرّية، لو صحّ ذلك لكان آدم بقدر جبل كبير جداً فكيف كان يعيش على الأرض ويمشي بين الجبال والوديان منها، ولهذا عدل بعض السّلف عن تلك الأحاديث وقالوا بالمعنى الثّاني.

* * *

(**أن تقولوا**) أي أخذنا منكم ذلك الإشهاد ردّاً لأن تقولوا (**يوم القيامة**) حينما نعاقبكم على الشّرك وعلى إنحرافكم على تربيتنا وشريعتنا: لم تعذّبنا يا ربّنا؟ (**إنّا كنّا عن هذا**) أي عن ربوبيّتك (**غافلين**) أي جاهلين به (**أو تقولوا إنّما أشرك آباؤنا من قبل وكنّا ذريّة**) جئنا (**من بعدهم**) فقلّدناهم (**أفتهلكنا بما فعل المبطلون**) قبلنا وما علمنا أنّهم مبطلون فيقال لهم: ألم نعطكم العقل ونصبنا لكم الأدلة على الحقّ وجاء الرّسل فنبّهوكم على ذلك؟ فلم غفلتم ولم بقيتم على التّقليد للآباء المبطلين؟ فاخسؤوا ولا تكلّمون (**وكذلك نفصّل**) أي نبيّن (**الآيات**) مفصّلة (**و**) نفصّل على إستمرار (**لعلّهم يرجعون**) عن الكفر إلى الإيمان وعن الباطل إلى الحقّ وعن الشّرك إلى التّوحيد ويدخلوا في الإسلام دين الله الحقّ.

خلاصة قصّة موسى:

هذا وقد وردت قصّة موسى (عليه السلام) في كثير من السّور بإيجاز وإطناب وتوسّط، وحسب ما يقتضيه المقام، فنريد أن نذكر خلاصة القصّة لتكون سبباً لسهولة فهم ما يأتي منها في السّور كلّها وإليكم القصّة: بعد أن صار يوسف (عليه السلام) عزيز مصر وجاءه أخوته أمر أخوته أن يأتوا بأبيه وأمّه وأولادهم إلى مصر ويسكنوا هناك، كما ذكر تعالى ذلك في قوله: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ سورة يوسف الآية/٩٣. فنزل يعقوب (عليه السلام) الملقب بإسرائيل هو وأولاده مصر في عهد يوسف (عليه السلام)، وقد عاش يعقوب (عليه السلام) مئةً وسبعاً وأربعين سنة، ومات على رأس سبع عشرة سنة من قدومه إلى مصر، وكان حاكم مصر من الهكسوس إستولى على مصر، ولذلك كان يسمّى ملكاً، حيث كان من عادة المصريين أنّ الحاكم إذا كان منهم يسمّونه فرعون، وإذا كان من المستولين عليهم يسمونه ملكاً، ولذلك عبّر القرآن عن حاكم مصر في زمان يوسف (عليه السلام) بالملك، وفي زمان موسى (عليه السلام) بفرعون، لأنّه كان منهم، ويعتبر ذلك من معجزات القرآن؛ فإنّ هذا التّعبير لم يعرف إلّا بعد أن أكتشف أهل الآثار تأريخ مصر القديمة في هذه الآونة الأخيرة، وفيها هذا الفرق في التّعبير على حاكمهم، إذا كان منهم بفرعون وإلّا فبالملك.

فمضى الزّمان وجاءت الأسرة الثّامنة عشرة المصريّة وطردوا ملوك الرّعاة الّذين كانوا في مصر، وحكموا فيها نحو أربعة قرون من الأسرة الرّابعة عشرة إلى الأسرة الثّامنة عشرة، فجاء أحمس رئيس هذه الأسرة وطرد الرّعاة ومزّقهم كلّ ممزّق، فهذا الحاكم لمصر لا يعرف يوسف (ﷺ) ولا فضله على مصر وأهلها وعلى غيرها من البلاد. ورأى بني إسرائيل يكثرون بكثرة، ولا شكّ أنّه كان نفرة بين الأقباط الّذين كان فرعون منهم، وبين بني إسرائيل منذ ورودهم لمصر؛ لأنّهم كانوا موالين للملوك الرّعاة حيث أسكنوهم مصر بطلب من يوسف (ﷺ) وأكرموهم. فخاف فرعون أن يكثروا ويستولوا على مصر، ويأخذوا زمام الحكم فيها فأراد أن يقتل من أولادهم الذّكور ويبقى الإناث، لكي يقلّوا ولا يكثروا، ولا يكون حذراً منهم على مصر والمصريين. ويروى في بعض التّفاسير: أنّ الكهنة أخبروا فرعون بأنّ هلاكه وزوال ملكه يكون على يد مولود لبني إسرائيل، فلذا أمر بقتل أولادهم، وهذا القول مردود لأنّه يروى أنّه بعد ما قتل كثيراً من أولاد بني إسرائيل، وجاء شيوخ القبط فرعون فقالوا له: إنّك تقتل شبّان بني إسرائيل وشيوخهم كانوا يموتون، فمن الّذي يعمل لنا؟ فقد قلّت الأيدي العاملة في مصر؟ فأمر فرعون بقتلهم سنة وتركهم سنة، فإذا كان أمره بالقتل لأخبار الكهنة لما تركهم سنة لإحتمال أن يولد مزيله في تلك السّنة، وأيضاً حينما التقط آل فرعون موسى، أراد فرعون أن يقتله لأنّه عرف أنّه من بني إسرائيل، فترجّت منه إمرأته أن لا يقتله، فتركه لها واتّخذوه إبناً لفرعون، فلو كان القتل لإخبار الكهنة لما ترك فرعون قتله لأنّه كان من المحتمل أنّ هذا المولود هو الّذي يزيل ملكه، فأمر فرعون قابلات المصريين بقتل كلّ ذكر تلده عبرانيّة، وأمّا البنت فتبقى، فلم يفعلن ذلك ! فلما سألهن؟ قلن له: إنّ العبرانيّات قويّات، فهنّ يلدن قبل أن تأتي القابلة، فأمر فرعون بإذلال بني إسرائيل وتسخيرهم في عمل اللّبن والبناء والأعمال الشّاقة لكي لا يجدوا راحة، فيقلّل بذلك نسلهم، إلّا أنّ العبرانيّات كنّ يلدن كثيراً، فلم يفد فرعون ذلك الأمر شيئا، فأمر جنوده المتدخّلين في الأعمال أن يلقوا كلّ ما يولد للعبرانيين من الذّكور في البحر. في هذه الظروف القاسية ولد لعمران بن نحاهت بن لاوي بن يعقوب ولد ذكر وهو من سمّي موسى، فخبّأته أمّه عن عيون من يطلبون أطفال بني إسرائيل ليقتلوهم ثلاثة أشهر، فلمّا خافت إفتضاح أمرها أعلمها ربّها وألقى في قلبها أن تصنع له ما يشبه الصّندوق، وأن تطليه بالقطران والزّفت وأن تلقيه في اليمّ، وذلك الإعلام كان بالوحي كما ذكره القرآن، والمراد بالوحي هنا إمّا الإلهام أو الرؤيا أو وحي البشارة لا النّبوة؛ لأنّ الأنثى لا تصير نبيّة، ففعلت أمّ

موسى ما أوحي إليها، وأمرت بنتها أن تتبع أثره بعد ما ألقته في اليمّ، وأن تعلم خبره وتأتي به إليها، وذلك لأنّ الله تعالى وعدها بأنّه سيردّه إليها ويجعله من المرسلين، فلم تزل أخت موسى تراقب حتّى علمت أنّه ألتقط وأدخل في دار فرعون، وأنّ عين أمراة فرعون وقعت عليه فألقى الله في قلبها محبّته، فأراد فرعون آن يقتله لأنّه علم أنّه من بني إسرائيل، فقالت له إمرأته: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ فأبقوه ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ سورة القصص الآية/ ٩ ـ أنّ هذا المولود هو الّذي يزول ملك فرعون على يده، فأصبح موسى في بيت فرعون محبوباً جدّاً لفرعون وامرأته، ففتشوا عن إمرأة ترضعه، فأتوا بالمرضعات إلّا أنّ موسى لم يقبل ثدي أيّة واحدة من اللّاتي كانوا يأتون بهن، فزهد عن الكلّ، وذلك بتقدير من الله تعالى، فعلمت أخته بذلك فأتت على بيت فرعون فعرضت عليهم أن تأتي بأمراة ترضعه وتقوم مقام أمّه في الحبّ والشّفقة والحنان، وكان أسم أخت موسى مريم، فوقع قول مريم موقع قبول، فذهبت وأتت بأمّها وهي أمّ موسى، فأقبل موسى على ثديها فسلّموا إليها موسى لترضعه بأجرة وتكون هي موضع عنايتهم.

* * *

كيفيّة التقاط آل فرعون موسى (عليه السلام): خرجت إبنة فرعون مع جواريها إلى شاطئ النّهر فنزلت تغتسل، فعثرت على التّابوت الّذي فيه موسى، فعلمت أنّه عبراني فأحبّته، فأتت به إلى أمّها فأحبّته أيضاً، وعرضوه على فرعون فأحبّه أيضاً، ولكن مع ذلك أراد قتله لأنّه علم أنّه من إسرائيل، إلّا أنّ امرأته قالت لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتّخذه ولداً، فتركه فرعون وأصبح موسى إبناً له، فعاش موسى في بيت فرعون وإبناً لفرعون، وكان قوي البأس ذي قوة وفيرة ولم يجهل بأنّه دخيل في بيت فرعون، وليس من أهله وأنّه إسرائيلي، ومن ذلك الشّعب المضطهد فكان ظهيراً للعبرانيّين، وبذلك قلّ إعتداء المصريّين على بني إسرائيل، وكان يلتجئ إليه الإسرائيليّون حينما يُظلمون، فخرج يوماً إلى المدينة فوجد رجلاً مصريّا يأخذ عبرانيّاً ليسخّره في عمله، فاستغاث العبرانيّ بموسى، فجاء موسى إلى المصريّ فوكزه وكزة فمات المصري من ساعته، فواراه موسى تحت التّراب ولم يعلم بذلك أحد سوى ذلك الرّجل العبراني، وكان القتل خطأً لا عمداً، فلا إثم فيه إلّا أنّ موسى (عليه السلام) استغفر ربّه وتندّم على ما فعل، وقالت إنّه من عمل الشّيطان إنّه عدوّ مضلّ مبين. ثمّ عثر واطّلع المصريّون على قتيلهم ولم يعلموا

قاتله، فسبق إلى فكرهم أنّ بني إسرائيل قتلوه، فقالوا لفرعون: إنّ بني اسرائيل قتلوا رجلاً منّا فخذ لنا بحقّنا فقال: ائتوني بقاتله ومن يشهد عليه لأنّه لا يستقيم أن نقتص بغير بيّنة ولا إثبات، فأصبحوا يفتّشون على قاتل قتيلهم، فبينما هم يطوفون، إذ مرّ موسى فوجد ذلك الإسرائيلي يقاتل فرعونيّاً، فاستغاثه الإسرائيلي الّذي هو من شيعته وقومه على الفرعونّي فصادف موسى وقد ندم على فعله بالأمس وكره الّذي رأى وغضب، فمدّ يده ليبطش بالفرعونيّ وفي نفس الوقت قال للإسرائيليّ **(إنّك لغويّ مبين)** فظنّ الإسرائيلي أنّ موسى (ﷺ) يمدّ يده إليه ليبطش به فقال: يا موسى ﴿أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ سورة القصص الأية/١٨، ١٩. فانطلق الفرعوني فأخبر قومه، فرفعوا الأمر إلى فرعون وأخبروه بأنّ قاتل قتيلنا هو موسى. فأرسل فرعون الذبّاحين إلى موسى ليقتلوه فوراً، وفي ذلك الوقت خالف رجل شريف من آل فرعون قومه وجاء إلى موسى من أقصى المدينة مسرعاً وفي طريق مختصر ليلقاه قبل أن يلقاه الذّباحون وقال لموسى: ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ﴾ من هذه البلدة ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ سورة القصص الآية/ ٢٠ ـ وأشار له بأنّ يذهب قبل أن تصل إليه يد الذّباحين، فقبل موسى نصيحته وذهب متوجّهاً إلى أرض مدين، وقد خرج موسى من مصر على عجل فلم يتزود ولم يعد للسّفر عدّته، وإعتمد على الله في سفره هذا، فكان طعامه في الطّريق أوراق الأشجار، ولاقى في هذا السّفر إلى أن وصل مدين مشقّة كبيرة جداً.

* * *

وصول موسى أرض مدين: ورد موسى ماء مدين فوجد عليه جماعات كثيرة من النّاس يسقون مواشيهم ووجد من جانب آخر إمرأتين تمنعان غنمهما عن الورود على الماء، فسأل موسى الإمرأتين عن سبب منعهما غنمها عن الماء، فقالتا: لا نسقي حتّى يسقي هؤلاء القوم مواشيهم لأنّهم يمنعوننا أن نتقدم عليهم، وليس لنا بهم قوّة حيث ليس لنا أحد سوى أبينا، وأبونا شيخ كبير لا يستطيع شيئاً من الرّعي والسّقي، فحمس موسى لهما فقام وطرد الرّعاة عن الماء كلّهم، وأقدم على البئر ينزع منها الماء بالدّلو وسقى للمرأتين غنمهما ولم يقدر أحد من الرّعاة على مقاومته، واستولى عليهم الرّعب حينما رأوا قوّته وإقدامه هذا، ثمّ بعد أن سقى غنم الإمرأتين آوى إلى ظلّ شجرة فاستراح في ظلّها وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ سورة القصص ٢٤.

فعادت الإمرأتان إلى أبيهما فسألهما الشّيخ عن تبكيرهما بالعودة على خلاف عادتهما في سائر الأيام، فأخبرتاه بما كان من الرّجل المصري وما فعل لأجلهما، فأرسل الشّيخ إحدى بنتيه إليه فقالت له في خجل: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ سورة القصص الآية/٢٦. رأى موسى الفرج وعلم أنّ الله تعالى استجاب دعاءه إذ قال: (ربّ إنّي لما أنزلت إليّ من خير فقير) فتبع المرأة إلى منزلها وجعلها خلفه قائلاً: إنّا لا ننظر إلى أدبار النّساء ولكن إنعتي لي الطّريق وأنت خلفي، ثمّ وصل موسى إلى ذلك الشّيخ فرحّب به وأكرمه، فلمّا ذهب عن موسى ألم الجوع، وأكل ما يكفيه سأله الشّيخ عن حاله، فقص موسى عليه قصّته وقصّ عليه كلّ ما جرى ويجري من ظلم فرعون وإضطهاده بني إسرائيل، فطمأنه الشّيخ فقال له: (لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ).

* * *

زواج موسى من إبنة الشّيخ: فلمّا طمأن الشّيخ موسى واستراح موسى في بيته، قالت إحدى بنتي الشّيخ: (يا أبت إستأجره لرعي ماشيتنا ليكفينا مؤونة هذا العمل إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِين) وهو كذلك فقال الشّيخ لإبنته: كيف عرفت إنّه القوي الأمين؟ فقالت: أمّا قوّته ممّا رأيت منه حينما سقى لنا لم أر رجلاً قط أقوى منه، وأمّا أمانته فإنّه نظر حين أقبلت إليه وشخصت له، فلما علم أنّي إمرأة صوب رأسه فلم يرفعه ولم ينظر إليّ حتّى بلّغته رسالتك، ثمّ قال لي: إمشي خلفي وانعتي لي الطّريق ولم يفعل ذلك إلّا وهو أمين، فانسرّ أبوها من قولها وصدّقها، فاستحسن الشّيخ رأي إبنته، وطلب إلى موسى أن يخدمه في رعي غنمه ثماني سنوات مقابل أن يزوّجه بإحدى ابنتيه، وأنّه إن زاد سنتين فأكمل عشرة فهذا فضل منه، فقبل موسى ذلك على أن يكون مختاراً في إكمال ما شاء من ثمان سنوات أو عشر منها. وهذا ما ذكره تعالى فقال جلّ وعلا: ﴿قالَتْ إحداهُما إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِين﴾ فـ ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فـ ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيل﴾ سورة القصص الآية ٢٦-٢٨. وبهذا تمّ الزّواج بين موسى وبنت الشّيخ.

* * *

سؤال: كيف تمّ الزواج وهو قال إحدى ابنتي هاتين ولم يعيّن من هي، ونكاح المجهول باطل؟

الجواب: حينما قال: إحدى إبنتي هاتين أشار إلى واحدة منهما بالتّعيين، أو نقول: بعد ما اتّفقا إختار موسى إحداهما فتزوّجها منه.

* * *

تنبيــه: إختلف النّاس في تعيين الشّيخ وأنّه من كان؟ فقيل: أنّه سيّدنا شعيب، وقيل: ابن أخيه، وقيل: رجل صالح من أمّة شعيب، ولم يرد نصّ قطعيّ بتعيينه لا من القرآن ولا من السّنة، فالأحسن تفويض العلم بذلك إلى الله تعالى.

* * *

(قضاء موسى مدّة إستئجاره واتّخاذ الله تعالى إيّاه رسولاً)

قضى موسى الأجل، والأصحّ أنّه خدم صهره عشر سنوات، وبعد ذلك إستقلّ بنفسه، وكان له غنم يعيش عليه هو وأهله، ويسير بغنمه أينما علم أنّ به كلأ، وكان تصحبه أهله حاله حال الرّعاة، يقصدون المراعي ويذهبون بغنمهم إلى ما هو الأحسن منها، فبينما موسى يرعى غنمه ومعه أهله إذ ضلّ الطّريق في ليلة مظلمة باردة، فأراد أن يوري ناراً فضرب زنده فلم يخرج ناراً، وبينما هو على هذا الحال رأى ناراً ﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ سورة طه/ الآية ١٠. أي من يهديني إلى الطّريق، فمكث الأهل حيث كانوا وذهب موسى إلى النّار، فلما قرب موسى من النّار وجد النّار في شجرة، وأنّ النّار لا تنطفيء، وأنّ الشّجرة لا تحترق، ولم يجد أحداً يسأله عن الطّريق! فبينما هو حائر في أمره إذ سمع صوتاً يناديه: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ فألقى موسى نعليه، ثمّ قال له المنادى: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ ثمّ أراد تعالى أن يعطيه معجزة يصدّق بها هو ويصدّقه النّاس بأنّه رسول، فقال تعالى له: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَامُوسَى (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ فخاف موسى

فولى هارباً منها، فقال تعالى له: ﴿خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى (٢١) واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى (٢٢)﴾ فهاتان معجزتان لك واتّخذتك رسولاً إلى فرعون، فإذن ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَى﴾.

* * *

(عودة موسى (عليه السلام) إلى مصر)

بعد ما استجاب الله تعالى دعاء موسى (عليه السلام) فشرح صدره وحلّ عقدة لسانه وجعل هارون وزيراً له، ورسولاً معه، أقبل إلى أهله فسار بهم إلى نحو مصر حتّى أتاها ليلاً، فتضيّف على أمّه، فأتاهم في ليلة كانوا يأكلون المرق، فنزل في جانب الدّار، فجاء هارون فلمّا رأى ضيفه سأل عنه أمّه فأخبرته أنّه ضيف، فدعاه فلمّا قعدا تحدّثا فسأله هارون: من أنت؟ فقال: أنا موسى، فقام كلّ منهما إلى صاحبه، فتعانقا وأخبر موسى هارون بأنّه شريك له في الرّسالة ومعين له على تبليغ حجة الله تعالى، فقبل هارون مقالته وامتثل أمره.

(مواجهة موسى لفرعون)

فذهب موسى إلى فرعون وأدى رسالته إلى فرعون، فقال فرعون لموسى: إنّك تربّيت ولبثت سنين من عمرك تحت رعايتي، فكان الواجب عليك أن تكون حريصاً على الاجتناب من كلّ ما يؤذي ويغيظ فرعون، وأن لا تأتي إليه بدين غريب وإلى عبادة أحد غير فرعون وآلهته. ثمّ ذكّره بفعلته الّتي فعلها من قتل رجل منهم، فمن كان آثماً هذا الإثم كيف يأتي بما هو أعظم منه؟ وهو ترك عبادة فرعون والدّعوة إلى عبادة غيره؟ فقال موسى في جوابه: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي فعلت ذلك خطأ ولم أتعمّد قتله، والخطأ ليس فيه ذنب. ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ سورة الشعراء الآية/ ٢٠-٢١. وبيّن موسى لفرعون أنّ رسالته هي أنّه يريد أن يطلق بني إسرائيل، ليذهب بهم إلى البريّة فيعبدوا إلههم فيها،

وكان فرعون لا يرضى بخروج بني إسرائيل من مصر لأمور:

الأمر الأوّل: أنّ ذلك يقلّل الأيدي العاملة ويغيّر حركة العمل في البلدة، حيث كانوا هم أكثرية العمال فيها.

الأمر الثّاني: إنّ فرعون كان رجلاً عاتياً تدين الأمّة المصريّة بعبادته وتقديسه، وقد فاجأه موسى بأمر لا يقره ولا يرضاه، وهو إنزاله من عرش الرّبوبيّة والألوهيّة على بني إسرائيل وغيرهم من أهل مصر، وحمله على الإعتراف بأنّه عبد الله كسائر العباد.

الأمر الثّالث: كان يخاف أنّ بني إسرائيل حينما خرجوا عن أمره فلربّما يشكّلون قوّة ويؤسّسون دولة تغزو مصر، ويقومون بأخذ الثّأر والإنتقام من فرعون ومرتزقته على قتل أولادهم الذّكور وما ساموهم سوء العذاب. ولهذه الأسباب أخذ فرعون يجادل موسى، فسأله ما هو ربّ العالمين الّذي تدعو إلى عبادته؟ قال موسى: هو (قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ) وخالق ذلك كلّه ومبدعه، فالتفت فرعون إلى من حوله فقال: ألا تستمعون؟ فاستمرّ موسى قائلاً: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ فقال فرعون: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ لأنّه جاء بشيء لا نعرفه ولا نقرّه، فقال موسى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ سورة الشّعراء الآية/ ٢٤-٢٨. من الجنّ والإنس والحيوان والنّبات والكواكب والنّجوم والملائكة والأنبياء والفراعنة والمتمرّدين على الحقّ والمسلمين، وبعد أن علم موسى وهارون ضلال فرعون وعدم إنقياده للحقّ والرّجوع عن التّمادي في الكفر وإدعاء الرّبوبية لنفسه، وأنّه لا يأتي ولا يخضع للإيمان. هدّده بعذاب الله تعالى فقال له: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ فقال فرعون: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى (٤٩)﴾ قال موسى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ أي خلقه ووجه كلّ شيء لما خلق له، وقال فرعون: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ وأنّ الله تعالى سيحاسب كلاً وفق عمله ويجزيهم عليه ولا يضلّ شيئاً ممّا عملوا ولا ينسى، ثمّ وصف موسى ربّه بأنّه هو: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ سورة طه الآية/ ٤٨-٥٣. وقصد بذلك أن الإله هو من كان كذلك لا أنت يا فرعون الّذي لا يقدر على خلق عودة من الأشجار ولا حشيشه من النّبات. ثمّ ذكر موسى لفرعون أن الإنسان خلق من هذه الأرض للعمل والإكتساب ويميته ويعيده إلى التّراب ثم يحييه يوم الحشر للحساب قائلاً: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا

نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ سورة طه الآية/ ٥٥. فبعد أن ألحّ موسى على فرعون بالدّعوة إلى الإيمان بالله تعالى وكان يناقشه مناقشة لم تبق مجالاً لفرعون قوّة الإحتجاج، ورأى أنّ ذلك يكسر من هيبته ويحطّ من رتبته فوجّه خطابه إلى القوم وأعلمهم بأنّه سيتّخذ الوسيلة للصعود إلى إله موسى ولتصفية الحساب معه حيث لا يرى هو إلهاً لهم غير نفسه، كما قال تعالى عنه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاأَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ سورة القصص الآية/ ٣٨. ويقول في بعض التّفاسير أنّه بنى له صرحاً عالياً بقدر ما استطاع، ثمّ صعد عليه فرعون ورمى سهمه إلى السّماء فعاد إليه السّهم ملطّخاً بالدّم فقال: لقد قتلت إله موسى. فإن صحّ هذا فإمّا أن يكون إستدراجاً من الله تعالى لفرعون وقومه ليغلوّهم في الكفر، أو أنّ فرعون خضب سهمه بالدّم قبل أن يرمى ليغوي بذلك قومه.

(جمع فرعون السّحرة لإبطال أمر موسى (عليه السلام))

لمّا أعضل موسى وأخوه بفرعون، ولم يجد السّبيل إلى إقناعهما بأنّه الإله الحقّ، طلب فرعون من موسى أن يظهر المعجزة الّتي تشهد بأنّه رسول من إلهه، وأنّ له إلهاً غيره ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ فلمّا رأى فرعون وملأه ذلك إتّهموا موسى بأنّه ساحر، ويريد أن يغلب عليهم بسحره ويطردهم من أرضهم، فطلب الملأ من فرعون أن يجمع السّحرة ليأتوا كما أتى به موسى، ليعلم النّاس أن موسى ساحر فلا يتبعوه ولا يؤمنوا به فانشرح صدر فرعون وقبل برأيهم. وأرسل إلى بلاده من يجمع له السّحرة كما أخبر تعالى عن ذلك في القرآن فقال: (قال) أي فرعون لموسى ﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ سورة الأعراف الآية/ ١٠٦-١٠٨. من أنّ لك إله غيري وإنّك رسوله (فالقى) أي ألقى موسى (فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَامُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾.

(وكان سحرهم أنّهم ألقوا حبالاً كثيرةً وعصيّاً كثيرةً فكانت الحبال والعصيّ كالحيّات والثّعابين، وخيّل إلى النّاس أنّها حيّات تسعى، فابتهج فرعون وجنوده وأيقنوا أنّ السّحرة قد غلبوا موسى حيث لا يستطيع أن يأتي بشيء أعظم من هذا، ودخل في نفس موسى أيضاً خوف من أن لا ينجح ولا يغلب عليهم، فتدارك الله تعالى موقف موسى وأمره بما يفعل ليغلب به كما قال: (وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي) تصير ثعباناً عظيماً (تلقف) أي تبلع (ما يأفكون) مايأتون به كذباً وتخيّلاً حيث إنّهم لم يجعلوا الحبال والعصيّ حيّات بل إنّما دهّنوها بما يحولّها كالحيّات في الميدان، فتخيّل النّاس أنّها أصبحت ثعابين، فألقى موسى عصاه فأصبحت ثعباناً حقيقية، فبلعت كلّ الحيّات (فوقع الحقّ) وغلب بذلك (وبطل ما كانوا يعملون) من السّحر والتّمويه (فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين) وعلم السّحرة حسب علمهم بالسّحر أنّ ما فعله موسى ليس بسحر، وإنّما هو معجزة من الله تعالى، وأيقنوا أنّ موسى رسول من الله تعالى، وأنّ دينه الحقّ، ومن حاد عنه فإنّ مصيره إلى النّار ومن آمن فإنّ جزاءه الجنّة ولقاء الله تعالى، فأصبحوا كما قال تعالى: ﴿وألقي السّحرة ساجدين. قالوا آمنّا بربّ العالمين. ربّ موسى وهارون﴾ فاستولى الخجل والنّدامة على وجه فرعون فأراد أن يستر عواره فقال للسّحرة: (آمنتم به قبل أن آذن لكم إنّ هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون. لأقطّعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثمّ لأصلّبنكم أجمعين. قالوا) أي السّحرة (إنّا إلى ربّنا منقلبون. وما تنقم منّا إلّا أن آمنّا بآيات ربّنا لمّا جاءتنا، ربّنا أفرغ علينا صبراً وتوفّنا مسلمين).

* * *

سؤال: هل نفّذ فرعون وعيده فقتل السّحرة؟

الجواب: هناك روايتان، الأصحّ لا لأنّ الله حفظهم من عزم فرعون وملئه أن يقتلوا موسى ومن تبعه.

* * *

نصيحة الرّجل المؤمن لهم:

لما يئس فرعون من النّجاح بالبراهين والأدلّة ولم يبق له حجّة تؤيد بها باطله، وطلب منه قومه أن يصفّي الحساب بينه وبين موسى قائلين له: ﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ

لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ فوعدهم فرعون فقال: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ سورة الأعراف الآية/ ١١٧-١٢٧. ومن جانب آخر تشكّى قوم موسى ما حاق بهم من الحيف والجور من فرعون وآله، فوعدهم موسى بالنّصر والغلبة لهم، وأنّ عليهم أن يصبروا، فإنّ الصّبر يأتي بالفرج، وإنّ مع كلّ عسر يسراً، فبعد هذا الضّيق الّذي أحاط ببني إسرائيل، وبعد أن صمّم فرعون أن يقتل موسى ودبّر هو وقومه لهذا الأمر، ووعد موسى قومه بالنّصر وأن يكونوا خلفاء في الأرض الّتي وعدوا بها، واصطدم فرعون بأمر عجيب وهو ما ذكر تعالى فقال: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَاقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ فخاف فرعون أن يستجيب النّاس قول الرّجل المؤمن فناداهم فقال: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَاقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ مخافة أن يؤثّر قول الرّجل المؤمن في قلوب النّاس ولإظهار عظمته وإغواء النّاس قال: ﴿يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (٣٧) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) وَيَاقَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ

لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥)﴾ سورة غافر الآيات/ ٢٨-٤٥. وبعد ذلك وجّه فرعون إلى شعبه خطاباً مفصّلاً وكلاماً كلّه سفه وحماقة، وهذه الخطبة ذكرها الله تعالى فقال: (وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ). (أَمْ) أي هل (أَنا خَيْرٌ مِنْ هذا) يريد موسى (الَّذي هُوَ مَهينٌ) أي حقير وفقير (وَلا يَكادُ يُبين) الكلام لأنّه لم يكن طلقاً في الكلام (فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ) من السّماء (أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ) إن صدق أنّه رسول (أَوْ) لولا (جاءَ مَعَهُ المَلائِكَةُ مُقْتَرِنين) معه ليشهدوا برسالته (فَاسْتَخَفَّ) فرعون (قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ) بإطاعة فرعون ﴿كانوا قَوْماً فاسِقينَ﴾ سورة الزّخرف الآيات/ ٤٥-٥١. خارجين عن أمر الله وعن مقتضى العقل والحكمة.

نزول آيات العذاب على فرعون وقومه: ثمّ بعد أن عتا فرعون عن أمر ربّه وأصرّ على تكذيب موسى (عليه السلام) وادعاء الألوهيّة لنفسه، واستمر في عذاب بني إسرائيل وإلحاق الإهانة والإذلال بهم، أمر الله تعالى أنّه سيوقع عليهم العذاب إن لم يتوبوا عن الكفر وعن إذلال بني إسرائيل، وعدم إطلاقهم ليذهب بهم موسى (عليه السلام) إلى حيث شاء الله، فلم يتّعظوا بهذا الوعيد ولم يتوبوا كما لم يتّعظوا بالآيات السّابقة وبالمواعيد الحسنة الّتي كان الله تعالى يعدهم على لسان موسى(عليه السلام) فأنزل الله تعالى عليهم العذاب تلو العذاب، وكانوا كلّما نزل بهم عذاب أتوا إلى موسى (عليه السلام) ويرجون منه أن يدعو الله أن يكشف عنهم العذاب ويعدّونه أنّه إذا كشف عنهم العذاب فإنّهم يؤمنون، فإذا كشف الله عنهم العذاب عادوا إلى طغيانهم ونقضوا عهدهم، وهكذا كانوا إلى أن كانت الآية الكبرى والبطشة العظمى فأغرقهم الله تعالى في البحر وكفى الله المؤمنين القتال.

والآيات هي: ١- السّنون ٢- نقص في الأموال والأنفس والثّمرات ٣- الطّوفان ٤- الجراد ٥- القمّل ٦- الضّفادع ٧- الدّم ٨- الطّمس على أموالهم ٩- فلق البحر. وهذه هي الآيات التّسع، واختلفت الرّوايات في تعدادها، والأصحّ أنّ الآيات الّتي جاءت لموسى ثلاثة أنواع:

النّوع الأوّل: هي المعجزات كالعصا واليد وإنفلاق البحر وإنفجار الصّخرة بالعيون وغير ذلك من آيات الرّحمة.

النّوع الثّاني: آيات العذاب وهي هذه التّسع الّتي ذكرناها.

النّوع الثّالث: الوصايا وهي: ما روي عن صفوان أنّ يهوديّاً سأل النّبي (ﷺ) عنها فقال (ﷺ): لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرفوا ولا تزنوا ولا تقتلوا النّفس الّتي حرّم الله إلّا بالحقّ، ولا تسحروا ولا تأكلوا الرّبا، ولا تمشوا ببريء إلى السّلطان ليقتله، ولا تقذفوا المحصنة ولا تفرّوا من الزّحف، وعليكم خاصّة اليهود أن لا تعدوا في السّبت، فقبّل اليهودي يد النّبيّ (ﷺ).

إغراق الله تعالى فرعون وجنوده في البحر: بعد أن أيس موسى (عليه السلام) من إيمان فرعون وضاقت الأرض ببني إسرائيل على سعتها، واشتدّ عذاب فرعون لهم، أمر الله تعالى موسى (عليه السلام) أن ينطلق ببني إسرائيل من أرض مصر ذاهباً بهم إلى أرض فلسطين، ليخلصوا من ضروب العذاب، وهذا ما ذكره تعالى في القرآن، قوله جلّ وعلا: ﴿وَأَوْحَيْنا إِلى موسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي﴾ أي إنطلق بهم ليلاً ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبَعون﴾ يتّبعكم فرعون بجنوده، ويكون ذلك سبب هلاكهم، فانطلق موسى (عليه السلام) ببني اسرائيل ليلاً، فلمّا سمع فرعون ذلك إغتاظ غيظاً عظيماً وأراد أن يسحق بني إسرائيل كلّهم ويزيلهم عن الوجود ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدائِنِ حاشِرين﴾ من يجمع له الجيش والجنود والنّاس لأن يتّبع موسى (عليه السلام) وقومه، وقال لجيشه ﴿إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَليلونَ. وَإِنَّهُمْ لَنا لَغائِظون. وَإِنّا لَجَميعٌ حاذِرون. فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنّاتٍ وَعُيونٍ. وَكُنوزٍ وَمَقامٍ كَريمٍ. كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها بَني إِسْرائيلَ﴾ حيث حكم بعد ذلك داود وسليمان وآخرون من بني إسرائيل مصر وفلسطين وغيرهما من البلاد. ولما علم فرعون وجنوده إنطلاق بني إسرائيل غضبوا عليهم وأرادوا أن يقضوا عليهم ﴿فَأَتْبَعوهُم مُشْرِقينَ﴾ وقت الشّروق للشّمس ﴿فَلَمّا تَراءى الْجَمْعانِ قالَ أَصْحابُ مُوسى إِنّا لَمُدْرَكون﴾ أدركنا جيش فرعون وخافوا كثيراً ﴿قالَ﴾ موسى (عليه السلام) ﴿كَلّا﴾ لا يدركونكم فلا تخافوا حيث ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدين﴾ أصله سيهديني حذف الياء للتّخفيف أي سيرشدني إلى طريق النّجاة ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾ وأصبح فرقين بينها أرض يابسة ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ وَأَزْلَفْنا﴾ وقربنا ﴿ثَمَّ﴾ من ذلك المكان ﴿الآخرينَ﴾ أي فرعون وجنوده ﴿وَأَنْجَيْنا مُوسى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعينَ﴾ فعبروا بين فرقي البحر فدخل بعدهم فرعون وجنوده بين الفرقين، فلمّا دخل كلّهم إنطبق عليهم الفرقان فغرقوا، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنا الآخَرينَ﴾ أي فرعون ومن معه ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ﴾ الخبر وما جرى بين موسى (عليه السلام) وفرعون وإنتصار موسى (عليه السلام) والمؤمنين وهلاك فرعون ومن معه وفي هذه ﴿لآيَة﴾ لموعظة وعبرة ومعجزة إلّا أنّ النّاس قست قلوبهم فلا يعتبرون ﴿وَما

كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ في زمانهم وبعدهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره فينتقم من كلّ معتد وظالم ومتكبّر جبّار ومنحرف عن دينه وشريعته ﴿الرَّحِيمُ﴾ سورة الشعراء الآيات/ ٥٢-٦٨. بمن آمن به واتّبع شريعته وطبّقها على نفسه وعلى من تحت ولايته، إلّا أنّ لكلّ أمةٍ أجل ولكلّ أجل كتاب. هذا، وبعدما أنجى الله تعالى سيّدنا موسى (عليه السلام) إبتلى بقومه بني إسرائيل ولاقى منهم ما لا يصبر عليه. ولا يتحمله إلّا واحد من أولي العزم كموسى (عليه السلام) وكان إبتلاؤه بهم أمور كثيرة:

الأوّل: طلبهم منه أن يجعل لهم أصناماً ليعبدونه كما للنّاس أصنام: بعد أن أنجى الله تعالى بني إسرائيل من البحر وأهلك عدوهم، مرّوا على قوم عكفوا على أصنام يعبدونها، فطلب بنوا إسرائيل من موسى (عليه السلام) أن يجعل لهم إلهاً مجسّداً كما لهؤلاء القوم آلهة مجسّدة، وأخبر الله تعالى عن ذلك بقوله جلّ وعلا: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَامُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ سورة الأعراف الآيات/ ١٣٨-١٤٠. فسكتوا وإن كانت الجهالة والوثنيّة مرتكزة في نفوسهم لما كانوا أَلِفوها في مصر وتحت حكم فرعون وعقيدته الباطلة من عبادة آلهة غير الله تعالى.

الثّاني: طلبهم الظّل من موسى (عليه السلام): بعد أن عبر بنو إسرائيل البحر دخلوا جزيرة سيناء والشّمس فيها شديدة، ولم يكن لهم مساكن يسكنونها ولا شجر يتظلّلون بها، شكوا إلى موسى (عليه السلام) ما يلقون من العناء فدعا موسى (عليه السلام) ربّه فساق الله تعالى الغمام إلى ذلك المكان ليظلّهم ويقيهم حرّ الشّمس ووهجها ودام ذلك عليهم.

الثّالث: طلبهم الطّعام والماء: بعد أن أقاموا بجزيرة سيناء وكان ما معهم من الطّعام والزّاد عرضة للنّفاذ، وكان ماؤهم قليلاً وتاقت نفوسهم إلى اللّحم، وخافوا على أنفسهم الجوع والهلاك، فشكوا ذلك إلى موسى (عليه السلام)؛ فدعا موسى (عليه السلام) ربّه فأرسل تعالى لهم الرّياح تحمل إليهم المنّ، وهو شيء يشبه الصّمغ ينزل من السّماء على الأشجار وغيرها حلو كالعسل، وتحمل السّلوى، وهي نوع من الطّير، فكان يأتي ويغطي الأرض فيأخذ منه كلّ إنسان كفايته، وقد أمرهم الله تعالى أن لايطغوا فيه بالإدّخار فيه، لأنّ ذلك ناشيء عن سوء الظّن بالله تعالى، فخالف قوم منهم، وأجرى تعالى لهم إثنتي عشرةَ عيناً من الحجر، كما قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى

مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ سورة الأعراف الآية/ ١٦٠. بالإدخار للمن والسّلوى وعدم الشّكر لهذه النّعم وعدم الإمتثال للأمر وعدم التّوكل على الله تعالى.

الرّابع: طلبهم من موسى أطعمة أخرى: بعد أن بقوا مدّة في سيناء يأكلون المنّ والسّلوى سئموا من هذا الطّعام الواحد الّذي لا يتبدّل ولا يختلف ولا يتنوع، وكانوا في مصر يتنوّعون في الأطعمة والأشربة، فشكوا ذلك إلى موسى فأجابهم موسى كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى﴾ وهو هذه الاطعمة ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ وهو المنّ والسّلوى، وكان هذا الطّعام خيراً لأنّه:

أوّلاً: كان حلالاً محضاً لم يدخل فيه شائبة الحرام، لأنّه كان بأمر الله تعالى ولم يتدخّل فيه كسب العباد.

ثانياً: إنّ التّعود على طعام واحد أنفع للصّحة من تنويع الأطعمة وتكثيرها، لأنّ المعدة إذا إختلفت عليها ورود الأطعمة المختلفة يقلّ هضمها، وإنّ لكل طعام خاصيّة من الحرارة والرّطوبة واليبوسية واللّيونة والقبوضة فتتعب المعدة فتسبب الأمراض، وإن أبيتم إلّا طلب هذه الأطعمة ﴿إهبطوا مصراً﴾ أي بلدة من بلاد فلسطين وحرّروها من الكفرة والظّالمين بالقتال والنّضال ﴿فإنّ لكم﴾ في تلك البلدة ﴿ما سألتم﴾ من هذه الأطعمة، فأبوا ولم يجاهدوا، بل أرادوا كلّ شيء بدون كسب وتعب، وبطرق خوارق العادات والمعجزات. وإنّ الله تعالى خلق الإنسان للعمل ولتعمير هذه الأرض بالكسب والإختراع والزّراعة، وحيث إمتنعوا من الجهاد ودخول البلدة وخالفوا أمر الله تعالى ﴿وضربت عليهم الذّلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله﴾ سورة البقرة الآية/ ٦١.

الخامس: ذهاب موسى لميقات ربّه وإبتلائه بالصّعق واتّخاذ قومه العجل: ذكر في التّفاسير أنّ موسى حينما كان بمصر وعد قومه أنّه إن أهلك الله فرعون يأتيهم بكتاب من الله تعالى فيه حكم كلّ ما يعملون أو يتركوا، فلمّا أهلك الله فرعون سأل موسى ربّه الكتاب، فأمره أن يذهب إلى الطّور فيصوم ثلاثين يوماً من أوّل ذي القعدة إلى آخره، فلمّا أكمل موسى صومه ثلاثين يوما أنكر رائحة فمه فاستاك أو أكل بعض

النّباتات، فقالت الملائكة: كنّا نشم من فمك رائحة المسك فأفسدته بالسّواك، فأمره الله تعالى أن يصوم عشرة أيام أخر هي عشر ذي الحجّة. وعن الدّيلمي عن ابن عباس مرفوعاً: لمّا أتى موسى ربّه عزّ وجلّ بعد الثّلاثين وقد صام نهارهن ولياليهّن، كره أن يكلّم ربّه وريح فمه ريح فم الصّائم، فتناول من نبات الأرض فمضمضه، فقال له ربّه: لم أفطرت؟ وهو أعلم بالّذي كان، قال: أي ربّ كرهت أن أكلّمك إلّا وفمي طيّب الرّيح، فقال: أو ما علمت أنّ ريح فم الصّائم أطيب عندي من ريح المسك إرجع فصم عشرة ثمّ إئتني، ففعل موسى ما أمره ربّه ثمّ أتى، وكان موسى قبل أن يذهب إلى الميقات وصّى أخاه هارون أن يكون خليفته في القوم، وأن يأمرهم بما يصلح وينهاهم عما يفسد، فذكر الله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي﴾ أي أرني ذاتك ﴿أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ لأراك ﴿قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى﴾ الله تعالى ﴿رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قَالَ يَامُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ سورة الأعراف الآيات/ ١٤٢-١٤٤. لنعمتي هذه ولا تطلب ما لا يليق بك. وصعق جاء بمعنى مات، فقال البعض: مات موسى ثمّ أحياه الله، وجاء بمعنى غشي عليه، فقال بعض آخر: غشي على موسى وقوله: فلمّا أفاق، ويؤيد هذا المعنى هنا والله أعلم. هذا وإنّ بني إسرائيل لم تكن أنفس كثير منهم مرتضاة بالإيمان وإنّهم كانوا ذوي جهالة لم يبلغوا من الثّقافة ما يصونهم عن الزّيغ. وقد عاشوا في مصر وألفوا أن يروا عبادة المصريّين للعجل الّذي كانوا يسمّونه (أبيس) وكانوا يحنّطون العجول المؤلّهة كما يحنّط الأدمي، ويضعونها في مقبرة تسمّى (سرابيوم) وأنّ موسى حينما ذهب إلى الميقات أخبرهم أنّه لا يغيب أكثر من ثلاثين يوماً عدا مدة السّير إلى جبل الطّور، فلمّا أمره الله تعالى أن يصوم عشرة أيام أخر إستبطأ القوم موسى، فانتهز رجل يقال له: السّامري غيبة موسى فأخذ من بني إسرائيل بعض الحلي الّتي كانت نسائهم أخذنها من المصريات قبل الرّحيل من مصر، فألقى السّامري الحلي في النّار وسبك منها عجلاً بحيث يكون له خوار وهو صوت الثّور، وقال السّامري لبني اسرائيل: ﴿هذا إِلٰهُكُمْ وَإِلٰهُ مُوسى فَنَسِيَ﴾ أي فنسيه هنا فصدّقوه وعبدوه، فنصحهم هارون وأراد أن يردّهم عن عبادة العجل وقال: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ ولكنّ

نصحه لم يؤثر فيهم ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ فلمّا قضى موسى الأجل وكلّمه ربّه وأعطاه الألواح قال له: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَامُوسَى (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ فأخبره تعالى بما فعل السّامري فقال له: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا) فتوجّه إلى أخيه هارون، فأخذ بلحيته ورأسه يجرّه ﴿قال﴾ هارون ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيت﴾ لو قاتلت المرتدّين ﴿أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ فبعد ذلك ذهب إلى السّامري وقال له: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَاسَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ﴾ في الدّنيا عذاب وهو: ﴿أَنْ تَقولَ﴾ لكلّ واحد ﴿لا مَساسَ﴾ بيني وبينك، فكلّ من مسك أو مسسته إبتلى بمرض، فهام في الصّحراء لا يمسّ أحدا ولا يمسّه أحد ﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ بعذاب الآخرة ﴿مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ سورة طه الآيات/ ٨٣ ـ ٨٦، ٩٤ ـ ٩٨. ثمّ أوحى الله تعالى إلى موسى أنّ الله لا يقبل توبة القوم حتّى يقتل بعضهم وهم الّذين لم يعبدوا العجل بعضاً آخر أي عبدة العجل المرتدّين، فلمّا بدأوا بالقتال تاب المرتدّون ورجعوا عن عبادة العجل فتاب الله عليهم. وورد هذا الموضوع مفصلاً في تفسيرنا للآية (٥٤) من سورة البقرة فارجع إليها إن شئت.

السّادس: طلب القوم رؤية الله تعالى في الطّور وصعقهم هناك: بعد أن تاب الله تعالى على بني إسرائيل من عبادة العجل إختار موسى سبعين رجلاً منهم، فذهب بهم إلى الطّور لميقات الله تعالى ليعتذروا عن عبادة العجل، فهناك قالوا: يا موسى نحبّ أن نسمع كلام الله تعالى، فدعا موسى ذلك من الله؛ فسمعوا كلام الله تعالى يأمر موسى وينهاه، فقالوا: بماذا نعلم أنّ الّذي يكلّمك هو الله تعالى، فأرنا الله تعالى لنصدّقك؟ فأصبح حالهم كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ سورة البقرة الآيتان/ (٥٥-٥٦). والصّعق هنا بمعنى الموت بقرينة (ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ).

* * *

سؤال: هل كانت هذه صاعقة؟ أو كانت بسبب أن تجلّى الله تعالى للجبل فلم يتحمّلوا فصعقوا كما صعق موسى؟

الجواب: الأظهر أنّها كانت من التّجلّي إلّا أنّهم كانوا أضعف من موسى، فهم ماتوا من أثر هذا التّجلي وموسى لم يمت، وإنّما غشى عليه والله تعالى أعلم، أو كانت صاعقة أصابتهم لأنّهم كذّبوا رسولهم؛ فقالوا: لن نؤمن لك، فدعا موسى ربّه وقال: ربّ فماذا أقول لبني إسرائيل إذا لم أرجع بهم؟ فأحياهم الله تعالى.

* * *

السّابع: أمر الله بني إسرائيل بدخول الأرض المقدّسة وإمتناعهم عن ذلك: قرب بنو إسرائيل من أرض فلسطين وهي الأرض الّتي وعد الله تعالى إبراهيم وإسحاق ويعقوب (عليهم السلام) أن تكون ملكاً لأولادهم فأمر الله تعالى موسى (عليه السلام) أن يذهب ببني إسرائيل إلى تلك الأرض وأن يقاتلوا الكافرين المتسلطين هناك ويستلّموا زمام الحكم فيها ولينشروا شريعة الله تعالى، ولكنّ بني إسرائيل قد إستولت الذّلة والهوان والجبن والكسل عليهم وتعوّدوا كلّ ذلك في مصر وتحت حكم فرعون، فأرادوا أن يكون دخولهم في فلسطين بالمعجزة أيضاً، وأبوا أن يتحرّكوا نحو الأرض المقدّسة، وقد ذكر تعالى مناقشتهم موسى حينما أمرهم بذلك في سورة المائدة، فقال جل وعلا: ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين. يا قوم ادخلوا الأرض المقدّسة الّتي كتب الله لكم ولا ترتدّوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين. قالوا يا موسى إنّ فيها قوماً جبّارين وإنّا لن ندخلها حتّى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فانّا داخلون. قال رجلان من الّذين يخافون﴾ الله تعالى حيث ﴿أنعم الله عليهما بالإيمان﴾ والتوكّل على الله والثّقة به يا قوم لا تخافوا ﴿أدخلوا عليهم الباب﴾ باب الباب فإذا دخلتموه ﴿فإنّكم غالبون﴾ عليهم حيث إنّهم يخافون منكم وإنّ الله وعدكم النّصر وإنّه لا يخلف الميعاد ﴿وعلى الله فتوكّلوا إن كنتم مؤمنين﴾ به وبوعده وبقدرته على كلّ شيء ﴿قالوا يا موسى إنّا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا هاهنا قاعدون﴾ توجّه موسى إلى ربّه ﴿قال ربّ إنّي لا أملك إلّا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾ الخارجين عن أمرك والممتنعين عن الجهاد في سبيل تحرير فلسطين، وفي سبيل سيادتهم وكرامتهم ورفاهيّتهم في العيش والحياة ﴿قال﴾ تعالى لموسى دعهم ﴿فإنّها﴾

أي الأرض المقدّسة ﴿محرّمة عليهم﴾ دخولها لجبنهم مدة ﴿أربعين سنةً﴾ ويبقون ﴿يتيهون في الأرض﴾ أرض سيناء إلى أن ينشأ جيل لم يتعوّد ظلم فرعون والذّل والمهانة، فهم يقومون بهذا الفتح ويفوزون بخير الدّنيا والآخرة ﴿فلا تأس﴾ فلا تحزن ﴿على﴾ هؤلاء ﴿القوم الفسقين﴾ سورة المائدة الآيات/ ٢٠-٢٦. فليبقوا فيما هم فيه من التّيه وشظف العيش والحياة، فعوّقهم الله تعالى في البريّة أربعين سنة، ولم يشأ لموسى ولا لهارون أن يعبر أحد منهما إلى تلك الأرض، فمات هارون قبل موسى، ودفن في جبل طور من جبال سيناء الّتي في البريّة، وأمّا موسى، فأمره الله تعالى أن يصعد إلى الجبل (نبو) وينظر إلى أرض الموعد دون أن يدخلها ففعل ذلك، ومات على الفسحة أي الأكمة الّتي هي من رمل أحمر، ودفن هناك وخفيت معالم قبره الشّريف. وبعد وفاة موسى (عليه السلام) قام بأمر بني إسرائيل تلميذه وفتاه يوشع (عليه السلام) هو ابن نون من سبط يوسف ج فذهب ببني إسرائيل وعبروا إلى الأرض المقدّسة، وكان أوّل بلد ملكوه مدينة (أريحا) وقد أمرهم الله تعالى أن يدخلوا باب المدينة بخشوع وتذلّل لله تعالى شكراً على فتحه البلدة على أيديهم وأن يقولوا: (حطّة) أي مغفرة من الذّنوب نطلب من الله تعالى من هذا الجهاد، ولكن القوم قد إعتادوا مخالفة أمر الله تعالى فدخلوا البلدة متكبّرين وقالوا: (حنطة) أي حنطة نريدها من فتح البلدة، فأنزل الله تعالى عليهم العذاب كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا﴾ طاعوناً ﴿مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ سورة البقرة الآيتان/ ٥٨-٥٩. فمات هؤلاء الظّالمون بالطّاعون وقد وقع لموسى حوادث أخرى مع بني إسرائيل نذكرها إن شاء الله تعالى.

الحادثة الأولى: رفع الطّور فوق رؤوس بني إسرائيل: قال الله جلّ وعلا: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ سورة البقرة الآية/ ٦٣-٦٤. وقد تكلّمنا على هذه القصّة وشرحناها في سورة البقرة حسب الطّاقة والحمد لله تعالى.

الحادثة الثّانية: قول موسى (عليه السلام) لقومه: إنّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرةً: وقد ذكرنا هذه القصة في سورة البقرة عند تفسير الآيات(٧٣-٧٦) والحمد لله تعالى.

الحادثة الثّالثة: قصة قارون مع موسى (ﷺ): وقد ذكر الله تعالى هذه القصّة في سورة القصص في الآيات (٧٦-٨٣) وإن شاء الله تعالى نشرحها هناك مفصلاً.

الحادثة الرّابعة: قصة موسى (ﷺ) **مع العبد الصّالح**: وذكرها تعالى في سورة الكهف في الآيات(٦٥-٨٢) وسنشرحها هناك إن شاء الله تعالى.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أحوال بني إسرائيل واليهود ومساوئهم عامة أراد أن يذكر حال شخص واحد منهم خاصّة؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

إنّ هذه الآيات تتعلّق بذكر حال شخص آتاه الله تعالى دلائل وحدته وقدرته فآمن، وآتاه اللهّ تعالى فهم أحكام الله تعالى وشريعته، ثمّ خرج من اتّباعها، فكان يغيّر الأحكام حسب المصلحة ولأغراض الدّنيا ونيل حطامها، وفي تعيين هذا الشّخص روايات كثيرة أشهرها أنّه: بلعم بن باعوراء من علماء بني إسرائيل سئل أن يدعو على موسى (ﷺ) وأُعطي له أموال مقابل ذلك فدعا عليه فانقلب الدّعاء على نفسه، فاندلع لسانه على صدره، فكان يلهث كما يلهث الكلب، فذكّر الله تعالى اليهود والنّصارى بهذا العالم منهم وأنّه كيف صار حاله حيث خرج عن مقتضى علمه لطمع الدّنيا لأن يعتبروا به، فلا يخرجوا عن مقتضى علمهم بأنّ محمّداً (ﷺ) هو الرّسول الموعود والمبشّر به في التّوراة والإنجيل ويؤمنوا به ويدخلوا في الإسلام مخافة أن ينقلب حالهم مثل حال هذا العالم؛ فقال جلّ وعلا: **(واتل)** يا محمّد **(عليهم)** على أهل الكتاب خبر وحال **(الّذي آتيناه آياتنا)** أي دلائلنا وأحكامنا فآمن وفهم شريعتنا فأصبح ممّن يقتدى به **(فانسلخ منها)** فخرج من الدّين والشّريعة كما تخرج الحيّة من جلدها **(فأتبعه الشّيطان)** أي فأدركه الشّيطان وصار قرينه وموجهه **(فكان)** فأصبح **(من الغاوين)** أي الضّالين **(ولو شئنا)** أن نرفعه جبراً **(لرفعناه)** أي لرفعنا رتبته في الآخرة **(بها)** أي بتلك الشّريعة، إلّا أنّه

ليس من عادتنا الجبر لا على الهداية ولا على الضّلالة، بل نجعل الإختيار بيد الشّخص، فإذا إختار الهداية هديناه وإن إختار الضّلالة ضلّ **(ولكنّه)** أي هذا الشّخص لم يختر الهداية بل **(أخلد)** أي مال وسكن **(إلى الأرض)** إلى الدّنيا وحطامها **(واتّبع هواه)** فأصبح يبدل الأحكام حسب منفعته ومصلحته **(فمثله)** صار **(كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث وإن تتركه يلهث)** واللّهث إخراج اللّسان والتّنفس السّريع الكثير الدّائم **(ذلك)** المثل والحال هو **(مثل)** حال كلّ **(الّذين كذّبوا بآياتنا)** فخرجوا عن مقتضاها ولم يعملوا بها **(فاقصص)** أيّها المسلم هذه **(القصص)** لأهل الكتاب ولكلّ من انحرف عن الحقّ بعد العلم به **(لعلّهم يتفكّرون)** فلا يغيّروا حكم الله تعالى وشريعته لمصالح الدّنيا وجرّ حطامها **(ساء)** أي قبح جداً **(مثل)** أي حال **(القوم الّذين كذّبوا بآياتنا)** فلم يطبّقوها، حيث أصبح حالهم كحال الكلب بسبب فعلهم القبيح هذا **(وأنفسهم كانوا)** بهذه الأعمال **(يظلمون)** حيث يجعلونها مستحقّة للخساسة في الدّنيا والخسارة في الآخرة، وهذه الآية أشد آية على العلماء.

ثمّ إنّ الرّسول (ﷺ) ضاق صدره الشّريف وحزن قلبه اللّطيف حينما ذكر هذه الآيات والأمثال للنّاس فلم يؤمنوا، فأراد الله تعالى أن يسلّيه فقال جلّ وعلا:

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

(من يهدِ الله) إياه فيوصله إلى الحقّ **(فهو المهتدي)** فهو الواصل إلى الحقّ وهم الّذين يحبّون الحقّ ويختارونه ويسعون له **(ومن يضلل)** الله إياه حيث لا يحبّ الحقّ ولا يريده **(فأولئك هم الخاسرون)** لا أنت فإنّك لست مسؤولاً عن هدايتهم، حيث ليس عليك إلّا التّبليغ وقد قمت به، وليس كلّ النّاس يهتدون، بل منهم من يهتدي ومنهم من لا يهتدي، كما قال تعالى: ﴿**ولقد ذرأنا)** ولقد خلقنا **(لجهنّم كثيراً من الجنّ والإنس)** فهؤلاء لا يهتدون مهما صرفت الجهد في إرشادهم ووعظهم لأنّهم **(لهم قلوب لا يفقهون)** الحقّ **(بها)** لأنّهم يستكبرون عنه، أو أعماهم التّقليد أو العصبيّة أو المصالح أو

المنافع (**ولهم آذان لايسمعون بها**) كما تقدّم ولما تقدّم (**ولهم أعين لا يبصرون بها**) لما ذكرنا (**أولئك كالأنعام**) في أنّهم لا يعرفون الأكل والشّرب ولا يبالون بغير ذلك (**بل هم أضلّ**) لأنّ الأنعام تدرك المضارّ فتهرب منها، والمنافع فتسعى إليها، ولأنّ الأنعام ليست مكلّفة، فلا حاجة لها إلى الفقه، وهم مكلّفون بالتّفكر ليصلوا إلى الحقّ فيعتنقوه (**أولئك هم الغافلون**) عما ينفعهم وما يضرّهم لا الأنعام، لأنّ الأنعام لم تنحرف عما خلقت له، وهؤلاء انحرفوا عما خلقوا له من عبادة الله تعالى وتوحيده وأداء خلافته في الأرض وفق ما أمر وحكم. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حال المنحرفين عن آيات الله تعالى وأحكامه ذكر أمراً عظيماً من إنحرافهم وهو أنّ بعضهم ينكرون بعض أسماء الله تعالى فمثلا لا يسمّون الله تعالى بالرّحمان ويقولون هو ليس من أسمائه، وبعضهم يسمّون غير الله تعالى بأسمائه، فيسمون صنماً لهم باللّات مأخوذاً من (الله) ويسمون صنماً آخر (بالعزّى) مأخوذاً من العزيز، ومناة من المنّان فقال جلّ وعلا:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾

(**ولله الأسماء**) الّتي كلّها الحسنى (**فادعوه بها**) أي فنادوه بها في الدّعوات وسمّوه بها، ولا تنكروا واحداً من أسمائه ولا تسمّوا بها واحداً غيره (**وذروا**) أي اتركوا عمل (**الّذين يلحدون**) يظلمون (**في أسمائه**) بأن تسمّوه بغير ما هو سمّاه به نفسه أو سمّاه به رسوله الكريم، أو أن تسمّوا غيره بإسم من أسمائه المختصّة به، فإنّ هؤلاء الّذين يلحدون (**سيجزون**) في الدّنيا وفي الآخرة أو فيهما معاً جزاءَ (**ما كانوا يعملون**) من هذا الإلحاد وغيره من أعمالهم القبيحة.

فائدة: من شروط الدّعاء بأسماء الله الحسنى أن يعرف الدّاعي معنى الاسم الّذي يدعوه به، وأن يستحضر في قلبه عظمة المدعو منه جلّ وعلا، وأن يخلص النّيّة في دعائه مع كثرة التّعظيم والتّقديس لله، وأن يعزم المسألة مع رجاء الإجابة، وأن يكون متذكّراً ربوبيّة الله تعالى له وعبوديته لله تعالى، فإذا فعل العبد ذلك كان للدّعاء تأثير عظيم.

* * *

تنبيه: ذكر الخازن وغيره عن مسلم والبخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (ﷺ): (إنّ لله تسعة وتسعين إسماً من حفظها دخل الجنّة والله وتر يحبّ الوتر). وفي رواية: (من أحصاها)، وفي رواية أخرى: (لله تسعة وتسعون إسماً) مائة إلّا واحداً لا يحفظها أحد إلّا دخل الجنّة وهو وتر يحبّ الوتر، وفي رواية أخرى للترمذي: إنّ لله تسعة وتسعين إسماً من أحصاها دخل الجنّة هو الله الّذي لا إله إلّا هو الرّحمن الرّحيم الملك. القدّوس. السّلام. المؤمن. المهيمن. العزيز. الجبّار. المتكبّر. الخالق. البارئ. المصوّر. الغفّار. الوهّاب. الرّزاق. الفتّاح. العليم. القابض. الباسط. الخافض. الرّافع. المعزّ. المذلّ. السّميع. البصير. الحكم. العدل. اللّطيف. الخبير. الحليم. العظيم. الغفور. الشّكور. العليّ. الكبير. الحفيظ. المقيت. الحسيب. الجليل. الكريم. الرّقيب. المجيب. الواسع. الحكيم. الودود. المجيد. الباعث. الشّهيد. الحقّ. الوكيل. القويّ. المتين. الوليّ. الحميد. المحصي. المبديء. المعيد. المحيي. المميت. الحيّ. القيّوم. الواجد. الماجد. الواحد. الصّمد. القادر. المقتدر. المقدّم. المؤخّر. الأوّل. الآخر. الظّاهر. الباطن. الوالي. المتعالي. البرّ. التّواب. المنتقم. العفوّ. الرّؤوف. مالك الملك. ذو الجلال والإكرام. المقسط. الجامع. الغنيّ. المغني. المانع. الضّار. النّافع. النّور. الهادي. البديع. الباقي. الوارث. الرّشيد. الصّبور). فهذه أسماء الله الحسنى التّسعة والتّسعون، وليس معنى الحديث أنّ أسماء الله تعالى منحصرة في هذا العدد، فقد ذكر الحافظ أبو بكر ابن العربي المالكي عن بعضهم أن لله تعالى ألف إسم، وقال: وهذا أي الألف قليل، وقوله (ﷺ): (من أحصاها أي أحصى هذه التّسعة والتّسعين دخل الجنّة) إلّا أنّ الأسماء مختصرة في هذا العدد، والإحصاء يجب أن يكون وفق الشّروط الّتي مرّت في قولنا: (فائدة) لا لتعدادها فقط، فإنّ الملحد يستطيع أن يعدّها أو حتّى يحفظها أو يحصيها كما لا يحصى.

* * *

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّه ذرأ أي خلف كثيراً من الجنّ والإنس لجهنّم وإنّهم أضلّ من الأنعام، وقد خلقهم الله تعالى كثيراً، أراد الله تعالى أن يذكر أن هناك جماعة أخرى هم مهتدون، فيفيد أنّهم خلقوا للجنّة؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾

(وممَن خلقنا) من أبناء آدم أو الجنّ **(أمّة)** جماعة **(يهدون)** يرشدون النّاس **(بالحقّ)** وهو ما رضي الله به من العقائد **(وبه)** أي وبالحقّ وهي ما رضي الله تعالى به من الأحكام **(يعدلون)** يحكمون، فالمعنى أنّهم على الصّواب في العقيدة والأحكام حيث يطبّقون حكم الله تعالى في كلا الجانبين.

ثمّ أراد الله تعالى أن ينذر الّذين ينحرفون عن دينه فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾

(والّذين كذّبوا بآياتنا) أي بالدّلائل الّتي تدلّ على وحدة الله تعالى ورسالة رسوله (ﷺ) فلم يعملوا حسب مقتضاها وكذّبوا بأحكامها فلم يعملوا بها **(سنستدرجهم)** أي سنقرّبهم إلى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم شيئاً فشيئاً. ونفتح عليهم النّعيم ثمّ نأخذهم **(من حيث لا يعلمون)** ولا يشعرون بالعذاب لأنّه يأتي بغتة، ومن الجدير أن نجعل تفسير الإستدراج قوله تعالى: **(وأملي لهم)** أي وأمهلهم وأطيل عليهم العمر وأديم عليهم النّعم، ثمّ **(إنّ كيدي)** عذابي لهم حينما أردت **(متين)** شديد جدّاً، فالإستدراج عدم الإستعجال بالعقوبة وترك العاصي على عصيانه إلى أن يأتي يوم عذابه.

ثمّ استفهم الله تعالى إستفهام إنكار وأنكر حالهم، وهو أنّهم لا يتفكّرون ليظهر لهم الحقّ فقال جلّ وعلا:

﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

(أو) بعد هذه التّنبيهات والتّبليغات **(لم يتفكّروا)** في الدّلائل الّتي تدلّ على أنّه **(ما بصاحبهم)** محمّد (ﷺ) في دعواه الرّسالة شيء **(من جنّة)** جنون وإختلال في العقل والتّفكير، فمن المنكر أنّهم لا يتفكّرون في ذلك فيعلموا أنّه رسول فيؤمنوا وليعلموا **(إن)** ليس **(هو)** محمّد **(إلّا نذير مبين)** وبشير أيضاً، إلّا أنّه ترك البشير لأنّ المقام مقام الوعيد، وإستفهم الإنكار أيضاً عن حالهم من أنّهم لا يتفكّرون في دلائل وحدانيّة الله تعالى فقال: **(أو لم ينظروا)** نظر الإستدلال **(في ملكوت)** صيغة مبالغة للملك فلينظروا

في ملكوت **(السّموات)** من هذه الأجرام الكبيرة الموقوفة في هذا الفضاء الوسيع، وهذه النّجوم اللّامعة والكواكب والشّموس والأقمار ومن السّحب والأمطار **(والأرض)** من الجبال أو الوديان والأنهار والنّباتات والأشجار والمعادن، فلينظروا في هذه الأشياء **(و)** في **(ما خلق الله من)** أي شيء كان، فإنّ كلّ مَنْ نَظَرَ في هذه المخلوقات أو في واحد منها يعلم أنّ قدرة الله تعالى بلغت النّهاية وأقصى ما يتصوّر، ومن له هذه القدرة لا يحتاج إلى شريك ولا يقبله، فإنّ الشّريك إنّما يكون لعاجز، ومن هنا قال الشاعر:

وفي كلّ شيء له آية تدلّ على أنّه الواحد

(و) أولم ينظروا في **(أنْ عسى)** كاد **(أن يكون قد إقترب أجلهم)** فيتوبوا ويؤمنوا لكي لا يموتوا على المعصية أو الكفر **(فبأيّ)** أي فبعد وجود هذه الأدلّة على رسالة محمّد وعلى وحدانية الله تعالى بأي **(حديث بعده)** بعد القرآن وما يدعو إليه **(يؤمنون)** فإذا لم يؤمنوا بهذا فلا يؤمنون بشيء لأنّ هذا قد اتّضح وضوح الشّمس في رابعة النّهار، وهذا زجر لهم، لأنّ من لا يؤمن بما اتّضح يلتحق بالبهائم والأنعام بل هو أضلّ.

ثمّ أعلن الله تعالى لرسوله أن ييأس من إيمانهم فقال جلّ وعلا:

﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

(من يضلل الله) إيّاه لخبث نيّته وسوء طويّته **(فلا هادي له)** يهديه **(ويذرهم)** الله أي يتركهم **(في طغيانهم)** متعلّق بقوله **(يعمهون)** أي يعمهون في طغيانهم، ومعنى يعمهون: يتيهون ويتحيّرون.

ثمّ إنّ كفّار مكّة كانوا يحرجون الرّسول (ﷺ) بالأسئلة، فكانوا يسألونه عن المغيبات، ويطلبون منه تفجير العيون وسعة الأرزاق إلى غير ذلك، فقال تعالى جلّ وعلا:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

(يسألونك عن السّاعة) أي عن وقت قيام السّاعة وهي القيامة، سميّت ساعة لأنّها ساعة الإحياء، والسّؤال والحساب والثّواب والعقاب وسمّيت **(قيامة)** لأنّ في تلك السّاعة يقوم النّاس من قبورهم أحياء فيقولون لك: **(أيّان)** أي متى يكون **(مرساها)** أي مرسى السّاعة، والمرسى مصدر ميمي من الإرساء، أي الإثبات أي متى يكون إثباتها ووقوعها **(قل)** في جوابهم **(إنّما علمها عند ربّي)** ولم يعط هذا العلم لأحد غيره **(لا يجلّيها)** أي لا يظهرها **(لوقتها)** في وقتها المحدّد **(إلّا هو)** أي الله، فالمعنى: أنّ إيجادها ووقت إيجادها والعلم بذلك الوقت مختص بالله تعالى **(ثقلت)** أي عظمت السّاعة **(في السّموات والأرض)** فإنّ بها فناء كلّ شيء أراده الله وأنّها **(لا تأتيكم إلّا بغتة)** أي فجأة وبدون العلم بمجيئها **(يسألونك)** عن السّاعة **(كأنّك حفيّ)** مكثر السؤال **(عنها)** من الله تعالى وأنّه يعلمك **(قل إنّما علمها عند ربّي)** فلا يعطى هذا العلم لأحد **(ولكنّ أكثر النّاس لايعلمون)** أي لا يؤمنون بأنّ هذا العلم مختص بالله تعالى، أو لا يؤمنون بالآخرة أو لا يعلمون سبب إخفاء وقت السّاعة، وقال تعالى في جواب طلبهم منافع أو إخبارهم ببعض المغيبات **(قل)** إنّي **(لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرّاً إلّا ما شاء الله)** فكيف أستطيع أن أنفعكم أو أخبركم **(ولو كنت أعلم الغيب)** من وقت الخصب أو الرّخاء **(لاستكثرت من الخير)** في يوم الرّخاء ويوم الشّدة والخير المال **(وما مسّني السّوء)** أي الفقر والجوع والضّر وإنّي لم أرسل لأعلّمكم بالمغيبات ولا لأنفعكم أو أضرّكم **(إنّ)** أي ما أنا **(إلّا نذير وبشير لقوم يؤمنون)** فهذه وظيفتي فقط، فاسألوني: ما يجب عليكم؟ وما يحرم؟ وما هو حسن؟ وماهو قبيح في الدّين؟ وإنّه كان نذيراً وبشيراً لكلّ النّاس إلّا أنّه خصّ المؤمنين لأنّهم المنتفعون منه فقط دون غيرهم، ثمّ قال جلّ وعلا:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾

(هو) أي الله **(الّذي خلقكم)** أي خلق كلّ فرد منكم **(من نفس واحدة)** وهو أبوه وكيفيّة خلقه من تلك النّفس أنّه يسر **(وجعل منها)** من جنس **(زوجها ليسكن)** أي ليميل إليها ميل المباشرة، واللّام لام العاقبة، أي وجعل من جنسها زوجها فيميل إليها **(فلمّا تغشاها)** أي جامعها **(حملت)** الزّوج **(حملاً خفيفاً)** أوّل الأمر **(فمرّت)** الزّوج **(به)** بالحمل مدة إلى أن أثقلت وأظهرت الحمل ظهوراً تاماً وتيقّنا الحمل **(دعوا)** الزّوج والزّوجة **(الله ربّهما وقالا يارب لئن آتيتنا)** ولداً **(صالحاً)** صحيح البنية **(لنكوننّ من الشّاكرين)** لك **(فلمّا آتاهما صالحاً جعلا)** الزّوج والزّوجة **(له)** لله تعالى **(شركاء في)** إعطاء **(ما آتاهما)** له من الولد فيسمّونه عبد العزّى أو عبدالمناف أو كما كان في الماضي، وكما نرى اليوم، أو يقولون طلبنا هذا الولد من فلان أو فلان. وهنا لتوضيح المقام نذكر قصة: لقد خطبت يوماً من أيام الجمعة فذكرت أنّ النّاس الّذين يقولون: عليّ أن أذبح للشيخ الفلاني أو للإمام الفلاني أو نذرت أن أذبح له، إن قصد بذلك التّقرّب إلى ذلك الشّيخ أو للإمام فهو شرك، ويحرم الأكل من تلك الذّبيحة، وإن أراد التّقرب إلى الله تعالى وإنّما الثواب يكون لذلك الشّيخ أو الأمام فلا بأس فيه، وقال الشّيخ ابن حجر الهيثمي في فتاويه: ولكنّ مع ذلك يجب أن يمنع العوام من هذه النّذور لأنّهم لا يعرفون هذا التّفصيل بل إنّما يريدون التّعظيم، فبعد أن صلّينا وخرجت من الجامع سمعت أحداً يقول: ماذا قال الشّيخ في الخطبة؟ قالوا له: قال لا تذبح لفلان، وسمّوا إماماً (ﷺ)، فقال بلغته العاميّة: (إذا هو منطيني ولد اشلون ما أذبح له؟ والله أذبح له لو ميت شيخ يقول لا تذبح له) المعنى: إذا أعطاني ولد والله أذبح له ولو مائة شيخ يقول لا تذبح له) وهكذا يشركون **(فتعالى الله)** وتنزّه عن شركه **(عمّا يشركون)** به، وهذا هو معنى الآية، وأمّا ما ذكر في بعض التّفاسير أن المراد بالنّفس الواحدة آدم وبزوجها حوّاء وإنّهما كان لا يعيش لهما الولد، أو يكون ولدهما غير سليم، فجاء الشّيطان وقال لهما: إن سرّكما أن يعيش لكما الولد أو يكون سليماً فسمّوه عبد الحارث، والحارث إسم للشّيطان، فمن أكاذيب الإسرائيليين ومن عاداتهم في الإفتراء على الأنبياء ونسبة المعاصي إليهم، فلا يجوز نقل هذا المعنى إلّا للرد عليه، ويدلّ على بطلان هذا القول قوله تعالى: ﴿**فتعالى عمّا يشركون**﴾ بالجمع وقوله بعد **(أيشركون ما لا يخلق)** فيدلّ على أن ليس المراد آدم وحواء، بل جماعات كثيرة من الوالدين الّذين يشركون كما ذكرنا. وفي بعض التّفاسير أنّ المراد بنفس واحدة قصي، وجعل الله تعالى من جنسها زوجها قريشة، فلمّا أتاها تعالى من الولد أسمياه عبد العزى وعبدالمناف

وعبد قصي وعبدالدّار،وهذا المعنى حسن إلّا أنّه لا يلائم الجمع في قوله: (عمّا يشركون) وفي (أيشركون) كما وأنّ توجيه الخطاب لطائفة قصي خاصة لا وجه له، وهناك كثيرون مِمّنْ ينسبون أولادهم إلى غير الله تعالى بالعبوديّة أو بإعطائهم إيّاهم أولاداً، فالمعنى الأوّل هو الحقّ والسّالم عن كلّ خلل والله تعالى أعلم. ثمّ استفهم الله تعالى إستفهام الإنكار والتّضليل والتّجهيل فقال جلّ وعلا: (**أيشركون**) بالله في العبادة ونسبة الولد إليه (**ما لا يخلقون شيئاً وهم**) الأصنام والأوثان وغيرها من كلّ ما يشرك بالله من الهياكل أو الأشخاص (**وهم يخلقون**) أي مخلوقون لله تعالى، والمخلوق لا يكون خالقاً ولا يستحقّ العبادة، بل هم أضعف من ذلك لأنّهم (**ولا يستطيعون لهم نصراً**) للمشركين أبداً بل (**ولا أنفسهم ينصرون**) إذا تعدّى عليهم أحد، فلو كسر أحد صنماً لا يستطيع المدافعة عن نفسه (**وإن تدعوهم**) الضّمير راجع إلى المشركين، فيكون ملامة لهم وتسلية للرّسول (ﷺ) أي وإن تدعو المشركين (**إلى الهدى**) إلى التّوحيد (**لا يتبعوكم**) إلّا من أراد الله تعالى هدايته (**سواء عليكم أدعوتهم**) أي سواء عليكم دعوتهم وعدم دعوتهم كما قال: (**أم أنتم صامتون**) عن الدّعوة فإنّهم لا يستجيبون، فلا تحزن عليهم، حيث ليس عليك إلّا الدّعوة، وأمّا الهداية فموكّلة إلى اختيارهم، وإلى خلق الله تعالى لهم إياها بعد ميلهم إليها.

ثمّ أراد الله تعالى أن ينبّه المشركين على بطلان آلهتهم، وأنّها لا تكون آلهة، وأنّ يذكر الدّليل على ذلك، فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِۦِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾

(**إنّ الّذين تدعون**) إياهم آلهة (**من دون الله**) تعالى (**عباد**) أذلّاء تحت قدرة الله تعالى ومملوكة له (**أمثالكم**) فكيف تكون آلهة وكيف تعبدونهم؟ والإله يجب أن يكون

عزيزاً لا ذليلاً، قديراً لا عاجزاً، ثمّ بين ذلّهم وعجزهم فقال: (**فادعوهم**) لدفع خير أو جلب نفع أو لنصرٍ لكم (**فليستجيبوا**) إن كانوا آلهة، ولكنّهم لا يستطيعون أن يستجيبوا فليسوا إذاً بآلهة (**إن كنتم صادقين**) في إدعائكم أنّهم آلهة فليستجيبوا، وأسألهم أيّها الموحّد فقل: (**ألهم**) أي لهذه الآلهة (**أرجل يمشون بها**)؟ كلا (**أم لهم أيد يبطشون بها**)؟ كلّا (**أم لهم أعين يبصرون بها**)؟ كلا (**أم لهم آذان يسمعون بها**)؟ كلّا، فإذا كانوا كذلك عديمي الأرجل والأيدي والأعين والآذان، فلا يستطيعون شيئاً ولا ينفعون ولا يضّرون، فكيف تعبدونهم وتستغيثون بهم في جلب الخيرات ودفع المكاره والبليّات؟ (**قل ادعوا شركاءكم**) كلّهم فإنّي كفرت بهم جميعاً فادعوهم (**ثمّ كيدون**) أي كيدوني، حذفت الياء للتّخفيف أي حاولوا أن يضرّوني (**فلا تنظرون**) أصله فلا تنظروني، حذفت الياء للتّخفيف أيضاً أي فلا تمهلوني من هذه المحاولة وإلحاق الأذى بسببهم، فإنّي لا أبالي بهم حيث لا يقدرون أي شيء كان من نفع أو ضرّ (**إنّ وليي**) أي ناصري هو (**الله الّذي نزّل الكتاب**) عليّ فهو ينصرني عليكم حيث (**وهو يتولّى**) أمر الصالحين فينصرهم (**والّذين تدعون**) أنتم إياهم آلهة (**من دون الله**) تعالى (**لا يستطيعون نصركم**) أبداً بل (**ولا أنفسهم ينصرون**) فإنّ بال عليهم الكلاب أو ذرق عليهم الذّباب لا يستطيعون شيئاً (**وإن تدعوهم**) أي الآلهة (**إلى الهدى**) في الدّين أو الدّنيا (**لا يسمعوا**) حيث ليس لهم آذان (**وتراهم ينظرون إليك**) لأنّهم صنعوهم على شكل الإنسان لهم عين ينظرون والحال (**وهم لا يبصرون**) شيئاً لأنّهم جماد وعينهم جماد ولا سمع ولا بصر للجماد كما لا يخفى حتّى على البلهاء والمجانين.

ثمّ إن رسول الله (ﷺ) وصحبه ضاق صدرهم من تمرّد المشركين، فكاد أن يستعملوا الشّدة فهدّأهم الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾

(**خذ العفو**) والمسامحة شيمة لك (**وأمر بالعرف**) أي بما هو معروف وحسن فيشمل كلّ ما يرتضيه الإسلام، وكذلك إشارة إلى أنّ العفو ليس معناه ترك الدّعوة مخافة أن يغيظ النّاس (**وأعرض عن الجاهلين**) ولا تدخل معهم في شدّة الجدال وحدّته (**وإمّا ينزغنك**) أي وإن إستولى عليك (**نزغ**) نخسة (**من الشّيطان**) كالغضب، وأراد أن

يحملك به على المشادّة (**فاستعذ بالله**) من هذا النّزغ ومن الشّيطان من أن ينزغ (**إنّه**) أي الله تعالى (**سميع**) باستعاذتك فيعيذك من وسوسته ونزغه وشرّه (**عليم**) بحالك من الغضب فيهونه إن استعذت به، وهذا إنّما هو في حال دعوته النّاس إلى الإيمان ومع غير المؤمنين فلا، فالمؤمنون يستعمل معهم الشّدة حينما انحرفوا، فإنّ الحدود فرضت للشّدة على المسلمين وزجرهم عن المعاصي، ففرق بين دور الدّعوة وبين دور التّطبيق لما تدعو إليه.

ثمّ ذكر الله تعالى حال المتّقين وغيرهم وموقفهم مع ما يوسوس إليهم الشّيطان مع الشّر؛ فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾

(**إنّ الّذين اتقوا**) الشّرك والمعاصي واجتنبوها (**إذا مسّهم**) أي أصابهم (**طائف**) وسوسة (**من الشّيطان**) ودعوة منه إلى الشّرك أو إلى المعاصي (**تذكّروا**) عظمة الله تعالى وعذابه (**فإذا هم مبصرون**) الحقّ فيتّبعونه والباطل فيتركونه، وذلك فإنّ وسوسة الشّيطان يُعمي البصر والبصيرة، فيجهل المرء قبح العمل، وربّما يستحسنه، فإذا تذكّر الله تعالى وأوامره يرجع إليه البصيرة والبصر، فانصرف عن الباطل ورجع إلى الحقّ (**وإخوانهم**) أي ولكنّ إخوانهم، والضّمير راجع إلى الشّيطان والجمع باعتبار أن الشّيطان إسم جنس لكلّ مفسد وأمر بالفساد؛ فإخوان الشّياطين (**يمدّون**) الشّياطين (**هم**) إخوانهم ويعضّدونهم (**في الغيّ**) أي الضّلال (**ثم لا يقصرون**) عن الشّر وباطل الأعمال، أي لا يرجعون عنها.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّ إخوان الشّياطين لا يرجعون عن الباطل استدلّ على ذلك بحال مشركي مكّة فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

(**وإذا**) إقترح أهل مكّة عليك أن تأتيهم بخارق عادة أو حكم إلّا أنّك (**لم تأتهم بآية**) كما أرادوا (**قالوا لك لولا**) هلا (**اجتبيتها**) أي اختلقتها كذباً كما اختلقت كلّ شيء

تقوله (**قل**) لهم إنّي لا أختلق بل (**أتّبع ما يوحى إليّ من ربّي**) وما طلبتم لم يوح إليّ ولم يفعل الله تعالى لي (**هذا**) أي هذا القرآن (**بصائر**) دلائل تفتح البصيرة لإدراك الحقّ واتّباعه وقد جاءني (**من ربّكم**) لأربّيكم به حسب ما يأمر وينهى (**وهدى**) وإرشاد إلى الخير والحقّ والحسن والرّشد والرّشاد والسّعادة في الدّارين (**ورحمة**) من الله تعالى إلّا أنّه لا يجدي إلا لـ (**لقوم يؤمنون**) لأنّ غيرهم لا يسترشدون به، فلا ينالون خيره ورحمته، فإنّ الماء لا يروي من أبى أن يشربه فيهلك واللّوم عليه لا على الماء ولا على ساقيه، فهذا القرآن كاف لأن يكون آية لكم، فإنْ لم تقنعوا به فلا تقنعون بكلّ الآيات والمعجزات.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّ القرآن بصائر وهدى ورحمة أمر بالإستماع إليه لعلّ المستمع يتبصّر ويهتدى وينال ما فيه من الرّحمة فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾

(**وإذا قرىء القرآن**) من أي قارىء كان (**فاستمعوا له**) إستماع تفكّر وتدبّر (**وأنصتوا**) لكي لا يفوتكم سماع شيء منه (**لعلّكم ترحمون**) أي لكي ترحموا، والمعنى: إنّ باستماع القرآن يترجّى الرّحمة والإهتداء بسببه؛ فإنّ القرآن يؤثر في النّفوس وينفذ فيه، وكم من كافر أسلم بسبب سماع القرآن، وكم من فاسق تاب بسبب ذلك، سئل رجل فاسق: كيف اهتديت وتبت؟ فقال: ذهبت ليلاً إلى بيت لأسرق منه فكنت أغرز الأوتاد في الجدار لأصعد بها إلى سطح البيت فأدخل البيت وآخذ ما شئت، فسمعت قارئاً يقرأ القرآن فأول آية سمعتها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ سورة الحديد الآية/ ١٦. فدخل في قلبي وأثر في نفسي فقلت: بلى، فرميت الأوتاد فتبت، فصار الرّجل من كبار الأولياء (**واذكر ربّك في نفسك**) أي بالقلب دون اللّسان (**تضرّعاً**) أي بتضرّع وتذلّل إلى الله تعالى (**وخفية**) أي ومع خوف منه (**ودون الجهر بالقول**) أي وباللّسان (**بالغدوّ والآصال**) جمع أصل وهو جمع أصيل والأصيل هو بعد العصر، وحينما يميل النّهار إلى الإصفرار (**ولا تكن من الغافلين**) في الأوقات الأخرى كلّها.

فائدة: يَفهم من هذه الآيات أمور:

الأمر الأوّل: إنّ الإستعاذة بالله تعالى وقراءة القرآن والاستماع إليه وذكر الله تعالى يورث البصيرة وفتح القلب وإنشراحه للخير والإبتعاد من الشّر.

الأمر الثّاني: إنّ تلاوة القرآن واستماعه أفضل من سائر الأذكار.

الأمر الثّالث: إنّ الذّكر بالقلب هو أفضل من الذّكر باللّسان.

الأمر الرّابع: إنّ الذّكر جهراً منهي عنه إلّا فيما ورد فيه الجهر.

الأمر الخامس: إنّ الذّكر بدون التّضرع والخوف لا يفيد فائدته المطلوبة منه.

الأمر السّادس: إن الغدوّ والآصال أفضل الأوقات، وإنّ الغفلة حرام في كلّ وقت مخافة أن تموت ساعة الغفلة أو تبتلى بمعصية بسببها. اللّهم لا تجعلنا من الغافلين آمين.

* * *

تنبيه: إنّ هذه الأوامر الواردة في هذه الآيات من الأمر بالعرف والإعراض عن الجاهلين والإستعاذة من الشّيطان واستماع القرآن والإنصات عند تلاوته وذكر الله تعالى وعدم الغفلة وإن كانت موجهة إلى الرّسول (ﷺ) إلّا أنّ المراد بها الأمّة وهو خوطب بها ليبلّغهم فإنّ الرّسول (ﷺ) كان معصوماً ومتمسّكاً بمضمون تلك الأوامر فطلبها منه تحصيل للحاصل والله تعالى أعلم.

* * *

ثمّ أراد الله تعالى أن ينبّه النّاس على أنّه مستغن عن عبادتهم وذكرهم وتسبيحهم، وإنّما يأمرهم بذلك لمصلحتهم، ولينالوا الثّواب ويبتعدوا عن العقاب، لأنّ الملأ الأعلى يعبده ويسبحه ويسجد له مع التّعريض بأنّه لا يليق بالإنسان أن يستكبر عن عبادة الله تعالى، فإنّ الملأ الأعلى لا يستكبرون عن ذلك فليكونوا مثلهم فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾

(إنّ الّذين عند ربّك) كما يليق به من العندية **(لا يستكبرون عن عبادته)** أي طاعته **(ويسبّحونه)** وينزّهونه عن كلّ ما لا يليق به من الشّريك والولد والصّاحبة والبنات **(وله يسجدون)** سجود العبادة والتّذلّل وسجود الإنقياد والإطاعة والتّسليم، فكونوا يا بني آدم

مثلهم لتحظوا بعندية الله وقربه، فالسّجود سبب التّقرب إلى الله تعالى، قال تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ سورة العلق الآية/١٩.

تنبيه: هذه آية السجدة وليسجد المسلم عند قراءتها أو سماعها من القاريء لها بدليل ما يلي: عن مسلم والبخاري عن عبدالله بن عمر (رضي الله عنهما) أنّ النّبيّ (ﷺ) كان يقرأ القرآن فيقرأ سورة فيها سجدة فيسجد ونسجد معه، حتّى ما يجد بعضنا موضعاً لمكان جبهته في غير وقت الصّلاة[1]. وفي مسلم عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال: رسول الله (ﷺ): إذا قرأ ابن آدم السّجدة فسجد اعتزل الشّيطان يبكي يقول: يا ويلتا أمر ابن آدم بالسّجود فسجد فله الجنّة وأمرت بالسّجود فأبيت فلي النّار)[2]. عن مسلم أيضاً عن ثوبان مولى رسول الله (ﷺ) قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: عليك بكثرة السّجود لله، فإنّك لا تسجد لله سجدة إلّا رفعك الله بها درجة وحطّ عنك بها خطيئة)[3].

* * *

خاتمة: في حكم سجود التّلاوة ومواضعها وشروطها:

١. **حكمها**: فعند الجمهور: أنّها سنة للقاريء والمستمع، وعند أبي حنيفة أنّها واجبة فيأثم تاركها، وأمّا السامع فلا سجود عليه إلّا عند الأحناف.

٢. **مواضعها وعددها:**

أولاً: عند الشّافعية هي أربع عشرة سجدة:

١. في آخر سورة الأعراف عند قوله تعالى: ﴿ويسبّحونه وله يسجدون﴾.

٢. في سورة الرعد الآية (١٥) عند قوله تعالى: ﴿بالغدوّ والآصال﴾.

٣. في سورة النحل الآية (٥٠) عند قوله تعالى: ﴿ويفعلون ما يأمرون﴾.

٤. في سورة الإسراء الآية (١٠٩) عند قوله تعالى: ﴿ويزيدهم خشوعاً﴾.

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٦٥ الحديث رقم ١٠٢٦، صحيح مسلم ١/ ٤٠٥ الحديث رقم ٥٧٥.واللفظ لمسلم.

(٢) صحيح مسلم ١/ ٨٧ الحديث رقم ٨١.

(٣) صحيح مسلم ١/ ٣٥٣ الحديث رقم ٤٨٨.

٥. في سورة مريم الآية (٥٨) عند قوله تعالى: ﴿خرّوا سجّداً وبكيّا﴾.

٦،٧. سجدتان في سورة الحج الآية (١٨) والآية (٧٧) إحداهما عند قوله تعالى: ﴿إنّ الله يفعل ما يشاء﴾ والأخرى عند قوله تعالى: ﴿وافعلوا الخير لعلكم تفلحون﴾. ٨. في سورة الفرقان الآية (٦٠) عند قوله تعالى: ﴿وزادهم نفوراً﴾.

٩. في سورة النمل الآية (٦٢) عند قوله تعالى: ﴿ربّ العرش العظيم﴾.

١٠. في سورة التنزيل الآية (١٥) عند قوله تعالى: ﴿وهم لا يستكبرون﴾.

١١. في سورة السجدة الآية (٣٨) عند قوله تعالى: ﴿وهم لا يسأمون﴾.

١٢. في آخر سورة النّجم الآية (٦٢) عند قوله تعالى: ﴿فاسجدوا لله واعبدوا﴾.

١٣. في سورة الإنشقاق الآية (٢١) عند قوله تعالى: ﴿وإذا قرىء القرآن لا يسجدون﴾.

١٤. في آخر سورة العلق (إقرأ) الآية (١٩) عند قوله تعالى: ﴿واسجد واقترب﴾. وأمّا سجدة سورة (ص) فهي سجدة شكر، فلا يسجد لها في الصّلاة لأنّ سجدة الشّكر في الصّلاة مبطلة لها، إلّا هذه السّجدة فإنّها لكونها في التّلاوة لا تبطل، وفي قول تبطل، وهي عند قوله تعالى ﴿وخَرَّ راكعاً وأناب﴾.

ثانياً: عند أبي حنيفة أربع عشرة أيضاً إلّا أنّه أسقط الثّانية من الحجّ وأثبت ما في (ص).

ثالثاً: عند مالك روايتان إحداهما مثل الشّافعي والأخرى وهي الأشهر أنّها إحدى عشرة حيث أسقط سجدة النّجم والإنشقاق وإقرأ.

رابعاً: عند أحمد روايتان إحداهما: أربع عشرة كالشّافعيّة، والثّانية: خمس عشرة حيث أثبت ما في سورة (ص).

ولكلّ الآراء أعلاه دليله وحجته وموافق له من الصّحابة أو التّابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وعلينا آمين.

٣- **شروطها**: كشروط الصّلاة من الطّهارة عن الحدثين وعن النّجاسة وستر العورة وإستقبال القبلة.

٤- **كيفيّتها**: إن كان القارئ أو المستمع في الصّلاة ومنفرداً سجد بتكبير ورفع منها بتكبير ولا يرفع يديه، فإنّ كان في آخر القراءة فالمستحبّ أن يسجد ثمّ يقوم فيقرأ بعدها شيئاً آخر ثمّ يركع، فإن قام ولم يقرأ شيئاً وركع جاز، وإن قام من سجود التّلاوة إلى الرّكوع ولم يقم لم يجز لأنّ الرّكوع يجب أن يكون من قيام، هذا ما عند الشّافعية، وعند أبي حنيفة إذا كانت آية السّجدة في آخر القراءة فركع للصّلاة وسجد سقط عنه سجود التّلاوة. وإن السّقوط هل بالركوع أو بسجود الصّلاة بعد الرّكوع روايتان عنه، وفائدة إختلاف الرّوايتين أنّه إذا ركع ثمّ بطلت صلاته سقط عنه سجدة التّلاوة على القول بالرّكوع، وإن كان السّقوط بالسّجود لم يسقط، وعند أحمد إن شاء ركع وإن شاء سجد ثمّ قام فركع، وإن كان في غير الصّلاة يدفع يديه ويكبّر، ويرفع يديه عند الشّافعي وأحمد. ويقرأ في سجود التّلاوة ما يلي: (سجد وجهي للّذي خلقه وشقّ سمعه وبصره بحوله وقوّته) وإن قرأ: (سبحان ربّي الأعلى) وحده جاز منه أيضاً أو معه. وهل يسلّم أو لا؟ في قول للشّافعي يسلّم في غير الصّلاة، وأمّا في الصّلاة فلا، وفي قول لا سلام في سجدة القراءة، وكذا هل يتشهد أم لا؟ فيه القولان أيضاً.

❊ ❊ ❊

تنبيه: لا يسجد المصلّي جماعة إلّا لقراءة إمامه، فإن قرأ الإمام وسجد سجد معه وإلّا فلا، وعند الأحناف يسجد بعد الصّلاة.

❊ ❊ ❊

هذا ما وفقني الله تعالى إليه من تفسير هذه السّورة الشّريفة فالحمد لله على الإتمام وعلى نبيّه الصّلاة والسّلام وعلى آله ومن اتّبعه إلى يوم القيامة، ونرجو من الله تعالى حسن الختام. وصلّى الله وسلم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعه إلى يوم الدّين.